

النفيس

في

معاني الأسماء وبيان الأعلام

بتفسير القرآن

للدكتور

محمد محمود سعيد



الناشر دار الغد العربي

النفيس

في معانى الأسماء ـ وبيان الأعلام

وتفسير القرآن

قام عليه وأعدَّه

خادم الكتاب إن شاء الله

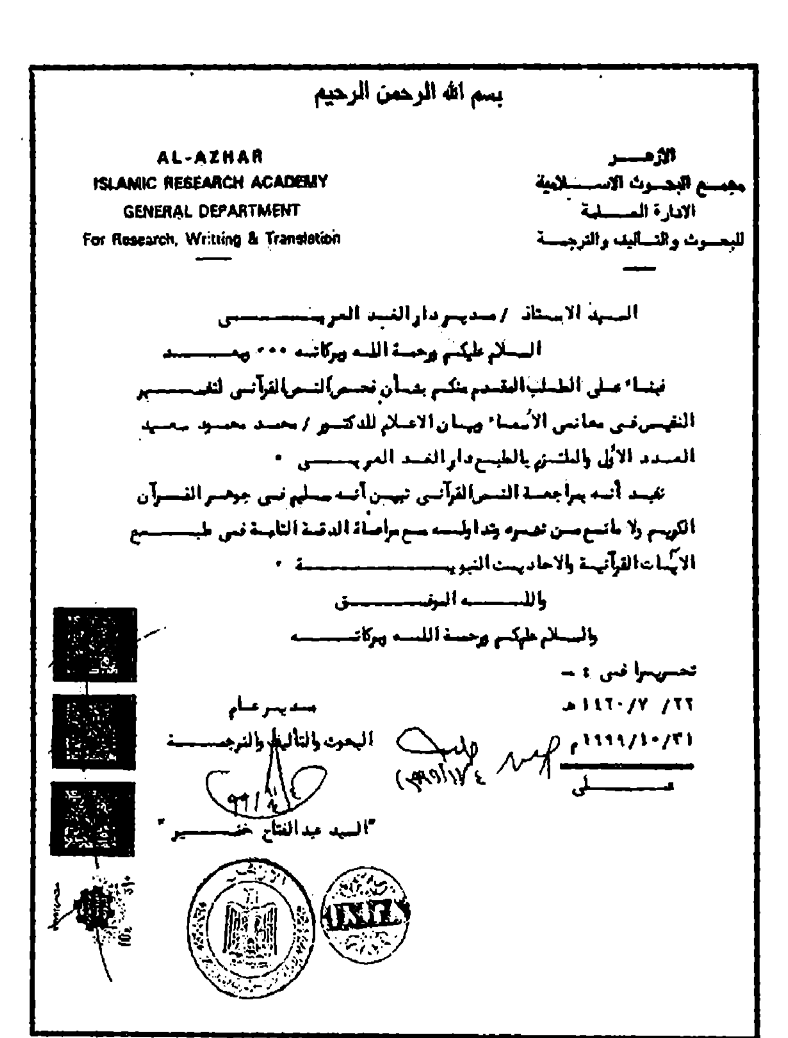
الدكتور/ محمد محمود سعيد

الناشر

دار الغد العربى

٣ ش دانش ـ العباسية ـ القاهرة

ت: ٢٨٥٦١٢٢ ـ ٢٨٤٣١١٥ ـ ٤٨٢٤٣٢٩



بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر
مجمع البحوث الإسلامية
الإدارة العامة
للبحوث والتأليف والترجمة

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writing & Translation

السيد الأستاذ / مدير دار الغد العربي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... وبعد

بناء على الطلب المقدم منكم بشأن فحص النص القرآني لتفسير النفيس في معاني الأسماء وبيان الأعلام للدكتور / محمد محمود سعيد العدد الأول والملتزم بالطبع دار الغد العربي .

نفيد أنه بمراجعة النص القرآني تبين أنه سليم في جوهر القرآن الكريم ولا مانع من نشره وتداوله مع مراعاة الدقة التامة في طبع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

والله الموفق

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تحريرا في : -
٢٢/ ٧/ ١٤٢٠ هـ
٣١/١٠/١٩٩٩م

مدير عام
البحوث والتأليف والترجمة
"السيد عبد الفتاح خضير"

شعبان ١٤٢٠ / نوفمبر ١٩٩٩ م

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية

١٦٧٠١/ ٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تابع تفسير سورة النســاء

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا
وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ
وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ
وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾

التفســـــير:

بعد حديثه تعالى عن الذين أوتوا الكتاب الذين يشترون الضلالة بالهدى ويريدون للمؤمنين الضلالة، وإشارته إلى عداوتهم المؤمنين وإلى كفايته تعالى المؤمنين أذاهم، فإنه تعالى خصَّ فى الآية اليهود من بين أهل الكتاب بالنص، ثم خصَّ منهم بعضهم فى بيان فعالهم التى هى من نتاج كفرهم الذى استحقوا به لعنته تعالى .

فقوله تعالى «من الذين هادوا» هو بيان لفئة من المعنيين بقوله تعالى فى الآية ٤٤ «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب»، وهم بعض اليهود «من الذين هادوا» ونعلهم المذكور فى

النص هـو تحريف الكلـم عن مـواضعه، والمراد بـالكلم هو كـلام رسول الله ﷺ، وهـو كلام التوراة الـذى ورد فى التبشيـر به ﷺ وفـى ذكر صفاتـه، والتحريـف عن المـواضع هـو صرف المعنى عما أنزل فيـه أو عما يعنيه، وهو ما يكون بتـأويله على نحو فاسد، وقـد سبق بيان مثل هذا التأويل الفـاسد للنصوص الموجودة فى التـوراة التى بين أيدينا اليوم التـى تخبر عن أكل النار المنزلة من السمـاء الأضحية المقدمة كدليل على قبولها، فكـان منهم طلب تقديمه ﷺ أضحية تأكلها النار دليلا علـى نبوته بدعوى أنها علامة النبوة فى التـوراة، مع إنكارهم ما جاء فى التوراة من طلب موسى عليه السلام منهم أن يـؤمنوا للرسـول الذى يبعث من إخوتهـم ـ أبناء إسماعيل ــ ومن التأويل الفاسد أيضا صرف كلام رسول الله ﷺ عـن معانيه إلى معان أخرى لم يتعلق بها ولا يدل عليها.

ويذكر تعالى بعـض فعال هذه الفئة من اليهود التى تجد مصدرها فـى عداوتهم المؤمنين بقوله تعالى «ويقولون سمعنا وعصينا واسمـع غير مسمع وراعنا». فيكون منهم النفاق بقولهم فى حضـرته ﷺ «سمعنا» ــ أى سمعنا قولـك وفهمناه ـ وقـولهم بعضهم لبعـض «وعصينا»، ويكون منهم العناد والإصرار علـى الكفر بقولهم له ﷺ «سمعنا قولك وعصينـاه»، كما يقولون له ﷺ «واسمع غير مسمع وراعنا»، فيحدثونه ﷺ بحديث ذى معنيين :

أحدهما : ظاهر ليفهمه ﷺ.

والآخر: مبطن يتندرون به فيما بينهم، ذلك أن المعنى الظـاهر لـ «غير مسمع» هو اسمع منا كلاما، غير مسمعٍ مكـروها يؤذيك، والمعنى المبطـن له هو «اسمـع، لا أسمعك الله» فهو دعاء عليه ﷺ بـالشر. كما يقولـون له ﷺ «وراعنا»، ومعنـاه الظاهر هـو «وأمهلنا وانظر إلينا مـراعيا أحوالنـا» والمعنى المبطـن له هو وصـف بالـرعونة، ومعنـاه فى العبـرية والسريـانية وهـو من السـب.

ثم يبيِّـن سبحانـه وتعالـى وسيلتهم فى تحـريف الكـلام عن مواضعـه بقولـه تعالـى «ليا

بألسنتهـم وطعنا في الـدين» فهم يلـوون ألسنتهم عنـد النطق بالألفـاظ ليكون لها ــ بحسب نطقها ــ معنـى خلاف معناها، وهذا لـيٌّ للألسنة عن الحق وميـل بها إلى ما في نفـوسهم من كراهة الدين الحـق ورسوله ﷺ والمؤمنين. فيكون فعلهم ما يفعلون طعنـا في الدين، أو أنهم يفعلون ما يفعلـون طاعنين على دين الله، مستهزئيـن بالدين، ساخريـن من رسول الله ﷺ، إذ كانوا يقـولون «لو كان نبيًّـا لعلم أننا نسبه ونهـزأ به» فجاءقولـه تعالى مخبرا عـن فعلهم وعما انطوت عليه قلوبهم فكان ذلك دليلا على نبوته وعلامة، وفضحا لهم .

وبعد ذلك يبين تعالى ما كان متوجبا على هذه الفئة من اليهود عمله، وعقباه فيما لو كانوا قد عملوه، وكيف كان منهم الانصراف عن عمله، فيقـول تعالى «ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيـرا لهم وأقوم». فالقول في بيان ما كان متوجبـا عليهم عمله وفي بيان نتيجته فيما لو كـانوا قد عملوه. جاءت «لو» أداة شـرط في الجملة الشرطية ـ وهـي للامتناع ـ لبيان عدم حصول فعـل الشرط. وفعل الشرط هو قولهم ــ عند سماع قوله تعالـى وقول رسوله ﷺ بالدعـوة للإيمان والأمر بمـا أُمر به والنهى عمـا نُهي عنه «سمعنا وأطعنـا» بمعنى: سمعنا القول وأطعناه، بـدلا من قولهم: سمعنا وعصينا، يقـولون سمعنا وأطعنا باللســان وبالقلب أو بالقلب. وهو أيضا قولهم «واسمع وانظرنا» بـدلا من قولهم «اسمع غيرمسمع وراعنا»، ومعنى «واسمع وانظـرنا» هو: واسمع حـديثنا وانظر إلينا نظـرة عطف». وجواب الشرط فـي الجملة، وهو النتيجة التي كـانت تترتب على قولهم «سمعنـا وأطعنا واسمع وانظرنا» هو مـا جاء بقوله تعالى «لكان خيرا لهم وأقوم» أي أنه كان من شأن قولهم هذا أن يوردهم حالا ومآلا أفضل من حالهم ومن مآلهم، ولكانت عقيدتهم أعـدل وأصوب مما هي عليه، إذ أن بها ما هو صـــواب ـ وإن كان لا يغني ـ وهو ما تعلق بالإيمان بوجود الله خالق السماوات والأرض وما فيهن .

ثم يبين سبحـانه وتعالى ـ فـي ختام الآية ـ علة عدم قـولهم ما فيه خيرهـم، ونتيجة عدم قولهم إيَّاه بقـوله تعالى «ولكن لعنهم الله بكفـرهم فلا يؤمنون إلا قليلا». ومعنـاه أنهم اختاروا

الكفر من البدء، علم الله أنهم يختارونه ويصرون عليه من الأزل، فكتب عليهم اللعنة وطردهم من رحمته تعـالى، فكان منهم عـدم الإيمان لرسول الله ﷺ، إلا قليليـن منهم خرجوا علـى ما عليه أكثرهم علم بهم سبحانه وتعالى فـاستثناهم من اللعنة فلم تشملهم فكان منهم الإيمان وقولهـم سمعنا وأطعنا واسمـع وانظرنا، وهـم الذيـن أسلموا من اليهـود، وبقى أكثرهـم على كفرهم ليـس لهم من الإيمان إلا إيمانهـم بوجود خالـق الكون، وهو إيمان ناقـص لا يقى من النار ولا يورد الجنة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

التفســـــير:

الخطـاب فى الآيـة موجـه إلى أهـل الكتاب وصفـوا بـأنهم الـذين أوتـوه ليكون معهـم، والخطاب أمر لهم أن يؤمنـوا، ومعناه أنهم ليسوا مؤمنين إيمانا صحيحـا. والإيمان الذى أمروا به هـو الإيمان لرسـول الله ﷺ ، والمعنى أنهم أمـروا أن يسلموا فيكـون منهم الإيمان بـالقرآن العظيم كتابا منزلا من لدنه تعالى. فهو المراد بقوله تعالى «بما نزلنا».

وصف بأنـه كتاب أنزله الله مصـدقا التوراة التى معهم ــ والمراد هو التوراة غيـر المحرفة ـ صدق بها القرآن العظيم ونزل تصديقا لها بمعنى أنه نزل على رسول الله ذكرت التوراة أنه ينزل عليه وحى ربّه فينقله للناس شفـاهة ـ على ما سبق بيانه ـ فيكون بـذلك مصدقا لها. ونرى أن القول يشمـل فيمن خوطبوا بـالأمر النصارى لمـا فى الإنجيل مـن تبشير برسول الله ﷺ يـأتى بكتاب من الله من بعد المسيح عليه السلام على ما سبق بيانه، فكان القرآن مصدقا بالإنجيل

لذكـره أنه كتاب الله أنزل علـى المسيح عليه السلام، ولنـزوله على رسول الله ﷺ علـى النحو الذى وصف به فى الإنجيل، فكان بذلك مصدقا له.

وبعد ذلـك يبين حثُّـه تعالـى أهل الكتاب علـى الإيمان إيمـانا صحيحـا كامـلا، وعلى الإسراع فى ذلك بقـوله تعالى «من قبل أن نطمـس وجوها فنردها على أدبـارها أونلعنهم كما لعنا أصحاب السبت» والقـول يتضمن وعيدا لأهل الكتاب إذا لـم يؤمنـوا ويسلموا. تهددهم قوله تعالى بأنـه إن لـم يؤمنوا فإنه يطمس وجوههم، أى أنه تعالى يمحـو معالمها الظاهرة فلا يكون فيهـا عيون ولا أنف لتصبح مثـل القفا، واختلف فيمـا إذا كان هذا الطمس يحـدث فى الدنيا أم فى الآخرة، وقد يكون المراد به أنه يقـع فى الآخرة، أو أنه لما كان بعض أهل الكتاب قد آمنوا وأسلموا فإنه تعالى لـم يوقع هذا العذاب بالآخرين. وتهدَّدهم قوله تعالى بأنهم إن لم يؤمنـوا فإنه يلعنهم كمـا لعن من قبل أصحـاب السبت، وهـم الذيـن خالفوا أمره بعـدم صيد السمك يوم السبت فمسخهم قردة وخنازير.

والرأى لـدينا أن المراد بالطمـس على الوجوه أنـه يكون فى الآخـرة استدلالا بقوله تعـالى «اليوم نختم على أفـواههم». أو أن المعنى المراد بعبارة النص يفيد احتمـال إيقاع المهدد به أو عدم إيقاعه وفقا لإرادته تعالى على ما يبين من قوله تعالى «لو نشاء لطمسنا على أعينهم».

ويكمل التهـديد بإيقاع الأذى بـالكافرين الـذين لم يـؤمنوا بعد ذكر مـاهيته بقوله تعـالى «وكان أمر الله مفعولا» ومعناه أنه متى أمر الله بشىء مـا ـ ومنه طمس الوجوه، ومنه المسخ، فإن ما أمر به ينفذ بمجرد الأمر أو مجرد إرادته .

وقد قيل إن الآية نزلت فى بعض أحبار اليهود منهـم عبد الله بن صوريا وكعب بن أسد قال لهم رسـول الله ﷺ «اتقوا الله وأسلموا فـوالله إنكم لتعلمون أن الذى جئتكـم به الحق» فقـالوا «مـــا نعـرف ذلك يـا محمد» فنـزلت الآيـة ولا يمنع ذلـك أن يكون الخطـاب موجهـا لهم ولغيرهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

التفســـــير:

الآية في التفرقة بين الشرك بالله وبين غيره من الآثام والذنوب بما في ذلك الكبائر، والمراد بالشرك بالله هو الاعتقاد بأن لله تعالى شريكا في الألوهية أو الربوبية، ويدخل فيه الكفر عموما. كما يدخل فيه اعتقاد أهل الكتاب بربوبية رسول أو ببنوة نبي له تعالى. ذلك أنه تعالى قد سبق منه القول بخلود المشركين والكافرين في النار فكان منه عدم غفران ذنب هؤلاء، ومعلوم أن الشرك ينقضي بالتوبة وقبولها؛ فيكون المراد بالشرك الذي لا يغفر هو الشرك الذي لا تكون منه توبة على الإطلاق، والذي تكون منه توبة غير مقبولة لوقوعها عند الغرغرة أو عند معاينة الموت.

ويبين من النص أنه تعالى يغفر ما دون الشرك به لمن يشاء. ومن النص يبين أن أعلى درجات الكفر وأشد الذنوب والآثام هو الشرك بالله، وأن غيره مهما عظم يكون أدنى منه درجة، كما يبين منه ـ على الظاهر ـ أنه قد يغفر لمرتكب الذنوب الأخرى ذنوبه إذا أراد ذلك ولو لم تكن من المذنب توبة، وقد يعني القول أنه إذا أراد لمرتكب الذنب الكبير أو لمرتكب الكبيرة أن يغفر له ذنبه، أنه تعالى يوفقه للتوبة ويمكنه منها ويقبلها ويغفر له ذنبه.

وتختتم الآية بذكر علة اختصاص الشرك بالله بعدم المغفرة بقوله تعالى «ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما» جاء في القول ذكر لفظ الجلالة لبيان عظم قبح الشرك، ثم جاء وصف الشرك بأنه «إثم عظيم» لبيان أن جميع الآثام تقصر دون بلوغ مرحلته في القبح، ففيه كذب، وفيه اختلاق، وفيه إفساد على ما يبين من وصفه بالافتراء على الله، وهو ما استوجب به ألا تكون فيه مغفرة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

أولا : الأســـماء :

الفتيل : فى قوله تعالى «ولا يظلمون فتيلا» هو الخيط الذى فى شق نـواة البلح، يضرب به المثل فى ضآلة الشأن.

ثانيا : التفســـير:

قيل إن الآية نزلت فى رجال من اليهود قالـوا إن ما يكون منهم من ذنب فى النهار يُغفر لهم فى الليل، وما يكـون منهم من ذنب فى الليل يغفـر لهم فى النهار، وقيل إنها نـزلت فى اليهود والنصارى لقـولهم «نحـن أبناء الله وأحباؤه» وقـولهم «لـن يدخل الجنـة إلا من كـان هودا أو نصارى». والمعنـى يقبل أن يكـون لهم ولغيرهـم ممَّن يـزكون أنفسهم بـالثناء علـى أنفسهم والتحدث بالنعم المنعم بها عليهم بزعم تفضيل الله إياهم على غيرهم.

فقوله تعالى «ألم تـر إلى الذين يزكون أنفسهم» هو تعجيب من أمـــر المزكين أنفســـهم، فمعناه هـو «انظر إلـى هؤلاء وتعجـب من قـولهم إنهـم أزكياء عنــــد الله مع أنهـم يعلمون أنهـــم كافرون آثمون». والذين أُمـر رسول الله ﷺ أن ينظر إليهم ويتعجب هم الذين قالوا إن الله يغفـر لهم ذنـوب الليل فى النهار وذنوب النهار فـى الليل، وهـم الذين قالـوا نحن أبناء الله وأحباؤه .

وقوله تعالى «بل الله يزكى من يشاء» يفيد كذب دعواهم أنهم أزكياء عنده تعالى، ويفيد أن أمر التزكية لـه وحده، فهو إثبات لكونها له وحـده. كما يفيد أنها تكون لمن يشـاء، وهو تعالى إنما يشـاؤها لعباده المؤمنيـن ينزههم عن القبيـح من الفعل والقـول فيكونون مقبوليـن عنده أزكياء أطهارا .

وتختتم الآية بما يفيد معاقبة الذين زكوا أنفسهم بما قالوا دون ظلم لهـــم بعقابهـــم «ولا يظلمون فتيلا» فيكون المعنى أنهـم يعاقبون بزعمهم أنهم أزكياء عنده تعـالى وبكذبهـم عليه تعالى ، ولا يكون فى تعذيبهم بقولهم هذا وكذبهم وافترائهم على الله أى ظلم لهم .

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٠﴾

التفســـير:

قوله تعـالى ـ فى الآيـة ـ خطاب لرسـول الله ﷺ يأمره بالنظـر فى كيفية ادعائهـم تزكية الله إياهم، لإظهار شناعة قـولهم وتأكيدا للتعجب منه ومن الإقدام عليه. وصفه تعـالى بأنه كذب فى مضمونه وافتراء عليه تعالى بنسبة أمر إليه لـم يقع منه . ثم بيَّن سبحانه وتعالى أن إقدامهم على هـذا يعتبر ـ فى حد ذاتـه ـ إثما عظيمـا يستوجـب تعذيبهم بـه العذاب العظيـم الذى يتناسب مع شناعته.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۝٥١﴾

أولا : الأســـماء :

١ ـ **الجبت** : قيل إنه كان اسم صنم، استعمل فى كل ما يُعبد من دون الله تعالى، وقيل هو الساحر فى لغة أهل الحبشة، وقيل هو السـحر.

٢ ـ **الطاغـــوت** : قيل هو الشيطان، وقيل هو الكاهن، وقيل هو كل باطل .

ثانيا : التفســـــير :

الآية الشـريفة فـى بيان أفعال أخـرى من الأفعـال القبيحة التى تصـدر من أهـل الكتاب مظهرة عداءهم لرسول الله ﷺ وللدين، وجه رسـول الله إلى ملاحظتها والتعجب من صدورها من أهل الكتاب الذين يفترض فيهم ألا تصدر عنهم أمثالها .

بيان ذلك أنـه بعد معركة أحد تـوجه قوم من اليهود الـذين كانوا قد عـاهدوا رسول الله ﷺ إلى مكة ليحالفـوا أبا سفيان وكفار مكة على رسول الله ﷺ والمسلمين، فقـال لهم أبو سفيان «إنكم أهل كتاب، ومحمد صاحب كتاب، وأنه قد يكون الأمر منكم مكرا مكرتموه، ثم طلب منهم تدليـلا على صدقهم إيـاه القول أن يسجدوا لصنمين ففعلـوا. ثم إنه سألهـم رأيهم فيه وأتباعـه وفى رسـول الله ﷺ وأتباعه المسلميـن، أى الفريقيـن على الهدى، فقـال إنه وقـومه ينحرون للحجيج ويسقونهـم، ويقرون الضيف ويصلون الرحم ويعمرون البيـت ويطوفون به، وإن محمدا ﷺ فارق دين آبائه وقطـع الرحم. فأجابه اليهود بأنه وقومـه أهدى سبيلا مما عليه محمد ﷺ وأتباعه. فنزلت الآية فى شأن هذا الحدث.

فيكون الذين آمنـوا بالجبت والطاغوت من الذيـن أوتوا نصيبا من الكتاب فى قـوله تعالى «ألم ترإلـى الذين أوتوا نصيبا مـن الكتاب يؤمنون بـالجبت والطاغوت» هم هـؤلاء القوم من اليهود الذيـن قبلوا أن يسجدوا لصنمين ــ وهم أهل كتاب ــ ليثبتوا لأبى سفيان أنهـم ما أتوه مخادعين، ويكون الذين كفـروا فى قوله تعالى «ويقولون للذين كفـروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيـلا» هم كفـار مكة، ويكـون المراد بـ «الـذين آمنـوا» هم المـؤمنون بـرسول الله ﷺ، والقائلون هم نفس القـوم من اليهود قالوا لأبى سفيان ـ لما طلب منهـم رأيهم فيمن هو على الطريق القويـم من بينـه وأتباعه وبين رسول الله ﷺ والمؤمنين ـ قالوا له إنـه وأتباعه الذين هم على الطريق الصحيح .

■■■■■

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ (٥٢)

التفســـير:

قوله تعالـى فى هذه الفئة من اليهود الذيـن ذهبوا إلى كفار مكة ليحالفوهـم وليناصروهم، فكان منهم السجـود للأصنام والزعـم بأن كفار مكة أهدى مـن المؤمنين سبيلا. بيـن سبحانه وتعالى ـ فى الآية ـ مصيرهـم، فذكر أنهم لبعـدهم فى الضلال طردوا مـن رحمته واستحقوا لعنته، وأنهم بلعنتـه هذه لن يجدوا نصيـرا لهم فى الدنيـا والآخرة. والقول بهذا المعنـى يفيد فساد مسعاهم الاستنصار بمشركى مكة، ويبين أنه تعالى ناصر المسلمين عليهم، وهو ما كان وتحقق .

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ (٥٣)

أولا : الأســـماء :

١ ـ النقيـــر : فى قوله تعالى «لا يؤتون النـاس نقيرا». هو النقطة الصغيرة التى تبدو كنقرة الطائر فى ظهر نواة البلحة، يُضرب به المثال فى الحقارة والصغر وقلة الشأن .

التفســـير:

الآية فى شأن اليهود الـذين كان منهم عداؤهم للدين ولـرسول الله ﷺ لزعمهم أن الملك يعود إليهم آخـر الزمان حين ينـزل إليهم مسيح الرب ليكون لهـم ملكا يحاربون تحـت قيادته فتعود لهـم مملكتهم ويحكمـون العالـم ـ علـى ما يعتقـدون ـ والـذين يـرون أنهم وحـدهم المختصون بالنبـوة تكون فيهم دون غيرهـم. جـاء قوله تعالـى نافيا اعتقاداتهم البـاطلة، ومبينا أنهم ـ بما جبلوا عليه ـ لو كانوا قد أوتوا شيئا من الملك لما كان منهم شىء مما يتوجب على

صاحب الملك .

فقوله تعالى «أم لهم نصيب من الملك» هو إنكار لزعمهم أن الملك يكون لهم فى آخر الزمان جاء فى صيغة استفهام، يستوى فى هذا أن يكون المراد بالملك ملك أقطار العالم، فلا يكون لهم، وأن يكون هو ملك النبوة التى انتزعت منهم فكانت فى أبناء إسماعيل عليه السلام .

وبعد ذلك يبين تعالى عدم جدارتهم بالملك يؤتونه وعدم جدارتهم بالنبوة تبقى فيهم لكونهم غير أهل لذلك، فقال تعالى «فإذا لا يؤتون الناس نقيرا» جاءت فيه «الفاء» فى «فإذًا» للسببية وللجزائية لشرط محذوف هو «إن حصل لهم نصيب فى الملك» ليكون المعنى أنهم لو كانوا قد أوتوا نصيبا من الملك لامتنعوا عن إعطاء الناس منه شيئا، كما كان منهم عندما كان فيهم الأنبياء من تكذيبهم فريقا وقتلهم فريقا .

أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾

التفسير:

الآية الشريفة فى بيان صفة مرذولة أخرى من صفات اليهود ـ من بعد ذكره تعالى صفة البخل التى جبلوا عليها ـ جاء ذكرها فى صيغة سؤال للاستنكار والتوبيخ، وهى صفة الحسد.

فقوله تعالى «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله» هو تقرير لأنهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، والمراد بالناس هو رسول الله ﷺ، كان تفضل الله عليه باصطفائه رسولا نبيا، وكان من فضل الله عليه الذى حسدوه عليه جمعه ﷺ بين تسع من

النساء، وهم العرب من أبناء إسماعيل عليه السلام جعل فيهم النبوة ببعثه رسول الله ﷺ منهم نبيا، وأنزل القرآن العظيم بلغتهم من فضله تعالى عليهم، فحسدهم اليهود على ذلك .

ثم يذكر تعالى لليهود الحاسدين انتفاء السبب الذى يسيغ لهم الحسد، ويبين لهم انتفاء أثره بقوله تعالى «فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما».

والقول فيه بيان لما تفضل به تعالى على آل إبراهيم ومنهم بنو إسرائيل اليهود، ومنه الكتاب، إذ أنزل تعالى على موسى عليه السلام التوراة وعلى المسيح عيسى ابن مريم الإنجيل ـ وهما من آل إبراهيم لكونهما من نسله، وكذلك فإنه تعالى أنزل القرآن العظيم على محمد ﷺ وهو أيضا من آل إبراهيم ومن نسله، ثم إنه تعالى آتى داود وسليمان العلم والحكمة وهما من آل إبراهيم، وآتى محمدا ﷺ العلم والحكمة، وهو من آل إبراهيم ومن نسله، ثم إنه تعالى آتى سليمان عليه السلام ملكا عظيما، وملكا لا ينبغى لأحد من بعده، وآتى أمة رسول الله ﷺ ملكا عظيما من بعد إذنه للإسلام الذى جاء به محمد ﷺ أن يعمر الدنيا. وهو ﷺ من آل إبراهيم ومن ذريته.

كذلك فإنه تعالى تفضل على داود عليه السلام فكان له مائة من النساء، تسع وتسعون قبل زواجه من زوجة أوريا الحثى التى كمل له بزواجه منها المائة، وتفضل على سليمان فكان له من النساء نحو ثلاثمائة مع مثلهن من الإماء، وهما من آل إبراهيم، وتفضل على محمد ﷺ فجمع بين تسع من النساء وقيل بين إحدى عشرة، وهو من آل إبراهيم ومن ذريته، فليس فى الأمر ما يستوجب الحسد، لأن ما اختص به تعالى محمدا ﷺ وأمته هو مما اختص به تعالى آل إبراهيم ومنهم اليهود أنفسهم .

كذلك فإن قوله تعالى يفيد إعلام اليهود الحاسدين بانغدام أثر حسدهم وجدواه. لأنه كان من قبل حسد النمرود إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ما تفضل الله به عليه، والكيد له فلم يفده كيده شيئا ونجى إبراهيم عليه الصلاة والسلام مما كاد له به فوق الحسد.

كذلك حسد فرعون موسى على ما أيّده به الله من الآيات التى تفضل بها عليه، وأتبع ذلك بالخروج وراءه لينتقم منه وقومـه، فلم يؤثر حسده فى موسى عليه السلام بـل ارتد على فرعون هلاكا وعذابا.

والقول بهذا المعنى فيه طمـأنة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين أنه لن يصيبهـم من حسد اليهود ضرر وأن حسدهم سيرتد إلى نحورهم .

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

التفســـــير:

الحديث لا يزال فى شـأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذى أنعم الله عليـه وعلى آله بما تفضل به تعالى عليه وعليهم، فيعود عليه الضميـر المتصل فى «عنه»، ولا يزال أيضا فى شأن الحاسديين الـذين يعود عليهم الضمير فى لفـظ «فمنهم». والآية الشريفة تبين ــ فى تكرار ــ إنعدام أثر الحسـد فيمن تفضل الله عليه بما شاء مـن الفضل، فتذكر الآية أنه كـان من بعض الحاسديـن إبراهيم عليه الصلاة والسـلام أنهم آمنوا بما دعـاهم إليه. كما كان هـذا هو شأن الأنبياء من آله ونسله آمن لهـم بعض من كانوا يحسدونهم من قبل. ثم تـذكر الآية أن آخرين من الحساد قد صدوا عـن إبراهيم فلم يستجيبوا لدعوته كما صدوا عـن دعوة الرسل والأنبياء من آله من بعده.

ثم تشيـر الآية إلـى مصير هـؤلاء الذيـن صدوا عـن دعوة إبـراهيم عليـه الصلاة والسـلام والأنبياء من بعـده بقوله تعالى «وكفـى بجهنم سعيرا»، والمعنى هـو توعد الحاسديـن الذين صدوا عن دعوة الأنبياء بسوء العذاب فى الآخرة نار جهنم المستعرة الموقدة. فيها الكافى من

العذاب لمن حسب أنه نجى من عذاب الدنيا. والقول بهذا المعنى يتضمن تهديدا ووعيدا لليهود الحاسدين الذين يحسبون أنهم ناجون من العذاب، إذ يعلمون أنهم ملاقوا أشد العذاب فى الآخرة، أُعد لهم بفعلهم.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾

التفســـــير:

قوله تعالى فى الآية استئناف لبيان حال الذين كفروا رسول الله ﷺ والذين كفروا الأنبياء الذين بيَّن سبحانه وتعالى أنه أعد لهم جهنم المستعرة لظى يلقون فيها فى الآخرة. وصفهم تعالى بقوله «إن الذين كفروا بآياتنا» فهم الذين كفروا بالقرآن العظيم الذى أنزل على رسول الله ﷺ، فيكون المراد بهم الكافرين دعوته ﷺ، وهم الذين كفروا بآيات الله التى أيد بها رسله فيكون المراد بهم الذين كفروا الرسل السابقين عليه ﷺ.

توعدهم الله بالعذاب وبينه بقوله تعالى «سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها» فهم يصلون النار يتعذبون بحرارة لهيبها كما يكون الشى بالنار حتى إذا ما احترقت جلودهم واهترأت أبدلوا بها جلودا جديدة، لأنه لما كان العذاب عذاب أبدان ونفوس، كان للنفوس أن تعتقد أنه بنضوج الجلود واهترائها لا يكون عذاب بإنضاج الجلود، فيكون فى إبدال أخرى بها تجديد للتعذيب بإنضاج الجلود فتعلم النفوس أن عذابها متجدد فيكون فى ذلك تعذيب لها أو يكون به عدم انقطاع عذابها.

وهذا ما يفسره قـوله تعالى «ليذوقوا العـذاب» جاء ببيان علة تبديل الجلـود وهى استمرار العذاب، فيكون معنى «ليذوقوا العذاب» هو «لدوام ذوق العذاب».

وتختتم الآية بقولـه تعالى «إن الله كان عزيزا حكيمـا» هو تأكيد لما سبق العلـم به من أنه تعالى لايدافع وأنه القادر على أن يكون ما يريد فليس من مانع يمنعه. وفى هذا تأكيد لتعذيبه الكافريـن بما توعدهم بـه من العذاب، وإظهار لأن تعـذيبهم على هذا النحو هـو من حكمته تعالى التى جعلته مناسبا جسامة جرمهم، دون ظلم لهم .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

أولا : الأســـماء :

١ ـ **الظليــــل** : فى قـوله تعالـى «وندخلهم ظـلا ظليلا» صفـة مشتقة من لفـظ «الظل» جاءت فى الآية لتأكيده فيكون بمعنى الخالى ممـا يعترى ظل الحياة الدنيا من حرٍّ ومن ريح السموم .

ثانيا : التفســـير:

الحديث فـى الآية عن المؤمنين جـاءت الآية ببيان ما يكون مـن حالهم فى مقابلـة ما تم بيانه مـن حال الكافريـن لبيان الفرق بين مصير كـل من الفريقين، جـاء قوله تعالـى مبينا من يتناول النص بيـان حالهم بقولـه تعالى «والذين آمنـوا وعملوا الصالحات» فيكـون الذين ورد النص ببيان حالهم هم الـذين آمنوا برسول الله ﷺ، كما يكونون الذين آمنـوا بالأنبياء والرسل

الذين بعثوا من قبله جميعا ممن بلغتهم دعوتهـم وماتوا على إيمانهم قبل أن يبعث الله رسوله ﷺ، أو قبل أن تبلغهـم دعوته، واشترط فـي المؤمنين أن يكونـوا قد عملوا الصالحـات، وهذا تحقيق لكون الإيمان ما صدقه القلب وعملت بـه الجوارح، فهم الذين أدوا الطاعات وانتهوا عن الموبقات وما نهوا عنه.

أما ما يكون من شأنهم ـ وفيه بيان حالهم ـ أنه تعالى يدخلهم جنات، وصفها تعالى بأنها تجرى من تحتهـا الأنهار ليكون لهم فيها الجمـال الذى يسر النظر «سندخلهـم جنات تجرى من تحتها الأنهـار» ، ثم ذكر تعالـى حالهم في هـذه الجنات وهو الخلود، فهـم فيها آمنون لا يخشون أن يخرجوا منها أو أن يموتوا فيفوتهم التنعم بها وبما فيها «خالدين فيها».

ثم أعقب ذلـك سبحانه وتعالى بـذكر بعض ما يتنعمـون به في هذه الجنات فقـال تعالى «لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا» والمعنى أنه يكون لهم فى هذه الجنات زوجات مطهرات من الأدناس ومن العيـوب التى هى من طبيعة النساء فى الدنيـا أو من خلق البعض منهن، فهن مطهرات مـن الأدناس المرتبطة بطبيعة الأنثى من حيـض ونفاس، ومطهرات مما يعيب خلق بعـض النساء فى الدنيا مثل حـدة الطبع والغضب والنفرة. كما يكون منـه تعالى معهم أنه يـدخلهم ظلا يخلو من الحرومـن الريح الحارة ليكون تمام طيـب مجلسهم. وهذا المذكور فـى الآية هو بعض مـا يتنعم به المؤمنـون في الجنة التى فيهـا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ
النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾

أولا : الأســـماء :

١ ـ **الأمانات** : جمع، مفرده الأمـانة، وهى الشىء يـؤتمن المرء على أدائه وفعلـه، فيدخل فيه عموم ما يؤتمن عليه المرء بغير رقيب إلا نفسه. ومنه إحسان الوضوء، وأداء الصلاة، وتعليم العلم، والحكم بين الناس بالعدل، ورد ما استعير أو اقترض .

ثانيا : التفســـــير:

قيل فى مناسبة نـزول الآية أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة دعا عثمـان بن أبى طلحة وكان معه مفتاح الكعبة وطلب منه أن يريه إياه، ثم قال له أن يعطيه إياه فقال له عثمان «هاك بأمانة الله» فأخذه رسول الله ﷺ وفتح بـه الكعبة وأخرج ما بها من الأصنام كما أخـرج مقام إبراهيم، فنزل عليه ﷺ جبريل عليه السلام بالآيةفدعا ابن أبى طلحة وأعطاه المفتاح.

وحكم الآية قائم إلى أبد الدهر والخطاب فيها إلـى عموم المؤمنين كل بحسب مقامه وما أوكل إليه لأن الأمانة تختلف بحسب موقع المؤتمن، فليس صحيحا ـ فى رأينا والله أعلم ـ ما قاله البعـض من أن الخطاب موجـه لولاة الأمر، وأن الأمانـة المقصودة فى معنى النـص هى رعاية الرعيَّة وحملهم على موجبات الديـن والشريعة، وإن دخل هؤلاء فى عموم المخاطبين بالنص كشأن ولاة المناصب، ودخلت رعاية الرعيَّة فى معنى الأمانة .

ومضمون الأمر هـو وجوب رد ما اؤتمن عليـه الأمين إلى صاحـب الحق فيه، عبر عنـه بأنه أهل الأمانـة، وهو من له الحق فـى استردادها، فلا يشتـرط فيه أن يكون هو ذاته مـودع الأمانة لدى الأميـن كما لو كـان المودع قد تـوفي، فيكون صـاحب الحق فـى أن ترد إليه الـوديعة أو الأمانة هـو وارثه، وكما فى حال العلـم الذى ائتمن عليه تعالـى أهل العلم فإنهم يـردونه إلى الخلق بتعليمهم مما علمهم الله .

ثـم إنه تعـالـى يذكـر علـى وجه الخصـوص صورة مـن صـور الأمانـة مبينـا كيف يكـون

أداؤهـــــا لصـاحب الحق وهـى أمانة الحكـم بين الناس والفصل فـى منازعاتهـم، فيقول تعالى «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» وفيها يكون الأمين هو الحكم، من قاضٍ وغيره، وتكـون الأمانة التـى هى فـى عنقه هى العـدل بين المتخاصميـن، لا يجور علـى حق لأحدهما لصالح الآخر، ويكون أداؤه الأمانة بالحكم بما رآه عدلا واقتنع به أنه كذلك من بعد بحث وتروٍّ ولـو لم يصادف العدل، لكنـه لا يكون ردًّا للأمانـة أن يقصِّر فى تحصيل مـا وجب عليه تحصيله من العلم والمعرفة ليكون قضاؤه موافقا للعدل.

ثم يجىء قولـه تعالى «إن الله نعما يعظكم به» لحـث المؤمنين على التزام ما أمـر به فيبين لهم أن هذا الأمر هو عظة منه تعالى وأنه نعـم الموعظة، فيكون معنى القول «نعم الشىء شىءٌ يعظكم به».

وتختتم الآية بقوله تعـالى «إن الله كان سميعا بصيرا» وهو وعد للذيـن يؤدون الأمانات إلى أهلها، ووعيد لمن لا يـؤدونها لأنه تعالى يسمع أقـوالهم فى شأن الأمانات وردِّهـا ولو ردَّدوها بينهم وبيـن خاصتهم أو فـى أنفسهم، ويبصر مـا يكون منهم مـن ردِّها إلى أهلهـا أو حجبها عنهم، ويكون منه الجزاء .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩

أولا : الأســـماء :

١ ـ أولوا الأمـــر : فى قوله تعـالى «وأولى الأمر منكم»، قيل إنهم أمـراء الجيوش والسرايا

في عهـد رسول الله ﷺ، والخلفاء والسـلاطين وعموم الحكام مـن ملوك ورؤساء، وقضـاة من بعده. ولا شك فى دخول هؤلاء فى عداد أولى الأمر، إلا أنـه يدخل فيهم أيضا كل من ولى أمر جماعة من المؤمنين بتفويض من ولى الأمـر واستقل بهم فى مكان بحيث لا يتولى ولى الأمر شئونهم بطريق مباشرة مثل قادة القوات، ومثل حكام الولايات وما شابهها.

٢ ـ التـأويل : فى قـوله تعـالى «وأحسن تـأويلا» ، المـراد به فى معنـى الآية هـو المآل والمصير.

ثانيا : التفســـــير:

الخطاب فى الآيـة موجه إلى عموم المـؤمنين «يا أيها الذيـن آمنوا» وهو أمر بالطـاعة جاء بقولـه تعالى «أطيعـوا الله وأطيعوا الرسول وأولـى الأمر منكم» ومـن عبارة النص التـى أوجبت طاعتـه تعالى بذكـر فعل الأمر وذكر مـن وجبت طاعتـه، وأوجبت طاعة رسـول الله ﷺ بذات السبيل، أى بذكر فعل الأمر ثم ذكر من وجبت لـه الطاعة، ومخالفة ذلك عند الأمر بطاعة ولاة الأمر، يبين اختلاف الطاعة المستحقة لرسـول الله ﷺ عن الطاعة المستحقة لولاة الأمور، وأن طاعته ﷺ هى إطاعة لله، وهى صنوها.

وأنه ليـس كذلك حـال الطاعة المستحقة لـولاة الأمر؛ ولذلـك كان هناك تصـور أن يكون هناك تنازع فى الرأى فى المسألة بين عمـوم المؤمنين وبين ولاة الأمور على حين لا يتصور أن يكون هنـاك تنازع واختـلاف رأى بين المؤمنيـن وبين رسول الله ﷺ، إذ جعـل النص طـاعته طاعة لله تعالى أو منها أو مماثلة لها، فلا يعود مقبولا التخلّى عن سننه ﷺ لسبب من الأسباب ولا مخالفة أوامره ونواهيه ﷺ .

وقولـه تعالى «فـإن تنازعتم فـى شىء فردُّوه إلـى الله والرسول إن كنتـم تؤمنون بـالله واليوم الآخر» هو خطاب لعموم المؤمنين، ولولاة الأمـور، وللعلماء. وأول ما يبين منه أنه منع تصور أن يكون هناك تنـازع بين المؤمنين وبين رسـول الله ﷺ، فجاز أن يكون المتصور هـو وقوع التنازع

فى أمـر من الأمور بين المـؤمنين الرعيـة وبين ولاة أمورهـم، وجاز أن يكون المتصور هـو وقوع التنازع فى أمر من الأمور بين أهل العلم بعضهـم والبعض، وبيان ذلك، وما يكون عليه الحل هو الآتى.

قد يحـدث النزاع فـى الأمر بين المـؤمنين الـرعية وبيـن ولاة أمورهم فيكـون الرجـوع إلى كتـاب الله للفصل فيما قـام فيه التنازع، فإن وجد فيه فبه وإلا كان الرجـــوع إلى ســـنَّته ﷺ الفعليــة والقوليـة وفيها تفصيل ما أُجمل وتقييد مـا أطلق، وتشريع ما شرع بمـا أوحى به إليه ربُّه. ولما كـان الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسـوله والبحث فيهما واستنباط الأحكـام هو عمل أهل العلـم فإنه يكـون المقبول أنهـم الذين يقـومون بإظهـار حكم الله ورسـوله فى المسـألة المتنازع فيها.

كذلك فإنه قد يحدث بين أهل العلم اختـلاف فى الرأى فى مسألة من المسائل الشرعية، وهو ـ إن جاز تسميته بـالتنازع ـ لا يعتبر من قبيـل التنازع على معنـاه المفهوم، فيكـون الأمر حالتئذ هو وجوب الرجوع إلى كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ لمعرفة الرأى الأقرب للصواب.

لكنه لا يتصور أن يكون هناك تنازع بين ولاة الأمور وبين أهل العلم، لأنه لا يفترض فى ولاة الأمور العلم بما يعلمـه أهل العلم، ولهذا تعيَّن على ولاة الأمور أن يـرجعوا إليهم، وإن حدث ذلك، فإنه لا يكون تنازعا وإنما يكون استبدادا من ولاة الأمور. كما أنه لا يتصور أن يكون هناك تنازع فى الرأى بيـن عامة الرعية وبين أهـل العلم فى المسألة التى علـم بها أهل العلم، وإن حدث فإنه يكون من العامة حمقا وجهالة.

وقوله تعالى للمؤمنين المخاطبين بالنص ـ من بعد أمرهم بالرجوع لله والرسول عند التنازع فى أمر ـ «إن كنتـم تؤمنون بالله واليوم الآخر» هو حـثٌّ لهم على التزام ما أمر به تعـالى، لأنه ما من مؤمن إلا من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويكره أن يقال عنه غير ذلك، فيكون منه الحرص على التزام هذا الأمر.

وتختتم الآية بقـوله تعالى «ذلك خيـر وأحسن تأويلا» هـو إعلام منه تعالى المـؤمنين بأن جميع ما أمربه فى الآية من إيجاب طاعته تعالى وطاعة رسوله ﷺ وأولى الأمر، وأمره أن يكون الأمر عند التنازع هو عـرضه على كتاب الله ثم على سنَّة رسوله ﷺ لمعرفـة وجه الحق فيه، هو ما فيه صالح المؤمنين فى الحال وفى المآل.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾

أولا : الأســـماء :

الطـــاغوت : قيل إنه لقب أطلـق على رجل يدعى كعب بن الأشرف كـان يُحتكم لديه، أطلق عليه للتدليل على كونه كثير الطغيان، وقيل هو بمعني الشيطان أو هو الشيطان، وقيل إنه لقب لرجل اسمه أبو برزة كان يحتكم لديه .

ثانيا : التفســـــير:

الآية نزلت ــ على المشهور ـ عندما تنازع يهـودى مع منافق يدَّعى الإسـلام يدعى «بشر»، فطلب اليهـودى أن يتحاكمـا لدى رسول الله ﷺ، وطلـب المنافق أن يحتكمـا إلى كعـب بن الأشرف، ثـم احتكما إلـى رسول الله ﷺ فقضـى لليهودى، فلـم يرض المنـافق بقضـائه ﷺ وأخـــذ اليهودى ليتحاكما لدى عمر بن الخطاب، فقال اليهودى لعمر بن الخطاب «قضى لنا رسول الله ﷺ فلـم يرض بقضـائه» فلما استوثـق عمر مـن صحة ذلك ضـرب عنق المنـافق، فنزلت الآية .

فيكون قوله تعالى «ألـم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنـزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت» قد تضمن التعجيب من فعل المنافقين الذين يكون منهم من الأفعال عكـس ما يزعمون. فهـم يزعمون أنهم مسلمون آمنـوا بالقرآن الذى أنـــزل على رسول الله ﷺ المخاطـب بنص الآية، وآمنوا بما أنزل مـن قبل من الكتب على مـا يكون عليه المؤمنـون من إيمـان بالله وكتبه ورسلـه، ثم يكـون منهم بعـد ذلك الرغبـة فى الاحتكـام إلى الطاغوت، أى الاحتكام لدى من رأوا الاحتكام إليه بما أغواهم الشيطان وأوحى لهم فأطاعوه. ثم يبين سبحانه وتعالى أنهم قد فعلوا ذلك مطيعين الشيطان على حين أنهم قد أمروا بالكفر به، وفى القول مزيد من بيان نفاقهم .

ثم يقـول تعالى ـ فى ختام الآيـة ـ «ويـريد الشيطان أن يضلهـم ضلالا بعيدا» وهـو قول يفيـــد اتجاه المنافقين والكافرين إلـى ما ليس فيه صالحهم فهم لا يـريدون الاحتكام إلى رسول الله ﷺ، وهو المريد لهم الهداية والفلاح ويريدون الاحتكام إلى الشيطان بالاحتكام إلى حليفه، وهو الذى يريد لهم الضلال، ليكون لهم العذاب .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾

أولا : الأســـماء :

الصـــدود : فى قوله تعالى «يصدون عنك صدودا» هو الإعراض، مصدر من الفعل «صدَّ يصدُّ» بمعنى أعرض .

ثانيا : التفســـير :

الحديث فى الآية عن المنافقين وبيان أحوالهم استئنافا لما سبق بيانه. فقوله تعالى «وإذا

قيل لهم تعالـوا إلى ما أنزل الله» ـ وهو أداة الشـرط وفعله فى جملة الآية الشرطيـة ـ مفاده أنه إذا قيل للمنافقين ـ عند حصول ما يستوجب الاحتكـام إلى حكم يفصل في نزاع بما شرع من أحكام ـ تعـالوا إلى كتاب الله ننظر حكمه فيمـا فيه التنازع ليكون العمل بـه إلى رسول الله ﷺ حكما يقضى فى النزاع بما شرعه تعالى.

وقولـه تعالـى «رأيت المنـافقين يصـدون عنك صـدودا»، هو جـواب الشرط فـى الجملة الشرطية، يفيد أنه يكون من المنافقين الإعراض عما اقترح عليهم، عبّر عنه بأنه صدٌّ عن رسول الله ﷺ، إظهارا لأن الإعـراض عنه هـو إعراض عن حكـم الله المنزل فـى القرآن. فيكـون بيان الحال المستدل عليه من نص الآية أنه إذا ما عرض نزاع كان أحد أطرافه منافقا، واقترح عليه اللجوء إلى رسول الله ﷺ ليحكم فيه بكتاب الله، أعرض المنافق عن هذا ورفضه .

وفى القول إشارة تـوحى بوجود رابطة أو علاقـة بين معنى الآية وواقعة حصول منـازعة بين يهودى ومنافق عرض فيها اليهودى على المنافـق الاحتكام إلى رسول الله ﷺ، فرفض المنافق ذلك وطلب الاحتكام إلى الطاغوت .

فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾

التفســـير:

الحديث فـى الآية لايزال مستمرا فى شـأن المنافقين، والخطاب فيهـا إلى رسول الله ﷺ يعرض عليه تعالى أفعالهم الدالة علـى النفاق، جاء فيها الإخبار فى صيغة الاستفهام لاستثارة التعجب من فعالهم. فقوله تعالى «فكيف إذا أصابتهم مصيبة» معناه فيكف يكون حالهم إذا ما أصابتهم نكبـة فى شأن من شئونهم أو تظهر نفـاقهم، وهو قول يفيد معنى أنـه يكون أمرهم

مثيرا للتعجب ـ على ما يفصح عنه باقى قوله تعالى؛ إذا يفيد قوله تعالى «بما قدَّمت أيديهم» أن المصيبة التى تنالهم هى كشف نفاقهم بفعل أظهر هذا النفاق مثل إعراضهم عن رسول الله ﷺ واختيارهم الاحتكام إلى الطاغوت .

ثم يبين تعالى فعال المنافقين حين يكتشف نفاقهم فيحاولون مداراته بالكذب حتى لا تصيبهم مضرة بنفاقهم فيقول تعالى «ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا» ومعناه أنهم يأتون إلى رسول الله ﷺ للاعتذار عن فعلهم بالكذب يحلفون عليه فيقولون إنهم لم يريدوا من قصدهم الغير يحتكمون لديه و إعراضهم عن الاحتكام إليه ﷺ إلا الإحسان إلى الخصوم والتوفيق بينهم .

والمستفاد من قوله تعالى عما يكون من المنافقين فى هذه الحال، أنه قد حدث فعلا ما ذكر فى الآية؛ ولهذا فإن النص يؤيد ما قيل من أن أهل المنافق الذى قتله عمر بن الخطاب رضى الله عنه لرفضه قضاء رسول الله ﷺ حين أتوا إلى رسول الله ﷺ مطالبين بدمه، قالوا ـ تبريرا لما كان منه ـ إنه كان يبغى الإحسان إلى خصمه والتوفيق بينه وبينه .

أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾

التفســـــير:

الحديث لايزال فى شأن المنافقين أشار إليهم قوله تعالى بـ «أولئك» وأعلم بمعلوم وهو أنه تعالى يعرف كذبهم ونفاقهم وما أخفوه فى قلوبهم من الكفر، ومادام أنه تعالى عالم بهذا فقد أعلم به رسوله ﷺ. وهذا الجزء من الآية الشريفة هو إخبار، وبعده يجىء أمر منه تعالى «فأعرض عنهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا»، والأمر إلى رسول الله ﷺ، مضمونه ـ فى مقام

أول ـ أن يعرض عنهم. جاء فـى شأن المأموربه عاما، فيشمل الإعراض عـن الاهتمام بأمرهم ومعاقبتهم بنفاقهـم، وقد تكون علة ذلك هى الرغبة علـى بقائهم مترقبين ـ فى خـوف ـ ما قد يوقع بهم من العقاب. ويشمل الإعراض أيضا معنى خاصا بهؤلاء الذين جاءوا رسول الله ﷺ معتذرين هو الإعراض عن قبول عذرهم، والإعـراض عن طلبهم بدم القتيل. ومضمون الأمــر ـ فى مقام ثـانٍ ـ أن يكون منه ﷺ وَعْظُهم بالكـف عن النفاق يقوله لهم فـى غير حضور أحد «فى أنفسهــم» وقد يكون ذلك لعـدم اضطرارهم إلى الكـذب دفاعا عن أنفسهـم، وأن يكون ذلك بالقول الذى يحدث أثره فى النفوس فيحقق المراد منه وهو القول البليغ.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾

التفســـــــير:

قوله تعالى فـى الآية استئناف للحديث عن المنافقين، والخطـاب إلى رسول الله ﷺ، أوله تقرير لواقع يتعين علم المنافقين به أو إعلامهم لتضمنه معنى الوعيد لمن هم على شاكلتهم. وباقيه فى بيان ما كان متوجبا عليهم عمله للعفو عن سوء فعالهم.

فقوله تعالى «وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله» تقرير لواقع وهو أنه تعالى إنما يرسل الرسل ـ ومنهم رسول الله ﷺ ـ لكى تكون لهم الطاعة، وهى تكون لمن أذن له تعالى أن يطيع فيكون مـؤمنا، ويبقى غيـره على الكفر أو يكفـر بكفران الـرسول إن كان مـؤمنا بمن سبقــه من الرسل.

وقوله تعالى «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما» هو بيان لما كان متوجبا على المنافقين فعله من بعد أن بدى منهم النفاق، وإظهار لنتيجته فيما لو كان قد حدث منهم. جاء في شكل جملة شرطية أداة الشرط فيها «لو» لبيان عدم حصول فعل الشرط، وهو مجيئهم رسول الله من بعد ظلمهم أنفسهم بالنفاق والكفر نادمين على ما كان منهم ومستغفرين الله سائلين إياه أن يقبل توبتهم ويغفر لهم ما كان منهم من الكفر ومن النفاق، بدلا من الاعتذار بالباطل، وهو أيضا استغفار الرسول لهم ربه وسؤاله أن يقبل توبتهم. وجواب الشرط ـ على ما يبين من النص ـ هو قبول الله تعالى توبتهم وغفرانه ذنوبهم بواسع رحمته ـ ومن عبارة الآية يبين أن المنافقين لم يفعلوا هذا، وأنهم لهذا معذبون بفعالهم ونفاقهم.

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

التفســـير:

الحــديث فى الآية لبيان زيف ما أقسم عليه المنافقــون من أنهم طلبوا حكما غيــر رسـول الله ﷺ قصد الإحسـان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهما، لما في ذلك من عدم الرجــوع عن الفعل والإقبال على اختياره ﷺ حكما في الخصومات، والخطاب في الآية إليه ﷺ.

فقوله تعالى «فلا وربك» هو قسم لتأكيد مضمون المخبر عنه ومعناه، و«لا» زائدة. والمخبر عنه هو أن المنافقين لا يدعون مؤمنين، أو أنه لا يكون منهم الإيمان من بعد النفاق إلا إذا اختاروا أن يحكموا رسول الله ﷺ فيما يختلف عليه من الأمور بينهم ويختلط، جاء التعبير

عنه بقوله تعالى «فيما شجر بينهم» لأنه يكون شبيه تداخل أعضاء الشجر الكثيف بعضها فى بعض.

ويبين من نص الآيـة أنه لا يكفى لإظهار إيمان المنافقين بعد النفـاق ارتضاؤهم الاحتكام إلى رسول الله ﷺ، و إنما يتعين أن يكون منهم الرضـاء التام بقضائه والاقتناع بأنه الحق، لأنه لما كان الإيمان موضعـه القلب، وكان الشك ينفى الإيمان، ولا يكون المؤمـن مؤمنا وفى قلبه ذرة من الشك فى الله ورسوله فقد تعيَّن القول أنه لا يكون المرء مؤمنا إلا إذا خلصت نفسه من الشك فـي رسول الله ﷺ؛ ولـذلك اشتـرط النص لاعتبار المخبـر عنهم مـؤمنين ألا يكـون فى أنفسهم شـك فى أن ما قضـى به رسول الله ﷺ هـو الحق الموافـق حكم الله فى الأمـر «ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت».

ولما كـان من مقتضيات انتفـاء الشك فى قضـاء رسول الله ﷺ أن يكون الانقيـاد لقضائه والإذعان له بالفعـل، وامتلاء القلب يقينا بأنه حكمـه تعالى، وهذا هو التسليم، فقـد جاء قوله تعالـى بهذا الشرط المتعيـن توافره فيمـن قبل الاحتكام إلـى رسول الله ﷺ وقبل قضـاءه ليعدَّ مسلما بقوله تعالى «ويسلموا تسليما».

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾

التفســـــير:

قيل فى أسبـاب نزول الآية والظروف التـى سبقت نزولها أو أعقبتـه ما يفيد أن الذيـن يعود

عليهم الضمير في «عليكم» و«أنفسكم» هو المؤمنون. فمـن ذلك ما قيل من أن أبـا بكر قال بعد نزولها «يارسـول الله لو أمرتني أن أقتل نفسي لفعلت» فقال لـه رسول الله ﷺ: «صدقت». وقيل إن رجلين احتكمـا إلى رسول الله ﷺ، كان أحـدهما الزبير فلمـا خرجا بعد الحكـم مرّا برجـل سأل: «لمن القضـاء» فقال الـرجل: «لابن عمتـه» ولوى شدقـه لإظهار أنـه ﷺ قضى للزبيـر لقرابته لـه، فقال يهـوديٌّ سمع الحديـث «قاتل الله هـؤلاء يشهدون أنـه رسول الله ﷺ ويتهمونه في قضائه، وايم الله لقد أذنبنا مرة في حياة موسى عليه السلام فدعانا إلى التوبة منه وقال «اقتلـوا أنفسكم» ففعلنا فبلغ قتـلانا سبعين ألفا فـي طاعة ربنـا حتى يرضى عنـا، فقال رجل من المسلمين قيل إنه ثابت بن قيس «أما والله إن الله تعالى ليعلم مني الصدق، لو أمرني محمد ﷺ أن أقتل نفسي لقتلتها»، فنزلت الآية. وقيل غير ذلك ومثله كثير.

والـذي نراه ـ والله أعلم ـ أنه لمـا كان تعـالى قـد ذكر مـا يكون مـن المنافقيـن من بعـد إعراضهـم عن الاحتكـام إلى رسـول الله ﷺ من الاعتـذار إليه والحلـف بأنهـم لم يـريدوا إلا الإحسان إلى المتخـاصمين والتوفيق بينهما، ثم أعقـب سبحانه وتعالى ذلك ببيـان ما يتعين على من أعرض عن الاحتكام إلى رسول الله ﷺ أن يفعله للتدليل على إيمانه، وإظهاره كيف تكون التوبة ممن فعل مثل هذا الذنب الكاشـف للنفاق. وأنه قد يكون من بين فاعلي الذنب من المنـافقين قلة صحـت توبتهم، فقـد جاء قولـه تعالى أنـه لو كان قـد كتب على مـرتكبي الذنب ما كتبـه ـ من قبل ـ على بني إسـرائيل وأوجب من أفعال تظهر توبتهـم، لما فعل ذلك أغلب القائلين بتوبتهم.

فقوله تعالى «ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكـم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم» معناه أنه لو كان سبحانه وتعالى قد فرض على المذنبين ـ لقبول توبتهم ـ مثل ما فرض على بني إسرائيل لما عبدوا العجل أن يقتلوا أنفسهم، ومـا فرضه عليهم ـ قبل ذلك ـ من ترك دورهم في مصر، لما فعل ذلك منهم إلا قليلين منهم هم الذين صحّت توبتهم.

ومعلوم أنه تعالى لم يفرض قتل النفس على المؤمنين في الشريعة شـرطا لقبول التوبـة

ـ رحمة بهم ـ وأنه تعالى جعل قتل النفس كبيرة من الكبائر والانتحار من قبيل الكفر .

وبعد ذلـك يجىء قوله تعـالى مبيّنا أن مـا فرضه تعـالى على التائبيـن ممن أعرضـوا عن تحكيم رسول الله ﷺ فى الخصومات من المجىء إلى رسول الله ﷺ معتذرين مستغفرين الله ليستغفر لهم رسوله هو أخـفُّ مما فرضه تعالى على سابقيهم من الأمـم، وأنهم لو فعلوه لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا، وذلك بقـوله تعالى «ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشدَّ تثبيتا»، والمعنى أنه لو قبل هؤلاء قضاء رسول الله ﷺ ولم يشكُّوا فى عدالته وموافقته حكم الله تعالى وأذعنوا له عـن إيمان من بعد اعتذارهم إليه ﷺ واستغفارهم مما وقـع منهم من الذنب استغفار تـائب، لكان فـى ذلك الخيـر العاجـل والآجل لهـم، وكان فيـه تثبيتهم علـى الحق والإيمان. والقول بهذا المعنى يتضمن وعدا لمن يفعل، ووعيدا لمن يمتنع .

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾

التفســــير:

قوله تعالى فى الآيـة بذكر أمر آخر مما تكون فيه الخيرية للتـائبين عن ذنب الإعراض على تحكيم رسول الله ﷺ فى خصوماتهم، حال التوبة على النحو الذى ذكره تعالى.

والقول يخبر أنه يكون لهم ثواب من عنده تعالـى، لم يحدِّده تعالى للإطماع فى الحصول عليه لأن ما عنده تعالى كثير، واكتفى بوصفه بالعِظم لبيان مقدار الانتفاع به.

جاءت «إذا» فى بدأ القول لبيـان أن الموعود به يجىء تاليا على مـا سبق ذكره من التثبيت على الإيمان بعد منحهـم ما هو خير، وجاء تعريفـه بأنه «أجر» لبيان وجوب استحـاقهم إياه. وكونه جزاء على التوبة الموصوفة .

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٦٨﴾

التفســـير:

قوله تعالى تتمة لبيان ما يكافأ به التائبون الذين اتبعوا ما ذكره تعالى من شروط لقبول توبتهم من الذنب المذكور. ومفاد النص أنه تعالى يهديهم إلى الطريق الذى يوصل إلى فلاح الحال فى الدنيا والآخرة ليكون لهم الرضا فى الدنيا والجنة فى الآخرة. وبهذا يوفون أجورهم ويفيض عليهم تعالى شأنه من فضله.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾

أولا : الأســـماء :

١ ـ **الصديقون** : فى قوله تعالى «من النبيين والصديقين» جمع، مفرده «الصديق»، هو المبالغ فى الصدق أو فى التصديق، وهو الذى يوافق فعله قوله. وهو المسارع إلى تصديق نبى سابقا غيره.

٢ ـ **الشـــهداء** : سبق بيان معنى اللفظ. وقيل إن المراد بهم ـ فى معنى الآية ـ الذين يؤمنون بالله بالبراهين والأدلة، يشهدون كمال خلقه بالبصر ويعملون عقولهم فيؤمنون بالبصيرة. ولا يعنى هذا عدم دخول القتلى فى سبيل الله فى معنى «الشهداء» .

٣ ـ **الصالحون** : هم من صلحت أعمالهم من المؤمنين من أمة رسول الله ﷺ. ونرى أن

معنى اللفظ ــ فى الآية. يشمل الصالحين من المؤمنين بالأنبياء الذين سبقوه ﷺ، الذين ماتوا قبل بعثة رسول الله ﷺ أو الذين لم تبلغهم دعوته. وقيل إنهم الذين يؤمنون ويعملون الصالحات بطريق الاتباع والتقليد.

٤ ـ الرفيـــق : فى قوله تعالى «وحسن أولئك رفيقا» هو الصاحب، اشتق اللفظ من «الرفق» وهو لين الجانب ولطف المعاشرة، لأن الصاحب يرفق بصاحبه يتلطف به ومعه.

ثانيا : التفســـير:

جاء قوله تعالى ـ فى الآية ـ من بعد إظهاره كيف تكون التوبة المقبولة، ومآل الذين يتوبون فيدخلوا فى عداد المؤمنين، وبعد بيان ما يكون لهم من ربهم. جاءت الآية بذكر نعمة أخرى يتفضل تعالى بها عليهم، ترغيبا فى التوبة وفى الإيمان إيمانا صحيحا كاملا.

وردت عبارة الآية فى صيغة جملة شرطية، أداة الشرط فيها «من»، وفعل الشرط هو إطاعة الله والرسول «ومن يطع الله والرسول»، ومن النص يبين أن الإيمان هو قوام الأمر والمبلغ حسن الثواب، ويبين أن قوام الإيمان هو طاعة الله والرسول، والمعنى هو الانقياد لله وللرسول، فهو يتطلب الإيمان بالله وبصفة الرسول أنه المبعوث من ربه، المبلغ أحكامه، والمفصل لها، فيكون التزام أوامر الله ونواهيه والتزام أوامر رسوله ﷺ ونواهيه، وقبولها والرضا بها .

والنعمة المتفضل بها هى جواب الشرط فى جملة الآية «فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين»، أشير ـ فى النص ـ إلى المتمتعين بالنعمة المتفضل بها باسم الإشارة «أولئك» فهم الذين يطيعون الله ورسوله، والنعمة هى جمعهم فى معيّة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فى الجنة فى أخراهم. ومن النص يبين أن هناك منازل أربعة فى الجنة ـ ولا يقطع النص بعدم وجود غيرها . أعلاها منزل النبيين، يدنوه منزل الصديقين، بدنوه منزل الشهداء، ثم يدنوه منزل الصالحين .

كما يبين منه أنه يكون هناك اتصال وقرب بين أهل المنازل الأربعة بما يكونون معه فى

معية واحدة كأن يكون بينهم تزاور ومجالسة.

وقد قيل فى سبب نزول الآية أن عبد الله بـن زيد بن عبد رَبِّه الأنصارى - الذى أُرى الأذان قال: «يارسول الله، إذا متَّ ومتنـا كنتَ فى عليين لانراك ولانجتمع بك» وأظهر حـزنه لذلك، فنزلت الآية . وقيل إن «ثوبان» مولى رسول الله ﷺ وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ أتاه يوما والحزن فى وجهه ، فسألـه رسول الله ﷺ عما يحزنه فقال «ما بى وجـع ولا ضرٌّ غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة وأخـاف ألا أراك هناك، لأنى عرفت أنك ترفع مع النبيين، وأنـى إن دخلت الجنة كنت فـى منزلة أدنى مـن منزلتك فلا أراك» فنـزلت الآية. ومعنى الآية - فيما وعد به تعالى - يشمل جميع من أطاعوا الله والرسول طاعة إيمان، ولا يطيع الله والرسول بإيمـان إلا من أحب الله ورسوله فيأمـل فى رؤية وجهه الكريم تعـالى فى الآخرة، ويتمنى مصافحة وجه رسوله ﷺ فى خلودة فى الجنة .

ثم يجىء قوله تعالى - فى ختام الآية - «وحسن أولئك رفيقا» تذييلا لما سبق بيانه مقررا له ومؤكدا للترغيب فى الحصول عليه، ومعناه أن رفقة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين هي أفضـل رفقة، فيكـون لفظ «رفيقا» تمييـزا أو حالاً، فيكـون المراد هو وصـف المذكـورين (النبيين والصـديقين والشهداء والصـالحين) بالحسْـنِ فى كـونهم رفقاء المطيعـن، أو حال كونهم رفقاء لهم .

ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾

التفســـــير:

بعد بيانه تعالى ما يكون عليه المؤمنون الطائعون من الخير فى أخراهم ومن الإنعام عليهم بمرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، جاء قوله تعالى - فى الآية - «ذلك الفضل من الله» فبيَّن أن ما سبق ذكره من النعم المذكورة هى مما تفضَّل به تعالى على الطائعين

فقد جاء اسم الإشارة «ذلك» مشيرا إلـى النعم السابق ذكـرها، وهو مبتدأ، وخبـره هو «من الله»، وصف بـأنه خير، أو يكون خبـره هو «الفضل» وتكـون شبه الجملة «من الله» حـالا للنعم المشار إليها بـ «ذلك». وعلى الحالين لا يتغير المعنى.

ثم جـاء قوله تعالـى «وكفى بالله عليما» مفيـدا علمه تعالى التـام بما يكون من الطـائعين الموعـودين، وبما يكون مـن العصاة والمنافقين المـذكورين مـن قبل والمتوعديـن، وأن فى علمه تعالى بحال كل من الفريقين ما هو كاف لنيـل كل منهما ما وعد به أو توعد، لأنه تعالى وحده المثيب والمعذب .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾

أولا : الأســـماء :

١ ـ **الثبـــات** : جمع، مفـرده «ثبة» وهى الجمـاعة من الرجـال فوق العشرة، وقيـل فوق الإثنين.

٢ ـ **الجميع** : فى قوله تعالـى «أو انفروا جميعا» المراد به ـ فى معنى الآيـة ـ مجتمعين فى جماعـة من تشكيلات القوة المحـاربة، مثل «السريَّـة» ـ وهى وحـدة مكونة من مجمـوع من الأفراد تقتطع مـن الجيش ـ تكلف بمهمـة خاصة تؤديهـا وتعود، ومنها «المنسر» وهـو ما زاد على السرية ولم يبلغ حدَّ الجيش ـ ويقال لـه الكتيبة ـ ومثل الجيش، وهو ما زاد على المنسر ولم يبلغ حدَّ «الجحفل»، ومثل «الخميس» وهو مجموعة الجحافل. على ما كان مشهورا فى تشكيلات القتال وقت نزول الآيـــة .

ثانيا : التفســـير:

الآية الشريفة أمر للمؤمنيـن فى شأن من شئون دنياهم يرتبط بطاعتـه فى الجهاد فى سبيله

تعالى وبالذين بالتالى بما يعتبر بدءا لحديث يأتى بجديد غير منفصل عما سبق بيانه فى شأن المنافقين، فالحديث فيها يتعلق بالجهاد فى سبيل الله وما يتوجب على المؤمنين التزامه.

فقوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم» هو أمر بالتزام عام هو «الحذر» وهو الحرص على ألا يصيب الأعداء من المؤمنين ما يؤذيهم، فمنه اتخاذ سبل الوقاية من ارتداء الدروع والتربص فى الخنادق ومنه اتخاذ سبل تحقيق النصر من التجهز بالسلاح المناسب، ومنه التحرز من أن يأخذهم العدو على غرة.

وقوله تعالى «فانفروا ثبات أو انفروا جميعا» جاءت فيه الفاء لبيان علاقة مضمون الأمر بمضمون الأمر السابق ووجود علاقة سببية بينهما وترتيب الأمر الأخير على سابقه، فيكون من الحذر أن يكون الخروج فى شأن من شئون القتال فى مجموعة وإن صغرت ليكون منهم من يقوم بالمراقبة حين التجاء الباقين للراحة، وليكون منهم من يتولى حماية الباقين أثناء قيامهم بأداء المهمة القتالية، وذلك على ما يستفاد من قوله تعالى «فانفروا ثبات». ثم إنه إذا استدعى الأمر أو المهمة القتالية أن يكون المقاتلون كثرة، فليكن من المؤمنين الخروج فى تشكيل أكبر من تشكيلات الجيش يتناسب وحجم المهمة المكلفين بأدائها وعدد عدوهم وعدته. فيكون مضمون الأمر هو أن يكون خروج المؤمنين للاستطلاع أو للقتال فى جماعة تصغر وتكبر وفقا لنوعية المهمة القتالية وعدد أعدائهم وعدتهم.

وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾

التفســـــير:

الخطاب فى الآية إلى جموع المؤمنين المأمورين بالجهاد أو إلى جنود المسلمين، أو

إلى جموع من يظهرون إيمانهم بمن فيهم الذين أضمروا الكفر والذين هم ناقصوا الإيمان جاء قوله تعالى مبينا للمخاطبين بالنص أنه يكون منهم من يتأخر عن الجهاد أو يتثاقل فى النفرة إليه والخروج «وإنَّ منكم لمن ليبطئن»، ويقبل المعنى أن يكون لمن يبطىء غيره ليثبطه عن الجهاد. وجملة القول يقبل أن تكون اعتراضية، ويقبل أن تكون موصوفة فيكون مما يتوجب الحذر منه جانب هؤلاء المتثاقلين عن الخروج للجهاد.

وقوله تعالى «فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علىَّ إذ لم أكن معهم شهيدا» هو فى بيان المزيد من حال المتباطئين عن الخروج للجهاد وما يكون منهم، خصت الآية بالذكر الحال التى يصاب فيها المجاهدون بأذى من العدو كهزيمة أو قتل، وأظهرت ما يكون من أمر هؤلاء المتثاقلين فيها وهو أنهم يفرحون بنجاتهم مما أصاب المجاهدين، ويقولون فى أنفسهم أنه تعالى قد أنعم عليهم بتجنيبهم معاناة ما عاناه المجاهدون بقعودهم عن المشاركة فى القتال وعدم مشاهدتهم أحداثه .

وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

التفســــير:

الآية فى بيان ما يكون من المتثاقلين عن الجهاد فى سبيل الله والمتباطئين من المنافقين إذا ما أصاب المؤمنون خيرا اجتنوه من الجهاد من نصر وغنيمة «ولئن أصابكم فضل من الله» وذلك مع اعتبار أن المصيبة قد تكون فضلا من الله على المؤمن، يكفر بها عن ذنبه، ويمتحن بها ليثاب على الصبر والرضاء بقضائه خيرا مما فقد .

ويلاحظ أن نص الآية قد نسب الفضل إليه تعالى بذكره تعالى أنه من عنده ـ مع ذكر لفظ

الجلالة ــ على حين أنه تعالى لم ينسب المصيبة إليه تعـالى فى الآية السابقـة، وربما كان ذلك لأن المصيبـة ـ إن لم تكـن لصالح المصاب ــ تكون عقابـا فتكون المصيبة مـن نفسه. وذلك مع تنبيه المؤمنين إلى حُسْن مخاطبته تعـالى والحديث عنه، فلا يقولون إن الله أصابهم بالمكاره.

أما ما يكـون من هؤلاء المتثاقليـن فهو قول أحدهـم ـ وهو قولهـم جميعا ـ «ياليتنـى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما». يقـوله كأنه لم يكن معدودا بين المؤمنين أو متحـالفا معهم مما كان فى مقدوره، أو كان متوجبا عليه أن يجاهد معهم على مـا يبين من قوله تعالى «ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما».

فيكون مفاد نـص الآية أنه إذا ما تفضـل الله تعالى على المـؤمنين المجاهديـن بخير من النصر والغنائم، تحسَّر المتخلفون عـن الجهاد على ما فاتهم من كسب نتيجـة تقاعسهم عن الجهاد فيتمنون لو كانوا قد شاركوا فيه وكسبوا ما حرموا كسبه، يتمنون هذا كما لو كانوا ممتنعا عليهم المشاركة فى الجهاد لكونهم فى غير جانب المؤمنين.

والقول ــ بهذا المعنـى ـ يبيـن أن تحسّـر المتخلفيـن لم يكـن لعدم مشـــــاركتهم فى الجهـــاد وإنمـا كان لمـا فاتهـم من كسـب، كما يبيـن أن ما فاتهـم من كسب إنما كـان بفعلهـــم .

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾

التفســـير:

الآية الشريفة فى خطاب المؤمنين، تتضمن أمرا وتتضمن بيانا تقريريا. فالأمر هو ما تضمنه قوله تعالى: «فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة» قيل ـ فى تفسيره ـ إن المراد من الاسم الموصول «الذين» هم المنافقون الذين أمروا بترك النفاق والمجاهدة مع المؤمنين بعد ما صدر منهم من التثبيط والنفاق. والذى نراه غير ذلك ـ والله أعلم ـ إذ نرى أن فعل الأمر فى قوله تعالى «فليقاتل» قد تضمن أمرا، كما تضمن بيانا للمستجيبين لهذا الأمر وتعريفا بهم، فهم «الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة»، أى الذين يبيعون الحياة الدنيا ويشترون بها الآخرة، وهم الذين يفعلون ذلك لوجهه تعالى وليس بقصد الكسب وجنى الغنائم، وليس هذا هو حال المنافقين.

والمعنى هو أن المراد بالاسم الموصول «الذين» هم المؤمنون الذين قصدوا بالجهاد وجهه تعالى والذين باعوا دنياهم واشتروا أخراهم.

أما البيان التقريرى فقد تضمنه قوله تعالى «ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما» جاء فى صيغة جملة شرطية مفادها أن من يقاتل دفاعا عن دين الله مبتغيا وجهه تعالى مستهدفا النصر ـ ولو بذل فى سبيله حياته فمات شهيدا ـ يكون له منه تعالى أجر عظيم، جاء مجهلا للإطماع فيه، يكون للمجاهد فى سبيل الله فى حالة موته قتيلا وفى حال فوزه وغلبته، جاء التعبير عن القتل ليشمل كل ما هو دونه من جرح وعجز، كما يشمل خسارة معركة؛ وجاء قوله تعالى «أو يغلب» فى مقابلة «القتل» ليشمل السلامة فى النفس والبدن، والانتصار على العدو. وهو ما يعنى أن الجهاد فى سبيل الله مثيب بالأجر العظيم، وإن تفاوتت فيه أقدار المجاهدين.



وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

أولا : الأســـماء :

الوالـــدان : جمع، مفـرده وليد، ووليـدة. وقيل إن المـراد بهم ــ فى معنـى الآية ــ العبيد والإماء.

التفســـــير:

الخطاب فى الآية موجَّـه إلى المأمورين بالجهاد فى سبيل الله فى الآيـة السابقة، جاء فى صيغة الاستفهام الاستنكارى للحـث على تجنب المستفهم عنه وهو عدم المقـاتلة فى سبيل الله، وتحريضا عليه، فيكون معنى قوله تعالى «وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان» هو تحريض للمؤمنين المأمورين بالقتال على الجهاد فى سبيل الله، وفى سبيل المستضعفين من الـرجال والنساء والولدان ـ كما يبين مـن عطفهم على لفظ الجلالة، والمراد بكون الجهاد فى سبيلهم يختلـف عن المراد بكونه فى سبيل الله. فمعنى أن يكون الجهاد فى سبيل هـؤلاء هو أن يكون فى سبيل تخليصهم مما هم فيـه من بلاء، فالمراد بالمستضعفيـن من الـرجال والنساء والـولدان هـم هؤلاء الـذين بقوا فـى مكة لـم يستطيعوا الهجـرة إلـى المدينة استضعفهم الكافـرون لقلّتهم ولضعفهم فمنعوهم مـن الهجرة وأساءوا معاملتهم. فكان استنكار التقـاعس عن قتال مشركى مكة تحريضا علـى مقاتلتهم وعلى فتح مكة يكون فـى سبيل الله ويكون وسيلة لتخليص هـؤلاء المستضعفين مما هم فيه مـن مذلة. جاء ذكر النساء والولـدان فيهم للاستعطاف ولاستثارة النخوة والمروءة، والذى يبـدو لنا أنه لم

يشترط فى الولدان المراد من القتال ـ من بين المراد ـ تخليصهم مما هم فيه، أن يكونوا مؤمنين، لأن فى تخليصهم من الكفر وتربيتهم فى كنف الآباء المسلمين ما يؤدى إلى إيمانهم فى غالب الأمر.

ثم إنه تعالى يصف هؤلاء المستضعفين بما يكون منهم بقوله تعالى «الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليًّا واجعل لنا من لدنك نصيرا»، فهم يقولون ما جاء بقوله تعالى أنهم يقولونه. وقوله دعاء إليه تعالى وتضرع أن يخرجهم من مكة، بأن يمكنهم من الهجرة التى كان الكافرون يمنعونهم منها، وصفت بأن أهلها ظالمون ـ بمعنى مشركون ـ ولم يلحق الوصف بمكة ذاتها ـ وهى المعبَّر عنها بالقرية ـ تنزيها لمكة التى كرَّمها تعالى من أن توصف بما يهين، فلم يقل تعالى «من القرية الظالمة» على نحو ما جاء بقوله تعالى «وكأين من قرية بطرت معيشتها»، ونسبة الظلم إلى أهلها إنما كان لإشراكهم، وقد وصف تعالى الشرك بأنه ظلم عظيم .

وباقى قول المستضعفين، وهو باقى الدعاء هو «واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا». هو دعاء يتضمن تخليصهم من الكافرين الذين تولوا أمورهم وحكموهم فى مكة وبتولية أمورهم من يرضاه لهم سبحانه وتعالى، يكون من القريبين لديه، أى من المؤمنين، والمعنى المستفاد من الدعاء أنه يكون ذلك بأحد سبيلين:

أحدهما : هو تمكن المستضعفين من الهجرة فيدخلوا فى ولاية المؤمنين فى المدينة.

والآخر هو فتح رسول الله ﷺ فيدخل المستضعفون فى ولايته وولاية المسلمين. وباقى دعاء المستضعفين هو أن يجعل لهم سبحانه وتعالى من لدنه النصير، أن من يرعى مصالحهم ويحفظ عليهم دينهم وينصرهم على أعدائهم. والدعاء ـ على هذا المعنى ـ تخصيص لعموم ما دعوا به فى شأن من يتولى أمورهم وكيفية توليه الأمر بكونه بالانتصار على كفار مكة.

وهو مـا كان بفتـح مكة علـى رسول الله ﷺ أخـّروا ذكره فـى دعائهـم تأدُّبـا فـى السؤال معـه تعــالى.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦﴾

التفســــير:

الآية فى تحـريض المؤمنين علـى قتال الكافرين تضمنـت تحريضا لهم بـوصفهم بصفة يتمنى المؤمن أن تكون له. فذكر تعالى أن المؤمـن حين يقاتل فإنه يقاتل فى سبيل الله مبتغيا وجهه تعالى وإعـلاء شأن دينه «الذين آمنوا يقـاتلون فى سبيل الله»، ثم ذكر تعـالى الفرق بين قتال المـؤمنين وقتال الكـافرين بقـوله تعالـى «والذيـن كفروا يقاتلـون فى سبيل الطـاغوت» والمعنى أنهم يقـاتلون دفاعا عـن الكفر الذى أغواهم الشيطـان ليكونوا عليه وأطـاعوه فكان دفاعهم دفاعاعن الشيطان الذى يؤيدهم وحده.

ثم جاء قوله تعالى «فقاتلوا أولياء الشيطان» وهـو أمر صريح بقتال الكافرين، وصفوا بأنهم أولياء الشيطـان لبيان أنه لاناصـر لهم إلاّه، حرص تعالـى أن يبيّن للمؤمنپن أنـه لايستطيع أن ينصرهـم لأن غاية قـوته ضعفٌ «إن كيد الشيطـان كان ضعيفا». والقـول يشير إلى ظهـور قوة المؤمنين المؤيَّـدين به تعالى على قوة المؤيّـدين بالشيطان، وصفت قدرته بـالكيد لأنه إنما يكيد لبنى آدم، ووصفت بالضعـف لبيان أنها لن تضر المؤمنين ولن تمنـع من نصرة دين الله، ولم يـرد ذكر حوله تعـالى وقوتـه فى المقابل لانتفـاء وجه المقارنـة بين الآبق وبين المـالك،

و إيذانا بظهورها فى نصرة المؤمنين .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

التفســــير :

قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ تعجيـب من أمر الذيـن يقولون قـولا ولا يوافق فعلهم قـولهم، أو الذين يقولون قولا يفيد قوتهم فى الحق واستعدادهم للبذل فإذا ما تطلب الأمر منهم استعمال القوة والبذل فى المواجهة كان منهم الجبن والتـردد. وقد قيل إن الذين يعود عليهم الموصول «الذين» هم عبد الرحمن بن عوف، والمقداد بن الأسود الكندى، وسعد بن أبى وقاص، سألوا رسول الله ﷺ أن يأذن لهم فى قتـال المشركين بمكة لما أصابوا المؤمنيـن بأذى، قبل أن يأذن الله لنبيِّه بالقتال، فأمرهم ﷺ أن يكفوا أيديهـم عن المشركين وأن يمسكوا عن القتال، وأمرهم بإقام الصلاة و إيتاء الزكاة، ثم كان منهم بعد الهجرة إلى المدينة لما أمروا بالقتال أنهم خشوا الكافرين وقالوا ما ورد ذكر فى الآية بألسنتهم أو فى قلوبهم.

والذى نراه ـــ والله أعلم ـ عدم موافقـة الرواية للمعقول والمعروف. فمـن غير المعقول ولا المتصور أن يكون مـن صحابى جليل مثـل عبد الرحمن بـن عوف ومثل سعد بـن أبى وقاص الخوف من الكافرين والتـردد فى قتالهم عن جبن مع ما هو معلوم مـن أمر المؤمن أنه يفضل

الموت فى سبيل الله ويعتبره فوزا على الحياة مـع العصيان، ثم إن المعروف عند سعد بن أبى وقاص أنه تولـى ـ من بعد ـ قيادة الجند، ولـو كان قد عرف عنه الجبن والتـردد فى القتال لما أسندت إليه يوما قيادة جنود. ونرى أن الذين أشيرإليهـم ـ فى نص الآية ـ بالموصول «الذين» المتعجب مـن أمرهم هـم اليهود الذيـن طلبوا مـن موسى عليـه السلام أن يقاتلـوا الأدوميين والموابيين، فلما أمرهم بقتال العماليق قالوا «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون»، ثم أبدوا ذات الرغبة ليوشع بن نون فلما أمرهم بدخول فلسطين خشوا الفلسطينيين وقتالهم فكان منه اللجوء إلى الحيلة مستعينا ببغى، ثم أبدوا ذات الرغبـة لطالوت ـ وهو شاول ـ فلما أمرهم بعدم الشـرب من النهـر قبل القتال، شـرب أكثرهـم لئلا يقـاتلوا. أشيرإليهـم لأنه يكـون فى صفوف المسلميـن مثل هؤلاء، وقـد يؤكد هـذا النظر مجىء الفعـل «قيل» فى صيغـة المبنى للمجهول، ولو كانت الرواية المروية عـن سبب نزول الآية صحيحة لجاء الفعل مبنيا للمعلوم منسوبا إليه ﷺ .

والمراد بقوله تعالى «ألـم ترإلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيمـوا الصلاة وآتوا الزكاة» هو هلاً نظـرت وتعجبت مما كان من هؤلاء الـذين سألوا نبيهم أو قائدهـم أو ملكهم أن يأذن لهم بالقتال فى وقت لـم يكن مأذونا له فيه بالقتال فقال لهم كفُّـوا أيديكم الآن عن أعدائكم وابدءوا بمجاهدة أنفسكم و إلزامها دعائم الدين من إقام الصلاة و إيتاء الزكاة .

والمراد بقوله تعالى «فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية» هو بيان ما كان من هؤلاء عندما أُذن بالقتال وأمروا به، إذْ كان من بعضهم الخوف من الكفار أن يقتلـوهم كما يخشون المـولى جلّ وعلا أن ينـزل بهم عقابه ــ جاءت «إذا» فى قوله تعالى لتبين أن فعلهـم كان سقطة غير متوقعة ـ بل إن خوفهم أعـداءهم ربما فاق خوفهم المولى سبحانه وتعالـى بدلالة أنهم جرءوا على عصيان أمره تعالى بـالقتال الذى نقله إليهم

نبيهم ولم يجرءوا على مقـاتلة أعدائهم. وقد قيل ـ فى هذا الشـأن إن معناه أنهم ربما خشوا أعداءهم أشد من خشية المؤمنين إياه تعالى، ونرى هذا ـ والله أعلم ـ بعيدا عن المعنى المراد لأنه لا يتصور أن تكون فوق خشية المؤمنين ربهم خشية .

وباقى عمل هؤلاء هو ما جاء بقوله تعالى «وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب» ذكر النص ما يكون من حديثهـم مع أنفسهم من تمنِّيهم على الله لو كان لم يقدِّر عليهم قتـال أعدائهم ويكتبه عليهـم، يقولون هـذا تارة ويستعطفونـه تعالى أخرى أن يـؤجل فرضه عليهـم إلى وقت آخر، وذلـك على ما يبين من عـدم عطف القول الأخير علـى ماسبقه بأداة عطف بما يفيد استقلال كل منهما عن الآخر.

وقوله تعالـى ـ فى ختام الآية ـ «قـل متاع الدنيا قليل، والآخرة خيـرٌ لمن اتَّقى ولا تظلمون فتيلا»، هو أمر منه تعالـى لرسوله ﷺ لمن يجبن عن القتال ممَّن كان منـه من قبل إبداء الرغبة أن يؤذن له فيه ممَّن هم على شاكلة المذكـور أمرهم فى الآية، ومضمون الأمر هو أن يقول لهم إن جميع ما يتمتع به فى الحياة الدنيا، ومنه الحياة ذاتها والتمتع بالأموال هو قليل فى حجمه وفى مدة الاستمتاع به، لكـون الحياة الدنيا وحياة البشر والمخلوقات إلـى نهاية فهى لا تقاس بما فى الآخرة من المتع التى تدوم لخلودها؛ ولذلك فإنه يكون لمن أطاع الله وقاتل ولم يجبن فى الآخرة ـ إن مات وإن حيى ـ ما هو أفضل مـن متع الدنيا، وصف المطيع بالمتقى لبيان أن المتقى ليس هو الذى اتقى الموت فجبن عن القتال وإنما هو الذى قاتل ولم يجبن فكان من المتقين. والقول ـ بهذا المعنى ـ يحض على أداء التكليف بالجهاد فى سبيل الله .

ثم إنه تعالى قد أوضح أنه يكون الخير الموعود به كاملا لا ينقص منه ـ كما وعد تعالى به ـ قطع النص بأن مستحقيه لا يظلمون فيه شيئا مهما قـلَّ وحقر، للتنبيه على أن ما وعد به تعالى يكون بمثابة الحق للموعودين، مع كونه تفضلا منه تعالى .

■■■■■

أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾

أولا : الأســـماء :

١ ـ **البـــروج** : فى قوله تعالى «فى بروج مشيدة» جمع، مفرده برج، وهو القصر، وقيل إن المراد بها قصور فى السماء الدنيا، وقيل ــ وقد يكون الأقرب إلى المراد ـ أنها الحصون والقلاع. وقيل إنها البروج المعروفة فى السماء .

٢ ـ **المشيدة** : قيل إنها المطلية بالشيد ـ وهو الجص ـ ونرى والله أعلم ـ أنه يبعد أن يكون هذا هو المراد باللفظ فى معنى الآية لأن الطلاء لا يكسب البناء منعة، وقيل إن المراد بها ـ فى معنى الآية ـ هو «المرتفعة» لأن ارتفاع الحصن يكسبه منعة، وقيل إنها المحصَّنة.

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالى فى الآية يتضمن خطابين:

أولهما : موجَّه إلى هؤلاء الذين قالوا «لولا أخرتنا إلى أجل قريب»، ثم إلى عامة المنافقين واليهود فى المدينة، جاء فى عبارة تقريرية تتضمن رداً على قائلى القول ــ فى جزء من الخطاب ـ وتتضمن بيان أعمالهم ـ فى الجزء الآخر منه ـ .

وثانيهما : أمر منه تعالى إلى رسوله ﷺ، ثم تنتهى الآية بتذييل يشير إلى صفة المنافقين واليهود المتعلقة بأعمالهم .

فقوله تعالى الموجَّه إلى القائلين «لولا أخرتنا إلى أجل قريب» ـ الذين اعتقدوا أن فى خروجهم للجهاد تعريضهم للموت فطلبوا تأجيل وقوعه ـ هو «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة»، وهو إعلام لهم بأنه متى حلَّ أجلهم المكتوب لهم وجاءت ساعة موتهم المقدَّرة،فإن شيئا مَّا لا يمنع عنهم الموت، جاء التعبير عن وقوع موتهم بتشبيه بليغ مستمد من معنى «يدرككم» إذ يصوِّر الأمر كما لو كان الموت كائنا حيًّا يلاحقهم وهم يفرون منه، وأنه يدركهم ويأخذ بهم. وجاء التعبير عن عجز الاحتياط عن درء الموت بقوله تعالى «ولو كنتم فى بروج مشيَّدة» ومعناه الظاهر ولو اتخذتم القلاع والحصون، أو لو سكنتم أبراج السماء، وذلك لإفادة معنى لزوم حصول الموت فى الأجل المقدَّر لحصوله، وبالكيفية المقدر أن يكون بها. والقول بهذا المعنى يتضمن حثًّا على عدم الانضياع لنوازع النفس من الحرص على الحياة بالجبن عن الجهاد، فى سبيل الله .

وقوله تعالى الموجَّه إلى عموم المنافقين وإلى اليهود فى المدينة المخبر عن أعمالهم ـ وهى أقوال ردَّدوها ـ هو : «وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك»، ذلك أنه صادف هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة عام رخاء، ثم أعقبه زمن جدب فقال هؤلاء إن الرخاء كان منه تعالى، وإن الجدب كان لوجوده ﷺ بين ظهرانيهم ـ فى تعبير عن التشاؤم من وجوده بينهم ـ كذلك قال المنافقون إن النصر فى بدر كان من الله، وإن الهزيمة فى أُحد كانت منه ﷺ، فجاء قوله تعالى مخبرا عن قول هؤلاء وهؤلاء .

والخطاب الثانى فى الآية هو أمره تعالى رسوله ﷺ بأن يقول لهم مضمون قوله تعالى «قل كل من عند الله»، وبمعناه أنه تعالى هو سائق الخير ومنزل الضرَّ، قد يكون الخير مثوبة منه تعالى فى الحياة الدنيا، وقد يكون ابتلاء واختبارا، وقد يكون الضرُّ عقوبة معجَّلة فى الحياة الدنيا، وقد يكون اختبارا بالمحنة، وقد يكون هذا وذاك لحكمة لا نعلمها .

وتذييل الآية بقوله تعالى «فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا» هو تعيير للقائلين بأن الخير من الله وبأن الشر منه ﷺ بأنهم الجهلة الأغبياء. فهم من الجهل بحيث لم يعلموا أنه تعالى صاحب الأمر كله وأنه ليس لبشر أن ينفع أو يضر إلا بإذنه تعالى وعلى ما قدر بمشيئته. وهم من الغباء بحيث لم يفهموا القرآن العظيم ولم يفهموا التوراة والإنجيل، وقد جاءت جميعها بما يدل على أنه تعالى وحده صاحب الأمر.

مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

التفســـــير:

الخطاب فى الآية إلى رسول الله ﷺ على الظاهر، وإلى المؤمنين وإلى جميع من علم به من الناس كما يبين من قوله تعالى «وأرسلناك للناس رسولا» على الحقيقة. هو إعلام بحقيقة الأمر فى شأن وقوع الحسنة ووقوع السيئة - والمراد بهما هو ذات المـــراد بهما فى الآية السابقة من النعم والبلايا، وليس من الطاعات والمعاصى. فيكون فى قوله تعالى ردٌّ على قول القائلين إن الخير الذى أصابهم كان منه تعالى، وإن الشر الذى أصابهم كان من رسول الله ﷺ.

ومعنى قوله تعالى «ما أصابك من حسنة فمن الله» أنه إذا نال المرء خيرٌ وإحسان، كان ذلك فضلا من الله ونعمة أنعم بها على المرء مهما كان عمل المرء صالحا، لأنه لا يكافىء عمله الصالح بالغا ما بلغ من القدر والعظم نعمة واحدة مما أنعم الله بها عليه، ومنها نعمة تمكينه عمل الصالحات.

ومعنى قوله تعالى «وما أصابك من سيئة فمن نفسك» أن البلايا تكون عقوبات على

ذنوب ارتكبها المرء فيكون هو سببها، ولذلك جاء قوله تعالى «فمن نفسك» لأن المرء يعمل السيئة مختارا، ولا يمنع ذلك كون البلية نازلة منه تعالى عقوبة، فتكون ـ من حيث الإيجاد ـ منتسبة إليه تعالى .

وقوله تعالى «وأرسلناك للناس رسولا، وكفى بالله شهيدا» يفيد عدَّة أمور، فهو من جهة يعلى قدر رسول الله ﷺ بإظهار مكانته وهى كونه رسولا مرسلا منه تعالى، وفى هذا نهى عن الإساءة إليه ﷺ بالقول لتنافى حصول ذلك مع واجب الطاعة والتبجيل لرسل الله. كما أنه يتضمن ردًّا على القائلين إن السيئة تكون منه ﷺ ودفاعا عنه ما يبطل قول القائلين. ثم إنه ـ من جهة أخرى ـ يفيد عمومية رسالته ﷺ وأنه إنما بعث للناس كافة. وما كان ذلك إلا لأنه تمام الدين وكماله مما يفيد كونه خاتم النبيين والمرسلين بالضرورة. وقد جاء تأكيد هذه المعانى جميعها بقوله تعالى «وكفى بالله شهيدا» بشهادته تعالى على كونه ﷺ مرسلا منه تعالى للناس جميعا، مع أنه تعالى القائل مما كان لا يحتاج معه إلى شهادة، فكان قوله تعالى إن فى شهادته بذلك ما يكفى بذاته على الصحة مما يقطع فى الأمر بالناجز القاطع مما لا يكون بعده قول لقائلين .

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠

التفســـير:

قوله تعالى «من يطع الرسول فقد أطاع الله» جاء فى شكل الجملة الشرطية، أداة الشرط فيها «من» وفعل الشرط هو إطاعة الرسول، وجوابه إطاعة الله. وقد جاء قوله تعالى هذا من بعد إثباته تعالى رسالة رسوله ﷺ وبعثه للناس وليس للعرب وحدهم. ليثبت أن طاعة

رسول الله ﷺ هي طـاعة له تعالى. وفي القـول ما يفيد أنه ﷺ لا ينطق إلا بما هـو من عند الله. فهو المبلـغ أحكام ربّه والمفصل لهـا والمفسر، فتكون طـاعته طاعـة لله تعالى. فيكون قـوله تعالى هذا ـ وقد أثبت لمن أطاع رسول الله ﷺ أنه أطاعه تعالى ـ قد تضمن أمرا بطاعته ﷺ

وقولـه تعالى «ومـن تولى فمـا أرسلناك عليهـم حفيظا»، وقد جـاء أيضا في شكـل جملة شرطية حذف منها جـواب الشرط وقام مقامه تعليل له، مفاده أنه من أعـرض عن طاعتك فإن أمره يكون لله تعالى الذي أمر بطاعتك. والقول ـ على هذا ـ يفيد توجيه رسول الله ﷺ إلى عدم الحزن لإعـراض المعرضيـن عن الطـاعة، لأنه لمـا كان غيـر حفيظ عليهـم يحفظ أعمـالهم ويحاسبهم بها، فقد تـأكدت رسالته وانحصرت في التبليغ، وقد أداهـا عليه الصلاة والسلام، ليبقى حساب غير الطائعين إليه تعالى مرسل رسوله ﷺ.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ في الآية ـ وصف لأعمال المنافقين، وشأنه تعالى معهم فيما يعملون، وفيما يكون عليه رسول الله ﷺ معهم.

فقوله تعالى «ويقولون طاعة» هو إخبـار عما يكون من المنافقين في حضرة رسول الله ﷺ، إذ يقولون له «أمرنا طاعة»، أو «طاعتك طـاعة» فتكون «طاعة» خبرا لمبتدأ محذوف. والمعنى أنهم في أمرهم مطيعون إيّاه ﷺ.

وقوله تعالى «فإذا بـرزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول» هـو بيان لما يكـــون مـن بعضهم الـذين قـد يكونـون رؤساءهـم ومحـرضيهم، إذا أنهـم بالخـروج من عنـده ﷺ والابتعـــاد عنه يدبـرون بليل ـ علـى المستفاد مـن «بيَّت» ـ خـلاف ما ذكروه، والمـراد أنهم يدبرون عصيانه ﷺ ويدبرون له، فهذا هو الذى يخالف ما أعلنوه من الطاعة .

ويذكـر تعالى فعله مـع هذه الطائفة مـن المنافقين بقولـة تعالى «والله يكتب مـا يبيتون»، والمعنى أنه تعالى يثبت ما بيتوا عليه الأمر من عصيانه ﷺ عليهم فى صحائفهم ليعاقبهم به. والقول ـ بهذا المعنى ـ يتضمن تهديدا للمنافقين فاعلى هذا الذنب .

ثم يجـىء قوله تعالـى ـ فى شأن مـا يكون من رسـوله ﷺ ـ بقولـه تعالى «فأعـرض عنهم وتوكل علـى الله» وهو أمر منه تعـالى بالإعراض عنهـم بعدم الكشف عنهم وبعـدم معاقبتهم بنفاقهم المـذكورة صورته. وأن يوكـل أمره فى حفظه منهـم ومن مكائدهم إليه تعـالى. وهذا منسوخ بقوله تعالى «يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين».

ويطمئن سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأنه كافيه شرورهم ونتائج مكرهم ونفاقهم بقوله تعالى «وكفى بالله وكيلا». فهو ﷺ غنىٌ به تعالى عن العالمين .

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾

التفســـــير:

جاء قوله تعالـى ـ فى مبتدأ الآية ـ «أفلا يتدبرون القرآن» فـى صيغة استفهام يتضمن إفادة معنى عدم تـدبر الذين يعود عليهـم الضمير المستتر فى «يتـدبرون» ـ وهم المنافقـون ـ القرآن العظيم، كما يتضمن استنكار عدم تدبرهم القرآن.

والمراد بالتدبُّر هو التفكر في الأمر فيكون بمعنى التفكير في القرآن وفي مغانيه. وأصل «التدبر» من «الدبر». فهو التدبُّر في أدبار الأمور وعواقبها، ثم استعمل في معنى التأمل مع الفكر. وقوله تعالى هذا دليل على وجوب التدبر في القرآن لمعرفة أحكامه وحجة له وعلى القائلين بأنه لا يؤخذ في تفسير القرآن إلا بما ثبت عن النبي ﷺ، لأن مفاده أنه كان متوجبا على المنافقين قراءة القرآن وتدبر معانيه، وهو ما لم يفعلوه .

وقوله تعالى: «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» يفيد عدة أمور، فهو يفيد أنهم لم يفعلوا ما كان متوجبا عليهم فعله من تدبر معاني القرآن ونظمه و إخباراته وأحكامه.

وأنهم لو كانوا قد فعلوا ذلك لتحقق لهم ـ بالعقل ـ أنه منزَّل منه تعالى على رسول مرسل منه تعالى، فكان منهم الإيمان الحق بالقرآن كتابا منزلا وبرسول منه تعالى، وكان منهم الإيمان لرسوله ﷺ إيمانا صحيحا، وكانت منهم طاعته. ويفيد أيضا أنه كان يتأكد لهم ـ فيما لو تدبروا القرآن ـ أنه منزل من الواحد الأحد، لعدم وجود اختلاف في نظمه بين بعضه والبعض في البلاغة، ولعدم مخالفة ما تضمنه من ذكر واقعات الأحداث الماضية مع الثابت المتحقق، ولعدم وجود تناقض بين بعض أحكامه والبعض الآخر ـ مع مراعاة النسخ في الأحكام بما يوافق تغير الحال لتحقيق المصلحة ـ ولعدم مخالفته ما جاء في الكتب المنزلة منه تعالى في شأن العقيدة من إيمان بالله وتوحيد وعدم الشرك.

وذلك لأنه لو كان غير الله هو القائل لكان محتما أن يكون منطويا على صور من الاختلاف فيما تم ذكره ـ وهو كثير ـ مما يستوجب كثرة الاختلاف. وقوله تعالى هذا يثبت أن عدم إيمان المنافقين إيمانا صحيحا مرجعه تقصيرهم في حق أنفسهم بعدم تدبر القرآن .

■■■■■

وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

التفســـير:

قيل إن الضمير المتصل فى «جاءهم» يعود علي المنافقين، أو على ضعاف المؤمنين، وإن مفاد الجملة الشرطية أنه إذا جاءت هؤلاء أخبار متعلقة بجهاد المسلمين المشركين مما يبعث الأمن فى النفوس من نصر عليهم أو إعداد جيد لملاقاتهم أو علموا بها. أو جاءتهم أخبار بعكس ذلك مما يبعث الخوف في النفوس مثل حصول إعداد جيد للعدو أو وقوع ما يسيء بالمؤمنين. فإنهم كانوا يبادرون بإذاعة ما بلغهم من الأخبار وعلموا به رغم أنه قد لا يكون ما عرفوه صحيحا فى جملته أو فى بعضه، ورغم أنه قد لايكون من المصلحة إذاعته ونشره لما قد يترتب عليه ـ إن صح وإن لم يصح ـ من نتائج، إذا قد يؤدى إلى تهاون من المؤمنين حال كون الأخبار مما يبعث الأمن فى النفوس، وقد يؤدى إلى توهين عزائمهم فيما لو كانت الأخبار مما يبعث الخوف فى النفوس. وأنه كان من الأفضل أن يرد هؤلاء أمر الأخبار والأنباء إلى رسول الله ﷺ وإلى قواد المسلمين وأمراء السرايا ليكون منه ﷺ ومن هؤلاء الإخبار بالصحيح من الأنباء، وبما يجوز إفشاؤه منه يفهمه ويستخرجه من لديه القدرة على الفهم الصحيح للقول بذكائه وفطنته وخبرته. وأن القول ـ بهذا المعنى ـ هو تعييب لمسلك هؤلاء المذكورين.

والذى نراه ـ والله أعلم ـ أن قوله تعالى ـ فى الآية «وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به، ولو ردُّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم» قد جاء

مرتبطا بنعيه تعالى علـى المنافقين عدم تدبرهم القرآن ـ فى الآية السابقـة ـ وحثه على تدبره، فيكون هؤلاء هم الذين يعود عليهم الضمير فى «جاءهم»، يسمعون القرآن أو يقرؤنه بغير تدبر فيكون منهم أنهم يشعرون أن فيه تناقضا بين بعضـه والبعض فيبعث فيهم الأمن فيذيعوا ذلك بين المؤمنين قصـد بث الشك فى نفوسهم أو فـى نفوس ضعافهم الذين يكـون منهم الخوف من مظنة أن يكـون المنافقون على صـواب فيما أذاعوه، أو يقرؤنه بغيـر تدبر بما فيـه من آيات الوعيد فيخـافون أنهم لا ينفعهم إيمانهم إن آمنـوا. وأنهم لو كانوا قد لجـؤا إلى رسول الله ﷺ فيما استشكل عليهم فهمه على الوجه الصحيح بما أحدث شعورهم بالأمن أو بالخوف لكان قد أوضح لهم جليـة الأمر، ولو كانوا قد لجـؤا إلى صحابته ﷺ لأوضح لهم مـن هؤلاء الذين أوتوا فقه الكتاب ما استشكل عليهم فهمه. ولعلم الـذين لديهم القدرة على التمييز الصحيح من بين المنافقين المراد بما استشكل عليهم فهمه على الوجه الصحيح من القرآن، لكنهم لم يفعلوا هـذا ـ على ما يبيـن من أداة الشرط ـ «لو» واستمرؤوا أن يظلـوا على ما هم عليـه من جهالة يقرؤون تارة فيبتهجون ويقرؤون أخرى فيخافون .

وقـوله تعـالى «ولـولا فضـل الله عليكم ورحمتـه لاتبعتـم الشيطان إلا قليـلا» هو خطـاب للمؤمنيـن، يذكرهم سبحـانه وتعالى أنـه قد تفضل عليهـم بنعمة الهدى إلى الصـواب وهو الرجوع إلى رسول الله ﷺ ليفسِّر لهم ما أجمل من القرآن ويفصل، وإلى سنَّته من بعده، وإلى أهل العلم من الذين يستنبطون الأحكام، فمكنهم بذلـك من ولوج سبيل الرشاد، وأنه كان منه هذا الفضل رحمـة منه تعالى بهم، ويعلمهـم بأنه لولا تفضلـه تعالى عليهم بذلـك لكان من أكثرهم الانصيـاع إلى الشيطان الذى أوحى للمنافقيـن ما أوحى فى شأن القـرآن فأذاعوه، أو لاستمع أكثـرهم إلـى وسوسته فـى القرآن، فلا ينجـو من الـوقوع فى أحـابيله إلا قليلـون، هم أصحاب الإيمان الراسخ ذوو العقول المستنيرة.

■■■■

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾

أولا : الأســـماء :

التنكيـــل : فى قولـه تعالى «وأشد تنكيلا» هو التعـذيب، مأخوذ من «النكـل» وهو القيد كان يقيد به من يعذبون لمنعهم من الفرار. وهو عموم العقوبة .

ثانيا : التفســـير:

. قيل إن «الفاء» فى قوله تعالى تعالى «فقاتل فى سبيل الله» متعلقة بقوله تعالى «ومن يقاتل فى سبيل الله فيُقتـل أو يَغلب»، وقيل إنها متعلقـة بقوله تعالى «وما لكم لا تقاتلـون فى سبيل الله». والذى نراه ـ والله أعلم ـ أنها متعلقة بقوله تعالى «و إذا جاءهـم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به» وذلك لأنه لمـا كان من شأن فعل المنافقين إثارة الشك فى نفوس المؤمنين ـ فى اعتقادهـم ـ وعلى مـا حدث ممـن ترددوا فى الخـروج وراء المشركين بعـد يوم أُحـد، وممن ترددوا فى الخروج فى غـزوة بدر الصغرى، فإنه جاء مناسبا أن يتبع هذا أمـره تعالى رسوله ﷺ أن يقاتل ولو قاتل وحـده، يطمئنه إلى أنه ناصره ولو لم يناصره أحـد. فى إشارة إلى أنه ﷺ لا يضره فعل المنافقين ولا يضـره استماع ضعاف المؤمنين لهم وتأخرهـم عن الجهاد وتراخيهم فى الطاعـة، فجاء قوله تعـالى «فقاتل فـى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك» أمـرا لرسول الله ﷺ بالقتال، وتقـريرا بأنه ﷺ غيـر مكلف إلا عمل نفسه. غيـر مسئول عن تقاعـس المتقاعسين. ووعدا يتضمنه الأمر بالنصر على المشركين .

ثم إنه تعالـى أتبع أمره هذا بأمر آخر تضمنـه قوله تعالى «وحرِّض المـؤمنين» بمعنى حث المؤمنيـن على القتـال وأزل من نفـوسهم التـردد والتخاذل ــ على المستفـاد من معنـى لفظ

«حرض» وهو إزالة الأذى. وربما كان ذلك لأن من رسالته ﷺ أن يهدى إلى الأقوم وأن يدعو إلى طاعة الله الآمر بجهاد المشركين.

وقولـه تعالى «عسى الله أن يكـف بأس الذين كفـروا» هو إعلام منه تعـالى بأنه يكـف عن المؤمنين أذى المشركيـن على ما سبق بيانه مـن أن «عسى» تفيد الوعد وأنه تعـالى متى وعد فقد نفذ وعده وصار.

ثم جاء قولـه تعالى «والله أشد بأسأ وأشد تنكيـلا» تذنيلا للآية متضمنا تقريـرا بمنزلة بيان سبب حصول كـف أذى المشركين عن المـؤمنين، وهو وعد المولـى الذى هو الأشد بأســـا ممَّـن خلق ومنهـم المشركـون، والأشد قـدرة على المعـاقبة والتعـذيب، فـلا يرد بـأسه عـن الكافرين.

مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾

أولا: الأســــماء:

١ ـ **الشــــفاعة**: فى قوله تعالـى «من يشفع شفاعة حسنة» هى الوسـاطة بالقول لإيصال منفعة إلـى المشفوع فيـه أو لتخليصه مـن ضرر يصيبـه، فيها معنـى الضم أو التعضيـد فيصير المشفوع فيه ـ بعد الشفاعة ـ شفعا بعد أن كان وترا.

٢ ـ **الكفـــــل**: فى قوله تعالى «يكن له كفل منها» هو النصيب، وهو القدر المساوى.

٣ ـ **المقيــت**: فى قـوله تعالى «وكـان الله على كل شـىء مقيتا»، هو المقتدر، أصلـه من «القوت» يتقوى به المرء فيصير ذا قدرة.

ثانيا : التفســـير:

جاء قوله تعالى فى الآية من بعد ذكره تعـالى لرسوله ﷺ أنه غير مكلف إلا نفسه، ومن بعد أمره أن يحرض المؤمنين على القتال، لإذهاب ما قد يعترى بعض النفوس من أنه ﷺ لا يثاب على أمره المؤمنين بـالجهاد مثلما أنه لا يسأل عن إحجامهم عنـه، وأيضا لبيان أنه ﷺ يثاب على تحريـض المؤمنين على القتال وعلـى طاعة المؤمنيـن إيَّاه باعتبار أن تحريضـه هذا من قبيل الشفاعـة الحسنة لأنه ﷺ كان بمثابـة وسيط بين المأمـورين بالقتال وبين المـولى جل وعلا وصلوا بوسـاطته إلى ثوابه تعالى بطاعتهـم ما أمروا، فجاء قوله تعالى «مـن يشفع شفاعة حسنة يكن لـه نصيب منها» مثبتا أنـه يكون له ﷺ نصيب يـزاد فيه من الحسنات مثلمـا كان للمطيعين ثواب .

وقوله تعـالى «ومن يشفع شفاعـة سيئة يكن له كفـل منها» هو إخبار جاء فـى شكل جملة شرطيـة مفاده أن كل مـن حرض على سيئة فـارتكبت يكون لـه نصيب من العـذاب المقدر عقابا على ارتكابها مساوٍ لعذاب مرتكبها وعقابـه، فيدخل فى هذا المحرضون المؤمنين على عصيان رسول الله ﷺ أمره بالجهـاد، ويدخل فيه الذين يشفعون فى حـد من حدود الله، لكون ذلك إثما .

وفى ختام الآيـة جاء قوله تعالـى «وكان الله على كل شـىء مقيتا» من بعد ذكرة تعـالى أنه يثيب الشـافع فى الخير ويعـاقب الشافـع فى الشر، مثبتـا قدرته على الإثـابة وعلى المعـاقبة ليتحقق معنى الوعـد والوعيد فى قوله تعالـى حثًّا على الشفاعة فى الخير ونهيـا عن الشفاعة فى الشـــر.

وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

أولا : الأســـــماء :

التحيـــــة : فى قولـه تعالى «وإذا حييتم بتحية»، المـراد بها ـ فى معنى الآيـة ـ السلام، وهو بمعنى السلام من المكاره، أصلها من الدعاء بالحياة. وقيل إن المراد بها هو الهدية.

ثانيا : التفســـير:

بعد ذكره تعالى ـ فى الآية السابقة ـ الشفاعة فى الخير وحضّه عليها بذكر انتفاع الشفيع بثواب الشفاعة وما شفع فيه. وفى الشفاعة مؤازرة وصلة طيبة، فإنه تعالى ـ فى الآية ـ حضّ على إفشاء السلام بين المؤمنين بألفاظ ذات معنى يخالف ما كانت عليه ألفاظ التحية قديما مثل «أبيت اللعن»، وفيها مما كان تعارف عليه العرب فى الإسلام من قولهم «حياك الله»، وذلك بنزول قوله تعالى «تحيتهم يوم يلقونه سلام» وقوله تعالى «فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله». وهو أمر تعلق بسلوك خلقى للمسلمين.

وقد جاء الحث على تقديم التحية وعلى ردها، وبيان كيفية الرد بقوله تعالى «وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها»، والمعنى أنه إذا ما ألقى إليكم أحد بتحية الإسلام فقد وجب عليكم الرد عليه بتحية مماثلة. تكون أحسن منها، بمعنى أنها تزيد عليها، أو مثلها على الأقل. فإن كانت التحية بـ «السلام عليكم» كان ما يزيد عليها هو «عليكم السلام ورحمة الله» و«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ـ من باب أولى ـ وكان ما يماثلها من الرد هو «وعليكم السلام»، وإن كانت التحية بـ «السلام عليكم ورحمة الله» كان ما يزيد عليها من الرد هو «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته»، وكان ما يماثلها من الرد هو «وعليكم السلام ورحمة الله». وفى عبارة النص جاءت أو «للتخيير»، بمعنى التخيير بين رد التحية بمثلها، وبين الزيادة فيها عند الرد، والمشهور أن الرد بالزيادة أفضل، وأنه تزاد به الحسنات، وأن جواب التحية واجب على الكفاية، ينوب فيه من رد التحية عن الباقين ويجزيهم رده، وأنه يتعلق

بحق من حقوق الله، والمستفاد من سنة رسول الله ﷺ القولية أنه من الصدقة أن يكون التسليم على الناس مع طلاقة الوجه .

وقوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «إن الله كان على كل شيء حسيبا» ، يفيد أنه تعالى يجزى على إلقاء السلام وعلى الرد عليه، وأنه يكون منه إيفاء الجزاء أو الزيادة فيه بحسب قدر التحية. والقول بهذا المعنى يتضمن حثًّا على الزيادة فى عبارة السلام وعلى الزيادة فى الردّ عليه .

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾

التفســــير:

بعد ذكره تعالى ما يكون منه من الإثابة على فعل الخير مهما ضؤل أو صغر، فإنه تعالى يثبت فى الآية وجود يوم يجمع إليه فيه الناس جميعا ليحاسبهم على ما عملوا، والقول على عمومه يفيد توجيهه إلى جميع الناس بمن فيهم هؤلاء الذين ينكرون البعث والذين يرتابون فيه .

وقوله تعالى «الله لا إلٰه إلا هو» هو نفى الألوهية عن غيره تعالى و إثباتها له وحده. وقوله تعالى «ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه» هو قسم بذاته تعالى، على ما ينبين من «النون المشددة» بعد «اللام» مما معناه أن تكون اللام هى لام القسم. والمقسوم عليه هو جمع الناس جميعا فى مصير واحد هو الموت، ثم صيرورتهم جميعا إليه، بحشرهم فى يوم القيامة، وصف بأنه لا ريب فيه، بمعنى أنه لا زيب فى وقوعه وفي قيام الناس فيه وحشرهم إليه تعالى ليحاسبهم بما عملوا .

وقوله تعـالى «ومن أصدق من الله حديثـا» جاء في صيغة سؤال استنكاري لإفـادة أن قوله تعالى هو الصدق، وأنه ليس هناك من هو أكثر منـه تعالى صدقا ـ والقول يعني انتفاء المماثلة في الصدق أيضـا ـ والمراد بهذا لزوم وقـوع كل ما وعد بـه وما توعد، فيكون القـول قد تضمن معنى الترغيب في الطاعة والترهيب من العصيان .

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ۝٨٨﴾

أولا : الأســــماء:

المنافقون : في قوله تعالى «فما لكم في المنـافقين»، قيل إن المراد بهم ـ في معنى الآية ـ قوم جاءوا المدينة بـزعم أنهم مؤمنون، ثم استأذنوا رسول الله ﷺ في الـرجوع إلى مكة لبعض شئونهـم وبقوا فيها بعـد ارتدادهم عـن الإسلام. وقيـل إنهم قوم مـن المسلمين في مكـة لم يهاجـروا بإرادتهم. وقيـل إنهم الذين رجعـوا من أُحد وتخلـوا عن رسول الله ﷺ. وقيـل إنهم الذين أغاروا على «السرح» وأخذوا يسارا راعي رسول الله ﷺ ومثَّلوا به حيًّا حتى مات.

ثانيا : التفســـير:

الخطاب في الآية موجه إلى عموم المؤمنيـن، تعلق بحدث كان سبب النزول الظاهر، وهو اختلاف رأي المسلمين فـي طائفة من القـوم كانوا يدعـون أنهم آمنوا وأسلموا، فقـال بعض المؤمنين بإيمانهم ووجوب مودتهم، وقال آخرون بكفرهم ورأوا معاملتهم معاملة الكافرين .

وقولـه تعالـى «فما لكم فـي المنافقيـن فئتين» هـو سؤال استنكاري لحـال المؤمنيـن من الاختلاف في شـأن قوم قطع النص القـرآني بنفاقهم، والقـول ـ بهذا المعنى ـ يتضمن معنى اللوم للفئة من المسلمين التي رأت اعتبار هؤلاء المنافقين مؤمنين، وكان منهم معهم المودة .

ويكمل قـوله تعالى هـذا ـ فيما تضمنـه من لوم القائليـن بإيمان المنـافقين ـ بيان مـوقفه تعالى منهم، أو بيان حالهم منه تعالى بقوله تعالى «والله أركسهم بما كسبوا» ومعناه أنه تعالى قد ألقى بهم منكسيـن فى هوة الكفرـ من بعـد الإيمان ـ وذلك بسبب ما كسبـوا من الفعال، والمراد بهذا «بسبب ارتدادهم عن الإيمان»

ثم إنه تعالى يبين للذين قالوا ـ من المؤمنيـن ـ بإيمان هؤلاء المرتدين خطأ قولهم وخطل رأيهم فى عبارة تتضمن معنى التوبيخ على فساد الرأى، وذلك بقوله تعالى «أتريدون أن تهدوا من أضـلَّ الله»، جاءت عبـارة القول فى شكـل استفهام إنكـارى يبين خطأ القـائلين بـإيمان هؤلاء المنافقيـن الذين كان مفتـرضا فيهم أن يدركـوا أن المنافقين قد اختـاروا الضلال على الهدى فقدر عليهم سبحانه وتعالى الضلال، ومفاد هذا أنهم لا هادى لهم .

وتختتم الآيـة بقوله تعـالى «ومن يضلـل اللهُ فلن تجد لـه سبيلا» جاء فـى عبارة تقريـرية تتضمن حكما عاما مفاده أنه ليس ثمة سبيل أو طريق أمام من ثبت فى علمه تعالى أنه يختار الضلال على الهدى فقدر عليه الضلال، لكى يهتدى وأنه لا يكون له هاد من دون الله، وتشـير ـ من جهة ثانية ـــ إلى حال المنافقين المعنيين بالنص، وهو كونهم كافـرين، ذكروا ـ فى مبتدأ الآية ـ بالمنافقين، وذكروا فى ختامها بأنهـم الضالون، لبيان أنهم كافرون، يموتون على الكفر، لانعدام سبيل الخروج منه.

وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ
حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾

التفســـير:

الآية في بيـان موقف المنافقيـن من المؤمنين وفي بيـان ما يجب أن يكون عليـه المؤمنون معهم. فقوله تعـالى «ودوا لو تكفرون كما كفروا» هـو إخبار منه تعالى بما انطـوت عليه قلوب المنافقيـن من جهة المـؤمنين، فهم يتمنـون ويرجـون أن يرتد المـؤمنون عن الإسـلام فيعودوا كافريـن. وقوله تعالـى «فتكونون سواء» هـو بيان للدافع لـدى المنافقين على إرادتهـم الكفر للمؤمنيـن وتمنيهم وقـوعه منهم، وهـو أن يتساووامعهـم في الكفر والضـلال، فلا تكـون لهم أفضلية عليهم.

ثم إنه لمـا كان مفاد ما سبق بيـانه هو انطواء قلوب المنافقيـن الكافرين والمرتـدين منهم على كـراهة المسلمين مما لا يـؤمن معه جـانبهم، فقد جـاء أمره تعالى نـاهيا المؤمنيـن عن موالاتهم بقـوله تعالى «فلا تتخـذوا منهم أولياء حتى يهاجـروا في سبيل الله». جاءبأمـر قاطع بعدم اتخـاذ الكافـرين أولياء، والظـاهرمن عبـارة النص أن هـذا الأمر يكون إلـى غايـة هي حصول الهجـرة من هـؤلاء في سبيـل الله، بمعنى أن تكون الهجـرة مبتغى بهـا وجهه تعـالى، وليس شيئا سواه من الأغراض الدنيوية، ويبدو أن ذكر غاية الأمر قد أريد به إقامة الحجة على المنافقين بكفـرهم، يقوم عليها الدليل مـن امتناعهم عن الهجرة في سبيـل الله، وذلك لسبق ذكره تعـالى - في الآية السابقة - أنه لا سبيل للهدى لمن أضله الله.

وبعد ذلك يجيء قوله تعـالى «فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجـدتموهم»، وهو أمر جاء فـي عبارة جملـة شرطيـة، أداة الشرط فيهـا «إن» لبيان غلبـة حصول التـولّي علـى عدم حصوله ومعنى قوله تعالى أنه إذا أعرض هـؤلاء المنافقون عن الهجرة في سبيل الله فإنه يكون مقطوعا بكفرهم، فيكون أمـركم معهم أن تأخذوهم - حال قدرتكم علـى هذا - وأن تقتلوهم. جاء ذكر «الأخذ» قبل ذكر «القتل» في مضمون الأمـر لأنه يقع قبله، ولأنه يعني القدرة عليهم، فيكون المأمـوربه هو القتل وليـس الأخذ والأسر. ويدعم هـذا القول ذكره تعالـى وجوب وقوع

القتل حيث يوجد الكـافرون. فيكون متوجبا قتل الكافر المأخوذ أو المـأسور فى المكان الذى وضع فيه، لتحقق وجوده فيه. وقيل إن المستفاد من النص هو إيجاب القتل ولووجد الكافر فى الحرم. والذى نراه ـ والله أعلـم ـ أن النص القرآنى «ومن دخله كان آمنـا» هو نص خاص يقيِّد عمومية نص الآية مما لا يجوز معه قتل الكافر فى الحرم ما لم يقاتل المؤمنين فيه.

وقولـه تعالى ـ فـى ختام الآية ـ «ولا تتخـذوا منهم وليا ولا نصيـرا» يتعلق بالحالـة التى لا تكون فيها القـدرة على أخذ الكافريـن وقتلهم، وفيها تكون طـاعته تعالى بالانتهـاء عن اتخاذ أولياء منهم أو ناصرين، فلا تكون منهم ولاية ولا يقام معهم تحالف .

إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾

أولا : الأســــماء:

السـلم : هو ـ فى اللغة ـ اسم رجل، وشجـر من العضاة، وهو الاستسلام والصلح، وهذا هو المراد به فى معنى الآية .

ثانيا : التفســير:

بعد أن أمر تعالى بقتل الكـافرين فى الآية السابقة فإنه تعالـى استثنى فى الآية فئتين منهم فلم يوجب قتلهم جاء بشأنهم قوله تعـالى «إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، أو

جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم». أولى الفئتين هم الذين ينتهى سعيهم إلى الوصول إلى قوم بينهم وبين المؤمنين عهد على عدم القتال، لأنهم بوصولهم إليهم أو التجائهم إليهم يلتزمون بما يلتزم به هؤلاء ــ بحكم عهدهم ـ مع المؤمنين، فجاء قوله تعالى بأنه يكون لهم الأمان الذى هو للمعاهدين، وذلك باستثنائهم من حكم قتل الكافرين. وقد قيل إن الآية نزلت فى قوم من قريش أتوا بنى مدلج وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد أن يوادعهم ويوادعوه. فإن آمنت قريش آمنوا، وأن الآية نزلت باستثناء القرشيين الذين وصولوا ديار بنى مدلج من الأمر بقتل الكافرين ما التزموا عهد بنى مدلج معه ﷺ .

وثانى الفئتين المستثنتين من الأمر بقتل المشركين هم الذين جاءوا المسلمين وقد حصرت قلوبهم أن يقاتلوهم أو يقاتلوا قومهم. بمعنى أنهم الذين يجيئون المسلمين وقد كفوا عن قتالهم، وممتنعين عن قتال قومهم الكافرين، بمعنى أنهم ممتنعون عن القتال ضد المسلمين وعن القتال فى صفوفهم أو لصالحهم، جاء التعبير عنهم بقوله تعالى «حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم» بمعنى أنها ضاقت عن ذلك. وفى وصفهم بما فى صدورهم ما يوحى بأن امتناعهم عن القتال إنما كان لترددهم بين الكفر الذى كانوا عليه وبين الإيمان يراودهم الأقدام عليه، ولربما يكون فى الامتناع عن قتالهم خيرٌ لأنفسهم فيؤمنوا.

ثم يجى قوله تعالى «ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم» تحبيبًا للمؤمنين فى عدم مقاتلة هؤلاء الذين امتنعوا عن قتالهم، وعن قتال الكافرين ، معلما إياهم أنه كان ممكنا أن تقوى قلوبهم فيكون منهم قتال المؤمنين، وأنه لما كان كل شىء إنما يقع بإذنه تعالى فإنه لم يأذن به، ولو أراده لكان .

وبعد ذلك يبين تعالى شروط التزام المؤمنين بعدم قتال أهل هذه الفئة المستثناة من حكم قتل الكافرين بقوله تعالى «فإن اعتزلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم

سبيلا». جاءت جملة النص.شرطية لبيان شروط التزام المسلمين بعدم القتل، وتخلص هذه الشروط ـ على المستفاد من فعل الشرط ـ فى عدم التعرض للمؤمنين «فإن اعتزلوكم»، وعدم قتالهم مع القدرة على ذلك «ولم يقاتلوكم»، ومصالحتهم «وألقوا إليكم السلم». ونتيجة تحقق هذه الشروط فى فعال الذين جاءوا المؤمنين كافين عن قتالهم وعن قتال قومهم الكافرين، هى ما جاء به جواب الشرط فى الجملة الشرطية «فما جعل الله لكم عليهم سبيلا»، وهو عدم أخذهم وقتلهم، جاء التعبير عنه بانعدام وجود السبيل إليهم، للمبالغة فى إظهار النهى عن قتلهم. وقيل إن حكم النص منسوخ بقوله تعالى ـ فى سورة التوبة ـ «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم». ومعلوم أن سورة التوبة نزلت بعد الفتح وبعد انقطاع الحروب.

سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

أولا : الأســـــماء:

١ ـ آخريـــــن : قيل إن المراد بهم ـ فى معنى الآية ـ قوم كانوا يريدون أن يأمنوا المؤمنين وأن يأمنوا قومهم، فيجيئون رسول الله ﷺ يعلنون إسلامهم رئاءً ونفاقا، ثم يعودون إلى قومهم يعبدون الأصنام.

٢ ـ الفتنـــــة : قيل إن المراد بها ـ فى معنى الآية ـ الشرك، وقيل هو قتال المسلمين.

ثانيا : التفســـــير :

الخطاب فى الآية للمؤمنين، فى شأن فئة أخرى غير الفئتين السابقة الإشارة إليهما، كانوا يريـدون أن يأمنوا المسلميـن فيأتون إلى رسـول الله ﷺ يعلنون إسلامهـم، وكانوا يـريدون أن يأمنوا قومهم، فكانوا إذا عادوا إليهم يعبدون من دون الله ما يعبدون، أظهر تعالى ما يكون منهم ـ وهو المطلع على القلوب ـ وهو أنهم إذا مـا دعوا إلى الشرك عادوا إليه، وإذا دعوا إلى قتال المسلمين كانوا عليهم، فهم فى الحالين منتكسون «كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها». .

ومضمون الخطاب الموجه إلى المؤمنين فى شأن مـا يكون منهم معهم جاء به قوله تعالى «فإن لم يعتزلوكـم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلـوهم حيث ثقفتموهم». جاء قوله تعالى فـى شكل جملة شرطية تضمنت ـ فى بيان فعل الشـرط ـ شروط عدم قتلهم، وذلك لورود فعـل الشرط منفيا. ومضمون الشروط هـى: اعتزال المؤمنين، بمعنـى الكف عن مناوأتهـم والتعرض لهـم بأى شكـل من الأشكـال، وإلقاء السلـم إليهم، بمعنـى مهادنتهـم ومصالحتهم، وكف أيـديهم عنهم، بالامتناع عن كل مـا يؤذيهم من قتال ومن تـأييد عدوهم عليهم بـالمال أو السلاح. ومفـاد النص أنه إذا تحققـت هذه الشـروط لم يكن للمـؤمنين أن يقتلوهم، فـأما إذا لم تتحقق فيكون الأمر معهـم هو ما تضمنه جواب الشرط فـى النص، وهو أخذهم وقتلهم حيثما وجدوا وحيثما عثر عليهم أو تمكن المؤمنون منهم .

وبعد أمره تعـالى بقتل هؤلاء إذا لـم يكن منهم ما نصَّـت عليه الآية من اعتـزال المؤمنين وإلقاء السلم إليهم وكف أيديهم عنهم.

فإنـه تعالى أوضح ــ فى مقابله مـع ما يكون مـع الذين اعتزلـوا ولم يقاتلوا وألقـوا السلم المذكورين فى الآية السابقة ـ أنه يكـون للمؤمنين عليهم السبيل المبين، بمعنى أنه يكون قد ظهر الدليل الواضح والحجة الظاهرة علـى استحقاق هؤلاءالقتل، فيكون للمؤمنين ولوج كل طريق يوصلهم إلى قتلهم.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن
قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن
لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

أولا : الأســــماء :

١ ـ الخطـــأ : فى قولـه تعالى «أن يقتل مـؤمنا إلا خطأ»، المراد بـه فى معنى الآية ـ مع انعدام القصد، ويشمل ذلك الفعل، والشخص، والنية. فيدخـل فى معنى القاتل خطأ ـ على الشائع ـ من لم يقصد الفعل الذى أدى إلى الوفاة مثل من سقط على آخر لسبب لا يد له فيه، فأدى ذلك إلـى ارتطام رأس الأخير بالأرض ووفـاته بسبب ذلك، ويـدخل فيه من لـم يقصد الشخص، مثل الذى رمى شخصا وجد بين الأعداء معتقـدا أنه منهم ثم تبيَّن أنه مؤمن وليس منهم، ويدخـل فيه من دفع شخصا قـاصد إزاحته فأدى دفعـه إلى وفاته. والرأى عنـدنا ـ والله أعلم ـ أن من لـم يرد الفعل، إذا كان لم يقع منه خطأ أدى إلى حدوث الفعل من عدم تبصر أو عدم انتباه فـإنه لا يكون مخطئا، ولا يـوصف فعله بالخطأ فـلا يكون عليه شىء، وتكـون الدية لأهل القتيل من بيت مال المسلمين. أو من مال الدولة.

٢ ـ الديـــة : فى قوله تعالـى «ودية مسلمة» هو ما يؤدى إلى أهل القتيـل خطأ من مال، فيه معنى العقوبة، ومعنى التعويض، وجبر الخاطر.

ثانيا : التفســـير :

بعد إيجابـه تعالى قتل الكافـرين الذين لم يعتـزلوا المؤمنين ويلقوا إليهـم السلم ويكفوا

أيديهم عنهم، فإنه تعالى أورد الحكم العام فى شأن القتل، وذكر حكم صورة من صوره، فبين تعالى أن القاعدة العامة هى تحريم قتل المؤمـن بغير حق، ثم استثنى من القاعدة حالة وقوع القتل بطـريق الخطأ مـن القاتل ــ أى بغير قصد ــ ولايعنى الاستثناء أنـه أبيح القتل بطـريق الخطأ، لأن الإباحة لاتكون إلا فيما هو مقصود ـ وليـس القتل الخطأ كذلك ـ ولكن المراد هو رفع إثم القتل عمنّ وقع منـه القتل بطريق الخطأ، فلا يأثم بالقتل و إنمـا تنحصر مسئوليته فى خطئه أو تقصيره فى التروى، وفى النتيجة التى أحدثها هذا الخطأ وهى وفاة الغير.

وقوله تعالى «ومن قتل مؤمنا خطأ فتحريـر رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا» هو بيان لما أوجبه تعالى على من قتل مؤمنا خطأ، وقد أوجب عليه تعالى أمرين هما:

تحرير رقبة مؤمنة ــ بمعنى إعتاق عبد مؤمن ـ ودية يعطاها أهـل القتيل. ويلاحظ فى شأن هذين الجزاءين أنهما من نوعين مختلفين:

فأولهمـا: لايفيد منه أهـل القتيل. ولكن يفيـد منه مجتمـع المسلمين الذى يكسـب حرا مؤمنـا، وكما قيل فإنـه لما كان مجتمع المسلميـن قد فقد بالقتـل الخطأ أحد أعضائه، فـإنه يكسب عضـوا جديـدا بإعتـاق العبد الحر لأن العتـق إحياء، والمعنـى المستفاد مـن هذا أن الإعتاق يكون تكفيرا عـن خطأ القاتل المتمثل فى عـدم احتياطه على الوجه الكـافى أو على تقصيره فى مراعاة ما كان يجب عليه مراعاته، فيكون فى الجزاء معنى العقوبة.

وثانيهما : وهو الدية يفيد منه أهل القتيل، فيكون جبرا لخاطرهم وتعويضا عما فقدوه بقتل قتيلهم، فيكون فيـه معنى التعويض، ولهذا كان لهـم أن يتنازلوا عن الدية، لأنهـا حق خاص لهم يملكون التنازل عنه شأن جميع الحقوق الخاصة.

ويلاحظ فـى شأن إعتاق العبد، أو الكفارة أن نـص الآية يفيد أنه يتحقق بـإعتاق أى عبد محكوم بإيمانه ولو كان صغيرا، وبهذا قال البعض أخذا بظاهر النص واشترط آخرون أن يكون العبد المؤمن قد خرج مـن مرحلة الطفولة أو الصغر، كما يلاحظ ـ فى شـأن الدية ـ أنها تؤدى

إلى ورثة القتيـل يقتسمونها بينهم بـذات قواعد تقسيم الميراث ـ على الراجح ـ وأنه إذا لم يكن للقاتل مال تحملت الـدية عنه عاقلته، أى أقاربه الذكور من العصـب، فإن لم يكن لهم مال تـؤدى منه تحملها بيـت مال المسلمين . وفى شـأن تحمل بيت المـال الدية عنـد عدم وجـود مال للقـاتل خطأ يلاحظ أن هذا هـو اتجاه التشريعات العقابية الحـديثة وبه أوجبت المؤتمرات العقـابية مؤخرا بأن يكـون أداء التعويض عن الجـريمة من مال الدولـة عند عدم وجود مال للجانى ممـا يدل على أسبقية تشريع المبدأ من الشريعـة الغراء، وعلى صلاحيتها لكل زمان.

وفى تفصيل استيفاء الجزاءات بالنظر إلى ظروف الحال وبمراعاة القواعد الشرعية العامة، ذكرت الآيـة حكم الحـالة التـى يكون فيها القتيـل المؤمـن أحد أفـراد أعداء المسلميـن من الكفار، فجاء قوله تعالى «فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة» فبين تعالى أن الجزاء يكون جزاء التقصير بمعنى أنه يكون العقوبة على الخطأ ـ أى الكفارة ـ وهى إعتاق عبد مؤمن، ولا تكون هناك دية تؤدى إلى أهل القتيل، وذلك إعمالا للقاعدة التى تقضى بعدم حصول التوارث بين المؤمنين والكافرين، لأن الديـة تأخذ حكم الميراث، ولما كان الكافر لا يرث مؤمنا، فإنه لا يصح أن تؤدى الدية إلى ورثـة القتيل الكافرين. وقد قال البعض أن الدية تجب على القاتل إلا أنها توجه إلى بيت مال المسلمين ولا يأخذها أهل القتيل.

كذلك تناول النـص حالة كون القتيل المؤمن أحـد أفراد قوم من المعاهديـن، وبين ماهية جزاء القتـل الخطأ فـى هذه الحـالة وكيفية استيفـائه فقال تعـالى «وإن كـان من قـوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة» فبين تعـــالى أن الجـــزاء لا يختلف ـ كـأصل عام ـ عن الجزاء فـى حالة كـون القتيل أحد أفـراد مجتمع المسلمين، وجـاء ذكر «الـدية» سـابقا علـى ذكر «تحـرير الـرقبة المـؤمنة» مـراعاة لمصلحـة عامـة، حتى لا يعتقـد المعاهدون أن المسلمين قد نقضوا عهدهم فينقضوه، فجاء تقديم ذكر الدية على ذكر الكفارة

حثًا علـى المبادرة إلى أداء الديـة، وبعده جاء ذكر تحـرير الرقبـة بما يفيد وحدة الحكـم فى الحالين .

ويلاحظ فى شأن الجزاء فى هذه الحالة، أن الدية ـ وإن وجبت كأصل عام ـ إلا أنه يراعى عند تنفيذها حال ورثة القتيـل المؤمن، فإن كانوا كافرين فإنهـا لا تؤدى إليهم، لأنه لا توارث بين المسلم وغير المسلم، كذلك فإنه يستـدل من النص ـ على ما رأى كثيرون ووافق التطبيق العملى ـ أن دية الذمـى مستحقة الأداء إلى أهله الذميين، مراعاة لكونهـا من قبيل التعويض، ولانعدام ما يمنع التوارث بين أهل الملة الواحدة.

وبعد ذلك بين النص القـرآنى الذى لم يُفرط فى شىء ولم يفرِّط حكـم الحالة التى يعجز فيها القاتل خطأ عن أداء الكفـارة عن القتل الخطأ ـ وهى عتق الرقبة ـ فقـال تعالى «فمن لم يجد فصيام شهرين متتـابعين توبة من الله، وكان الله عليما حكيما»، والمعنـى أنه إذا لم يكن لدى القاتـل خطأ رقبة يعتقها ولا مـال يشترى به عبدا ليعتقه، فـإنه يكون عليه صيـام شهرين متتابعين لا يفطر فيهما، فإن فطر وجب عليه الإعادة من البدء.

وقد دلَّ هذا على أن الكفارة من قبيل العقوبة علـى التقصير؛ ولذلك فإنها لا تكون عوضا عن الديـة لاختلاف طبيعتها عن طبيعـة عتق الرقبة. ثـم إنه تعالى بيـن أن فى أداء الجزاءات التى شرعهـا تحقيقا لتوبة القاتـل خطأ يتوب بها الله عليه إذ جـاء قوله تعالى «تـوبة من الله» مفعولا لأجله، نسبت التوبة ـ فى القول ـ إليه تعالى لبيان أنه يتوب بأداء الجزاءات عن القاتل عن تقصيره.

كما بيـن تعالى أنـه قد شرع هـذه الجزاءات بحكـم علمه بأحـوال عباده بمن فيهـم أهل القتيل والقاتل فشـرع مايذهب غيظ قلوب أهـل القتيل وما يتطهر به القاتـل من خطأ تقصيره بوافر حكمته .

■■■■■

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾

أولا : الأســـماء :

المتعمـــد : فى قوله تعالـى «ومن يقتل مؤمنا متعمدا» المراد به ـ فـى معنى الآيــة ـ هو من تـوافر لديه القصـد وتوافرت لديه نيـة القتل ـ بمعنى إزهـاق الروح ـ فأتـى الفعل الذى يؤدى إلـى القتل قاصدا ذلـك، عالما أن الفعل مـن شأنه أن يؤدى ـ بالكيفية التى تـم بها أو بالـوسيلة المستخدمـة ـ إلى إحـداث الوفاة، مع تـوافر النية لـديه فى إزهـاق روح المعتـدى عليـه.

ثانيا : التفســـير :

قوله تعالى فى شـأن قاتل المؤمن عمدا، جاء من بعد ذكر حكم قـاتل المؤمن خطأ الذى تضمن مـا يكون منه تكفيرا عـن خطئه محققا له التـوبة، جاء فـى شأن القاتل متعمـدا ببيان حكم جـزاء الآخرة فقط ـ دون العقـوبة الدنيـوية ـ لبيان أنـه ليس فيه مـا يكفر الذنب إثبـاتا لتحريمه والنهـى عنه نهيا قطعيا. فأثبت تعـالى أن جزاءه الأخروى هو دخـول جهنم والخلود فيها، والمستفاد من ظـاهر قوله تعالى أنه لا تكون مـن قاتل المؤمن عمدا توبة مقبـولة وهو ما تأيد بقول رسول الله ﷺ «نازلـت ربى فى قاتل المؤمن أن يجعل له توبـة فأبى علىّ»، والذى نراه أن الأصل هو ألا تكون من القتل العمد توبة، وذلك لأنه يتضمن إلى جانب الاعتداء على حق الله أو الحق العـام بإفقاد مجتمع المسلمين أحـد أفراده، فإنه أيضا يتضمـن اعتداء على «حق العبد» وهو حق القتيل فى الحياة الذى اعتدى عليـه. ومادام أنه لم يعف عن قاتله فإنه يكون مستوجبـا عقابه فلا تكون من القـاتل توبة مقبولـة منه تعالى لعدم عفو صـاحب الحق

المعتدَى عليه. وإن كـان هذا لا يعنى وجوب حصول عقـاب الآخرة وخلود القاتـل عمدا فى النار وذلك لإثباته تعـالى أنه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمـن يشاء. مما مفاده أنه لا يمتنع عليه تعالى أن يغفـر للقاتل عمدا جنايته فلا يعذبه بها أو أنـه تعالى لا يقضى بخلوده فى النار إذا كانت منه تعالى المشيئة .

وقد أثبت تعالى فى نص الآية بعد ذكر الجـزاء الأخروى أن القاتل مؤمن عمدا يبوء بغضبه تعالى «وغضب الله عليه» جاء معطوفا على مـا قبله مبينا للجزاء ومعلما أنه يكون نتاج غضبه تعالى على فاعل الجرم فيكون الجزاء انتقاما منه، كما أثبت تعالى أنه قد لعن القاتل وأعد له عذابـا عظيما، فكـان جزاؤه المذكـور وهو الخلـود فى جهنـم أثرا لطرده مـن رحمته تعـالى، وعذابـه فيها غير معلوم قـدره وإن كان عظيما علـى ما يبين مـن قوله تعالـى «وأعد له عـذابا عظيما» جـاء إخفاؤه وعدم بيان قـدره مع وصفه بـالعِظم لبيان هــوله لتشيع الرهبة مـن هول الجرم فى النفوس، وهو ما زاد منه بيان أن هذا العذاب العظيم فى جهنـم قد أعد سلفا للقاتل عمدا .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾

أولا : الأســــماء :

١ ـ العـــرَض : فى قوله تعـالى «عرض الحياة الدنيا» هو العارض فـى زمن محدود يزول

بعده، والمراد بـه ـ فى معنى الآيـة ـ متاع الحياة الدنيـا، يزول بزوال حياة المستمتـع به إن لم يكن قبل ذلك..

٢ ـ المغـــانم: فى قوله تعـالى «فعند الله مغانم كثيرة» جمع ، مفرده «مغنـم» وهو ما يُغنم أو يُكسب

ثانيا : التفســـير:

بعد ذكره تعالى خطأ التقصير فى القتل الخطأ وبيان كيفية التكفير عنه، وبيان خطيئة القتل عمدا وأنه لا يكون فيه كفارة وإنما يكون فيه استحقاق العقاب الأخروي، فإنه تعالى تناول فى الآية حالا يتصور فيها أن يقع قتل المؤمـن خطأ أو عمدا وهى حال التنقل فى الأرض أو السفر فى الغزو وفى الجهاد فى سبيل الله، جاء ذكرها بقولـه تعالى «يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى الأرض» خوطب بها المؤمنون، والجملة شرطية يبين فعل الشرط فيها الحال محل النص وهى السفر فى الجهاد. ويبين جـواب الشرط فيها ما أوجبه تعالى على المخـاطبين بالنص «فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمنا»، أمـر تعالى المؤمنين قبل الإقدام على قتل من وقع فى أيديهم أن يتثبتوا من حاله من الإيمـان أو الكفر فلا يقتلون بغير رويَّة وتدبر، والأمر بهذا المعنى يفيد التحوط من وقوع قتل المؤمن بطريق الخطأ أو التقصير.

وقد أتبع ذلك سبحانه وتعالى بنهيه المؤمنين المجاهدين فى سبيله عن نفى الإيمان عمن ألقى إليهـم بتحية الإسـلام، أو أبدى استسـلامه بإلقـاء أى تحية ولـو كانـت تحية الجـاهلية لإظهار إيمانه، أو أبدى ما يفيد ذلك مثل تلاوة الشهـادة. والمعنى هو وجوب أخذهم بالظاهر الذى يكون بـالتحية أو بالقول الدال علـى الإيمان، دون البحث عن مكنـون القلوب، والمراد بهذا هـو النهى عن قتـل ملقى التحية أو القـائل بإيمانه اكتفـاء بما ظهر منـه. ثم يجىء قـوله تعالى «تبتغون عـرض الحياة الدنيا» متعلقا بالحـال التى يكون فيها دافع المجاهـد على قتل من ألقـى التحية هو غنـم ماله الـذى لا يعدو أن يكـون من متاع الحيـاة الدنيا الـزائل، فيكون

الحديث فى الآية عـن قتل عمدى تذرع فيه القاتل باعتقاده كـذب القتيل فيما ادعاه أو أظهر الدليل عليه من إيمانــه، نهى عنه تعالى بالنص على منع الالتجاء إلـى وسيلته. ثم إنه تعالى لما كان قد كشف عـن غاية القاتل الحقيقية من إنكاره إيمان ملقـى التحية أو المبدى إيمانه وهو غنـم مال القتيل، فـإنه تعالـى ـ وهو العليـم بدخـائل النفوس ـ حبـب إلى المجاهـدين الإحجام عن الفعل المنهى عنه وعدم الحزن على عدم غنم الغنائم بتذكيرهم أنه عنده تعالى لهم الغنائم الكثيرة يغنمونها فى الدنيا والآخرة.

وبعد ذلك بيـن تعالى انعدام الحق لدى المجـاهدين فى قتل من ألقـوا السلام إليهـم أو ذكـروا أو فعلوا مـا يدل على إيمـانهم بـدعوى عـدم كفـايته لـلإقنـاع بإيمـــانهم، وذلـك بتذكيـــرهم بحـالهم الذى كانوا عليه وهم بيـن ظهرانى قومهم الكفار فلم يكـن من الرسول ﷺ ومن معه التنقيب عما فى قلـوبهم لبحث موافقة أقوالهم ما وقر فى قلـوبهم، فقال تعالى «كذلـك كنتم من قبل فمـن الله عليكم». ثم إنه لمـا كان فى ذلـك إقامة الحجة عليهـم مما يستوجب الانتهاء عن إنكار الإيمان على من أظهره، فإنه تعالى أمرهم أن يتبينوا قوله ويعملوا به، فيكـون منهم الحذر ألا يقتلوا مـؤمنا بطريق الخطـأ بغير ترو ولا تـدبر، ويكون منهم تبيـن ما يظهره من قـدر عليهم من الأعداء مـن الفعال والأقوال، فإن كـان مظهرا إيمانهم اكتفـوا بهذا منهم فلا يقتلونهم.

وتختتم الآيـة بقوله تعـالى «إن الله كان بمـا تعملون خبيرا» متضمنـا وعيدا لمن لـم يلتزم أوامره فى الآية ونـواهيه بإخباره تعالى عن اطـلاعه على ما يصدر من المخاطبيـن بالنص من أفعال وعلمه ببواعثهم عليها، مما مفاده أنه تعالى مسائلهم عنها .

وقد قيل فى سبب نزول الآية الكثير مما لا يختلف مضمـونه وهو أن أناسا من المجاهدين قتلوا أشخاصـا من بين الكافـرين ذكروا أمامهـم شهادة ألا إله إلا الله، أو أبدوا إسـلامهم، فلم يعتبر ذلك المجاهدون قولا منهم أنهم إنما شهدوا أو قالوا تحت خشية السيف، فنزلت الآية.

وليس بـذى شأن فـى وجوب حكم الآيـة والتزامه سبـب نزولهـا. فالحكم سـارٍ ما قـام ظرف إقامته.

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾

أولا : الأســـــماء :

١ ـ القاعــــدون: قيل إن المـراد بهم ـ فى معنـى الآية ـ الـذين أذن لهم فى القعـود عن الجهاد اكتفاء بغيرهم، وقيل إنهم القاعدون عن بدر، وقيل إنهم المتخلفون عن تبوك.

والرأى عندنا ـ والله أعلم ـ أن المأذون لهم فـى القعود اكتفاء بغيرهم ليسوا منهم لأنهم قد عرضـوا أنفسهم للجهاد فاكتفـى بغيرهم عنهم لعـدم الحاجة إليهـم، فلهم أجر المجاهـدين كاملا لأنهـم مثابون بنيتهم، ولأنهـم لم يقعدوا بإرادتهم، ونـرى أن النص له من العمـــوم ما يفيد تعلقـه بالقـاعدين عمـوما ـ بغض النظر عـن سبب نـزول الآية ـ وذلـك فى كـل زمـان ومكـان.

٢ ـ **أولوا الضــــرر** : فى قـوله تعـالى «غيـر أولى الضـرر» المراد بهـم ـ فـى معنى الآيـة ـ أصحاب العلل والأمراض والعاهات التى تمنعهم من الجهاد بالنفس.

٣ـ **الحسنى** : المراد بها ـ فى معنى الآية ـ هو الجنــــة .

ثانيا : التفســـــير:

بعد ذكره تعالى ما أوجبه على المجاهدين فى سبيله من التحرز من قتل مؤمن بين الكافرين، فقد ناسب ذلك الحديث عن فرضية الجهاد فى سبيله تعالى وفى الحث عليه ببيان عظم ثوابه، فجاء قوله تعالى «لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم» نافيا المساواة بين القاعدين عن الجهاد بالنفس من غير علة من مرض أو آفة أو عاهة تمنعهم منه ـ على ما يبين من استثنائهم من القاعدين بـ «غير» ـ وبين المجاهدين بالنفس. وصفهم سبحانه وتعالى بأنهم المجاهدون بأموالهم وأنفسهم للتدليل على وجوب الجهاد بالمال على جميع المؤمنين، وعلى أن عدم المساواة بين القاعدين ـ غير أولى الضرر ـ وبين المجاهدين تعلق فقط بأمر الجهاد بالنفس دون الجهاد بالمال المفترض تساويهم فيه واجبا وأداء، وتساوى أولى الضرر أيضا معهم فيه، ولبيان أن على المرء أن يجاهد بالمال قبل أن يجاهد بالنفس.

وبعد ذلك جاء بيان ماهية عدم المساواة بين القاعدين وبين المجاهدين بالنفس بقوله تعالى «فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة» فبين أن عدم المساواة يتحقق بتفضيله تعالى المجاهدين على القاعدين، وتكرر ـ فى النص ـ وصف المجاهدين بأنهم المجاهدون بأموالهم وأنفسهم، مع ذكر الجهاد بالمال قبل ذكر الجهاد بالنفس لبيان أسبقية أدائه وعدم ارتباطه بوجوب سبب العجز عن الجهاد بالنفس مما يفيد وجوبه على أولى الضرر لدى وجود القدرة عليه لديهم.

ومقدار التفضيل على ما جاء بقوله تعالى هو «درجة» بمعنى مرتبة، جاءت مجهلة لئلا يعلم قدرها فيكون فى ذلك حث للمؤمنين على الجهاد بالأنفس طمعا فى نيلها فلا يكون منهم القعود عن الجهاد .

ثم جاء قوله تعالى ـ من بعد ـ مطمئنا المؤمنين جميعا بمن فيهم القاعدون عن الجهاد

والمجاهدون بـالنفس بأن لهم بـإيمانهم وبجهادهـم بالمال الجنة وعـدهم بها بقولـه تعالى «وكلا وعد الله الحسنى».

ثم إنه تعالى أعاد التذكير بتفضيله المجاهدين بالنفس على القاعدين لئلا يركن المؤمنون إلى وعده تعالى إياهـم بالجنة فيقعدوا عن الجهاد بالنفس، وربما ـ لهـذا السبب ـ جاء بيان وجه التفضيـل بوصفـه بأنـه أجر عظيـم، دلَّ على وجوب نيلهـم إياه بـوصفه بـأنه أجـر لبيان استحقاقهـم له، ووصـف بالعظم مـع تجهيل قدره لـلإطماع فيـه والحث على نيلـه بالتـالى بالإقدام على الجهاد بالنفس.

ويلاحظ أنـه لم يرد عند بيان المفضوليـن وهم القاعدون استثناء أولى الضـرر منهم لسبق ذكر ذلك ممـا لم تدعمعه حاجـة إلى إعادة الذكـر، وبمراعاة أسباب النزول وقـد قيل فيها إن الآية نزلت دون أن يكون بهـا قوله تعالى «غير أولى الضرر» وصـادف ذلك وجود ابن أم مكتوم عند رسول الله ﷺ فقـال «يارسول الله قد أنـزل الله تعالى فى فضـل الجهاد ما أنزل وأنـا رجل ضرير فهل لى من رخصة» فقال النبى ﷺ «لا أدرى» ثم نـزل عليه ﷺ الوحى بقوله تعالى هذا فأمر زيد بن ثابـت بكتابته. فدل ذلك على عدم تفضيل المجاهدين بـالنفس على القاعدين أولى الضرر فـى الأجر العظيم الذى جـاء به النص مبينا وجـه التفضيل، عملا بالحكـم العام الوارد فى ذات الشأن فى مبتدأ الآية .

دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

التفســـير:

بعد أن بيـن سبحانه وتعالـى ـ فى الآيـة السابقة ـ أنه فضل المجاهـدين بالأنفـس على القاعدين بـالأجر العظيم جاء قوله تعالـى فى الآية «درجات منه» بدلا مـن «أجر» وتفسيرا له،

فهم يعلون القـاعدين درجات مـن درجات الجنة، أو تكون الـدرجة التى فضل بهـا الله تعالى المجاهدين بالأنفس على القاعدين تكون درجة فى العلو، ودرجات فى الجنة. ثم ذكر تعالى أنه تكون لهم مغفرة لذنـوبهم التى ارتكبوها فما لم تكفرها الحسنات وتـذهبها، فلا يؤاخذون بها، وتكون لهم الرحمة ، وقد أمن من شملته رحمة ربه.

ثم جاء قولـه تعالى «وكان الله غفورا رحيما» تذييـلا لقوله تعالى لتقرير وعـده ولتأكيده بما يفيد حتمية حصول المجاهدين على ما فضلوا به على القاعدين .

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾

أولا : الأســـــماء :

١ ـ **الذين توفاهم الملائكة** : قيل إن المراد بهم ـ فى معنى الآية ـ الذين قعدوا عن الهجرة مع القدرة، وقيل إنهم المنافقون الذين قعدوا عن نصرة رسول الله ﷺ، الذين قبضت أرواحهم من قبل، أو الذين تقبض أرواحهم على الحال.

٢ ـ **الملائكـــة** : قيل إن المراد بهـم ملك الموت وأعوانـه من الملائكة، وقيـل إنه ملك الموت ورد ذكره بلفظ الجمع للتفخيم وهذا بعيد الإقرار به

ثانيا : التفســـــير :

بعد ذكره تعالى فـرضية الجهاد فى سبيل الله وكان منه الهجرة فرضـت على المؤمنين فرارا بدينهم من المشركين فـى مبتدأ الإسلام، وبعد بيانه تعالى حال القاعـدين من المؤمنين عن

الجهاد بالنفس، فإنه تعالى أخبر فى الآية عن حال القاعدين عن الهجرة مع القدرة عليها مفضلين عليها مجاورة الكافرين والإخلال بأمور الدين، أو القاعدين عن نصرة رسول الله ﷺ من المنافقين الذين أعلنوا إيمانهم بألسنتهم، ومنهم الذين زادوا على ذلك فخرجوا مع مشركى قريش إلى بدر.

جاء بشأن بيان حالهم قوله تعالى «إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم» بيانا لحالهم وهو كونهم ظالمين أنفسهم بقعودهم عن الهجرة وملازمة الكفار والإخلال بأمور الدين، أو بنفاقهم وقعودهم عن نصرة رسول الله ﷺ، وظلمهم أنفسهم يكون بتعريضها للعذاب، يكونون على هذه الحال إلى حين يأتى كلا منهم ملك الموت بقبض روحه.

ثم إنه تعالى يذكر ما يكون معهم ملائكة الموت حين يقبضون أرواحهم وما يكون بين هؤلاء الظالمين أنفسهم وبين الملائكة من الحوار بقوله تعالى «قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها».

وبيان ذلك أن الملائكة يسألونهم موبخينهم على ما كان منهم من تقصير فى حق الدين بإخفائه وعدم إقامة شعائره لاختيارهم مجاورة المشركين والعيش فى كنفهم، أو من تقاعس عن نصرة رسول الله ﷺ. فيكون من هؤلاء الاعتذار عن ذنبهم بأنهم كانوا من المستضعفين الذين لا قوة لهم مما أعجزهم عن القيام بالواجبات الدينية حتى لا يعرف الكفار أمرهم فيعاقبوهم به، أو أنهم كانوا يخشون إذا ما رجعوا إلى ديارهم عند المشركين أذى هؤلاء إذا ما عرفوهم بين المجاهدين .

فيكون من أمر الملائكة معهم أنهم يظهرون لهم بطلان حجتهم بإظهار انعدام السبب الموجب لبقائهم بين ظهرانى الكفار أو للعودة إليهم وذلك لمقدرتهم على الهجرة وترك ديار الكفار إلى مكان يستطيعون فيه إعلان إيمانهم وأداء واجباتهم الدينية، ونصرة رسول الله ﷺ، وهو رد ينطوى على إثبات نفاق هؤلاء وعلى تقاعسهم عن أداء ما فرضه الدين على المؤمنين

عمدا عملا بما استقر فى نفوسهم من عدم صحة إيمانهم.

وبعد ذلـك يبين تعالى مصيـر هؤلاء القاعديـن عن الجهاد ظلمـا لأنفسهم بقوله تعـالى «فأولئك مأواهم جهنـم وساءت مصيرا» فصرح تعالى بأن مقرهم الذى يـأويهم في الآخرة هو جهنم، ووصفها تعالى بـذمها بأنها بئس المصير، لبيان أن بئس المصير هـو مصير هؤلاء الذين توعدهم بأنها تكون لهم المأوى .

إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾

أولا : الأســـــماء :

حيـــــلة : المراد بها ـ فى معنى الآية ـ الوسيلة والسبب يتمكن بها أو به من بلوغ الغاية.

ثانيا : التفســـــير:

بعد ذكره تعالى الذيـن تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم، والذيـن هم مأواهم جهنم جاء قوله تعالى فى الآية مستثنيا من عدادهم فئة ممـن لم يهاجروا مع القدرة وصفهم تعالى بأنهم مستضعفون فبين أنهم كانوا مستضعفين بالحقيقة وليس بزعمهم، وأكد ذلك ذكره تعالى عدم قدرتهـم على الهجرة أو علـى الجهاد بنفيـه تعالى وجـود الحيلة لديهـم على أداء مـا أوجبه عليهم من الهجرة أو من الجهاد؛ ولذلك كانوا مستثنين من عداد الظالمى أنفسهم .

فقوله تعالى «إلا المستضعفيـن من الرجال والنساء والولدان» يثبت ـ بـالاستثناء بإلاـ عدم دخول المستضعفين على الحقيقـة من الرجال والنساء والولدان فى عـداد الظالمين أنفسهم المـوعـودين جهنـم مصيرا؛ ذكـر منهم الـرجـال لبيـان حال رجـال عـرفـوا بذواتهـم مثـل

عياش بن ربيعة والوليد بن الوليد، وذكرت النساء لبيان حال نساء عرفن بذواتهن مثل لبابة بنت الحارث أم عبد الله بن عياش، وذكر الولدان لبيان أنه كان على أوليائهم إخراجهم من مجتمع الكافرين أو لإظهار وجوب الهجرة على من خرج من طور الصغر مع قرب عهده به

وقوله تعالى «لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا» هو إظهار لحقيقة حال المستثنين من الحكم وهو كونهم مستضعفين بالحقيقة لا يملكون إلى الهجرة أو الجهاد وسيلة أو سببا يوصلهم إلى غايتهم، ولا يعرفون طريقا يوصلهم لمبتغاهم بأنفسهم أو بمساعدة الغير.

فيكون القول حكما تقريريا باستثناء المستضعفين من الحكم السابق إيراده مع بيان الفارق بين المستضعف على الحقيقة والمستضعف بزعمه .

فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ﴿٩٩﴾

التفسـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ يتضمن أمرين:

أولهما إثبات اعتبار عدم الهجرة وعدم مناصرة رسول الله ﷺ ذنبا عظيما، على ما يستفاد من أنه يكون للمستضعفين ـ على الحقيقة ـ مجرد العفو عنهم، مع ما هو معلوم من أن العفو لا يكون إلا عن ذنب مستحق العقاب.

وثانيهما : هو وعده تعالى المستضعفين بالعفو عن ذنبهم هذا، يكون منه تحقيق وعده بحكم كونه العفو الغفور.



﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

أولا : الأسـماء :

المراغـم : فـى قولـه تعـالى «يجـد فى الأرض مـراغمـا كثيرا»، قيـل إن المـراد بها هـو «المهاجـر»، وقيل إنه اسـم مكان مشتـق من «الرغـام» وهو التراب، يقـال «رغم أنـف فلان» بمعنى إلصاق أنفـه بالتراب «كنايـة عن إذلاله»، فيكون المـراد باللفظ فى الآيـة هو «المكان الذى يقوى فيه فيكون منه إذلال أعدائه الذى أجبروه على الهجرة .

ثانيا : التفسـير :

قوله تعالى ـ فـي الآية ـ فى الترغيب فى الهجرة وتحبيبها إلى النفـوس، فقوله تعالى «ومن يهاجـر فى سبيل الله يجد فـى الأرض مراغما كثيرة وسعـة» هو ذكر لبيـان النعم الدنيويـة التى يجنيها من يهاجر مستهدفا وجه الله تعالى، جاء القول فى صيغة جملة شرطية فعل الشرط فيها هو المهاجرة فى سبيل الله، وجوابه هو وجود المـراغم الكثيرة، والسعة، ومعناها من يهاجر فى سبيل الله يجد له فى أرض المهجر المكان الذى يقوى فيه على أعدائه بما يمكنه من إذلالهم فى الدنيا بالانتصار عليهم، كما أنه يجد له فيه سعة من الرزق وهو من خير الدنيا أيضا .

وقوله تعالـى «ومن يخرج من بيته مهاجرا إلـى الله ورسوله ثم يدركه المـوت فقد وقع أجره على الله» هو ذكر لبيان النعـم الأخروية. جاء وصف المهاجر بأنه «من يخـرج من بيته مهاجرا» لبيان شدة وقـع الهجرة فى النفوس، وذلـك لما يكون فى مفـارقة المرء بيته مـن مرارة تصيب

النفس، وجاء اشتراط أن تكون الغاية هى قصد وجه الله واللحاق برسوله ﷺ أو بدعوته بقوله تعالى «الله ورسوله». ثم جاء بيان الجزاء بقوله تعالى «ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله»، ومنه يبين أن هناك أجرا مستحقا جزاء على الهجرة إلى الله ورسوله، يناله الذى يصل إلى مهجره سالما، ويبين منه أيضا أن من لحق به الموت قبل أن يبلغ مهجره بعد أن خرج من بيته مهاجرا أو بعد أن أعد للأمر عدته مع توافر النية، فإنه لا يحرم هذا الأجر، يكون له كما يكون الأجرحقا للعامل الذى أدّى عمله، والمراد بهذا تأكيد الوعد بالحصول على الثواب.

وتختتم الآية بقوله تعالى «وكان الله غفورا رحيما»، لبيان أنه يغفر لمن خرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ذنبه السابق بعدم الهجرة من قبل، وذلك من قبيل رحمته بالعباد التى لم تحرم من أدركه الموت قبل بلوغ مهجره ثواب الهجرة أخذا بنيته وحدها .

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

التفســـير:

ناسب حديثه تعالى فى الآية السابقة عن الهجرة إلى الله ورسوله ـ وفيها ضرب فى الأرض ـ أن يجىء إيضاحه تعالى كيفية أداء الصلاة فى حال السفر مع ما يكون فيه من المشقة المفترضة فجاء قوله تعالى بحكم معلق تنفيذه على شرط واقف، بدأ تعالى بذكر الشرط بقوله تعالى «وإذا ضربتم فى الأرض» فدل على أن شرط تطبيق الحكم هو السفر.

وقد قيل فى «السفر» إنه السفر المباح أى الذى لا يكون فى معصية، مثل السفر للسرقة أو غيرها من الذنوب، وقيل إن السفر فى حد ذاته مباح وأن غير المباح هو فعل آخر يخرج عنه

.مما لا يكون معه تقييد السفر المشروط بأنه ما لا يكون فى معصية.

وقيل أيضا إنـه السفر مسيرة ثلاثـة أيام ولياليها بسير الإبـل أو بالأقدام مشيا مقتصـدا ـ فى البر ـ أو بسرعة السفينة تسير فى ريح معتدلة، وقـدره البعض بالمسافة معتدا فى ذكرها بالمدة المذكورة، وقيل إنه السفر ليوم وليلة، أو السفر للمسافة التى يستغرقها الترحال يوما وليلة. وقيل إنه يكون كل ما يعتبر عرفا من السفر أخذا بإطلاق النص.

أما الحكم الذى جاء به النص فهو قصر الصلاة، والمراد من «الصلاة» هو الصلاة الرباعية يكون قصـرها بصلاة ركعتين بـدلا من أربع. وفى شـأن قوله تعـالى فى شأن هـذا الحكم «إن خفتـم أن يفتنكم الـذين كفـروا» فقد قيـل إن القصر مشـروط بحصول الخـوف من التعـرض لمكروه من جهة الأعداء أو من جهة الكافرين عموما.

وقيل إن القصـر مشروع أيضـا فى الأمـن لأن معنى الشـرط هو إثبـات الحكم عنـد وجود الشرط، لكنه لا ينفى وجـود الحكم عند انعدام وجود الشرط، وقيل إن السنـة الفعلية قد بينت أنه يكون القصر فى السفر مع الأمن وعدم الخوف.

وقد يكون الخوف من فتنـة الكفار موجودا دائما فى حال السفر لما قـد يلحظه المسافر من عدم التـزام الكافرين أداء صـلاة فى السفر، والتـزامه الصلاة مـع المشقة التى يستشعرهـا من السفر فيكون فى هذا فتنة له يدرؤها أن يتخفف من الصلاة بأداء ركعتين بدلا من أربع.

وقوله تعالـى ـ فى ختام الآية «إن الكافرين كـانوا لكم عدوا مبينا» هو تقرير لـواقع موقف الكافرين من المـؤمنين وحال شعورهم منهم وذكر لعلة التخفيف عـن المسلمين المسافرين بما شرع تعالى من قصر الصلاة الرباعية بجعلها ركعتين بدلا من أربع.

■■■■

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

التفســـير:

بعد ذكره تعالى قصر الصلاة فى حال السفر جاء ذكره تعالى ـ فى الآية ـ صلاة الخوف، وهى الصلاة فى حال القتال أو عند توقعه، جاء قوله تعالى «وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة» خطابا إلى رسول الله ﷺ فى شأن صلاة الخوف، وهو حكم غير خاص به ﷺ وحده، إذ يتعلق الحكم بعموم الأئمة من بعده ﷺ. ومعناه «أنك إذا كنت فى المحاربين المجاهدين وأردت أن تقيم بهم الصلاة» ـ وهذا قول جاء فى صيغة جملة شرطية أداة الشرط فيها «إذا» وفعله وجوده ﷺ، أو وجود الإمام وإرادته إقام الصلاة بالمجاهدين ـ والحكم هو ما جاء به جواب الشرط فى الجملة مفصلا، ويخلص فى تقسيم الجنود فئتين ـ على ما يفهم من قوله تعالى «فلتقم طائفة منهم معك»، تقوم إحداهما بالصلاة خلف رسول الله ﷺ أو خلف الإمام، وقد أخذوا معهم أسلحتهم التى لا يشغل عن الصلاة حملها مثل السيف أو

الخنجر أو المسدس أو الرشاش القصير، والمستفاد من القول ومن تقسيم الجنود طائفتين أن الطائفة الأخرى تقوم بحراسة القائمين بالصلاة فتكون مواجهة للعدو، فإذا انتهى المصلون من السجود وأتموا بهذا الركعة الأولى يكون منهم انصرافهم عن الصلاة ومواجهة العدو لحراسة الطائفة الأخرى التى تصلى خلف الإمام «فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم» بمعنى أنه تجيء الطائفة التى كانت قائمة على الحراسة فلم تصلِّ لصلاة الركعة الثانية مع رسول الله ﷺ أو مع الإمام.

وقد تضمن الحكم على هذه الطائفة فى صلاتهم أن يتحرزوا للعدو ويحترسوا منه ويتحصنوا وأن يأخذوا معهم أسلحتهم التى لا يشغلهم عن الصلاة حملها «وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم»، وقد بينت السنة أنه يكون بعد ذلك قيام كل طائفة بصلاة ركعة أخرى، فيكون قد تم لرسول الله ﷺ صلاة ركعتين، كما تم ذلك لكل طائفة من الطائفتين، وقيل إن أهل الطائفة الأولى قد سقطت عنهم القراءة فى الركعة الثانية لأن صلاة رسول الله ﷺ أو قراءة الإمام أجزتهم بأن قامت مقام قراءتهم، أما أهل الطائفة الثانية فتكون عليهم القراءة لأنهم اقتدوا به ﷺ أو بالإمام فى الركعة الثانية وأتم صلاته، فتكون عليهم القراءة فى ركعتهم الثانية لأنهم لم يكونوا مقتدين بالإمام حينئذ. وقد قال البعض إن صلاة الخوف تكون ركعة واحدة للمأمومين على ما جاء فى الآية .

وبعد ذلك يبين تعالى ما يأمل الكافرون حدوثه ويتمنونه بقوله تعالى «ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة» بمعنى أنهم يترقبون منكم أن تتخلوا عن أسلحتكم وعن متاع الحرب فتكون منهم مباغتتكم ومهاجمتكم فى اندفاعة قوية جامعة حال تخليكم عما تدفعونهم به لإلحاق الهزيمة بكم . وقوله تعالى هذا يتضمن بيان العلة فى الأمر بأخذ الأسلحة فى الصلاة .

ثم إنه تعالى ـ تقديرا منه للحال ـ ذكر عدم تأثيم عدم الاحتفاظ بالسلاح عند الصلاة إذا

ما دعت لـذلك ضرورة، واشترط لإباحة هـذا وعدم تأثيمه أن يكون مع الاحتـراز والتحوط من العدو يبـاغت المـؤمنين، فقال تعـالى «ولا جنـاح عليكم إن كان بكـم أذى من مطـر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم، وخذوا حذركم»، جاء فيـه بيان ما يسيغ ترك السلاح بذكر سببين ـ على سبيل المثال :

أولهما : هو حصول الأذى بسبب المطر تتشربه الأمتعـة التى توضع فيها الأسلحة والمتاع فيثقل حملها فى الصلاة بما يرهق المصلى.

وثانيهما : هو حصول الأذى بسبب الضعف من مرض، فلا يأثم من لم يحمل سلاحه عند حصول الضرر من حمله شريطة ألا يتخلى عن الحـذر ليتمكن من أخذ سلاحه عند اللزوم إذا ما شرع العدو فى هجوم .

واختتام الآيـة بقولـه تعالـى «إن الله أعد للكـافريـن عذابـا مهينا» جـاء بمثابـة بيان لعلـة الأمر بـالحذر وهو أنـه تعالى قـد قدر للكافريـن أن يذوقوا فـى الدنيا عـذاب الهزيمة وعـارها يهينهم، وعذاب الآخرة يخزيهم .

فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾

التفســـــير:

الحديث فـى الآية استئناف للحديـث فى صلاة الخوف واستمـرار له، فقوله تعـالى «فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنـوبكم » جاء فى شكل جملة شرطية. أداة

الشرط فيها «إذا» وفعله هو قضـاء صلاة الخوف ـ بمعنى الفراغ منها ـ وجـوابه هو وجوب ذكر الله علـى أى هيئة يكـون عليهـا المخـاطبون مـن قيـام وقعود وعلـى الجنـوب، فـالقول أمـر للمجاهـدين بأنهم بمجـرد فراغهم من صـلاة الخوف فى ميـدان القتال يلتزمون ذكـر الله فى جميع أحوالهم وعلى أى هيئة كانوا من قيـام وقعود واستلقاء على الأجناب، وقيل فى المعنى إنه يفيـد أنه إذا أراد المحـاربون الصـلاة واشتد بهم الخـوف أو حمى وطيـس القتال فـإنهم يصلون كيفما يكونون راكبين أم قائمين، ودون التزام القبلة.

وقوله تعالى «فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة» تضمن ما يلتزمه المقاتلون الذين صلوا صلاة الخوف إذا مـا أمنوا، وهو أداء الصلاة بـأركانها وبكـامل هيئتها علـى ما تكون عليه فـى حال السفر وفى حال الحضر.

وقوله تعـالى ـ فى ختام الآية ــ «إن الصلاة كانت على المؤمنيـن كتابا موقوتا» هـو تقرير بواقـع فرضِه تعـالى الصلاة، تكـون فى أوقات محـددة، أريد به الإعـلام بأنه لا يجـوز إخراج الصلاة عن أوقاتها.

وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

التفســـــير:

الخطاب فى الآية للمجاهدين، جاء فى شأن مهمتهم وما يجب أن يكونوا عليه من سعى إلى النصـر وصبر علـى المشاق.فقولـه تعالى «ولا تهنـوا فى ابتغـاء القوم» هو نهـى قاطـع عن التهاون والضعف عن ملاحقة الكفار وقتالهم، فيكون أمراً بالإقدام على ذلك .

وقوله تعالى «إن تكونوا تألمون فإنهم يألمـون كما تألمون، وترجون من الله مالا يرجون» هو

بيان لسبب النهى أو بيان لانتفاء السبب الذى يسيغ عدم إطاعة نهيه تعالى، وذكر لسبب التزام طاعته. فمعنى القول أنه إذا ما كنتم تعانون آلام الحرب ومشقتها وما تعلق بها من آلام نفسية بمفارقة الأهل، فإن أعداءكم الكافرين يعانون ذات الآلام ويصبرون عليها، مما لا يقبل معه أن تكونوا أقل منهم صبرا. ثم إنكم تأملون فى الله الذى تؤمنون أنكم تقاتلون لوجهه وترجون منه مالا يملك الكافرون أن يأملوه فيه أو يرجوه منه لأنهم لم يؤمنوا بدينه، فأنتم تأملون فى نصره وتأملون فى ثواب الجهاد وثواب الشهادة، وهم من هذا محرومون، والمعنى أن القول يثبت وجوب التزام نهيه تعالى عن الضعف فى ملاحقة الكافرين، وبيان انعدام سبب التردد فى الطاعة .

وتذييل الآية بقوله تعالى «وكان الله عليما حكيما» مفاده أنه تعالى بإخباره عن حال الكافرين قد أخبر بمعلوم له بحكم كونه العليم، وأنه تعالى بأمره بعدم التردد فى ملاحقة الكافرين وعدم التوانى عن قتالهم، إنما كان يأمر بمقتضى حكمته. فيكون قوله تعالى مطمئنا المخاطبين بالنص باعثا على التزام أمره .

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾

أولا : الأســـــماء :

الخصـــــيم : فى قوله تعالى: «للخائنين خصيما»، هو المجادل، وهو المخاصم .

ثانيا : التفســـــير :

الخطاب فى الآية إلى رسول الله ﷺ. وقد قيل فى سبب نزول الآية قصة طويلة فُسر بها لفظ «خصيما» «بالمجادل عن». ونرى ـ والله أعلم ـ أن القصة المروية منقطعة الصلة بمعنى

الآية. وموجز القصة المروية أن ثلاثة إخوة هـم: بشر، وبشير، ومبشر، نقبوا فى مشربة شخص يدعى رفاعـة بن زيد وسرقوا طعامـا ودقيقا وسلاحا أو درعا، وقيل إن السـارق كان بشرا وحده لأن أثر الدقيق على الأرض انتهى إلى بيته، ثم جـاء أخو رفاعة إلى رسول الله يشكو بشرا، وجاء ابن عم لبشر يجـادل عنه ويطيل المجادلة ويزعـم أن المدعى على بشر السرقـة اتهم صالحا بغير دليل حتى غضب رسـول الله ﷺ على رفاعة - الذى سرق ماله - وعلى أخيه الذى شكى السارق إليه ﷺ - قيل إن الآية نزلت فـى تأنيب رسول الله ﷺ، وقيل إن معنـى «خصيما» فى الآية هو «المجادل عن».

.ورأينا - والله أعلم - أن الرواية المرويـة لاتصلح سببا لنزول الآية، وأن معنى «خصيما» فيها ليس هو «المجـادل عن» لأن معنى قولـه تعالى «إنا أنزلنـا إليك الكتاب بالحـق لتحكم بين الناس بما أراك الله» أنه تعالى قد أنزل على رسـوله ﷺ القرآن ليحكم بين الناس وفقا لما ورد به مـن أحكام أراه الله إيـاها فى الكتـاب، وما أعلمـه تعالـى به مما اختـص به عليـه الصلاة والسلام وحده ولا يجوز لغيره مـن القضاة. ذلك أن القرآن الكريم قد تضمن أحكـاما إجرائية منها ما تعلـق بطريق إثبات الـدعوى، على ما تضمنته قـاعدة «البينة على مـن ادعى» بمعنى وقوع عـبء الإثبات على المدعـى، فإذا عجز المـدعى عن إثبـات دعواه فإنه لا يقضـى له، ويكمل هذا المبدأ الذى جاءت به القاعدة قوله ﷺ المفصل «ادرءوا الحدود بالشبهات» بما يعنى أنه إذا قامت شبهة فى شأن إثبات وقـوع الجرم أو نسبته إلى المتهم، أو فى عدم اكتمال عناصره فإنه لا يُوقع العقاب بالمدعى عليه.

والبين مـن القصة المروية أن المـدعى عن رفاعـة - الذى سرق مـاله - لم يستطـع إثبات مقارفة بشر فعل السرقة أو أنه لم يكن لديه الدليل على ذلك مما مفاده أنه كان على رسول الله ﷺ - إعمالا للقاعدة الشرعيـة التى جاء بها القرآن - ألا يدين بشرا ويعاقبـه، وهذا هو ما فعله، فليس فى فعله ﷺ ما يستـوجب اللوم أو التأنيب، كذلك فإن الواضح مـن الرواية المروية أن

الذى جادل عن المدعى عليه (بشر) كان ابن عمه المدافع عنه، ولم يكن هو رسول الله ﷺ، مما مفاده ألا يكون المراد من «خصيما» هو «المجادل عن» .

والرأى أن الآية الشريفة نزلت بمبدأ عام فى شأن القضاء بين الخصوم، مفاده تقيد القاضى بما شرعه الله فى كتابه الحكيم من قواعد إجرائية وقواعد موضوعية، على ما يطلق عليه اليوم «تقيد القاضى بحكم القانون»، كما اشتملت على مبدأ «حيدة القاضى»، فيكون معنى القول أنه تعالى أنزل القرآن على رسوله ﷺ ليحكم بموجبه وما أعلمه الله من معانى أحكامه بين الناس، فإذا أطلعه تعالى على حقيقة الأمر - مما يختص به رسول الله ﷺ دون سائر القضاة - فإنه يقضى بما أعلمه الله لأن ذلك يكون موافقا لإرادته تعالى، وأنه عليه الصلاة والسلام إذا ما استشعر أن أحد الخصمين المتقاضيين خائن للحق، فإن ذلك لا يوجب عليه أن يأخذ منه موقف الخصم، وإنما يجب أن يعطيه حق الدفاع عن نفسه وأن يساوى بينه وبين خصمه في إجراءات التقاضى. وهذا هو المشهور عنه ﷺ فى قضائه بين الناس.

وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾

التفســـير:

قيل إن عبارة الآية أمر إليه ﷺ بالاستغفار مما كان منه من المجادلة عن الخائنين أو عن السارق فى القصة المروية، وقد يكون الصحيح أنه أمر إليه ﷺ أن يستغفر الله - قبل قضائه - مما عسى أن يقضى به على خلاف الحق نتيجة براعة الخصم فى عرض قضيته والدفاع عنها، أو أن يستغفر الله للمتخاصمين بالباطل من أمته ﷺ، وقوله تعالى «إن الله كان غفورا رحيما» يبين أنه تعالى يتوب على الذين يستغفر لهم رسوله ﷺ فيتوبوا فيغفر لهم ما كان منهم بواسع رحمته .

وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾

أولا : الأسـمـــاء :

الخـــوَّان : فى قوله تعـالى «من كان خوانا أثيمـا» صيغة مبالغة لـ «خائن» فـاعل الفعل «خان ـ يخون».

ثانيا : التفســـير :

المخاطب بـالآية هو رسول الله ﷺ، وللقضاة من بعـده. ومضمون قوله تعالـى نهى له ﷺ من التـزام جانب الـذين يثبت لـديه أنهم خـانوا الحق، أو خـانوا خصومهـم فخانوا بـذلك أنفسهم لأنـه يقضى لهم بغير الحـق مما يعذبـون به، أو هو نهـى عن الاستجابة لجـدالهم أو جدال المـدافعين عنهـم إذا ما ظهـر وجه الحـق بالتمـاس سبب لعـدم إيقاع العقـوبة التـى تضمنها كتاب الله بهم؛ وجاء قوله تعالى «إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما» مبينا علة النهى عن التمـاس الأعذار التى تعفـى هؤلاء مما يستحقون ـ أى المجادلة عنهـم ـ وهو عـدم حبه تعالـى الخائنين الآثميـن مما مفـاده عدم استحقاقهـم إعفاءهم مـن العقوبـة أو التخفيف عليهم فيها :

يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾

التفســـير:

قوله تعالى ـ فـى الآية ـ فى هؤلاء المدعين بالباطل أو المدافعيـن عن الباطل فى القضاء يكون شأنهم مع الناس الإستتار منهم حياء لعلمهم أن الناس يعرفون حقيقتهم وهى مما يشين ويخزى. أو إنهم يستخفون من المغتصب حقه بما كان منهم فى ساحة القضاء خوف انتقامه منهم. ويكـون عجيب أمرهـم أنهم يستخفون مـن هؤلاء ولا يستحـون من الله جل وعـلا وهو العليم بجميـع أحوالهم والمطلـع على ما كـان منهم منذ أن كـانوا يعدون لـه ويستعدون «إذْ يبيتون» وذلك بإعداد ما يقولون وتجهيز أدلتهم الـزائفة وشهود الزور مما لا يرضاه تعالى «ما لا يرضى من القول» .

ويجىء قولـه تعالى ـ فى ختـام الآية ـ «وكان الله بمـا يعملون محيطا» موضحا أنـه تعالى آخذهم بأفعـالهم التى أحاط بها علمه. فالقول وعيـد بالمؤاخذة بالذنب استـدعاءً لتوبتهم، ولمنع غيرهم عن نهج سبيلهم .

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾

التفســـير:

الخطاب فى الآية إلى هؤلاء الـذين يتولون الدفاع عن المتخاصمين بالبـاطل سواء أكانوا مدعيـن أم مدعى عليهـم، يثبت عليهم فيـه تعالـى مشاركتهم مـن دافعوا عنهم فـى إثمهم، ومظهرا ـ فى توبيخ ـ عجزهم عن مؤازرتهم فـى الآخرة. فمعنى قوله تعالى الموجه إلى هؤلاء يثبت أنهم قد بـذلوا أقصى ما فى جهدهم للـدفاع عمن دافعوا عنهم فى الحيـاة الدنيا حيث

يقضى بما تشهد الأدلة به ويستطيع المدافعون الإقناع به، وينكر قوله تعالى على هؤلاء المدافعين مثل هذه القدرة فى الآخرة حيث لايكتم أحد الله حديثا.

جاء التعبير عن هذا فى جملة استفهامية تفيد الإنكار «فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة»، كذلك ينفى قوله تعالى أن يكون لهؤلاء المبطلين مدافع ومحام يوم القيامة «أم من يكون عليهم وكيلا». والقول - بهذا المعنى - يتضمن نهيا عن الدفاع عن الباطل .

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١١٠﴾

التفســـــير:

الآية فى قاعدة عامة متعلقة بصفتيه تعالى «الغفور،والرحيم» مضمونها أنه تعالى يغفر لمرتكب السوء ما ارتكب إذا ما استغفر الله منه بقلبه وتاب عنه.

وتظهر خصوصية النصّ فى تعلقه بهؤلاء الذين يتقاضون بالباطل وبالمدافعين عنهم مع العلم بذلك، أعلمهم سبحانه وتعالى أن فعلهم فعل سوء يستوجب عقاب الآخرة، وأنه - وإن انطوى على ظلم الغير - فإنه ظلم للنفس لأن فيه تعريضها للعذاب، ثم حضهم على التوبة من إثم ما فعلوا بأن أظهر لهم أنهم إن تابوا غفر لهم تعالى ذنبهم بواسع رحمته.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١١١﴾

التفســـير:

الآية الشريفة تتضمن تقريرا لواقع يستوجب العلم به، مؤداه أن من يرتكب ذنبا من الذنوب أو يكسب شيئا من كسب الإثم فإن ذلك يكون عليه وليس له، لأنه يؤاخذ به فيعذب يوم القيامة. ويتصل بعمل المذكورين آنفا من المتقاضين بالباطل والمدافعين عنهم برابطة مؤداها أن ما كسبوا بالقضاء لهم فى الدنيا يكون عليهم فى الآخرة، فيكون القول مفسرا قوله تعالى فى الآية السابقة - «أو يظلم نفسه» .

وقوله تعالى «وكان الله عليما حكيما» يفيد أنه مؤاخذ فاعل الذنب به لا يستطيع إخفاءه عنه تعالى بحكم كونه العليم بكل الأعمال والنوايا، ومعاقبه به بحكمته التى شرعت لتحقيق مصالح العباد. فالقول وعيد أريد به الانتهاء عن فعل الذنوب .

وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾

التفســـير:

الآية تعلقت بحكم عام جاء فى شكل عبارة تقريرية أريد بها بيان جسامة ذنب الذين يرتكبون المعاصي أو الجرائم ثم ينسبون إلى غيرهم ارتكابها. عبر تعالى عن الخاطىء فيها مرتكب الخطايا المعتبرة من الصغائر أو غير المتعمدة بأنه كاسب الخطيئة «ومن يكسب خطيئة» لأنها ضمت إليه وحسبت فى كتابه، وعبر عن مرتكب الكبيرة أو الخطأ المتعمد بأنه مرتكب الإثم «أو إثما». وجاء وصف الفعل المندد به فى النص وهو نسبته الخطيئة أو الإثم إلى من لم يقارفه أو اتهامه بها أو به بقوله تعالى «ثم يرم به بريئا». وحكم هذا - لديه تعالى - أنه يكون متحملا عذاب هذا الفعل، وصف بأنه «بهتان» لأنه كذب على الغير بما يبهته»،

ووصف بأنه إثم مبين بمعنى أنه إثم واضح لامراء فيه. والقول ـ بهذا المعنى ـ يتضمن وعيدا لمن يقوم على الفعل لردع الكافة عن الإقدام على مثله .

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾

التفســــير:

الخطاب ـ في الآية ـ إليه ﷺ، يتصور أن يكون في شأن صفته كقاض بين المتقاضين، ويتصور أن يكون في شأن صفته كنبي، فهو ـ في شأن صفته ﷺ قاضيا في الخصومات ـ يفيد أنه تعالى قد تفضل عليه بذاته ـ مما لا يكون لقاض غيره ـ بإعلامه بطريق الوحي بوجه الحق في المسألة المطروحة عليه ليفصل فيها. وأنه لولا هذا الذي تفضل به عليه تعالى لكان المدعون بالباطل والمدافعون عنهم قد استطاعوا أن يحيدوا بقضائه عن وجه الحق، وحالئذ يكون فعلهم إضلالا لأنفسهم لاختيارهم الباطل ولا يكون إضلالا له ﷺ، ولا يكون منه ضرر يعود عليه ﷺ، لأنه ـ بغير الوحي ـ يقضي لمن تشهد له الأدلة المعروضة عليه، فلا يأثم ولا يخطئ إذا قضى بموجبها ولو خالف ذلك وجه الحق .

وفي شأن صفته ﷺ، فإنه يفيد أنَّ الله تعالى تفضل عليه ﷺ بإظهار حقيقة كل من أتوا إليه زاعمين إيمانهم على خلاف الحقيقة مثل وفد ثقيف الذين جاءوه ﷺ قائلين «جئناك نبايعك على ألا نكسر أصنامنا بأيدينا وعلى أن نتمتع بالعزى سنة» فأعلمه الله شأنهم فنجى من التصديق لهم.

وتضمن قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ ذكر أمـور أخرى تفضل بها عليـه سبحانه وتعالـى «هى إنزاله القرآن العظيم عليـه ﷺ كتابا وحكمة، و إلهامه الحكمة ينطق بهـا و يفعلها فتكون سنة قوليـة وفعلية. وتعليمه مـا علمه مما لـم يكن يعلمه من قبـل بطريق الـوحى ليكون منه بيان أحكام الشريعة».

ثم جاء قوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ ناصـا على أن ما تفضل به تعالى على رسوله الكريم أكثر وأفخم مما تحيط بـه الأفهام على ما يبدو من وصف الفضل بالعظـم مع عدم بيان صوره وأوجهه فى قوله تعالى «وكان فضل الله عليك عظيما»

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾

أولا : الأســـــماء :

النجـــوى : فى قوله تعالى «لا خير فى كثير مـن نجواهم» هى ما خرج من أحد السبيلين ـ لما كان المرء يقوم بـالإخراج مستترا عن الغير، فقد أطلق على ما يكـون سرًّا بين اثنين أو أكثر، مستورا عن غيرهم .

ثانيا : التفســـــير:

بعد أن أخبـرت الآيات السابقات عـن أمر الذين يختـانون أنفسهم والمجادليـن عنهم أو المدافعيـن، فإنه تعالـى أثبت ـ فى الآيـة ـ أنه يحدث بيـن هؤلاء المختانين أنفسهـم أو بين المجادلين عنهم، أو بين هؤلاء وهؤلاء نجوى أى أحاديث تدور بينهم، قد تدور بينهم فى السر إذا كانت فـى شأن الإعداد للحصول علـى ما ليس لهم فيـه حق وقد لا تكون فـى السر إذا لم تكن مـن هذا القبيل ـ علـى معنى «النجوى» الذى يشتـرط المسارة فى رأى ولا يشترطهـا فى

آخرـ وحصـول هذه النجوى يكاد يكـون لازما بين المشاركيـن فى اغتصاب الحقوق بطـريق التقاضى لضرورة الإعداد له. وفـى شأنها فقد أثبت تعالى بقوله «لا خيرفـى كثيرمن نجواهم» أن غالب ما تكون فيه النجوى أو المحادثة ليس خيرا فى ذاته أو أنه لا ينتج عنه خير.

ثم أثبت تعالـى أن هذه النجوى ليس ممتنعا أن يكون فى القليل منهـا خير أو يكون الخير مترتبا عليه على ما يستفـاد ـ بمفهوم المخالفة ـ من نفى الخيرية عـن الكثير مما مفاده إثباتها للقليل، وهو ما تم بيانه مجملا فى ألفاظ عامة يندرج تحتها الكثير من فعل الخير بقوله تعالى «إلا من أمـر بصدقـة أو معروف أو إصـلاح بين النـاس»، ويدخـل فى معنـى الصدقـة كل مـا يتصدق بـه على محتاجـه من مال أو فعـل أو قول، فـلا يقصر على الصـدقة الواجبـة بمعنى الـزكاة، ويـدخل فـى معنـى المعروف مـا عرفـه الشـرع وما يـوافقـه مما تعـارف عليه النـاس واستحسنوه، ويدخـل فى معنى الإصلاح بين النـاس جميع الأفعال والأقوال التـى تؤدى إلى إزالة مـا بين البعض من النـاس وآخرين من الشقـاق والخلاف و إحلال المودة بينهـم محل الشقاق..

وقد حث تعالى المتناجين على أن يضمنوا نجواهم الأمر بالصدقة أو المعروف أو الإصلاح بين الناس بإطماعهم بـالأجر العظيم يكون لهم بقوله تعالى «ومن يفعـل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما». فبين أنه يكون لمن أمر بذلك أجر أمره، وأنه يكون له نصيب فى فعل ما أمر بـه لتسببه فيه على ما يبين من المغـايرة فى وصف العمل فى التعبير بـالتعديل من «الأمر» إلى «الفعـل» إذ قال تعالى «إلا مـن أمر»، ثم قال ـــ عند بيان الثواب ـــ «ومن يفعل». واشترط النص لنيل هذا الثواب أن يكون الباعـث لدى الآمر بالصدقة أو المعروف أو الإصلاح بين النـاس هو طلـب رضاء الله وليـس جلب مصلحة دنيـوية، وذلـك لأن مناط قبـول العمل الصالح خلوص النية لله فيه.

وقد جاء وصف الثواب بالأجر لبيان استحقـاق الأمر بالصدقة أو المعروف أو الإصلاح بين

الناس له ترتيبا على الوعد به، وجاء تنكيره بعدم ذكر ماهيته مع وصفه بالعظم للإطماع فيه.

والذى نراه أن النص يتضمن توجيه المتناجين إلى أن يكون منهم نهى الطامع فى الحصول على غير الحق بالعدول عن مبتغاه، لأنه يكون فى عدوله عن إثم ذلك نجاة لنفسه من إثم الفعل، فيكون الآمر بالانتهاء فى حكم المتصدق عليه بالخير، ولأنه إن أمره بهذا يكون قد أمر بما عرفه الشرع أى أمر بالمعروف، ولأنه يكون قد أمر بما يزيل الشقاق بين مختان نفسه وبين خصمه، وفى هذا إصلاح بين الناس. وأولى الناس أن يكون فيهم هم المتناجون أنفسهم.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾

التفسير:

قيل ـ لتفسير قوله تعالى فى الآية ـ إن سبب نزولها أنه قدم نفر من قريش إلى المدينة فأسلموا ثم انقلبوا إلى مكة مرتدين، فنزلت فيهم الآية. والذى نراه ـ والله أعلم ـ أن الآية جاءت مرتبطة بما سبقها من آيات تعلقت بجلوسه ﷺ حكما بين الناس من قوله تعالى «إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله» ليكون لها معنى خاص، وأن ذلك لا يمنع من تعميم حكمها أخذا بعمومية النص، فيكون لها معنى عام.

فعلى المعنى الخاص يكون المراد بالذين شاقوا الرسول ﷺ بمخالفتهم عن قضائه الذى قضى به وعدم قبولهم إياه أصبحوا فى جانب أو شق غير الذى فيه الرسول ﷺ، ويكون معنى قوله تعالى «من بعد ما تبين لهم الهدى» أنه كان منهم هذا من بعد أن بين لهم رسول الله ﷺ وجه الحق فى المسألة المتنازع فيها، وصف بأنه الهدى، لأنه يهدى إلى الحق.

ويكون فى فعلهم هـذا خروج على سبيل المؤمنين ونهجهم فى طـاعة رسول الله ﷺ وارتضاء قضائه. وهو المعبر عنه بقوله تعالي «ويتبع غير سبيل المؤمنين» .

وعلى المعنى العام يكـون «من يشاقق الرسول» هو كـل من خالفه فى أمر من أمور الدين والدنيا قطع فيه ﷺ بصفته رسولا، فيكون بفعله فـى شق أو جانب غير الذى فيه رسول الله ﷺ، ويكون المراد بقوله تعالى «من بعد ما تبيـن له الهدى» هو «من بعد إفصاح رسول الله ﷺ عن إرادته وأمـره وهما إرادة الله وأمره ــ لصدورهما منـه بصفته رسـولا وليس أحد أفـراد الناس» ـ ويكون المراد بقوله تعالى «ويتبع غير سبيل المؤمنين» هو الخروج على إجماع المؤمنين على وجوب طـاعة رسول الله ﷺ فـى حياتـه، والخروج على إجمـاعهم على رأى فـى مسألـة من مسائل الشرع ـ من بعد الرجوع إلى الكتاب و إلى السنة ـ فيكون النص مقررا اعتبار «الإجماع» طريقا من طرق استنباط الأحكام الشرعية.

ويكون معنى الآية ـ على الحالين ـ وقد جاءت عبارتها فى جملة شرطية، أداة الشرط فيها «من» وفعل الشـرط هو مخالفة أمر رسـول الله ﷺ أو قضائه من بعد إفصاحـه ﷺ عن أمره أو قضائه ـ وهو الهدى ـ خروجا بذلـك على إجماع المسلمين على وجوب طاعته ﷺ، أو على إجماعهم ـ من بعده ـ على رأى فى مسألة شرعية، فإنه يكون حال فاعله هو ما جاء به جواب الشرط فى قوله تعالي «نوله ما تولى ونصلـه جهنم» وهو أنه تعالى يخلى ما بينه وبين ما اختار من الضلال فلا يحول بينـه وبينه لكونه قد وافق علمه تعالى الأزلـى و به جاءت مشيئته فكان توليـه الضلال ليكون منه تعـالى إدخاله جهنـم، وصفها تعالـى بأنها بئس المصيـر وسيئه. أو وصف تعالى تولى الضلال بهذا لأنه يورد جهنم بقوله تعالى «وساءت مصيرا» .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾

التفســـــــــير:

قوله تعالى «إن الله لا يغفـر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» سبـق قوله فى الآية ٤٨ من السورة، وتكرر لتأكيد المعنى ولمناسبته توعـده تعالى من خرج عن طاعة الرسول ﷺ وخرج على إجماع المسلمين، وقيل فى سبب نـزول الآية أن شيخا من العرب قال لرسول الله ﷺ إنه انهمك فى الذنـوب إلا أنه لم يشرك به تعالى منذ أن آمن ولم يعصـه، وسأل عن حاله عند الله تعالى فنزلت الآية .

ومعنـى القول أن الشـرك بـالله بإنكـار وجـوده أو بإنكـار كـونه الخـالـق، أو بعدم الإقـرار بوحدانيته، أو بالاعتقاد فـى أبوته أحدا من الخلق أو باتخاذ أنداد له هـو قمة الذنوب والآثام، كان حكمه تعالى فيمن مات عليه ألا يغفره له مما يكون معه عذابه فى النار وخلوده، أما غيره من العصيان فهو أدنى منـه مرتبة، وحكمه فى مرتكبه أنه إذا أراد تعالى أن يغفـر له ـ برحمته ـ غفر له أو مكنه من التوبة قبل الغرغرة .

وقد وصف تعالى من يشرك به بأنه تمادى فـى الضلال إلى أقصى مدى بقوله تعالى «فقد ضل ضلالا بعيدا» بمعنى أنه قد ابتعد عن الحـق كثيرا وتمادى فى الضلال إلى منتهاه مما لا يقبله عقـل، وربما كان هـذا الوصـف لأن المشركين المقصـودين بعبارة النـص هم مشـركو العرب الـذين لم يؤمنـوا بكتاب من قبل، كـانوا على الضـلال قبل بعثه ﷺ فيهم، فكـان فى استمرارهم على ما هـم عليه من بعد أن تبينت لهم الآيات الذهـاب فى الضلال إلى منتهاه؛ ولذلك خـالف وصفهم وصف المشـركين المقصودين فـى الآية ٤٨ من السورة وفيهـم أهل الكتاب الـذين علموا من كتبهـم أنه يجىء ﷺ مبعوثـا بكمال الديـن فرفضوا دعوتـه وكفروا كتبهم وأشركوا به تعالى فوصف فعلهم بأنه افتراء الإثم العظيم عليه تعالى . وقد جاءت جملة الآية فى صيغـة الجملة الشرطية لبيـان التصاق صفة الضلال البعيـد بالشرك بالله علـى وجه اللزوم .

إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾

أولا : الأســـــماء :

١ ـ الإنــــاث : في قوله تعالى «إلا إناثا»، جمع مفرده أنثى. قيل إن المراد باللفظ ـ في معنى الآية ـ الأصنام المعبودة التي لها أسماء الإناث، مثل اللات،، والعزى، ومناة، وقيل جميع الأصنام لأنها جمادات أو لأنها موات لا حياة فيها فيخبر عنها كما يخبر عن المؤنث، وقيل الأصنام المعبودة، لأنه كان يطلق على الصنم المعبود منسوبا إلي عابديه «أنثى بني فلان»، وقيل الملائكة، كانوا يزعمون أنها بنات الله .

٢ ـ المريـــد : في قوله تعالى «إلا شيطانا مريدا» المراد به ـ في معنى الآية ـ هو العاتي، الخارج عن الطاعة، وهو ذات معنى المارد، والمتمرد .

ثانيا : التفســـــير :

قوله تعالى في الآية بيان لمعبود المشركين من دونه تعالى، فقوله تعالى «إن يدعون من دونه إلا إناثا»، جاءت فيه «إنْ» نافية ـ بمعنى «ما» ـ وجاءت «إناثا» مستثناة بـ «إلا» فأصبح القول مثبتا أنهم يدعون من دونه تعالى إناثا، بمعنى أنهم يعبدون إناثا أو إنهم يسألون إناثا حاجاتهم، والمراد بالمعبودات الأصنام أو الملائكة وكافة ما يعبد من دون الله، وصفت بالإناث لأنها أضعف من أن تنصر المستنصر بها أو لأن العرب كانت تدعو الأصنام بأسماء الإناث.

وقوله تعالى: «وإن يدعون إلا شيطانا مريدا» إثبات لأن معبود المشــركين أو المطاع أمره فيهم هو الشيطان العاتي في العصيان، أي أنه إبليس الذي أمرهم أن يشركوا بالله فأطاعـــوه.

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ (١١٨)

التفســـــير:

الآية فى باقى أوصاف الشيطان المريد الذى أمر المشركين بالشرك بالله فأطاعوه، فبعد أن ذكر تعالى أن معبود المشركين هو الشيطان المريد، قال تعالى ـ مكملا وصفه ـ «لعنه الله» أى أنه ملعون، طرده الله من رحمته فاستحق عذابه، وقد يكون ذلك لأنه فعل ما يستحق به اللعنة فوجبت عليه. ثم إنه تعالى عطف على وصف الشيطان المريد بأنه لعنه الله صفة أخرى مستفادة من الفعل المعطوف وهو قوله المذكور فى قوله تعالى «وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا» أى أنه جزم بأنه سيقتطع من عباد الله قسما يكون له يأمر أهله فيطيعون، يتخذهم له بمعنى أنه يختص بهم، وجملة الآية ـ بهذا المعنى ـ تتضمن توبيخا للمشركين بإظهار أنهم أطاعوا من جزم بأنهم يكونون له مما مفاده غياب عقولهم واتباعهم من أراد بهم شرا.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ (١١٩)

التفســـــير:

الحديث فى قوله تعالى «ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله» هو من حديث الشيطان الذى أقسم ـ على ما يبين من «اللام» فى الأفعال

.أن يفعل بعبـاد الله ما ذكر، وهو إضـلالهم عن الحـق وهو دين الله وما أمر به، وبعث الأمـاني الباطلة في نفوسهم يـدخل فيها عدم وجود بعث وحساب وجنة ونار ليكون التمتـع بالدنيا وما تهوى الأنفـس بغير قيود، وليكون السعـي وراء الكسب ولو بـالباطل وأكل الحقـوق، ولإرضاء الشهوات بكـل الطرق وإن كانـت غير مشـروعة، وهو أمـرهم قطع آذان الأنعـام على مـا كان يحدث في الجـاهلية من قطع آذان الناقة إذا ولـدت خمسة بطون وكان الوليد الخـامس ذكرا وتحريم الانتفاع بها، ومنه شق آذن الأنعام، وقطع أطـرافها، أو مؤخراتها، وهو أمرهم أن يغيروا خلق الله بـإخراجهم من الهيئـة والصورة التي جبلهـم عليها تعالـى إلى هيئة أخرى مخـالفة. ومظاهر تنفيذ أمر الشيطان هذا كثيرة، ومنها الخصاء، وهو ما أباحه البعض في الأنعام إذا كان لمصلحة أو مجمـع على تحريمـه في الإنسان ودخـوله في معنـى تغيير خلق الله، ومنـه تشبه الرجل بـالمرأة للواط وتشبه المرأة بـالرجل للسحاق، وأظهـر منه إجراء الرجل عمليـة جراحية لاستئصال عضو الذكورة فيـه والخصيتين وتناوله بعض الهرمونات التـى تضخم ثدينه ليظهر مثل الأنثـى لغايـة شيطانيـة في نفســه ـ ولا يدخـل فيه إجـراء جراحـة لإزالة غشـاء يحجب الأعضاء الجنسيـة المخلوقة بطبيعتها ــ إذ يكون الأمر بمثابـة عيب خلقي، فيكون كـالمرض الذي يعـالج بالجـراحة، وقيل إنـه يدخـل في تغيير خلـق الله إزالة إصبع زائدة، وإزالـة سِنٍّ زائدة. وقد لا يكون ذلك صحيحا على إطلاقه ـ والله أعلم.

فقد خلق الله الإنسـان في أحسن تقويم وجرت سنتـه في خلقه أن تكون الأصابـع في اليد الواحدة خمسة ليكون أداؤها على أكمل وجه، كذلـك فإنه تعالى خلق فك الإنسان وبه عدد من الأسنان بأنواعها من قواطع وأنياب وضروس ليكون أداء الفك أو الفكين على أكمل وجه، فإذا ما كـانت الإصبع الزائدة تقلل من كفـاءة عمل اليد، أو كان السن الزائد يقلّـل من كفاءة عمل الفك فتكون الإزالة علاجا غير منطوٍ على تغيير خلق الله .

ثم إنه تعالى ــ بعد أن ذكر قول الشيطان الذي يطيعه المشركـون والذى أقسم أن يكون له

فى العباد نصيب مفروض،فإنه تعالى ذكر مآل من يتولى الشيطان بقوله تعالى «ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا».

فبين تعالى أن الذى يطيع الشيطان ويؤثر طاعته على طاعته تعالى على ما يبين من قوله تعالى «من دون الله» ومفاده ـ بطريق اللزوم ـ أن من اتبع الشيطان يكون غير متبع الله تعالى، يكون قد خسر خسرانا واضحا، لأنه يكون قد استبدل بالنعيم عذابا، وبالجنة نارا.

يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾

أولا : الأســـماء :

الغـــرور: هو الشىء الذى له ظاهر محبوب وله باطن مكروه أو مجهول. والمراد به ـ فى معنى الآية ـ الخديعة، بإيهام النفع مما فيه ضرر.

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ عن الشيطان وفعله فيمن يتولونه ومعهم، فهو ـ لعنه الله ـ يعدهم المال إن امتنعوا عن عمل الخير وعن التصدق، ويعدهم الجاه إن كسبوا الأعوان بالرياء، ويمنيهم بالنجاة من الحساب بعد طول تنعم بمباهج الحياة الدنيا بإقناعهم أنه ليس ثمة قيامة ولا جنة ولا نار. وفى شأن ما يعد الشيطان أعوانه وما يمنيهم فإنه تعالى قطع بأنه غرور، فهو خداع لهم من عدو يبغى فتنتهم لتعذيبهم فزين لهم ما فيه هلاك نفوسهم فأطاعوه وتولوه.

أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

أولا : الأســـــماء :

المحيص : في قوله تعالى «ولا يجدون عنها محيصا»، اسم مكان بمعنى معدل، ومهرب، أو مصدر ميمى من الفعل «حاص ـ يحيض» بمعنى عدل وولى، وأصل معناه «الروغان» .

ثانيا : التفســـير :

قوله تعالى في الذين تولوا الشيطان يذكر تعالى مصيرهم في الآخرة فيبين أن مستقرهم فى الآخرة جهنم على وجه الحتم والإلزام ليس لهم إلاها، فلا يجدون معدلا ومهربا يرذونه فيبعدوا عنها،فتكون وحدها لهم المأوى .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

أولا : الأســـــماء :

القيـــل : في قوله تعالى «ومن أصدق من الله قيلا»، مصدر من الفعل «قال ـ يقول»، مثل «القـــال» .

ثانياً : التفســـير :

بعد أن ذكر تعالى مـا يكون من وعد الشيطان أولياءه، ووصفه تعالى إيـاه بأنه غرور وخداع يخفى المضـرة، فإنـه تعالى ـ في المقـابل ـ ذكـر ما يكـون منه للـذين تولـوه فآمنـوا وعملوا الصالحات إذ يكون منـه تعالى أنه يجعل مصيرهـم فى الجنات التى يدخلهم إيـاها ينعمون

بخيراتها ويلتذون وتبتهج نفوسهم بجمال مناظرها التى منها الأنهار تجرى فيها ومن تحتها، ويكون لهم فيها الخلد، وبدت المقابلة بين وعد الشيطان أولياءه ووعده تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقوله تعالى «ومن أصدق من الله قيلا» فأثبت تعالى صدق وعده ولزوم تحققه، ونفى عن غيره أن يكون أصدق منه وعدا. والقول يعنى نفى المماثلة فى الصدق.

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾

التفســـير:

قيل فى أسباب نزول الآية أن قريشا تفاخرت وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب «لن يدخل الجنة إلا من كان منا» فنزلت الآية، وقيل تفاخر المؤمنون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب «نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أحق بالله منكم»، وقال المؤمنون «نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضى على سائر الكتب» فنزلت الآية. وبمراعاة أسباب النزول يكون المراد بـ «السوء» فى الآية هو «الشرك» فيكون معنى قوله تعالى ـ والخطاب فيه للمؤمنين ـ أن دخول الجنة موضوع الحوار والموعود به منه تعالى المؤمنون ليس معقودا بما تتمنونه ولا بما يتمناه أهل الكتاب، لأن من يكون منه الشرك بالله والكفر يلاقى جزاء. وهو الخلود فى النار لا يجد له من هو خارج عن سيطرة الله فيكون قادرا على الذود عنه والدفاع، وعلى مناصرته وتجنيبه عذاب الله.

ولا يمنع هذا أن قوله تعالى ـ فى الآية ـ يفيد معنى عاما وهو أن دخول الجنة ليس بالأمانى والزعم حتى يزعم المؤمنون أنهم أهل الجنة ويزعم أهل الكتاب أنهم أصحابها والأولى بها، لأن حكمه تعالى قضى ـ فى المبدأ ـ أن من يعمل سوءا يجز به، أى أنه لابد معاقب به، إلا

أنه فى شأن المؤمنين فإنه تعالى يكون منه معهـم أحد أمرين: فقد يتجاوز تعالى عن سيئاتهم على ما جاء بقوله تعالى «أولئك الذين نتقبـل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون»، وقد يعجل لهم تعالى العذاب فى حياتهم الدنيا على ثبت من قوله ﷺ «سددوا وقاربوا فإن فى كل ما أصاب المؤمن كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها»، فيكون فى الأمراض والأسقام والمصائب تكفير عن السيئات.

والمعنى المستفاد مـن النص هو أن غير المؤمـن لابد معذب بما ارتكب مـن السوء، أما المؤمن فإنه ـ وإن كان لا يستظهر من نص الآية ـــ قد يكون منه تعالى التجاوز عن سيئاته وقد يكون له تعجيل عذابه بها فى الدنيا تكفيرا عن هذه السيئات ـ على ما سبق بيانه.

ثم إنه تعالى أوضح أن المؤاخذ بسيئاته لابد ملاق جزاء ما اقترف بقوله تعالى «ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيـرا»، إذ أثبت قوله تعـالى أنه ليس من أحـد يخرج عن سلطانـه تعالى وسيطرتـه فيكون مقدورالـه أن يلى أمر هذا أو أن يـدافع عنه، ولا أن ينصـره فينجيه من عـذابه تعالى. فالقول ـ على هذا ـ وعيد للكافرين ولعاملى السيئات.

وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

التفســـــير:

بعد أن بيـن تعالى أن دخول الجنـة ليس رهنا بمشيئـة العباد، وأن أول ما يحول بيـن المرء وبين الجنة هو العمل السيء ـ وأعلاه الشرك بـالله والكفر ـ وأن المؤاخذ بسيئاته لا ولى له ولا ناصر من دون الله، فإنه تعـالى أوضح ـ فى مقابل عاملى السيئات ـــ حال عاملى الصالحات وشرط قبول أعمالهم الصالحة، ونتيجتها بنص الآية .

فقوله تعالى «ومن يعمـل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن» تعلـق ـ على ما يبين بأداة الشرط «من» وفعل الشرط ـ بالذين يعملون بعض الصالحات، وهو إعلام بأن أحدا مًّا لا يستطيع أن يعمل جميع الصـالحات، وبأن أداء البعض منها يجزى، وتقرير بـأنه يتساوى فى استحقاق الثواب الذكر والأنثى مما مفاده أيضا تسـاويهما فى التكليف، وهو ذكر لشرط قبول الأعمال الصالحة والإثابة عليها وهو صدورها من مؤمن أو مؤمنة، جاء لفظ «مؤمن» وهو مذكر لتغليب الـذكورة على الأنـوثة عند الجمع. ومفـاد الشرط أن الأعمال الصـالحة التى يـأتيها الكافرون لايثاب عليها فى الآخرة، وإن جاز أن يكون الثواب عليها فى الدنيا .

وقوله تعالى «فأولئك يدخلون الجنـة ولا يظلمون نقيرا» وهو جواب الشرط فى جملة الآية، جاء فـى شكل جملة إسميـة، يفيد أنه يكـون للمؤمنيـن عاملى بعـض الصالحات ـــ حسب القدرة ـ دخول الجنة جزاء على أعمالهم ، وأنهم لاينقصون من ثواب أعمالهم شيئا مهما قل وضؤل.

وفى القول إشارة ضمنيـة إلى عدم زيادة العقاب فوق الاستحقاق لعاملـى السيئات ترتيبا على نفى الظلم فى الإثابة مما يستوجب نفيـه فى العقاب من باب أولى. والآية فى مجموعها حث على العمل الصالح وترغيب فيه .

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾

أولا : الأســــماء :

١ ـ المحســـــن : فى قولـه تعالى «وهو محسن»، قيـل هو الموحد بالله، حسنـت عقيدته وأحسن لنفسه، وقيل هو فاعل الحسنات، تارك السيئات .

٢ـ الخليـــل: فى قـوله تعـالى «واتخذ الله إبـراهيم خليلا» هـو المحبوب الـذى تتخلّل مودتـه نفس محبوبـه وتخالطها، وهـو من تخللـت نفسه محبة حبيبـه وخالطتها حتـى تخلق بخلقه. وقيل هو المختص بشىء من محبوبه. والمشهور أن الخليل دون الحبيب فى المرتبة .

ثانيا : التفســـــير :

بعد أن بين تعالى فى الآية السابقة اشتـراط الإيمان لاستحقاق ثواب فعل الصالحات فى الآخرة، فإنه تعـالى بين ماهية الإيمان بقوله تعـالى ـ فى الآية ـ «ومن أحسـن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن، واتبع ملة إبراهيم حنيفا».

ورد فى شكل سـؤال أو استفهام استنكارى «ومن أحسـن دينا ممن أسلم» ينفـى أن يكون أحد أحسن دينا ممن أسلم، ويمدح من أسلم. والـذى أسلم هو من أسلم وجهه لله فأخلص دينه لله وخضـع له وهو مـوحد إياه لا يشرك بـه شيئا «ممن أسلـم وجهه لله وهو محسـن» وهو الذى اتبع دين إبراهيـم عليه الصلاة والسلام الذى مال عن الأديان والعقـائد الزائفة والزائغة إلى عقيدة التوحيد. والقول بهذا يشير إلى أن الذى هـو أحسن دينا هو من آمن بالإسلام الذى بعث به رسول الله ﷺ لإثباته تعالى أنه ملة إبراهيم وأنه الحنيفية .

وقوله تعالـى ـ فى ختام الآية ـ «واتخذ الله إبـراهيم خليلا» جاء تذييلا للآيـة للترغيب فى اتباع ملة إبراهيـم عليه الصلاة والسلام الذى ذكر اسمـه فى الآية تشريفا له وزيـد عليه إثباته تعالـى أنه اتخذه خليلا لـه للحث على المبـادرة فى اتباع ملتـه بدخول الإسلام. فبـه وحده تكون الإثابة على فعل الصالحات .

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾

التفســـــير:

يبدو- والله أعلم - أن الآية تذييل لما سبق بيانـه فى شأن الخلق من كافرين ومؤمنين، وفى محاسبـة كل منهما عـن السيئات والمعاقبة عليهـا، وفى مجازاة كـل منهما عن الصـالحات وشرط قبولها والإثابة عليها فى الآخرة، وهو الإيمان ، وبيان ماهيته.

جاءت الآية لتثبت أنه تعالى هو مالك الكافـرين والمؤمنين ومالك كل من فى السماوات ومن فى الأرض وما فيهن جميعهم يخضعون له وهو الذى يجازى المكلفين منهم ويكون أمره فى غير المكلفين ما يراه.

ويكون إيراد قـوله تعالى هذا بيـانا لكون ما سبق ذكـره فى شأن المحاسبة بـالأعمال أمرا محكوما بمالكيته، فهو من قبيل تصرف المالك فيما ملك.

ولا يمنع هذا أن يكـون مفاد القول أنه تعـالى وهو مالـك جميع المخلوقات قـد اختار من بينها إبـراهيم واختصه بـرسالة الحنيفيـة، فيكون القـول مشيرا إلى اختيـاره تعالى رسـوله ﷺ واصطفائه رسولا وحبيبا.

وفى هذا وذاك كـان اختياره تعالى اختصاصًا بـالفضل وليس لحاجة لأن مـالك الكل لا يحتاج لأحد من خلقه.

وقوله تعالـى - فى ختام الآية - «وكـان الله بكل شىء محيطا» مفاده أنه يحيـط بجميع من خلق وما خلق إحاطة علم بالأعمال والـدخائل وقدرة على الحساب والفعل، وهو إشارة إلى أن ثوابه وعقابه واقعان على نحو ما ذكر تعالى



﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾

التفســــــير:

الخطاب فى الآية موجه إلى رسول الله ﷺ، وكان المؤمنون يسألونه أن يبين لهم ما استشكل عليهم من الأحكام الواردة بشأن النساء وهى كثيرة، وأخصها ما تعلق منها بتوريث النساء على ما جاء فى آية المواريث فى السورة. إذ جاء الحكم بتوريث النساء مخالفا ما جرت عليه العادة فى السابق من عدم توريث النساء والصغار مما شق على القوم، فكانوا لا ينفكون عن السؤال عن توريث النساء والصغار فنزلت الآية خاطب بها تعالى رسوله فذكر فى مبتدئها واقع استفتاء المؤمنين إياه ﷺ فى أمورهن «ويستفتونك فى النساء»، ثم أرشده تعالى إلى ما تكون عليه إجابته إياهم فى صيغة الأمر «قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب» فيقول رسول الله ﷺ لهم إنه تعالى يبين لكم أحكامه التى استشكل عليكم فهمها فى أمور النساء عامة، فيفتيكم فيهن القرآن الذى تضمن أحكامه والمتلو عليكم منه تعالى - على المجاز - لأنه تعالى لا يتلو القرآن على الحقيقة.

ثم إنه تعالى بين أن فى الكتاب أيضا بيان أحكام يتامى النساء، وصفهن بما كان يفعله أولياؤهن معهن بقوله تعالى «في يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن»، فقد كان أولياؤهن وأقاربهن على العموم يحرمونهن ما فرض لهن من الميراث،

وكانـوا يحرموهـن من الزواج إن كـن من ذوات المال ليستـأثروا به منتفعيـن ـ فى حيـاتهن ـ ووارثيـن ـ بعـد مماتهـن ـ وكـانوا لا يـؤتونهـن ما وجـب لهن مـن الصداق ــ وأى من هـذه التصرفات هـو من قبيل عدم إيتاء يتـامى النساء ما كتب لهن ــ كذلك فقد كان أوليـاء يتامى النساء يرغبـون فى الزواج منهن إن كن من ذوات الجمـال والمال، فإن لم يكن كذلـك فإنهم كانوا يعضلـونهن فكأنه تعالى قـد بين بقوله تعالـى هذا أن جواب ما يستفتى فيه مـوجود فى القرآن، إلا أنـه لمّا كان لا يـوافق ما جـرت به العادة مما يحقـق مصالحهم فـإنهم سألـوا فيه واستفتوا .

وربما لهذا السبـب جاء ذكر المستضعفين مـن الولدان ـ بعـد ذكر النساء ـ سـواء أكان قد شملهم الاستفتاء أم لـم يشملهم ـ إذ يقبل الأمـر أن يكونوا معطوفيـن على «النساء» فى قـوله تعالى «ويستفتونك فى النساء» فيكون قد استفتى فـى أمرهم، ويقبل أن يكونوا معطوفين على «يتامى النساء» فلا يكونـون قد استفتى فى أمرهم. وقد جاء ذكرهم لأنهـم أيضا كانوا يحرمون حقوقهم فى الميراث جريا على العادة فى عدم توريث النساء والصغار .

وقد أظهر تعالى ما يكـون متوجبا عمله مع هؤلاء الصغار بقوله تعالـى «وأن تقوموا لليتامى بالقسـط» وهو العدل معهم بـإعطائهم ما كتـب لهم من الميراث. والنـص ـ بذكره اليتـامى ـ يشمل الصغار من الذكور كما يشمل يتامى النسـاء، وقد سبق حكمه تعالى بتوريثهم جميعا فى آية الميراث فى السورة مما مفاده أن العدل يكـون فى التزام حكمه تعالى الوارد فى القرآن مما يـؤكد أن قوله تعـالى «قل الله يفتيكم فيهـن وما يتلى عليكـم فى الكتاب» قد أريـد به أن المستفتى عنه موجود فى الكتاب المتلو عليهم والمتلو بينهم .

وقوله تعـالى ـ فى ختـام الآية ـ «وما تفعلـوا من خير فإن الله كـان به عليما» فيه تقـرير بأن الوفاء إلى النسـاء بحقوقهن فى الميراث ، والوفـاء لليتيمات منهن بحقوقهن وعدم حـرمانهن منها بمـا فيها الحق فى النكـاح، والوفاء لصغار الـذكور بحقوقهـم فى الميراث هو عمـل من

أعمال الخير، حث عليه تعالى وعلى الزيادة فيه بعمل خير بالإضافة إليه ـ على ما يبين من قوله تعالى «وما تفعلوا من خير» بذكره أنه تعالى عليم به، لإفادة أنه يجازى به خيرا، ولم يذكر تعالى ـ معه ـ فعل الشر لبيان عدم جواز صدوره عن المؤمنين .

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

أولا : الأســــماء :

١ ـ البعـل : فى قوله تعالى «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا» هو الزوج .

٢ ـ الشـح : هو البخل مع الحرص .

ثانيا : التفسـير:

الآية الشريفة فى بيان أحكام لم تذكر من قبل فى شأن النساء أو فى شأن العلاقة الزوجية تتعلق بالحالة التى قد يكون عليها الزوجان من التباعد النفسى نتيجة ملل الزوج من زوجته أو انصراف رغبته فيها، وارشاد لما يحسن أن يكون عليه الفعل فيها؛ ولذلك فالحكم الذى تضمنته ليس حكما إلزاميا .

والحال التى يعالجها نص الآية وردت فى فعل الشرط فى جملة «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا». ومعنى عبارة النص أنه إذا توقعت الزوجة استمرار زوجها على التباعد عنها والارتفاع عليها بنفسه، أو التجافى عنها بعدم محادثتها أو بمنعها نفسه أو نفقته أو مودته، والمرشد عنه أو الموصى به من قبله تعالى هو ما جاء بجواب الشرط وهو أن يجريا

بينهما صلحا، أوضح تعالى أنه لا يكون فى هذا الصلح إثم إذا ما تم نظير تنازل المرأة عن شىء مما كان لها مثل يومها المخصص لها بين الزوجات، أو بعض حقها فى النفقة، جاء بيان ذلك لمنع توهم أنه يكون مثل الرشوة أو من قبيل أكل الحقوق بالباطل، وذلك على ما جاء بجواب الشرط فى جملة الآية «فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا » .

. ويقرر تعالى - فى شأن هذا الصلح - أنه خير، بمعنى أنه خير من الخصومة بين الزوجين، وخير من سوء العشرة بينهما، وخير من الفرقة بينهما.

وقوله تعالى «وأحضرت الأنفس الشح» بيان لما يكون باعثا على النشوز والإعراض وما يعالجه الصلح الذى تستحضر فيه الأنفس الشح. فالأنفس الشح هى نفوس الأزواج الذين بخلوا على النساء بأنفسهم وبالأيام المخصصة لهن وبالإنفاق عليهن، وهى نفوس الزوجات اللاتى بخلن عن بذل بعض حقوقهن للرجال لاستمالتهم إليهن، وفى الصلح بما يتضمنه من معنى تنازل كل طرف عن بعض ما يتمسك به من حقوق أو يدعيه علاج لأسباب النشوز والإعراض.

وتختتم الآية بقوله تعالى «و إن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا» وهو موجه إلى الأزواج هو حث لهم على الإحسان إلى النساء فى العشرة وعلى اتقاء النشوز والإعراض عنهن ولو كان لذلك أسباب تسيغه حتى لا يجبرن على التنازل لهم عن بعض حقوقهن، ويبين هذا الحث من قوله تعالى «فإن الله كان بما تعملون خبيرا» لأنه يفيد علمه بما يكون من الأزواج من إحسان إلى النساء واتقاء إجبارهن على التنازل لهم عن بعض حقوقهن، وسجازاته إياهم بإثابتهم عليه.

وقد قيل - فى سبب نزول الآية - أن سودة بنت زمعة زوج رسول الله ﷺ خشيت أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت «يارسول الله لا تطلقنى واجعل يومى لعائشة ففعل»، فنزلت الآية. وقيل إن ابنة محمد بن مسلمة كانت زوجا لرافع بن خديج فكره منها أمرا فأراد طلاقها فقالت «لا

تطلقني واقسم لـي ما تراه فاصطلحـا على صلح» فنزلت الآيـة. وما ذكر من قصـة سودة بنت زمعة رضى الله عنها منسوبا إلى ابن عباس هو حديث غريب.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٢٩﴾

أولا: الأســـــماء:

المعلقــــة: المراد بها ـ فى معنى الآية ـ التـى ليست مطلقة ولا متزوجة، تشبيها بالشىء المعلـق، لا يستقـر علـى الأرض ولا يحمـل علـى مـا علـق بـه. وقيـل إن المـــراد بـه هـو «المسجونة».

ثانيا: التفســـير:

الخطاب فـى الآية للمـؤمنين الـرجال، تضمـن إخبارا بحـال وأمرا بفعـل يجد سببـه فى المخبر عنه، وحثا علـى فعل المأمور به جاء الإخبـار فى قوله تعالى «ولـن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم» هو إخبار بواقع عدم قـدرة الرجال على إجراء العدل بين نسائهن ـ إن تعددن ـ بمعنى عـدم قدرتهـم على المسـاواة التامـة بينهن، فمـن المحال أن تكـون هناك مساواة بينهـن فى المحبة، وقـد روى عنه ﷺ ـ وقد كـان يعدل بين زوجـاته فى كـل شىء إلا الحب، كان لعائشة رضي الله عنها فيه القدح المعلى ـ أنه قال «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تـؤاخذنـى فيما لا أملـك». وقيل إن عـدم القدرة علـى العدل بيـن الزوجـات تكون فـى الجماع، وفى المفاكهة والمـؤانسة. وأعلم سبحانه وتعالى أنه مهما بلـغ حرض الرجال على

المساواة بين نسائهن فإنهم سيعجزون عنه .

وجاء الأمر بقوله تعالى «فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة» وتعلق بالزوجة المرغوب عنها، فنهى تعالى عن الجور عليها بحرمانها كامل حقوقها ـ على ما يستفاد من النهى عن كل الميل عنها ـ والمعنى هو التكليف بأداء ما تكون عليه القدرة من حقوقها.

وجاء النهى مـرتبطا بغاية هـى عدم ترك الزوجة المـرغوب عنها فى وضـع الشىء المعلق لذى لا يستقر على الأرض ولا يحمل على ما علق بـه، فتكون فى حال لا تماثل حال المطلقة أو التى لا زوج لها ليـس لها حقوق زوجية علـى زوج، وتملك أن تتزوج، ولا تماثـل حال ذات البعل فتكون لها حقوق تستوفيها وتتمتع بها.

وجاء الحث على امتثال أمره تعالى بقوله «وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما»، يخبر تعالى الذين لم يعدلوا بين النساء علـى قدر قدرتهم فجاروا على كامل حقوق المرغوب عنهن، بأنهـم إذا أصلحوا ما وقع منهم واتقـوا ما نهى تعالـى عنه من الميل كل الميـل، فإنه تعالى يغفر لهم ما سبق وقوعه منهم ويتفضل عليهم برحمته.

وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

أولا : الأســـــماء :

الواســـع: فى قوله تعالى «وكان الله واسعا عليما» المراد به ـ فى معنى الآية ـ الغنى الذى اتسع غناه إلى حد كفايته جميع خلقه .

ثانيا : التفســـــير:

الآية الشريفـة إخبار عما يؤول إليـه حال الزوجين إن لـم يصطلحا ولم يتم التـوفيق بينهما فيكون الطلاق، وبه تقع الفرقة بينهما، فإذا ما وقـع الطلاق كان إغناء كل منهما عن الآخر بما

شاء تعالى أن يتفضل به عليه «من سعته» يشمل ذلك أن يكون الإغناء بزوج آخر، وعن المال برزق آخر، وقوله تعالى هذا فيه ما يبعث الأمل فى نفوس المفترقين بالطلاق كيلا يتمكن اليأس من نفسيهما .

وقوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «وكان الله واسعاحكيما» من شأنه طمأنة المفترقين بالطلاق إلى أنه تعالى كاف كلاً منهما عن الآخر مغنيا إياه عما كان يناله منه بمشيئته بالتذكير بأنه تعالى الغنى الكافى عباده، الحكيم فى أحكامه وأفعاله تتحق بها مصالح عباده.

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾

أولا : الأســماء :

الحميــد : فى قوله تعالى «وكان لله غنيا حميدا» هو المحمود بذاته، سواء أحمده الخلق أم لم يحمدوه .

ثانيا : التفســير:

جاء قوله تعالى ـ فى مبتدأ الآية ـ «ولله ما فى السماوات وما فى الأرض» ، استئنافا لما سبق أن ذكره تعالى من أنه يغنى المفترقين بالطلاق من سعته، وبيانا لقدرته على الإغناء بحكم كونه مالك كل ما هو فى السماوات وما هو فى الأرض ,

وبعد ذلك جاء أمره تعالى المؤمنين بتقواه فى كل شىء ومنه تقواه فى العدل بين النساء فى شكل جملة تقريرية تفيد سبق صدور الأمر للأمم السابقة وصدوره للمؤمنين ، فقال تعالى

«ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله» والمعنى أنه تعالى أمر الأمم التى بعث فيهم أنبياء أنزلت عليهم كتب أبلغوا أقوامهم ما تضمنته ـ ومنهم اليهود والنصارى ـ أمر تعالى هذه الأمم بتقواه كما أمر المؤمنين بذلك. وقوله تعالى ـ فى النص ـ أن إتقوا الله هو بيان للوصية ـ من جهة ـ وهو الأمر المبين الواجبة طاعته على المؤمنين .

وبعد ذلك أوضح تعالى أن الأمر بتقواه إنما هو لصالح المأمورين وليس له تعالى فقال تعالى «وإن تكفروا فإن لله ما فى السماوات وما فى الأرض، وكان الله غنيا حميدا»، والقول يظهر أن عدم التقوى هو من قبيل الكفر، أو أنه بعض الكفر الذى لا يضره تعالى فى شىء، فهو تعالى مالك السماوات والأرض وما فيهما لا يضره الكفر به ولا ينفعه الشكر والتقوى، فهو غنى عن العالمين بذاته المحمود بذاته، فلا يحتاج إلى تقوى المتقين، ولا يضار بكفر الكافرين .

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾

التفســـير:

أعاه تعالى ذكر كونه مالك ما فى السماوات والأرض لبيان كونه صاحب السلطة فى تكليف هؤلاء وصاحب السلطة فى محاسبتهم، وقد يكون ذلك توطئة لما سيلى من أحكام، وقد يكون تفسيرا لما سبق ذكره من أحكام لم توافق ما تعارف عليه المخاطبون: ويكون لهذا جاء قوله تعالى «وكفى بالله وكيلا» ليبين أنه المستقل بما أوكل إليه وأنه الكافى بذاته، فتكون منه الأحكام وتكون منه الإثابة فى الدنيا والآخرة .

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾

التفســـير:

قولـه تعالى ــ فى الآية للترهيب، والمراد بالنـاس عموم الكافـرين والمنافقيـن، يعلمهم سبحانه وتعالى أنه إذا أراد إفناءهم بالموت يكـون بأى سبب ليأتى بعدهم آخرون من نسلهم أو من غيرهم يؤمنون فإنه تعالى يفعل، وقيل بأنه لابد أن يكون الآتون بعد الذاهبين من جنس الناس استدلالا بمـا يفيده لفظ «آخريـن» من وحدة الجنس بيـن المذكوروبين «الآخـر» كما جاء فى قوله تعالى «أفرأيتم اللات والعـزى * ومناة الثالثة الأخرى». وقيل إن المراد بالناس ـ فى معنى الآية ـ عموم الناس، يفنيهم تعالى ويأتى بجنس آخر غير جنس الناس.

وقوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «وكان الله على ذلك قديرا» جاء لتأكيد الوعيد بإثبات ما هو معلوم من قدرته الأزلية على فعل ما أراد وعدم تصور ورود العجز عليه تعالى.

مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

التفســـير:

بعد أن ذكر تعالى أنه مالك ما فى السماوات وما فى الأرض، من بعد ذكره أنه تعالى الغنى الذى يغنى من سعته، فإنه تعالى يتحدث ـ فى الآيـة ـ عن مطالب خلقه تعالى منه فيذكر فئة منهم جديرة بالتـوبيخ فكان لها، فقوله تعالى «مـن كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثـوابا الدنيا والآخرة» مفاده أن الـذى يرغب فى نيل مغانـم الدنيا ويحرص عليها هو مخطـىء لم يصب، لأنه تعالـى عنده ثواب الدنيا والآخـرة، فيكون من طلب ثـواب الدنيا قد قصر فـى حق نفسه بعدم طلبه ثواب الآخرة وعدم السعى له.

فيكون المجـاهد الذى حـارب لينال الغنائم قـد طلب ثواب الـدنيا، ويكون مثلـه الذى

جاهد فى سبيل الله قد طلب مغانم الدنيا ومغانم الآخرة، فيكون قد كسب فوق ما كسبه من أراد ثواب الدنيا، كذلك يكون المتصدق رئاء الناس قد كسب حديث الناس عنه وإشادتهم به فى الدنيا، ويكون المتصدق فى سبيل الله قد جنى ما أفاء الله به عليه من خير الدنيا وكسب ثواب فعله فى الآخرة. فالقول ـ على هذا ـ يتضمن توبيخا لمن سألوا خير الدنيا ولم يسألوا خير الآخرة ولم يسعوا إليه .

وقوله تعالى «وكان الله سميعا بصيرا» مفاده أنه تعالى يسمع دعاء الداعين إياه ويعلم ما إذا كان طلبهم هو خير الدنيا أم أنه خير الآخرة، وأنه تعالى يبصر سعيهم ويعلم ما إذا كان فى سبيل مغانم الدنيا أم أنه فى سبيل ثواب الآخرة. والقول حث على أن يكون الدعاء، وأن يكون السعى لخيرى الدنيا والآخرة .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾

التفســـير:

بعد حثه تعالى المؤمنين على العدل بين نسائهم قدر القدرة مع إعلامهم أنهم لن يستطيعوا العدل بينهن، فإنه تعالى ـ فى الآية ـ يأمرهم بما يقدرون على القيام به وهو فيما هو خارج عن العدل بين النساء. فقوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط» هو خطاب موجه منه تعالى للمؤمنين تضمن أمرا بالقيام على العدل قيام مواظبة واجتهاد، وفصّل

القيام على العدل بذكر وجه من أوجهه يتعلق بالشهادة كدليل فى الإثبات بقوله تعالى «شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين».

فالأمر ألزم المؤمنين أن يكونوا شهداء لله، بمعنى أن تكون شهادتهم لوجه الله فتكون بالحق، ولا يختلف المعنى سواء كان لفظ «شهداء» قد جاء خبرا ثانيا للفعل الناسخ «كونوا» أم كان حالاً للضمير المستتر فيه. كما أمرهم ألا يمنعهم عن التزام الشهادة بالحق أن تتعلق الشهادة بأمر من أمورهم أو بنزاع هم طرف فيه ـ فيكون المراد بالشهادة على النفس هو الإقرار ـ ولا أن تكون الشهادة متعلقة بأمر من أمور الوالدين أو الأقربين.

والمعنى المستفاد واحد، وهو عدم التأثر بالعواطف عند الإدلاء بالشهادة وابتغاء وجه الله والحق بها.

ثم إنه تعالى يبين علة وجوب التزام وجه الحق فى الشهادة ويظهر وجوب عدم التأثر بالعواطف لدى الإدلاء بها بقوله تعالى «إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما» والمعنى هو عدم الاعتداد بحال المشهود له أو عليه من الغنى والفقر، فلا يكون الامتناع عن الشهادة على الغنى كسبا لرضاه أو أملا فى الحصول منه على مصلحة، ولا يكون الامتناع عن الشهادة على الفقير عطفا عليه وشفقة، ويشمل النهى عن التأثر بالعواطف فى الشهادة النهى عن أن يكون الحقد أو الكراهة لأحد المتخاصمين، أو فقره وضعفه دافعا للشهادة بغير الحق عليه؛ ولذلك جاء قوله تعالى «فالله أولى بهما» بيانا لأنه تعالى الأولى أن ينظر إلى المتخاصمين وفق أحوالهم وأنه لا شأن للشاهد بهذا ، فقد شرع تعالى الشهادة دليلا فى الإثبات وليس على الشاهد إلا أن يوفيها حقها بالتزام وجه الحق دون تأثر بعواقبها .

وقد جاء قوله تعالى «فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا» تأكيدا لهذا المعنى، فالقول يتضمن نهيا جازما عن اتباع هوى النفس عند أداء الشهادة يكون معه العدول عن وجه الحق إن اتبع، ويكون فى الانتهاء عنه إحقاق الحق والعدل.

ثم إنه تعالى يبين بعض مظاهر عدم أداء واجب الشهادة على الوجه الأكمل ويحذر منه بقوله تعالى ـ في ختام الآية ـ «وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا» ومعناه أنكم إن لويتم ألسنتكم بالشهادة فلم تأتوا بها على وجهها أو ماطلتم فى إبدائها، أو أعرضتم عنها بالكلية فامتنعتم عنها، فإنه تعالى يعلم ما عملتم ويحيط به خبرا فيؤاخذكم بما عملتم وبدوافعكم عليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

أولا : الأســـــماء :

الذين آمنوا : الظاهر أن المراد بهم المسلمون ـ وقيل إن المراد بهم المنافقون لأنهم مؤمنون فى الظاهر، وقيل إنهم مؤمنوا اليهود، وقيل إنهم مؤمنوا اليهود والنصارى، وقيل هم جميع الخلق لأنهم آمنوا يوم أخذ الميثاق .

ثانيا : التفســـــير:

الخطاب فى الآية موجه للمؤمنين يأمرهم تعالى بالثبات على إيمانهم الذى هم عليه والذى تضمن الإيمان بالله تعالى وتوحيده وعدم الشرك به، والإيمان برسول الله ﷺ رسولا نبيا، وبالقرآن العظيم كتابا منزلا منه تعالى على رسوله ﷺ، وبالكتب التى أنزلت على الأنبياء والرسل من قبل نزول القرآن، بمعنى التصديق أنها نزلت من قبله تعالى ـ جاء التعبير عنها بلفظ «الكتاب» وهو اسم جنس ـ والإيمان بالكتب السابقة يستوجب الإيمان بالرسل الذين أنزلت إليهم، وهذا هو حال المؤمنين الذى أمروا بالثبات عليه .

ثم إنه تعالى أثبت حال الذى يكفر بشىء مما أمر بالإيمان به بقوله تعالى «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا» «والواو» فى الجملة ترجع إلى الواحد من المذكورين وليس إليهم مجموعين، فيكون الحال الذى ورد به جواب الشرط فى الجملة الشرطية هو حال من يكفر بواحد من المذكورين، فيكون المعنى أن من يكفر بالله أو يكفر بملائكته، أو بكتبه كلها أو بعضها، أو برسله جميعهم أو بعضهم، أو باليوم الآخر بمعنى يوم القيامة وما يكون فيه فإنه يكون ضالا عن الحق، وذهب فى الضلال إلى مدى بعيد. والقول بهذا المعنى يتضمن وعيدا للكافرين بأىٍّ مما يجب الإيمان به بسوء المصير.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾﴾

التفســـــير:

قوله تعالى - فى الآية - يشمل جميع المترددين بين الكفر والإيمان إلى أن يموتوا على الكفر، لا يقتصر هذا على الذين آمنوا بالإسلام ولرسول الله ﷺ ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا إلى أن ماتوا كافرين، وإنما يمتد ليشمل كل من آمن بنبى أو رسول من قبل ثم كفر وتوالى منه الإيمان والكفر إلى أن مات كافرا، فيدخل فى عداد المقصودين بقوله تعالى اليهود الذين آمنوا بموسى عليه السلام ثم كفروا بعبادتهم العجل حين غاب عنهم موسى لتلقى التوراة من ربه، ثم آمنوا بعد عودته إليهم، ثم كفروا بإنكار نبوة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، ثم ازدادوا كفرا بإنكارهم نبوة رسول الله ﷺ، ويدخل فيهم أهل الكتاب الذين أظهروا إيمانهم برسول الله ﷺ ثم أظهروا ارتدادهم وكرروا إعلان الإيمان ثم إعلان الارتداد

قولا منهـم بأنهـم بالرجـوع إلى كتبهـم تحققوا من أنـه ﷺ ليس المـذكور فيها أنـه يأتـى نبيا لتشكيك المسلمين فى دينهم ونبيهم المبعوث رحمة للعالمين .

وقد قطع تعالى بقـوله «لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا» بأنـه تعالى نفى أن تكون منه مغفـرة لهم أو هدايـة، جاء النص بنفى إرادة فعـل المغفرة وفعل الهـداية ليكون أبلـغ فى إيصال معنى حتمية عدم المغفرة وعدم الهداية، وذلك إنما كان لانتفاء سببهما وهو الإيمان، ولكونه مستبعدا استبعدت المغفرة واستبعدت الرحمة .

بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾

التفســـير:

الخطاب فى الآية لـرسول الله ﷺ، أمره تعالى أن يخبر المنـافقين بأنه تعالى أعـد لهم فى الآخرة عذابـا أليما. جاء التعبير عن الإخبـار بالتبشير- وهـو يكون فيما يسر- مـن قبيل التهكم عليهم .

ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

التفســـير:

الحديـث فى الآيـة عن المنـافقين المـذكوريـن فى الآيـة السابقـة وصفوا بفعلهـم وهو اتخاذهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وذلك لأنهم كانوا لا يعتقدون فى انتصار الإسلام والمسلمين فكـانوا يوالون المشـركين ويوالـون اليهود وينصرفـون عن المسلمين فجاء قـوله

تعالى متضمنا فى معناه ذمهم بفعلهم.

ثم جاء قوله تعالى «أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا» تضمن استفهاما إنكاريا ينكر على المنافقين فعلهم وأن يكون المستهدف به هو أن يجدوا لدى الكافرين القوة والمنعة التى تعصمهم من دون الناس، وتضمن بيانا للحقيقة التى تثبت خيبة آمالهم وما يرتجون بتقريره تعالى أن العزة ـ وهى المنعة والقوة ـ جميعها يختص وحده تعالى بها فيعطيها من يشاء، وقد أعطاها المؤمنين بقوله تعالى «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين».

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

التفســـير:

الخطاب فى الآية وجه إلى المنافقين الذين ورد فيهم القول فى الآية السابقة، يظهر لهم تعالى جسامة خطئهم وانعدام حجتهم لتبرير موالاتهم الكافرين. فيذكر تعالى أنهم قد نهوا من قبل بالقرآن الذى نزل حجة عليهم عن مجالستهم بقوله تعالى «وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم» وهم لم يعرضوا عنهم حال كفرهم واستهزائهم بآيات الله.

وقوله تعالى «وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره» يثبت ـ إلى جانب إقامة الحجة على المنافقين ـ وجوب اجتناب أصحاب المعاصى إذا ظهر منهم منكر لأن من لم يجتنبهم يكون راضيا بالكفر، والرضا بالكفر كفر.

ولذلـك جاء قولـه تعالى «إنكـم إذا مثلهم» دالا على المماثلة بين المنافقين الذين لم يتجنبوا الكافرين ووالوهم وبين الكافرين ترتيبا على رضائهم بالكفر الذى سمعوه ولم ينكروه ولم يقوموا عن قائليه. والقول يفيد التزام من جلس فى مجلس معصية أن ينكر ما يعاين أو يسمع منها أو القيام عن المجلس، وإلا كان شريكا فى وزر المعصية.

وقوله تعالى - فى ختام الآية - «إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا» جاء مقررا ما يكون منه تعالى مع المنافقين ومع الكافرين إذ يجمعهم معا فى جهنم، يدخل فى المنافقين هؤلاء الذين كانوا يوادون المسلمين ويظهرون الإيمان فإن كان للمؤمنين فتح قالوا ألم نكن معكم، وكانوا يوادون الكافرين ويوالونهم فإن كان لهم نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم. ويدخل فيهم عموم جنس المنافقين الذين ساوى تعالى بينهم وبين الكافرين، ويدخل فى الكافرين مشركوا مكة والعرب وأهل الكتاب الذين كانوا يجالسونهم فيسخرون من القرآن العظيم، بين تعالى أنهم يجمعون فى جهنم جميعا.

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١

التفســـير:

الخطاب فى الآية للمؤمنين الذين صح إيمانهم ظاهرا وباطنا والذين يعود عليهم الموصول «الذين» هم المنافقون الذين أعلنوا إيمانهم بألسنتهم دون قلوبهم، ذكر تعالى أنهم

يتربصون بالمؤمنين بمعنى أنهم يترقبون نتائج ما يكون بينهم وبين الكافرين من مصادمات وقتال ليتصرفوا على ضوء نتيجته، فإن أسفر الصدام أو القتال عن نصر على الكافرين من الله سألوا المسلمين نصيبهم في الغنائم متذرعين بأنهم كانوا معهم «فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم»، وإن كانت جولة الحرب من نصيب الكافرين سألوهم نصيبهم من الفوز أو طلبوا أجرهم متذرعين بأنهم حين حاربوا فى صفوف المسلمين وقدروا عليهم أو على البعض منهم لم يقتلوهم، وأنهم أطلعوهم على أسرار المسلمين مما مكنهم من كسب الجولة من الحرب، وبأنهم دفعوا عنهم بأس المسلمين بوسيلة من الوسائل من تثبيط العزائم أو توهين قلوبهم عن قتالهم «وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين» .

ولما كان القول متعلقا بصراع حقيقى قائم بين المنافقين ـ الذين عصموا دماءهم بإعلانهم إيمانهم ـ وبين المؤمنين، فإنه تعالى ذكر ما يكون من حال الفريقين فى الآخرة بقوله تعالى «فالله يحكم بينكم يوم القيامة» بمعنى أنه يجازى كلا من المنافقين والمؤمنين بما كان منه يوم القيامة فيكون منه تعالى إثابة المؤمنين ومعاقبة المنافقين، وبيان أن ذلك يكون منه تعالى يوم القيامة وليس فى الحياة الدنيا جاء ترتيبا على عصمة المنافقين دماءهم من المؤمنين بنطقهم بشهادة ألا إله إلا الله.

ثم إنه تعالى أثبت أنه لن يجعل للكافرين على المؤمنين سلطانا، وهذا غير مختلف على حصوله على التمام فى الآخرة، إذ يكون للكافرين الخزى والعذاب وللمؤمنين العزة والثواب، أما فى الدنيا فقد يكون مفاد القول هو أنه تعالى لن يخول الكافرين السلطان الكامل على المؤمنين الذى يمكنهم منه استئصالهم والقضاء على دين الله، ولا يمنع هذا من أن يكون للكافرين يد على المؤمنين يحتلون بلادهم ويستغلون ثرواتهم ويسخرونهم للعمل لصالحهم. ولكن يبقى أن هذا ليس هو السبيل، لأنه لا يؤدى إلى القضاء على المؤمنين وعقيدتهم.

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ وصف للمنافقين وأحوالهم وأفعالهم أثبت تعالى أنهم يفعلون معه تعالى أو مع رسوله ﷺ أفعال الخداع بإظهار الإيمان و إضمار الكفر وأنه تعالى يخدعهم بمعنى أنه تعالى يمكر بهم فيغلبهم؛ وذلك لأنهم يحسبون أنهم قد نجوا بخداعهم من العذاب وهو قتل المؤمنين إياهم ومعاقبتهم فى الدنيا ويكون الواقع أنهم يعاقبون بأفعالهم فى الآخرة عقابا تهون أمامه أهوال عقاب الدنيا.

ثم إنه تعالى يبين حالهم من الصلاة ومن الذكر، فمن آيات النفاق أنهم يقومون إلى الصلاة، ومن مظاهر عدم إيمانهم أنهم عندما يقومون إلى الصلاة يقومون متثاقلين متباطئين لأنهم لا يعتقدون فرضيتها وثوابها و إثم تاركها، فيكون المراد من إقامتهم الصلاة هو أن يراهم المؤمنون يقيمونها فهم يراءون الناس ولا يخلصون فى إقامتها . كذلك فإنهم إنما يذكرون الله فى حضور المؤمنين ولا يذكرونه بينهم وبين أنفسهم لأن ذكرهم إياه تعالى مقصودة به المراءاة فيكون كمُّه قليلا، وعلى ذلك يكون منهم الذكر فى الصلاة يتلونه بألسنتهم فى الجهر ولا يذكرونه فى السر فيكون قليلا، ثم إنه لما كان ذكرهم إياه تعالى ذكر لسان وليس ذكر قلب فلا يقبل منه تعالى فإنه يكون قليلا و إن كثر.

مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

أولا : الأســـــماء :

المذبذبون : فى قوله تعالى «مذبذبين بين ذلك»، جمع، مفرده المذبذب، وهو المتردد بين أمرين، من الذبذبة وهى صوت حركة الشىء المعلق.

ثانيا : التفســـير :

لايزال الحديث فى شأن المنافقين، جاء قوله تعالى «مذبذبين بين ذلك» حالا يبين هيئة الفاعل فى «يراءون» والمعنى أنهم فيما يفعلون لإظهار إيمانهم يكونون مترددين بين سلوك المؤمنين وسلوك الكافرين فهم يقومون إلى الصلاة كما يقوم المؤمنون لها، وهم يتثاقلون عنها ويتباطؤون لأنهم مثل الكافرين لايؤمنون بفرضيتها، والذى ذبذبهم هو الشيطان فهو سبب حيرتهم بما ألقاه فى قلوبهم من الشك.

ولذلك فإنهم لاينتمون إلى المؤمنين ولاينتمون إلى الكافرين، فبإضمارهم الكفر لا يعدون من المؤمنين وإن نطقوا بالشهاة وقاموا بعبادات المؤمنين فى الظاهر، وهم بإعلانهم الشهادة وقيامهم بعبادات المؤمنين فى الظاهر لا يعتبرهم الكافرون منهم .

ويبين واقع حالهم بقوله تعالى «ومن يضلل الله فلن تجدله سبيلا»، والمعنى أنهم ضالون، وأنه تعالى قدر عليهم الضلال لاختيارهم إياه وإصرارهم عليه، ولذلك فإنهم يعدمون سبيلا إلى النجاة منه ومن العقاب عليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾

أولا : الأســـــماء :

١ ـ **الذين آمنـــوا**: قيل إن المراد بهم ـ فى معنى الآية ـ هم المؤمنون الصادقون وقيل إن المراد بهم هم المنافقون من بين المؤمنين، وقيل إنهم المؤمنون بمن فيهم من المنافقين.

٢ ـ **المؤمنون** : فى قوله تعالى «أولياء من دون المؤمنين» هم المؤمنون المخلصون .

٣ ـ **السلطان** : فى قوله تعالى «أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا» هو الحجة.

ثانيا : التفســـير:

الخطاب في الآية للمؤمنين الصادقين ـ على الراجح ـ ينهاهم تعالى عن موالاة الكافرين عموما وفيهم المنافقون، حتى لايكون فى ذلك تشبه بفعل المنافقين، وقيل إن الخطاب للمنافقين ينهاهم تعالى عن موالاة الكافرين .

وجاء إظهار إثم اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين بقوله تعالى «أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطان مبينا» إذ بين القول أن فعل المنهيّ عنه يوجب العقاب ويقيم الحجة على استحقاقه، وقد استدل بقوله تعالى هذا على أنه تعالى لا يعاقب بالذنب أو الإثم حتى يقيم الحجة على فاعله.

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾

التفســـير:

بعد أن بين تعالى أنه يعذب المنافقين بنفاقهم في الآخرة، فإنه تعالى يبين في الآية موقعهم فى النار المعذبين بها فقال تعالى «إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار» أى فى أدنى طبقة من طبقاتها التى بعضها أسفل بعض. والمنافقون الذين عناهم النص هم هؤلاء

الذين ورد فيهم قوله تعالى فى الآيات السابقة فلا يكون منهم ـ على الراجح ـ من جاء فيهم قوله ﷺ «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا وعد غدر، وإذا خاصم فجر».

وتأكد تعذيبه تعالى المنافقين بنفاقهم وموضعهم فى الدرك الأسفل من النار بذكره تعالى أنهم يعدمون النصير الذي يخلصهم من العذاب أو يخفف عليهم من غلوائه بقوله تعالى «ولن تجد لهم نصيرا».

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾

التفسير:

بعد أن بين تعالى مصير المنافقين فى الآخرة كان من باب رحمته تعالى أن فتح أمامهم باب التوبة، وربما كان ذلك لأن تذبذب قلوبهم بين الإيمان والكفر يفيد أنه قد توجد لدى البعض منهم بذور الإيمان فينمّيها العلم بغفران الذنب فيتحول ترددهم بين الشك واليقين إلى إيمان.

فجاء قوله تعالى «إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين»، استثنى فيه تعالى من بين المنافقين المتوعدين بسوء العذاب الذين يتوبون منهم عن الكفر وعن النفاق، والمعنى أنهم يؤمنون إيمانا صحيحا ـ ولما كان من معانى التوبة إصلاح ما وقع من الذنب الذى كانت منه التوبة ـ فقد اشترط فى التائب عن النفاق أن يصلح نيته التى كانت فاسدة بالنفاق وأن يصلح من حاله فيقلع عن موالاة الكافرين، ثم إنه لما

كانت التوبة عـن النفاق تستوجب طرح عقيدة البحث عن نفع لدى الكـافرين وطلب الخير منه تعالـى وحده فقد تعين على التائب ألا يعتصـم إلا بالله فيتمسك بكتابه الكريـم ويثق فيه تعالى أنـه وحده كافيه. كـذلك فإنه لما كـانت التوبة هـى عن النفاق وعن الكفر الذى كان يبطنه المنـافق قبل تـوبته فقد وجـب على التائب أن يخلـص دينه لله فيبعد عـن المراءاة ولا يبتغى بعمل الصالحات إلا وجهه الكريم تعالى ملتمسا رضاءه ومغفرته.

وقد أوضح تعـالى مصير هؤلاء التـائبين عن النفاق بـإثباته تعالـى أنهم يكونون فـى معية المؤمنين الصادقين الذين لم يداخل الشك ولا النفاق نفوسهم منذ أن آمنوا، فيكون لهم ذات مصيرهم وهو دخول الجنة والخلود فيها، وتكون لهم ذات درجتهم فى درجات الجنة .

وبعد أن أوضح تعالى مصير التائبين إجمالا بذكـره تعالى أنهم يكونون فى معية المؤمنين، ذكر تعالـى أنه يؤتى المـؤمنين أجرا عظيما «وسـوف يؤت الله المؤمنين أجـرا عظيما» فبين أن نعيمهم فى الآخرة يكون عظيما ـ دون تفصيل مظاهر العظمـة ـ للإطماع فيها مع ما هو معلوم من أن ما عنده تعالى أعظم من أن تدركه الأبصار وتعيه العقول.

ثم إنه تعالى وصفه بالأجر لبيان أحقية المؤمنيـن والتائبين بالتالى فى الحصول عليه تكرما منه تعالى وفضلا.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١٤٧﴾

التفســـــير:

الخطاب فى الآية موجه إلى المنافقين، جـاء فى صيغة استفهام يفيد النفى، بمعنى أنه لا يستهدف الله بعذابكم شيئا من جلب نفعة أو دفع ضرر أو شفاء لغيظ، وفيه إشارة إلى أن مناط

التعذيب هو جحود النعمة والكفر وليس شيئا آخر.

وجاء ذكر الشكر قبل الإيمان فى قوله تعالى «إن شكرتم وآمنتم» لأن أولى مراحل الإيمان هى استشعار المرء نعم ربه، فإن شكره تعالى عليها كان قد آمن به وبوحدانيته .وجاء قوله تعالى «وكان الله شاكرا عليما» من بعد بيانه تعالى أنه لا يعذب بغير ذنب أو إثم لبيان أنه يثيب على الشكر الذى يعلمه يكون من العبد، فيجازى به كما يعاقب بالكفر والجحود.

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ١٤٨﴾

أولا : الأســـــماء :

الجهـــــر : هو العيان، والجهر بالقول هو رفع الصوت به، والمراد به - فى معنى الآية - الإظهار والإعلان.

ثانيا : التفســـــير :

بعد أن ذكر تعالى فى الآيات السابقة مصير المنافقين من العذاب فى الآخرة، ثم ذكر من بعده فتحه تعالى باب التوبة أمامهم ورحمته بهم، فإنه تعالى يذكر لهم فى الآية بعض ما يجب أن يتحلوا به ويتحلى به المؤمنون عامة من الخلق الكريم يتمثلونه تعالى ويتمثلون نبيه ﷺ فيه .

ومعنى قوله تعالى «لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم» أنه تعالى يغضب على من يعلن أو يذيع قولا يتضمن شكوى من أحد أو ذما له أو دعاء عليه، وأنه يعاقبه بهذا وذاك ما لم يكن من فعل ذلك قد وقع عليه ظلم ممن يشكوه أو يذمه أو يدعو عليه، فإن فعله

لا يكون مكروها لديه تعالى أو أنه لا يكون معاقبا عليه .

وربما كان سبب غضبه تعالى على من يجهر بالسوء من القول أن من شأنه أن يشيع القول الفاحش فى مجتمع المسلمين فينال من مصلحة عامة أو من حق من حقوق الله، وسبب عدم معاقبة المظلوم بهذا مراعاة جانب الانفعال النفسى من أثر وقوع الظلم عليه، وكونه يتضمن نوعا من القصاص من الظالم .

وقوله تعالى «وكان الله سميعا عليما» مفاده إحاطته بما جهر به قائل السوء من القول، وما قال ظالمه أو فعل وعلمه بحقائق الأمور وما إذا كان قد وقع ظلم على الجاهر بالسوء أم لا، وإنه يحاسب بهذا دون ظلم لأحد .

إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

التفســـير:

قوله تعالى فى الآية استمرار لبيان مكارم الأخلاق التى يجب أن يتحلى بها المؤمنون. فمفاد قوله تعالى أن إظهار الخير من الأقوال والأفعال عامة أو سترها ـ يدخل فى ذلك الإحسان بداءة والإحسان إلى من أحسن بالشكر ـ هو مما يحبه تعالى ومثله العفو عن المسيء إلى المرء والصفح عنه رغم مشروعية رد الإساءة بمثلها، وربما كان حبه تعالى لفعل الخير مع إظهاره ـ مع خلوص النية لله فيه ـ أن من شأنه إشاعة فعل الخير فى مجتمع المسلمين، وكان حبه تعالى لفعله فى السر هو دلالة فعله لوجهه تعالى وحده.

ثم إنه تعالى بين أن العفو المحبب إليه تعالى والمدعو إليه هو العفو مع القدرة على الاقتصاص من المعتدى أو رد الاعتداء بمثله وذلك بقوله تعالى «فإن الله كان عفوا قديرا» لأنه لما كان على المؤمنين الاقتداء به تعالى فى فعله مع العصاة، وكان تعالى قد بين أنه يعفو

عنهم مع قدرته عليهم وعلى إيقاع ما يشاء من العذاب بهم، فإنه يكون على المؤمنين الاقتداء به تعالى فيعفون عمن يسيء إليهم مع قدرتهم على الاقتصاص منه أو رد الإساءة إليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾

التفسير:

جملة الآية هي «إن» للتوكيد، ومبتدؤها، أما خبرها فتتضمنه الآية التالية. والمخبر عنهم هم الذين يكفرون بالله ورسله، وأول من يوصفون بهذا هم الملحدون الذين يكفرون بالله فينكرون وجوده وينكرون على الرسل أنهم أنبياء مبعوثون، ومنهم هؤلاء الذين يؤمنون بوجود إله وينكرون على الرسل أنهم أنبياء مبعوثون ولو قالوا إنهم محض مصلحون، لأن الكفر بأنبيائه تعالى ورسله كفر به تعالى، ويدخل فيهم الذين يؤمنون بالله وببعض الرسل ويكفرون برسل آخرين، كما فعل اليهود الذين آمنوا بنبوة موسى عليه السلام وكفروا نبوة عيسى عليه السلام،وكما فعل النصارى الذين آمنوا بنبوة موسى عليه السلام وبعيسى عليه السلام وأنكروا نبوة محمد ﷺ، اعتبروا من الكافرين بالله ورسله لأنهم لم يؤمنوا بما أنزل تعالى على كل من موسى وعيسى عليهما السلام في التوراة والإنجيل من أنه يبعث من أبناء إسماعيل رسولاً جاء وصفه تاما في الكتابين، ولم يستجيبوا لدعوة موسى وعيسى عليهما السلام أن يؤمنوا اله إذا جاء، فكانوا بذلك كافرين بالله وبرسله الذين يدّعون إيمانهم بهم وبدعوتهم.

ومن وصفهم ما جاء بقوله تعالى «ويريـدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا» والمعنـى أنهم يريدون فى أنفسهم التفرقة بين الإيمان بالله تعالـى وبين الإيمان بالرسل، مع أن الإيمان وحدة لا تتجـزأ تشمل ـ وجوبا ـ الإيمان بالله وبالرسـل جميعا، لأن الدين واحد، كمل به ﷺ فلا يكـون من كفر به ﷺ أو بغيره من الرسل مؤمنا. وعمل هؤلاء الذى يحاولون به طمس حقيقة أمرهم والتمويه على الخلق هو قولهم إنهم يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون بآخـرين، فكأنهم بذلك يريدون أن يختطوا طريقا بين الكفر وبيـن الإيمان، مع أنه ليس بيـن السبيلين طريق، فـالمرء إما أن يكون مؤمنـا فيؤمن بالله وبجميـع الرسـل وخاتمهـم رسول الله ﷺ، وإمـا أن يكون كـافرا إن لـم يؤمـن به تعـالى وبجميع رسله، فإن كفر أحدهم كان كافرا.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ١٥١﴾

التفســـير:

جملة قولـه تعالى «أولئك هـم الكافرون حقا» هى خبـر «إن» فى الآية السابقـة، جاء فيها «أولئك» مبتدأ، يشير إلى المـوصوفين بالصفات المذمومة المذكورة فـى الآية السابقة، وخبره أنهم الكـافرون حقا، أى أنهم الـذين اكتمل فيهم الكفـر ولو ادعوا غيـره، وتأكد ذلك بإيراده تعالى لفظ «حقا» جـاء المصدر مؤكدا غيره ـ وهو الكفر ـ فهم الكـافرون على الحقيقة وعنده تعالى.

ثم إنه تعالى بين ما يكون منه تعالى معهم بقوله تعالى «وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا» أى أنه تعالـى قد أعد سلفا للكافريـن ـ الذين يدخل فـى زمرتهم المذكورون بصفاتهـم فى الآية السابقة والمشار إليهم فى الآية ـ عذابا يهينهم ويخزيهم جزاء على كفرهم.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾

التفســــــير:

الآية الشـريفة فى بيان حـال الذين آمنـوا بالله وبجميع رسلـه فلم يكفروا أحدا منهـم ولـم يقولوا بإيمـانهم بالبعض منهم وكفرهـم بآخرين، جاء بيان حـالهم فى مقابل حال الـذين لم يؤمنوا بجميع رسله تعالى.

وفى جملة الآية جاء الاسـم الموصول «الذين» مبتدأ، وخبره هو قولـه تعالى «أولئك سوف يؤتيهـم أجورهم». ومعنى قـوله تعالـى أن الذين آمنـوا بالله تعالى وبجميـع رسله ولم يـؤمنوا ببعض الرسـل ويكفرون ببعض أولم يقولـوا بذلك، فلم يكـن منهم التفرقة بين بعـض الرسل والبعض الآخر فـى الإيمان، فإنه تعالـى يؤتيهم فى الآخـرة ما وعدهم من الثـواب، يكون لهم كما يكون الأجر حقا للعامل، وذلك تدليلا على لزوم استيفائهم ما وعدوا .

وقوله تعالـى ـ فى ختام الآية ـ «وكـان الله غفورا رحيما» هو إشارة لمزيـد من الخير يكون للمذكـورين فى الآخـرة، إذ يكون منه تعـالى لهم مغفرة مـا سبق لهم ارتكـابه من المعـاصى والآثام، ومضاعفة حسناتهم برحمته.

■■■■

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ ١٥٣

التفســـــــــير:

الخطاب فى الآيـة إلى رسول الله ﷺ فى شـأن فئة من الذين فـرقوا بين رسله تعـالى وهم أهل الكتاب عامة أو اليهـود الذين طلبوا منه ﷺ تدليلا على نبوته تعنتـا وتعجيزا له أن يأتيهم بكتاب ينـزل من السماء جملة واجـدة خطته يد القـدرة كما كان الأمـر فى شأن توراة مـوسى عليه السلام إذ أنزلت إليه جملة مكتوبة في الألواح.

وفى شأن هؤلاء جاء قوله تعالى «فقد سألـوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة» هو تسرية عنـه ﷺ بإعلامه أنـه كان منهم مع رسـولهم ما هو أكبـر من ذلك مما لا يحـزن معه أن يطلبوا منـه ما طلبـوا، وبيان ذلك أنهـم طلبوا مـن موسـى عليه السلام أن يـريهم الله كفـاحا ليشاهدوه مشاهدة معاينة، وهو ما كان منهم فـى برية سيناء بعد خروجهم من مصر. وإلصاق هذا الفعل بهم مع حدوثه من أسلافهم إنما كان لقبولهم إياه إلى اليوم ولكونه فعلا يصدر عن طبيعة جنسهم لا يختلف فيه الخلف عن السلف.

وقوله تعـالى «فأخذتهم الصـاعقة بظلمهم» هو بيان لمـا كان منه تعالى معهـم من عقاب على تجـرؤهم على سـؤال موسـي عليه السلام أن يـريهم الله جهرة، وبيـان لاعتبار مثـل هذا الطلب خطيئـة تستوجـب العقاب لتضمنها ظلـم النفس، وذلـك على ما يبيـن من البـاء فى «بظلمهم» وهـى لبيان عـلاقة السببيـة بين ضـربهم بـالصاعقـة وبين ظلمهـم الذى تحقـق

بسؤالهم رؤيته تعالى جهرة. كذلك تضمنت عبارة النص بيان ماهية العقاب الذى حل بهم وهو نزول الصاعقة عليهم من السماء أبادت منهم الكثيرين وهم من طلبوارؤيته تعالى جهرة ومن أيدوا مطلبهم .

ثم إنه تعالى ذكر لرسوله ﷺ ما كان من هؤلاء القوم أو من أسلافهم الذين لا يختلفون عنهم طبعا مع رسولهم ليتأسى بذلك، فقال تعالى «ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات» وهو ذكر لما كان منهم من بعد أن عاينوا المعجزات التى أيد بها تعالى موسى عليه السلام والتى كان منها ضرب فرعون وقومه باللعنات، ومعجزة العصا، وفلق البحر ثم كان منهم على ذلك وما كان يستوجبه من الإيمان الصادق به تعالى ورسوخ الثقة به من عبادة العجل.

وبعد ذلك ذكر تعالى فعله مع هذه الطائفة من أهل الكتاب أو مع أسلافهم بقوله تعالى «فعفونا عن ذلك، وآتينا موسى سلطانا مبينا» فبين تعالى أنهم - والمراد هو أسلافهم - حين تابوا عن ذنبهم عفى الله عنهم، وأعطى موسى عليهم سلطة واضحة فكان منهم اتباعه.

وذلك أنهم حين أمرهم عليه السلام أن يقتلوا أنفسهم ففعلوا وقعت منهم التوبة على النحو الذى طلبه تعالى منهم، فكان ممن بقى على حياة ممن لم يشارك فى إثم عبادة العجل الانصياع لموسى عليه السلام بما منحه الله من سلطة عليهم رضخوا لها وأطاعوه .

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

التفســـير:

قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ استئنـاف لرواية مـا كان من اليهود أو مـن بنى إسرائيـل أسلاف المعاصرين رسول الله ﷺ، وقوله تعالى «ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم» يحتمل معنيين:

أولهما: أن يكون المراد بالطـور هو الغمامة التى رفعها تعالى فوق بنـى إسرائيل لتظلهم فى ترحـالهم وهم فـى سيناء، تكون قـد رفعت منه تعـالى منة منـه وفضلا لإعطائهـم الميثاق أى بسبب إعطائهم الميثاق.

وثانيهمـا: أن يكون المراد بالطـور هو الجبل رفعه تعـالى فوقهـم عندما امتنعوا عـن إعطاء الميثاق فخشوا أن يقـع عليهم فأعطوا الميثاق، أو أنهـم امتنعوا عن قبول شريعـة التوراة فلما رفع تعالى الجبل فوقهم وخشوا وقوعه عليهم قبلوها.

وقوله تعالـى «وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا» هو ذكر لمـا قاله لهم يوشع بن نـون بأمر ربه بـدخول أريحـا مدخـلا إلـى فلسطين أو بـدخول أحـد أبـواب بيت المقـدس خاضعيـن لله خاشعين.

وقوله تعالى «وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت» هو إشارة إلى حدثين:

أولهما : كان مـن موسى عليه السلام لما أمـرهم وهم فى سيناء أن يحفظـوا عطلة السبت فلا يلتقطوا المن والسلوى فيه وأن يحفظوا مما جمعوا يوم الجمعة ليوم السبت.

وثانيهما: عندما أمرهم نبى لهم ألا يصطادوا السمك يوم السبت فخالفوا أمره.

وقوله تعالـى ـ فى ختام الآية ـ «وأخذنـا منهم ميثاقا غليظا» هو إشارة إلـى قولهم «سمعنا وأطعنا» لمَّا كان منه تعالى أمرهم بالتزام طاعتـه فيما أمر ونهى فى التوراة، وقيل إنه وصفه بأنه ميثاق غليظ إنمـا كان لتوثيقه بـاليمين. وقيل إن الميثاق الغليـظ هو ما أخذ مـن النبيين «وإذ

أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكـم» وما أخذه كل نبى من أمته. أخذه مـوسى من اليهود بعد أن أعطاه الله تعالى .

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾

التفســـــير:

قوله تعـالى ـ فى الآية ـ بيان لأسباب لعنه تعالـى اليهود، وذلك على ما يبيـن من «الباء» وهى للسببية، و «مـا» المزيدة للتوكيـد، وهذه الأسباب هى: نقضهـم ميثاقهم، حدث عنـدما عبدوا البعل «بعليم»، وعشتاروت بعـد موت يوشع بن نون، وكفرهم بـآيات الله التى تضمنتها كتبه بتحريفهم التـوراة، وقتلهم الأنبياء بغير حق ـ ولا يقتـل نبى بحق ـ ومنهم يحيى بـن زكريا عليهما السلام، «وقولهم قلـوبنا غلف» بمعنى أنها مغشاة بأغشية فـلا تفهم قوله ﷺ، أو أنها امتلأت بالعلم الذى عندهم فاستغنوا بما فيها عما جاء به رسول الله ﷺ.

وجاء قوله تعالـى «بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا» جملـة اعتراضية بين ما ذكر فى الآية من قبل وما عطف عليه فى الآيـة اللاحقة، تضمنت بيان واقع حالهم والرد علي زعمهم أن قلوبهم غلف. ومفاد قوله تعالى أن قلوبهم ليست أوعية للعلم وإنما هى محجوبة عن العلم شبه ما أغلـق من الأماكن وختم عليه، فعل الله ذلك بقلـوبهم لأنهم اختاروا الكفر على الإيمان كما ثبت فى علمه تعالى الأزلى فجرت به مشيئته فكان.

ثم إنه تعالى أوضـح فى ختام الآية أن إيمانهم لا يعتد به لأنه إيمان نـاقص على ما يفهم

من وصفه بالقليل، فهم إن كانوا يزعمون إيمانهم بموسى عليه السلام فإنهم لم يؤمنوا بما أمرهم من أن يؤمنوا لرسول الله ﷺ حين يبعث للعالمين، فيكون إيمانهم المزعوم إيمانا ناقصا، وهم إن كانوا يزعمون أنهم آمنوا بموسى عليه السلام فهم قد كفروا المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام كما كفروا رسول الله ﷺ، فيكون إيمانهم المزعوم إيمانا ناقصا.

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾

التفســـــير:

جملة الآية معطوفة على ما قبلها في الآية السابقة، فهي في بيان أسباب أخرى للعنه تعالى اليهود، جاء ذكر كفرهم لتعدد مظاهره ومنها كفرهم بعيسى عليه السلام ومحمد ﷺ، وبعدها جاء ذكر افترائهم على مريم وقولهم فيها كذبا يبهت من يوصم به وهو ادعاؤهم عليها أنها أنجبت المسيح عليه السلام من يوسف النجار متهمينه وإياها بالزنا. والآية تبرئهما من قول اليهود فيهما وتثبت عليهم الكذب وتحسبه سببا للعنهم.

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾

التفســـــير:

قوله تعالى - في مبتدأ الآية - «وقولهم إن قتلنا المسيح عيسى ابن مريم» هو ذكر لسبب آخر من أسباب لعنه تعالى اليهود وهو قولهم إنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم، أثبت تعالى

بالنص أنه رسول الله، وقيل ذكر اليهود أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ـ بمعنى أنهم وصفوه بأنه رسول الله ـ من باب التهكم عليه والسخرية به.

ويثبت تعالى كذب زعمهم أنهم قتلوه بقوله تعالى «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم» فقوله قاطع فى أنهم لم يقتلوه عليه السلام ولم يصلبوه وأنه شبه إليهم أنهم فعلوا هذا بقتلهم آخر بالصلب، وهو يهوذا الاسخريوطى الخائن الذى أرشد عنه مقابل المال، ألقى الله شبه المسيح عليه فأخذ وصلب.

وقوله تعالى «وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه» قيل إن معناه أن الناس اختلفوا فى شأن المصلوب حين افتقدوا يهوذا الاسخريوطى لأنهم تبينوا غياب أحد الأثنين «المسيح عليه السلام ويهوذا الاسخريوطى». والذى نراه أن المراد به هو تشكك تلاميذه وأعدائه فى شأن المصلوب، فقد جاء فى إنجيل متى ــ الذى بين أيدينا اليوم ـ أنه «كانت هناك نساء كثيرات ينظرن من بعيد، وبينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب ويوسى وأم ابنى زبدى»، وجاء فى إنجيل مرقس ـ الذى بين أيدينا اليوم ـ «وكانت أيضا نساء ينظرن من بعيد بينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب الصغير ويوسى وسالومة». وجاء فى إنجيل لوقا ـ الذى بين أيدينا اليوم ـ «وكان جميع معارفه ونساء كن قد تبعنه من الجليل واقفين من بعيد ينظرون ذلك»، وجاء فى إنجيل يوحنا ـ الذى بين أيدينا اليوم ـ «وكانت واقفات عند صليب يسوع أمه وأخت أمه مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية».

ومن نصوص هذه الأناجيل يبين أن ثلاثة منها أثبتت أن النساء اللاتى شاهدن الصلب شاهدنه من بعيد مما معناه عدم القدرة على التحقق من شخص المصلوب. وأن الأناجيل الأربعة لم تجمع على أشخاص الشاهدات، فلم يجىء ذكر مريم العذراء وأختها بين الشاهدات إلا فى إنجيل يوحنا فقط، ولم يجىء ذكر سالومة إلا فى إنجيل مرقس، ولم يجىء ذكر أم ابنى زبدى إلا فى إنجيل متى، أما إنجيل لوقا فلم يأت بذكر اسم شاهد أو شاهدة.

والمستفاد من هذا أن الذين اختلفوا في شأن المسيح من أتباعه ومن أعدائه لم يجزموا أن المصلوب هو المسيح عليه السلام ولم يجمعوا كما لم يجمع أفراد إحدى الطائفتين على دليل من الشهادة على أن المصلوب كان هو المسيح عليه السلام؛ ولهذا جاء قوله تعالى «ما لهم به من علم إلا اتباع الظن».

لأن غاية ما يفيده رؤية المصلوب من مسافة بعيدة هو مجرد الظن في شخصيته تأثرا بما قيل عنه، لكنه لا يكون من العلم اليقيني في شيء، ولأن من يقرؤون المستشهد بهم على صلبه عليه السلام في الأناجيل ويرون الاختلاف البين في شأنهم لا يمكن أن تمتلئ قلوبهم بعلم حقيقي بشخص المصلوب، وإن جاز أن يعتريها في ذلك شك.

ثم يأتي قوله تعالى «وما قتلوه يقينا» قاطعا بعدم قتلهم إياه عليه السلام بيقين أو بعدم تيقنهم ذواتهم من أنهم قتلوه.

بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٥٨﴾

التفسـيـر:

قوله تعالى - في الآية - إفادة باليقين، وهو أن الله تعالى رفع المسيح عيسى ابن مريم إليه، فيكون القول نافيا وقوع قتله على الأرض، ومثبتا رفعه إلى السماء. وقد كان ذلك منه تعالى لكونه العزيز الذي لا يغلب على إرادته والفاعل ما يريد، ولكونه الحكيم أحكم تدبيره في شأن المسيح عليه السلام فألقى شبهه على الخائن ورفع المسيح ابن مريم إليه؛ فكان من اليهود والخائن أنهم خادعوه تعالى فخدعهم .

■■■■■■

وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

التفســــــير:

قوله تعالى - فى الآية - يفيد حتمية إيمان من أنكروا المسيح عيسى ابن مريم رسولا نبيا قبل تحقق وفاتهم - فى قول - بمعنى أن اليهود - وهم أهل الكتاب الذين أنكروه - يعلمون عند مفارقة أرواحهم أجسادهم حال انكشاف الحق لهم وانقطاع التكليف عنهم أنه رسول حق من الله فيؤمنون به ولكن لا ينفعهم الإيمان وقتذاك. بيان ذلك أن «إن» فى قوله تعالى «وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته» تفيد النفى، فهى بمعنى «ما»، و «النون» فى «ليؤمنن» للقسم ، فيكون المعنى أنه «ما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح قبل موته.

وقد يكون مفاد النص فى قول آخر - وهو ما نميل إليه - أنه لا يكون من أحد من أهل الكتاب حيا وقت نزول المسيح فى آخر الزمان إلا ويؤمن به قبل موته عليه السلام، ذلك أنه عليه السلام لم يمت بعد، وينزله الله فى آخر الزمان ليصحح العقيدة وليدعو إلى الإسلام، فيؤمن له جميع أهل الكتاب قبل أن تقبض روحه عليه السلام ويتحقق موته شأن كل حى.

وقوله تعالى - فى ختام الآية - «ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا» هو تقرير بما يكون من المسيح عيسى ابن مريم يوم القيامة مع أهل الكتاب جميعهم إذ يشهد عليهم بما كان منهم، فيشهد على اليهود أنهم أنكروه، ويشهد للذين آمنوا له إيمانا صحيحا من تلاميذه ومعاصريه فلم ينحرفوا بالعقيدة بأنهم آمنوا، ويشهد على الذين قالوا بألوهيته أو بربوبيته أو ببنوته لله تعالى بما كان منهم من انحراف عن دعوته وتحريفها .

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ١٦٠﴾

التفســـــير:

الآية الشـريفة فى بيان أسبـاب نوع خاص من العقـاب أنزله تعالـى باليهود وهو تحـريمه تعالى فى شـريعة التوراة أنواعا طيبة من الطعـام كان محللا لهم أكلها من قبل. فقـوله تعالى «فبظلم مـن الذين هادوا» جـاءت فيه «الباء» فى لفـظ «فبظلم» للسببية، والسبب منـه الظلم الذى وقع منهم الذى كان منه عبادتهم العجل، والجـزاء الذى ترتب على ذلك والمذكور فى الآية هو تحـريم بعض الطيبات من المطعومـات عليهم، وذلك بتحريم كـل ذى ظفر عليهم فحرم عليهـم أكل الأرنـب، ومنه صـدهم عـن سبيل الله كثيـرا، إذ كانـوا يصدون النـاس عن الإيمان بالله إيمانا صحيحا.

وقد قيل إنه لمـا كان صد اليهود الناس عن الإيمـان قد استمر إلى ما بعد تحـريم طيبات المطعومات الطيبة عليهم فإن التحريم كجزاء قد روعى فيه ما يكون منهم من الظلم ومن صد الناس عن الإيمان فى المستقبل لكون علمه تعالـى بحتمية وقوعه متحققا من الأزل، فأدخل القائلون بهذا صد اليهود الناس عن الإيمان بالمسيح عليه السلام وبرسول الله ﷺ فى أسباب تحريم طيبات المطعومات عليهم.

والذى نراه ـ والله أعلـم ـ أنه كان جزاءً من الجـزاءات التي أوقعها تعالى بهم علـى ما وقع منهم من ظلـم وصد عن سبيل الله قبل التحريـم، لأنه بهذا يتحقق الردع، فلو لـم يعلم الذى وقع به العقاب سبب إيقاعه به لم يتحقق ردعه.

وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ في الآية ـ في ذكر أسباب أخرى من صور الظلم الذي كان من اليهود فاستحقوا به ما حاق بهم منه تعالى ومنه تحريم بعض طيبات المطعومات عليهم. ذكر تعالى أخذهم الربا وبين أنهم قد نهوا عنه بمعنى أنه كان محرما عليهم،وفي التوراة التي بين أيدينا اليوم دليل ذلك، فقد جاء في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التثنية «لا تقرض أخاك بربا، ربا فضة أو ربا طعام، أو ربا شيء مَّا ممَّا يقرض بربا». وذكر تعالى أكلهم أموال الناس بالباطل، والباطل هو كل سبيل غير مشروع وهو تحريفهم النصوص لتسيغ أكل أموال غير اليهودي .

وبعد ذكره تعالى ما أوقع باليهود من جزاءات على ظلمهم في الحياة الدنيا، ذكر تعالى جزاءهم المعد لهم في الآخرة بقوله تعالى «وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما» ولاشك في أن من قارفوا الظلم داخلون في عموم الكافرين لتقريره تعالى أن الكفر ظلم عظيم، ولا شك في أن من بقوا على ذلك في عهد رسول الله ﷺ داخلون في عموم الكافرين، وأنه يخرج من عدادهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ. ومصير الكافرين هو العذاب الأليم في الآخرة أُعد لهم ليواقعوه .

لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

التفســـــير:

بعد أن ذكر تعالـى جزاء الذين هادوا على ظلمهم فـى الدنيا والآخرة، جاء قولـه تعالى فى الآية مخرجا مـن عدادهم فئة وذلك بالاستدراك فـى «لكن» فى قوله تعالـى «لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنـون»، والراسخون فى العلم هم الثابتون فيـه والناظرون بعقل دون اتباع بجهل، يـدخل فيهـم الذين رسخـوا فى علـوم التوراة ففهموا معنـى البشارة بـرسول الله ﷺ، والذين رسخـوا فى علوم النظر والاعتبـار فنظروا خلق الله وتدبـروا فلما جاءهم رسـول الإسلام آمنوا، وهؤلاء الـراسخون فى العلم هـم أنفسهم المؤمنون، جـاء لفظ «المؤمنون» صفـة ثانية لهم.

وحال هؤلاء أنهم يؤمنون ـ نتيجة رسوخهم فى العلم ـ بما أنزل إلى رسول الله ﷺ وما أنزل من قبله على النبيين من صحف وكتب.

وفى قوله تعالى «والمقيمين الصلاة» قيل إن معناه «وأمدح المقيمين الصلاة» ولذلك جاء لفظ «المقيمين» منصـوبا، وقد يكون الصحيـح ـ والله أعلم ـ أنـه جاء مجرورا لكونـه معطوفا على «ما أنزل إليك» فيكـون المعنى أن هؤلاء الراسخين فى العلم والمؤمنيـن يؤمنون بالقرآن وبالكتب والصحـف المنزلة من قبل وبالأنبيـاء الذين بينوا للناس وجوب الصـلاة وأحكامها فيكون المراد بـ «المقيمين الصلاة» هم الأنبياء.

ومن حال هؤلاء المؤمنيـن من أهل الكتاب أيضا أنهم يؤتون الزكـاة، وقد جاء ذكر الصلاة والزكاة لبيان أنهـم يؤدون جميع العبادات البدنية والمـالية، وهم لتوافر جميع عنـاصر الإيمان فيهم يؤمنون بالله وباليوم الآخر؛ ولذلك يعدون للحساب عدته من عمل الصالحات واجتناب السيئات.

ويذكر تعالـى مصير هؤلاء المؤمنين من أهـل الكتاب بقوله تعالى «أولئـك سنؤتيهم أجرا عظيما» فبين تعـالى أنه يجعل جزاءهـم على غير جزاء بـاقى أهل الكتاب المتوعـدين بسوء

المآل، إذ يجازيهم تعالى بإيمانهم نعيما عظيما فى الآخرة يكون لهم كما يكون الأجر للعامل مستحقا، للتدليل على حتمية حصولهم عليه لكونه وعدا منه تعالى.

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾

أولا : الأســـماء والأعلام :

١ ـ أيـــوب : اسم علم، هو نبى الله أيوب عليه السلام عاش فى أرض عوص، وكان الله قد أنعم عليه بالغنى فكان يغدق مما أفاء الله عليه فقال الشيطان إنه يعمل الصالحات لأن الله أنعم عليه بالصحة والمال، فاختبره تعالى ـ قبل أن يوحى إليه ـ فى ماله فذهب. ثم فى صحته فابتلاه بالأمراض والأوجاع، فأعلن ثقته بالله وبأن حكمه تعالى لا يرد وازداد إيمانا بالله وصبر على ما ابتلى به، فشفاه تعالى ورد إليه ماله بعد أن خزى الشيطان،وأوحى إليه ربه فكان نبيا.

٢ ـ يونس: اسم علم معرب، أصله «يونان»، وهو يونان أو يونس بن امتاى نبى الله، أمره تعالى أن يذهب إلى نينوى يدعو أهلها للإيمان، ركب سفينة من يافا فأرسل الله ريحا شديد فكادت السفينة أن تغرق واعتقد القوم أن فى السفينة من حل به غضب الله فاقترعوا ليعرفوه فوقعت القرعة على يونس فألقوه فى البحر، فأرسل الله حوتا عظيما فابتلع يونس، فدعا يونس ربه من جوف الحوت فأمر الله الحوت فقذف يونس إلى البر وأمره أن يذهب إلى نينوى يدعو أهلها للإيمان فآمنوا بعد أن يئس يونس من إيمانهم وبعد أن توعدهم بعذاب ودعا الله به،

فلما آمنوا غفر الله لهم سابق كفرهم، فحزن لذلك يونس، وكان قد جلس فى ظل يقطينة غظيمة، ثم قضى تعالى فى اليقطينة أن تيبس فحزن لذلك يونس، فقال له تعالى «أنت حزنت على اليقطينة ولم تتعب فيها ولم ترها إلا أمس، أفلا أشفق أنا على نينوي التي خلقتها وأهلها، فعرف يونس خطأه .

٣ـ سليمان: اسم علم ، وهو نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام، أنجبه داود من زوجة. «أوريا الحثى» بعد أن تزوج منها بعد وفاة أوريا. أوصى له داود بالملك من بعده، ومسح ملكا بعد وفاة داود ، وسع الله له فى الملك وأمره أن يبنى بيتا له فبنى المعبد والهيكل، وله فى العهد القديم سفر يسمى «الحكمة».

٤ ـ الزبور : هو كتاب الله الذى أنزله على داود عليه السلام، وله فى كتاب العهد القديم سفر يعرف بالمزامير منسوب إلى داود عليه السلام، يقول اليهود إنه الزبور.

ثانيا : التفســـير:

الخطاب فى الآية موجه إلى رسول الله ﷺ وفيه رد على طلب اليهود منه ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء يخبرهم بنبوته، ذكر تعالى أنه اختاره للرسالة والنبوة فأوحى إليه كما أوحى إلى نوح عليه السلام وإلى النبيين من بعده، وجاء ذكر نوح عليه السلام لأنه جاء بشريعة ـ على ما سبق بيانه ـ تضمنت أوامر ونواه وأحكام ولم تقصر على العقيدة، وجاء ذكر إبراهيم لأنه دعا إلى الحنيفية والإسلام، وذكر إسماعيل لأنه أوحى إليه فبلغ ما أوحى إليه إلى جرهم فى مكة فآمنت له، وذكر إسحاق ويعقوب والأسباط لأن رسالتهم كانت فى بنى إسرائيل، ثم جاء ذكر عيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان لانتظامهم فى سلك النبوة ، وجاء ذكر عيسى عليه السلام سابقا على اسم من تقدموه فى الزمان لأنه الذى أنكره اليهود، ثم جاء ذكر داود عليه السلام مقرونا بالزبور الذى آتاه الله لبيان أن الله يؤتى كتبه من يصطفى لها، إثباتا لأنه تعالى قد اصطفى رسول الله ﷺ وأنزل عليه القرآن .

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾

التفســـــير:

مفاد قولـه تعالى ـ في الآية ـ من بعد ذكر من سبق ذكـرهم من الرسل والأنبياء أنـه تعالى أوحى إلى رسوله ﷺ كما أوحى إلى الرسل، وأنـه تعالى آتاه القرآن العظيم كما آتاهم صحفا وكتبا، وأرسله إلى النـاس كافة كما أرسلوا إلى أقوامهـم، ثم إنه تعالى بيَّن أنـه في شأن هؤلاء الرسل الذيـن سبقوه فإنه تعالى ذكـر له ﷺ قصص البعض منهم، ولم يقصـص عليه قصص آخرين في القرآن، ولا يمنع هذا أن يكون تعالى قد أعلمه ﷺ بهم بالوحي بغير القرآن

وقوله تعالى ـ في ختام الآية ـ «وكلم الله موسى تكليما» يفيد أمرين:

أولهما: أنه لما كان اليهود قد آمنوا بموسى عليـه السلام وقد أنزلت إليه التوراة جملة، فإنه كان عليهم أن يؤمنوا برسول الله ﷺ وقد أنزل إليه القرآن منجما.

وثانيهمـا : هو سماع مـوسى كـلام ربه، إن كان بـواسطة ملك فلقـد سمع ﷺ وحـى ربه بواسطة جبريل عليـه السلام، وإن كان قد سمع كلام ربه، فقد سمع رسول الله ﷺ كلام ربه في المعراج. والقول بهذا يلزم اليهود الحجة بضرورة الإيمان برسول الله ﷺ .

رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾

التفســـــير:

جاء قوله تعالى «رسلا مبشرين ومنذرين» حالا يبين هيئة الرسل المذكورين سابقا، فهم يبلغون رسالات ربهم ويبشرون من يؤمن لهم ويطيع الله بالجنة وينذرون من يكفر بهم ويعصاه تعالى بالنار والعقاب.

وقوله تعالى «لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل» مفاده أنه تعالى بإرساله الرسل إلى الناس يقطع على العصاة سبيل اعتذارهم عند محاسبتهم بأنه لم يرسل إليهم أحد ليهديهم فلم يكن منهم عصيان. فالآية تثبت أن العلم بالشرائع لايتأتى بطريق العقل وحده وإنما لا بد من الإبلاغ به والتفسير وهو ما يكون بواسطة الرسل.

وقوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «وكان الله عزيزا حكيما» مفاده أنه تعالى لايغلب فى أمر أراده، ومن ثم فإنه لن يجد عاص حجة يعتذر بها فيدرأ عن نفسه العذاب وأنه بحكمته أرسل الرسل منذرين قبل أن يكون منه العذاب .

لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾

التفســـــير:

جاء قوله تعالى «لكن الله يشهد بما أنزل إليك» استدراك لما سبق بيانه تعالى من أنه أوحى إليه كما أوحى إلى النبيين من قبله، وذلك إشارة إلى اختصاصه ﷺ بشهادة الله تعالى له، فهو تعالى ـ على ما يبين من الآية ـ يشهد بصحة القرآن الذى أنزل على رسوله ﷺ ـ المخاطب بالقول ـ وبحقيته، ويثبت تعالى أنه نزل بقوله من علمه تعالى، على نبى اصطفاه بعلمه أهل لأن ينزل عليه، بما علم تعالى أنه يحقق مصالح العباد.

ثم أثبت تعالى أن الملائكة يشهدون بما شهد به تعالى «والملائكة يشهدون»، يشهدون بصدق القرآن كتابا منزلا منه تعالى وبنبوة رسول الله ﷺ الذى أنزل إليه.

وتختتم الآية بقوله تعالى «وكفى بالله شهيدا» فاصلاً فى أمر حقية القرآن ونبوة رسوله ﷺ، لأنه بعد شهادته تعالى لا يكون ثمة مجال لإنكار ما شهد به. فالقول ـ بهذا المعنى ـ يقيم الحجة على الذين طلبوا كتابا منه تعالى يثبت نبوة رسول الله ﷺ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ إخبار عن حال اليهود كفروا برسول الله ﷺ، وكفروا ما جاء فى التوراة من تبشير به ﷺ فظلموا بذلك أنفسهم بإيرادها النار، وصدوا من أراد أن يؤمن لرسول الله ﷺ ويؤمن بأن زعموا له أنهم لا يجدون فى كتبهم ما ينبىء عنه أو لا يجدون فيها أوصافه، ويقولون إنه ليس من شريعة تنسخ شريعة موسى .

أثبت تعالى ـ فى شأن هؤلاء ـ أنهم فى ضلال وأنهم بلغوا فيه غاية مراتبه لجمعهم بين الضلال والإضلال وذلك على ما جاء بقوله تعالى «قد ضلوا ضلالا بعيدا» جاء خبرا مخبرا عن الذين كفروا وصدوا الذين ورد بشأنهم نص الآية .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾

التفســـــير:

الحديث - في الآية - استئناف للحديث في شأن اليهود و إخبار عن أحوالهم فهم كفروا نبوته ﷺ ولم يؤمنوا، وصدوا الناس عن الإيمان به ﷺ فظلموا الناس الذين صدوهم كما ظلموا أنفسهم فجمعوا بين الكفر والظلم. أثبت تعالى أنهم اختاروا الكفر على الإيمان ولم يتوافر لديهم الاستعداد للإيمان ولذلك فإنه تعالى قدر ألا يكون لهم من طريق إلا طريق جهنم - على ما تثبته الآية التالية - وقضى ألا يكون منه تعالي غفران ذنبهم لأنهم لا يتوبون. والقول بهذا المعنى يفيد عدم مغفرة ذنب الكافر.

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

التفســـــير:

تذكر الآية الطريق الوحيد الذى قدر تعالى للكافرين المذكورين وهم اليهود الذين كفروا وصدوا الناس عن الإيمان، وهذا الطريق هو طريق جهنم، وهو الكفر الذى اختاروه فقدره تعالى عليهم وهو طريق لا يوصل إلا إلى جهنم، يدخلونها ويمكثون فيها للأبد.

وقوله تعالى - في ختام الآية - «وكان ذلك على الله يسيرا» يفيد لزوم دخول هؤلاء المتوعدين جهنم والخلود فيها للأبد، بإظهار أن ما توعدهم به من عدم مغفرة ذنوبهم ومن إلقائهم فى نار جهنم والإبقاء عليهم فيها للأبد هو أمر يسير عليه. والقول بهذا المعنى يفيد حقارة أمرهم ببيان سهولة تعذيبهم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

التفســـــير:

الخطاب فى الآية موجه إلى جميع الناس المكلفين، بعد أن أظهر تعالى باطل طلب اليهود أن ينزل تعالى كتابا جملة واحدة يثبت نبوة محمد ﷺ، وبعد أن أظهر كفرهم وظلمهم أنفسهم وظلمهم الناس بصدهم عن الإيمان برسول الله ﷺ، وأثبت تعذيبهم بالنار وخلودهم فيها.

جاء قوله تعالى آمرا الناس جميعا برسول الله ﷺ وبالإسلام دينا، فبين لهم فى مقام أول أنه ﷺ رسول منه تعالى، وأنه جاء بدين الحق وبالكتاب الحق من رب الناس جميعا فهو رب اليهود الذين يزعمون أنهم يؤمنون به كما هو رب جميع الخلائق.

ثم أتبع ذلك تعالى بأمره المكلفين من الناس جميعا بالإيمان لرسول الله ﷺ وبالإسلام وأمرهم أن يأتوا بهذا خيرا لأنفسهم «فآمنوا خيرا لكم» .

وبعد ذلك أثبت تعالى قدرته عليهم وعدم حاجته إلى إيمانهم بقوله تعالى «وإن تكفروا فإن لله ما فى السماوات والأرض» فجميع من فى السماوات والأرض ممن يعقل وما فيهما مما لا يعقل ملكه تعالى وتحت سيطرته بمن فى ذلك من كفروه تعالى وكفروا رسوله ﷺ. فالقول بهذا يشير إلى قدرته تعالى على تعذيب الكافرين بكفرهم فيكون متضمنا معنى الوعيد.

وقوله تعالى - فى ختام الآية - «وكان الله عليما حكيما» هو للترهيب لبيانه تعالى علمه بكل ما يصدر من العباد وما يكونون فيه من حال، وأنه يجازى بما يكون من العباد بما اقتضته حكمته من إثابة المؤمنين وتعذيب الكافرين .

■■■■■

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾

التفســــير:

الخطاب فى الآية موجه إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى وإن اختص النصارى بغالب ما تضمنه من أوامر ونواهٍ .

فقوله تعالى «يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم» موجه إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى ينهاهم تعالى عن الغلو فى دينهم بقول الباطل ظنا منهم أنهم بذلك يخلصون لدينهم ويدافعون عنه، وهو ـ بالنسبة لليهود ـ زعمهم أن المسيح عيسى ابن مريم ولد من الزنا من يوسف النجار، وهو ـ بالنسبة للنصارى ـ زعمهم أن المسيح عيسى ابن مريم هو الله تجسد فى صورة بشر، أو أنه ابن الله على الحقيقة .

وقوله تعالى «ولاتقولوا على الله إلا الحق» موجه إلى النصارى الذين قال بعضهم فى شأنه تعالى أنه اتخذ من مريم صاحبة كان له منها الولد، وقال آخرون إنه تعالى حل فى المسيح عليه السلام فكان فيه لاهوت وناسوت، أو أن جزءا منه تعالى حل فى المسيح، فجاء قوله تعالى ناهيا إياهم عن مثل هذه الأقوال.

وبعد ذلك يبين تعالى ماهية المسيح عيسى ابن مريم ليعلمها أهل الكتاب جميعهم من يهود ونصارى وذلك بقوله تعالى «إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه» نسب تعالى المسيح عليه السلام إلى أمه مريم العذراء لبيان أنه عليه السلام ولد من غير أب ، فقطع على اليهود قولهم إنه ابن يوسف النجار وعلى القائلين من النصارى إنه ابن الله قولهم، ثم ذكر تعالى أنه كلمة الله ألقاها إلى مريم، فهو عليه السلام خلق بكلمة «كن» فكان، أوصل الكلمة مريم فحبلت به ثم ولدته، وذكر تعالى أنه عليه السلام روح منه فهو سر من أسراره تعالى فى الخلق بدون أب، وهو مثل الروح به تحيا النفوس لأنه دعى إلى تصحيح العقيدة، وهو من نفخة جبريل فتم بالنفخة الحمل بأمره تعالى .

وبعد ذلك جاء أمره تعالى فآمنوا بالله ورسله، أمرا بالإيمان بالله وبالرسل جميعا ويدخل فيهم المسيح عيسى ابن مريم، فالقول يلزم اليهود الإيمان به ويلزمهم والنصارى أن يؤمنوا بصفته وهى أنه رسول منه تعالى، ثم يتبع ذلك تعالى بنهى القائلين بأن الآلهة ثلاثة هم الله، والمسيح، ومريم، أو أنهم الله، والمسيح، والروح القدس عن قولهم هذا بقوله تعالى «انتهوا خيرلكم» بمعنى انتهوا انتهاءً يكون خيرا لكم من قولكم هذا.

وبعد نهيه تعالى عن القول بالتثليث فإنه تعالى أثبت وحدانيته ونزه ذاته العليا عن اتخاذ الولد بقوله تعالى «إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد».

وجاء قوله تعالى - فى ختام الآية - «له ما فى السموات وما فى الأرض، وكفى بالله وكيلا» تعليلا لتنزيهه تعالى نفسه عن اتخاذ الولد، لأن من يملك جميع الموجودات لا يكون فى حاجة إلى اتخاذ الولد، ولأن الوحدانية لاتسيغ اتخاذ الولد لأنه يشارك الوالد ملكه، ثم إنه تعالى لما كان هو الوكيل الحافظ جميع خلقه، فإنه لاتكون به حاجة إلى اتخاذ شريك يعين ولاولد يساعد. فيكون مفاد القول بيان حماقة من يزعم أن الآلهة ثلاثة ومن يزعم أن له تعالى ابنا .

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾

التفســـــير:

بعد أن نزه تعالى نفسه عن أن يكون لـه ولد، وبعد نفيه أن يكون المسيـح إلها أو أن يكون هناك آلهة إلاه وإثباته أنـه تعالى مالك جميع من فى السمـاوات والأرض وما فيهن مما مفاده أن يكون جميع من فيهما عبيدا له خاضعين لأحكامه فيهم، وكان زعم بعض النصارى ألوهية المسيح عليه السلام أو نبوته لله تعـالى هو من قبيل الغلو فى الدين فإنـه تعالى أثبت فى الآية أن المسيح عليـه السلام ذاتـه لا يأنف أن يـدعى عبـدا لله ولا يمسح عن نفسـه أو يزيـل هذه الصفة «لـن يستنكف المسيح أن يكـون عبدا لله»، وذلك لأن العبوديـة لله هى أقصى مـراتب الشرف، فهى مدعـاة للتباهى. وفى إنجيل يوحنـا الذى بين أيدينا اليوم مـا يفيد إقرار المسيح بعبوديته لله تعالـى وبقيامه بما كلف به كرسـول وكعبد صالح، فقد ورد فيه قـوله عليه السلام «وهـذه هى الحيـاة الأبديـة أن يعرفـوك أنـت الإله الحقيقـى وحدك ويسـوع المسيح الـذى أرسلته»، وجاء فيه «أنا مجدتك على الأرض، العمل الذى أعطيتنى لأعمل قد أكملته» .

ثم ذكر تعالى أن الملائكة المقربين أيضا ـ وهم الملائكة الكروبيون الذين حول العرش ـ لا يستنكفون أيضا عن عبـادته تعالى، وفى قوله تعـالى هذا إثبات لبطلان عقيدة الـذين كانوا يعبدون المـلائكة المقربين، فـأثبت تعالى أنهـم من عبيده وعبـاده لا يأنفون من عبـادته ولا يزيلون عن أنفسهم هذه الصفة التى هى تشريف لهم وتكريما .

وتختتم الآية بقـوله تعالى «ومن يستنكف عـن عبادته ويستكبر فسيحشرهـم إليه جميعا»

والقول توعد للكافرين الذين يؤلهون خلقا من خلقه تعالى بأنهم بعبادتهم غيره تعالى مجموعون إليه محشورون يحاسبهم على شركهم يوم يتبرأ معبودوهم منهم بإقرارهم أنهم عبيد لله شاهدين عليهم بالكفر.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾

التفســـــير:

بعد ذكره تعالى أنه يحشر المستنكفين عن عبادته يوم القيامة تدليلا على محاسبتهم على استنكافهم وتعذيبهم به؛ فإنه تعالى ذكر حال المؤمنين وحال المستنكفين عن عبادته على المستفاد من دخول «أما» في الجملة. فأثبت تعالى أن الذين أقروا بعبوديتهم له تعالى فآمنوا به ووحدوه وعملوا الصالحات قارنين الإيمان بالعمل يلقون منه جزاء إيمانهم وعملهم الصالحات لا ينقص منه شيئا على ما يبين من تشبيهه بالأجر، ثم إنه تعالى يزيد لهم فيه أو عليه مما يتفضل به عليهم بمضاعفة حسناتهم فيكون لهم نعيم لا تحيط به الأبصار ولا الأفهام.

ثم أثبت تعالى أنه يكون منه تعالى مع الذين استنكفوا عن عبادته تعالى وتعالوا على ذلك واستكبروا أنه يعذبهم بما كان منهم وبسببه عذابا أليما جاء تنكيره مع وصفه بأنه أليم لإفادة عدم الإحاطة بشدته، وبين أنه لا يكون لهم من هذا العذاب خلاص أو تخفيف لأنهم يعدمون الولي الذي يدفع عنهم العذاب والنصير الذي يشفع فيهم فيخفف عنهم منه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾

التفســـــير:

قوله تعالى فى الآية خطاب إلى جميع المكلفين من الناس، يتضمن دعوتهم إلى الإيمان برسول الله ﷺ والكتاب الذى أنزل إليه بطريق الإشارة.

فقوله تعالى «يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم» هو تنبيه للمخاطبين بأنه تعالى قد أقام عليهم الحجة التى لايكون لهم معها سبيل للاعتذار عن عدم الإيمان، والحجة أو البرهان هى دعوته ﷺ إياهم للإيمان، والآيات التى جاءت بها الكتب السماوية فى التبشير به عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالى «وأنزلنا إليكم نورا مبينا» هو ذكر لإنزاله تعالى القرآن العظيم، ذكر تعالى أنه أنزل إليهم مع أنه أنزل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وهو الذى أبلغهم به لبيان أنه بإيصاله ﷺ القرآن إليهم و إعلامهم بما به بتفصيله ما أجمل منه وتفسيره أحكامه بسنته الفعلية والقولية أصبحوا فى حكم المنزل إليهم مطالبين بما فيه، ووصفه تعالى بالنور المبين لأنه يكون به وحده الهدى دونما حاجة إلى وسيط وذلك لظهور حقيته وأنه من الله تعالى ولكونه بذاته كفيلا أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وعلى ما سبق القول فإن المستفاد من الآية هو أمر الناس بالإيمان بالإسلام دينا وبالقرآن كتابا منزلا من الله وبرسول الله ﷺ رسولا نبيا .

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

التفســــــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ مرتبط بدعوته المكلفين من الناس إلى الإيمان فى الآية السابقة، إذ تضمن حثا للمخاطبين على إجابة دعوته تعالى أو أمره ببيان مصير من سمع فأطاع .

فالذين آمنوا ـ فى قوله تعالى ـ «فأما الـذين آمنوا» هم الذين اهتدوا بالبرهان الذى جاءهم وهو رسول الله ﷺ، وبالنور الذى أنزل إليهم وهو القرآن العظيم، ومن صفاتهم أنهم يعتصمون بالله فيعصمهم من أنفسهم ومن الشيطان يراودهم لشدة إيمانهم ولعملهم الصالحات. ومصير هؤلاء هو ما جاء بقوله تعالى «فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما».

والمعنى أنه تعالى يدخلهم فى باب من أبواب رحمته فيكون لهم النعيم، ويكون برحمته تعالى وليس استقضاء لحق، لأن أحدا لا يجازى بفعل ما فعل من الصالحات مع الإيمان عدل نعمة من نعم الله تعالى، وأنه تعالى يحسن إليهم تفضلا منه عليهم كما شاء وبما شاء من النعم.

كما يكون منه تعالى أن يهديهم إلى ما يوصل إليه لاجتناء رضائه فييسر لهم عبادته وطاعته ويقوى إيمانهم فلا يغلبهم كيد الشيطان لهم، فيكون الإسلام مع الطاعة هو الطريق الذى يوصلهم إلى الجنة، وصف بأنه مستقيم لأنه يوصل إلى المبتغى وهو الجنة .

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

التفســـير:

الآية هى آخر ما نزل من آيات الأحكام، الخطاب فيها إلى رسول الله ﷺ يتضمن حكما أمر رسول الله أن يقوله لمن استفتوه فى شأن الكلالة ـ وقد سبق بيان معناها ـ وقوله تعالى «قل الله يفتيكم فى الكلالة» هو بيان لأن الحكم يتعلق بالكلالة، وأنه حكمه تعالى. وبيان الحكم أنه إذا مات المرء كلالة ـ وجاء قوله تعالى «ليس له ولد» ـ تفسيرا لمعنى الكلالة أو لجزء من المعنى لأن مفاده عدم وجود وارث من أب، أو ابن وبيان الغرض المذكور بالنص أنه إذا كان لمن مات كلالة على هذا النحو له أخت من الأبوين أو من الأب ـ فلا يكون من الفرض المضروب حالة من تكون له أخت من الأم لأن فرضها السدس ـ فإنه يكون للأخت الشقيقة أو من الأب نصف التركة بطريق الفرض، ويكون الباقى للعصبة أو يكون لها بالرد عند عدم وجود وارث مستحق إرثا، بمعنى إن لم يكن له عصبة.

والفرض الثانى يتعلق بكون المتوفى كلالة وكون الموجود أخاها، فيكون الأمر أنه ـ لعدم وجود ابن أو ابنة لها ـ يرثها بمعنى أنه يرث جميع تركتها .

وبعد ذلك يجىء ذكر فرض آخر لمن يموت كلالة، وهو المتعلق بالحالة التى يترك فيها المتوفى أختين أو أكثر فإنه يكون لهما الثلثان فرضا، ويكون الثلث الباقى للعصبة، أو لهما بالرد إن لم يكن للمتوفى عصبة.

ثم يذكر تعالى فرضا آخر هو المتعلق بوجود إخوة للمتوفى من الرجال والنساء، والحكم فيه أن تقسم التركة بينهم فيكون للذكر مثل حظ الأنثيين .

وتختتم الآية ــ من بعد بيان أحكام الكلالة ـ بقوله تعالى «يبين الله لكم أن تضلوا، والله بكل شىء عليم» بمعنى أنه تعالى قد بين حكم الكلالة حتى لا تضلوا طريق الحق الذى شرعه تعالى فى شئون الميراث والتوريث، ولكونه تعالى يكره لكم الضلال.

وأنه تعالى قد شرع ما شرع وهو العليم بما تكون عليه مصلحة عباده وما يوافقها من الشرع فأحكم بحكمته فى ذلك حكمه .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المائـــــدة

تقديم : فى بيان العلاقة بين السورة وبين سورة النساء :

السورة مدنيـة إلا قوله تعالى «اليوم أكملـت لكم دينكم» فقد أنزل بمكة، وهـى آخر سورة نزلت من القـرآن، واستدل البعض بهذا على أنه لـم يقع فى آياتها نسخ، وقيـل إنه نسخ منها قولـه تعالى «يا أيهـا الذين آمنوا لا تحلـوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهـدى ولا القلائد»، وقيل إنه نسخ معها قوله تعالى «فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم» .

وفى علاقتها بسورة النساء نذكر ما يأتى :

١ ـ اشتملـت سورة النساء علـى ذكر بعض القيـود تصريحـا، وأشارت إلى بعـض العقود ضمنا، فذكـرت صراحة عقود: النكـاح، والصداق، والحلف، والمعاهـدة، والأمان. وأشارت ضمنا إلى عقود: الوصية، والوديعة. والوكالة، والعـارية، والإجارة على ما يشير إليه قوله تعالى «إن الله يأمـركم أن تؤدوا الأمانـات إلى أهلها». وذلك لأن جميـع هذه العقود تعتبر مـن عقود الأمانة .

وافتتحت السـورة بقوله تعالـى «يا أيها الـذين آمنوا أوفـوا بالعقود» أى أنها تضمنـت أمرا مضمونه الإلزام بالوفاء بالعقود .

٢ ـ إن أول آية فى سورة النساء خوطب بها النـاس «يا أيها الناس اتقوا ربكم» فشابه ذلك الخطاب فى الآيـات المكية. وأول آية فى هـذه السورة خوطب بهـا المؤمنون «يا أيهـا الذين آمنـوا» على نحـو الخطاب فـى الآيات المـدنية. فنـاسب ذلـك ورود السورة مـن بعد سـورة النســاء.

٣ ـ تماثل السورة سورة النساء فى اشتمال كل منهما على الأحكام فى الفروع .

٤ ـ افتتحـت سورة النساء ببيـان قدرته تعـالى فى الخلـق والرقابـة، والأمر بتقواه تعـالى.

واختتمت السورة ببيان صفة قدرته تعالى.

٥ ـ افتتحت سورة النساء بذكر بدء الخلق، وانتهت السورة فى آياتها الأخيرة بما يكون من البعث والحساب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾

أولا : الأســـــماء

١ـ **العقود** : جمع ، مفرده العقد، أصله من «العقد» بمعنى الربط المحكم، والمراد به الاتفاق الذى يتم بين طرفين فيلتزم كل منهما بمقتضاه أن يوفى الآخر ما التزم أن يوفيه.

٢ ـ **البهيمة** : فى قوله تعالى «بهيمة الأنعام» هى كل ذى روح مما لا عقل له، وقيل هى كل ذى أربع من دواب البر والبحر.

٣ ـ **الأنعــام**: هى الإبل ــ فى الأصل ـ وألحق بها ما يشابهها من الظباء وبقر الوحش، والمراد بها ـ فى معنى الآية ـ ما يماثلها مما يجتر وليس له أنياب .

ثانيا التفســـــير:

الخطاب فى الآيـة موجه إلى المؤمنيـن، يأمرهم تعالـى فى مبتدأ الآية بالالتـزام بواجب الوفاء بالعقود، فيدخل فى معنى العقود ما أخذ الله على المؤمنين من عهود ـ تمت باختيارهم الإيمان وقبولهـم الدين ـ بـأن يعبدوه ويطيعوه، ويدخل فيهـا العقود التى يبرمهـا الناس فيما بينهم من زواج وبيـع وإجارة وغيرها، وعقود التحالـف، والعهود التى أخذها الله تعـالى على أهل الكتاب أن يبينوا صفته ﷺ فى كتبهم للناس ولا يخفونها.

وبعد ذلـك جاء قـوله تعـالى بحكم مفـاده حلُّ أكـل بهائم الأنعـام «أحلت لكـم بهيمة الأنعام» جـاء النص أولا بحكم عـام مفاده حل أكل مـا شابه الإبـل فى الاجترار وعـدم وجود

أنياب تمزق اللبجم لهـا، ويدخل فى حدود ما أحـل أكله ما يكون فى بطونهـا من الأجنة بعد ذكاتهـا، ثم إنـه تعالى أوضـح أنه سينزل مـن الأحكام مـا يخرج به بعـض بهيمة الأنعـام من القاعدة العامة التـى تقرر حل أكلها، والنص يفيد أن القاعدة هـى الحل وأن الاستثناء لا يكون إلا بنص .

ثم ذكر تعالى تحريم الصيد وأكل ما يصطاد فى الإحرام، وذلك لعدم انتهاك حرمة الحرم، مع ملاحظة أن تحريم الصيد فى الحرم يعـم المحرم وغير المحرم، و إنما ورد النص فى شأن ما يحرم على المحرم .

واختتمت الآية بقوله تعالى «إن الله يحكم ما يـريد» لبيان وجوب الانتهاء عن البحث عن علة حكمه تعالـى عند الالتزام بالطاعة، فمـا دام تعالى قد أمر بشىء أو أحـل شيئا وحرم آخر كان الالتزام بما أمر وحكم لأنـه تعالى يشرّع ما يريد، وعلى المؤمنين الطـاعة، فكما يقال فى شأن الأحكام «لا اجتهاد مع النص» .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

أولا : الأســـــماء :

١ ـ الشعائر : فى قـوله تعالـى «لا تحلوا شعائر الله» جمع، مفـرده «شعيرة» ، وهى البـدنة (الناقة المسمنـة) لتهدى للكعبة، كان علامة إشعـارها حز سنمها ليعلم أنهـا هدى، وقيل إن المراد بالشعائر ـ فى معنى الآية جميع مناسك الحج .

٢ ـ **الشهر الحرام** : اسم جنس مفرد يدل على الأشـــهر الحرم الأربعة، وقيل إن المـــراد به ـ فى معنى الآية ـ شهر ذى القعدة.

٣ ـ **القلائد** : جمع، مفرده، قلادة وهـى ما يتقلده الناس، وما كان يعلقـه أصحاب الهدى فى أعناق النعم مـن لحاء الشجر أو الصوف أو الشعر، أو النعال أو غيره والمراد بـالقلائد ـ فى معنى الآية ـ ما تقلد القلائد من الهدى.

٤ ـ **الآمون البيـت الحرام**: فى قـوله تعالـى «ولا آمين البيت الحـرام» هـم قاصـدوا البيت الحرام فى حج أو عمرة أو زيارة.

٥ ـ **الشنآن**: فى قوله تعالى «ولا يجرمنكم شنآن قوم» هو البغض والكراهة .

ثانيا : التفســـير:

الخطاب فى الآية إلى المؤمنين، جاء من بعد بيـانه تعالى تحريم الصيد حال الإحرام بما تضمن من بيان حرمة الإحرام ، فجاء قوله تعالى ـ فى الآية ـ متعلقا بباقى الشعائر المنهى عن إحلال حرمتها.

فقوله تعالى «يا أيها الذيـن آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحـرام يبتغون فضلا من ربهـم ورضوانا» هو نهـى صريح عن إحـلال شعائر الحج عامة، بمعنى أنـه نهى عن التهاون فى حرمتها بفعل من الأفعـال، ويدخل فى الشعائر الإحرام، والطـواف، والسعى، والحلق، والنحـر، ويدخل فى الأفعـال المنهى عنها الحيلـولة بينها وبين القائمين بها..وقد نسبها الله إليه تعالى لبيان شرفها و إظهار جسامة إحلالها .

وبعد ذلك جاء نهيه تعالى ـ بطريق العطف ـ عن إحلال الشهر الحرام بالقتال فيه ولو كان قتال المشركين، وقد اختلف فى الشهر الحرام المقصود بالنص، فقيل إنه رجب، وقيل إنه ذو القعدة، وقيـل الأشهر الحرم الأربعـة جميعها. وجاء نهيه تعـالى عن إحـلال الهدى ـ وهـو ما يهدى للكعبة من الإبل أو البقـر أو الشاة، ثم خص تعالى ـ من الهـدى ـ القلائد وهى الأنعام المهداة إلـى الكعبة التى علـق بها قلائد تـدليلا على كـونها هديـا، جاء تخصيصها بـالنص تأكيدا منه تعالى ومبالغة فى التنبيه على حـرمتها، والمنهى عنه فى شأن الهدى عامة والقلائد

على وجـه خاص هو التعـرض لها بوجه مـن الأوجه، أو التعرض لهـا أو لأصحابها. كمـا نهى تعالـى عن التعرض لقاصـدى البيت الحرام بصدهـم عنه، ذكر تعالـى حالهم بأنهـم يبتغون فضلا من ربهـم ورضوانا لبيان علـة عدم إحلالهم أو علة النهـى عن إحلالهم بـالتعرض لهم ومنعهم عن البيت وجاء تنكير «فضلا ورضوانا» للتفخيـم، و إثبات أنه منه تعالى «من ربكم» لتشريف الآمين البيت أو لتشريف عملهم.

وجاء قـوله تعالـى «و إذا حللتم فـاصطادوا» مفيدا انتهـاء المنع من الصيـد بالتحلـل من الإحرام: على ما يستفاد من نفي الإثم أو الخطأ عن فعل الصيد من بعد التحلّل من الإحرام.

و بعد ذلك جاء تأكيده تعالى النهى عن الاعتداء على قاصدى البيت الحرام يبتغون فضلا من الله ورضوانا ببيان أنه ليس ثمة سبب يسيغ ذلـك ولو كان بغض القاصدين المؤمنين الذى دفعهم مـن قبل إلـى صدهـم عن المسجـد الحرام، أو كـان هو بغـض المؤمنيـن وكراهتهـم القاصدين المسجد الحرام لسبق صدهم إياهـم عنه، وذلك بقوله تعالى «ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صـدوكم عـن المسجد الحرام أن تعتـدوا» بمعنى أنه يجـب ألا يدفعكـم أو يحملكم بغض منكم قوما لسبـق صدهم إياكم عن المسجد الحرام أو بغضهم إيـاكم مما دفعهم إلى صدكـم عن المسجـد الحرام على الاعتـداء عليهم لـلانتقام منهم والتشفـى. والواضـح من النص ـ مقـروءا مع إحلال الصيد بعد الإحـرام ـ أن النهى عن الاعتداء علـى الآمين المسجد الحرام لا ينتهى بتحلل المؤمنين من الإحرام. فتظل حرمة الاعتداء باقية مادام الآمون المسجد الحرام قائمين بالشعائر.

ثم جاء قـوله تعالى «وتعـاونوا على البر والتقوى ولا تعـاونوا على الإثم والعـدوان» معطوفا على قوله تعالى «ولا يجرمنكم» لبيان وجـوب أن يكون التعاون بين المؤمنين على العفو عمن أساء إليهم مـع التعاون فى جميع صور وأشكـال البر والتقوى. وذلك مع النهـى عن أن يكون التعاون فى معصية أو إثم .

وتختتم الآيـة بقوله تعـالى «واتقوا الله إن الله شديـد العقاب» جاء تـذييلا بعد مـا ورد من أوامر ونواهٍ حثا على التزام أحكامه تعالى فيها وفى غيرها، وذلك بإظهار أنه تعالى يعاقب على

الاجتراء على ما شرع من أحكام بشديد العقاب، وهو ما يجب أن يتقيه المؤمنون.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

أولا : الأســـــماء :

١ ـ **الميتة** : هى كل ما فارقته الروح بغير سبب خارجى ملموس من ضرب أو جرح أو سقوط أو ما ماثل ذلك.

٢ ـ **الدم** : المراد به الدم المسفوح، الذى يطهى ويؤكل، أو يشرب بعد استنزافه من البهيمة، فيخرج عن معناه الدم الموجود فى عروق اللحم، ويخرج عنه الكبد والطحال بالحديث النبوى. ولأنه ليس دما مسفوحا.

٣ ـ **لحم الخنزير**: الخنزير هو الحيوان المعروف، وظاهر النص يعلق بلحمه فقط.

٤ ـ **ما أهل لغير الله به**: هو ما ذكر عليه عند ذبحه اسم غير اسم الله، والمراد بالإهلال رفع الصوت، أخذا بما كان يحدث عند ظهور الهلال.

٥ ـ **المنخنقة**: هى البهيمة التى تموت بالاختناق بحبل، أو بوضع رقبتها بين شيئين أو بالضغط على رقبتها فتموت خنقا.

٦ ـ **الموقوذة** : هى البهيمة التى تضرب إلى أن تموت، اسم مفعول من «وقذ» بمعنى ضرب.

٧ـ المتردية : هى البهيمة التى تموت نتيجة ترديها ـ بمعنى سقوطها ـ من مكان عال فتموت بسبب ذلك .

٨ ـ النطيحة : هى البهيمة التى تنطحها أخرى فتموت من أثر ذلك .

٩ ـ ما أكل السبع: المراد به ما بقى من لحم البهيمة التى ماتت بسبب أكل أحد سباع الحيوان منها.

١٠ ـ النصب : هو حجر كان ينصب فيعبد وتصب عليه دماء الذبائح المذبوحة تعظيما له.

١١ ـ الأزلام: جمع، مفرده «زلم» ، وهى قداح الميسر .

١٢ ـ المخمصة : فى قوله تعالى «فمن اضطر فى مخمصة» ، هى المجاعة، لأنه فيها تضمر البطون أو تخمص من عدم دخول الطعام فيها .

١٣ ـ المتجانف : هو المائل من «جنف» بمعنى مال. والمتجانف لإثم هو المائل إليه .

ثانيا : التفســـير:

الآية من آيات الأحكام جاءت ببيان بعض المحرمات، أغلبها من المطعومات، وبعضها من الفعال. وتضمنت إعلاما بما وجب العلم به وأمرا تعلق به، كما تضمنت بيان العذر الذى يعفى من العقاب على إثم مخالفة الحكم الذى جاء به النص .

بدأت الآية الشريفة ببيان المطعومات المحرمة بنص الآية بقوله تعالى «حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم». وقد تعلق ذكر هذه المطعومات المحرم أكلها مرتبطا بقوله تعالى «أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم» . فيكون النص هو المتضمن تلاوة المطعومات المحرمة المشار إلى أنها تتلى على المؤمنين.

والمطعومات المحرم أكلها ـ بالنص ـ هى الميتة وهى كل ما مات حتف نفسه من غير سبب خارجى، «والدم» المسفوح»، فلا يتناول بهيئته كما هو ولا مطبوخا، ولحم الخنزير، والمراد بلحمه جميع أنسجته وشحمه وعظامه وكافة ما يؤكل منه، وقد أخذ الظاهرية بظاهر النص وقالوا إنه لم يحرم منه إلا ما يؤكل وأجازوا الانتفاع بغير ذلك منه، والجمهور على

نجاسته كله وعدم إجـازة الانتفاع بأى شىء منه، «وما أهل لغير الله به» وهـو ما ذكر عند ذبحه اسم معبود غيره تعالى، «والمنخنقة» وهى ما مات بالاختناق سواء أكان سبب الموت هو عدم وصول الهواء إليها لتتنفس أم كان كسر فقرة مـن الفقرات أو ما يطلق عليه «العظم اللامى»، و «والموقـوذة» التى ضـربت إلى أن مـاتت، «والمتـردية» التـى سقطت من جـالق فمـاتت، و «والنطيحة» التى نطحتهـا بهيمة أخرى فماتـت من أثر ذلك، «ومـا أكل السبع».والمراد بـه ما بقى من لحم البهيمة التى افترسها أحد الوحوش فماتت وأكل منها.

وقد استثنى تعالى مـن المطعومات غير المحرمة لذاتها ـ أى فيمـا خلا الميتة والدم ولحم الخنزير ما يتم تذكيته بالذبح إذا ماكـانت فيه حياة. وفيها قيل إنها الحياة المستقرة، وقيل إنها تحريك أحد أعضـاء الجسد ولو كان أذنا أو ذنبا أو جفنـا، استثناها تعالى من التحـريم فأحل أكلهـا، بمعنى أنـه إذا لم تكـن الروح قـد فارقـت ما أهـل لغير الله، والمنخنقـة، والموقـوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل منها السبع، وتم تذكيتها فإنها تكون حلالا أكلها، ثم أتبع ذلك سبحانه وتعـالى بذكر شىء آخـر محرم أكله، وهو مـا ذبح للأصنام «وما ذبـح على النصب»، وقيل إن ما ذبح على النصب أو للنصب داخل فى معنى ما أهل لغير الله به، وقد لا يكون ذلك صحيحا لأنه لما كان من العـرب فى الجاهلية من يؤمن بالله تعالى، ويـؤمن بالأصنام واسطة تقرب إليه تعالى، فإنه إذا ذكر اسم الله على الذبيحـة وقصد تقديمها قربانا للصنم فإنها تكون مما ذبح على النصب فتكون محرمة لهذا وحده.

وبعد ذلك ذكر تعالـى فعلا آخر نهى عنه، وأوضح حكم جميع ما نهى عنـه بتقرير تحريمه من المطعومـات ومن الفعل وذلك بقوله تعـالى «وأن تستقسموا بالأزلام، ذلكم فسـق» فذكر تحريمه تعالى «الاستقسام بالأزلام» وهو استعمال الأقداح لاستشارة الأصنام ومعرفة رأيهم أو حكمهم فى أمـر ما، لأن المحرم هو الاستعـلام عن الغيب من غيـره تعالى أما الاستعـلام منه تعالى فغير محرم؛ ولذلك حرم الاستعانة بالمنجمين والعرافين، وأجيز الاستخارة بالقرآن، وإن كان لـم ينقل بدليل مـؤكد أن أحدا من السلـف الصالح فعلهـا، وأوضح تعالى أن فـى عدم تحريم مـا حرم تعالى ممـا ذكره فى نص الآية، أو أن تنـاول شىء من المطعومـات التى حرم تعالى أكلها أو إتيان الفعل المنهى عنه هو ذنب عظيـم يستوجب العقاب، وذلك بقوله تعالى «ذلكم فسق»، فأشار إلى أن عدم الانتهاء عن جميع ما نهى تعالى عنه هو إثم عظيم.

ثم جاء قوله تعالى «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون» بيانا للمؤمنين وإعلاما لهم بأن الأمل لم يعد يداعب الكافرين أن يظهروا على دين الله وأنهم أيقنوا خيبة مسعاهم أن يقضوا عليه، وأنه من هذا الوقت وإلى الأبد أى منذ نزول الآية عصر الجمعة يوم عرفة فى حجة الوداع ـ على قول ـ ويوم دخوله ﷺ مكة ـ على قول آخر ـ تحقق الكفار من انتشار الإسلام وأنه لا سبيل لهم للقضاء عليه، وترتيبا على ذلك جاء أمره تعالى المسلمين ألا يخشوا الكفار الذين انقطع أملهم فى الانتصار على دين الله، وأن يجعلوا خشيتهم له تعالى وحده فيلتزموا أوامره وينتهوا عن نواهيه لا يعصونه أمرا.

وبعد ذكره تعالى ما يفيد انتصار دينه ويأس الكفار من مقاومة انتشاره قال تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا» فبين تعالى أن الدين بما يتضمن من عقيدة وأحكام قد كمل، فلم يعد مجال ـ من بعد لزيادة فى الشريعة ولا نسخ، ولما كان مفاد هذا أنه لم يعد بعد الكمال ما يبلغه رسول الله ﷺ المؤمنين فى شأن الأحكام عن ربه فقد بكى عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأنه عرف أنه لا يكون بعد الكمال إلا النقصان. وبين تعالى أنه بكمال الدين تمت نعمته تعالى، قيل إنها تمت بفتح مكة ودخولها وهدم مناسك الجاهلية ومنع الكافرين حج البيت، وقيل تمام النعمة كان بكمال الدين لأنه سبيل الهدى ـ وهذا هو الأقرب معنى على ما يبين من السياق ـ وأوضح تعالى أنه قد اختار الإسلام الذى جاء به منه رسوله ﷺ دينا ارتضاه، ويبين من القول ـ بمفهوم المخالفة ـ أنه تعالى لا يقبل غيره دينا لأنه تعالى لم يختر ولم يرض إلاه دينا.

ثم جاء قوله تعالى «فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم» عود إلى الأحكام التى شرعها تعالى فى شأن المحرم أكله وذلك بذكره تعالى سببا لمنع العقاب على أكل ما حرم أكله مع بيان شروطه، فقد ذكر تعالى حالة الضرورة «فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم» وهو من اضطره الجوع الذى خشى منه هلاك نفسه إلى أكل شيء من المحرمات، فيكون مضطرا لذلك الأسير لدى عدو لا يقدم له من الطعام إلا ما حرم أكله، أو الذى وجد فى قفر أو فى حضر فى بلد بعيد بغير زاد حلال ولا يجد إلا طعاما حرم أكله، فإن لم يأكل هلك. وبين تعالى شرط امتناع المعاقبة وهو عدم ميل المضطر إلى مقارفة إثم أكل المحرم أكله وهو بالأكل منه فوق ما يمسك عليه حياته بالأكل إلى حد الشبع،

وأجاز البعض الأكل إلى حد الشبع قولا منهـم إن الإثم المشترط ألا يكون إليه ميل هو عصيان آخر مثل البغى على مضطر آخر وسلب الطعام المحرم منه. والذى نراه ـ والله أعلم ـ أنه الأكل إلى حد الشبع لأن الضرورة تحدد بقدرها، ولما كانت خشية الهلاك ـ وهى الضرورة ـ بدفعها أكل ما يسـر الرمق فإن تجـاوز ذلك إلى حد الشبع يكـون تجاوزا لحالة الضـرورة التى منعت العقاب فيكون معاقبا عليه .

وقوله تعـالى ـ فى ختام الآيـة ـ «فإن الله غفور رحيـم» يفيد أن أكل المحرم أكله فـى حالة الضرورة لا يعنى إباحة أكل المحـرم أكله وصيرورتـه مباحا مشـروعا، وإنما يعنى فقـط عدم المعاقبة عليه لأنه تعالى يغفره ذنبا بواسع رحمته .

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾

أولا : الأســـــماء :

١ ـ **الجوارح**: جمع، مفرده «جارحة» بمعنى كاسبة، فـالجوارح هى «الكواسب» من سباع الحيوان والطير التى تكسـب صاحبها شيئا، وقيل هى سباع الحيـوان والطير سميت «جوارح» لأنها تجرح ما تصطاد فى غالب الأمر.

٢ ـ **المكلبون** : فى قوله تعالى «وما علمتم من الجوارح مكلبين» جمع، مفرده «المكلب» بمعنى مدرب الجوارح على الصيد وغيره، لأن التدريـب يكون أغلب ما يكون للكلب، وقيل لأن «الكلب» اسم عام يطلق على جميع سباع الحيوان.

ثانيا : التفســـير:

قوله تعـالى ـ فى الآيـة ـ فى ذكر ما أحـل أكله من المطعومـات من بعد ذكر مـا حرم أكله منها، جاء موجها إلـى رسول الله ﷺ متضمنا الإجابة التى يجيب بها مـن سألوه ﷺ عما أحل

لهم من المطعومات.

فقوله تعالى «قل أحل لكم الطيبات» هو أمر لرسوله ﷺ أن يقول للمؤمنين أن جميع الطيبات قد أحلت لهم ـ كأصل عام أو قاعدة عامة ـ وقيل في معنى «الطيبات» أنها ما يستطيبه الطبع السليم ولا ينفر عنه، وقيل إنه ما أحل تعالى أكله ولم يرد فيه نص بالتحريم، وقوله تعالى هذا مفاده أن القاعدة العامة هي الحل وأن التحريم لا يكون إلا بنص أو بطريق القياس لاتحاد العلة مثل تحريم كل ما يذهب العقل من المشروبات قياسا على تحريم الخمر للاتحاد في العلة وهي الإسكار.

ومما أحل أكله ما جاء به قوله تعالى «وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله» والمراد بما حلل أكله هو الصيد الذى صادته الجوارح من الحيوان ومن الطير التي علمها أصحابها الصيد لهم، وهو بعض ما علمهم الله تعالى، فعرفوا كيف يأمرونها فتطيع وكيف يزجرونها فتنزجر.

وقوله تعالى «فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه» هو إباحة أكل ما صاده الحيوان والطير المدرب على الصيد إذا ما صاد لحساب صاحبه ومصلحته وليس لنفسه «مما أمسكن عليكم»، فإذا كان الحيوان الجارح أو الطير الجارح قد صاد لنفسه وهو ما يستدل عليه بأكله من الصيد، فإنه لا يكون قد أمسك الصيد على صاحبه، فلا يؤكل صيده، وقال البعض إن هذا يكون في صيد الحيوان دون صيد الطير، فإن أكل جارح الطير من الفريسة لا يحرم أكلها. وجاء شرط تحليل أكل صيد جوارح الحيوان والطير المدربة بقوله تعالى «واذكروا اسم الله عليه» فبين تعالى وجوب ذكر اسمه تعالى على من يعود عليه الضمير المتصل في «عليه»، وفيه قيل إنه الحيوان أو الطير الصائد، يذكر اسم الله عليه حين إطلاقه للصيد، وقيل إنه الصيد إذا ما تم إدراك ذبحه.

واختتام الآية بقوله تعالى «واتقوا الله إن الله سريع الحساب» هو حث على التزام أحكامه تعالى وأوامره ونواهيه ومنها ما جاء في الآية من نهى عن أكل صيد الجوارح غير المدربة وما تصيده لأنفسها على ما يبين من قوله تعالى «واتقوا الله»، وهو ترهيب من مخالفة أوامره

ونواهيه ببيان أنـه تعالى يعجل للمخالفين حسـابهم. أو أنه تعالى يفرغ مـن حساب الناس فى الآخرة فى وقت قصير.

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾

التفســــــير:

قوله تعالى «اليوم أحل لكم الطيبات» جاء تأكيدا لحل الطيبات التى أبيحت من قبل نزول الآية للمسلمين ولما أجابهم به رسول الله ﷺ عن سؤالهم .

وقوله تعالى «وطعام الذين أوتوا الكتاب حـل لكم وطعامكم حل لهم» مفاده فى مقام أول ـ تحليـل الأكل من ذبائح أهـل الكتاب من اليهود والنصـارى مما لم يحرم علـى المسلمين تناوله مثل الخنـزير الذى يأكله النصارى ، والمستفـاد من عمومية النص أنه يحـل الأكل من ذبيحة أهل الكتـاب ولو كان قد ذكر عند ذبحهـا اسم لغيرالله مثل قولهم «بـاسم المسيح، أو باسم الصليب، أو باسم عزير»، وكذلك الحـال لو لم يذكر عند ذبحها اسم على الإطلاق، أو ذكر اسـم الله مراءاة للمسلمين، وسبب ذلـك فيما نراه ـ والله أعلـم ـ أن ذكر اسم الله مـن غير إيمان هو والعدم سـواء ـ ولذلك فإنه يلحق بـذكر اسم غير الله على الذبيحـة، جاء نص الآية نصا خاصا بذبيحة أهل الكتاب فاستثناها مـن حكم الذبائح التى ذكر اسـم لغيـر الله عليهـا ـ وهو تحريم أكلها ـ فأباح للمسلمين أكلهـا، وبقيت ذبائح غير أهل الكتاب التى يذكر عليها اسم لغيـر الله محرمة على المسلمين مثل ذبائح المجوس والبـوذيين وغيرهم. ويستفـاد من

النص أيضا عدم اشتراط ذكر الله على الذبيحة..والـواضح أن النص يتعلق بالذبائح على وجه الخصوص دون باقى أنواع الطعام مثل الفواكـه والخضروات والحبوب ، فهذه لـم يتعلق بها النص، ولاشـك فى تحليل أكلهـا ما لـم تخلط بما حـرم على المسلمين تنـاوله مثـل عجن الدقيق بالخمر ومثل ملء بعض أنواع الحلوى بالنبيذ. وقيل فى شأن ذبائح أهل الكتاب التى يحل للمسلميـن الأكل منهـا أنها يجـب أن تكون مما أحـل لأهل الكتـاب أيضا أكلـه، فإن كانت مما يرون تحريمه عليهم مثل الإبل لم يكن أكل ذبائحهم منها داخلا فى نطاق ما أحل للمسلمين أكله من ذبائحهم، والراجح غير ذلك .

ومفاد النص ـ فى مقام ثان ـ هو إجازة إطعام المسلمين أهل الكتاب من طعامهم، وذلك لأنه يبعـد تصور اعتبار أهـل الكتاب مخاطبيـن بأحكام الشـريعة الإسلاميـة ملزمين بهـا فى الدنيا، ويفيد النص أيضـا أنه إذا أخذ أهل الكتاب من المسلمين طعاما مـن طعامهم برضاء كان حلالا لهم أكله، وإن أخذوه بمقابل مادى أى بطـريق الشراء كان حلالا لهم أكله وحلالا للبائع المسلم ثمنه .

وقوله تعالى «والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتمـوهن أجـورهن محصنيـن غيـر مسافحيـن ولا متخـذات أخدان»، تعلـق بمن أحـل للمؤمنين نكاحهن باعتبارهن من طيبات الحياة الـدنيا على ما يبين من عطفهن ـ فى النص ـ على الطيبات (بالمعنى العام)، والمراد بالمحصنات من المؤمنات هو الحرائر العفيفات، ولا يعنى القول تحريم الزواج بالإماء المسلمات ولا الزواج من غير العفيفات، وإن كان فعل ذلك أقل درجـة فى ميزان طيب المـرأة. والمراد بالمحصنات مـن أهل الكتاب هو الحـرائر، وقيل الحرائر العفيفات اللاتى يحصن فروجهن ولا يزنين ويغتسلن من الجنابة.

وتأكد تعلق الحكم بـالنكاح بقوله تعالى «إذا آتيتموهن أجورهـن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان»، جـاء فيه التعبير عن وجوب المهر بقـوله تعالى «إذا آتيتموهـن أجورهن» سواء أكان بأدائه أم بالتعهد به والالتزام لبيـان أن الاستمتاع بالنساء كنوع من الطيبات لا يكون إلا بـالزواج، وتـأكد ذلـك بـذكره حـال الـرجال عنـد أداء المهور أو الأمـوال وهـو أن يكونـوا محصنين، أى قاصديـن الزواج بمعناه، وليس معـاشرة النساء سفاحـا، أو معاشرتهن معـاشرة رفقة .

واختتـام الآية بقـوله تعـالـى «ومن يكفـر بالإيمـان فقد حبـط عملـه وهو فـي الآخرة مـن الخاسرين» جاء لبيان أهمية الالتزام بما شرع تعالـى فى شأن الحل والحرمة، فأظهر تعالى أن من أعلن إيمانه من قبـل ثم أعرض عن التزام أحكامه تعالى فى شـأن الحل والحرمة إعراض إنكار لها أو عدم قبول، فإنه يكون قد حرم ثـواب عمله الذى اعتقد أنه يثاب به شأن الكافر لا يثاب بعمله الصالح فـي الآخرة، وأنه لذلك يكون في الآخرة من الخاسـرين، لأنه لا يكون قد كسب خيرا بما فعل أو أعطى فى الدنيا. فيكون القـول متضمنا حثا على التزام أحكامه تعالى فى شأن الحل والحرمة وترهيبا من مخالفتها .٠

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦

أولا : الأســــماء:

١ ـ **المرافق**: جمع، مفـرده «المرفق»، وهو مـوصل الذراع فـى العضد. قيل إنه قـد يكون سمى كذلك لأنه يتكأ عليه فيكون مرفقـا. ونرى أنه قول ينطوى على مصادرة على المطلوب فإنما أطلـق على ما يستند عليـه من الأشياء «مرفـق» تشبيها له بالمـرفق. وعلى الحاليـن فإن للاسم علاقة بالاتكاء عليه، أو باتخاذه تكئة .

٢ ـ الكعبان: فى قـوله تعالى «وأرجلكـم إلى الكعبين» همـا العظمتان الموجودتـان فى مجمع مفصل الساق والقـدم. وفى اللغة جاء «الكعب» من العلو، ومنـه جاء اسم «الكعبة»، ولذلك يقال للفتاة إذا برز نهداها «كاعب».

ثانيا: التفســـير:

الآية من آيـات الأحكام، جاءت متعلقة ببعض مـن أحكام العبادات فى شـرط من شروط صحة الصلاة، وذلك على ما يبيـن من قوله تعالى ـ فى مبتدأ النص ـ «يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة» فبين أن الحكـم الذى سيأتى به النص يتعلق بأمـر بسبق مكونات الصلاة ذاتها لأنـه يكون عند إرادة القيام، أي بشـرط من شروط صحتهـا، وقد بين نص الآيـة أن هذا الشرط يتمثل فـى الوضوء، فيكون مفـاد النص هو وجوب الـوضوء شرطا لصحـة الصلاة، وقد اختلف فيما إذا كان الوضوء واجبا عند كل صلاة، أم أنه يكون واجبا على من أحدث. وظاهر النص يفيد وجوبه عند كل صلاة، إلا أن السنة الشـريفة قيدت إطلاق النص فأظهرت وجوبه على المحدث، وإجازة الصلاة بوضوء واحد أكثر من صلاة إلى الصلوات الخمس.

وجاء النص ببيـان ماهية الوضوء بقـوله تعالى «فاغسلـوا وجوهكم وأيديكم إلـى المرافق وامسحـوا برءوسكـم وأرجلكم إلـى الكعبين». وغسـل الوجـه يكون بـإسالـة الماء عليـه أى بتقاطره، والراجح أنه لا يشترط دلك الوجه، فإن كان فإنما يكون فقط للتحقق من وصول الماء إلى جميع ما يعتبر من الوجه، وحدوده هى مـن مبدأ سطح الجبهة إلى أسفل اللحية طولا وما بين شحمتي الأذنين عرضا، وفى شأن شعر اللحية فـإنه يستفاد من ظاهر النص وجوب إسالة الماء عليه، وقيـل يجب مسحها، وقيل يجب مسح مـا يلاقى البشرة منها، وقيـل يجب غسل الشعر والبشرة، وقيل يكتفى بغسل الشعر لأنه قام مقام البشرة فتحول الفرض ـ فرض الغسل ـ إليه، شـأنه فى ذلك شـأن الحاجب. وغسل الأيـادى إلى المرافـق قيل بشأنه إن «إلـى» هى بمعنى «مع» فأوجـب القائلون بهذا غسل المرفقيـن، وهذا ثابت بالسنة والإجمـاع وبالاتباع، وخالف البعض فقـال بعدم وجوب غسل المرفقين قـولا بأن بلوغهما هو حد المـأمور بغسله. ووفقا للمجمع عليه فإنه يكون على فاقد اليد من المرفق إمرار الماء على طرف العظم. ومسح

الرأس قيل بشـأنه أن «الباء» فى «برءوسكـم» أفادت التبعيض ، والراجح أن الـواجب مسحه بالماء هو الناصيـة وهو ربع الرأس من أى جانب فوق الأذنيـن، وروى عن أنس رضى الله عنه أنه قـال إنه رأى رسول الله ﷺ يتـوضأ فمسح مقـدم رأسه. ومقدم الـرأس هو الربـع المسمى بـالناصيـة، وقيل إن المفـروض مسحه مقـدار ثـلاث أصابـع، وقيل يجـب استيعاب الـرأس بالمسح. والراجح أن المسح على العمامة وغطاء الرأس عموما لا يجزىء. وفى شأن القدمين فقد إختلف فى شأن وجوب غسلهما أو الاكتفاء بمسحهما، وفق قراءتها على النصب أو على الجر. فعلـى الأول تكون الأرجل معطوفة على الوجوه فيكـون الفرض غسلهما، وعلى الثـانى تكون معطـوفة على الرءوس فيكـون الفرض مسحهما. وقيـل يكون المرء مخيرا بيـن غسلهما وبين مسحهما. والذى عليه جمهور الفقهاء أن الفرض هو غسلهما. ومعلوم أن الغسل يشمل المسح وأن المسح لا يشمل الغسل فيكون الغسل أقرب إلـى الاحتياط ولذلك يكون الواجب ـ تحـوطا ــ هو الغسـل ، ومعلوم أيضـا أن فى الغسل وحـده يكون التقيـد بالحـدين ــ وهما الكعبان ـ وأنه لا يكون ذلك لازما فى المسح، مما مفـاده ترجيح قول القائلين بأن الفرض هو الغسل.

ويبقى القـول ـ فى شأن الـوضوء ـ أن ألفـاظ الآية تفيد التـرتيب؛ ولذلك قـال البعض أن التنكيس ـ بمعنـى غسل عضو أو مسحه قبل آخر مـذكور قبله ـ لا يجزىء إذا فعلـه المتوضىء عامدا، وقال البعض إن الترتيب سنة. وقيل إن لم يتوضأ على ترتيب الآية تكون عليه إعادة ما صلى بذلك الوضوء، وقيل إن «الواو» فى الآية لا يفيد الترتيب ولا يوجب التعقيب، و إن غسل جميع ما وجب غسله ومسح ما ذكر مسحه يجزىء ولو لم يتم بترتيب النص.

وبعد ذكره تعالى ما تعلق بالوضوء كشرط لصحة الصلاة جاء بيان حكم الجنب من جماع أو إنزال ـ على ما سبق بيانه وتفصيله فى تفسيـر الآية ٤٣ من سورة النساء ـ بقوله تعالى «و إن كنتم جنبـا فاطهروا»، ومن النـص يبين أن التطهر بالاغتســال غير واجب على الجنـب بمجرد تحقق سببه من جماع أو إنزال، و إنما تعلق وجوبه بوجوب أداء عبادة لا تصح بدونه ـ على ما يبين من تعلقه بالقيام إلى الصلاة ومثلها تلاوة القـرآن، وقوله تعالى «فاطهروا» يفيد وجوب أن تنال الطهارة جميع البـدن، ولذلك وجب فى التطهر من الجنـابة المضمضة والاستنشاق لأن

الفم والأنف مما يمكن إيصال الماء إليه فلا يتجاوز عن ذلك لأنه لا يتجاوز إلا عما يكون في إيصال الماء إليه حرج مثل داخل العينين .

ثم إنه تعالى ذكر حكم الحال التي يكون فيها متوجبا على المرء الوضوء ومنعه مانع من استعمال الماء بقوله تعالى «وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه»، فبين تعالى أنه إذا كان بالمرء مرض أو ما ماثله من جرح أو إجراء جراحة يضر معه الاغتسال بالماء فإنه لا يجب عليه الوضوء بالماء ويكون له التيمم، وكذلك حال من كان فى سفر ولم يجد ماء، ومن أحدث بإخراج من أحد السبيلين ولم يجد ماء للوضوء، ومن لامس النساء ولم يجد ماء، وقيل فى شأن اللمس إن المراد به هو ما دون الجماع وذلك لسبق تناول الجماع والإنزال من قبل بقوله تعالى «وإن كنتم جنبا فاطهروا»،وقيل إن المراد به هو الجماع والإنزال، وعلى ما سبق بيانه فى سورة النساء فإن حكم الذى هو على سفر، والذى جاء من الغائط والذى لامس النساء ـ الذى جاء به النص ـ معلق على شرط عدم وجود الماء، بمعنى أن يكون عدم وجود الماء هو علة الحكم وهو تيمم صعيد طيب، بمعنى التوجه إلى تراب ليس به نجاسة أو حجر عال أو بقعة من الأرض عالية به أو بها أثر من تراب ـ على رأى ـ وبعدم اشتراط ذلك ـ فى رأى آخر ـ فيكون وضع اليدين عليه ثم استيعاب الوجوه والأيدى منه.

واختتام الآية بقوله تعالى «ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون» هو تذييل لما سبق من بيان أحكام الوضوء والتطهر من الجنابة والتيمم ، مفاده أنه تعالى أراد ألا يكون بالمؤمنين ضيق أو عنت من اتباع أحكامه ــ ومنها أحكام التطهر والوضوء ـ ولذلك شرع لهم من قبيل التخفيف عليهم التيمم حال المرض، وعند عدم وجود الماء، وأراد تطهيرهم بالوضوء من دنس خطاياهم لكونه مما تكفر به الخطايا، كما أراد رفع الحدث عنكم بالماء فإن لم يوجد فبالتراب، وأنه تعالى بتطهير أبدانهم من بعد تطهير نفوسهم بالإيمان يكون بطاعتهم إياه تعالى فى أحكامه ـ تمام نعمته تعالى عليهم لاستحقاقهم ثواب ذلك، وهو ما يستوجب شكرهم إياه تعالى على ما أنعم عليهم.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۞٧﴾

التفســــير:

الراجح أن المخاطبين بالآية هم المؤمنون أمرهم سبحانه وتعالى أن يذكروا نعمة الإسلام التى أنعم بها عليهم بإسلامهم، وهو ما يكون بشكره تعالى عليها وعدم عصيانه، وأن يذكروا الميثاق الذى أخذ عليهم - وهو لمن عاصروا رسول الله ﷺ - مبايعة العقبة الثانية على السمع والطاعة فى اليسر والعسر والمنشط والمكره، وقيل هو ميثاق العقبة الأولى، وقيل هو بيعة الرضوان. وإضافة الميثاق إليه تعالى كان وفقا لقوله تعالى «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله». وهو لمن لم يعاصروه ﷺ شهادة ألا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله، يكون قائلها قد أعطى ميثاق الإسلام له تعالى. وقيل - فى شأن الميثاق - أنه الذى أخذ على بنى آدم حين أخرجهم من صلبه المذكور بقوله تعالى «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى».

ثم إنه تعالى بعد أن أمر بذكر نعمة الإسلام التى مَنَّ بها على المؤمنين وذكر الميثاق الذى عاهدوا عليه الله، أمرهم تعالى باتقاء عذابه وهو ما يكون بالاستمرار على ذكر النعمة والشكر عليها وعدم جحدها، وبالعمل بالميثاق وعدم نقضه. ثم أعقب تعالى ذلك بقوله تعالى «إن الله عليم بذات الصدور» لبيان أنه تعالى محاسب بطاعته فيما أمر أو عصيانه بما يكون من أفعال وما انطوات عليه الصدور من البواعث. فيكون فى القول معنى الحث على الطاعة والترهيب من العصيان .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞٨﴾

التفســـــير:

الآية من آيات الأحكام وإن كان الحكم الذى جاء به حكما عاما، ورد بـه النص بعد ما جاءت به الآيات السابقة من أحكام تتعلق بأنفس المؤمنين ذواتهم، ليكون متعلقا بأحوالهم معه تعالى فى شأن باقى خلقه وفى شأن أمورهم مع غيرهم بالتالى.

فقوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط» هو أمر للمؤمنين بالمداومة على القيام على الطاعة فيما أمر به متعلقا بدينه، وأخصه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والمفترض أنه يكون من مؤمن يعمل الصالحات، ثم إنه لما كان من المعروف نصرة العدل ومن المنكر التقاعس عن إحقاق الحق فقد جاء أمره تعالى بما هو مترتب على الأمر بالقيام على حقوقه تعالى فأمر تعالى المؤمنين بالشهادة وعدم التقاعس عنها، وعن أن تكون للعدل وبالحق.

ثم إنه لما كان تعالى يعلم ضعف النفوس وما قد تؤدى إليه العواطف والمشاعر والانفعالات من الميل عن الحق فقد جاء نهيه تعالى عن أن تكون كراهة شخص أو فئة دافعا إلى الابتعاد عن العدل فقال تعالى «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا»، ثم أعاد تعالى ذكر المفهوم من النهى بأمر صريح بقوله تعالى «اعدلوا هو أقرب للتقوى» أمر فيه تعالى بالعدل ، يشمل العدل فى الأفعال بعدم الإيذاء بغير حق أى بعدم الاعتداء بفعل أو قول، ويشمل العدل فى الشهادة، ثم أوضح تعالى أن العدل هو أنسب الطاعات للوصول إلى رضاه تعالى واتقاء غضبه وعذابه.

ثم جاء قوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون» مبينا أن تقوى الله هى مسعى المؤمنين فيكون فى القول إعادة تنبيه إلى وجوب التزام العدل لكونه أنسب ما يوصل إليها، وحاثا على التزام العدل للحصول على ثوابه تعالى، ومتواعدًا من يحيد عنه بالعذاب الذى لم يتقه بميله عن العدل، على ما يستفاد من كونه تعالى خبيرا بالأعمال بما يفيد محاسبته بها .

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

التفســـــير:

بعد أمـره تعالى المـؤمنين بتقواه، ولما كـان الإيمان محله القلـب، وكانت تقـوى الله مما تفصح عنه الأعمال. فإنه تعـالى أظهر ـ فى الآية ـ أن إثابته المؤمنيـن فى الآخرة هى وعد منه تعالـى، فهى حق لأنه ليـس من هو أوفـى بعهده من الله تعالـى، وهذا الوعـد هو للذين قـرنوا إيمانهـم بعمل الصالحات، والمـوعود به أن يكون لهـم منه تعالـى المغفرة بمعنى أنه تعـالى يغفر لهم ذنوبهم، وينعـم عليهم نعماً عظيمة ، بين تعالى وجوب الإنعـام بها عليهم بوصفها بالأجـر. وأوضح عظمهـا بوصـف الأجر بـالعظم مـع تجهيله لإظهـار أنه فـوق إدراك العقول والأفهام، للإطماع فيه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾

التفســـــير:

بعد أن بين تعالى مصير المـؤمنين وأنه وعد منه تعالى فإنه تعالى ذكـر مصير الكافرين فى جملة خبـرية لبيان أن الأمـر واقع وأنه حـق وأنه ليـس مجرد وعيد وذلـك لقطع الرجـاء لدى الكافرين فـى احتمال عدم تحقق المخبر عنه. ومعنـى قوله تعالى: أن الذيـن كفروا بالإسلام دينا، وكذبـوا بآيات القرآن العظيم والآيات الـدالة على بعث رسول الله ﷺ بالحـق رسولا من ربه هم ملازمو النار المتأججة فى الآخرة على التأبيد. فهم مصاحبوها وملازموها وهم وقودها مادامت.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

التفســـــير:

قولـه تعالـى ـ فى الآيـة ـ تذكيـر للمؤمنيـن بنعمة خاصـة أنعم بها عليهـم من بعـد نعمة

الإيمان، ومضمونها ــ على ما يبين من النص ــ أن قوما قصدوا البطش بالمـؤمنين بقتلهم أو الاعتداء عليهم، على المستفاد مـن بسط اليد إليهم بمعنى مدها إليهم بفعـل الشر فكان منه تعالى أنه منع أيديهم أن تمتد بالشر إليهم بمجرد أن هموا بالاعتداء ـ على ما يبين من «الفاء» فى «فكف». وقيل إن هذه النعمة الخاصة كانـت منع المشركين عن الاعتداء على المسلمين حين صلوا الظهر جميعـا فى عسفان خلف رسول الله ﷺ وعزم المشركون علـى مباغتتهم فى صـلاتهم بـالهجوم عليهـم فمنعهـم تعالـى مـن فعل مـا انتوه، فلمـا قضيـت الصلاة نـدم المشركون لفوات فرصة مباغتة المسلمين فى صلاتهم عليهم، وعزموا على انتهازها فى صلاة العصر، فأنزل تعـالى آية صلاة الخوف فرد كيـدهم فى نحرهم، وكف أيـديهم عن المسلمين ثانية.

وبعد تـذكيره تعالـى المؤمنين بهـذه النعمة الخاصة التى أنعم تعالـى بها عليهم أمـرهم بتقواه، والمـراد بالتقوى تقـواه فى كل فعـل وتقواه بـالقيام بحق هـذه النعمة الخاصـة بشكره تعالى عليها .

ثم جاء قوله تعالـى «وعلى الله فليتوكل المؤمنون» تذييلا لما سبق مـن نص الآية لبيان أنه تعالى كافى المؤمنيـن، يحميهم من كل ما يراد بهم من شر بما يستـوجب منهم التوكل عليه، وقد أمرهم تعالى به ليكون لهم فى التوكل عليه ثواب الطاعة فى الآخرة مع كفاية شر أعدائهم فى الدنيا .

۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾

أولا: الأســماء والأعلام :

الاثنا عشــر نقيبا : فى قـوله تعالـى ﴿وبعثنا منهم اثنـى عشر نقيبـا﴾ هم رؤساء أسبـاط بنى إسرائيل الذين أرسلهم موسى عليه السـلام من برية فاران ليتجسسوا أرض كنعان (فلسطين)، وهم: شموع بن زكورمـن سبط رأوبين، وشافاط بن حورى من سبط شمعـون، وكالب بن يفنة من سبط يهوذا، ويجال بن يـوسف من سبط يساكر، ويوشع بن نون مـن سبط أفرايم، وفلطى ابن رافو من سبـط بنيامين، وجدئيل بن سـودى من سبط زبولون، وجدى بـن سوس بن سبط يوسف، وعميئيـل بن جملى من سبـط دان، وستوربن ميخائيـل من سبط أشــير ونحبى بن وفسى بن سبط نفتالى، وجاوئيل بن ماكى من سبط جاد.

التفســــير:

بعد أن ذكَّر تعالـى المؤمنين بالنعمة الخاصـة التى أنعم بها عليهم من بعـد نعمة الإسلام وأمرهم بأداء حقها من الشكر مبينا جزاء من يطيع فيتقى وإثم من يعصى، فإنه تعالى شرع فى بيان ما أنعـم به على أهل الكتاب مـن نعم خاصة من بعـد إنعامه عليهم بالإيمـان برسلهم، وبيان ما كان منهم معه تعالى من بعد ما أنعم به عليهم.

فقولـه تعالى ﴿ولقـد أخذ الله ميثاق بنـى إسرائيل﴾ يفيد أنـه تعالى أخـذ من بنى إسـرائيل ميثاقا، كما أخذ من المؤمنين ميثاقا على مـا جاء بقوله تعالى ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم بـه﴾، وكما كان ميثاق المؤمنين هـو قولهم «سمعنا وأطعنا»، كذلـك كان ميثاق بنى إسرائيـل له تعالى بواسطـة موسى عليه السلام وفيـه قالوا «سمعنا وأطعنا» معـاهدين الله على الطاعة،وقد كان مما أعطوا عليه الميثاق أن يؤمنوا بالرسول الذى يبعث من إخوتهم ـ أى من أبناء إسماعيل عليه السـلام على ما سبق بيانه مما لايزال موجودا فـى سفر التثنية بالتوراة التى بيـن أيدينا اليـوم ـ فكأن مضمـون الميثاق المعطـى مما يدخـل فى نعمة الإيمـان وهى النعمة العامة .

وقوله تعالى ﴿وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا وقـال الله إنى معكم﴾ هو ذكر للنعمة الخاصة التى أنعم بها تعـالى على بنى إسرائيـل، وتتمثل فى اختيار اثنـى عشر نقيبا منهم، اختارهـم موسى عليه السلام بأمـر ربه من أسباطهم الاثنى عشر ليتحسسوا أرض الكنعـانيين ويتجسسوا على

أهلها ليعلمـوا أخبارهـا وطرقهـا وكيفية دخـولها، وليعـرفوا أحـوال أهلها ودفـاعاتهـم، وذلك ليدخلهم الله هذه الأرض، فكـأن وعده تعالى لهم بدخول أرض الكنعانييـن وبعث النقباء فى مهمة استطلاعيـة للتخطيط لدخول الأرض ووعده تعـالى إياهم أن يكـون معهم فينجيهم ولا يمكن الكنعانيين من اكتشـاف حقيقة أمرهم والنيل منهم كان هو النعمـة الخاصة التى أنعم بها تعالـى على بنى إسرائيل ــ وسيأتى بيان ما فعل هـؤلاء النقباء، وما كان من شـأنهم وشأن بنى إسرائيل معهم ومع موسى وهارون فى تفسير الآية التالية عند بيان نقضهم الميثاق وسبب حلول اللعنة بهم .

وقوله تعالى «لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتـم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجـرى من تحتها الأنهار» هو بيان لمضمون ما جرت به أحكام الميثـاق ، جاء فى صيغة جملة شرطية يمثل فعـل الشرط فيها العهد الذى أخذ على بنـى إسرائيل، وهو إقـامتهم الصلاة وإيتاء الزكـاة، بمعنى إيمانهـم ــ فى مقام أول ـ لأنه مناط قبول العبادات، ثم أداء جميع العبادات بأنواعها من عبادات بدنية وعبادات مالية، ثم الإيمان بجميع الرسل، وقد كان منهم معهم مـوسى وهارون عليهما السلام ويوشع بن نون الذى أوحى إليه نبيـا بعد موتهما، ثم بجميع مـن يبعث تعالى من الرسـل ومنهم عيسى عليه السلام ومحمد عليه الصلاة والسلام، وبعد الإيمان يكون مـن بنى إسرائيل ـ على ما جاء فى الميثاق تأييد الرسل وتعضيدهم ومؤازرتهـم، والإنفاق فى سبيل الله بجميع أنواع الصدقات. والشق الثانى من الميثاق هـو ما وعد به تعالى بنى إسرائيل جاء بـه جواب الشرط فى الجملة الشرطيـة، ومضمونه أنه تعـالى يجعل من إيفـائهم بعهدهم سببـا للتكفير عن سيئاتهـم التى قارفوها، وأن يدخلهم فى الآخرة جنات تجرى من تحتها الأنهار .

ثم إنه تعالى أوضح حال من ينقض الميثاق فيكفر به أو يكفر بأحكام الميثاق أو بأى منها، فيدخل فى معنى الكافرين من لا يؤدى العبادات المفروضة ومن يعصى رسله أو لا يؤمن لهم، ومن لا يؤازرهم وينصرهم، ومن لا يتصدق من ماله فـى أوجه الخيـر. ويبين من قوله تعـــالى ـ فـى النص ـ «منكم» أنـه تعالى يشيـر إلى استبعاد وقـوع الكفر منهم جميعهم لإفـادة معنى جسامة إثمه، وحـال هؤلاء أنهم يكونوا قد ضلوا مـا يوصل إلى الهدى فى طـريق سلكوه من شأنه أنه يوصل إليه. وذلك لإفادة كونهم قد ضلوا بعد الإيمان .

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

التفســـــير:

جاء قوله تعالى ـ في الآية ـ مثبتا نقض بنى إسرائيل الميثاق المأخوذ عليهم، وكفرانهم النعمة التى أنعم بها عليهم سبحانه وتعالى ومجازاته تعالى إياهم بذلك ، ومبينا بعض صور لمناحى كفرهم الذى اختاروه فيسره تعالى لهم ولم يمنعهم منه، ثم معلما رسول الله ﷺ أنه يرى منهم بعض مظاهر الكفر، وآمرا إياه بالعفو عنهم، والصفح.

فقوله تعالى «فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية» يفيد أن بنى إسرائيل نقضوا ميثاقهم معه تعالى وكفروا نعمته التى أنعم بها عليهم، وهو ما تمثل فى الآتى .

ـ إنه فى شأن النقباء المختارين أنفسهم الذين وعدهم تعالى أنه يكون معهم والذين طلب منهم موسى عليه السلام أن يبلغوه وحده بما خلصوا إليه فى شأن استطلاع أرض الكنعانيين وتلمس أحوالهم فإنهم فيما خلا كالب بن يفنة ويوشع بن نون أخبروا بنى إسرائيل بما رأوا وعرفوا، وزادوا على ذلك بأن أرهبوهم من الكنعانيين بمبالغتهم فى وصف قوتهم البدنية وأوهنوا عزائمهم بالمبالغة فى وصف منعة مدنهم وتحصيناتها .

ـ وفى شأن شعب بنى إسرائيل فإنه كان منه عصيان أمر موسى عليه السلام بإعلانهم رفضهم محاربة الكنعانيين وقولهم له «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون»، ثم كان منهم أن انقلبوا على موسى وهارون وزعموا أنهما سبب نكبتهم، فكان هذا كفرا منهم بأنبيائهم الذين معهم وكفرانا للنعمة المنعم بها عليهم.

وقد تجاوزنا فى ذكر رواية إرسال النقباء للاستطلاع وما أخبروا به بنى إسرائيل عما ذكر من قصص نرى ـ والله أعلم ـ أنها محض خرافات فيما قيل من أن النقباء شاهدوا من أهل البلاد رجلا يدعى عوج بن عنق طوله ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثون ذراعا وثلث ذراع يشرب من السحاب ويتناول الحوت من قرار البحر ويشويه فى الشمس ليأكله، وأن جبال الأرض لا تجاوز ركبتيه، وأنه أمسك بالنقباء وكاد يطحنهم تحت قدميه لولا أن نهته امرأته عن ذلك

ليخبروا بما رأوا قومهم عند عودتهم. ونرى أن هذه الأقاويل هي خرافات يجب تنقية كتب التفاسير منها .

ويبين من النص أنه تعالى عاقب بنى إسرائيل بسبب جميع أفعالهم التى نقضوا بها الميثاق وكفروا نعمته تعالى عليهم، فيدخل فى هذه الأفعال كفرهم من جاء بعد موسى عليه السلام من أنبياء ورسل ومنهم المسيح عليه السلام ومحمد ﷺ، وجاء التعريف بالعقاب مجملا بقوله تعالى «لعناهم» بمعنى أنه تعالى طردهم من رحمته، ومن إطلاق عبارة النص يبين أن هذه اللعنة شملتهم فى الدنيا وفى الآخرة؛ ولذلك فإنهم يذوقون صنوف العذاب والمهانة من غيرهم فى الدنيا ولا تكون لهم عزة، لأنهم على طريق أسلافهم لا يخالفونه فاستحقوا به دوام اللعنة، كما يذوقون العذاب والخزى فى الآخرة لطردهم من رحمته تعالى.

وبعد ذكره تعالى لعنه بنى إسرائيل بما كان منهم من نقض الميثاق وكفران النعمة ذكر تعالى أحد مظاهر اللعنة وأخذ أسبابها بقوله تعالى «وجعلنا قلوبهم قاسية» بمعنى أنها لا تلين للحق لشدتها، وليس معنى أنه تعالى جعل قلوبهم قاسية أنه فرض عليهم هذا رغم إرادتهم، وإنما معناه أنه تعالى لم يحل بينهم وبين ما اختاروا وأصروا عليه وعلمه تعالى فجاءت به مشيئته فيسر لهم ما اختاروا بأن جعلهم أهلا لما اختاروه فهم لا يؤمنون بالآيات ولا يقتنعون بما يقتنع به أصحاب العقول والأفهام، جاء التعبير عنه بقساوة القلوب لبيان عدم استعدادها لأن يدخلها إيمان صحيح .

ثم يذكر تعالى مظهرا من مظاهر قسوة القلوب أو من مظاهر نقض الميثاق بقوله تعالى «يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به» فهم بدلا من الإيمان بما أنزل تعالى إليهم وبدلا من الإيمان بالرسل الذين أمرتهم كتبهم بالإيمان لهم، فإنهم يفترون على الله الكذب فيقومون بتحريف كلامه تعالى فى الكتب بإضافة ما لم يرد منه تعالى فيها، وبحذف بعض ما أنزل تعالى فيها. وبالتعديل والتبديل فى البعض الآخر ليتوصلوا بذلك إلى ما فيه هوى نفوسهم وما فيه تقديم المبرر لعدم إيمانهم بالرسل الذين أمرتهم كتبهم بالإيمان لهم. كما أنهم ـ من جهة ثانية ـ يتناسون ما بقى فى كتبهم ـ من بعد التحريف ـ متضمنا أحكاما لا توافق أهواءهم فلا يعملون بها، أو متضمنا تبشيرا برسول أو نبى ووصفه، ومنه ما بقى فى التوراة من نصوص تبشر برسول الله ﷺ وتصفه، وما بقى فى سائر أسفار العهد القديم على ما سبق بيانه ـ يتناسونه فلا يذكرونه .

وبعد أن أوضح تعالى فعال بنى إسرائيل معه تعالى ومجازاته تعالى إياهم بأفعالهم، فإنه لما كان تعالى له شأنه معهم فيما خالفوا فيه ميثاقهم معه، بقى ما يكون منهم مع رسوله ﷺ

وما يكون منه ﷺ معهم فى المقابل فجاء قوله تعالى «ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم، فاعف عنهم واصفح، إن الله يحب المحسنين»، فأخبر تعالى رسوله ﷺ أنه يجد منهم فعالا خـائنة بمعنى أنها متصفـة بالخيانة، وأنـه لا يسلم من هـذه الخيانة المتأصلـة فيهم إلا قليلون ـ منهم والمراد بهـم الذين آمنوا وأسلموا مثل عبد الله بن سَلَام فـى وقته وكل من يسلم فى كل زمان منهم ـ أو أنه لا يخلص من وصف الخيانة إلا القليل من فعالهم.

وقوله تعالى «فـاعف عنهم واصفح» نرى أنه يتعلق بهؤلاء القليلين الـذين سلمت فعالهم من صفة الخيانة أمر تعـالى رسوله ﷺ أن يعفو عن خطئهم فى حق ذاته ﷺ فـلا يؤاخذهم به وأن يصفح عن إساءاتهم إليه، ليكون فى ذلك ما يغـرى غيرهم بعد خيانة عهودهم ومواثيقهم معه ﷺ، والمشهور أن المراد به أن يعفو عمن يتوب مـن بنى إسرائيل أو عمن يعطى الجزية، أو أن يعفو ﷺ عمن لـم يخنه ولم ينقض عهده معه. وقيـل إن النص نسخ بقوله تعـالى «و إما تخافن من قوم خيانـة فانبذ إليهم على سواء»، وقيل إنه منسوخ بقوله تعـالى «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله». والذى نـراه ـ والله أعلم ـ أنه لا يتصور أن يكون أمره تعالـى بالعفو والصفح عمن يتوب، لأنه لمـا كانت التوبة تجُبُّ مـا قبلها من كفر وما صدر فيـه من خطايا فإنه تعـالى هو الذى يعفـو ويصفح فلا يكـون ثمة ذنب ارتكـب فى السابـق قبل التوبـة بالإسلام قـابلا لأن يعاقب عليـه الرسول ﷺ أو ولى الأمر حتى يـأتى أمره تعالى بالعفـو عنه أو الصفح. ولأن أداء الجزية لا يمنع مـن المسألة عما يقع من دافعهـا من أخطاء تستوجب المعاقبـة فأداء الجزية ليس سببا للعفو عما يرتكب من أخطاء والصفح عن مرتكبها .

ويجىء قولـه تعالى ـ فـى ختام الآية ـ «إن الله يحـب المحسنين» للحث على العفـو عن الأخطاء التـى ترتكب فـى حق المرء والصفح عـن مرتكبها، واعتبـار ذلك من قبيـل الإحسان الذى يثاب به المرء .

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾

التفســـــير:

بعد حديثه تعالى عن نقض بنى إسرائيل ميثاقهم ومؤاخذتهم بذلك جاء ذكره تعالى حال القائلين بأنهم نصارى من الميثاق الذى أخذ عليهم وما كان منه تعالى معهم .

ويلاحظ أنه تعالى قد وصف موضوع نص الآية بأنهم «الذين قالوا إنا نصارى»، فلم يذكر تعالى أنهم النصـارى، لأنه إذا كان معنى «النصارى» هو أنصار الله، أو الـذين اتبعوا المسيح عليه السلام ساكن الناصرة، فإن المذكورين فى النص ليسوا من النصارى على أى معنى من المعنيين، وإنما هم يدعون أنهم نصارى.

ثم إنه تعـالى يذكر أنـه أخذ منهم ميثاقهم، والمـراد بهذا هو الميثاق الـذى أخذه المسيح عيسى ابن مريم على تلاميذه، وأتباعه أن يدعوا بما دعا إليه، ومنه أنه رسول الله ﷺ أرسله الله تعالى، كما جاء بإنجيـل يوحنا الذى بين أيدينا اليوم من قولـه عليه السلام «تعليمى ليس لى بل للذى أرسلنى» وقوله عليه السلام الذى يؤمن بـى ليس يؤمن بى بل بالذى أرسلنى»، وقوله عليه السلام لليهود «كيـف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجدا بعضكـم من بعض، والمجد الذى مـن الإله الواحـد لستم تطلبونـه». ومنه أيضـا تبشيره برسـول الله ﷺ وطلبه من أتبـاعه الإيمان بـه متى جاء على مـا جاء بقوله عليـه السلام الذى لايزال مـوجودا فى إنجيل يـوحنا الذى بيـن أيدينا اليـوم «إن كنتم تحبوننى فـاحفظوا وصايـاى وأنا أطلب مـن الآب فيعطيكم معزيا آخـر ليمكث معكم إلى الأبـد»، وقوله «بهذا كلمتكـم وأنا عندكم، وأمـا المعزى الروح القدس فهو يعلمكم كل شىء ويذكركم بماقلتـه لكم»، وقوله «إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لايأتيكم المعزى». بمعنى أنه عليه السلام أخبر أنه يجب أن ينطلق من الأرض إلى السماء ليـأتى الرسـول المبشر بـه مـن بعده الذى يشهـد بأنه كـان نبيا مرسـلا ويذكر بقـواعد التوحيد التى نادى بها عليه السلام وأن دينه يبقى إلى أبد الدهر، ويشمل كل شىء من عقيدة وشريعة .

ولما كان مفاد طلـب المسيح عيسى ابن مريم مـن أتباعه أن يعملوا على نشر دعـوته بأمر ربه، ومعاهدتهم إياه عليه السلام هو الميثاق المأخوذ عليهم، فإنه يكون فى تأليههم المسيح عليه السـلام أو القول ببنوته لله تعـالى، وفى القول بعقيـدة التثليث نقض لهذا الميثـاق، كما يكون فى إنكار نبوة رسول الله ﷺ وعدم الإيمان لـه نقض لهذا الميثاق، وتناس لقسم كبير مما أخذ عليهم مـن العهد وما ذكره لهم المسيح عليـه السلام ولا تزال تذكرهم بـه بعض نصوص

الإنجيل الذى بين أيـديهم، أما عقابهم بفعلهم فقد اشتمـل عليه قوله تعالى «فـأغرينا بينهم العداوة والبغضـاء إلى يـوم القيامـة وسوف ينبئهم الله بمـا كانـوا يصنعون» والمستفـاد منه أن عقابهم يكون فى الدنيا كما يكون فى الآخرة، والـذى يكون فى الدنيا هو وقوع التباغض بينهم والعداوة، ومظـاهر العداوة والبغضـاء ظهرت منذ أن خـرجوا عما عـاهدوا عليه المسيـح عليه السلام، ومنذ قالوا بألوهيته فى مؤتمر بنقية سنة ٣٢٥ للميلاد، فقد قتل الرومان الكاثوليك فى مصر الأقباط الأرثوذكس وعذبوهم فوق الطاقة، وهؤلاء وهؤلاء يقولون إنهم نصارى، وحاربت ألمانيا قوات الحلفاء وحصل بين الفريقين حرب قتل فيها خلق كثير، وكل من الفريقين يقول إنه من النصارى، وإلى اليوم يستعر الاقتتال بين البروتستـانت والكاثوليك فى أيرلندا وكل من المقتتلين يقول إنه من النصارى، وذلك فضلا عن التباغض القائم بين طوائفهم إلى اليوم.

أما عذابهم فى الآخرة فـإنه مع شدته سيكون مصحوبا بإنبائهم بـأعمالهم التى نقضوا بها الميثاق والتى استوجبت تعذيبهم لإعلامهم أنهم كـانوا يعلمون مخالفتهم ما عاهدوا الله عليه ولتعذيب نفوسهم مع تعذيب أبدانهم .

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾

التفسـير:

قوله تعالى ــ فى الآية ــ خطاب إلى أهل الكتاب جميعا مـن اليهود والنصارى من بعد أن بين لكل طائفة منهما ما كان منها من نقض الميثـاق الذى أعطته، جاء فيه ذكرهم بأنهم أهل الكتـاب من قبيـل التهكم عليهـم لأن أهل الشـىء هـم الأولى أن يحفظـوه ولا يضيعوه كمـا فعلـوا .

وقوله تعـالى «قد جاءكم رسـولنا يبين لكم كثيـرا مما كنتم تخفون من الكتـاب ويعفو عن كثير» تضمـن عدة معان منها إقـراره تعالى بأن محمـدا ﷺ رسول منه تعـالى، وأنه تعالـى قد شرفه بنسبته إلى ذاتـه العليا، ومنه التقرير بأن أهل الكتاب يخفون أشيـاء من كتبهم يعلمونها ويخفونهـا قاصدين منهـا ما تعلق بـالتبشير برسـول الله ﷺ، ومنها بعض الأحكام مثـل حكم الرجم فـى الزنا الذى سألـوا عنه، ومنها أن الذى أخفـوه هو من الكثير بحيث أن مـا يبينه لهم

رسول الله ﷺ منه يوصف بأنه كثير، وأنه ﷺ لا يبين لهم جميع ما أخفوه من التوراة والإنجيل، وإنما يبين لهم أكثره، ويدع الباقى مما لم تدع حاجة إلى بيانه.

ويجىء قوله تعالى «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين» مقيدا مع قوله من قبل «قد جاءكم رسولنا» أنه ﷺ قد بعث للناس كافة وليس للعرب وحدهم بدلالة أنه قد جاء إلى أهل الكتاب من بين من جاء إليهم، وصفه تعالى بأنه نور لأنه يهدى إلى الحق. ثم ذكر تعالى القرآن العظيم الذى أنزل على رسوله ﷺ ووصفه بأنه مبين لأنه يبين طريق الهدى ليسلكه المهتدون، ويبين ما يستوجب غضبه تعالى فيتجنبه المتقون.

يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

التفسير:

بعد أن ذكر تعالى أنه قد بعث رسوله إلى الناس جميعا بمن فيهم أهل الكتاب وأنه أنزل عليه القرآن يبين طريق الهدى، فإنه تعالى أشار إلى رسوله الكريم وإلى القرآن العظيم بضمير الغائب المفرد «به» فى إشارة إلى أنه ﷺ لا يتكلم – كنبى – إلا بما يوحى إليه، وأنه هاد إلى الحق كما أن القرآن هاد إليه، فإنه ﷺ والقرآن واحد، به أو بهما يهدى الله من علم أنه يختار الهدى إلى الإيمان طريقا ينال به رضاه، وفى رضاه تعالى السلامة مما يكون منه أذى، وأشد الأذى عذابه تعالى الذى ينال من لا يتبعون رسوله ﷺ وقرآنه تعالى. وبرسوله ﷺ وبقرآنه تعالى يخرج الذين علم تعالى أنهم يختارون الهدى من ظلمات الكفر وجهالات الضلال إلى نور الإيمان بإذنه تعالى وتوفيقه ويهديهم إلى الإسلام طريق الله المستقيم الموصل إلى جنته.

لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

التفســــير:

قوله تعالـى ـ فى الآية ـ فى شـأن فئة من النصارى تقول «إن الله هو المسيـح ابن مريم» ، وهم اليعقـوبية قـالوا «إن الكلمـة انقلبت لحما ودمـا فصار الإلـه هو المسيـح، وهو الظـاهر بجسده، بل هو هو». ومنهـم من قال ظهرناسوت المسيح مظهر الجوهـر، لا على طريق حلول جزء فيه ولا علـى سبيل اتحاد الكلمة التى هى فـى حكم الصفة، بل صار هو هـو. وقد سبقت الإشارة إلى قرار مجمع بنقية الـذى صدر فيه قرار تأليه المسيح. فقوله تعالـى «لقد كفر الذين قالـوا إن الله هو المسيح ابـن مريم» يثبـت ـ فى مقـام أول ـ كذب القـائلين بهذا وضـلالهم، ويثبت ـ فى مقام ثان ـ أنهم بقولهم هذا قـد كفروا، بمعنى أن الذين قالوا بهذا قبل بعثة رسول الله ﷺ قد كفروا بما قـالوا بعد أن كانوا مؤمنيـن، وأن القائلين به من بعد بعثـه ﷺ قد استمروا على كفرهم بإصرارهم على هذا القول مع كفرهم بعدم إيمانهم برسول الله ﷺ.

وقوله تعالى «قل فمن يملك من الله شيئـا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا» هـو رد على قائلى القـول المنكر جاء بـه أمره تعالـى إلى رسوله ﷺ أن يقـوله للقائلين بألوهية المسيح، جاء مضمونه فـى صيغة استفهام يفيد معنى الإنكار والتوبيخ معناه أنه ليس من أحد ولا مـن قوة يستطيع أو تستطيع الحيلولة دون إهلاك المسيح ابـن مريم وأمه بالموت إن كان تعالى قد أراد هذا، شأنهما فى هذا شأن ما فى الأرض من مخلوقات .

ويستفاد من هـذا القول عدة معان: أولها هو عـدم ألوهية المسيح ابن مريـم عليه السلام، لأنه لـو كان إلها لمـا كان لغيـره قدرة عليه، وثـانيها التقريـر بالطبيعـة البشرية للمسيـح عليه السلام ولد مـن امرأة شأن جميع النـاس من بنى آدم، وثالثهـا هو تقرير المسـاواة بين المسيح وبين جميع خلقه تعالـى الموجودين على الأرض فى عبوديتهم لله وفى خضـوعهم له تعالى. وفى القول بيان لجهل القائلين بألوهية المسيح عليه السلام.

ويجىء قولـه تعالى «ولله ملك السموات والأرض ومـا بينهما يخلق ما يشـاء» ليثبت عدة أمور، منها ملكه تعالى السماوات والأرض ومن فيهن وما فيهن وإحكام سيطرته تعالى عليهم وخضوعهم لمشيئته، ومنهـا وجود مخلوقات بين السماء والأرض، قد يكـون منها الكويكبات التى تدور فى الفضاء، والمـذنبات، وقد يكون منها بعض أنواع الحياة، إذ ثبـت من فحص ما

سقط على الأرض من صخور فـى نيازك أن بها بعض صور الحياة الجرثوميـة، وهى من خلقه تعالى الـذى يتحقق العلم به مع تطور العلـوم والاكتشافات، و إثبات ذلك وسيلة للعلـم بأنه وحده الإله الخالق مما لايصح معه الزعم بألوهية غيره تعالى.

واختتام الآية بقـوله تعالى «والله على كـل شىء قدير» جـاء تذيلايثبت قدرتـه على إهلاك المسيح ابن مـريم وأمه ومن فـى الأرض جميعا إذا أراد هذا، وقدرتـه على خلق ما يشـاء فى السماء والأرض وفـى غير السمـاء والأرض مما يعلم الخلـق ومما لا يعلمـون، وبحكم كـونه الخالق فإنه يكون المتصرف فى خلقه بما شاء وكيفما شاء.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ ذكر لقول قالته اليهود والنصارى هو أنهم أبناء الله وأحباؤه، أريد به أنه تعالى لا يعذبهم، ورد على هذا القول بما يثبت خطـأه جاء فى صورة قول أمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول للطـائفتين ليثبت لهم خطـل زعمهم، وتذييل يتضمـن أيلولة جميع الخلـق إليه ليحكم فيهم أمره بما يشاء.

فقوله تعالى «قـالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه» يتضمن التقـرير بصدور هذا القول عن كل طائفة من الطائفتين.

فقد قالـت اليهود أنهم أبناء الله استنادا إلى مـا جاء فى الإصحاح الرابع مـن سفر الخروج فى التوراة التى بين أيديهم من أنه تعالى قال لموسى عليه السلام «فتقول لفرعون هكذا يقول الرب، إسرائيل ابنى البكـر، فقلت لك أطلق ابنى ليعبدنى فأبيت أن تطلقـه»، وكان قولهم أنه لما كان أبوهم يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ هو ابـن الله، فإنهم يكونون أبناءه تعالى وأحباءه، وقالوا بهذا استنادا أيضا لما جاء فـى مزامير داود، فى العهد القديم ـ من قولـه تعالى ـ فى شأن داود

عليه السـلام ـ «وأجعل علـى البحر يده وعلـى الأنهار يمينـه، وهو يدعـونى أبى أنـت، إلٰهى وصخرة خلاصى، وأنا أيضا أجعله بكرا أعلى من ملوك الأرض».

كذلـك قالـت النصارى أنهـم أبناء الله وأحبـاؤه استنادا إلـى ما جـاء فى الأنـاجيل التـى يمسكون بها ومنهـا ما جاء فى إنجيـل يوحنا من قـول منسوب إلى المسيح عليـه السلام هو «خرافـى تسمع صوتى وأنـا أعرفها فتتبعنى وأنـا أعطيها حياة أبـدية ولن تهلك إلـى الأبد ولا يخطفها أحد من يدى، أبى الذى أعطانى إيـاها هو الأعظم من الكل ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبـى». ومنها أيضا ما جـاء فى ذات الإنجيل من أنـه عندما سأل «فيلبـس» التلميذ أن يريه الله تعالى قال له المسيح «الذى رآنى فقد رأى الأب».

ولما كـان الواضـح أن تعبير «ابـن الله» الوارد فى التـوراة وفى العهـد القديـم عمومـا وفى الإنجيل أريد به التعبير عن الصلاح والتقوى فى نفس الموصوف به أو المسمى، فيكون المراد بابن الله أنه من يطيع الله ولا يعصى له أمرا، وكان قولـه تعالى قد سبق بأنه يحب المتقين، فإنه يكون محققا أن ليس مفاد النصوص التى إحتج بها اليهود والنصارى أنهم أبناء الله أو أحباؤه، لأنه تعالى إنما يحب ـ بمعنى أنه يرضى عن ـ المتقين من المؤمنين؛ ولذلك جاء قوله تعالى «قل فلمَ يعذبكم بذنوبكم،، بل أنتم بشر ممن خلق، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء»، فأفاد أنه تعـالى أنهـم يقرون بأنهـم يعذبـون بأفعالهـم يوم القيـامة بما يعنـى علمهم بعـدم صدق زعمهم، وأنه تعالى يعذبهم يوم القيامة بما اقتـرفوا من الذنوب والآثام فلا يفضلهم على أحد من العالمين، مما لا يتصور معه أن يكونوا كما زعموا أبناء الله وأحباءه .

ثم إنه تعـالى يقرر أنهم ليسوا سـوى بشر من جنس مـا خلق من البشر، وأنه تعـالى وحده المتصرف فى أمورهم فتكون منه المغفرة لمن شاء أن يغفر له ذنوبه ـ فيما عدا الشرك به تعالى بالنص الخاص ـ ويكون منه تعذيب من لم يغفر له بما كان منه من سيىء العمل ..

وتختتم الآيـة بقوله تعالـى «ولله ملك السموات والأرض ومـا بينهما وإليه المصير» إثبـاتا لتساوى جميـع من فى السماوات وفـى الأرض وما بينهما فـى العبودية لله والخضوع لـه، فهو وحده المتصرف فـى جميع خلقه فى الـدنيا، والذى يؤول إليـه مصيرهم فى الآخـرة فيجازى المكلفين من الخلق بما كان منهم ، مع المغفرة لمن شاء بواسع رحمته .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

أولا: الأســــماء :

الفترة : من الفتور بمعنى السكون، الأصل فيها الانقطاع عن العمل، والمراد بها ـ فى معنى الآية ـ انقطاع ما بين النبيين.

ثانيا : التفســــير:

الخطاب فى الآية موجه إلى أهل الكتاب بيانا لوجوب إيمانهم برسول الله ﷺ ومحاسبتهم بعدم إيمانهم به. وتوجيه الخطاب إلى أهل الكتاب أظهره قوله تعالى «يا أهل الكتاب»، ومضمون ما خوطبوا به تضمن ـ فى مقام أول ـ الإقرار منه تعالى باصطفائه تعالى محمدا ﷺ رسولا منه، شرفه تعالى بنسبته إليه تعالى على ما جاء بقوله تعالى «قد جاءكم رسولنا»، وتضمن ـ فى مقام ثان ـ الإعلام بأنه تعالى قد بعثه للعالمين وليس لقومه فقط كسائر الأنبياء والمرسلين بدلالة النص على أنه جاء لأهل الكتاب من بين من جاء إليهم بالدين.

ثم إنه تعالى أوجز مهمته ﷺ مع أهل الكتاب بقوله تعالى «يبين لكم» ، فقوله ﷺ بيان، يبين دين الله الحق ليتبعوه، ويبين لهم ما أخفوه من الكتاب، ويبين لهم أنه النبى المبشر به فى كتبهم ، ويبين لهم أحكام الشريعة .

وبين تعالى أن مجيئه ﷺ ليبين ما كلف بيانه إنما كان بعد فترة انقطع فيها الوحى عن أنبياء يبعثهم تعالى للعباد أو لأهل الكتاب يبينون لهم ما هم فى حاجة إلى بيانه، والمشهور أن هذه الفترة هى التى كانت بين بعثه ﷺ وبين عيسى عليه السلام، وقيل إنه كان فى هذه الفترة أنبياء اختلف فى عددهم وإن أحدهم كان من العرب هو خالد بن سنان من بنى عبس، وهذا مما لا دليل عليه وينفيه ما ورى عنه ﷺ من قوله «لا نبى بينى وبين عيسى».

ثم بين تعـالى أن بعثه محمدا ﷺ للناس كـافة ودعوته إيـاهم للإيمان من شـأنه أن يقطع عليهم الاعتذار عن عدم الإيمان وعن عدم معرفة وجـه الحق وتمييزه عن الباطل فى عيقدتهم وما يتبعون من أحكام، وذلـك لأنه ﷺ قد بين لهم وجه الحق ليتبعوه ، وبشـر من سمع وأطاع بحسن الثواب، كما بين الفاسد من العقيدة وأنذر من بقى على ذلك ومن نأى عن وجه الحق بسوء المصيـر. والمعنى هو تكليـف أهل الكتاب بـالإيمان لرسـول الله ﷺ، ومؤاخذة مـن لم يؤمن له بالعقاب لا يحول دون إيقاعه به وجه للاعتذار بعد مجيء رسول الله ﷺ .

وقوله تعالـى ـ فى ختام الآية ـ «والله على كل شـيء قدير» مفاده أنه كان من قـدرته تعالى إرسال الـرسل، وأنـه بقدرتـه هذه أرسـل رسوله ﷺ للعـالمين ليقطـع على الكـافريـن سبيل الاعتذار عن كفرهم .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٠﴾

التفسـيـر:

قوله تعالـى ـ فى الآية ـ استئناف للحديـث فى شأن أعمال بنى إسرائيـل التى نقضوا بها الميثاق المأخوذ عليهم والتـى تضمنت جحد ما أنعم الله به عليهم من النعـم، جاء الحديث عنهم إلى رسول الله ﷺ بشأنهـم لبيان عدم جدارتهم أن يخاطبوا ـ فـى شأن موضوع النص ـ به. ومضمون قوله تعالى أن موسى عليه السلام ـ لما رأى منهم عدم طاعة الله تعالى فيه ـ قال لهم «يـا قوم اذكروا نعمة الله عليكـم إذ جعل فيكم أنبيـاء وجعلكم ملوكـا وآتاكم ما لـم يؤت أحدا من العالمين». والمستفاد من القول أن موسى عليـه السلام طلب من بنى إسرائيل تذكر ما أنعم الله تعالى بـه عليهم لما كان من فعالهم من عدم الإحسان إليـه تعالى وعدم أداء حق النعمة مـن الشكر. وقد جاء التعبيـر عن النعم ـــ فى مبتدأ الأمـر ـ بالمفرد «نعمـة الله» ونسبت النعمة له تعـالى لأن النعمة الواحـدة هي جملة نعم، فعلـى سبيل المثال كانـت نعمة إنزال المن والسلوى عليهـم فى سيناء متضمنة نعمة وجـود الطعام، وتوافر نعمة التـذوق والتلذذ به لدى طاعميهـا، ونعمة الصحة التى دعت إلى الـرغبة فى الأكل، ونعمة السلامـة التى مكنت

من هضم الطعام وإخراج فضلاته. وقد تعددت نعمه تعالى عليهم، ومنها نجاتهم من فرعون وقومه ومنهـا شق البحر لهم ليعبروا ، ومنهـا تظليل الغمام عليهم، ومنها إنـزال المن والسلوى عليهم، وتفجير الأرض لهم عيونا بعدد أسباطهم.

ومن النعم التي ذكربها موسى بني إسرائيـل أنه تعالى جعل فيهم أنبياء، فمعلوم أن أغلب الأنبياء كانوا مـن بني إسرائيل، فمن نسل يعقـوب أو إسرائيل جاء يوسف ثـم موسى وهارون، ثم يـوشع بـن نون وكثيـرون منهم أشعيـاء وأرميا وحـزقيال ودانيـال وزكريـا وملاخـي ويحيى والمسيح عيسـى ابن مريـم وغيرهـم، وهذا فضل مـن الله تفضل به ونعمـة أنعمها علـي بني إسرائيل، كما أنه تعالى جعل منهم الملـوك مثل شاول أوطالوت، ومثل داود وسليمان عليهما السلام إذ آتاهما الله النبوة والملك، ومثل حزقيا بن آحاز، ومنسى بن حزقيا، أو أنه تعالى جعل بني إسـرائيل فى حكم الملـوك بتمليكهم الأموال وقـدرتهم به علـى الأتباع. كما أنه تعـالى آتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين، وأول ما يتبـادر إلى الذهن فى هذا الخصوص هو ما آتاه الله سليمان عليه السلام من ملك لم يؤته تعالـى أحدا من بعده، كما أن منه ما آتاهم الله قبل هذا فـى زمن موسـى عليه السلام مما سبـق ذكره من المعجـزات. وهذا لا يعني أنهـم فضلوا على أمة رسول الله ﷺ، وذلـك لسببين: حاصل أولهما أن ذلك كان قول مـوسى عليه السلام لبني إسرائيـل، فكان متعلقا بما آتـاه الله بني إسرائيل ولـم يؤته غيرهـم فى هذا الزمـان أو إلى غايتـه، وثانيهما أن تفضيلهم بـأشياء لا يمنع مـن تفضيل غيرهـم عليهم فى أشياء أخـرى قد تكون ــ بذاتها ـ أغلـى قيمة مما فضلوا بـه وفيه. ولقد فضـل الله أمة محمد ﷺ بتمام الـدين وبكونهم على غيرهم من الأمم شاهدين فى يوم الدين .

يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾

أولا : الأســـماء :

الأرض المقدسة : المراد بها ــ فى معنى الآية ـ فلسطيـن، قدر تعالى أنه يكـون فيها بيت المقدس، ويكـون فيها المسجد الأقصى، ويكـون منها أنبياء عديـدون يقدسون ذاته تعـالى ويدعون إليه.

ثانيا التفسـيـر:

جملة الآية من خطاب موسى عليه السلام بنى إسـرائيل من بعد تذكيرهـم ما أنعم الله به عليهم ليستحثهم على طاعته فيما أمر به، والمأمـور به هو دخول فلسطين، أوضح موسى عليه السلام أن الله تعـالى قدر عليهـم أن يدخلوها وقتـذاك ليعيشوا فيها ويسكنـوها، ثم إنـه عليه السلام نهاهم عن الارتداد عن دخولها خوفا مـن ساكينها، وأنذرهم أنهم إن يفعلوا هذا فإنهم يخسرون دنياهم بافتقاد المأوى ويخسرون آخرتهم بتعذيبهم بعيصيانهم أمره تعالى.

قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾

أولا : الأســـماء :

الجبارون : فى قـوله تعـالى «إن فيها قـوما جبـارين» جمع، مفـرده «جبار» وهـو المتعظم الممتنع من الضعف والذل، وهو العاتى الذى يقدر على إجبار الناس على فعل ما يريد .

ثانيا : التفســير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ ذكر لما أجاب بـه بنو إسرائيل على موسى عليه السلام أمره لهم أن يدخلوا فلسطين، وقولهـم لموسى تضمن ذكر سبب امتناعهم عن تنفيـذ أمره عليه السلام فى مبتدأ القول توطئة لـذكر امتناعهم عن تنفيذه، فقد بدأوا بقولهـم إن الأرض بها قوم أقوياء ذوو منعة يخشى بأسهم، ثـم أعقبوا ذلك بتصريحهم أنهم لن يدخلوهـا مقاتلين أهل الأرض، ثم أتبعوا ذلـك بقولهم إنهم سيـدخلون الأرض إذا خرج منها أهلهـا بغير أن يقاتلوهـم، والمعنى أنهم ـ فـى جميع الأحوال ـ عـازفون عن بذل النفـس فى سبيل الأرض، وأنهم يخشـون قتال أعدائهم.

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

أولا : الأســــماء والأعلام:

رجلان من الذين يخافون : الرجلان هما كالب بن يفنة ويوشع بن نون، كانا من بين النقباء الذين بعث بهم موسى لاستطلاع الأرض ومعرفة أحوال ساكنيها، حاولا رد الجبناء عن جبنهم وحثهم على طاعة الله .

ثانيا التفســــير:

قوله تعالى - في الآية - ذكر لقصة موسى مع بني إسرائيل فيما تعلق بأمره إياهم دخولهم فلسطين ورفضهم إطاعته، ذكر تعالى أن رجلين منهما يخافانه تعالى، أو أنهما يخافان سكان الأرض إلا أن خوفهما لم يمنعهما من قول الحق، وأنه تعالى أنعم عليهما بنعمة الإيمان والطاعة، ذكر تعالى أن هذين الرجلين قالا لبنى إسرائيل ناصحين بما يكون عليه فعلهم الذى يغلبون به أهل الأرض «ادخلوا عليهم الباب»؛ وقيل فى معناه أنه دخول باب المدينة فجأة على أهلها فلا يكون لأهل المدينة وقت للاستعداد فيه للقتال - والذى نراه - والله أعلم - أنه قد يكون دخول باب المدينة عن طريق بيت المرأة العاهرة التى اتفق معها أن تقوم بإدخال الرجال إلى باب المدينة من منزلها الواقع فى سور المدينة مقابل ما أخذت من المال. ثم إنه كان من هذين الرجلين أنهما طمأنا بنى إسرائيل بأنهم إن فعلوا ما نصحاهم به فإنهم يغلبون أهل المدينة بغير قتال. ثم إنه كان منهما بعد ذلك تحفيز بنى إسرائيل على طاعتهم بأمرهم بالتوكل عليه إن كانوا صادقين فى زعمهم أنهم به تعالى يؤمنون .

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾

التفســـير:

قوله تعالى فى الآية ذكر لما كان من بنى إسرائيل بعد أن نصحهم الرجلان اللذان أنعم الله عليهما أن يفاجئوا أهل المدينة بدخول بابها ليغلبوهم ويستولوا عليها. فبين تعالى أن بنى إسرائيل لم يوجهوا حديثهم إلى الرجلين وإنما وجهاه إلى موسى عليه السلام بصفته صاحب الأمر، فأكدوا له أنهم لن يدخلوا الأرض أبدا ما بقى فيها أهلها لم يخرجهم الله منها أو يخرجوا منها لسبب من الأسباب، ثم أتبعوا ذلك بإظهار استخفافهم به عليه السلام وبربه

إذ قالوا له «فاذهب أنت وربك فقاتلا» ، مؤكدين إصرارهم على تجنب ملاقاة أهل المدينة فى قتال. أو على القيام بعمل يحتمل معه وقوع الاقتتال، وذلك بقولهم «إنا هاهنا قاعدون» ، فأكدوا أنهم ملازمو أماكنهم لا يبرحونها فى إصرار على عدم تنفيذ الأمر.

قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾

التفسـير :

قوله تعالى ـ فى الآية ـ تعريف بما كان من موسى عليه السلام عندما سمع من بنى إسرائيل ردهم على دعوته إياهم دخول الأرض، فيبين من نص الآية أنه عليه السلام توجه إلى ربه ـ مسترحما شاكيا إليه عصيان بنى إسرائيل وعنادهم ـ فقال له إنه لا يملك فى أمر طاعته تعالى إلا نفسه وأنه يثق فى طاعة أخيه لله فشأنه شأنه فى الطاعة ـ على ما يبين من عطف «أخى» على «نفسى»؛ وأخوه المقصود هو هارون عليه السلام. ثم إنه عليه السلام سأله تعالى أن يجعل فرقة بينه وأخيه هارون ـ من جهة ـ وبين بنى إسرائيل ـ من جهة ثانية ـ وصفهم بأنهم فاسقون بمعنى أنهم عاصون، خارجون على طاعته. ويشمل السؤال أو الدعاء التفرقة فى الآخرة فلا يجعل مصيره وأخيه مصير هؤلاء الفاسقين .

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

التفسـير :

قوله تعالى فى الآية يفيد ما كان منه تعالى مع موسى عليه السلام بعد أن شكا ربه فعل بنى إسرائيل معه ودعاه تعالى أن يفرق بينه وبينهم. فقال له تعالى ما قضى به حكمه وهو تحريم هذه الأرض على بنى إسرائيل أو على من قالوا إنهم لن يدخلوها تحريما مؤقتا مدته أربعون سنة يقضونها تائهين فى البرية، وهو ما كان إذ تاه بنو إسرائيل فى برية سيناء أربعين

سنة، كما تحققت التفرقة فى الحياة الدنيا بين موسى وأخيه من جهة وبين بنى إسرائيل من جهة ثانية وذلك بموت هارون، ثم موت موسى فى سيناء، ودخول يوشع بن نون بذريات ما قالوا القول أرض فلسطين .

وقوله تعالى «فلا تأس على القوم الفاسقين» كان موجها إلى موسى عليه السلام لما رأى إجابته تعالى دعاءه الذى به دعا ربه بتقديره تعالى التيه على بنى إسرائيل أربعين سنة فأحزنه ذلك، فأمره تعالى ألا يحزن على ما أصابهم من التيه، أو مما قضى عليهم من الموت وعدم دخول فلسطين بالنسبة لجيل القائلين بعدم الدخول، وصفهم تعالى بالفاسقين لبيان استحقاقهم ما قضى به تعالى عليهم ولبيان انعدام سبب الحزن عليهم لما قضى به تعالى .

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ٢٧﴾

أولا : الأســـماء والأعلام :

ابنـــا آدم: في قوله تعالى «واتل عليهم نبأ ابنى آدم»، هما قابيل وهابيل، واسم «قابيل» فى التوراة التى بين أيدينا اليوم هو «قايين» ، وقد كان قابيل زارعا وكان هابيل راعى غنم، وحدث أن قابيل قدم من ثمار الأرض قربانا لله وقدم هابيل قربانا من أبكار غنمه وسمانها فتقبل الله قربان هابيل وأظهر علامة بذلك ولم يتقبل قربان قابيل فاغتاظ لذلك قابيل وقتل هابيل. ويقال إن قابيل أو «قايين» هرب بعد ذلك بزوجه من وجه آدم عليه السلام إلى بقعة بعيدة من الأرض هى المعروفة باسم «الصين» وأن اسمها تحريف من «قايين».

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ «واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق» هو أمر موجه إليه ﷺ أن يتلو على بنى إسرائيل قصة ابنى آدم قابيل وهابيل بما عرف من شأنهما من ربه وهو الحق، وليس بما يقولونه بشأنهما. وقد جاء قوله تعالى هذا توطئة لبيان ما قضى به تعالى من أحكام على بنى إسرائيل فى شأن جناياتهم لارتباطها بمضمون قصة ابنى آدم ولبيان موقفهم من إطاعته تعالى فى أحكامه أو عصيانه فيها.

ومضمون قوله تعالى أن يتلو رسول الله ﷺ قصة ابنى آدم على بنى إســرائيل، ومضمونها ـ المذكور فى الآية ـ هو أن كلا منهما قدم إلى ربه قربانا يتقرب به إليه، ولما كان تعالى لا

يتقبل إلا ما كـان طيبا وما قدم بنيـة طيبة، فإنه تعالـى قبل قربان أحدهمـا ـ وهو هابيـل ـ ولم يتقبل قربان الآخر ـ وهو قابيل. ويبين عدم سلام نية من لم يتقبل قربانه منهما من اهتياج قلبه على أخيه عندما رأى أن الله تعـالى آثره عليه بقبول القربان فقال لـه مهددا متوعدا «لأقتلنك» ويبين من النـون فى اللفظ ـ وهى نون القسـم ـ أنه أقسم على هذا، بمعنى أنه أراد المعصية وصمم عليها وأقسم أن يأتيها .

كذلك يبين من رد من تقبل قربانه على تهديد أخيه إياه بقوله «إنما يتقبل الله من المتقين» أنه قابل تهـديد أخيه إياه بنصحه أن يتقى الله بأن يخلـص له النية فيما يأتى مـن عمل يراد به رضاه تعالى، فكأن القول يبين بطريق الإشارة علة قبول القربان ممن تقبل منه وعدم قبوله من الآخر.

وليس فى عبـارة الآية ما يشير إلى القصة المـروية عن سبب الاختلاف بيـن الشقيقين من رغبة هابيـل الزواج من توأم قـابيل واسمها «إقليما» إنفـاذا لرغبة آدم عليه السـلام، وأن يتزوج قابيل من توأمه إنفـاذا لذات الرغبة، وأنه ساء قابيل هذا لرغبته فـى الزواج من توأمه، ولا إشارة لما قيل من أن سبب قتل قابيل أخاه هو الرغبة فى الزواج من هذه الأخت .

لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ذكر لباقى حديث هـابيل مع أخيه قابيل عندما هدده بالقتل ، فيذكر تعالى أن هابيل قال «لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك»، جاء فيه التعبير عن الفعل الذى يؤدى إلى القتل ببسط اليـد، بمعنى مدها بالإيذاء أو بالفعل المؤذى، لأنه يغلـب أن يكون الفعل فعل اليـد، أو لأنه أريد التعبير بهـا عن أى جزء من أى عضـو من أجزاء الجسد وأعضائه، وجاء التعبير عن توافـر قصد إزهاق الروح أو نية القتل بلفظ «لتقتلنى» لبيان أن سبب الفعـل هو توافر نيـة القتل مما يكون معـه الفعل وسيلة إحداث القتـل. فيكون معنى قول هابيل هـو «إنك إذا قمت بفعل قصد قتلى فإنى لن أقـوم بفعل قصد قتلك»، وقيل إن ذلك إنما كـان لأنه كان محرما على المعتـدى عليه رد اعتداء المؤمن عليه، وأنـه لما كان قابيل مؤمنا فإن هابيل امتنع عن دفع اعتدائه عليه .

والذى نراه ـــ والله أعلم ـ أن تشريع الدفـاع عن النفس هو تشريع بمـا يوائم الفطرة لأن الله

تعالى خلق فى جنس الحيوان عموما غريزة حب البقاء، ومن مظاهرها الدفاع عن النفس، وهو تعالى لم يشرع ما يخالف الفطرة؛ ولذلك فإننا نرى أن المعنى الذى انطوى عليه قول هابيل هو أنه لن يبدأ بالاعتداء، أو أنه إذا اعتدى عليه فإنه لن يستهدف بفعله فى رد الاعتداء قتل أخيه، وإنما سيكتفى بما يوقف اعتداءه فقط. والمشهور أن قابيل قد باغت أخاه فقتله دون أن يتمكن هابيل من التنبيه إلى الاعتداء ورده، وقيل إنه كان نائما فقام قابيل وضرب رأسه بحجر فقتله.

وقول هابيل «إنى أخاف الله رب العالمين» مفاده أن خشيته الله تعالى تمنعه من أن يقتل أخاه بعد معرفته أنه سيعمل على قتله وحلفه على ذلك، حتى لا يؤاخذ بفعله، لأنه لم يكن قد صدر ـ بعد ـ عن قابيل الفعل الذى يؤدى إلى القتل مما يكون له معه حق الدفاع عن نفسه، أو خشيته الله تعالى أن يتجاوز فى فعله حدود إيقاف اعتداء أخيه وتعديه إلى قتله، فيؤاخذ بهذا. ونستبعد أن يكون المراد بهذا أنه خشى عذاب الله على دفعه الاعتداء الظالم على حياته.

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾

التفســـــير:

القول تتمة قول هابيل لقابيل، ومعناه فيما نرى ـ والله أعلم ـ يقبل أن يكون المراد بإثم هابيل الذى يتحمله قابيل هو إثم رد الاعتداء الذى رفع عنه لكونه مدافعا، يتحمله المعتدى لكونه السبب فى حصوله مع تحمله إثم اعتدائه، ويقبل أن يكون المراد بإثم هابيل هو إثم قتله أو إثم الاعتداء عليه يؤاخذ به قابيل مع آثامه التى ارتكبها من قبل.

ومعنى قول هابيل إنه يريد أن يكون قابيل من أصحاب النار جاء مقرونا بسبب ذلك وهو كونه من الظالمين فيكون المعنى هو توقف دخول قابيل النار على قتله أخيه لأن المؤمن لا يقتل مؤمنا عمدا إلا وهو كافر، والظلم والكفر صنوان، فيكون المعنى أن هابيل يريد لقابيل أن يدخل النار بإثم قتله وبآثامه التى ارتكب من قبل، أو بآثام هابيل التى يتحملها قابيل مع آثامه أداء لحق هابيل الذى اعتدى عليه، مع صيرورته كافرا بقتله. ويكون دخول قابيل النار تطبيقا لما شرعه الله من جزاء للظالمين فى الآخرة.

فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآيـة ـ ذكر لما كان من قابيل من بعد سماعه قـول هابيل له، والذى علم منه أن هـابيل لن يقـدم على قتله، وأنـه قد يتردد فـى الدفاع عـن نفسه خشية أن يتجـاوز حد إيقاف اعتـداته عليه فيحـاسبه الله به، فكـان أن طوعـت له نفسه، أن يقتـل أخاه بمعنـى أنها سهلت له القيام به مـن بعد تردد فى الإقدام عليه رغم الحلف على القيام بـه فكان من قابيل أن قام إلى أخيه وقتله، والمروى ـ على ما سبق قولـه ـ أن هابيل كان نائما فضرب قابيل رأسه بحجر فقتله.

وقوله تعالـى «فأصبح من الخاسرين» مفـاده أن قابيل خسر دنياه وآخرتـه بهذا الفعل وهو قتله أخاه، وخسارتـه الدنيا تتمثل فى فزاره مـن وجه أبيه وخسارته الآخرة هـى خسارته الجنة ومصاحبته النار، وقيـل فى خسارته الدنيا أنها مشاطـرته كل قاتل فى الدنيا إثـم جريمته لأنه أول من قتل باعتباره قد سن سنة سيئة فيكون عليه وزرها ووزر من يعمل بها إلى يوم الدين.

فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

أولا: الأســـماء:

١ ـ السوءة: فى قوله تعالـى «ليريه كيف يوارى سوءة أخيه» المراد بهـا ـ فى معنى الآية ـ جثته، لأن السـوءة من «السوء» وهـو ما يكون إخفاؤه واجبـا؛ لأن فى إظهاره إسـاءة للنفس أو للغير، وهذا هو حال البدن بعد خروج الحياة منه.

٢ ـ الغراب: هو الطائر المعروف، وهو من جوارح الطيـــر.

ثانيا: التفســـير:

قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ ذكر لمـا حدث من بعد قتـل قابيل أخاه هـابيل، ويبين من قـوله

تعالى «ليريه كيف يوارى سوءة أخيه» أن قابيـل كان حائرا بجثة أخيه لا يعرف ما يفعله بشأنها ولا كيف يخفيهـا فكان منه تعـالى أن بعث غـرابا قيـل إنه كان ينقـب فى الأرض ليدفـن جثة غراب آخر، وقيل إنه كان ينقب في الأرض بحثا عن حشـرات ليأكلها، فعرف قابيل مما شاهد أنه يمكنه أن يوارى جثـة أخيه في التراب بالدفـن، ويلاحظ فى النص أنه جـاء بلفظ «أخيه» لإظهار شناعة فعل قابيل بالقتل ببيان أن القتيل أخوه الأجدر بالرعاية وليس بالقتل.

ويبين من النص أن قابيل حينما تعلم من فعل الغـراب جزع وتحسر لعدم معرفته بما عرفه الغراب، فقال متعجبـا من جهله وعدم اهتدائه إلـى ما اهتدى إليه الغراب «يـا ويلتى» تعبيراً عن جزعـه وتحسره، وقال «أعجزت أن أكون مثـل هذا الغراب فأوارى سوءة أخـى» تعجبا من جهله معرفة ما عرفه الغراب فى شأن مواراة جثة الميت فى الأرض.

ويلاحظ فى شأن لفظ «فأوارى» والمشهور قراءة الفعـل فيه منصوبا، أنه اعترض على هذا بأن الفعل جواب شرط مما يستوجب جـزمه. وقد يكون الصحيح أن الاستفهام فى «أعجزت» للإنكار التوبيخى، فيكون منسحبا على الأمرين: كونه مثل الغراب ومواراته سوءة أخيه.

وقوله تعـالى «فأصبح من النـادمين» هو ذكر لما أصبح عليـه حال قابيل بعد دفنـه هابيل، وهو شعـوره بالنـدم وهو ليـس من قبيل نـدم التوبـة، وإنما هو نـدم فقدان الـرفيق الـذى كان يؤانسه، وندم ما تكبده من مشقة نتيجة عدم معرفـة ما يفعل بجثة أخيه وحيرته بها إلى إلى أن عرف من الغراب أنه يدفنها.

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

التفســـير:

قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ يشير إلـى مشروعية «القياس» طـريقا من طرق استنبـاط الأحكام الشرعية عند اتحاد العلة، فمعنـى قوله تعالى «من أجل ذلك» هو أنه بسبـب ما سبق ذكره من

قصة قتل قـابيل أخاه هابيل، كان منـه تعالى ماسيلى ذكـره، وهذا الذى كان منه تعالـى هو ما جاء بقـوله تعالـى ﴿كتبنا على بنـى إسرائيل أنـه من قتل نفسـا بغير نفس أو فسـاد فى الأرض فكأنما قتـل الناس جميعا، ومن أحيـاها فكأنما أحيا النـاس جميعا﴾ ومعناه أنه تعـالى قضى على بنى إسرائيل فى التـوراة ـ بمعنى أنه تعالى أوضح سبب تشريعه عقـوبة القتل ـ أن الذى يقتل واحدة مـن النفوس البشرية بغير حق يستـوجب قتلها مثل «القصاص» ومثل وقـوعه فى حرب مشروعة، فإنه يكون شأنه واستحقـاقه العقاب شأن الذى قتل الناس جميعهم، لانطواء الفعل على اعتداء على حق الحياة، وعلى حرمة الـدماء. وكذلك يكون حال الذى أقدم على قتل إحدى الأنفس البشـرية بغير فساد منها فى الأرض، وأول معانـى «الفساد فى الأرض» هو «الحرابة» بمعنى قطـع الطريق على الآمنين، يكون فيه الاعتداء علـى الأرواح وسلامة الأبدان والأمـوال مع التهـديد والتـرويـع، ومنه الإفسـاد الذى يصيـب المجتمـع فى مجمـوعه مثـل التحريض على الكفر وعلى إشاعة الفاحسة فى المجتمع، ومعناه أيضا أنه تعالى أوضح لبنى إسرائيل فى التوراة أن مـن عمل على استبقاء حياة من لم يتوافر سبب لقتلـه فإنه يثاب بعمله ثواب من عمـل على استبقاء حياة جميـع الناس، وهذا شأن مـن منع آخر عن قتـل من قصد قتله أو أنقذ بريئا من محاولة قتله. وفى ذكره تعالـى أنه كتب هذا على بنى إسرائيل ما يفيد أنه تعالى كتبه فى التوراة، وقد يكون ذلك لأن شريعـة نوح عليه السلام قد أنسيت فلا يعلم ما إذا كانـت قد تضمنـت عقوبـة القتل أم لا، وأن الشـريعة المعلـومة فيهـا أحكام القتـل من قبـل الشريعة الإسلامية هى الشريعة المسماة «بالموسوية» وهى التى نزلت بها التوراة .

وبعد ذكره تعـالى هذا فإنه تعـالى أشار فى عبارة الآيـة إلى أفعال اليهود فى شـأن ما أنزل إليهم من أحكام وما فعلـه تعالى معهم لحثهم على التمسك بها فقال تعـالى ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ثم إن كثيرًا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون﴾ فدل تعالى على أنه من بعد أن أنزل عليهـم فى التوراة النهـى عن القتل وأنـزل حكم القصـاص فى القتلى، أرسـل إليهم منهم رسلا جاءوهم بالأدلة والبراهين التى تؤكد وجودذلك فى التوراة ووجوب التزام أحكامه، وأنه كان منهم من بعد ذلك العصيان، قارفه أكثرهم فقتلوا وأسرفوا فى القتل بغير حق ولا فساد فى الأرض، أو أسـرفوا بمقـارفتهم القتـل مع غيـره من الجـرائم مثل غصـب الأموال، وذلـك للتدليل على تأصل العصيان فى نفوسهـم، واستهانتهم بكبائر الذنوب والآثام والاعتداء على خلقه تعالى.

إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾

أولا : الأســـــماء :

الذين يحاربون الله ورسوله: الراجح أن المراد بهم ـ فى معنى الآيـة ـ مرتكبو الحرابة وهى قطع الطريق، وقيل إنهم الـذين يحاربون رسـول الله ﷺ ، شرفه تعـالى بأن بين أن محـاربته محاربة له تعالـى، وقد لا يكون هذا صحيحا لأن من يفعل ذلك يكون مـرتدا عن الإسلام وله حكمه وقيل إنه من يحارب المسلمين.

ثانيا : التفســــير:

الراجح أن قوله تعالى ــ فى الآية ـ تعلق بالحرابة فذكر تعالى عقـوبتها وهى من عقوبات «الحدود» لأن فيها اعتداء علـى حق الله وحقوق العباد، مع كون حق الله ـ وهـو أمان الطريق ـ أظهر. وصـف تعالى مقـارفو هذه الجـريمة بـأنهم يحاربـون الله ورسوله ويسعـون فى الأرض فسادا، وذكـر تعالى عقوبتهـم ـ وهي حد الحـرابة بقولـه تعالى «أن يقتلوا أو يصلبـوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا فى الأرض». والـراجح فى هذا الشأن أنهم إذا ما راتكبوا فى إغارتهم فى الطريق قتلا فقط عوقبوا بـالقتل، فإن ارتكبوا فيها قتلا وسرقة أو غصبا للأموال عوقبوا بالصلب حتى الموت، وقيل إنهم يقتلون ثـم يصلبون لثلاثة أيام بعد قتلهم. فإن سرقوا فى إغارتهم المال أو اغتصبوه ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف بمعنى أنه تقطع اليد اليمنى مع الـرجل اليسرى، فإن لم يفعلوا غيـر ترويع الآمنين فى الطريـق بالإغارة عليهم ولم يرتكبوا قتـلا ولا سرقة عوقبوا بالنفى، وقـد يكون بالاعتقال أو بالسجن فـى مكان بعيد عن الناس يكون فيه ردع لهم وتأمينا للخلق من شرورهم.

وقيل إن مفاد النص هو تخيير ولى الأمر أو القاضـى بين العقوبات يقضى بما يراه منها وفقا لحال مقترف الجرم وما يراه مناسبا فى ردعه، وهذا قول ضعيف .

وقوله تعالـى «ذلك لهم خزى فى الدنيـا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم» مفـاده أن العقوبة

التى حدها تعالى تتمثل فى خزيهم فى الحياة الدنيا بأشد ممـا تنطوى عليه من العذاب لما يكون فيها من ذل الفضيحة بـالإعلان عن العقوبة وقت تنفيذها أو بظهور أثـرها من بعد، وأنها تتمثل أيضـا فيما يلقون مـن عذاب عظيم فـى الآخرة يفوق مـا تتألم بـه نفوسهم مـن الخزى وقتذاك .

وقوله تعـالى ـ بهذا المعنى ـ يفيد أن إيقاع العقوبة علـى الجريمة فى الدنيـا لا يمنع من التعذيب بها فى الآخرة، وربما كان ذلك بالنسبة لجريمة الحرابة لأن فيها إلى جانب الاعتداء على حـق الله اعتداء علـى حقوق العبـاد المعتدى عليهم، وأنـه إذا غفر الله ـ بتوقيـع عقـوبة الدنيـا ـ ما وقع مـن اعتداء على حقـه تعالى، فـإنه تبقى حقوق العبـاد الذين اعتـدى عليهم بالجـريمة دون مغفرة فيكون عليهـا العقاب فى الآخـرة، وصفه تعالـى بالعظيم للترهيـب من مقارفة الجريمة .

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ في ذكر سبب خاص من أسباب العفو عن جريمة الحرابة باعتبارها من جرائم الحـدود، ومعناه أنه إذا تاب مـن قارف جريمة الحـرابة عن طوع واختيـار بأن كان ذلك قبل أن يتمكن منه ولى الأمر بالقبض عليه أو بالتضييق عليه حتى لا يعود أمامه سبيل غير تسليم نفسه إليه أو إلى رجاله، فإنه يعفى من العقوبة التى ذكرها تعالى حدا فى الآية السابقة. ولاشك أن هذا الحكم من الأحكام التى تستهدف التشجيع على ولوج باب التوبة عن مقارفة الجرائم والإقـلاع عنها بما يحقـق مصلحة مجتمع المسلميـن، فتكون المنفعة التـى يجنيها المجتمع بـإقلاع المجـرم عن إجـرامه أكثـر من المنفعـة التى تعـود على المجتمـع بإيقـاع العقوبة بالمجرم .

والراجح أن العفو يكون عن حد الجريمة وجوبا، وذلك لكون المخاطب بالنص والواجب عليه تنفيـذه هو ولـى الأمر، فـأما إن كـان التائب قد ارتكـب قبل التـوبة جـريمة مـن جرائم القصاص فإنه لا يكون من حق ولى الأمر أن يعفـو عن «القصاص» لأنه حق لصاحبه إن عفى بتنازل عنه لم يوقع بالجانى التائب، وإن لم يعف وطالب له ولى الأمر أجابه إليه. فقوله تعالى

«فاعلموا أن الله غفور رحيم» بما يتضمنه من معنى العفو عن العقوبة والأمر به إنما جاء متعلقا بعقوبة الحد وحدها، يكون من ولى الأمر إذا تحقق سببها وهو وقوع التوبة قبل القدرة على التائب ألا يعاقب على ما سلف من الجرائم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾

التفســـير:

الخطاب فى الآية موجه إلى المؤمنين من بعد ذكره تعالى عقوبة الحرابة وسبب العفو عنها، جاء آمرا المؤمنين بتقواه تعالى وهو ما يكون بتجنب مقارفة المعاصى التى يدخل فيها «الحرابة» وبالعمل بالطاعات، ثم أتبع ذلك تعالى بأمره المؤمنين أن يطلبوا الوصول إلى رضائه بكل وسيلة مشروعة توصل إلى رضاه تعالى أو إلى المراد منه من خير الدنيا والآخرة. وقد رأى البعض أن فى قوله تعالى هذا ما يفيد جواز الالتجاء إلى الصالحين أحياء كانوا أم أمواتا مستغيثين بهم وسيلة إلى رضاه تعالى. وإذا كان ليس ثمة شك فى جواز سؤال الصالحين الدعاء للمستغيث، أو استغفار الله للطالب، فإنه يبقى مما لا شك فيه أيضا عدم جواز الالتجاء إلى الموتى من الصالحين وسيلة للطلب من الله تعالى.

وجاء قوله تعالى «وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون» أمرا ـ فى ظاهره ـ بالجهاد فى سبيل الله، بمعنى مجاهدة الكافرين بغية تحقيق الفلاح بنيل ثوابه تعالى وبلوغ جنته. وقد يكون المراد به إظهار أن الوسيلة إليه تعالى الأقرب إلى المرء هى الجهاد فى سبيله تعالى يكون بالجهاد لنشر الدين وجهاد الكفار، ويكون بمجاهدة النفس ومجاهدة الشيطان بعدم طاعته فى عصيان ليكون بذلك الوصول إليه تعالى وهو الفلاح .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

. التفســـــير:

قوله تعـالى ـ فى الآية ـ بيان لحتمية وقوع عـذاب الكافرين فى الآخـرة، جاءت «إن» فى قوله تعالى لتأكيد المخبر عنه وهو فى شأن الكافـرين، ذكر تعالى ـ فى جملة شرطية ـ أنهم لو كان لكل منهم ما فى الأرض من أموال وثمرات وخيرات وكل ما ينتفع به وجاء تأكيد المعنى بقوله تعالى «جميعا» ـ وكان له معه مثلـه يملكه ويتصرف فيه وذلك لأجل أن يفتدوا به بعض عذاب يوم القيامة سواء بتخفيف شدة العذاب أو بتقليله، لما تقبل منهم هذا. والمعنى المراد إيصاله مـن بيان افتراض الممتنع وجوده مـن ملكية ما فى الأرض جميعا، وملكيـة مثله معه، وعرض الافتـداء به هو بيـان استحالـة وقوع جواب الشـرط وهو تخفيف عـذاب الكافـرين أو التقليل منـه يوم القيامـة. وقد تأكـد هذا المعنى بـإثباته تعـالى أنه يكـون لهم فى هـذا اليوم العذاب الأليم يؤلم أبدانهم ونفوسهم. والمعنى المستفاد من القول هو بيان شناعة إثم الكفر واستحقاقه أشد أنواع العذاب وعدم غفرانه .

يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

التفســـــير:

قوله تعالـى ـ فى الآية ـ استئناف لقوله فـى شأن حال الكافرين يوم القيـامة، ومفاد القول أنهم يخلدون فى النار مـن بعد دخولهم إياها. فهم يتمنون أن يخـرجوا منها، تنسيهم أهوالهـا ما سبق أن علموه أنهم منها لا يخرجون، ويقرر تعالـى أنه قدر عليهم أنهـم لا يخرجون منهـا ـ والحكم مقصور على الكافرين لا يشمل عصاة المؤمنين ـ ويكون لهم العذاب غير المتناهى زمنا ما داموا فيها مقيمين وهم يقيمون فيها إقامة خلود .

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾

أولا : الأســماء :

١ ـ **السارق** : اسم فاعل من «سـرق ـ يسرق» وهو من أخذ مالا قيميا مملـوكا للغير من حرز مثله.

٢ ـ **النكال** : فى قوله تعالى «بما كسبا نكالا من الله» المـراد به ـ فى معنى الآية ـ ما يتحقق به عقاب فاعله وردع غيره عن فعل مثل ما عوقب به .

ثانيا : التفســير

الآية من آيات الأحكام وردت فى شأن عقوبة السرقة وهى من جرائم الحدود، جاء النص مبينا أنه لا فرق فى الإثم ولا فى العقوبة بين حالـة كون الجانى ذكرا وحالة كونه أنثى، والمراد بالسارق هو من أخـذ خفية شيئا له قيمة كان محفوظا فيما يحفظ فيـه مثيله من الأشياء، يكون مملوكا لغيره، فإن لـم يكن للشىء قيمة مثل الحفنة من التراب أو لم يكـن الأخذ قد تم خفية مثل من خطف شيئا من يد حائزه ـ وهو الطرار ـ أو كان المال غير محرز بمعنى أنه كان متروكا غير محتفظ به فيما يحتفظ فيه بمثله، أو كان الشىء مملوكا لآخذه أو كانت له فيه شبهة ملك، فإنـه لا تكون قد تـوافرت فى آخـر الشىء صفة السارق ـ فى معنى النـص ـ الذى تجـب فيه عقوبة حد السـرقة. و إن جاز تعزيره بمعنى تـوقيع عقوبة أخرى على فعلـه إن لم يكن الشىء مملوكا له .

وحد السـرقة الوارد فى النـص هو قطع اليـد، والمراد بها اليـد اليمنى. يوقعه ولـى الأمر أو القاضـى، ولا يتوقـف الحكم به علـى طلب المعتـدى على حقـه فى مالـه لأن العقوبـة من عقوبات الحدود، روعى فيها جانب الاعتداء على حق الله تعالى بأكثر من حق المعتدَى على ماله.

وذكر تعـالى أن هذه العقـوبة تكون جزاء علـى ما كسب السـارق أو السارقة بفعـل يده أو يدها، وأنه لهذا نـاسب فعله أو فعلها، أن يكون الجزاء هو قطع هذه اليـد، وأنها تكون ردعا له أو لها عن السرقة وردعا لغيـرهما عن مقارفة السرقة خشية إيقاع ذات العقوبـة به على ما فيها من حرمان من عضو وتشهير بالسارق بظهور قطع يده .

فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩

التفســـير:

الآية من الآيات التى تتضمن فتح باب من أبواب رحمته تعالى أمام العصاة بتشجيعهم على التوبة وحثهم عليها فمفاد قوله تعالى «فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح» هو تعلق الحكم الذى سيرد به النص بمن تاب عن جريمة السرقة التى ارتكبها وانقطع عن ارتكاب مثلها، عبر عنها بالظلم لأن فيها ظلما لصاحب المال المسروق وظلما لنفس السارق بتعريضه نفسه للعقاب حدا فى الدنيا ولعذابه تعالى فى الآخرة .

ثم إنه تعالى بين أن التوبة عن السرقة تستوجب إصلاح الضرر الذى أصاب السارق به المسروق، وهو ما يكون برد المال المسروق إليه - إن كان يعرفه - والتصدق بالمال عنه وله إن لم يكن يعرفه أو لا يعرف كيفية إعادة المال إليه.

وقد بين تعالى أنه إن صدق السارق فى توبته فإنه يتوب عليه بقبوله توبته، ويغفر له ذنبه الذى ارتكب فلا يعاقبه به فى الآخرة.

والظاهر أن مغفرة الذنب إنما تكون بشأن عذاب الآخرة دون القطع - وهو الحد - يوقع على السرقة السابقة، وقد خالف البعض فى هذا - وهو أحد قولين للشافعى رضى الله عنه - فقالوا إنه لا يحد .

أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٠

التفســـير:

قوله تعالى - فى الآية - مرتبط بما سبق ذكره فى شأن عقوبة السرقة ثم فى شأن ما يكون منه تعالى عند توبة السارق، جاء مخاطبا رسوله ﷺ وأولى الأمر، مبينا قدرته تعالى على تعذيب الجناة بإثمهم وعلى مغفرة ذنب من أراد تعالى أن يغفر له بتحقق توبته أو بدونها، وجاء ذكر التعذيب قبل ذكر المغفرة لأن ظهور القدرة عند التعذيب أوضح من ظهورها عند

المغفرة فبين تعالى أنه وهو مالك السماوات والأرض ومن فيهن وما فيهن والمسيطر عليهم والقاضى فى شأنهم قضاءه، يعذب من شاء أن يعذب بما اقترف من ذنوب وآثام، ويغفر لمن شاء أن يغفر له بموجب قدرته. والقول يتضمن إشارة إلى تعذيب جناة الآثام بما يفيد تضمنه وعيدا، وحثا على ولوج باب التوبة طمعا فى مغفرة الذنب .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾

التفســـــير:

قولـه تعالى ــ فى الخطاب فـى الآية ـ مـوجه إلى رسـول الله ﷺ، خوطب بصفتـه رسولا للتشريف ولبيان مدى الضلال الذى فيه من جاء نص الآية فيهم. نهى سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يحزن لما يعاينه من إسراع المنافقين فى التنقـل بين مظاهر الكفر المختلفة من أحدها للآخر، فتارة يفرحون لما يصيب المؤمنين من ضرر وتارة يأسون لما يحقق المسلمون من نصر على الكـافريـن، وتارة أخـرى يولـون الكفار. بين تعـالى لـرسولـه أنهم فـى جميع أحـوالهم مستقرون على الكفر لا يبرحون. ثـم إنه تعالى وصفهم بأنهم يقولون بأفـواههم أنهم آمنوا على حين امتلأت قلوبهم بـالكفر؛ وقوله تعالى هذا أوضح أن المقصودين بـالقول ـ فى مقام أول ـ هم المنافقـون. ثم قال تعالى «ومـن الذين هادوا» جاء ذكرهـم ـ فى الآية معطوفـا على «من الذيـن قالوا» فـأوضح أن هناك فئـة أخرى نهى تعـالى رسولـه ﷺ من أن يحزن لتنقلهـم بين مظاهر الكفر المختلفة، وذلك لاستقرارهم أيضا على الكفر.

وقد وصفهم تعالى بأنهم سماعون للكذب، سمـاعون لقوم آخرين لم يأتوا رسول الله ﷺ،

فأوضـح تعالى أن هـذه الفئة من اليهـود كانت تحضـر إليه ﷺ وهم يسمعـون من آخريـن ما يقولون من كذب عنه ﷺ ويقبلون هذه الكذب.

والراجح أن هؤلاء الآخرين الذين كانوا يقولون الكذب فيسمعه الأولون ويقبلونه هم أحبار اليهود ورؤساؤهم، كانوا لا يحضرون إليه ﷺ، ويبعثون إليه بالأولين.

ثـم ذكر تعـالى هـؤلاء الذيـن لم يحضـروا رسول الله ﷺ بـأنهم يحـرفون الكلـم من بعـد مواضعه، فهم يحـرفون ما جاء فى التوراة مـن بعد صحته إلى ما بعد عـن الصحة، فدل بهذا على أنهم أحبار اليهود ومن تولوا تحريف التوراة، والقول يحتمل فيه أنهم يقومون بتحريف ما يصلهم من قول رسول الله ﷺ ممن يحضرونه لشفاء قلوبهم.

كما ذكـر تعالى فعـلا آخر من أفعـال هؤلاء الـذين لا يحضرونـه ﷺ ويقولون للسمـاعين الكذب مـا يقولون منـه فذكر تعـالى أنهم يقولـون لهم «إن أوتيتم هـذا فخذوه وإن لم تـؤتوه فاحذروا» .

بمعنى أنهم يطلبـون منه ﷺ الرأى والحكم فى المسـألة، فإن أجابهم بمـا ورد به الحكم فـى توراتهـم قبلـوا رأيـه أو حكمه، وإن أجـابهـم ﷺ بغيـره كان عليهـم أن يحـذروه ﷺ أن يستميلهم إلى رأيه أو حكمه.

ويقبل القـول أن يكون معناه أنـه إذا حكم ﷺ بما يـوافق إرادتكـم وهواكم فـاقبلوه، وإذا حكم بغيره فاحذروا الأخذ بحكمه فى المسألة المعروضة.

وقوله تعالى «ومـن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا» مفاده أن مـن أراد تعالى تعذيبه بالخزى فـى الحياة الدنيا بـإظهار نفاقه مـن المنافقين، وهزيمتـه وإخراجه من ديـاره وإلزامه الجزية من اليهود، وأراد تعـذيبه بنفاقه وبكفره فى الآخرة ، فإن أحدا لـن يستطيع أن يدفع عنه ما قدر عليه من الفتنة بالخزى والعذاب.

ثم إنه تعالـى أشار إلى المنافقين واليهود الذيـن ورد بشأنهم نص الآية وبين حـاله تعالى منهم بقوله تعالى «أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم» .

فبين تعالى أنه لم يحل بينهم وبين الكفر الذى اختاروه وأصروا عليه وامتلأت به قلوبهم فكان رجسا وخبثا، فترك قلوبهم على ما هى عليه لم يطهرها، ليكون لهم الخزى فى الحياة الدنيا، وليكون لهم فى الآخرة عذاب لا يعلمون بالتمام حقيقته وصوره، ولا يعلمون قدره وإن كان عذابا عظيما.

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾

أولا : الأســـماء :

السحت : هو الحرام، مصدر من الفعل «سحت ـ يسحت ـ بمعنى استأصل»، أطلق على كل حرام لأنه يعقبه استئصال فاعله بالعذاب، أو لأنه يذهب البركة.

والمراد به ـ فى معنى الآية ـ الرشوة وما شابههما.

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى وصف المنافقين واليهود، جاء من بعد ذكره تعالى أنه يكون لهم فى الدنيا خزى وفى الآخرة عذاب عظيم تمهيدا لما سيلى ذكره فى شأنهم.

وقد وصفهم تعالى فى النص بأنهم يسمعون الكذب فى أمره صلى الله عليه وسلم وفى أمور الدين عامة ويقبلون ما يسمعون، وأنهم يأكلون الحرام إذ يقبل أحبارهم وعلماؤهم الرشوة ليحرفوا التوراة.

فالقول فى ذكر صفاتهم السيئة التى جبلوا عليها وتصرفوا بهدى منها.

وبعد ذلـك يحادث الله تعالـى رسوله صلى الله عليـه وسلم فى شـأن ما يتوقـع أن يحدث منهـم من مجيئهـم إلـى الرسـول صلـى الله عليـه وسلم محتكميـن فـى بعض المسـائل أو النزاعات، فيأمره تعـالى أنهم إذا ما جاءوه محتكمين فعليه أن يحكم بينهـم أو أن يذكر حكم الله فيما عـرض عليه من نزاع أو مـن مسألة بما أراه الله وأعلمـه من شرع الإسلام الـذى يسرى على أهـل الذمـة ومن كتبهم فيمـا تسرى عليهـم فيه أحكام كتبهـم، أو أن يعرض عنهـم فلا يقضى فى النزاع أو لا يذكر حكمه فى المسألة.

فالنص ــ على هذا ــ يعطـى الرسول صلى الله عليـه وسلم الخيار بين أن يقضـى وبين ألا يقضى.

وقد قيل إن حكم النص منسوخ بقوله تعالى «أن أحكم بينهم بما أنزل الله».

وقد يكون الصحيح أن النص متعلق باليهود الذين من غير أهل الذمة، يكون للرسول صلى الله عليه وسلم حق الخيار بين أن يقضى بينهم أو ألا يقضـى، وأن قوله تعالى «أن احكم بينهم بما أنزل الله» الذى ألزمه صلى الله عليه وسلم أن يقضى بين المتنازعين تعلق بأهل الذمة.

ثم إنه تعالى أخبر رسوله صلى الله عليه وسلـم أنه إذا ما كان منه الإعراض عن الحكم بين المتنازعين منهـم فإنه لن يصيبه منهـم ضرر إذا ما ساءهـم عدم قضائه فيما عرضـوا عليه من نزاع، وأظهر تعالى أنه لن يصيبه منهم ضرر على الإطلاق مهما قل على ما يبين من قوله تعالى «فلن يضروك شيئا» .

ثم أمـره تعالـى إذا ما اختـار أن يفصل بينهم فيمـا تنازعـوا فيه إليـه أن يكون قضـاؤه فيهم بالعـدل، وهو ما عليه صلـى الله عليه وسلم ومـا اشتملت عليه فـى جميع أحكامها الشـريعة الإسلامية.

ثم أتبع تعالى أمـره هذا ببيان أنه تعالى يحب المقسطين العادليـن ليحذو كل من يحتكم إليه حذو رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجعل العدل نصب عينيه غاية فيما يعرض عليه من النزاعات ليفوز برضاء الله تعالى .

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

التفســـــير:

قوله تعالـى ـ فى الآية ـ إظهار ـ لعجيب أمور اليهود فى لجوئهـم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهم فيما تنازعوا فيه رغم أنهم لا يؤمنون به نبيا رسولا.

فالاستفهـام فى عبارة النص جـاء للإنكار والتعجيـب «وكيف يحكمونك!»، ومـن دواعى العجب أيضا المستظهـرة من النص أن عندهم التـوراة فيها حكم ما يطلبون فيـه حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومفاد هذا إظهـار أنهم لا يبتغون باللجـوء إليه صلى الله عليه وسلـم معرفة وجه الحـق فى المسألـة المحتكم فيها وإنمـا يبغون استبعاد تطبيق حكـم التوراة فيها لأنـه لا يوافق هـواهم فسعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لعله يكون فى حكمه ما يوافق هواهم فيقبلوه.

ثم إنه تعالـى أظهر من أمورهم وتصرفاتهـم ما هو أعجب من لجوئهـم إليه صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهـم، وهو أنهم يعرضون عما يقضـى به من حكم الله، يكون من بعـد لجوئهم إليه صلى الله عليه وسلم ليقضى بينهـم؛ ولذلك فإنه تعالى قرر فى شأنهـم أنهم غير مؤمنين، نفى الإيمان عنهم بقوله تعالى «وما أولئك بـالمؤمنين» لإثبات أنهم بالتجائهم إلى رسول الله صلى الله عليـه وسلم لـم يكونـوا مدفوعين بـالإيمان به رسولا نبيـا، ولا بما جاء فى كتبهـم من حكم فيما تنازعوا فيه.



﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟
وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ
شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ
وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

أولا : الأســماء :

١ ـ **التـــوراة** : هى كتاب الله الذى أنزل على موسى عليه السلام ليبلغه بنى إسرائيل وقد تضمن أحكام العقيدة وأحكام الشريعة، وهو الخمسة الأسفار الأولى فى كتاب العهد القديم الموجود بين أيدينا اليوم .

٢ ـ **الربانيون** : هم فئة من أهل الكتاب لم ينحرفوا بالعقيدة وبقوا مؤمنين بالله موحدين إياه متجنبين ما حرم عليهم فى الكتاب.

٣ ـ **الأحبار** : جمع ، مفرده حَبر، وهو العالم، والمراد بهم ـ فى معنى الآية ــ علماء بنى إسرائيل .

ثانيا : التفســير:

الحديث فى الآية فى بيان وجه تعجب من نأى اليهود عن اللجوء إلى توراتهم للبحث عن حكم الله الذى أنزل إليهم فيما يحتكمون فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ذكر تعالى أنه أنزل التوراة من عنده، وأنها ـ كما أنزلها ـ تضمنت الهدى بما حوته من أحكام عقيدة التوحيد بالله وعدم الشرك به، وكانت نورا يفرق بين الصحيح والباطل بما تضمنت من أحكام فى جميع شئون الحياة.

ثم ذكر تعالى أنهـا نزلت ليحكم بها النبيون جميعا من موسى عليـه السلام إلى بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجميع أنبياء بنى إسرائيل كـانوا يحكمون بمقتضى شريعة التوراة، وقد وصفهم تعالى بأنهم «الذين أسلموا» لأنهم جميعا كانوا مسلمين بالمعنى العام للإسلام وهو ما تعلق بالعقيـدة من إيمان بالله وتوحيده وعـدم الشرك به. وقد كان حكمهم بشـريعة التوراة لليهود الذين أنزلت التوراة على نبيهم لتكون كتاب الله إليهم.

ثم أثبـت تعالـى التزام الـربانييـن والأحبار أن يقضـوا بين بنـى إسرائيـل بشريعـة التوراة، ووصفهم تعـالى بـأنهم حفظتهـا الذيـن ائتمنتهـم تعـالى عليهـا أن يحفظوهـا من التحـريف والتأويل وأن يحفظوا العمل بها من الانحراف عنها وقد وصفهـا تعالى بأنها كتابه تعالى لبيان خطورة مـا استحفظوا عليه وتشريفـا لهم بائتمانهـم عليها، ثم وصفهـم تعالى بأنهـم شهداء عليها أو على كتابه تعالى، بمعنى أنهم الرقباء على كل فعل يراد به تحريفها، وكل تطبيق يراد به الانحراف عن أحكامها .

ثم يجىء أمره تعـالى إلى رؤساء اليهود وعلمائهـم بأن يتمثلوا أنبياءهم، والربـانيين منهم والأحبار الذين استحفظـوا على شريعته تعالى فـى التوراة فيلتزمون أحكامها ويطبقـونها فيما يعرض عليهم من نزاعات لا يخشون سطوة أحد من الناس أوجاهه، غير خاشين إلا إياه تعالى «فلا تخشوا الناس واخشون».

وأتبع ذلك تعـالى بنهيه إياهـم عن قبول الرشاء ثمنـا لتحريف التوراة أو لـلانحراف لدى تطبيقها عما جاءت به من أحكام.

وقد وصف تعالى ما يأخذونه مقابل هذا بالثمن القليل لما فيه من تضييع ثواب المحافظة على التوراة، ولكونه من متاع الحياة الدنيا الزائل.

واختتمت الآيـة بقوله تعالـى «ومن لم يحكم بمـا أنزل الله فأولئـك هم الكافرون» تـرهيبا لرؤساء بنـى إسرائيل وكهنتهم من مخالفـة أحكام التوراة بسبب خشيتهم النـاس أو بسبب ما يعرض عليهم من ثمن مقابل ذلك، فذكر تعالى أنهم يكفرون بفعلهم هذا بكتابهم ونبيهم بعد كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون لهم به عذاب فوق العذاب .

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

التفسير:

قوله تعالى - فى الآية - ذكر لشريعة القصاص كما أنزلها تعالى فى التوراة، والحكم فيها هو ذات حكم الشريعة الإسلامية غير أن تطبيق الحكم يكون إعمالا لحكم النص القرآنى وليس لحكم نص التوراة.

ومعنى قوله تعالى «وكتبنا عليهم فيها» أنه تعالى فرض على اليهود فى التوراة، والذى فرضه تعالى هو شريعة القصاص فى النفس وما دونها وفى الجروح كما يبين من قوله تعالى «أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص».

فبين أن من قتل يقتل بفعله، كما أن الإذهاب بمنفعة عضو من أعضاء جسم الإنسان أو حاسة من حواسه يعاقب عليه بإذهاب منفعة ذات العضو أو الحاسة لديه، وكذلك يكون الحال فى الجروح فمن أحدث بغيره جرحا يفعل به مثل الجرح.

والمفهوم بالطبع أنه يشترط أن يكون فعل الجانى غير مشروع بمعنى ألا يكون فعله حقا أو استعمالا لحق.

وقوله تعالى «فمن تصدق به فهو كفارة له» يفيد أمرين:

أولهما: أن القصاص لا يكون إلا بطلبه بمعنى أنه يجب أن يطالب به - فى حالة القتل -

ولي الدم، وأن يطالب به ـ فيما هو دون ذلك ـ المجني عليه في الاعتداء. فلا يوقعه ولى الأمر من ذاته.

والثانى : أن لصاحب الحق فى طلب القصاص أن يعفو عن المعتدى، وقد كيون عفوه على دية وقد يكون بغير مقابل.

وقد حبب تعالى العفو إلى النفوس بذكره تعالى أنه يكون من قبيل الصدقة «فمن تصدق به» وبيانه أنه يكون تكفيرا للعافى عن ذنوبه.

وقوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون» يتعلق بأصحاب الحق فى طلب القصاص، وبأولياء الأمور.

فإذا تجاوز صاحب الحق فى القصاص حكم النص فزاد فى فعله بالمعتدى عن فعله، أو انتقم منه بعد العفو عنه فإنه يكون قد ظلم المقتص منه وظلم نفسه بما يستوجب معاقبته فى الدنيا بما تجاوز فيه حق القصاص. ويستوجب عقابه فى الآخرة، كذلك فإنه إذا ما تجاوز ولى الأمر عن الاقتصاص من المعتدى بعد أن طلب صاحب الحق فى القصاص ذلك منه فإنه يكون قد ظلم هذا وظلم نفسه لفعله ما يستوجب عقاب الله تعالى يحل به. فالقول نهى عن التجاوز فى القصاص والتجاوز عنه .

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾

التفســـــير:

قولـه تعالـى ـ فـى الآية ـ شروع فـى الانتقال مـن بيان أحكـام التوراة إلـى بيان أحكـام الإنجيل.

فقوله تعالى «وقفينا علـى آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يـديه من التوراة» يفيد عدة معان:

فهو يفيد أنـه تعالى أرسل مـن بعد أنبياء بنى إسـرائيل الذين جـاءوا من بعد موسـى عليه السلام عيسى ابن مريم.

والقول يفيد نبوته عليه السلام، وأنه أرسل إلـى بنى إسرائيل كما أرسل النبيون الذى سبقوه إليهم.

ويفيد أنـه عليه السلام قـد بعث مصدقـا بالتوراة التى علمـه الله إياها فكـانت بين يـديه بمعنى أنه عليه السلام حاز أحكامها أى عرفها، وأنه أقربها كتابا منزلا منه تعالى.

كما يفيد ـ بطريق الإشارة ـ أنه عليه السـلام كان بشرا ولد من امرأة شأن جميع الخلق من بعد آدم عليه السلام .

وقولـه تعالـى «وآتيناه الإنجيل فيـه هدى ونور ومصـدقا لمـا بين يديـه من التـوراة وهدى وموعظـة للمتقين»، هـو إعلام منه تعـالى بصحة نسبـة الإنجيل إليـه تعالى وأنـه أنزلـه على المسيح عيسى ابن مريم:

وتعريف بـأن الإنجيل الذى أنزل كان فيه الهـدى لأنه لم يخالف عن أحكـام العقيدة فى التوراة والتى بعث بها جميع الأنبياء من إيمان بالله وتوحيده وعدم الشرك به.

كما كان نورا يهدى إلي حكم الله فى المسـائل لما كان من تصحيح الأحكام التى انحرف بها اليهود عن معانيها ومقاصدها كما وردت فى التوراة فعاد بها إلى صحيح ما أنزلت به.

ثم إنه تعالى ذكر أن الإنـجيل هدى وموعظة للمتقين.

والمستفاد أنه هـدى آخر غير الهدى الذى تضمنتـه التوراة وهو التبشير مجـددا برسول الله صلى الله عليـه وسلم وطلب الإيمان بـه، ينتفع به المتقون فيـؤمنوا لرسول الله صلـى الله عليه وسلم فيتقوا بذلك عذاب الله فيكون لهم موعظة اتعظوا بها .

وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾

التفســــير:

القول فى النصارى يثبت النص أنهم مطالبون بإعمال ما ورد فى الإنجيل، والـذى تضمنه الإنجيل بالنص هو ما تعلق بأحكام العقيدة من إيمان بالله وتوحيده وعدم الشرك به.

وفى شأن أحكام الشريعة فإنه لم يأت بأحكام تغاير شريعة موسى وإنما جاء بتصحيح أحكام الشريعة التى انحرف بها اليهود، فيكون الحكم بالإنجيل مفاده العمل بالنصوص التى وردت فيه تبين وجوب إعمال أحكام التوراة.

وهذا فى شأن الذين سبقوا بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما الذين بلغتهم فإنهم مطالبون بالإيمان بما ورد فيه من تبشير بالرسول عليه الصلاة والسلام وبالكتاب الذى أنزل إليه وبما جاء به من أحكام تبعا للإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام وإلا كانوا عنده تعالى هم الفاسقون خرجوا على ما ألزموه من أحكام .

وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

أولا : الأســـماء :

المهيمن: فى قوله تعالى «ومهيمنا عليه» هو الرقيب، وهو العالى فوق غيره.

ثانيا : التفســـير :

قوله تعالى ـ فى الآية ـ خطاب إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم، جاء تقريرا بأنه تعالى أنزل القرآن إلى رسوله صلى الله عليه وسلم حقا مـن عنده، وصف القرآن بأنه «الكتاب» تبيانا لأن القرآن هو الجدير أن يسمى بالكتاب بين الكتب، وحاله أنه مصدق لما سبقه من الكتب، صدق بها بإثباته صحة إنزالها منه تعالى وبنزوله على نبى وصف فيها، فكان نزوله عليه صلى الله عليه وسلم تدليلا على صحة نزولها منه تعالى.

ومن حاله أيضا أنه المهيمن على هذه الكتب، فهو الذى حفظه الله تعالى وهو الذى نسخ من أحكامها ما نسخ وأبقـى على ما أبقى من أحكامها، والذى فيه ما يبيـن ما هو صحيح من أحكام العقيدة الموجودة فى نسخ الكتب بين أيادى الناس مما تم تحريفه منها.

ثم إنه تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلـم بأن يحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله عليه فى القرآن .

والمراد بأهل الكتاب هـم الذميون الذين هم فى دولة الإسـلام ولهم ذمتهم، يكون الحكم بينهم بشرعه تعالى الذى أنزل فى القرآن فيما يتعلق بالعقيدة. وفيما يتعلق بالأحكام العامة أو الأصول التى يلتزمون بهـا لعدم جواز مخالفتها فى مجتمع المسلمين ولو مـن غيرهم من أهل الذمة.

ثم إنه تعالى نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن اتباع أهواء أهل الكتاب فيما يحتكم فيه إليه فيكون منه الحيدة عن حكم القرآن فى المسـألة الذى هو الحق الذى أنزل عليه صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا» قيـل فى شأنه أنه يعنى أنه تعالى قد أوجد اختلافا فى أحكام الكتب السابقة عن أحكام القرآن العظيم، وذلك لمناسبة أحكام كل كتاب

زمان سريانه، ولما كان القرآن العظيم هو خاتم هذه الكتب فإنه يعتبر ناسخا ما بها من أحكام ويكون وحده السارية أحكامه.

والذى نراه ـ والله أعلـم ـ أن النص يفيد وقوع الاختلاف بين أهـل الكتاب وبين المسلمين فى بعض أحكـام الشريعة، فيكون معنـى «الشرعة» هو الشـريعة، بمعنى الأحكام التـى تنظم العلاقـات بين النـاس وبين المجتمعات، والمنهـاج هو الطـريق الموصـل إلى تطبيـق هذه الأحكام.

وفى هذا يختلـف أهل الكتاب عن المسلميـن، ولا يتجاوز هذا الاختلاف حـدود الأحكام الفرعية فى الشريعة إلى الجزء المتعلق بالعقيدة فى الدين فهو واحد بالنسبة للجميع.

فيتصور فـى شأن أحكام الزواج والطـلاق مثلا، وفى طـريقة إتمام الزواج وإنهـائه أن يترك لأهل الذمة يطيقون فيه من الأحكام ما يرونه فى شريعتهم.

وكذلـك فى شأن إبـرام أنواع المعامـلات من بيـع وإجارة وخلافـه مما يقع بيـن بعضهم والبعض.

وبالمثل فى شأن ما يرون حلالا أكله وما يرونه حراما.

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى «ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة»

فالمعنى أنه تعالى لم يشأ أن يجعل الجميع علـى دين الإسلام متوحدين فى العقيدة وفى الشريعة، وأنه تعالى لم يحل بين من اختار غير الإسلام دينا وبين ما اختار.

والقول يثبت وقوع الاختـلاف فى الشريعة بين أهل الكتاب وبين المسلميـن، وبين تعالى أنه اختبـر الخلق وامتحنهـم بما أنزل مـن كتب وأحكـام ليكون الخبر لمـن عرف وجـه الحق واختاره، ويكون العذاب لمن اختار الضلال أو بقى عليه من بعد أن عرف طريق الهدى.

ثم أتبع تعالى ذلك بقـوله «فاستبقوا الخيرات» وهو نصح فى صورة أمر بـالمسارعة إلى ما فيه الخيـرات ـ جاء ذكرهـا فى صيغة الجمع ـ لأنها تعنى خير الـدنيا والآخرة، وهو مـا يكون بالإيمان بالإسلام والتزام أحكام القرآن؛ ولهذا جاء بعده قوله تعالى «إلى الله مرجعكم جميعا

فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون» يتضمن تعليلاً لأمره بـاستباق الخيرات وتحذيرا من مخالفته، وحثا على الإيمان بالإسلام، لأن مفاد قوله تعالى أن جميع المختلفين فى أحكام الشريعة من أهل كتـاب ومسلمين سيرجعون إليـه تعالى فـى الآخرة فيحاسبهـم بما كان منهم مـن سبب اختلافهم بشأن الأحكام فيعلم الـذين لم يؤمنوا بالإسلام ديناً ولم يأخـذوا بأحكامه حين يرون العذاب أنهـم كانوا على البـاطل، وتكون رؤيتهـم المؤمنين ومـا أنعم الله به عليهم إنبـاء منه تعالى ببطلان عقيدتهم التى خالفوا فيها المؤمنين .

وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾

التفســـــير:

قوله تعالى «وأن احكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك» مكـرر فى معناه وبعض لفظه، وقيل إنه تكرر لأن الأحـداث التى كان بسببها النزول تكررت ، إذ كانـت مرة فى شأن واقعة زنا وكـانت أخرى فى واقعة قتل. وهـذا القـــول يؤكد أن المراد بالاختلاف فى الشرعة هو الاختـلاف فى أحكام الشريعة التى تنظم العلاقات، لأن رسـول الله صلى الله عليـه وسلـم إنما حكـم بيـن اليهـود بما أنـزل الله مـن الأحكام فـى التـــوراة .

ومعنى قوله تعالى هو وجوب التزام رسوله صلى الله عليه وسلم فى قضائه بما أنزل الله إليه فى القرآن من أحكام.

ولا يمنع هذا من أن يكون تطبيق حكم التوراة على المتخاصمين من اليهود إذا كان الأمر متعلقا بحكم فرعى فى مسألة من مسائل المعاملات إذا كان القرآن يسيغ ذلك، إذ يكون فى تطبيق حكم التوراة فيها إنفاذا لحكم القرآن .

ثم إنه تعالى نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن اتباع اهوائهم بالحكم لهم بما يريدون الحكم به، وذكر وسيلة ذلك بتحذيره صلى الله عليه وسلم منها بقوله تعالى «واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل إليك». وذلك بإخفاء حكم التوراة فى المسألة، أو إظهار رأى أحد الأحبار فيها بدلا من إظهار النص التوراتى. فيكون فى ذلك صرف عن بعض ما أنزل إليه صلى الله عليه وسلم، لأنه يكون قد نفذ ما قضى به القرآن من بحث عن حكم التوراة للقضاء به، ولكنه يكون قد بعد فى قضائه عن حكم التوراة الصحيح فى المسألة.

ويتصور أن يكون المعنى هو التحذير من عرض موضوع النزاع على وجه غير صحيح للحصول منه صلى الله عليه وسلم على حكم يغاير حكم الله تعالى فى موضوع النزاع .

وبعد ذلك يجىء قوله تعالى «فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم» بمثابة بيان سبب لعدم حزن الرسول صلى الله عليه وسلم من إعراضهم عما يقضى به وعدم رضائهم عنه.

فبين تعالى أن ذلك إنما يكون جزاء لما انطوت عليه قلوبهم من نفاق فى التجائهم إليه صلى الله عليه وسلم للقضاء بينهم.

إذ يجعل الله تعالى إعراضهم هذا ذنبا يستوجب المؤاخذة والعقاب، فكأنه أريد به معاقبتهم عن بعض ذنوبهم الكثيرة التى يكفى بعضها لاستحقاقهم العذاب .

واختتام الآية بقوله تعالى «وإن كثيرا من الناس لفاسقون» مفاده أنهم بإعراضهم عن قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد دخلوا فى زمرة الفاسقين الخارجين على حدوده تعالى، المستحقين العذاب. فيكون فى القول تسرية عنه صلى الله عليه وسلم .

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾

التفســـــير:

جاء قوله تعالى «أفحكم الجاهلية يبغـون» فى صيغة استفهام يفيد معنى التعجب من أمر الذين يقصدون رسول الله صلى الله عليه وسلم طلبا لقضائه ثم يعرضون عن قضائه.

ويفيد أنهم قد أعرضوا لأنهم لم يقبلوا حكمه تعالى فكأنهم لا يرتضون إلا حكم الجاهلية الذى كانت تنعدم فيه المساواة بين الخصوم فى القصاص فيكون قتيل ذوى العـزة قصاصه قتيلان من ضعاف القوم.

أو كأنهم لا يرتضون إلا حكم الجهالة بأحكام الله تعالى الذى يرضى أهواءهـم.

وبعد ذلك يجىء قوله تعالى «ومن أحسـن من الله حكما لقوم يوقنون» فى صيغة استفهام أيضا أريد به تقرير واقع أنه ليس مثله تعالى أحد من خلقه يماثل حكمه فى أمر حكمه تعالى الذى يقضى به رسوله صلى الله عليه وسلم، ومثبتا أن ذلك ما يؤمن به الموقنون بأنه تعالى الله الخالق الحاكم العدل.

وفى القول إشارة إلى ابتعاد المعرضين عن نطاق الموقنين .

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١﴾

التفســـــير:

الخطاب فى الآية موجه ـ فى الظاهر ــ إلى جميع المؤمنين، والذى يظهر من سياق النص أن المراد بالمؤمنين هم هؤلاء الذين لم يستقر الإيمان فى قلوبهم فكانوا يوالون اليهود ويوالون النصارى خشية أن تحيق الهزيمة بالمسلمين فيأمنوا جانب ماوالوهم؛ وقد جاء خطابهم «بالذين آمنوا» لزجرهم عن فعلهم.

وقد أمرهم تعالى بعدم موالاة اليهود والنصارى، ثم ذكر تعالى أن اليهود إنما يوالون اليهود، وأن النصارى إنما يوالون النصارى، فلا يوالى أفراد طائفة منهما أفراد الطائفة الأخرى، وهم فى موالاتهم بعضهم البعض لا يوالون المسلمين بل يكونون عليهم ومن والوا .

ولذلك جاء قوله تعالى «ومن يتولهم منكم فإنه منهم» بمثابة النتيجة المستخلصة من واقع أن كلا من أفراد الطائفتين لا يوالى إلا من ذات طائفته.

فذكر تعالى أن من يوالى من المؤمنين إحدى الطائفتين يكون منها.

وهذا يدل على أن المخاطبين بالنص ــ على الحقيقة ـ هم ضعاف الإيمان، لأن معنى أن يكون المرء من إحدى الطائفتين هو أنه يكون كافرا، ولا يوصف بالكفر المؤمنون حقا، وإنما يوصف به المنافقون .

ثم إنه تعالى يبين سوء مصير هؤلاء الذين يوالون اليهود والنصارى بقوله تعالى «إن الله لا يهدى القوم الظالمين».

فبين تعالى أن من يوالى اليهود أو النصارى يكون قد ظلم نفسه، وأنه تعالى لم يشأ هدايته فيكون مصيره هو العذاب الذى أعد للكافرين .

فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾

أولا : الأســـماء :

١ ـ **الدائــــرة** : فى قولـه تعالى «نخشى أن تصيبنـا دائرة» هى سطح مستوٍ يحيط به خط مستدير. والمـراد بها ـ فى معنى الآيـة ـ هو استعمالها فـى معنى النائبة من نـوائب الزمن، أو البلية .

٢ ـ **الفتـــح** : المـراد بـه ـ فى معنى الآية ـ هـو فتح مكـة، أو فتح بـلاد الكفار، أو نصـرة المسلمين.

ثانيا : التفســـير:

قولـه تعالى فـى شأن المنـافقين ، يبين تعـالى لرسـوله صلـى الله عليه وسلم وللمـؤمنين الراسخين فى الإيمان، أنهم ـ وهم الموصوفون بأن فى قلوبهم مرض لنفاقهم ـ أنهم يسارعون إلى موالاة اليهود والنصارى.

وجـاء التعبيـر عن إسـراعهـم إليهـم مستعملا حـرف الجر «فـى» بـدلا من «إلـى» لبيـان اندماجهم فى اليهود والنصارى حتى لكأنهم منهم.

أو لبيان أن إسراعهم إليهم كان استمرارا لما هم فيه من حال.

ثم بين تعالى حجتهـم فى الإسراع إلى موالاة اليهود والنصارى وهي قـولهم إنهم يخشون نوائب الدهر تلحقهم فلا يتوافر لديهم المال مما يحتاجون معه إلى اللجوء إليهم للاقتراض.

وقولهم إنهم يخشون أن يصيب المؤمنين سوء فينتصر عليهم أعداؤهم، فهم يبحثون عمن يحميهم وقتذاك إذا وقع ما يخشون.

ولا يخفى أن هذا القول دليل على ضعف إيمانهم الذى يبدونه.

ثم ذكر تعالـى أنه يأتى بالفتح على المسلميـن بقوله تعالى «فعسى الله أن يـأتى بالفتح أو أمر من عنده»، وذلك علـى ما سبق بيانه من أن «عسى» إذا ما نسبت إليه تعـالى كان معناها الوعد، وأن وعـده تعالى لا يخلف مما مفاده حتميـة وقوع الفتح الموعود بـه. أو إهلاك أعداء المسلمين بأيـديهم ينصرهم الله عليهم كما حـدث بانتصار المسلمين على بنى قـريظة وبنى

.النضير من اليهود.

وبين تعالى أنه حين يأتى وعده المسلمين يكون من المنافقين الندامة على إسرارهم الكفر، والشك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾

ثانيا : التفسير:

قوله تعالى فى الآية هو ذكر لما يقوله المؤمنون لليهود يوم أن يأتى تعالى بالفتح أو بأمر من عنده وهم فيه يشيرون إلى المنافقين الذين يتخلون عن مناصرتهم يومذاك .

فيتندر المؤمنون بفعالهم ويسخرون من اليهود لتخاذل المنافقين عنهم بعد أن أقسموا أنهم يناصرونهم ولا يتخلون عنهم، فيقولون لهم «أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم» .

ويتصور أن يكون القول من المؤمنين بعضهم لبعض يوم يأتى تعالى بالفتح أو بأمر من عنده فيحزن ذلك المنافقين وتظهر عليهم علامات الاستياء فيقول المؤمنون بعضهم لبعض وقد ظهر كره المنافقين المؤمنين: «أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم».

وقوله تعالى «حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين» يتصور أن يكون هو قول المؤمنين لليهود، يقولون فى شأن المنافقين أن جميع فعالهم التى فعلوها معهم من موالاة ومؤازرة وتجسس على المسلمين لحسابهم قد باءت جميعها بالفشل بانتصار المسلمين عليهم فأصبحوا من الخاسرين .

ويقبل أن يكون هو قوله تعالى ذاكرا أن ما فعل المنافقون من فعل المسلمين وما أدوه من

عبادات جميعه لا ثواب لهم عليه، فهو خسارة جهد ومـال فى الدنيا وحرمان من الثواب عليه فى الآخرة فيكون خسرانا مبينا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

أولا: الأســــماء :

١ ـ الأذلـــة : فى قوله تعـالى «أذلة على المؤمنين» جمع، مفرده «ذليـل» ، وهو العاطف على الغير، يتواضع له من علو مرتبته، وهو خلاف الذلول الذى به ذلة فى نفسه.

٢ ـ اللائـــم : هو المعترض مع استنكار ما اعترض عليه.

ثانيا : التفســير:

قوله تعالـى ـ فى مبتدأ الآية ـ إخبـار عن أحداث مستقبلية تحدث وهى ارتـداد بعض من أعلنوا إسلامهم عن الإسلام .

وقد حـدث فى عهده صلـى الله عليه أن ارتدت ثـلاث فرق هى: بنـو مدلج أتبـاع الأسود العنسى الذى ادعى النبوة فى اليمن، وقد قتله فيروز الديلمى .

وبنو حنيفة قوم مسيلمة الكـذاب الذى قتله وحشى ـ قاتل حمزة رضـى الله عنه ـ فى عهد أبى بكر.

وبنو أسد قـوم طليحة بن خويلـد الذى هزمه خـالد بن الوليـد فى عهد أبى بكـر الصديق

رضى الله عنه، ثم أسلم وصلح إسلامه.

ومعنى قوله تعالى «من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنيـن أعزة على الكافـرين يجاهدون فـى سبيل الله ولا يخافـون لومة لائم» هو بيـان لعدم حاجته تعالى إلى أحد من خلقه، وأنه لا يضره كفر من كفر بعد إيمان أبداه أو أظهره.

ثم إنه ذكر لحقيقة ، وهو أنه تعالى قدر نصرة دينـه، وأنه إذا ما ارتد عنه أحد ممن آمن فإنه تعالى يستبدل به من يفضله.

وقد ذكر تعـالى أنه يكون مـن شأن من يدخلون الإسـلام بدلا ممن ارتدوا عنـه، أو من شأن ذرية من آمنوا الذين يشبون على الإيمان أن يكونـوا من الذين ينالون رضاءه جل وعلا فيحبهم على ما تكون عليه محبتـه الصالحين، ويحبونه حب طاعة فيتفانون فـى بذل ما يملكون طلبا لرضائه وحبا فى طاعته، ويكونون من العاطفين على المؤمنين والحانين مع علو مراتبهم ومن الأعزة على الكافـرين القادرين عليهم يتغلبون عليهـم فيعلو قدرهم وقدر المؤمنيـن بهم وهم منهم.

ثم أنهم يجاهدون فى سبيل الله فيقاتلون لرفع راية الدين ولرد اعتداء أعداء الدين، دون أن يخشوا فى هذا اعتراض معترض مهما بلغ من القوة أو التأثير.

والمعلوم من التاريـخ أن شعوبا عديدة وأقوامـا من غير العرب ممن دخلوا الإسـلام كانوا ذوى منعة وقـوة وأنهم كانوا جنـودا للدين دفعوا عنـه اعتداء المعتديـن ونشـروا آياتـه وأعلوا راياته.

كان منهم المصريون وكـان منهم المماليك، وكان منهم الفرس، وكان منهـم أهل القوقاز، بل إن المغـول أنفسهم الـذين اعتدوا فـى فترة علـى مقدسات المسلميـن أسلموا وجـاهدوا لنصرة دين الله .

وقوله تعالـى ـ فى ختام الآية ـ «ذلـك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسـع عليم» مفاده أن جملة الأوصاف التى وصف بها تعالى هؤلاء الذين يأتى بهم الله تعالى بدلا من المرتدين هى من أفضاله التى ينعم بها ويتفضل على من يشاء أن ينعم ويتفضل.

وأنه قد أنعم بها عليهم بحكم علمه الذى وسع كل شىء فعلم تعالى أنهم يحفظون دينه ويجاهدون فى سبيله فيكون فيهم الخير لأنفسهم ولدينه تعالى.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾

التفسـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ خطاب للمؤمنين، جاء فى صيغة إثبات «إنما وليكم الله» لنفى ولاية غير المؤمنين لهم.

فالقول يبطن معنى النهى عن اتخاذ غير المؤمنين أولياء، لأن ولى المؤمنين هو سبحانه وتعالى هو الذى يتولى أمورهم ويحميهم وكذلك فإن وليهم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلأهم برحمته فى حياته ويترك فيهم سنته بعد وفاته صلى الله عليه وسلم.

وهم يوالون بعضهم البعض فلا يتخذ المؤمن وليا يواليه إلا مؤمنا من المؤمنين.

ثم يقول تعالى فى شأن هؤلاء المؤمنين الذين يتخذون أولياء أنهم الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، بمعنى أنهم الذين يأتون جميع الطاعات البدنية منها والمالية.

وهم فيما يفعلون تكون حالهم خشوعا له سبحانه وتعالى.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

التفسـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ حث على اتخاذ الله ورسوله والمؤمنين أولياء وترغيب فى هذا ببيان

أنه تكون الغلبة على العدو والنصر ونيل المبتغى فى الدنيا والآخرة لمن يفعل ذلك .

فمعنى القول هـو أن من يتخذه تعالى ورسولـه صلى الله عليه وسلم المؤمنيـن أولياء يكون من حـزب الله تعالـى أى من جمـاعته أو المنتميـن إليه تعـالى، وهـو تعالـى راعى حـزبه أو جماعته، ولحزبه تعالى العزة والغلبة .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

التفســـــــير:

قوله تعـالى ـ فى الآية ـــ نهى صريح عن موالاة غيـر المؤمنين، جاء تكرارا لمـا سبق ذكره تصريحا و إشارة إظهارا لأهميته وتأكيدا للمعنى المراد إيصاله .

والخطاب فى الآية للمؤمنين، نهاهم تعالـى عن موالاة الذين سخروا من دينهم واستهزءوا به أو برسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحدثوا به فى غير جدية من قبيل اللهو .

وذكر تعالى مـا مفاده أن الذين فعلوا هذا كـانوا من الذين أوتوا الكتـاب من قبل، أى أنهم كانوا من اليهود والنصارى.

ولقد جـاء وصفهم بأنهم مستهـزئون بالديـن لاعبين لبيان شنـاعة فعلهم وسوء أخـلاقهم ليكون فى ذلك استفزاز لهمـم المؤمنين على ترك موالاتهم ثم إنه تعالـى نهى أيضا من موالاة الكفار والمشركين بصريح النص.

وجاء ختام الآية «واتقوا الله إن كنتم مؤمنين» مفيدا اعتبار ترك موالاة المذكورين فى النص من قبيل التقوى، ومفيدا نفى التقوى عمن يخالف نهيه تعالى. وحاثا المخاطبين بالنص على الطاعة ، لأن أحدا منهم لا يحب أن تنتفى عنه صفة الإيمان .

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

التفسير:

قوله تعالى استئناف لذكر فعال المنهى عن موالاتهم فى شأن عبادات المؤمنين لبيان شناعتها ليكون ذلك دافعا المؤمنين على عدم موالاتهم.

فيبين تعالى أنهم إذا سمعوا النداء إلى الصلاة، أو إذا سمعوا تنادى المسلمين بالصلاة جعلوا يتندرون على هذا ويسخرون، متحدثين فى شأنها وشأنهم حديث هزل..

وقد قيل إن الآية تفيد معنى ثبوت النداء على الصلاة بالأذان بالنص القرآنى وليس برؤيا المنام فقط.

.واعترض على هذا بأن النص لا يذكر الأذان، وأن المناداة تكون بأى سبيل.

وبعد أن ذكر تعالى فعل المنهى عن موالاتهم قال تعالى «ذلك بأنهم قوم لا يعقلون»، فأثبت تعالى أن سبب فعلهم هو عدم إحسانهم الفكر وإعمال العقل فهم سفهاء، ولو أنهم كانوا يعقلون لما فعلوا فعالهم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

التفسير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ خطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، أمره ربه أن يخاطب

اليهود والنصارى بصفتهم أهل كتاب، لإبراز معنى خروجهم على الكتاب وفعلهم ما ينافى كونهم أهل كتاب .

فقوله تعالى «قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا» هو أمر بقول جاء فى صيغة استفهام استنكارى يفيد أن فعل اليهود والنصارى هو إنكارهم على المؤمنين أمرا منهم.

والذي أنكروه منهم وعابوه عليهم هو أنهم آمنوا بالله، وما أنزل إليهم من قرآن، وما أنزل من قبل من التوراة والإنجيل التى يدعى اليهود والنصارى أنهم يؤمنون بهما وينتسبون إليهما .

«إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل»، ويشمل المعنى إيمان المؤمنين بجميع ما أنزل على الأنبياء من صحف وزبور.

ويبين سبب نقمة اليهود والنصارى من المؤمنين من باقى القول الذى يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم «وأن أكثركم فاسقون»، ذلك أنه لما كان غالبيتهم متمردة على طاعته تعالى خارجة عن الإيمان فإنه لا يرضيهم أن يروا غيرهم مؤمنين، وذلك من مرض نفوسهم، فبدلا من أن يقتدوا بالمؤمنين فإنهم حنقوا عليهم وحقدوا .

وما ذلك إلا لاستشعارهم فى نفوسهم كفرهم بكتبهم ذاتها فساءهم إيمان المؤمنين بها مع إيمانهم بكتابهم .

قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾

التفسـير:

الخطاب فى الآية موجه إلى رسول الله ﷺ، مضمونه أن يقول لأهل الكتاب الذين ينقمون من المؤمنين ما ورد بنص الآية. والذى ورد هو أن يسألهم قائلا «هل أنبئكم بشر من ذلك

مثوبة» وليس المراد هو الحصول منهم على إجابة تكون بمثابة الإذن ، لأن السؤال يتضمن معنى بيان سبب نقمتهم على المؤمنين وبيان مدى ما فيهم من شر، فهو تبكيت فى إجابة لازمة. ومضمون السؤال على الظاهر أنه ﷺ يقول لهم: «إن الذين هم على شر يزيد على شر نقمكم على المؤمنين، وشر يزيد على ما تريدون لهم من المكاره، والذين هم جزاؤهم عند ربهم شر من جزائكم عنده تعالى، وكمال عبارة النص يفيد المعنى المراد إيصاله وهو أن الذين هم أكثر من المخاطبين شرا هم أسلافهم الذين لعنهم الله وغضب عليهم فمسخ بعضهم قردة، ومسخ بعضهم خنازير، والذين مسخهم الله تعالى قردة هم أصحاب السبت من بنى إسرائيل الذين خالفوا أمره تعالى بعدم صيد السمك فى السبت، والذين مسخهم الله خنازير قيل إنهم شيوخ أصحاب السبت وقيل هم كفار مائدة عيسى عليه السلام، وهم أيضا الذين عبدوا الطاغوت بعبادتهم العجل فى سيناء ملبين الشيطان طائعين إياه، وبطاعته فى أعمالهم. فالقول على هذا يفيد التبكيت بأنه ليس أكثر شرا من المخاطبين إلا أسلافهم، وفيه تدليل على تأصل الشر فى نفوسهم تأصل وراثة .

وقوله تعالى «أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل» يتضمن إشارة إلى أسلاف المخاطبين بالنص وتقرير بأن مكانهم هو الأشر أو الأكثر شرا بين الأماكن، فى كناية بالمكان عن أصحابه، فيكون المعنى أنهم الأكثر شرا بين خلقه تعالى وأكثرهم ضلالا وبعدا عن الحق وعن الحنيفية والإسلام، كان الأسلاف بعيدين عنه بمعناه العام كما جاء فى حنيفية إبراهيم، وابتعد عنه الخلف بكفرهم بالإسلام الذى جاء به محمد ﷺ .

وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾

التفســـــير:

قوله تعالى - فى الآية - موجه إلى رسوله ﷺ والمؤمنين الذين كانوا يحضرونه ﷺ يزدادون إيمانا بحضورهم ويتعلمون ما يتعلمون من شئون دينهم، ويتضمن الخطاب إعلام بحال

المنافقين فهو يخبر عن مجيئهم المؤمنين عند رسول الله ﷺ زاعمين إيمانهم، وحالهم المخبر عنه بقوله تعالى يفيد كذبهم فيما زعموا، ويثبت أنهم عند مجيئهم مجلس رسول الله ﷺ كانوا كافرين، كما يثبت أنهم مع مجالسته والسماع له ﷺ فإنهم خرجوا من عنده كافرين كما دخلوا. وقوله تعالى «والله أعلم بما كانوا يكتمون» مفاده أنه تعالى يعلم دوافعهم على حضور مجلس رسول الله ﷺ مع استقرار الكفر في قلوبهم فيجازيهم به، وفي القول إشارة إلى أنه تعالى مطلع رسوله ﷺ على ما كتموا في قلوبهم.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾

التفســــير:

القول لايزال في الذين ينقمون على المؤمنين من اليهود، والخطاب إلى رسول الله ﷺ، يخبره ربه أو ينبهه إلى ملاحظة ما يراه من أغلبهم وهو مسارعتهم في مقارفة كل حرام والتزام الكذب في القول والفعل، والتعدى على غيرهم بغير حق، وأكلهم المال بالباطل بالرشاء وبالغصب وبالاحتيال، والمراد بملاحظة فعال هؤلاء هو الاستدلال على فساد طبعهم الذى يناله وصف الله تعالى هذه الفعال بأنها بئس صنيعهم بقوله تعالى «لبئس ما كانوا يعملون».

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

التفســــير:

جاء قوله تعالى في الآية من بعد ذكره ما عليه اليهود من الكذب في الفعل والقول وأكل المال بالباطل. فجاء قوله في الآية مبينا إثمهم بهذا وتحفيزا للربانيين والأحبار الذين استحفظوا على التوراة على نصحهم وإظهار فعل إثمهم لهم لينتهوا عنه. فمعنى «لولا» في

عبارة النص هو «هلا»، فيكـون مراد القول هو حث الربانيين والأحبار علـى الفعل المذكور فى النص، وهو نهى اليهود عن الكذب وادعاء الباطل وأكـل الحرام. وقوله تعالى «لبئس ما كانوا يصنعون» هو بيان لأن بئس فعال اليهود هو فعـل هذه الموبقات. ويقبل المعنى أن يكون نعتا لسوء عمل الأحبار الذين لا ينهون اليهود عن كاذب القول وعن أكل السحت عمدا.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾

أولا : الأســـــماء :

المغلول : فى قـوله تعالـى «وقالت اليهود يـد الله مغلولة» هـى المقيد الذى لا يقـدر على حراك، والتعبير باللفظ فى الآية جاء كناية عن البخل .

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالـى ـ فى الآية ـ فى اليهود ، نـزل بسبب واقعة مفادها أنه أصـاب اليهود نقص فى الرزق وكان تعـالى قد أكسبهم الأموال فقال زعمـاؤهم «يد الله مغلولة» أى أنه تعـالى أمسك عنهم يده وبخل. ولما كان فى قولهم هذا اجتـراء عليه تعالى ونفاد صبر وعصيان وعدم طاعة فإنه تعالـى دعا عليهم بقوله تعالى «غلت أيـديهم ولعنوا بما قالوا» فأوضـح تعالى أن رميهم بالبخل، أو بأخذهم فـى الدنيا أسارى معذبين، ولعنهم بإخراجهم مـن رحمته تعالى قد تقرر منه تعالى بسبب قولهم هذا .

ثم إنه تعالى ذكر أنه تعالى المعطاء الجيد الكريم، جاء التعبير عن هذا بقوله تعالى «بل يداه مبسوطتان». ثم أوضح تعالى بقوله «ينفق كيف يشاء» أن كيفية التكرم منه تعالى بالعطاء وتعيين المعطى، ووقت العطاء من أمره تعالى وحده، فيكون القول مشيرا إلى جهل القائلين قولهم وعدم وعيهم وإحاطتهم بما يكون منه تعالى في شأن العطاء والمنح.

وبعد ذلك يذكر تعالى حال هؤلاء اليهود منه ﷺ ومن القرآن المنزل منه تعالى عليه، فيقول تعالى «وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا» فبين تعالى أن الذى ينزل عليه ﷺ من قرآن ربه يكون من شأنه أن يزيد علماءهم ورؤساءهم طغيانا فوق طغيانهم وكفرا على كفرهم. والقول بهذا المعنى يفيد إصرارهم على الكفر.

وقوله تعالى «وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة» يقبل أن يكون المراد به أنه تعالى قدر استحكام العداوة والبغضاء بين طائفتى أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى يوم القيامة، فيكون الضمير المتصل فى «بينهم» عائدا على أفراد الطائفتين، ويقبل أن يكون المراد به هو أن تكون العداوة بين طوائف اليهود إلى يوم القيامة.

ويجىء قوله تعالى «كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله» مفيدا أنه تعالى قدر أنهم إذا ما تأهبوا للكيد للمؤمنين وأعدوا للأمر عدته فإنه تعالى لا يكمل عملهم، وفى التعبير بإيقاد النار للحرب علاقة بالعادة التى كانت معروفة فى الجاهلية من إيقاد النار تدليلا على اعتزام الحرب. والمعنى المستدل عليه من الآية هو أن الله لا ينجح لهم مسعى للنيل من المؤمنين وإيذائهم يكونون قد بدأوه، وأنه تعالى يفسد عليهم نواياهم السيئة .

وتختتم الآية بقوله تعالى «ويسعون فى الأرض فسادا ، والله لا يحب المفسدين» وهو قول يتضمن التقرير بواقع أنهم يكيدون للمسلمين بكل فعل يقدرون عليه، وأنه تعالى يبغضهم لأفعالهم، ومفاد القول أنه تعالى يفسد آثارها فى الدنيا ويعذبهم بها فى الآخرة .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾

التفسير:

قوله تعالى ــ فى الآية ــ فى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، جاء فى صيغة جملة شرطية، أداة الشرط فيها «لو» لبيان امتناع وقوع فعل الشرط؛ ولهذا يكون الإشارة إلى الفئتين باعتبارهما أهل الكتاب من قبيل التوبيخ لهم بعملهم بخلاف وصفهم.

ومعنى قوله تعالى أنهم لو كانوا قد آمنوا بكتبهم حقا وصدقوها فلم يحرفوها ولم يتبعوا ما زيفوه فيها، مما كان مقتضاه إيمانهم برسول الله ﷺ المبشر به فى كتبهم والموصوف فيها، واتقوا الشرك والعصيان لكان تعالى قد كفر عنهم سيئاتهم السابقة ولم يؤاخذهم بها، ثم جعل مصيرهم فى الآخرة دخول جنات النعيم.

وقوله تعالى هذا يثبت عدم إيمان أهل الكتاب بكتبهم إيمانا صحيحا، مع عدم إيمانهم برسول الله ﷺ، كما يثبت أن الإيمان يَجُبُّ ما قبله من الكفر.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٦)

أولا: الأسماء:

المقتصد: فى قوله تعالى «منهم أمة مقتصدة» هو الذى يكون سلوكه بين الإسراف والتقتير، ويطلق على العادل وقيل: إن المراد بالأمة المقتصدة ــ فى معنى الآية ــ الذين أسلموا، وقيل إن المراد بها قوم لم يؤمنوا ولكنهم لم يكونوا من المؤذين المستهزئين.

ثانيا: التفسير:

قوله تعالى ــ فى الآية ــ استئناف لبيان حال أهل الكتاب، جاء شطر من عبارة نص الآية

فى صيغة جملة شرطية، أداة الشرط فيها «لو» لبيـان امتناع وقوع فعل الشرط، ومعنى القول أنه لو كان أهل الكتاب قد راعوا أحكام التوراة والإنجيل وأوفوها حقها كما أنزلها تعالى، بما فيها ما ورد من تبشيـر به ﷺ وأمر بالإيمان لـه، ثم أقاموا القـرآن الذى أنزل إليهم من ربهـم لكونه منزلا إلـى جميع خلقه تعالـى، فآمنوا بـه وصدقوا وعملـوا به وبأحكامـه، لكان منه تعـالى أن رزقهم مـن خير السماء والأرض مـا يوسـع به تعالـى عليهم، فينزل عليهـم المطر مـن السماء وتؤتى الأرض أكلها فيفيض عليهم تعالى من رزقه.

وجاء الشطر الثانى من عبارة الآية فى صيغة عبارة تقـريرية تضمنها قوله تعالى «منهم أمة مقتصدة، وكثير منهم ساء ما يعملون». فبين تعالى أن من أهل الكتاب فئة عادلة، تمثل عدلها فى الإيمان لرسـول الله ﷺ ـ فى قول ـ وفى الامتنـاع عن إيذاء المؤمنين والاستهزاء بهـم ـ فى قول آخر ـ ثم بين تعالى أن هؤلاء المقتصدين قلة بالنسبة لباقى أهل الكتاب بتقريره تعالى أن أكثرهـم يرتكبـون أسوأ الأعمال المتضمنـة مكابـرة وعنادا واستمرارا علـى التحريـف تمسكا بالباطل وإعلاء له على الحق، على ما يبين من ذمه تعالى فعال هؤلاء الغالبية.

وقوله تعالى هـذا يثبت عدة أمور، فهو يثبت عدم إقامة أهل الكتـاب كتبهم، فهو يدل على أنهم لـم يؤمنوا بها إيمانا كاملا ولـم يعملوا بها، ويثبت أن القرآن العظيم أنزل منه تعالى ليبلغه رسول الله ﷺ للكافة ليؤمنـوا به، كما يثبت أن أهل الكتاب المقصودين بالنـص لم يؤمنوا به، ويبين منه أن أهل الكتاب كانوا وقت نزول قولـه تعالى فى حال من الجدب. قترت عليهم فيه السماء بـالغيث وبخلت عليهـم الأرض بثمارها، ويدل علـى أنه تعالـى يرزق المؤمنيـن فى الدنيـا، وهو مـا يدل عليه قـوله تعـالى «ومن يتـق الله يجعل لـه مخرجا ويـرزقه مـن حيث لا يحتسب». ويفيد أن البعـض من أهل الكتاب يعدل فـى الفعل مع المؤمنين فـلا يعمل على إيذائهم أو السخريـة منهم على حين أن أغلبهم على عكـس ذلك فى فعالهم المذمـومة مع المؤمنين.

■■■■■

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾

التفســـــير:

الخطاب فـى الآية موجـه إلى رسول الله ﷺ، وهـو أمر أن يبلغ القـرآن المنزل إليه مـن ربه جميع خلقه من الإنس والجن، ونحن نعلم كيفية إبـلاغه ﷺ قرآن ربه الإنس، أما إبلاغه إياه الجن فلا نعلم منـه إلا أمر حضور نفر من الجن تـلاوة القرآن وذهابهم إلى قومهـم مخبرين به ومبشرين. ويفيد الأمر معنى الجهر بالإبلاغ والدعـوة من بعد ستر. وفى مضمون المبلغ به فهو القرآن العظيم متضمنا نبأ السـابقين وخبر الآتين وحكم القائمين، ومعلوم أنـه لم يحط بعلوم القرآن كاملة إلا سبحـانه وتعالى ثم رسول الله ﷺ فيمـا خلا ما استأثر تعالـى بعلمه، ثم ورث عنه معظمه كبار الصحابة وأعلامهم ومنهم الخلفـاء الأربعة، ثم تضاءل أهل العلم وقل العلم بما فيه مـن أسرار، فيكون فى إبـلاغ القرآن إبلاغ بجميع مـا فيه من الأسرار، ويبقـى أن يكون التوقيف على أسراره سرا لم يثبت بصريح العبارة لكل الناس.

ثم إنه تعالـى يبين لرسوله ﷺ أنه إذا لم يفعـل ما أمر به من إبلاغ الرسـالة والقرآن جميعه إلى جميع من أمر أن يبلغهم إياهما فإنه يكون شأنه شأن من أغفل جميع ما ألزم، جاء التعبير بلفظ الرسـالة منسوبة إليه تعـالى لبيان أن أى تقصير فـى عمل من الأعمال المرتبطـة بإبلاغ القرآن يعد تقصيرا فـى أداء الرسالة يفيد تضييعها، وحاشـاه ﷺ أن يقصر فى أداء واجب أو أن تفتر همته عن البذل فى سبيل نشر الرسالة.

وقولـه تعالى «والله يعصمـك من الناس» لـه معنى خـاص هو طمأنتـه ﷺ إلى أنه تعـالى يحميه من أذى الكافرين عندما يعلن دعوته من بعد كتمان، وله معنى عام هو أنه تعالى تكفل

بحمايته ﷺ من الناس عموما، فلا ينالونه بأذى .

وتختتم الآية بقوله تعالى «إن الله لا يهدى القوم الكافرين»، فهو لا يهديهم إلى إيذائه ﷺ ولا يمكنهم من ذلك لعصمته تعالى رسوله من الناس. وهو لا يهديهم إلى الإيمان لإصرارهم على الكفر الذى اختاروه.

ويستفاد من قوله تعالى - فى الآية - زيادة على المعنى الظاهر التزام العلماء بإبلاغ ما لديهم من علم صالح إلى الناس واعتبار ذلك واجبا عليهم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

التفسير:

قوله تعالى - فى الآية - خطاب إلى رسول الله ﷺ، جاء جزء منه بأمر يتضمن تقريرا بواقع حال أهل الكتاب، وجاء منه جزء آخر تقريرا لواقع فعالهم بعبارة صريحة، واختتم بنهى يرتبط بما سبق التقرير به برابطة سببية.

فقوله تعالى «قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم» جاء أمرا أن يقول رسول الله ﷺ مضمون ما ذكره قوله تعالى، ومفاده أن أهل الكتاب ليسوا على دين صحيح فيما هم عليه من الملة، وأنهم لا يعتبرون على دين صحيح إلا إذا أقاموا التوراة والإنجيل، وهما الكتابان المنزلان إلى موسى وعيسى عليهما السلام اللذين يزعم أهل الكتاب أنهم عن دين كل منهما، ولا تكون إقامة التوراة والإنجيل إلا بإيفائهما حقوقهما من عدم تزييفهما ومن إيمان بهما وبما تضمنا من إخبار عن رسول الله ﷺ وأمر باتباعه، ولا يكمل لهم دين الحق مع إقامة التوراة والإنجيل إلا بإقامة ما أنزل إليهم

من النبيين، وقد سبق بيان ما تضمنه سفر إشعياء فى كتاب العهد القديم من تبشير برسول الله ﷺ، ووصفه وبيان دخوله مدينته على ناقة، وما يكون من المسلمين فى موسم الحج من شعائر وتعيينه أماكن الشعائر مما لا يثور معه شك فى تعلق بشارته برسول الله ﷺ، وكذا بإقامة القرآن العظيم الذى أنزل إليهم مع من أنزل إليهم من كافة البشر.

وقوله تعالى «وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا» تضمن معنى إخراجهم أنفسهم بأيديهم من عداد الذين أنزل إليهم القرآن، وذلك على ما يستفاد من ذكر إنزاله عليه ﷺ من بعد سبق ذكر إنزاله عليهم. وتضمن معنى أن القرآن العظيم كان بإصرارهم على الكفر سببا لتماديهم فى الظلم والكفر بدلا من أن يكون سبباً لهدايتهم. فيكون القول مقرراً واقع حال أهل الكتاب.

ويجىء قوله تعالى ــ فى ختام الآية ـ فلا تأس على القوم الكافرين ـ نهيا عن الحزن من فعال أهل الكتاب أو من الحزن عليهم لعدم إيمانهم، والمعنى المقصود منه أنه تعالى مغنيه عن عدم إيمانهم إيمان المؤمنين. ومفاد القول التقرير بأنهم كافرون، وأنهم ليسوا أهلا للإيمان بما يستدعى الأسف عليهم أو على أحوالهم، وأنه تعالى معذبهم عذاب الكافرين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

أولا: الأســــماء:

الصابئون: جمع، مفرده الصابىء، قيل إنهم الذين اتبعوا دعوة إدريس عليه السلام وأن ملته كانت الصابئة، قوامها توحيد الله تعالى، والطهارة وأداء العبادات ومنها الصوم، وفى قول إنه أوزوريس على ما يستفاد من أنه دعا بدعوته فى مصر، ومن وجود تعليمات مدونة فى الآثار القديمة تتضمن التوحيد بالله والحض على ما تحض عليه الحنيفية والنهى عما تنهى

عنه ممـا لايتصور أن يكون نتـاج تطور طبيعي للشعوب ممـا مفاده أنه مـن تعاليم نبـى، وقيل إنهم المنسوبـون إلى صابىء بن متوشلـح بن إدريس عليه السلام. وقد تغيـرت عقيدة هؤلاء على زمـن إبراهيـم عليه الصلاة والسـلام فكانوا مـن أصحاب الـروحانيات الـذين قـالوا إن الروحـانيات نـورانية علـوية لطيفـة حين أن الجسمـانيات ظلمـانية سفليـة كثيفة، فهمـا لا يتساويـان، وأن الروحانيـات تفضل الجسمـانيات بقوتـى العلم والعمل، ولهـا قوة تصـريف الأجسام وتقليـب الأجرام، وأن لها اختيـارات صادرة من الأمـر متوجهـة إلى الخير لا يشـوبها الشر.

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالى ـ فـى الآية ـ فى الحث على الإيمان بالإسلام دينا والـدخول فيه، وذلك ببيان أن الدخول فى الإسلام يقطع ما بين من أسلم وبين سابق عهده الذى كان عليه فى اتباع ملة من الملل، وهو المعبر عنه بأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله.

فقوله تعالى «إن الـذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى مـن آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحـا» يفيد معنى المساواة بين الذين آمنـوا بأفواههم ولم تؤمـن قلوبهم ـ أى المنافقـون ـ والذين اعتنقـوا اليهودية والصابئيـن والنصارى فى عـدم اعتبارهم مؤمنيـن على الحقيقة إيمانا يقبله تعالى، ويفيد معنى أن المراد بـإيمانهم بالله واليوم الآخر وعملهم صالحا هو دخولهم الإسـلام والعمل بأوامره ونواهيه ــ ومن المأمور به فيه الطـاعات والعبادات تؤدى على مـا جاءت به نصـوص القرآن وبينته السنة ــ ومفاد القول أنـه إذا آمن المنافقـون واليهود والصابئة والنصارى بالإسلام دينا إيمانا صحيحا وقرنـوا ذلك بالعمل الصالح الذى يثابون به فى أخراهم، فإنه يكون لهم ألا يخافوا معاقبتهـم بما سلف من أمرهم، إذ يكون أمرهم فى هذا شأن المؤمنين من مبتدأ أمرهم .

ويلاحظ فى شأن النص القـرآنى أنه ورد فيه لفظ «الصابئون» مرفوعا، وظـاهر النص يوحى بأنه معطـوف على منصوب، وواقع الحال أن اللفـظ جاء مبتدأ حذف خبره لـدلالة خبر «إن» عليه فكأن عبارة النص هى «إن الذين آمنوا والذيـن هادوا من آمن بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون»، والصابئون والنصارى كذلك».

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

التفســـــير:

قولـه تعالـى ـ فى الآيـة ـ فـى شأن بنى إسـرائيل لبيـان المزيـد من جنايـاتهم المـرتبطة بعصيانهم ما أمروا به فى كتابهم الذى لم يقيموه، فيذكر تعالى أنه أخذ منهم العهد الموثق أن يؤمنوا، أخذه عليهم فـى التوراة أن يؤمنوا بما جاء فيها وفيه أمرهـم أن يؤمنوا لرسول الله ﷺ إذا ما جاء ودعاهم للإيمان ، وأخذه عليهم أنبياؤهم.

ثم إنه كان منه تعالى أنه أعلمهم ـ فى التـوراة ـ أنه يكون منه تعالى أنه يبعث لهم الأنبياء لتصحيح عقيدتهم كلما انحـرفوا بها إلى أن يبعث النبى المبشربه خـاتم المرسلين، وأوضح لهم وسيلة التفـرقة بين مدعى النبـوة وبين الأنبياء المرسلين منـه تعالى، ثم إنه تعـالى أرسل إليهم الأنبياء علـى ما أخبرهم فـى التوراة، ولكن الذى كـان منهم معهم أنهم كلمـا تضمنت تعاليـم نبى مـن الأنبياء مـا يخالف أهـواءهم الضـالة سواء أكـان ذلك فـى شأن التكـاليف التعبدية أم فى شأن المعـاملات أنهم يسلكون معه أحد سبيلين : إما تكـذيبه بمعنى تكذيب دعواه، وإما قتله من بعد تكذيبه.

ومن القـول يبين أنه تعـالى أرسل إلـى بنى إسرائيـل أنبياء كثيريـن، بما يفصح عـن كثرة ارتدادهم عن الإيمـان وعن الطاعة، وأن الذين كذبـوهم من الأنبياء كانوا عديـدين، وكذلك كان الذين قتلوهم منهـم عديدين، وأنهم قد اعتبروا الأخيرين مدعيـن نبوة فقتلوهم بهذا على حين أنهم لم يعتبروا الأوليـن مدعين نبوة بل محض مصلحين، ولذلـك اكتفوا بتكذيبهم دون قتلهم.

■■■■■■

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٧١﴾

التفسير:

قوله تعالى - في الآية - استئناف لذكر فعال بني إسرائيل الدالة على تأصل العصيان في نفوسهم وعدم اعتبارهم بما يحيق بهم من أنواع الأجزية في الحياة الدنيا. فيبين من قوله تعالى في الآية أنهم لما اعتقدوا أنه تعالى لا يصيبهم بعذاب أو بلاء لكونهم - في اعتقادهم الباطل - أبناء الله وأحباءه، أو لعهد قطعه تعالى مع أبيهم إبراهيم الذي يدعون كذبا انتسابهم إليه في الملة والدين، أو مع أبيهم يعقوب، فإنهم أغمضوا عيونهم عن العقيدة الصحيحة التي وردت بها التوراة، وعن الآيات التي أيد تعالى بها رسله فكذبوهم، فكانوا كأن بهم عمى، كما أنهم أصموا آذانهم عن سماع الحق من أنبيائهم فكفروا به وبهم، وقتلوا منهم من قتلوا.

ويبين من قوله تعالى «ثم تاب الله عليهم» أنه قد أصابتهم الفتنة أو العذاب، وأنه أعقب ذلك توبتهم التي قبلها سبحانه وتعالى. والمشهور - في شأن هذه الفتنة أو هذا العذاب - أنها دخول بنوخذ نصّر ملك بابل بيت المقدس وهدمه وتنكيله ببني إسرائيل وقتله منهم كثيرين وأخذ السبايا والأسرى منهم وعيشهم في الشتات. ثم كان منه تعالى بعد أن تابوا وقبل تعالى توبتهم أن جعل كورش ملك فارس يعيدهم إلى بيت المقدس ويعيد بناء المعبد ويحسن إليهم.

ثم يبين سبحانه وتعالى أنهم قابلوا نعمته تعالى عليهم بردهم من الشتات والإحسان إليهم بتكرار عصيان الكثيرين منهم الذين أغمضوا عيونهم عن رؤية الحق وأصموا آذانهم عن سماع أقوال أنبيائهم وكفرهم بهم وقتلهم منهم كثيرين منهم زكريا - على المشهور - ويحيى الذي شاركوا في قتله الحاكم الروماني، وكفرهم بعيسى عليه السلام وزعمهم أنهم

صلبوه وقتلوه بمساعدة الحاكم الرومانى، وقد يكون مفاد النص أنهم جميعا كثر منهم إغماض عيونهم عن رؤية آياته تعالى وعن سماع دعوة أنبيائهم .

واختتام الآية بقوله تعالى «والله بصير بما يعملون» هو وعيد منه تعالى للذين هم على نهج آبائهم سائرون يغمضون عيونهم عن آياته تعالى الدالة على نبوة رسول الله ﷺ ويصمون آذانهم عن سماع دعوته فلا يؤمنون، وهو بيان لكونه تعالى معذبا أسلافهم بما كان منهم الله أحاط تعالى به علما لكونه شاهده والشاهد عليه.

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ شروع فى ذكر جنايات النصارى من بعد ذكره تعالى جنايات اليهود، ويبين من قوله تعالى ـ فى الآية ـ أن هناك من قال إن الله هو المسيح ابن مريم، والقائلون بهذا من طوائف النصارى هم طائفة اليعقوبية، قالوا بالأقانيم الثلاثة وقالوا معها «انقلبت الكلمة لحما ودما فصار الإله هو المسيح، وهو الظاهر بجسد بل هُوَ هُوَ» ، وقد أثبت تعالى بصريح عبارة النص أن القائلين بهذا كافرون وأنهم كفروا بقولهم هذا القول إن لم يكونوا من قبله كافرين. وفى نسبته تعالى المسيح إلى أمه ما يفيد أنهم قد عموا عن حقيقة كونه عليه السلام بشرا مولودا من امرأة .

وبعد ذلك بين تعالى أن قول قائلى هذا القول يخالف قول المسيح ابن مريم عن نفسه، فيبين من النص ـ فى مقام أول ـ أنه عليه السلام أرسل إلى بنى إسرائيل وفيهم كانت دعوته، وأن دعوته عليه السلام تعلقت بتصحيح العقيدة فدعت إلى عبادة الله تعالى وأقر له المسيح

بالربوبية وأقر بالتساوى بينه وبين بنى إسـرائيل فى صفة البشرية وفى العبودية لله والخضوع له ـ فى مقام ثان ـ على ما يبين من قوله لهم «اعبدوا الله ربى وربكم».

ثم يبين من نـص الآية أن عليه السلام قد علم ـ بـوحى الله إليه ـ أنه يوجد مـن أتباعه من يدعـى ألوهيته محتجـا بما كان منـه عليه السلام بـإذن ربه من إحيـاء الموتى وشفـاء الأكمه والأبرص وخلقه من الطيـن كهيئة الطير فينفخ فيه فيصير طيرا بـإذن الله، فيقول إن هذا لا يكون إلا من إله ويستنتـج من هذا أنه عليـه السلام إله. حذر عليـه السلام من التردى فـى هوة هذا الباطل فأثبت أنه شرك بالله وتوعد قائلى هـذا القول ومعتقديه بأنهم يحرم عليهم فى أخراهم دخول الجنة، لتكون النار لهم هى المأوى الذى يأوون إليه.

وقوله تعـالى ـ فى ختام الآيـة ـ «وما للظالمين مـن أنصار» يتصور فى شأنـه أن يكون قول المسيح عليه السلام فيكون قد صدر منه إعلاما للذين يدعون ألوهيته أنهم يعذبون باعتقادهم وقولهم فيه غير الحق، تحذيرا لهم من أن يقولوا به فيعذبوا ولا يجدون من يدفع عنهم العذاب ولا من يخفـف عنهم منـه. ويتصور أن يكون قـوله تعـالى يصـف القائلين بـألوهيـة المسيح بالظلم، لأنهم يظلمون بـه أنفسهم بإيرادها النار، ومعلما إياهم أنهـم واردوا جهنم به لا يدفع عنهم عذابهم ناصر ولا يخفف عنهم منه شيئا.

لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

التفســـــــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى شأن طائفة أخرى من طوائف النصارى تقول بالتثليث، بمعنى أن الآلهة ثلاثة، وأن الله واحـد منهم، ومن هؤلاء الملكانية يقولـون إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتـدرعت بناسوتـه ويعنون بالكلمـة «أقنوم العلـم» ويعنون بـالروح القـدس «أقنوم

الحياة»، ويسمون العلم بعد تدرعه ابنا هو المسيح عليه السلام ومن أقوالهم ـ فى هذا ـ إن المسيح ناسوت كلى وليس جزئيا. وهو قديم أزلى، من قديم أزلى، وقد ولدت مريم إلها أزليا وقد أطلقوا لفظ الأبوة والنبوة على الله تعالى وعلى المسيح عليه السلام، ومنهم النسطورية قالوا بالأقانيم الثلاثة: الوجود والعلم والحياة، ومنهم طوائف تقول إن الأقانيم الثلاثة هى: الأب ـ وهو الله تعالى ـ والابن ـ هو المسيح عليه السلام ـ والروح القدس، وهو الكلمة عند بعضهم، وجبريل عليه السلام عند آخرين .

وقد قطع قوله تعالى: «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة» بكفر القائلين بعقيدة التثليث هذه، بمعنى أنهم باقون على كفرهم، ثم إنهم يزدادون بهذا القول كفرا على كفرهم.

ثم إنه تعالى يثبت فى عبارة جازمة أنه ليس من إله للكون جميعه يستحق أن يعبد إلا إله واحد، ليس له شريك، وذلك بقوله تعالى «وما من إله إلا إله واحد»، وفيه جاءت «من» مزيدة. فالقول قطع بوحدانيته تعالى، وإشارة إلى كفر القائلين بتعدد الآلهة .

وبعد ذلك يحذر تعالى القائلين بعقيدة التثليث، والذين يشركون بها من الله تعالى آلهة أخرى، ويتوعدهم بسوء المصير بقوله تعالى «وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم» فتضمن قوله تعالى نهيا لهم عن الاسترسال فى هذا القول، ثم إنه تعالى قرن نهيه هذا بتوعد الذين لا ينتهون بعذاب أليم. وقد وصفهم تعالى بأنهم الذين كفروا، بمعنى الذين قرفوا كفرا جديدا فوق كفرهم بعدم الإيمان لرسول الله ﷺ، ثم أشار إلى عذابهم بهذا القول بأنه «عذاب أليم» لم يذكر ماهيته بتنكيره مع وصفه بالإيلام لمزيد من الترهيب.

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾

التفســـــير:

جاء قوله تعالى ـ فى الآية ـ «أفلا يتوبون إلى الله» فى صيغة استفهام للإنكار والتعجيب من أمرهم، أنهم يقولون بغير ما دعاهم إليه المسيح عليه السلام وبغير ما يقبله عقل، يتساوى فى هذا القائلون إن الله هو المسيح ابن مريم عليه السلام، والقائلون بعقيدة التثليث، وأنهم لا

تنفتح عيونهم على رؤية الحق وتسمع آذانهم قول المسيح عليه السلام فيتوبوا إلى الله من كفرهم ومن قولهم الإثم بدعواهم الباطلة، ويطلبوا منه مغفرة ذنوبهم التى ارتكبوها.

ثم يفتح تعالى باب التوبة أمام من يشاء أن يهديه بقوله تعالى «والله غفور رحيم» مفيدا معنى أنه تعالى يقبل توبة من يتوب منهم عن الكفر وعن القول المنهى عنه ويستغفره تعالى، وأنه يقبل توبة التائب ويغفر له ما سبق من ذنبه بوافر رحمته.

مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

التفسير:

قوله تعالى - فى الآية - «ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة» وقد ورد فى عبارة جملة منفية متضمنة استثناء لإفادة إثبات حقيقة المسيح وأمه، من بعد بيان خطل قول القائلين بألوهية المسيح عليه السلام وقول القائلين بعقيدة التثليث، وقوله تعالى فى الآية يفيد عدة أمور. فهو يفيد إظهار حقيقة المسيح عليه السلام بتقرير طبيعته البشرية بإثبات أنه عليه السلام ولد من امرأة شأن جميع ولد آدم، ويفيد تشريفه ببعثه رسولا من رب العالمين - بما ينفى ربوبيته - ويفيد أنه يماثل من سبقوه من الرسل الذين خلوا، فشأنه شأنهم لا يختلف عنهم إلا من جهة الآيات التى اختصه الله تعالى بها كما اختص كل رسول بآيات .

ويفيد أن أمه صديقة، وفى هذا يبين قوله تعالى خطل عقيدة «المريمية» الذين قالوا إن مريم إله أو أم إله، كما يثبت خطل عقيدة القائلين بأنها محض امرأة كسائر النساء لم تفضلهن بشىء. أو حسب تصويرهم : «هى مثل القنينة تحوى عطرا، متى أفرغ منها انعدمت

قيمتها»، فأثبت تعـالى أنها صديقة، كانت صـادقة القول، وصدقت مع الله تعـالى، وصدقها تعالـى بإبـرائها ممـا رماهـا به اليهـود من الـزنا، وصـدقت بكلمـات ربها وكتبـه، وصدقـت بالأنبيـاء.

وبعد ذكره تعالى ما شرف به المسيح عليه السلام وأمـه فإنه تعالى ذكر ما يتشابهان فيه مع جميع بنـى آدم وجميع جنـس الحيوان ، ليبين مـدى ابتعاد القـائلين بألـوهية المسيـح عليه السلام، أو بألوهيته وأمـه، أو بعقيدة التثليث عن العقل، مما مفاده إبراز وجـه يثير التعجب من أصحاب هذه العقائد، فقـال تعالى «كانا يأكـلان الطعام» فأفاد أنهما كانـا يشعران بالجوع، وكانا يسعيان لإشباع جوعهما بتناول الطعام، وكانا ــ شأن جميع الطاعمين طعاما ـ يخرجان فضلات طعامهما. وجميع هذا مما لا يتصور فى إله .

ويجيء قوله تعالى ــ فى ختام الآية ـ «انظر كيف نبين لهم الآيات ثـم انظر أنى يؤفكون» والخطاب فيـه إلى رسول الله ﷺ ولكـل ذى عقل من بعـده، للتعجيب مـن أمر هؤلاء الـذين يقولون بألوهية المسيح عليه السلام أو ربوبيتـه. والقائلين بعقيدة التثليث، يشاهدون البراهين الساطعة على بشرية المسيح عيسى ابن مريم وأمه، ثم يكون منهم القول بأنهما إلهين، أو بأنه عليه السلام إله، فيتردون بذلك فى غياهب الجهـالة والضلال مع أنهم نظروا ما يبعد بالعقول المستنيرة عن مثل ذلك، فدلوا بذلك على تـأصل الكفر فى نفوسهم، و إصرارهم على العمى عن نور الحق وسماع القول فيه .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

التفســـــير:

الخطاب فى الآية ـ موجه إلى رسول الله ﷺ ، ويقـوله المؤمنون من بعده للمداومين على عبادة غيـره تعالى مـن البشر والأصنـام والكواكب وغيـرها، ويدخـل فيهم القـائلون بألـوهية

المسيح عليـه السلام ـ الذين أمـرﷺ أن يتوجـه إليهم بـالقول، والذيـن أصبحوا يقـدسون الصليب ذاته ويعبدونه. وقوله تعالى «قـل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا» قد جاء للتبكيت والتـوبيخ بعد ما سبقه من قـول يفيد التعجيب من قولهم. والأمـر الذى دعا إلى توجيه قـوله إلى هؤلاء الذين قالوا بـألوهية المسيح أوبربوبيته بما يبكتهـم ويوبخهم هو عبادتهـم المسيح عليـه السلام، ولغيـرهم هـو عبادتهـم كل معبـود من دونـه تعالـى، وسبب التبكيت والتوبيخ هو غياب عقولهم عن إدراك حال من لا يملك لهم أن يضرهم بشىء ولا أن ينفعهم بشىء، فلم يكن المسيح عليه السلام وهو جنيـن فى بطن أمه، ثم وهو طفل، ثم صبى يستطيع أن يضـر أحدا بشـىء ولا أن ينفعه، فضـلا عما يذكـره الإنجيل المـوجود بيـن أيادى عابديـه من أنه عليه السـلام دعا ربه أن ينقذه مما يـراد به من أذى، فلقد جـاء فى الإصحاح السادس والعشرين من إنجيـل متى أنه عليه السلام خر على وجهه وكـان يصلى قائلا يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عنـى هذه الكأس، ولكن ليس كما أريـد أنا بل كما تريد أنـت»، فهذا القول يدل على أنه عليه السلام لم يكن يملك أن يدفع عن نفسه ذاته ضررا فلجأ إليه تعالى ساجدا داعيا، مقرا بأن إجـابة الدعاء له تعالى. تكـون وفق مشيئته تعالى. وما يقـال فى شأن المسيح عليه السلام من عدم قدرته بذاته على الإضرار بـأحد ولا على نفعه إلا بالله كما كان منه تعالى فى المعجزات التى أجراها على يديه بإذنه، يقـال ـ من باب أولى ـ فى كل معبود آخر، فيكون فى عبادته على عجزه عن أن يضر أو ينفع ما يستوجب التبكيت والتوبيخ .

وقوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «والله هو السميع العليم» يفيد معنيين:

أولهما : أنه تعالى يسمع ما يتوجه به عابدوا المسيح عليه السلام وغيره من المعبودات من دونه تعالى مما يتوجهـون به إلى معبوديهم ويعلم فعالهم وما تكنه قلـوبهم من عقائد فاسدة فيحاسبهم بهذا ويعذبهم بعدله تعالى.

وثانيهما : بيـان أنه تعالى هـو الذى يسمع كلام وصـوت وحركة كل مخلـوق ويعلم فعله وإسراره، علـى حين ليس لغيره مـن المعبودات هذا، فيكـون تعالى هو وحـده المستحق أن يُعبد .

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾

التفســـــير:

قوله تعـالى ـ فى الآيـة ـ موجه إلى رسـول الله ﷺ يقول لأهل الكتاب جميعـا من اليهود والنصارى مـا تضمنته عبـارة الآية، ويقولـه المؤمنـون من بعده عليـه الصلاة والسـلام لأهل الكتاب.

ومضمون القول هـو النهى عن الغلو فـى الدين بتجاوز الحـق فيه وتخطيه بالإعـراض عن الأدلة وباتباع المتشابه، وقد كان الغلو فى الـدين من فئتى أهل الكتاب، فاليهود حسبوا أنهم يحسنون إلـى دينهم وعقيـدتهم بقـولهم فـى المسيح عليـه السلام إنـه ابن سفـاح وفى أمـه الصديقة إنها زانية، والنصـارى حسبوا أنهم يحسنون إلى دينهم ورسولهم بقـولهم إنه إلٰه، أو ابن الله، أو أحـد آلهة ثـلاثة. وهذا وذاك مـن الغلو فـى الديـن إلى درجـة النأى عـن الحق تمامـا.

ثم تكرر النهى منه تعـالى بقوله «ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا مـن قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل». فنهاهـم القول عن أن يسيروا على سنة أسلافهم القـدامى والأقربين، فقد كان مـن أسلاف اليهـود أن اتبعوا أهواءهـم فعبدوا العجـل، وعصوا موسـى، وحرفـوا التوراة وحرموا ما أحـل الله وأحلوا ما حرم من أكل الـربا وأموال الناس بالباطـل، وكفروا نبوة المسيح عليه السلام، وكان من أسلاف النصارى أنهم عقدوا مـؤتمر نيقية وأصدروا فيه قرارات بألوهية المسيح عليه السلام، وبالتثليث وذلك لتغليب رأى فئة من المؤتمرين على رأى آخرين قالوا فيه قولة حق أنه بشـر شرف بالنبوة، فكان هذا تغليبا للهوى، ثم كان منهـم أن أحلوا ما حرمته الشريعة مـن أكل الخنزير وشـرب الخمر لما رأوا أن من الشعـوب من يأكل الخنـزير ويشرب الخمر فخشوا أن يصدهم تحريمهما عن النصرانية، فكان ذلك منهم اتباعا للهوى.

ثم إنه لما كان قد تبع هؤلاء كثيرون غيرهم اقتـدوا بهم وأطاعوهم، فإنهم يكونون قد ضلوا بما فعلوا ثم أضلوا أتباعهم والذين ساروا على نهجهم .

ثم إنه كان أخيرا مـن القريبين منهم عهدا أنهم ضلوا عن السبيـل الصحيح إلى رضاء الله تعالى وهو دينه الذى اختار لعباده وهو الإسلام، حسد اليهود رسول الله ﷺ على اختياره رسولا نبيا من بنى إسماعيـل عليه السلام وليس من بنى إسرائيل، وحسـدوا العرب على نزول القرآن العظيم بلغتهم فأنكـروا نبوته ﷺ وجحدوا القرآن العظيم على التبشير بهمـا فى التوراة، وأنكر النصارى نبوة رسـول الله ﷺ خوفا من انتقال الملـك إلى المسلمين والعرب، وحرفـوا ما جاء فى الإنجيل من تبشير به ﷺ لينقلوا البشـارة إلى روح لا تسمع، مع أن النص يثبت أن البشارة بنبى يسمع قوله تعالى فيخبر به شفاهة ـ على ما سبق بيانه.

فيكون مفاد القول مع النهى عن اتباع سبيل الضـالين المضلين من قبل يتضمن حثا على الإيمان بالإسلام دينا يهدى إلى الحق بإذنه .

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾

التفســـــــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ تقرير بواقع مفـاده أنه تعالى قد لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل، وأنه قد جاء فى الـزبور الذى أنزل على داود عليه السلام أن داود دعا ربـه عليهم باللعنة، كما أنه جـاء فى الإنجيل الـذى أنزل علـى عيسى ابن مـريم عليه السـلام أنه دعـا الله عليهم أن يلعنهم، وفى سفـر المزامير من العهد القديم الذى بين أيدينا اليوم أن داود عليـه السلام دعا على الكـافرين من بنـى إسرائيل بقولـه فيهم «أحببت الشر أكثـر من الخير، الكذب أكثـر من التكلم بالصدق. أحببت كل كلام مهلك ولسـان غش، أيضا يهدمك الله إلى الأبد، يخطفك ويقلعك من مسكنـك، ويستأصلك من أرض الأحياء»، وفـى الإنجيل الذى بين أيـدينا اليوم

جاء فى إنجيل متى أنه مثل لبنى إسرائيل بالتينة، وأنه قال لها لاعنا «لا يكن منك ثمر بعد إلى الأبد»، وأنه قال للذين كفروا من بنى إسرائيل «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تغلقون ملكوت السماوات قدام الناس.... ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلا واحدا، ومتى حصل تجعلونه ابنا لجهنم أكثر منكم مضاعفا».

ويبين تعالى أن لعنه الذين كفروا من بنى إسرائيل كان عذابا مستحقا لهم بعدله تعالى بما كان منهم من عصيان ومن اعتداء على حرمات الله وعلى العباد، وذلك على ما يبين من «باء» السببية فى قوله تعالى «ذلك بما عصوا وكان يعتدون». والقول يفيد أنهم استحقوا اللعن بهذا، وأن لهم عذابا آخر على ما قرفوا من الآثام والذنوب .

كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾

أولا: الأســـــماء :

المنكــــر: قيل إن المراد بـه - فى معنى الآية - هو صيد السمك يوم السبت. وقيل أكل الربا، وقد يكون الصحيح أنه كل ما ينكره الشرع أو أمر تعالى بتحريمه .

ثانيا : التفســــــير:

قوله تعالى - فى الآية - فى الذين لعنوا من بنى إسرائيل بعصيانهم وما كانوا يعتدون أثبت تعالى أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه. وقيل إن المراد بهذا أنهم كان الواحد منهم ينهى الآخر عن منكر يراه يفعله فإذا جاء الغد ودعاه هذا إلى مشاركته المنكر فعل، فلم يكن الناهى منهم عن المنكر ناهيا نفسه. وقد يكون المراد بقوله تعالى «كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه» أنهم لم يكونوا منتهين عن فعل المنكر بل كانوا مكررين فعله مستمرين عليه لا ينتهون وإن نهاهم عن فعله أنبياؤهم العديدون .

ثم إنه تعالى دم سوء فعلهم المتمثل فى مقارفة المنكر. وفى الاستمرار عليه وعدم الانتهاء

عنه بقوله تعالى «لبئس ما كانوا يفعلون» .

والآية تتضمـن زجرا لتاركى الأمـر بالمعروف والنهى عـن المنكر، وتقبيحا لفعل مـن ينهى غيره عن فعل المنكر ولا ينتهى عنه:

تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾

أولا: الأســـــماء :

الذين كفروا : قيل إن المراد بهم ـ فـى معنى الآية ـ المشركون الذين كـان اليهود يوالونهم ليكونـوا معا على المسلمين، وقيـل إن المراد بهم ذووا السلطـان والملوك الذين كـان علماء اليهود يوالونهم لينالوا منهم خير الدنيا .

ثانيا : التفســــــير:

الخطاب فـى الآية «ترى كثيرا منهـم يتولون الـذين كفروا» إلى رسـول الله ﷺ، ويقبل أن يكون للمؤمنين من بعده ﷺ لأن سلوك بنى إسرائيل وليد طباعهم التى لم ينلها تغيير. وعبارة النص تقريرية تفيد أنـه ﷺ يرى كثيرين منهم يوالون مشركى العرب ويحـالفونهم ليكونوا يدا واحدة على المسلمين، والمنظور للعالمين اليوم أن بنى إسرائيل أو غالبيتهم ـ أفرادا ـ يقتربون من ذوى السلطان ويحالفونهـم ليكونوا بهم ومعهم على المسلمين، وأنهم ـــ دولة ـ تحالف القوى العظمى من الدول ضد الدول الإسلامية، وهـذا دليل على أن هذا دأبهم وأن مفاد قوله تعالى فيهم ليس مقصورا على هؤلاء الذين كانوا وقت نزول قوله تعالى فيهم .

ثم إنه تعـالى ذم فعالهم هذه بقـوله تعالى «لبئـس ما قدمت لهم أنفسهـم» مبينا أن بئس الشىء هو مـا دفعتهم نفوسهم إلى مقـارفته باعتباره مـا يقدم لأخراهم، ثم جـاءت الإفادة عن المبالغـة فى ذم هذه الفعـال بقوله تعالـى «أن سخط الله عليهم وفـى العذاب هم خـالدون»

فأظهر تعالى أن بئس ما قدموا لأخراهم موجب سخط الله تعالى عليهم وخلودهم فى العذاب لا ينفك عنهم .

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

التفســـــير:

قوله تعـالى ـ فى الآيـة ـ فى هؤلاء الذيـن يتولون الذيـن كفروا، والقول يفيد أنهـم يدَّعون إيمانهـم بنبيهم مـوسى عليه السـلام وبما أنـزل عليه مـن التوراة، ويثبت أنهـم كاذبـون فى ادعائهم هذا وأنهم غير مؤمنين به عليه السـلام ولا بالكتاب الذى أنزل إليه، لأنه عليه السلام كان حربا على الشرك ونهى عن موالأة المشركيـن، كما نهت التوراة عن ذلك وفي سفر التثنية من التـوراة التى بين أيـدينا اليوم ــ فى الإصحاح الثـالث عشـر ـ ما يـوجب قتال المشـركين وقتلهم على ما ورد مـن قوله تعالى لموسـى عليه السلام «إن سمعت عن إحدى مـدنك التى يعطيك الرب لتسكـن فيها قولا قد خـرج أناس بنو لئيم مـن وسطك وطرحوا سكـان مدينتهم قائليـن نذهب ونعبـد آلهة أخرى لـم تعرفـوها، وفحصت وفتشـت وسألت جيـدا و إذا الأمر صحيح وأكيد قـد عمل ذلك الرجـس فى وسطك، فضربـا تضرب سكان تلك المـدينة بحد السيف، تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة». فلو كانوا مؤمنين حقيقة بنبيهم وبالتوراة لما كان منهم موالاة المشركين. وقيـل إن المراد بالنبى ـ فى معنى الآية ـ هو رسول الله ﷺ، لو كان المشركون يؤمنون به حقيقة وبالقرآن الذى أنزل إليه ما كان منهم موالاة الكافرين .

ثم إنه تعالى أوضح علة موالاة الكثيرين مـن بنى إسرائيل المشركين وهى كون أكثر هؤلاء فاسقين، خارجين عن الدين سادرين فى النفاق .

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أولا: الأســـماء :

١ ـ **القسِّيسون** : فى قوله تعالى «ذلك بأن منهم قسِّسين ورهبانا» جمع، مفرده «قس»، من الفعل «قس ـ يقس» ـ بمعنى تتبع الشىء فطلبه، والقس ـ فى اللغة ـ النميمة يكون من المرء أنه يقس أخبار غيره، وهو من رؤساء النصارى فى أمور الدين، وهذا هو المراد باللفظ فى معنى الآية.

٢ ـ **الرهبان**: جمع، مفرده «راهب» اسم فاعل من «رهب ـ يرهب» والمعنى الخاص له هو «من يرهب الله تعالى» وعلى المتعارف عليه هو من يعبد الله من النصارى فى صومعة منعزلا عن الدنيا زاهدا فيها .

ثانيا : التفســـير:

لهذه الآية معنى خاص يرتبط بسبب نزولها، وهو أنه بعد هجرة نفر من المسلمين إلى الحبشة فرارا من أذى المشركين بمكة، وما تبعها من هجرته ﷺ إلى المدينة ثم وقوع غزوة بدر وفيها قتل كبار كفار قريش، حدث أن أرسلت قريش رجالا إلى النجاشى فى الحبشة بهدايا ليقتل من عنده من مهاجرى المسلمين ثأرًا لقريش، فبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى بكتاب إلى النجاشى، فقدم عليه وأعطاه الكتاب، فدعا النجاشى جعفر بن أبى طالب والمهاجرين وجمع القساوسة والرهبان وأمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ جعفر سورة مريم فقام القسس والرهبان وأعينهم تفيض من الدمع، فنزلت الآية فيهم وفى النجاشى ملك الحبشة. فيكون المعنى الخاص لنص الآية أن هؤلاء القسيسين والرهبان هم الأكثر

مودة للمؤمنين .

والمعنى العـام للآية يتعلـق بعموم القائليـن بأنهم نصـارى مع معانـى باقى النـص التى يشترك فيها المعنـى الخاص والمعنى العام. وفى النـص نجد الخطاب موجـه إلى رسول الله ﷺ والمؤمنيـن، وعبارة النص تقـريرية تفيـد أنه ﷺ والمسلمـون يتحققون من واقـع أن أكثر الكافريـن عداوة للمؤمنين هم اليهـود والمشركون. فيكون المراد بـالناس فى قوله تعـالى هم الكافرون، ذكر تعـالى أن اليهودـ من بينهم ـ هـم الأشد عداوة للذين آمنوا، ثـم يليهم فى شدة العداوة المشـركون، فيكـون المفهوم مـن النص أن غيـرهـم مـن الكافـرين أقـل منهم عـداوة للمؤمنين .

ثم يقـرر النص القرآنـى أن الذين هـم أقرب مودة للمؤمنيـن هم الذيـن قالوا إنـا نصارى، ويلاحظ أنه تعـالى لم يصفهم بالنصارى وإنمـا بقولهم إنهم نصارى، وذلك لقـولهم «نحن أنصار الله»، ويفهم من النص أنهم لما كانوا الأقرب مـودة للمؤمنين فإن غيرهـم من الكافرين يكونون أبعد فى المودة للمؤمنين .

ثم يبين تعالى سبـب كون القائلين أنهم نصارى أقرب مودة للمؤمنين بقـوله تعالى «ذلك بأن منهم قسيسيـن ورهبانا وأنهم لا يستكبرون» وذلـك لأنه لما كان من شـأن هؤلاء التعبد لله على دينهم وكان مـن شأن الرهبان الانقطاع عن الـدنيا وزخارفها مما لا يغريهـم معه مال ولا جاه، فإنـه ترق قلوبهم، ويتمثل فيهـم التواضع فلا يتفـرغون لعداء المؤمنين والنيـل منهم بل يكون منهم رد المودة بمودة فيصيرون الأقرب من بين الكافرين مودة للمؤمنين

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾

التفســـــــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى شأنِ هـؤلاء الذين رقت قلوبهم من عبادتهم الله من القسِّيسين والرهبـان فاقتربوا مـن المؤمنين فى المـودة، أو فى شأن البعـض منهم، ويماثلهم فـى حكم النص الذين هم مثلهم فى الإحساس والشعور وفى الفعـل من الذين قالوا إنا نصارى فى كل زمان ومكان.

ومفاد قـوله تعالـى أنه ﷺ يشاهد منهـم أنهم حين يسمعـون القرآن يتلى عليهـم تمتلىء عيونهم من الدمع تأثرا من معرفتهم أنـه الحق من ربهم، ويبين من صيغة الماضى فى الفعل «عرفوا» أن المراد به ما عرفوه من قبل من كتبهم أنه الحق يجىء به رسول من الله ، ويقوم مقام مشاهدته ﷺ أعينهم تفيض من الدمع عنـد سماعهم القرآن أن يسمع ﷺ هذا ممن شاهده. وعلى الحالين يكون سبب امتلاء أعينهم بالدمع تـأثرا بما سمعوا هو معرفتهم أنه الحق الذى علموا خبره من قبل.

ويبين من مجـىء «من» فى «مما عـرفوا من الحق» أنهم لـم يعرفوا غير القليـل من القرآن فيتأثروا به.

ثم يبين تعالى ما يكون منهم من العمل ـ ويشمل الفعل والقول ـ حينما يعلمون أن القرآن هو الحـق، فيقول تعالى «يقـولون ربنا آمنـا فاكتبنا مـع الشاهدين» أى أنهـم يقرون بإيمـانهم بالقرآن العظيم وبمـن أنزل إليه، ثم يسألونـه تعالى أن يجمعهم مع أمة رسـول الله ﷺ الذين يشهدون على الأمم يوم القيامة، أو الذيـن يشهدون بحقية رسول الله ﷺ. فيكون المعنى فيمن يؤمن من هؤلاء بالإسلام دينا من بعد سماع القرآن العظيم .

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ ذكر لقول هؤلاء الذين قالوا ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين من بعد إقرارهم بـالإيمان ودعائهم الله أن يجمعهـم مع أمة رسول الله ﷺ. ومفـاد قولهم المذكـور فى الآية أنهم يستنكـرون أن يكون منهم ـ بعد مـا سمعوا وعرفوا أن القـرآن حق وأن رسول الله ﷺ حق ـ ألا يؤمنوا لله بالقرآن كتابا منزلا منـه تعالى وبمحمد ﷺ، ومفاده أيضا أنهم يرون تناقضا بين عدم إيمانهم بـالقرآن كتابا منزلا من الله تعالى وبمحمد ﷺ رسـولا نبيا وبين الأمل طمعا أن يجمعهم ربهم مع الصالحين فيدخلهم فى زمـرتهم، ويدخلهم الجنة فيكون المستفاد من قولهم ثقتهم فى أن من لا يؤمن بالقرآن وبرسول الله ﷺ هو كافر لا يحق له أن يطمع فى صحبة الصالحين الموعودين بالجنة، وأنهم آمنوا فحق لهم أن يأملوا فى هذا.

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٥﴾

التفســـــير:

مفـاد قولـه تعالـى ـ فـى الآية ـ أنه جعـل جزاءهـم على قـولهم «ربنـا آمنا فـاكتبنا مـع الشاهدين» وما تبعه من قولهم «وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين» هـو المثوبة منه تعالى، بمعنى أن قولهم هذا هـو ما استحقوا به الثواب، وأن هذا الثواب هو دخولهم جنات تجرى من تحتها الأنهار يخلدون فيها.

فيكون المستفاد من قوله تعالى أن المراد بـ «مـا قالوا» هو القول والفعل معا، بمعنى أنهم قالوا «ربنا آمنا» وآمنوا بـالفعل، ويؤكد هذا إثباته تعالى أنه يـدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار يخلـدون فيها، وهـذا هو جزاء المـؤمنين، وليس لغيـرهم. ويـؤكده أيضا قـوله تعـالى «وذلـك جزاء المحسنيـن»، وفيه أثبـت تعالـى لهم صفـة المحسنين الـذين آمنـوا فأحسنـوا

لأنفسهم بإيمانهم، والذين قرنوا الإيمان بالعمل الصالح .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ ٨٦

التفســـــــير :

بعد أن ذكر تعالى حـال الذين تتلى عليهم آيات القرآن العظيم فيعلمـون أنه الحق فيؤمنوا وبيـن مصيرهـم فى الآخـرة ، فإنـه تعالـى ذكر حـال الذيـن علموا بـا لآيات مـن المشركيـن والكافرين وأهل الكتـاب فكذبوها ولم يؤمنوا .ومن عبارة النـص يبين وجوب إبلاغ رسول الله ﷺ الرسـالة جميع الخلـق، وتمكينه الكـافرين والمشـركين وأهل الكتـاب من سمـاع آيات القرآن إلا من صد عـن هذا وأعرض، فيكون حاله وحـال من سمعها فكذب بها ولم يـؤمن أنه يكون فى الآخرة من أصحـاب الجحيم. فكما كانت الآية السابقة وعدا للذيـن صدقوا بآيات الله فإن هذه الآية جاءت وعيدا للذين كذبوا بها .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ٨٧

التفســـــــير :

بعد أن نـزل قوله تعـالى فـى الآية ٨٢ من السـورة بمدح القسِّسين والـرهبان، فـإن بعض المسلمين حسبوا أنـه فى الحذو حذو الـرهبان في تحريـم متع الحياة الدنيـا من زواج وطعام وراحة بعد عنـاء ما يقربهم إلى رضاء الله تعـالى، فكان من البعض منهم أن قـرر الصيام أبدا، وعدم النوم ليلا يقضيه كله فى العبادة، وعدم الزواج، وعدم أكل اللحم، فنزلت الآية ناهية عن ذلك معلمة أنه ليس من الإيمان الصحيح .

وقد تضمنت الآية نهيا، وجاءت ببيان سببه. فالنهى تضمنه قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم، ولاتعتدوا». فبين تعالى أنه قد بين الحلال وبين الحرام فى كل شىء وأن الأصل أن يتنعم المؤمنون بالحلال، ولما كان التنعم لايكون إلا بما يلتذ به المرء من النعم وهذه هى الطيبات ـ بمعنى ما تستطيبه النفس ـ فقد جاء قوله تعالى ناهيا المؤمنين عن تحريم ما تطيب إليه نفوسهم مما أحل الله لهم من جميع الرزق الذى رزقوا به بطريق حلال.

وقوله تعالى «إن الله لايحب المعتدين» هو تبرير لنهيه تعالى عما نهى عنه. يفيد أن تحريم من أحل الله هو من قبيل تجاوز حدوده تعالى والاعتداء عليها، وأنه تعالى لايحب الاعتداء على حدوده، ولذلك فإنه لايحب للمؤمنين أن يكونوا معتدين .

وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ جاء تأكيدا للمعنى المستفاد من نهيه تعالى ـ فى الآية السابقة ـ عن تحريم ما طاب مما أحل تعالى من الرزق، جاء متعلقا بالمأكل، فأمر تعالى المؤمنين أن يأكلوا مما رزقهم الله تعالى بطريق حلال من طيب المأكولات، أو أن يأكلوا ما حل لهم وطاب مما رزقهم من المطعومات، والأمر ـ فى النص ـ يفيد الإباحة مع الحث على الفعل، والمعنى المستفاد بطريق التبعية أن الرزق يشمل الحلال والحرام؛ ولذلك اختص النص بذكر الحلال منه.

وقوله تعالى «واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون» مفاده أن تقوى الله تعالى تكون بالتزام حدوده التى شرع وليس بالغلو فيها إلى درجة تحريم الحلال الذى يعد اعتداء على حدوده تعالى لايحبه تعالى للمؤمنين وأن يكون منهم، وقيل إن مفاده أن أكل الطيبات الحلال لا

ينافى التقوى، ووصفه تعالى المخاطبين بالقول أنهم مؤمنون بالله جاء حثا لهم على التزام نهيه تعالى وأمره لأن المؤمن يطيع الله فيما ينهى وفيما يأمر.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

أولا: الأسـماء :

الكفـارة : فى قوله تعالى «فكفارته إطعام عشرة مساكين» هى الفعلة التى يكون من شأنها محو الخطيئة .

ثانيا : التفسـير:

قوله تعالى - فى الآية - جاء مرتبطا بنهيه تعالى عن تحريم ما أحل من طيبات ما أحل تعالى، ذلك أن ممن يحرمون الطيبات الحلال على أنفسهم من يحلف على ذلك، كما كان من هؤلاء الذين فيهم نزلت الآية أقسموا ألا يأكلوا اللحم وألا ينكحوا النساء، فلما نزل قوله تعالى ينهاهم عن هذا لم يعلموا عما يفعلون فى أيمانهم التى حلفوها فنزل قوله تعالى بما يكون منهم فى هذه الأيمان المحلوفة، وهو ما يكون من كل من حلف على شىء أن يفعله فلم يفعل أو ألا يفعله ففعله.

ومعنى قوله تعالى «لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم» يفيد أن هناك يمينا تعتبر عنده

تعالى من قبيـل اللغو فى القول فلا يؤاخـذ الله بها الحالف ولا تكون فيها كفـارة، وهى اليمين التى يحلف فيها المـرء أنه فعل شيئا وكان لم يفعلـه أو أنه لم يفعل شيئا وكان قـد فعله، فإن كان يعتقد صـدق ذاته فيما حلف عليه لم يكـن عليه إثم مع عدم وجوب الكفـارة، فإن كان يعرف كذبه فيما حلف عليه فإنه يأثم بفعله ولا تكون عليه كفارة.

وقوله تعـالى «ولكن يؤاخذكـم بما عقدتم الأيمان» مفـاده أنه تعالى يؤاخـذ على اليمين التى تـوافق مـا عقد عليه القلـب من أن يفعـل شيئا فى المستقبـل أو ألا يفعله، وذلـك إذا ما حدث نكـث بهذه اليميـن بعدم فعـل ما حلف علـى أن يفعله ، أو بفعـل ما حلـف على ألا يفعلـه .

ثم فتح تعالى باب رحمته على حالفى هذه الأيمـان إذا ما نكثوا بها بذكره تعالى ما يمحو إثم نكث هذه الأيمان المحاسبون بها بقوله تعـالى «فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة، فلم لـم يجد فصيام ثلاثة أيام». فبين تعالى أنه تكون كفارة عن إثم النكث باليمين تمحوها أن يقوم الحالف بإطعام عشرة مساكين من أقصد وأوسط مـا يطعم أهله وعيـاله من الطعام مـن حيث النوع والمقـدار، والراجح أن المـراد بهذا تمكينهم من تملـك هذا الطعام الموصوف يكـون بتمكينهم من ذلك مما يقبـل معه أن يكون بتمليكهم مقابلـه من المال، واشترط فيمن تكون لهـم الكفارة أن يكونوا مساكيـن، فلا يجوز إطعام غنـى ولا ذى رحم تلزم الحـانث نفقته، كمـا لا يجوز إطعـام مسكين واحد قـدر إطعام عشرة مساكين .

ثـم إنه تعـالى جعـل كسوة المسـاكين العشـرة بمعنى مـدهم بـالـلباس الـلازم لهم مثـل إطعامهم وجوز للناكث باليمين الاختيار بينهمـا، واشترط فى الكساء أن يكون ساترا البدن فلا يقبل أن يكون مقصورا على اللباس الداخلى، كمـا اشترط فيه أن يكون من أوسط أو أقصد ما يكسى به الناكث بـاليمين أهله وعياله، ويتصور أن يكون ذلك بتمكيـن المساكين العشرة من تملك هذا اللباس بتمليكهم ثمنه، وخالف فى ذلك البعض.

ثم ذكـر تعالى خيـارا آخر للنـاكث باليميـن فأجاز لـه أن يحرر رقبـة بدلا من إطعـام عشرة

مساكين أو كسوتهم. والراجح في تحرير الرقبة ـ وهو عتق العبد ـ أنه يشترط في المعتق من الرق أن يكون مؤمنا لأن غير المؤمن يكون بعض رقبة. وقيل إن الخيار يكون بين إطعام العشرة المساكين وبين عتق الرقبة ـ بالنص القرآني ـ وإن الكسوة تكون ثابتة بالسنة، وهذا مرجوح فلا تفيد «أو» معنى حصر الخيار بين الإطعام وبين تحرير الرقبة.

وبعد ذلك يسر تعالى على الناكث الذى لا يجد مالا يطعم به أو يكسو وليس لديه عبد يعتقه، فجعل كفارة نكثه عن يمينه هى الصيام ثلاثة أيام، اشترط فيها التتابع والتوالى، فإن قطعت وجبت فيها الإعادة كاملة.

وقوله تعالى «ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم» معناه أن ما سبق ذكره من أنواع الكفارات جمعت فى معناها وهى الكفارة أو التكفير عن الذنب وأشير إليها بـ «ذلك» جاءت فى الجملة «مبتدأ» خبره أنها تكون كفارة الحنث فى اليمين.

وفى ختام الآية يعظ تعالى المؤمنين بقوله تعالى «واحفظوا أيمانكم، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون». وعظته تعالى المؤمنين تتمثل فى أمره تعالى إياهم بحفظ أيمانهم، فلا يكثروا من الحلف بالأيمان، وإذا حلفوا فليحفظوا أيمانهم بالعمل على عدم النكث بها، فإن نكثوا بها فليكن منهم حفظها بأداء الكفارة.

ثم أوضح تعالى للمؤمنين أنه بما سن لهم من أحكام فى شأن كفارة اليمين قد أوضح لهم الأحكام، ويسر لهم الإحاطة بها والتكفير عن اليمين عند الحنث بها وهو ما يوجب عليهم شكره تعالى على هذا لكونه من النعم المنعم بها عليهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾

أولا: الأســــماء :

الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام، والرجس» جميعها سبق ذكرها وبيان معانيها .

ثانيا : التفســـير:

قوله تعـالى ـ فى الآيـة ـ تضمن تقريـرا بواقع كون المـوبقات المذكورة فـى النص، وهى تناول الخمر ولعب الميسـر، والذبح للأصنام والاستسقام بالأزلام مـن الموبقات والقاذورات التى يـزينها الشيطان لبنـى آدم كيدا لهم، كمـا تضمن أمرا المـؤمنين بتجنب الشيطـان بعدم السماع له وهو ما يكون بتجنب المجالس التى تعاقر فيها الخمر أو يلهى فيها بالميسر أو يذبح فيها للأصنـام أو يستقسم فيها بالأزلام، فالتجنب هـو ابتعاد عن حضور المنهى عنـه أشد من النهى عـن مقارفتـه أو فعله. وذكر تعـالى أن الفلاح يكـون بالتـزام أمره تعالـى باجتنـاب هذه القاذورات كما يبين من قوله تعالى ـ فى ختام الآية «فاجتنبوه لعلكم تفلحون» .

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾

التفســـير:

قوله تعـالى ـ فى الآيـة ـ هو ذكر لسبب آخـر من أسباب نهيه تعـالى المؤمنين عـن مقارفة أنواع الفعـال المنهى عنهم أتبعـه تعالـى بسؤال يفيد إلـزام اتباع نهيه تعـالى وانعـدام سبب الإعراض عنه .

فهو تعالى يبين أن إغواء الشيطان بنى آدم وتزيين شرب الخمر لهم ولعب الميسر قد أراد به أن يوقع بينهم العداوة والبغضاء وأن يصدهم عـن ذكر الله وعن الصلاة، ذلك أن شرب الخمر

يذهب العقول فيكثر بيـن السكارى المزاح وفيه يهزأ البعض من البعض ويسخـر شاربون من شاربين فتثور الحـزازات وربما تقوم المعارك ويحدث القتال بسبب ذلك، كمـا أنه فى لعب الميسر يبغض الخاسـر الكاسب ويحسده، وتتحفز النفوس عند اللعـب وتثور النفوس فتكون الشحناء بين المتقامريـن. ثم إن فى شرب الخمر ما يمنع الشارب من الـذكر ومن الصلاة لما كان من نهيه تعالى من قبل عن الصلاة حـال السكر من الخمر فضلا عن أن مجالس الشرب ولعب الميسر تلهى الشـارب والمقامر فيغفل عن ذكر الله وتفوت الصـلاة لاعب الميسر. وهذا جميعه مـن أنواع المعـاصى التـى يستهدف الشيطـان بتزيينـه الخمر والميسـر للمؤمنيـن أن يوقعهم فيها ليحل عليهم عذاب ربهم بهذا .

وبعد أن أوضح تعالى للمؤمنين مضار الخمر والميسر التى تحيق بهم بدفع الشيطان إياهم إليها سـألهم تعالـى «فهل أنتم منتهـون» بمعنى هل تنتهـون عما نهاكـم ربكم عنه مـن هذه القاذورات. وهو سؤال يفيد معنـى أنه إذا كان لكم عقول فإنكم لا بد منتهـون عما نهاكم عنه ربكم؛ ولذلك روى أنه لما علم عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن الآية تتضمن وعيدا لمن لا ينتهون قال «إنتهينا»، كما قام المسلمون بكسر دنان الخمر.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾

التفســـير :

قوله تعالـى ـ في الآية ـ موجه إلى المـؤمنين من بعد أمرهم أن يأكلوا مـن طيبات ما أحل لهم ومـن التنعم بالرزق الحـلال عموما، ومـن بعد نهيه تعـالى عن الموبقـات والقاذورات، فأمرهم تعـالى بطاعته تعالى فيما أمرهـم به وبطاعة رسوله ﷺ فيما بين لهـم وفصل فى شأن المأمور به، ثـم حذرهم تعالى من عدم الانتهاء عمـا نهوا عنه مما نهاهم عنه سبحـانه وتعالى وما نهاهم عنه رسوله ﷺ. ومعنى التحذير أنهم يلقون العذاب إن لم ينتهوا .

ثم يجـىء قوله تعـالى «فإن تـوليتم فاعلموا أنمـا على رسولنـا البلاغ المبين» مفيـدا عدة معان: منها أن ما كلف فيـه ﷺ هو إبلاغ ما أنزل إليه من ربه ـ ومنه أحكام الحلال والحرام ـ وأن يوضح ذلك بسنته الفعلية والقولية، وأنه ﷺ قد أدى ما كلف به، ومنها أنه ﷺ لا يضره ألا يطيع الناس ومنهم المؤمنون ما أمرهم الله ورسوله وما نهيا عنه، ومنه أخيرا أنهم وحدهم الذين يسألون بعصيان الله ورسـوله لأنه بإبلاغ الرسول إيـاهم ما أنزل إليه من ربه فقـد قامت عليهم الحجة فقـد أعرضـوا عما أمروا بـه وما نهوا عنـه فإنهـم يلقون جزاءهـم من العقـاب لانعدام عذرهم.

لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

التفســـــــير:

قيل فى سبب نزول الآية أنه لما نزل قوله تعالى بتحريم الخمر تساءل المسلمون عن حال الذين ماتوا منهم قبل تحريم الخمر وكانوا قد شربوها، وهل يأثمون بهذا ويعذبون، فنزل قوله تعالى بالآية.

والمعنى المستفاد من الآية هو أنه تعالى أنه ليس ثمـة إثم على المؤمنين الذين تناولوا ما تناولوا من مطعومات وشربوا من مشروبـات لدخول المشروب فى معنى المطعم، إذا ما كانوا قد اتقوا أن يتناولوا شيئا محـرما تناوله فى ذلك الوقت وكان ذلك منهم إيمـانا بتحريم ما حرم وبقاء ما لم يحرم على حـاله من الحل، وقرنوا إيمانهم بعمل الصالحـات ـ على ما هو معلوم من أن الإيمان هو مـا داخل القلب ووافقه العمل ـ يدخـل فى هؤلاء الذين مـاتـوا قبل تحريم بعض ما كان حلالا من المطعوم والمشروب، والذيـن بقوا أحياء إلى حين نزول النص بتحريم

بعض ما كان حلالا تناوله.

وقوله تعالـى «ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنـوا» يتعلق بهؤلاء الذين بقوا أحيـاء إلى حين نزول نص تحريم بعض ما كان حلالا تناوله مـن المطعومات والمشروبات. فذكر تعالى أنه لا يأثم هؤلاء بما سبق أن تنـاولوا من طعام وشربوا من مشروب ماداموا قـد اتقوا أن يتناولوا شيئا كان محرما وقتذاك إيمانا منهم بتحريم المحرم تناوله وبقاء غير المحرم على حاله من الإباحة ـ ويفيد النص ـ بعـد ذلك استمرار رفع الإثم عما يتناول المتقون مـن طعام وشراب غير محرم تناوله إذا ما تم تحريـم بعضه فيما بعد بقوله تعالى «ثم اتقوا وأحسنـوا»، وقد يفيد المعنى أنه تعالى رفع عنهم إثم ما سبق تناوله مما حرم من بعد إذا ما استمروا على حالهم من اتقاء تناول المحرمـات. ويفيد المعنـى أيضا أن المتقى المحسـن يفضل المتقي المـؤمن الـذى يعمل الصالحات وإن كان فى كل خير.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾

أولا: الأســـمـاء :

١ ـ **الصيـــد:** المراد به ـ فى معنى الآية ـ صيد البر دون صيد البحر.

٢ ـ **الرمـــاح :** فى قولـه تعالى «تناله أيديكـم ورماحكم» جمع، مفرده «الرمـح» وهو من أدوات الحرب والصيد، يتمثل فى قضيب من معدن أو مـن خشب صلب يحد من أحد طرفيه أو يوضع فيه مقدم حاد يخترق الأجسام بقوة الدفع .

ثانيا : التفســـير:

الخطاب فى الآية موجه إلى المؤمنين يعلمهـم ربهم أنه مختبرهم ليعلم أحوال صحيحى الإيمان منهم ويميـزهم عن ضعافه أو ليعلموا هـم ذلك، والاختبار المعلن عنه بـالنص يتعلق بـالمحرميـن، وذلك مـن بعد تحـريمه تعـالـى صيد البـر على مـن أحرم بـالحج أو العمـرة،

وموضـوعه هـو ظهور الصيـد لهم كثيـرا وعلى قـرب لدرجـة أنهم يستطيعـون أن يدركـوا منه الضعيف بأيديهم وأن ينالوا القوى منه برماحهم، وقد كان ذلك فى عمرة الحديبية .

وقوله تعالى «ليعلم الله من يخافه بالغيب» فيـه إشارة لما يكون فى الصيد ـ على الغالب ـ من انفراد الصائد بنفسه بـاحثا عن الصيد أو متتبعا إياه، مما لا يشاهد معـه حاله أحد. فيكون ممن يخاف الله أنه يمتنع عن الصيد طاعة لأمره تعالى وحده إذ غابت عنه عيون الرقباء، على حيـن يعصاه مـن لا يخـافه تعـالـى خوف حـق فيقـدم على الصيـد آمنـا أن ينكشف حالــه للمؤمنين.

وبعد ذلك جاء قوله تعالى «فمن اعتدى بعـد ذلك فله عذاب أليم» للترهيب من عصيانه فيما أمر بـه من عدم الصيد فـى الإحرام. فذكر تعـالى أن من خالـف أمره من بعد بيـان حكم تحريم الصيد والإعلام بالاختبار يعذب بفعله عذابا أليما استحقه بخروجه عن طاعة الله تعالى وعدم مبالاته بأحكامه تعالى وحكمته مما شرع.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥﴾

أولا: الأســـــماء :

الوبـــــال : فى قـوله تعالى «ليـذوق وبال أمره»، هـو فى الأصل «الثقل»، والمـراد به

الثقل الشديد الناتج عن عصيان الله تعالى .

ثانيا : التفســـــير:

قولـه تعالـى فى الآية موجه إلى المـؤمنين بتـأكيد نهيه السـابق إياهـم عن الصيـد وهم محرمون، عبر فيه تعالى عن الصيد بالقتل لسببين :

أولهما : لأن القتل يحدث من الصيد ـ فى الغالب ـ أو من بعده، لتعلقه بالنعم أى بما هو من جنس الماشية والأغنام والماعز والإبل.

وثانيهما : لبيان أن حكم الذبيح من الصيد هو حكم الميتة من حيث التحريم .

وبعد نهيه تعالى المؤمنين عن الصيد فى الإحرام أو القتـل بمعناه السابق بيانه، فإنه تعالى ذكر حكم من يخالف أمـره تعالى فيقوم بالصيد عمدا، فذكر تعالـى أنه يجازى على ذلك فى الدنيا بإلـزامه تقديم مثل ما قتل مـن الصيد، ومعنى القتل عمدا هنا هـو تعمد فعل الصيد أو القتل مع العلم بحـرمة الفعل، والجزاء المذكور فـى النص هو تقديم الصائد أو قـاتل الصيد هديا إلى الكعبة من النعم ما يماثل الحيوان الذى صاده أو قتله.

ويبين مـن قولـه تعالـى «يحكم بـه ذوا عدل منكـم» أنه يجـوز أن يكون الجـزاء هو قيمـة الحيوان يشترى به مثل الصيد، وفى هذا يلتجأ إلى سعر مثيل الحيوان المقتول فى أقرب محلة من مكان الصيد ويحكم بقدر هذا الثمن رجلان من المؤمنين من المشهود لهم بالعدل .وإذا كان للصائد أو قـاتل الصيد الخيار بين تقديـم مثيل للحيوان الذى قتله فى الصيـد وبين دفع ثمنـه يشترى بـه مثيلا لـه مـن النعم يكـون هديـا فى حـال كـون الحيوان الصيـد من النعـم المستأنسة، فإنه لايكون سوى دفع قيمة الحيوان الصيد حال كون هذا من النعم البرية.

كذلك يكـون للصائد أو قاتل الصيـد أن يختار بين دفع قيمـة ما قتل بصيده وبيـن إطعام مساكين بقيمة الحيوان الصيـد يكون كفارة عن الذنب، كما يكون لـه الخيار بين إطعام هؤلاء المساكين وبين الصوم مـن الأيام بعددهـم ـ أى بعدد الذين يأكلـون فيشبعون بالمبلغ المقدر ثمنا للحيـوان الصيد، وقيـل إنه يجوز أن يـزيد الصيـام على شهـرين وقيل إنـه لا يزيـد على الشهرين.

وقد بين تعالـى أن فى الجزاء الذى حده تعالـى معنى العقوبة بقوله تعـالى «ليذوق وبال أمره» أى ليعرف الصائد أى جرم أتى بعصيانه أمره تعالى إذ يلزم بما ألزمه به النص.

ومعلوم أن السنـة الشريفـة قد أثبتـت ذات الحكم لقاتـل الصيد بطـريق الخطـأ، فيكون الحكم ثابتا فـى شأن الصائد عمدا ثابتا بالنـص القرآنى، ويكون ثابتا فى شـأن قاتل الحيوان خطأ ثابتا بالسنة .

وبعد ذلك يذكر تعالى عفوه عمن قاموا بالصيد فى حال الإحرام قبل نهيه تعالى عن ذلك ـ رغم أن المعلوم أنه كـان مقبوحا فى الجاهلية قبل الإسلام أن يصطاد المحـرم ـ وذلك بقوله تعالى «عفا الله عما سلف».

ثم ذكر تعـالى حال من يعود ثـانية إلى الصيد فى الإحـرام متعمدا بقوله تعالـى «ومن عاد فينتقم الله منه» والقول وعيد لمن يفعل ذلك بتعذيبه عذابا يتحقق فيه معنى الانتقام من مكرر الفعل لما ينم عنـه فعله من الاستهانة بأوامره تعـالى؛ ولذلك فإنه كان لا يلتجـأ إلى إلزام من عاد إلى الصيد فى الإحـرام عمدا تقديم مثل ما قتل من النعـم أو أداء ثمنه أو الإطعام به إذا ما تبين أنه عائد ـ بمعنى أنه سبق له ارتكاب الفعـل ـ ليترك أمره إليه تعالى. والمقبول غير ذلك، فتوعد العائد بالانتقام منه لا يمنع من وجوب الجزاء المنصوص عليه فى الآية .

وقوله تعالـى ـ فى ختام الآية ـ «والله عـزيز ذو انتقام» مفاده حتمية الانتقام مـن العائد إلى مخالفة حكمه تعـالى بتحريم الصيد فى الإحـرام لكون الوعيد صادرا فمن لا غـالـب له الذى هو تعـالى شديد الانتقـام ممن يتعدى حدوده ثـم يبالغ فى الإصـرار على هذا وعلى مخـالفة أوامره .

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

أولا: الأسـماء :

١ ـ صيد البحر: قيل إن المراد بـه ـ فى معنى الآية ـ كـل ما يصاد فى الماء مـن بحر ونهر وغدير مما يعيش ويتوالـد فى الماء، وقيل إنـه ما يصاد من المـاء ثم يموت من بعـد صيده. فيدخل فى المعنى الأول ما يصاد من الماء لغير الأكل من المنافع الأخرى مثل التزين .

٢ ـ طعام البحـر: فى قوله تعالـى «وطعامه»، قيل إن المراد به ـ فى معنى الآيـة ـ ما يؤكل من صيد البحر، وقيل إن المراد به هو ما قذفه البحر إلى الشاطىء ميتا .

ثانيا : التفسـير:

الخطاب ـ فى الآية ـ موجه إلى المحرمين يـذكر لهم تعالى حكم صيد البحر وطعامه وهو أنه حلال، بمعنـى أنه غير محظور فعـل الصيد فى ذاته ولو لـم يكن المصيد مما يـؤكل، وأنه يحل أكل كل ما يعيش في الماء ويتوالد مـن جنس الأسماك وغيرها من بعض أنواع الحيوان مثل الحيتـان. وذكر تعالـى حال الصيد فـذكر أنـه متاع للصائديـن، فقد يجد الصـائدون فى الصيد متعة وقد يستمتعون بما صادوا في غير أغراض الطعام، كما يكون متاعا للسائرين منهم بين البقاع المتنقلين فى الأسفار وغيرها. وذلك بحفظه والتزود به مؤونة لهم.

وبعد ذلـك نهى تعالـى عن صيد البـر فى الإحرام بقـوله تعالـى «وحرم عليكم صيـد البر مادمتـم حرما» والنهى عـن الأفعال يتضمن النهي عـن فعل الصيد، وعلى قبـول الصيد (أى المصيد) هبة كـان أم بطريق الشراء، واختلف فـى شأن الأكل من المصيد فـرأى البعض أنه ليس ثمة ما يمنع من الأكل من المصيد إذا كان لم يحصل صيده لذمة آكله.

وخالف آخـرون فقالوا إن المحرم لا يـأكل مما صيد لمحـرم آخر سواء أكان معينـا أم غير معين .

ويجيء قوله تعـالى ـ فى ختام الآية ـ «واتقوا الله الذى إليه تحشرون» من قبيـل التشديد على ما سبق بيانـه من أحكام التحليل والتحريم وتنبيه إلى يوم الحشـر للتحذير من الحساب الذى يعاقب به من خالفوا أحكامه تعالى وعصوه فأحلوا ما حرم.

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾

أولا: الأســـماء :

١ ـ الكعبـــة : هى الكعبـة المشرفة، سميـت كعبة لأنهـا مكعبة الشكل، وقيـل لأنها مرتفعة ظاهرة.

٢ ـ **البيت الحرام**: المراد به ـ فـى معنى الآية ـ البيت المعظم. على مـا جرى عليه القول من التعبير عن العظم بالحرام.

٣ ـ **القيـام**: فى قولـه تعالى «قياما للنـاس» المراد به ـ فـى معنى الآية ـ الذى بـه استقامة أمورهـم وصلاحها تكـون فى الـدنيا بإقـامة تجارتهـم يأتون مـن كل فـج عميق فيباشـرونها، ويأمنون فيهـا من الاعتداء عليهم، ويكسبون بالحـج إليها الثواب الذى يجزون بـه فى الآخرة خيرا.

٤ ـ **الشهر الحرام** : المراد به ـ فى معنى الآية ـ شهر ذو الحجة الذى يؤدي فيه الحج .

ثانيا : التفســـير:

بعد أن ذكر تعالى ما يحرم من الأفعال فى الإحرام وما يحل، ولما كان الإحرام يكون بالحج أو بالعمـرة وكان كلاهمـا إلى الكعبة البيـت الحرام، فقـد ذكر تعالـى أنه الذى جعـل الكعبة وصيرهـا بيت الله الحرام، بمعنى بيتـه المعظم، فيكون القول مـدحا للكعبة وتعظيما لشـأنها، وحال البيت المعظـم أنه قيام للناس يقيـم شئون دنياهم وأخـراهم، يباشرون لـدى وروده فى الحـج والعمرة تجـارتهـم فيصيبـون كسب الحيـاة الـدنيا ويلجؤون إليـه فيأمنون الاعتـداء عليهم، ويطوفون به متعبدين فيثابون بطاعتهم وعبادتهم، وكذلك فإنه تعالى جعل لشهر الحج

ذى الحجة حـرمة وتعظيما وجعـل للهدى ولما علقـت عليه القـلائد من النعم المهـداة إلى البيت الحرام حرمتها فمنع تعالى من التعرض لها.

ثم أثبـت تعالى أنـه جعل حـرمة الإحرام ومـا ذكر مما أثبـت له حـرمة وتعظيما مـن قبيل الشرائع التى يدرك أصحاب العقول ـ من مراعاة ما يحقق تشريعها من نفع فيما علم، مع ترك ما لم يعلم له جلّ وعـلا ـ ليتبين الخلق أن المشرع الأعلى قد شرع ما شرع لكـونه العالم بكل ما فى السماوات والأرض ومنه مـا يكون به خير الدنيا والآخرة، وليعلموا أنـه بكل شىء عليم، يدخل فى هذا ما علموا حكمة خلقه أو تشريعه، وما لم يعلموا مما يدخل فى علمه تعالى.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فـى الآية ـ وعيد لمن خالف أوامره تعالى فانتهك حـرمة ما حرم، ووعد لمن سمع وأطاع فـراعى حرمة ما حرم سبحـانه وتعالى، أنه يغفر لـه ـ بحجه ـ ما سبق مـن الذنب بوافر رحمته.

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ تقرير بأن مـا كلف به رسول الله ﷺ هو إبلاغ ما أمره ربه أن يبلغ به، وبأنـه عليه الصـلاة والسلام قد أدى مـا كلف بـه، وأنهـم مسـاءلون بهذا ممـن يعلم فعـالهم الظاهـرة وما أسروه فى أنفسهـم من إيمان أو كفـر، ومن دوافع علـى فعالهم ، فيثيب علـى ما ابتغى وجهه تعالى، ويجازى على الأفعال والنوايا دون أن تخفى عليه خافية .

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

أولا: الأســـماء :

١ ـ **الخبيث** : قيل إن المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو الحرام، وقيل إن المراد به المشركون.

٢ ـ **الطيب** : قيل إن المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو الحلال، وقيل إن المراد به المؤمنون .

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ موجه إلى رسول الله ﷺ، أمره تعالى أن يقول «لايستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث»، ويفيد القول أن قول رسول الله ﷺ كان ردًّا على سؤال سأله سائل، وهذا يقوى ما قيل من أن سائلا ذكر لرسول الله ﷺ أنه كان يتاجر فى الخمر وجمع من تجارته مالا كثيرا ثم سأله إن كان يمكنه أن يفيد مما كسب فى خير دينه، فنفى ﷺ ذلك وذكر له أنه لاينفعه بما يعدل جناح بعوضة لأنه تعالى لايقبل إلاالطيب.

ومعنى القول أنه لايستوى عند الله الردىء والحسن من كل شىء، وفى معنى خاص أنه لا يستوي لديه تعالى الرزق الحرام بالرزق الحلال، ولو كان الحرام كثيرا فى عدده أو فى محاسنه، والمعنى المستفاد أن الحلال هو المقبول عنده تعالى والمفضل، وأن الحرام مرفوض لديه تعالى غير مقبول، ولاتقبل به عبادة أو طاعة.

ثم إنه تعالى أتبع هذا البيان أو التقرير بأمره تعالى بتقواه ، والمراد بها ـ فى خصوصية معنى الآية ـ بتجنب الحرام فى كل شىء، وجعل تعالى خطابه موجها إلى أولى الألباب لبيان أن ذوى العقول المستبصرة هم الأولى أن يطيعوه تعالى فى تجنب الحرام، لأن غيرهم تستهويهم زينة الدنيا فلا يكونون مثلهم فى إدراك حكمة عدم المماثلة بين الخبيث والطيب، وكذلك ليكون فى القول حثا للمؤمنين على اتقاء الخبيث، مثبتا لهم أنهم بذلك يحق لهم أن

يرجوا ثوابه تعالى ونيل الفوز العظيم .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾

التفســــير :

قوله تعالى ـ فى الآية ـ من قبيل بيان محاسن السلوك والأخلاق التى يجب أن يتحلى بها المؤمنون، والخطاب فى الآية موجه إليهم، نهاهم تعالى أن يسألوا عن أشياء ـ بما يفيد وقوع السؤال عن أشياء متعددة وليس عن شىء واحد ـ ثم أوضح تعالى أن الإفصاح عن إجابة هذه الأسئلة قد يصيب المؤمنين فى مصلحة من مصالحهم وقد يسىء إليهم بالفضيحة وما شباهها. ومن ذلك مثلا أنه ﷺ حينما ذكر للمؤمنين أن الله تعالى كتب عليهم حج البيت، قام سائل سأله «هل يكون الحج كل عام؟»، فلو كان عليه الصلاة والسلام قد أجاب بالإيجاب أو ذكر عددا لمرات الحج لوجب ذلك على المؤمنين وكان فيه عليهم المشقة، ومنه أيضا أن رجلا كان إذا اختلف مع القوم ذموه فنسبوه إلى غير أبيه سأل رسول الله ﷺ ـ وهو على المنبر ـ من يكون أبوه، فقال له رسول الله ﷺ اسم أبيه، وهو من كان ينتسب إليه، ولو كان ابن سفاح وأجابه رسول الله ﷺ وعرفه اسم أبيه لكان قد فضح نفسه وأمه. ومن ذلك أيضا السؤال فى تفاصيل بعض مسائل الشرع من قبل أن تنزل أحكامها مفصلة .

ومفاد قوله تعالى «وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم» مفاده أن ما تعلق منها بالتكاليف الدينية وأحكام الشرع كان مقدرا لديه تعالى أن تنزل بها أحكامه تعالى فى القرآن، وأن السائلين أخطؤوا بالسؤال عنها بدلا من أن يستسلموا لقضائه تعالى فيما ينزل ووقتما ينزل.

وبعد ذلك يجيء قـوله تعالى «عفا الله عنها» مفيـدا أنه تعالى قد عفا عنهـم ما كان منهم من سـوء الخلق بالسـؤال عما سألـوا عنه قبـل أن ينزل تعالـى أحكامه التفصيليـة، وأن عفوه تعالى عنهم تمثل فى عدم تشديده فى التكاليف فيما سألوا فيه، وفى التجاوز عن عقابهم بما سألـوا فى الآخرة، ثم بيـن تعالى أنـه عفا عنهم بحكـم كونه تعالـى الغفور الحليم، غفـر لهم خطأهم من بعد أن أمهلهم فلم يعجل لهم العـذاب إلى أن كان منه غفران ذنبهم وذلك على ما يبين من قوله تعالى «والله غفور حليم» .

قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾

التفســـــير : .

بعد أن نهى الله تعالـى المؤمنين عن السؤال عما لـم يبده تعالى بعد فى القـرآن مما يسوء العلم به أو مما يـؤدى إلى حرج فى الدين، فإنه تعـالى أخبرهم فى الآية أن قومـا سبقوهم قد سألوا أنبياءهم أسئلـة مماثلة لهذه التى نهى المسلمون عن السؤال عنها، ثـم إنهم ـ من بعد إجابتهم على ما سألوا ـ كفروا بما جاءت به إجابة أسئلتهم ومنها فرض ما سألوا عليهم.

وفى شأن هؤلاء القـوم قيل إنهم قوم موسى سـألوه أن يريهم الله جهرة ثم كفـروا به تعالى، وسألوه أن يبيـن لهم البقرة فشدد الله عليهـم فيها، وقيل إنهم قـوم صالح عليه السـلام سألوه الناقة ثم عقروها وكفروا بها، وقيل إنهم قوم عيسى عليه السلام سألوه أن ينزل عليهم مائدة من السماء ثم كفروا بها.

ويقبل المعنـى أن تكون صيرورة القـوم كافرين قـد تحققت بسؤالهـم ما سألـوا لأن مفاد الأسئلة التـى سألوهـا هو عدم إيمـانهم برسلهم إيمـانا صحيحا، والشـك فى نبوتهـم أو فى صدور ما أبلغوهـم عنه تعالى، فيكون فى تـوجيه الأسئلة إلى رسلهم إفصاح عـن الكفر الذى انطوت عليه صدورهم، فأصبحوا فى نظر المؤمنين من الكافرين .



﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ١٠٣﴾

أولا : الأســــماء :

١ ـ **البحيرة** : اللفظ مشتق مـن «البحر» بمعنى الشق، وهـى الناقة التى تشـق أذنها لسبب كان يراه أهل الجاهلية قيل إنه ولادتها خمسة أبطن آخرها ذكر، كانوا يمتنعون عن نحرها وعن ركوبها ولا يطردونها عن ماء أو مرعى، وقيل هى التى ولدت سبعة أبطن .

٢ ـ **السائبة**: من الفعل «سيَّب» بمعنى ترك. وهى الناقة التى تترك وتهمل فلا يجزو برها ولا يشرب لبنها إلا ضيف، وكانوا فى الجاهلية يعتبـرون الناقة سائبة إذا ولدت عشرة أبطن إناث. وقيل إنها الناقة التى كانت تترك للأصنام .

٣ ـ **الوصيلة** : من الوصل، هى نتاج الشاة التى ولدت سبعة أبطن، إذا ولدت فى آخر بطن ذكرا وأنثى كانوا يقولون ـ فى الجاهلية ـ وصلت الأنثى أخاها فلا تذبح لهذا السبب .

٤ ـ **الحـــامى** : هو الفحل من الإبل إذا كبر ولد ولـده وركب، وقيل إذا نتج من صلبه عشرة أبطن، كانوا فى الجاهلية يقولون: «قد حمى ظهره» فلا يركب ولا يمنع عن ماء ولا عن مرعى.

ثانيا : التفســــير:

بعد ذكره تعالـى حال الذين يشقون على أنفسهـم بأسئلتهم مما قد يسبب لهـم حرجا فى الدين، فإنـه تعالى أشار إلى فعل معاصـرى رسول الله ﷺ من المشركين الذيـن كانوا يشقون على أنفسهـم بأفعالهـم فيحرمون علـى أنفسهم الانتفـاع بالنعم مـن الإبل والغنم بـدعاوى مختلفة فيطلقـون عليها أسمـاء ويرتبون علـى ذلك أنواعـا من التحـريم ينسبونهـا كذبـا إليه تعالى.

فجاء النص مقررا أنه تعالى لم يشرع لهم هذه الأحكام الباطلة على ما يبين من قوله تعالى

«ما جعل الله من بحيرة ولا ســائبة ولا وصيلة ولا حام»، ثم أثبت تعالى أنهم بقولهم إنه تعالى شرع لهم هذا كاذبون، ينسبون إليه تعالى مـا لم يصدر عنه «ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب» .

ثم يثبت تعالى أن الذيـن قبلوا هذه المزاعم الباطلة واتبعوا القائلين بهـا الذين افتروا على الله الكذب هم كثيـرون، وصفهم تعالى بأنهم لا يعقلـون، فهم قد اتبعوا ما قالـه أئمة الكذب دون أن يعملوا عقولهم، ولو أعملوها ما اتبعوهم، وذلك على ما يبين من قوله تعالى «وأكثرهم لا يعقلون». والمشهور أن الذى افترى على الله الكذب هو عمرو بن لحى، صدقه فيما كذب به عليه تعالى أغلب العرب.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

التفســـــير:

قوله تعالى فى هـؤلاء الذين وصفهم تعالى بأنهم أكثر القوم وأنهـم لا يعقلون، يذكر تعالى بقوله «وإذا قيـل لهم» أنه قد قيل لهـم هذا بالفعل، والقـول هو «تعالوا إلى مـا أنزل الله وإلى الرسـول»، والمعنى أنه قـد قيل لهؤلاء علـى لسان المؤمنيـن ـ لإقناعهـم بالحجة ــ «فليكن احتكامنا إلى كتـاب الله الذى تضمن بيان الحرام والحلال، وإلـى رسول الله ﷺ الذى فصل أحكامه تعالى وفسرها لتعرف وجه الحق»، ثم يذكر تعالى رد هؤلاء على دعوة المؤمنين إياهم إلى الاحتكـام إلى كتاب الله وسنة رسـوله بقوله تعـالى «حسبنا ما وجـدنا عليه آباءنـا» ومعناه أنهم يقولون باكتفائهم باتباع سبيل آبائهـم، ومفاد قولهم هو إغلاقهم آذانهم عن سماع كلمة الحق والإصرار على ما هم عليه دون سعى لمعرفة وجه الحق.

ثم يجيء قوله تعالى «أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون» وفيه جاءت الهمزة للتعجيب، «والواو» شرطية ـ فيما يبدو لنا ـ فيكون المعنى: «وهل يكفيهم ما وجدوا عليه آباءهم سواء أكانوا ضالين أم كانوا غير ضالين» .

وقوله تعالى هذا يشير إلى معنيين:

أحدهما: عام .

والآخر: خاص.

فالمعنى العام هو عدم كفاية الاقتداء بالغير في شأن أمور الدين مالم يعرف بالدليل أن للمقتدى به حجة صحيحة فيما يفعله أو يقول به، والمعنى الخاص هو إشارة قوله تعالى إلى انعدام حجة الآباء المقتدى بهم وأنهم كانوا من الجهل بحيث أنهم لم يفرقوا بين الحق والباطل فيما فعلوا .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥

التفسير:

الخطاب في الآية موجه إلى المؤمنين قال لهم ربهم «عليكم أنفسكم»، و«عليكم» اسم فعل أمر متعد إلى المفعول به بعده، فيكون المعنى هو «احفظوا أنفسكم من المعاصي»، ولا يختلف المعنى عنه في قراءة «أنفسكم» بالرفع ـ في قراءة شاذة لنافع ـ إذ تكون «أنفسكم» مبتدأ وتكون شبه الجملة ـ الجار والمجرور «عليكم» خبرا .

وقوله تعالى «لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» هو تقرير لمبتدأ «المسئولية الشخصية عن الخطأ المؤثم» أريد به ـ في معنى الآية ـ منع المؤمنين من التحسر والأسف من حال الكفار والفاسقين من الضلال والحزن عليهم وتمنى إيمانهم.

وفى شأن الهدى الذى لا يضر معه المؤمنين ضلال الكافرين، فقد قيل إنه لا يتم إلا بالأمر بالمعـروف والنهى عن المنكـر، لأن فى تركه مـع القدرة عليه ضـلالا. وعلى هذا تكـون الآية تسلية لمن يأمر بـالمعروف وينهى عن المنكر ولا يقبل منه هذا، فيكـون النص آمرا إياه أن يلزم نفسه ، مخبرا أنه غير مسئول عن فعل من لم يأتمر بالمعروف وينته عن المنكر.

وقوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون»، يتضمن وعدا للمؤمنين الذين حفظوا أنفسهم من المعاصـي، ووعيدا للكافرين والعصاة الذين أصروا على الضـلال، وذلك لأن مفاد القـول أنه يكـون إليه تعالـى وحده رجوع الخلـق يوم القيـامة فيعلمون ممـا يلقون من العـذاب أو النعيم حقيقة أعمالهـم التى عملوهـا فى دنياهـم وما إذا كانت من أعمال الهدى أم من أعمال الضلال، إذ يثاب المهتدون ويعذب الضالون.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾

أولا : الأســـــماء :

١ ـ الشــــهادة : فى قولـه تعالى «شهادة بينكم» قيل إن المـراد بهـا ـ فى معنى الآيـة ـ هو «الإيصاء»، وقيل هو الحضور للوصية .

٢ ـ الصـلاة : قيل إن المـراد بها ـ فـى معنى الآية ـ صلاة العصر، قولا بأن أهـل الأديان

يعظمونها، وقيل هى صلاة الظهر، وقيل هى أى صلاة .

ثانيا : التفســـــير:

الآية فى شأن أحكام المعاملات، فهى فى تنظيـم أمور الدنيا جاءت من بعد ورود الآيات التى تناولت أمور الدين.

والخطاب فيهـا موجه إلـى المؤمنيـن، ومضمونه هـو فرض الإيصاء فيمـا بين المـؤمنين، وظرف الإيصاء هـو حضور الموت بمعنى أنه يكـون عند ظهور أمارات المـوت وعند الإشراف عليه، ومن مضمـونه أيضا وجوب حضور رجليـن من المؤمنين علـى ما يبين من قولـه تعالى «اثنان ذوا عدل منكم» لأن لفظ «ذوا» لا يصلح لغير المذكر يكونان موصوفين بالعدل.

وقيل إن المراد بـ «منكم» هو كونهما من أقارب الموصى.

ثم أوضح النص ما يكون عليه الحال إذا لم يـوجد عند استشعار الموصى دنو أجله رجلان ذوا عدل من المؤمنين، فأبـاح تعالى أن يكون الرجلان من غير المؤمنين ــ وذلك على ما يبين من توجيه الخطـاب فى الآية إلى المؤمنين ممـا يلزم معه أن يكون غيرهم هـم غير المؤمنين ـ واشترط لإحضار اثنيـن من غير المؤمنيـن يكون مشهودا لهما بـالعدل أن يكون ذلك فـى حال السفر.

وذلك علـى ما يبيـن من قـوله تعـالى : «إن أنتـم ضربتـم فى الأرض فـأصابتكـم مصيبة الموت».

ثم بين النـص كيفية سماع حاضـرى الإيصاء من الموصى بقـوله تعالى «تحبسـونهما من بعد الصلاة» فيكون من الورثة أو من ولاة الأمر أو القضاة أن يبقوا عليهما فترة من بعد الصلاة، وذلك لما فـى الصلاة من تذكير للمصلى بنهيـه تعالى عن الكذب. وذلك تحـوطا لأن تكون شهادتهما بالحق . ثم يكون منهم سماع شهادتهما فيما سمعوا من الموصى .

ثم يـذكر تعالى مـا يكون من الورثـة أو من ولاة الأمر أو القضاة إذا مـا ارتابوا فيما شهـد به الشاهدان بقوله «فيقسمـان بالله إن ارتبتم لا نشترى به ثمنا قليلا ولو كـان ذا قربى»، والمعنى

أنه يكـون من هـؤلاء إذا ما ارتابـوا فى شهـادة حاضـرى الإيصاء أنها بغيـر الصدق أن يلـزما الشاهدين أن يقسما على عدم كذبهما عمدا فيما شهدا به.

وذلك على المستفاد من كـون القسم متعلقا بعدم تأثرهما فى شهـادتهما بمقابل مادى أو بمحبة أو عاطفة إلى قريب.

ويبين مـن وصف الثمن بـالقلة، إدراكهما أن الشهادة لله وأن أى مقـابل للتحول بهـا عن وجه الحق يكون ثمنا قليلا لكونه من متاع الدنيا الزائل.

فيكون مضمون مـا يقسمان عليه هو موافقة شهـادتهما ما يعتقدان صحته ممـا سمعا، بما يعنى أنهما لم يتعمدا الكذب إن كان فى شهادتهما خطأ .

كذلـك يكون مما يقسمـان عليه عدم كتمهمـا شهادة الله، وإقرارهمـا بإثمهما إذا مـا وقع منهما هذا.

وذلك على ما جاء بقوله تعالـى «ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين»، والمراد بهذا أن يتضمن ما يقسمان عليه عدم تحوير الإيصاء عن معناه بطريق إغفال ذكر البعض منه.

وذلك لأن المـأمور بـه منه تعـالى أداء الشهـادة على وجههـا بمعنى عـدم الامتناع عنهـا بالكلية، وعدم الامتناع عن بعضها.

ويفيد إقرارهما بإثم ذلك إقرارهما باستحقاقهما الجزاء على شهادتهما الكاذبة .

فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾

التفســـــــير:

قوله تعـالى ـ فى الآيـة ـ استئناف لما سبق ذكره فى الآية السـابقة متصل بذات مـوضوع النص، وهـو متعلق بما يجـب أن يفعله الورثـة أو ولاة الأمر أو القضـاة إذا ما تبين لهـم كذب الشاهدين.

فمفاد قوله تعالى «فإن عثر على أنهمـا استحقا إثما» وهو أداة شرط وفعلها، يفيد أنه إذا ما تبين لكـم أن الشاهدين قـد استوجبا إثمـا ــ وذلك بخيانتهما مـا ائتمنهما عليه المـوصـى من مال، أو بالشهادة الباطلة، أو بالكذب فى الأيمـان ـ والذى يفعله الورثة أو ولاة الأمر أو القضاة فى هذه الحال، والذى ورد به جواب الشرط هو استحضـار رجلين آخرين يقومان مقام الأولين من حيـث الحبس والتحليف، وذلك بمعنـى القيام بتجريدهمـا لأمر معين هو الشهـادة التى تثبت كـذب الشاهديـن الأولين الذى استحقـا به الإثم، أما مـا يكون من هـذين الشاهـدين الأخيرين فهو ما جاء بقـوله تعالى «فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهـادتهما وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين»، بمعنـى أنهما يقسمان بالله أن يمينهما أحق من يميـن الأولين، وأنهما لم يتجاوزا الحـق فى شهادتهما ، مـع إقرارهما بأنهمـا إن كانا كاذبيـن فيما أقسما عليه فـإنهما يكونـان ظالمين، ظلمـا نفسيهما بتعريضهما للعـذاب جزاء على كـذبهما فى اليميـن وفيما شهـدا به، وظلمـا من أجحفـت شهـادتهما بـه من المـوصى لهـم، بمـا يستوجـب عقابهمـا بشهادتهما الكاذبة .

ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

التفســــــير:

قوله تعـالى ـ فى الآية ـ استئنـاف لما سبق ذكره متعلقا بسماع حضـور الإيصاء وحبسهما وتحليفهما، جاء ببيان علة تشريعه تعالى هذه الأحكـام، فأثبت تعالى أنه يكون من شأن هذه الإجراءات والأفعال التى أوجبها أن تجعـل موقف الشاهدين قريبا مـن الإدلاء بالشهادة على الحقيقة من غيـر تحريف أو تبديل أو إغفال خشيـة من عذاب الآخرة يكون علـى الكذب فى اليمين ، وخوفا من أن ترد الأيمان إلى غيرهم ـ ومنهم الورثة ـ إذا حلفوا على أن مالا من أموال الشاهـدين كـان للموصـى، أخذوه ـــ أو أن يشهد آخـران على كـذبهما فيخزيـــا مـن ذلك ويخجلا .

ويجيء قوله تعالى ـ فى ختام الآيـة ـ «واتقوا الله واسمعوا، والله لا يهدى القوم الفاسقين» تذييلا لها متضمنـا أمره تعالى باتقاء غضبه يكـون بمخالفة أحكامه ومنها مـا ذكر فى نصوص الآيات الـواردة فى شأن الإيصـاء والشهادة فيه، وأن يكون سمـاع قوله تعـالى فى هـذا سمع إجابة وقبول وطاعة، مع تذكير بأن من لا يطيع أحكامه هذه يعد من الفاسقين الذين لا يهديهم تعالى إلى ما فيه خيرهم، فيكون مصيرهم العذاب .

يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾

التفســــــير:

تبين الصلـة بين معنى الآيـة ومعنى قولـه تعالى ـ فـى الآية السابقـة ـ أنه لا يهـدى القوم الفـاسقين بـالنظر إلـى اعتبـار «يوم يجمـع الله الرسـل» ظـرفا لقـولـه تعالـى «لا يهدى القـوم الفاسقيـن»، يـدل تعالـى على أنـه لا يهديهم فـى هذا اليوم إلـى ما فيـه خيرهم وهـو دخول الجنـة.

ثم إنه تعالى يثبت أنه فى هـذا اليوم يجمع الرسل ويسألهـم عما أجابهم به أقـوامهم فى الدنيا حين أبلغـوهم رسالات ربهم، فتكون إجابـات هؤلاء الرسل بأنهم لا علـم لهم، وقولهم هذا يعـد كناية عـن تشكيهم إليـه تعالى مـن فعال أقوامهـم معهم أو مـن كثرة عصيانهـم ما أمروهم به، ويقبـل أن يكون مفيدا معنى عدم علمهم بمـا كان من أقوامهم من بعـد مفارقتهم إياهم، كما يفيـد معنى تفويضهم الأمر ـ فى شـأن أقوامهم إليه تعالى واصفين إيـاه بأنه علام الغيوب بمعنـى الذى كمل علمه بكـل شىء بما فـى ذلك عن الـرسل أنفسهم مما كـان من أقوامهم من بعد مفارقتهم إياهم .

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

التفسـير:

يذكـر تعالى ـ فـى الآية ـ ما يكـون منه تعالـى فى هذا اليوم المـذكور مع واحد مـن رسله عليهم السـلام، فيكون قوله تعـالى «إذ قال الله يـا عيسى ابن مـريم» بدلا من «يـوم يجمع الله الرسل»، وجاء ذكر عيسـى ابن مريم عليه السلام على وجه خاص لكونـه من اختلف فيه بين

الإفراط والتفريط أهل الكتاب.

ومفاد قوله تعالـى «اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتـك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا» أنه تعالى قد أنعم على عيسى عليه السلام ضمن ما أنعم به عليه من النعم وعلى والـدته بتعضيـده وتأييده بـروح القدس جبـريل عليـه السلام، فيكون قـوله تعـالى «إذ أيدتك» ظرفـا لـ «نعمتى» فى قوله تعالـى «اذكر نعمتى عليك وعلى والدتـك إذ أيدتك بروح القدس» .

ومن مظاهر هذه النعمـة التى أيده تعالى بها تكليمه عليه السـلام الناس وهو لا يزال طفلا صغيرا علـى ذات النحو الذى كلمهـم به كهلا، وكـون هذا الكلام فـى المهد من النعـم التى أنعم بها على والدته إنما كان لتبرئته إياها مما رماها به اليهود من الحمل به من الزنا.

ومـن مظاهـر هذه النعـم أيضا التـى أيده تعـالى بهـا تعليمه الكتـاب والحكمة والتـوراة والإنجيل ـ وقد سبق بيان معنى هذا فى تفسيـر الآية ٤٨ من سورة آل عمران ـ وتمكينه من أن يصور مـن الطين ما لـه هيئة الطير وشكلـه ـ وهو الخفاش ــ نفخ فيه فصـار حيوانا طـائرا مثل الطيور بإذن الله ـ وقد سبق تفصيل هذا فى تفسير الآية ٤٩ من سورة آل عمران .

ومنها أنـه تعالى مكنه بـإذنه من شفاء الأكمـه والأبرص ـ علـى ما سبق تفصيله فـى شرح الآية ٤٩ من سورة آل عمـران ـ ومنها تمكينه عليه السلام مـن إقامة الموتى من قبـورهم بإذنه تعالى، فقد أقام عليه السلام عازر من قبره بعد أربعة أيام من دفنه بإذن الله تعالى.

ومنها أنه تعالى كف بنـى إسرائيل عنه وذلك حين كادوا له مع الحاكـم الرومانى ليأخذوه ويقتلوه فخيب الله تعالـى مسعاهم ورفعه إليه، وأوضح تعـالى أن تآمر بنى إسرائيـل عليه كان حين جاءهم به من الآيات الدالة على نبوته .

منها ما ذكر آنفا، ومنها ما لم يذكر فـى الآية من إنزال المائدة من السماء، ومن مشى على الماء ـ كما جاء فى الإصحاح السادس من إنجيل مرقس الذى بين أيدينا اليوم .

كما أوضح أنـه كان من الذين كفـروا من بنى إسرائيل به وبـدعوته وبالإنجيل الـذى أنزله

تعالى إليه أنهم رموه بممارسة السحر واصفين الآيات التى أتى بها من لدنه تعالى بأنها سحر مبين، وذلك لقتله بها عملا بما فى شريعة موسى من قتل الساحر المتنبىء .

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

أولا : الأسماء والأعلام :

الحواريون : فى قوله تعالى «وإذ أوحيت إلى الحواريين» هم تلاميذ المسيح عليه السلام الاثنا عشر بطرس ـ وهو سمعان ـ وأندراوس، ويعقوب بن حلفى، ويوحنا، ومتى ـ وهو لاوى ابن حلفى ـ ويعقوب بن زبدى ـ وفيلبس، وبرثولماوس، وتوما، وتداوس، وسمعان القانوى، ويهوذا الإسخريوطى

ثانيا : التفسير :

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى ذكر نعمة أخرى أنعم بها تعالى على عيسى ابن مريم عليه السلام تمثلت فى أمره تعالى الحواريين أن يؤمنوا به تعالى وأن يؤمنوا بعيسى عليه السلام رسولا نبيا.

والتعبير عن أمره تعالى إياهم بالإيمان بالوحى، ومفاده أنه تعالى قد هداهم إلى هذا الإيمان وهيأ قلوبهم لقبوله، فلما سمعوا دعوة عيسى عليه السلام يدعو إلى تصحيح العقيدة ليكون الإيمان بالله تعالى إيمانا صحيحا استجابوا لدعوته وقبلوها فقالوا فى قلوبهم وبألسنتهم ـ آمنا ـ وأشهدوه عليه السلام وأشهد بعضهم بعضا على أنهم قد أسلموا وجوههم لله تعالى وانقادوا له مطيعين ما أمرهم على لسان رسولهم .

■■■■■

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

التفســــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ ذكر لحادث حدث بين عيسى عليه السلام وبين حوارييه.

جاء قوله تعـالى «إذْ قال الحواريون ياعيســى ابن مريم» فى موضـع نصب بـ«اذكر» فكأن معنى القول هو «اذكر إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم».

وقولهم الذى قالوه هو «هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء».

والراجـح أن المراد بالاستطاعـة ليس هو «القدرة على الشىء»، وذلك لأنه لا يتصـور فى شأن الحوارى أن تكـون به ريبة فى قـدرة الله تعالى على كـل شىء وإنما هو الإجـابة، فيكون المعنـى من العبـارة المقـولـة هو «هـل يجيـب الله تعـالى طلبنـا أن ينـزل علينـا مائـدة مـن السـماء».

ويثبت قوله تعالى ــ فى الآية ـ أنه عليه السلام قال لهم حين سمـع قولهم هذا «اتقوا الله إن كنتم مؤمنين».

وقوله عليه السلام هذا مفاده نهيهم عن طلب مثـل ما طلبوا أو سؤال مثل ما سألوا، فمفاد قوله عليه السلام «اتقـوا الله» أنه أمرٌ بأن يتقوا توجيه مثل هـذا السؤال أو طلب الآيات، فضلا عن كونه أمرا لهم بتقواه فى كل شىء.

ومفاد قـوله عليه السـلام «إن كنتم مـؤمنين» هو أنـه لايليق بمؤمـن صحيح الإيمـان ومنه الإيمان بقـدرته تعـالى علي كـل شىء، وبصحـة نبوتـه عليه السلام أن يصـدر منه مثـل هذا السؤال ولا أن يطلب مثل هذا الطلب .

﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾

التفسـير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ ما رد به الحـواريون على عيسى ابن مريم بعد أن أمرهم بتقوى الله والانتهاء عن سؤال مثل ما سألوا، فيذكر تعالى أنهـم قالوا له عليه السلام «نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين» .

فذكروا فى بـداية قولهم سبب سؤالهـم وهو رغبتهم أن يأكلوا من هـذه المائدة سواء أكان الأكل أكل تبرك أم أكل حـاجة أو استمتاع، فكأنهم نفوا ـ بإثباتهـم دافعهم على السؤال ـ أن يكون الدافع هو الشك فـى قدرته تعالى على إنزال مثل هذه المائدة أو الشـك فى نبوته عليه السلام .

ثم إنهـم أضافـوا بعد ذلك سببـا آخر لسؤالهـم هو تيقنهـم من صدقـه عليه السـلام فيما أخبرهم به من أنه تعالى يستجيب إلى دعائهم إذا ما دعوه .

ثم إنهم اتبعوا هذا بذكـر سبب آخر هو أن يكونوا على نزولها شاهـدين فيرسخ الإيمان فى قلوبهم ، وينقلـون خبر ما شاهدوا إلـى غيرهم من بنى إسـرائيل ليكون منهم الإيمان بـدعوته عليه السلام .

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾

أولا : الأســـماء :

١ ـ العيـــد : فى قوله تعالى «تكون لنا عيدا»، من العود، ويطلق على فترة من الزمان تعود كل عام بالبهجة والسرور .

٢ ـ الأول والآخر : فى قوله تعـالى «لأولنا وآخرنا»، قيل إن المراد بهما ــ فى معنى الآية ـ هو: أهل هذا الزمان، والذين يأتون من بعد ذلك. وقيل إن المراد بهما أول الطاعمين الكثيرين وآخرهم.

ثانيا : التفســـير:

الآية فى بيان مـا كان منه عليه السلام عندمـا تبين له وجها للصواب فيما أبـدوا من سبب لطلبهم، أو عندما تبين لـه إصرارهم على الطلب، فتذكر أنه كان منـه أن دعا ربه قائلا «اللهم ربنا» وهو دعاء له تعالى بوصف الألوهية الجامعة جميع الكمالات وبوصف الربوبية الحامل معنى تربية الخلق والسيادة عليهم.

ومضمون الدعـاء تضمنه قوله عليـه السلام «أنزل علينا مـائدة من السماء تكون لنـا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك، وارزقنا وأنت خير الرازقيـن» فتضمن الدعاء سؤاله تعالى أن ينزل عليه وعلى حوارييـه خوانا عليه طعـام يجىء من السماء ــ فى قول ـ ومـن الجنة ـ فى قـول آخر ـ فيكون يوم نزول هذه المـائدة أو هذا الخوان يوم بهجة وسرور لمن أنزلـت عليهم يحتفل به فى كل دورة من دورات الزمان.

وقيل إن المائدة نزلت فى يوم أحد وإنه لهذا يحتفل النصارى بيوم الأحد .

وتضمن الدعاء أن يكون هذا العيد له عليه السلام ولحـوارييه ولكل من يؤمن له فى زمانه، ولمن يأتى من بعد زمانه من المؤمنين أو أن يكون طعام المائدة كافيا أول القوم وآخرهم.

وقد يكون هـذا الأخير هو الصحيح، وذلـك لأن الاحتفال بيوم الأحد لا يقـع من المسلمين مع كونهم مؤمنين بنبوة المسيح عليه السلام.

وبملاحظـة أن ما يثبته الإنجيـل الذى بين أيـدينا اليـوم هو أن المائدة كـانت بمثابـة عيد

للآكلين وقتذاك، فقد جاء فى الإصحاح السادس من إنجيل يوحنا أنه عليه السلام أطعم من هذه المائدة خمسة آلاف طاعم.

واشتمل الدعاء على سؤاله تعالى أن يكون نـزول المائدة من السماء دليلا منه تعالى على صحة نبوته عليه السلام وعلى أنه إنما سأل من كملت قدرته على كل شىء .

ثم كـان خاتم دعائه عليـه السلام قوله «وارزقنـا وأنت خير الرازقيـن» وفيه سأله تعـالى أن يرزقه والمؤمنيـن نعمة الشكر على إجابة الـدعاء وعلى إنزال المائدة على النحـو الذى ورد به دعاؤه عليه السلام، وتوسل إليه بصفته أنه خير الرازقين، أو معللا ما سأل فى الدعاء .

قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ «قال الله إنى منزلها عليكم» يفيد أنه تعالى استجاب لدعاء عيسى ابن مريم عليه السلام وأنه أنزل المائدة من السماء كما جاء بذلك دعاؤه عليه السلام، وذلك لأنه تعالى إذا ما قال كان قوله وجودا، وإذا وعد كان وعده مقضيا .

ثم ذكر تعالى أنه يكـون منه تعالى من بعد إنزاله المائدة من السمـاء مع من يكفر من بعد تنزيلها ممـن عاينوها وممن أكلـوا منها ـ لاعتبارهم جميعا ممـن أنزلت عليهم ـ أنـه يعذبهم تعذيبا لا يعذب مثله أحدا من العالمين .

ويتصور أن يكون المراد بالعالمين جميع الخلق فى جميع الأزمنة، أو أن يكون المراد بهم أهل زمانه عليه السلام .

كما يتصـور أن يكون المـــراد بالعـذاب هو عـذاب الدنيا، أو أن يكـون عذاب الدنيـــا والآخرة .

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾

التفســـــير:

قوله تعالـى ـ فى الآية ـ ذكر لما يكون منـه تعالى مع عيسى عليه السلام يـوم القيامة، جاء فيه التعبير عن الحدث بالفعل «قال» فى صيغة المـاضى لبيان حتمية حصوله. وفيه أنه تعالى يقول له عليـه السلام «يا عيسى ابـن مريم أأنت قلـت للناس اتخذونى وأمـى إلٰهين من دون الله»، وليس المراد بقوله تعالى هو الاستفهام ـ على الحقيقة ـ عما إذا كان عليه السلام قد قال بهذا لأتباعه أم لا.

وإنما المراد به توبيخ القائلين إنه إلٰه والقائلين إنه وأمه إلٰهان من دون الله مع أنهم يقرءون فى الإنجيل الذى بين أيديهم أنه عليه الســلام كان يصلى لله، وليس من شأن الإلٰه أن يصلى وأن يخشع لغيره .

وفى إنجيل لوقا الـذى بين أيدينا اليوم أنه عليه السلام كـان يعتزل فى البرارى ويصلى لله (الإصحاح الخاس من الإنجيل) .

وفى ذكر مـا يكون منه تعالى مـع عيسى إبن مريم عليـه السلام أثبت تعالى إجـابة عيسى عليه السلام على سؤال الله تعالى بقوله تعالى «قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق، إن كنت قلتـه فقد علمته، تعلم مـا فى نفسى ولا أعلم مـا فى نفسك، إنك أنـت علام الغيوب». ومن الإجابة يبين أنه عليه السلام يبدأ حـديثه بتنزيه الله تعالى عن أن يقال فى حقه مثل هذا القول المشين، أو من قول أنه له شريك فى الملك .

ثم إنه عليه السلام ينفي عن نفسه قول مثل هذا القول الفاسد بإظهاره أن هذا القول غير حق، وأنه لم يقل إلا ما أُمر أن يقول فى الإبلاغ بالدعوة، وأن قول غيره ليس حقا له.

فالنفى شمل صدور القول عنه وتضمن معنى كون القول غير حق فى ذاته وأنه عليه السلام كان مأمورا بإبلاغ ما أمره تعالى أن يبلغه لا يتجاوزه، والمراد بهذا إبراز جسامة شناعة القول وجسامة جرم قائليه .

ومن باقى قول المسيح عيسى ابن مريم ما جاء بقوله تعالى «إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما فى نفس ولا أعلم ما فى نفسك، إنك أنت علام الغيوب». فهو عليه السلام يبرىء نفسه من صدور القول المذكور منه مستدلا على هذا بعلمه تعالى الذى يحيط بكل شىء، مما مفاده وجوب علمه تعالى بصدور القول منه إن كان قد قاله.

فالقول بهذا المعنى يثبت ضعف العبودية لقائله عيسى ابن مريم عليه السلام ويثبت العلم الكامل له تعالى لكونه وحده الله .

ويجىء قوله عليه السلام «تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك» إقرارا منه عليه السلام بعدم المماثلة فى أى شىء بينه وبين الله تعالى وبقصور علمه عما فى نفسه تعالى على حين يدخل فى حدود علمه تعالى ما داخل نفسه هو، فيكون القول إقرارا بعجز أمام كمال قدره مما لا يتصور معه أن يدعى المقر بعجزه مع تساويه مع الكامل القدرة فى صفة الألوهية .

ثم يتضمن القول ـ فى معنى أخير ـ الشهادة بوحدانيته تعالى فهو وحده علام الغيوب، وغيره تعالى ــ ومنهم عيسى ابن مريم عليه السلام ـ ليسوا كذلك، فلا يكون إلاه تعالى إلها وربا .

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾

التفســـير:

القول فى الآية من تتمة قول عيسى ابن مريم عليه السلام لله تعالى يوم القيامة، فهو يثبت فى مبدئه تقيده بحدود الرسالة التى أرسل بها والإبلاغ بما كلف من ربه أن يبلغ.

جعل تكليف الله تعالى إياه به أمرا منه تعالى بما يتضمن الإقرار بالعبودية له تعالى.

ثم يكون منه عليه السلام بيان ما كلف به مـن ربه أو ما أمره تعالى أن يقوله وهو «أن اعبدوا الله ربى وربكم».

والقول يبيـن عدة معانٍ: منهـا أن رسالته عليـه السلام قـد تحددت فى شـأن العقيدة دون الشريعة، وأنه إنما دعا إلى عبادة الله وتوحيده وعدم الشرك به، أى أنه دعا إلى الإسلام بمعناه العام.

ومنها أنه بين للناس أنه يتساوى معهم فى الطبيعـة الواحدة فهو عليه السلام وهم عباد الله هو ربهم وسيدهم .

ثم إنه عليه السلام يقـول لربه «وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلمـا توفيتنى كنت أنت الرقيـب عليهم»، ومفـاد القول أنـه عليه السلام محـدود بقاؤه بمـدة معينة تكـون من بعـدها مغادرة معاصيره شأن البشر جميعا ـ بما ينفى الألوهية عنه.

وأنه عليـه السلام راعـى أحوال من آمنـوا به وقـوم ما ظهـر فى عبادتهـم من انحـراف عن الطريق المستقيم أو أنه راقب ألا ينحرفوا عن العقيدة الصحيحة خلال فترة بقائه معهم.

وأنه عليه السـلام قد استوفى أيامـه على الأرض المقدرة له فـى ذلك الوقت ـ وهـو ما كان برفعه إليه تعالى.

وأنه من بعد رفعه لم يعد فى مقدوره أن يراعيهم أو يراقبهم، وهذا من حال البشر.

ثم أنه بعد رفعه لم يعد سوى الله وحده الرقيب عليهم العالم بأحوالهم فهو الرقيب فى كل آن، قبله ووقت بعثته وإلى الأبد، لأنه وحده هو الله .

وختام قول عيسـى ابن مريم «وأنـت على كل شيء شهيد» شهـادة منه بأنه تعـالى وحده الشهيد عليهـم وعلى النـاس وجميع خلقـه من مكلفيـن وغير مكلفيـن. فهو تـذييل تضمـن الشهادة بوحدانيته تعالى .

إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

التفســـــير:

القول من تتمة قول عيسى ابن مريم عليه السـلام لله تعالى فى شأن الذين اتخذوه إلٰها أو اتخذوه وأمه إلٰهين، ذكر عليه السلام أن مقاديرهم وحسـابهم له تعالى وحده بحكم عبوديتهم له تعالى.

وقد بـدأ بذكر استقـلاله تعالـى بتقدير مـا يكون منـه معهم بتعذيبهـم، بيانا لاستحقـاقهم العذاب بما قالوا.

ثم أثبـت ترك الأمر جميعه لـه تعالى بتقـريره حقه تعالـى فى مغفرة ذنـوبهم وقدرته ــ فى الحالين ـ على التعذيب وعلى المغفرة .

وجعل المغفرة ـ فى قوله عليه السلام مرتبطة بذكر قدرته على كل شيء وعدم امتناع شيء عليه لبيان أن المغفـرة تكون أفضل إحسانا عندمـا تكون مع القدرة على الانتقـام، ولبيان أنه يكون منه ما يكون من تعذيب أو مغفرة بوافر حكمته.

قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾

التفســــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ ذكر لقوله تعالى لعيسى عليه السلام يوم القيامة من بعد سماع قوله، وقوله تعالى يتضمن تقريرا بصدق عيسى عليه السلام فى جميع ما ذكر لربه وإثباتا لأنه ينتفع به شأن جميع الذين يصدقون الله تعالى فى ذلك اليوم .

فالقول يثبت المساواة بينه عليه السلام وبين جميع الصادقين فى الطبيعة وفى الإفادة من صدقهم، ويشمل الصدق من الصادقين صدقهم فى الحياة الدنيا .

ثم إنه تعالى يبين كيفية انتفاع الصادقين بصدقهم يوم القيامة فيذكر تعالى أنه يكون لهم دخول جنات يتنعمون فيها بالنعم المادية والنعم المعنوية ومنها جمال المناظر على ما يبين من ذكر الأنهار التى تجرى فى هذه الجنات وأنه يكون لهم الخلود فيها .

ثم يبين تعالى أن هؤلاء الصادقين قد كسبوا رضاءه تعالى عنهم.

والمعنى المستفاد هو أن ما ذكر من النعم التى ينعم بها تعالى عليهم أو أن دخولهم الجنات والخلود فيها هو بعض ما قدره تعالى لهم، وأنهم قد نالوا رضاءهم عنه بمعنى أنهم تمتعوا بتمنى رؤية وجهه الكريم.

ثم إنه تعالى أثبت أن رضاءه تعالى عنهم هو غاية الفوز وعظيمه .

لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

التفســــير:

بعد ذكره تعالى ما يكون منه تعالى مع الصادقين. جاء قوله تعالى فى الآية مثبتا أنه تعالى

القادر على الإنعام على من ينعم عليهم بما ذكر وما يزيد مما يعلم ومما لا يعلم وذلك لخلوص ملكية السماوات والأرض وجميع ما فيهن من مكلفين وغير مكلفين له يتصرف كيف يشاء فيما ملك، ولكونه القادر على كل شيء.

فيكون القول تدليلا على حتمية تحقق ما وعد به تعالى الصادقين.

■■■■■

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①

التفســـــير:

بدأت الآية الشريفة بقـوله تعالى «الحمد لله» فأثبتت فى مقـام أول تعلق الحمد بالذات، ثم جاء قولـه تعالى «الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنـور» لبيان استحقاقه تعالى الحمد لما خلق من النعم ومنها خلقه السماوات والأرض و إيجاد الظلمات والنور.

واستحقاقه تعالـى الحمد لخلقه السماوات يكون ـ فيمـا يدركه العباد ـ لأنه تعـالى خلق لهم فيها الشمس والقمرآيتين، فمن دورة كل منهمـا يجىء حساب الزمن، كما أن كلا منهما مواقيت للعباد.

ومـن الشمس تكـون الحياة ومنهـا نشـأت الأرض، والقمر يستضـاء بـه وهو فـى مراحلـه المختلفة مـن المواقيت. والنجوم مبعـث النور وبها يهتـدى ، ومن السماء ينزل الغيـث وفيما بينها وبين الأرض تطيراليوم طائرات وتدورأجرام من صنع البشر.

والأرض جعلها تعالـى للناس فراشا وفيها رزقهم يسعـون فى مناكبها ويجنون مـن ثمارما أنبت تعالى فيها وخفى فى أعماقها.

وذكره تعالى الظلمات والنورمن خلقه الذين استحق تعالى الشكربخلقهم .

وفى قوله تعالى جاء ذكر الظلمات بصيغة الجمع لتعدد الظلمات، فمنها ظلمة الليل الذى جعله الله سكنا، ومنها ظلمة الجهل، ومنها ظلمة الكفر.

وفى مقابلها ذكر تعالى إيجاده النور، جاء ذكره بصيغة المفرد لأنه ينتشر فيكون كثيرا، ولأنه يمثل فى نور الإيمان أظهر ما يمثل ويتمثل.

وقد ارتبط ذكره تعالى خلقه الظلمات والنور بذكره تعالى خلقه السماوات والأرض لارتباط ظلمة الليل ونور النهار بخلقه تعالى السماوات والأرض، فمن دورة الأرض حول الشمس وجد الليل والنهار، ومن دورة القمر حول الأرض كانت الاستضاءة به.

ثم ذكر تعالى حال الكافرين مع نعمه الظاهرة وآياته الدالة على أنه الخالق الواحد، فأثبت تعالى أنهم بعد كل ذلك يعدلون بربهم بمعنى أنهم يعدلون به تعالى غيره فيشركون.

أو أنهم يعدلون عن عبادته تعالى فلا يؤدون حقه تعالى من الشكر ويزيدون على ذلك أنهم به يكفرون. فيكون القول ذما للكافرين وبيانا لما استحقوا به الذم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾

التفسير:

قوله تعالى فى الآية ـ بيان لجسامة خطأ الكافرين منكرى البعث والحساب، وأنه مما يخالف المقبول عقلا، فمفاد قوله تعالى «هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا» وهو إخبار عن واقع خلقه تعالى البشر من طين بمعنى أنه خلق آدم من الطين ومنه جاء جميع البشر.

والقول يشير أيضا إلى خلق الحياة على الأرض من الطين، فمنه جاءت الخلية الحية الأولى. وظهرت «الأميبا» التى كانت مبدأ الحياة.

ثم يذكر تعالى أنه قضى لكل نفس خلقها أجلا تنتهى فيه حياتها .

وأنه بعد ذلك يكون أجـل آخر عنده تعالى، بمعنى أنه يكون هنـاك أجل يجمع فيه الخلق جميعهم عنده تعالى.

والمراد بهذا يوم يحشر إليه الخلق. كان نكرة لأنه مما استأثر تعالى بعلمه .

ثم جاء قولـه تعالى «ثم أنتم تمترون» لبيان مـدى التناقض بين ما عايـن الخلق من خلقه السماوات والأرض وما خبـروه من أنه لكل نفس أجلها، ومـا أعلمهم سبحانه وتعالـى من أنه يكون منـه تعالى بعثهـم من القبور وحشـرهم إليه وحسـابهم فى الآخـرة، وبين ارتيابهـم فى البعث، أو جحدهم أنه يكون، مع أنهم كان مفتـرضا فيهم أن يعلموا أن الذى خلق أباهم من طين وخلقهم منه قادر على أن يبعثهم من القبور وأن يحشرهم إليه.

وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ۝٣

التفســـــير:

قوله تعالى فى الآية إعلام به تعالى، وحده هو الله، لا شريك له، هو المعبود فى السماوات وفى الأرض وهو مالكهما والمتصرف فيهما.

تسبح لـه الجمادات فيهن ويعبده مـن عقلوا إن كانوا يعقلـون ويعلم جميع ما يكـون من خلقه سواء أكان من مكنـون ما أسروه فى قلوبهم أم كان مما أظهروه، فيعلـم ما يسر العباد فى قلوبهم وما به يجهرون، وجاء ذكر ما يسرون قبـل ذكر ما يعلنون لأن كل معلن يكون محفوظـا فى الصدور مستورا قبل أن يعلن ويجهر به، كما يعلم ما يكسب الخلق بسعيهم فى الحيـاة، وعموم ما يكسبون من الحسنات بطاعتهم الله تعالى وما يكسبون من الإثم وهو خسارة.

فيكون القـول إعلامـا للخلق بأنهـم محاسبون لـديه تعـالى فى الآخـرة بما أضمـروا فى نفوسهم كما أنهم محاسبون فى الدنيا على قبيح أفعالهم والآثام .

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤﴾

التفســـــير :

قوله تعالى ـ فى الآية ـ لا يزال فى الكـافرين، جاءت عبارة الآية فى صيغة النفى متضمنة استثناء لإثبات واقع ما تضمنته عبارتها.

وقوله تعالى يفيد أنه قد أتت الكافرين آياته تعالى المنظورة من الخلق والموت ومن خلق السماوات والأرض والأجرام السماوية والكواكـب وخلق الأرض ونشأة حياة النبات والحيوان فيها، وإخراج الأرض مـا حوت فى جوفهـا، كما أتتهم آياتـه تعالى المتلوة عليهـم من القرآن العظيم، ومن شأن هـذه الآيات أن تدفع كل ذى عقل ينظر ويعى ويعتبـر، وكل قارىء القرآن أو سامـع مع التدبـر إلى الإيمان بـه تعالى خالقـا ومدبرا ومحـاسبا يجازى المـؤمن بإيمـانه والكافر بكفره، ويثبت قوله تعالى أن الكافرين كان منهم ـ مع هذا جميعه ـ الإعراض عن هذه الآيات والكفر به تعالى وبالبعث .

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾

أولا : الأســـــماء :

١ ـ **الحق** : المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو القرآن العظيم.

٢ ـ **الأنباء** : فى قوله تعالى «فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون» المراد به ـ فى معنى الآية ـ ما أخبر القرآن العظيـم به من أخبار الأمم السابقة، وما ذكر أنه يكـون فى آتى الزمان من

الأفراد ومن الأمـم مثل إخباره عن عـدم إيمان أبى لهب، و إخبـاره عن انتصار الروم مـن بعد هزيمتهم أمام الفرس، وما جاء به من أحكام .

ثانيا : التفســــــير :

قولـه تعالى لايزال فـى شأن الكافريـن المكذبين بـالبعث، جاء قولـه تعالي «فقد كـذبوا بالحق لما جـاءهم» بيانا لأنه لا يثير التعجـب من فعل هؤلاء المتمثل فى عـدم اعتبارهم بما عاينـوا من آيـات خلقه تعـالى فـى السماوات وفـى الأرض و إيمانهـم تبعا لـذلك، ولا يثيـر التعجب من عدم إيمانهم بعـد سماعهم بعض آيات كتابه تعالى، لأنه قـد صدر منهم ما هو أعظم من هذا وهـو عدم إيمانهم بعد أن جاءهـم القرآن العظيم وهو الحق ، والذى مـن شأنه لدى تلاوته أو سماعه مع التدبر أن يدفع كل ذى عقل إلى الإيمان.

وجاء قوله تعالـى «فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون» دالاً علـى أن هؤلاء الكافرين لم يقفوا عنـد حدود عدم الإيمان بـالقرآن العظيم ـ وهو الحـق من ربهم ـ و إنمـا جاوزوا هذا متجاوزين حدود الله فاستهزءوا به وتندروا، وجاء منذرا إياهم بسوء المصير جزاء على فعلهم، إذ يأتيهم نبأ حقيـة ما كانوا به يستهزئون عذابـا يقاســونه فيكون إخبارا لا يقبـل امتــراء ولا جحودا .

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾

أولا : الأســـماء :

١ ـ القــرن: فى قوله تعالى «ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن»، وقوله تعالى «وأنشأنا من

بعدهم قرنا آخرين». المراد به ـ في معنى الآية ـ أهل فترة زمنية معينة أو عصر من العصور، اختلف في تحديدها، والراجح أنها ما بين ثلاثين عاما وثمانين، وتطلق خاليا على المائة عام، وسموا «قرنا» لأنهم يقترنون ببعضهم في خلال هذه الفترة الزمنية .

٢ ـ المدرار : في قوله تعالى : «وأرسلنا السماء عليهم مدرارا» هو الغزير الكثير الصب.

ثانيا : التفســـــير:

الخطاب ـ في الآية ـ موجه إلى المؤمنين، ويقبل أن يكون موجها للمؤمنين والكافرين، والقول توبيخ للكافرين وإن جاء في صيغة نصحهم، وقد جاء القول في صيغة استفهام منفي لإبراز معنى استنكار فعل الكافرين، ومفاد القول أنه كان على هؤلاء الكافرين أن يعتبروا بما شاهدوا وعلموا من إهلاك أقوام قبلهم مكنهم سبحانه وتعالى في الأرض بأن أعطاهم القدرة على السيطرة عليها والاستفادة من خيراتها على نحو لم يقدر مثله للمخاطبين بالنص، وهذا ملاحظ ـ مع صريح عبارة النص ـ من تعبيره تعالى عما خول القرون السابقة بلفظ «مكن» وتعبيره عما خول الكافرين بلفظ «مكن لهم»، والتمكين يفيد زيادة المعطى عما يفيده «التمكين لـ ».

وأنه كان عليهم أن يشاهدوا أنه تعالى قد جعل سحاب السماء يفيض على هؤلاء القرون الماضية بالماء تنبت به صحاريهم الأخضر واليابس، كما أنه تعالى جعل الأنهار تجري من تحتهم، مما مفاده أنهم كانوا يحيون في بيئة ريفية تفيض عليهم بالخيرات، وكان عليهم بعد ذلك أن يعتبروا بما علموا من أنه تعالى أهلكهم بظلمهم جزاء على كفرهم رغم ما كانوا عليه من قوة وخير، وكان منه تعالى أن أنشأ بدلا منهم قرونا أخرى تعبده تعالى.

والقول يتضمن نصحا للكافرين أن يعتبروا، ووعيدا لهم بالعذاب .

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧

أولا : الأســــماء :

القرطـــاس: هو الصحيفة ، وهو الكراسة، ومعناه الورق .

ثانيا : التفســــير:

جملة الآية استئناف لقوله تعالى فى وصف الكافرين لبيان مدى مكابرتهم و إنكارهم الحق مع ظهوره.

فمفاد قوله تعالى أنه لو أنزل على رسوله كتابا مدونا فى صحيفة ـ قيل: يكون معلقا بين السماء والأرض .

وقيل ينزل به ملك ـ وتحققوا من نزوله بمسه بأياديهم لكان منهم إنكار وجوده.

وتبرير إنكارهم هذا بقولهم إن ما شاهدوا وعاينوا ومسوا هو سحر ظاهر واضح.

والظاهر من ورود عبارة النص فى صيغة جملة شرطية أداة الشرط فيها «لو» أن الحدث المذكور هو محض افتراض لم يقع.

وأن جواب الشرط هو من قبيل الإخبار بشىء من علم الله تعالى كان مقدرا أن يحدث لو كان فعل الشرط ـ وهو إنزال الكتاب فى صحيفة ـ قد وقع.

فيكون القول جميعه تدليلا على عناد الكافرين و إصرارهم على الكفر مهما جاءتهم الأدلة والآيات الدالة على باطل عقائدهم .

وقيل إن سبب نزول الآية هو قول النضر بن الحارث، وعبد الله بن أبى أمية، ونوفل بن خويلد لرسول الله ﷺ «لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عنده، وأنك رسوله ».

■■■■

وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾

التفســــير:

قوله تعالى - في الآية - بيان لجهل الكافرين الذين طلبوا أن ينظروا الملائكة يشـــهدون أن الكتاب المنزل هو من عنده تعالى وأن محمداً ﷺ رسـوله أو أن ينزل معه ملك يشهد له أنه رسول الله .

فأوضح تعـالى أن الطبيعة البشريـة أضعف من أن تحتمل رؤيـة الملائكة على صـورتها الحقيقية، وأنه لو وقـع هذا لهلك من شدة الهول مـن شاهد ملاكا في صـورته الحقيقية على الفور دون أن يمهل وقتا بين المعاينة وبين إهلاكه .

والمشهور أن الأنبياء عليهم السلام قد شاهدوا الملائكة في صورة بشرية.

ونقل عن عـائشة رضي الله عنها أن رسـول الله ﷺ شاهد جبريـل عليه السلام في صـورته الأصلية مرتين.

والمعلوم أن الملائكة ظهروا لإبراهيم عليه الصلاة والسلام في هيئة الأضياف.

وكذلك ظهروا للوط ولداود عليهما السلام في صورة بشرية.

وليس ثمة دليل على ظهورهم للأنبياء في صورتهم الحقيقية ولا على نفي وقوع ذلك .

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾

أولا : الأســـــماء :

ما يلبســـون: بمعنى ما يلتبـس به الأمـر عليهم ويستشكـل ، فـلا يكون معـه تيقن مـن

الحقيقة .

ثانيا : التفســـــير:

يبين من قوله تعالى ـ فى الآية ـ أن الكافرين قد طلبوا أمرين للتحقق من صدق نبوته ﷺ.

أولهما : أن تنزل المـلائكة بكتاب من الله يعاينـونه ويسمعون الملائكة تشهـد لرسول الله ﷺ .

وثانيهما : أن يكون معه ﷺ ملك يكون نذيرا مثله ويدعو معه لما دعا إليه رسول الله ﷺ .

والآية تتناول طلب الكافرين أن يكون مع رسول الله ﷺ ملك يكون مثله نذيرا .

فأوضح تعالى أنه لـو اختار للرسالة أحد الملائكة لجعله تعالى فـى صورة بشرية فى هيئة رجل.

ويبين من هذا القول أمران :

أولهما : تأكيد معنى عدم تحمل الطبيعة البشرية رؤية الملائكة فى هيئتها الحقيقية، وهو ما استدعى أن يكون الملك المبعوث نذيرا فى هيئة بشر.

والثانى: أن الرسالة لا تكون إلا فى الرجال ـ وإن اختلف فى شأن نبوة النساء لقول البعض بنبوة مريم ابنة عمران عليها السلام .

ثم إنه تعالى يوضـح بقوله «وللبسنا عليهم ما يلبسون» أنه لو أرسل تعـالى ملكا نذيرا لبقى حالهم على ما هم عليه من التباس وجه الحق عليهم.

أو لكان فى ذلك لبس جديد للأمر عليهم .

ذلك أنـه لما كان تعـالى مـرسلا الملك فـى هيئة بشريـة، فإنـه يكون منهم أنهـم ينكرون طبيعته الحقيقية ويقولون له: «إنما أنت بشر» .

فإن احتج عليهم بـالقرآن العظيم آية على صدق بعثـه رسولا نبيا، فإنه يكون منهـم تكذيبه كما كذبوا رسول الله ﷺ.

فيكون أمرهم هـو التباس أمره عليهم كما يكون حـالهم إذا ما لمسوا كتابا منـزلا منه تعالى فيقولون إنه سحر مبين .

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ١٠﴾

التفسير:

قوله تعالى ـ في الآية ـ تسلية لرسوله ﷺ بإعلامه أن رسلا من قبله قد استهزأ بهم أقوامهم فانتقم تعالى ممن سخروا منهم.

فيكون القول دالاًّ على أنه وقع استخفاف من القوم الكافرين برسول الله ﷺ واستهزاء.

وهذا معلوم فقد وقع هذا الجرم من الوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وأبى جهل.

ومعنـى القول أنـه إذا كان مـن قومـك يا محمـد مـن استهزأ بـك، فإنـك لست أول مـن استهزىء بهم من الرسـل، فقد استهزأت أقوام من قبلك برسلهم، فكان عاقبـة أمر الساخرين أن أحاط بهم العذاب عقوبة على ما فعلوا .

ويبين من ورود (واو) القسم فى أول الخطاب، وورود «قد» ـ وهي للتحقيق ـ أنه تعالى قد أكـد المعنى المضمـر فى عبـارة الآية، وهـو أنه تعـالـى منتقم لـرسولـه ﷺ من السـاخريـن المستهزئين .

وقد اختلف فى ماهية العذاب الذى توعد تعالى به الساخرين المستهزئين من الرسل.

فقيل إنه عذاب الآخرة .

وقيل إنه عذاب فى الدنيا مع عذاب الآخرة.

وقد يكون المراد بعذاب الدنيا إهلاك المستهزئين .

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾

التفســـــير:

قـوله تعـالـى ـ فـى الآيـة ـ مـوجـه إلـى رسول الله ﷺ، وهـو أمـر له أن يقـول للكـافريـن المستهزئين: «سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين».

والقول يتضمن عدة أمور: فهو ـ من جهة ـ يتضمن تهديدا للكافرين الذين كفروا نبوته ﷺ بأنه يحيـق بهم من عـذاب الدنيـا ـ وهو الهلاك ـ مثلما أصاب الذين كذبـوا الرســل من قبلهم.

ويتضمن بالتالى وعيـدا للساخرين المستهزئين بحلول عذاب أشـد من هذا العذاب بهم لأنهم زادوا على تكذيبهم إياه ﷺ الاستهزاء به والسخرية.

ويتضمن ـ من جهة ثانية ـ إشارة إلى تعدد الأقوام الذين كذبوا رسلهم، وحصول تعذيبهم بالهلاك مع بقاء الدليل على ذلك مما يمكن أن يعاينه من يقوم بالسياحة فى الأرض.

ثم إنـه يتضمن دعوة إلـى تحصيل العلم بكل طـريق ومنه التنقـل بين البلدان والنظـر فى الآثار مع تعقل ما تنبىء به لتحصيل المعارف يكون بها الاتعاظ.

فيكون العلم سبيلا يسترشد به إلى الطريق المستقيم.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾

التفســــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ تقريع وتوبيخ للمكذبين الذين لا يعقلون .

فقوله تعالى «قل لمن ما فى السماوات والأرض، قل لله» هو خطاب لرسوله ﷺ أن يسأل الكافرين عمن له ملك ما فى السماوات والأرض.

ثم إنه ذكر للإجابة على السؤال يقوله رسول الله ﷺ .

ومفاد هذا أن إجابة العقلاء عن السؤال تكون بإثبات ذلك لله تعالى، مع إشارة إلى تباطؤ الكافرين فى الإجابة على السؤال لإقامة الحجة عليهم أن ملك ما فى السماوات والأرض له تعالى مما لا يستطيعون معه إنكار هذا .

وقوله تعالى «كتب على نفسه الرحمة» جاء فى جملة مستقلة لإفادة معنى معين هو أنه مع خلوص ملكية كل ما فى السماوات والأرض وخضوع جميع المخلوقات له تعالى وقدرته على تعذيب المكذبين.

فإنه تعالى قد شمل جميع خلقه برحمته.

ومن أبواب هذه الرحمة أنه فتح طريق التوبة أمام الكافرين والعصاة يقبلها إن كانت خالصة له قبل غرغرة الموت.

ومن أبوابها أيضا أنه لا يعجل للناس حسابهم فيمهلهم ليكون لمن له عقل يعى فسحة من الوقت يثوب فيها إلى الحق ويؤوب إليه تعالى بالتوبة .

فالقول ـ على هذا ـ تأميل للمكذبين فى نيل المغفرة إذا ما تابوا وأصلحوا.

وقوله تعالى «ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه» وفيه جاءت «لام القسم» فى «ليجمعنكم» لتأكيد المعنى يفيد أن معرفة الخلق أنهم مجموعون إليه تعالى للحساب فى يوم القيامة الذى لا شك فيه هو من مظاهر هذه الرحمة لأنه لولا الخوف من عذاب يوم القيامة والأمل فى نيل الثواب فيه لكثر الفساد فى الأرض وازداد الظلم والطغيان.

ثم يجيء قوله تعالى «الذين خسروا أنفسهم فهـم لا يؤمنون» إعلاما منه تعالى بواقع حال المكذبين.

خسروا مـا جبلهم عليـه تعالـى بالفطـرة من الإيمـان، وازدادوا خسارة بـإهمالهـم إعمال عقولهم، وتدبر القرآن والاستماع إلى رسول الله ﷺ، فأغلقوا على أنفسهم أبواب رحمته فكان عاقبة هذا أنهم لم يؤمنوا .

فيكون القول إثبـاتا لأن هؤلاء المكذبين هـم الذين أغلقوا على أنفسهـم أبواب رحمة الله تعالى فخسروا أنفسهم وعرضوها للعذاب .

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣﴾

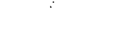
التفســــــــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ من قبيل إقامة الحجج على المكذبين، وبيان انتفاء الحجة لديهم على إصرارهم على الكفر.

فمفاد القول أن الذى يكذبون بـوحدانيته و إرساله رسوله ﷺ بالحق، هو مـالك كل ساكن ومتحرك فى السماوات والأرض.

وذلك على المستفاد من معنى «السكون» أنه يكون مقابـلا للحركة، وهو مالك كل ساكن ومتحرك فى جميع الأوقات.

ثم إنه تعـالى وصف نفسه بأنـه السميع العليم إعلاما للمكـذبين بأنه يسمع نجـواهم وما يعلنون ويعلـم إصرارهم علـى التكذيب فيحاسبهـم به، فيكون القـول متضمنا معنى الـوعيد لهم.



﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾

أولا : الأســــماء :

١ ـ الـولى : فى قـوله تعـالى «قل أغير الله أتخـــذ وليـا» المراد به فـى معنى الآيـة هو المعبـــود .

٢ ـ الفاطـر: في قـوله تعالـى «فاطر السمـاوات والأرض» ـ هـو المنشىء من العـدم وهو المبدع.

ثانيا : التفســــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ إنكار لاتخاذ غير الله وليا معبودا ناصرا.

فيكون القول توبيخا للمكذبين الذين كانوا من المشركين .

والخطاب في الآية موجه إلى رسول الله ﷺ، يأمره ربه أن يقول للمشركين المكذبين «أغير الله أتخذ وليا» .

والاستفهام في القول أريد به إنكار اتخاذ غير الله معبودا يستنصر به.

ثم يجىء بيان عدم معقولية اتخاذ غير الله معبودا ومخالفة ذلك للمنطق قوله تعالى «فاطر السماوات والأرض وهو يُطعِم ولا يُطْعَم».

لأنه بثبوت أنه تعـالى الذى أنشأ السماوات والأرض من العدم والذى أبدع خلقهما بمن فيهما ومن فيهما .

ثم رزق خلقه على نحـو ما أراد دون أن يكون فى حاجة إلى أن يُرزق، فـإنه يكون الصحيح

ألا يكون جديرا أن يُعبد إلاه.

ثم يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول للمشركين المكذبين «إنى أمرت أن أكون أول من أسلم».

ومفاد القول أنه ﷺ مأمور من ربه أن يبلغ رسالة وأنه بصفته رسولا يؤمر بما يكون منه ويكون عليه واجبا، ومنه أن يكون أول المسلمين.

والمراد بالإسلام ـ فى هذا الموضع ـ هو الإسلام بمعناه الخاص الذى دعا إليه رسول الله ﷺ.

فيكون القول مشيرا إلى وجوب أن يكون رئيس كل قوم قدوة لهم يقتدون به، وأن يكون كل داع أول من يلبى ما يدعو إليه.

ثم يجيء قوله تعالى «ولا تكونن من المشركين» خطابا فى صورة نهى أريد به معنى خاص هو إفادة معنى أن مضمون ما أمر به تعالى رسوله ﷺ، هو أن يكون أول المسلمين ناهيا عن الشرك.

قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥

التفسير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ موجه إلى رسول الله ﷺ. يأمره ربه أن يقول «إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم».

ومفاد القول أنه ﷺ بصفته مأمورا من ربه برسالة معينة عامل على إبلاغها وعلى أن يكون قدوة للمؤمنين فى طاعته تعالى.

وأنه ﷺ ـ مع اصطفائه بالرسالة ـ يخشى ربه، ويخشى عذابه تعالى فى يوم القيامة، يناله من لم يدخله الله فى رحمته.

ويلاحظ أن النص قـد عبر عن يوم القيامة بأنـه يوم عظيم لبيان عظم ما يكـون فيه من نشر وجمع وحساب ودخول جناته أو ناره أعدت للكافرين .

ولبيان عظم هوله على العباد .

مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦

التفســــــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ استئناف لقول رسول الله ﷺ الذى أمر أن يقوله.

والذى يشير إليه الضمير المتصل فى «عنه» هو العذاب العظيم.

فيكون معنى الآية أن الذى يبعـد عن هذا العذاب، بانصراف العذاب عنه. فـإنه يكون قد نجا برحمة الله تعالى وليس بفعله .

والمستفاد بصرف العـذاب عمن رحمه تعالى هـو أن العذاب يحيط بالعباد لأن أحدا من الخلق لايوفيه تعـالى حقه من الشكر على نعمه، ثـم يكون له بعد ذلك ما يفضـل فيدخل به الجنة .

فيكون محققا أن أحدا من الخلق لا يصرف عنه العذاب إلا إذا شمله تعالى برحمته.

ثم يجىء قوله تعالـى «وذلك الفوز العظيـم» مشيرا إلى صـرف العذاب ومخبرا عنه بـأنه الفوز الذى لا يعدله فوز.

والمعنى يشيـر إلى أن الـزيادة علـى ذلك بإدخـال الجنة يكـون من صـور الفوز التـى يعز إدراكها على الأفهام .

ويتصور أن يكون القول هو قوله تعالى.

ويتصور أن يكون مما يقوله ﷺ بأمر ربه وعلى الحالين لا يختلف المعنى .



وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

التفســـــير:

الخطاب - فى الآية - إلى رسول الله ﷺ وإلى المـؤمنين بالنظر إلى أن جملة الآية إخبارية تضمنت تقريرا بواقع وليس تكليفا بفعل .

ومعنى قوله أنه تعالى المتصرف فى أمور العباد بإرادته التى لا راد لها.

وأنه إن أراد شيئا كان القادر على أن تكون إرادته واقعا لا يحول دون ذلك حائل من أحد أو من شىء .

ومن مظاهر هـذا أنه إذا ما نال أحدا ضرر منه تعـالى، لم يكن فى مقدور أحـد أن يرفع عن المضرور ما وقع به من الضر ولا أن يزيل آثاره، لاختصاصه وحده تعالى أمره بهذا بحكم كونه العزيز القادر.

فإن شملت المضرور رحمته تعالى رفع عنه الضر، وإلا دام ما شاء له تعالى أن يدوم.

كذلك الحال إذا مـا أنال تعالى المرء خيرا مـن عنده - جاء الخبر نكرة لبيـان تعدد أنواعه ومظاهره.

وخير الخير هو الإيمان والطـاعة - إذا ما أنال تعالى المرء خيرا من عنـده فإنه لا يحول بين المنعم عليه وبين الخير مانع، ولا بينه وبين الإفادة منه.

وعلة ذلـك على ما يبين مـن النص أنه تعـالى وحده القـادر على كل شىء، والقـادر على الكل، قادر علـى البعض، ومنه الإنعام بالخير علـى من شاء تعالى أن ينعم عليـه به وعلى أن يمكنه من الإفادة منه والتنعم به .

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

أولا : الأســـماء :

القاهر: اسم فاعل من الفعل «قهر ـ يقهر» بمعنى غلب ، فهو الغالب .

ثانيا : التفســـير:

بعد أمره تعـالى رسوله ﷺ أن يقـول بخوفه إن عصى ربَّه عـذاب يوم عظيم، وبيانـه تعالى مظهرا مـن مظاهر وحـدانيته وانفراده تعـالى بالسيطـرة على مقاديـر العباد يصيبهم بـالضر أو بالخير فلا يكون لمَا أرادَ رادٌّ .

فإنه تعالى ذكر فى الآية صفة أخرى من صفات قدرته هى كونه القاهر فوق عباده .

وفى القول تصوير لهَذا المظهر من مظاهر سيطرته على الخلق ومقاديرهم بالغلبة .

وفيه جـاءت «فوق» بمعنى علـى، وهى إثبـات لفوقيته تعـالى، وفيه قيـل إنها تفيـد معنى الفوقية المادية لمـا روى عن رسول الله ﷺ أنه قال «والعرش فوق ذلك، والله تعـالى فوق ذلك كله» .

وما يستفاد من قوله تعالى «تنزيل الكتاب مـن الله العزيز الحكيم»، وقوله تعالى «بل رفعه الله إليه»، وقوله تعالى «إليه يصعد الكلم الطيب»، وقوله تعالى «تعرج الملائكة والروح إليه».

وهو أن الفوقية تفيد معنى الخيرية والأفضلية .

فالفوقية فوقية قهر وغلبة، وفوقية ذات .

وقولـه تعالـى «وهو الحكيم الخبيـر» مفاده أنـه بتصريفـه تعالى أمـور العباد بحكـم غلبته وقهريته، يكون تصريفه تعالى أمورهم وتصرفه فيهم من حكمته وعلمه دقائق أحوالهم، فيكون مؤدى سيطرته عليهم تحقيق الخير لهم .

■■■■■

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾

أولا : الأســـماء :

من بلغ : المراد بـه ـ فى معنـى الآية ـ من بلغه القـرآن، وقيل إنه مـن بلغ الحلـم، يكون مخاطبا بالقرآن ومكلفا .

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالى «قل أى شىء أكبر شهادة، قل الله، شهيد بينى وبينكم» .

أمر منه تعالى إلى رسوله ﷺ أن يسأل هؤلاء الـذين طلبوا منه أن تنزل ملائكة تشهد بنبوته ﷺ ليؤمنوا له.

فأمره تعالى أن يقول لهم «أى شىء أكبر شهادة» بمعنى «من هو صاحب الشهادة الأسمى التى لا يرتاب فى صحتها » .

ثم يتضمن قوله تعالى إجابة رسوله ﷺ على السؤال الذى سأل للإعلام والتعليم وهى أنه تعالى الأسمى شهادة، وأنه الشاهد بينه ﷺ وبين المشركين، يشهد له ﷺ أنه مرسل من عنده ويشهد عليهم بالكفر وببطلان إنكارهم نبوته ﷺ .

ثم إنه ﷺ يقول لهم «وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ».

فيكون قوله إعلام بأنـه نبى يوحى إليه من ربه، وبأن القرآن العظيم أنـزل إليه وحيا من ربه لينذر به.

وجاء قـوله «لأنذركـم به» مـوافقا المقام وهـو مخاطبة الكـافريـن المشركين، لأنـه يكون المستهدف بـالإبلاغ ـ في مقام أول ـ هو الإنـذار بسوء العـاقبة إذا ما استمـروا على كفـرهم وعصيانهم .

وقوله «ومـن بلغ» يفيد معنى اعتبار كـل من بلغه القرآن مـأمورا بالإيمان به ولـو لم يحضر رسول الله ﷺ، فتقوم عليه الحجـة، ويعتبر في حكم من بلغه القرآن كل مـن هو في مقدوره أن يسمعه متلوا أو أن يقرأه.

وقوله ﷺ للكافرين ـ بأمر ربه ـ «أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى» .

هو قـول يثبت عليهم شركهـم بالله تعالى مـا كانوا يتخذون مـن أصنام وغيرها آلهـة أو في حكم الآلهة .

وينكر عليهم هذا الفعل المشين ـ على مـا يبين من الاستفهام الإنكاري الذي وردت عليه عبارة القول.

وفيه جاءت «أخرى» صفة «لآلهة» جاءت مؤنثة لكونها لا تعقل .

وقوله ﷺ ـ بأمر ربه ـ «لا أشهد» .

مفاده بطلان قولهم الذي لا يقول به ﷺ لأنه لا يشهد إلا بالحق .

ثم يتأكد المعنـى الذي يدل عليه قوله ﷺ المستنكـر من الكافرين إشراكهـم بالله تعالى، وإقراره أنه لا يشهد بما يشهدون بقوله ﷺ «إنما هو إلٰه واحد وإنني برىء مما تشركون» مفيدا أن الحق الذي يشهد به هو وحدانيته تعالـى، وبراءته مما يعتقدون ويشهدون به، ومما يعبدون من دون الله .

ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾

التفســـير:

قوله تعالى ـ فـى الآية ـ فى الرد على المشركين الذين أبـدوا لعدم إيمانهم برسول الله ﷺ سببا مفاده أنهم سألوا عنه أهل الكتاب من اليهود والنصارى هل يجدون فى كتبهم شيئا عنه.

وأن هؤلاء أجابوهم بأنه ليس فى كتبهم عنه شىء .

فجاء قوله تعالى ـ مثبتا بمفهوم الموافقة ـــ وجود التبشير برسول الله ﷺ مع ذكر أوصافه فى كتب اليهود والنصارى من توراة، وإنجيل، وزبور، وصحف أنزلت على أنبيائهم.

وأنهم ـ مما جـاء فى كتبهم ـ يعرفونـه ﷺ، ويعلمون أنه النبى المبشر به ويعـرفون أوصافه معرفة المرء بأبنائه يستطيع أن يميزهم من بين كثيرين .

فكذلك يعرف أهل الكتاب رسول الله ﷺ ويميزون بينه وبين من يدعون النبوة بالكذب .

وقد سبق بيان تضمن التـوراة التى بين أيدينا اليوم وأسفار العهد القـديم وتضمن الأناجيل الموجودة بين أيدينـا اليوم التبشير برسول الله ﷺ، وذكر أوصافه مما لا يقبـل معه عقل شكا فى أنه ﷺ هو المعنى بالبشارة، والمدعو إلى الإيمان به وله .

ويقبل المعنى أن يكون الضمير المتصل فى «يعرفونه» عائدا على الكتاب، فيكون المعنى أنهم يعرفون ما جاء بكتبهم حق المعرفة، ومنه التبشير برسول الله ﷺ ، وأوصافه.

وقوله تعالى «الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون» .

هو ذكر لصفـة لأهل الكتاب من يهـود ونصارى ـ الذين لـم يؤمنوا ـ وللمشـركين، وصفهم تعالى بأنهم خسروا أنفسهم بتضييعهم الإيمان الفطرى الذى جبل الله تعالى الناس عليه.

وخسارتهم مـا عملوا من الصالحات التى لا تقبـل منهم فى الآخرة، وذلك بعـدم إيمانهم بما كان يجب عليه أن يؤمنوا به .

ولكون عدم الإيمان نتيجة لإصرارهم علـى خسارة أنفسهم، أرادوه لأنفسهم فأراده تعالى لهم .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ ورد فى صيغتين .

أولاهما : استفهامية لبيان استعظام الأمر.

والثانية تقريرية لتأكيد معنى يعتبر نتيجة مترتبة على المستفاد من الأولى.

فقوله تعالى «ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا، أو كذَّب بآياته».

يفيد معنى أنه ليس ثمة من يماثل ـ فى الظلم ـ أو يزيد عليه ـ من باب أولى ـ من افترى على الله كذبا.

بمعنى أنه قال بوجود شريك له فى الملك، أو زعم أنه اتخذ صاحبة أو ولدا، أو قام بتحريف ما أنزل فى الكتب مما تعلق بالتبشير برسول الله ﷺ وذكر صفاته، فينسب إليه تعالى ما لم يقله فى كتبه أو يحذف من قوله تعالى ما يحذف أو يقوم بتغيير عبارات قوله تعالى فى الكتب وتبديلها.

وأنه ليس من يماثل ـ فى الظلم ـ أو يزيد عليه، من كذب بآيات الله تعالى التى أنزل فى القرآن العظيم فلم يؤمن بالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا نبيا، وبالقرآن العظيم كتابا منزلا منه تعالى، ومن كذب بالآيات التى أنزلها تعالى فى التوراة والإنجيل تبشر برسول الله ﷺ وتذكر أوصافه.

وقد جاءت «أو» بين «ممن افترى على الله كذبا» وبين «كذب بآياته» لبيان أن أحد الفعلين كاف لأن يجعل فاعله أظلم الخلق، مع أن كلا من المشركين وأهل الكتاب قد قرفوا الفعلين.

فالمشركون زعموا أن لله تعالى أندادًا، وكفروا رسول الله ﷺ والقرآن العظيم .

وأهل الكتاب حرفوا الكتاب فافتروا على الله الكذب، ولم يؤمنوا بالقرآن العظيم .

وقوله تعـالى «إنه لايفلح الظـالمون» ورد فى عبارة تقريـرية تؤكد المعنـى الذى وردت به وهو عدم فلاح الظالمين .

ولما كان المفترون على الله الكذب، والمكذبون بآيـاته تعالى هم الأشد ظلما بين الخلق، فإنهم الأجدر ألا يكونوا مفلحين، فهم لا يفوزون بما يرجون، ولا ينجون مما يكرهون.

وقيل إن المراد بعدم الفـلاح هو عدم الفلاح فى الدنيـا ـ استدلالا بإخبار الآية التـالية عن عدم فلاحهم فى الآخرة ـ .

وقد يكون الصحيح أن المراد به عدم الفلاح فى الدنيا والآخرة .

أو اعتبار المراد بعدم الفلاح فى الدنيا هو عدم الإثابة على فعال الدنيا فى الآخرة .

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

التفســـــير :

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى بيان عدم فلاح الكافرين والمشركين فى الآخرة .

وقوله تعـالى «ويوم نحشرهـم جميعا» يفيد معنى «واذكـر لهم يوم نحشرهـم جميعا» ويوم الحشر هو يوم القيامة، فيكون مؤدّى القول أنه للترهيب والتخويف.

والذين تـوعدهم قولـه تعالى الذيـن يجمعهم سبحانه وتعـالى هم جميع الخلـق، أو هـم المشركون ومـا كانوا يعبدون مـن دون الله، وأهل الكتاب ومن كـانوا يشركون بـالله بتأليههم أو بالقول ببنوتهم لله تعالى .

ويكون جمعه تعالى أهل الكتاب مع المشركين لاستعلام المشركين منهم عن وجود التبشير برسول الله ﷺ وأوصافه فى كتبهم وإنكارهؤلاء لهم وجود شيء من هذا فى الكتب .

وقوله تعالى «ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون» .

أريد به توبيخ المشركين وبيان جهلهم بإشراكهم بالله من لا يستطيع لهم نصرا ولا ضرا .

ذلك أن «أين» ـ وهى للاستفهام عن غير الحاضر تفيد عدم وجود أو غياب المستفهم عن مكانهم، وهم المعبر عنهم بقوله تعالى «شركاؤكم الذين كنتم تزعمون» فهم شركاؤهم، فيدخل فيهم معبودوهم ـ وهم معبودوات المشركين من الأصنام وغيرها، ومعبودو أهل الكتاب ممن اتخذوهم آلهة أو أربابًا أو عدُّوهم أبناء الله .

ويدخل فيهم أهل الكتاب باعتبارهم شركاء المشركين فى الكفر أضلوا المشركين بإنكارهم وجود التبشير به ﷺ وذكر أوصافه فى كتبهم .

ومعنى عدم وجودهم مع المشركين وقت سؤاله تعالى المشركين عنهم تقريعا لهم وتوبيخا يقبل أن يكون عدم وجود مادى على المستفاد من قوله تعالى «وما نرى معكم شفعاءكم» وقوله تعالى «وضل عنكم ما كنتم تزعمون» .

ويقبل أن يكون المراد به هو عدم الإفادة من وجودهم لكونه وغيابهم سواء، وذلك لتحقق حشرهم مع المشركين على ما يبين من قوله تعالى «احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون».

والمستفاد من وصفه تعالى هؤلاء الشركاء بأنهم مزعومون بقوله تعالى «الذين كنتم تزعمون» يفيد باطل الاعتقاد فى هؤلاء الشركاء فى الدنيا لأن «الزعم» لا يفيد ـ فى القرآن العظيم ـ إلا معنى الكذب .

وإن كان ـ فى اللغة ـ يُستعمل فى الحق كما يستعمل فى الكذب .

وأخيرا فإن معنى قوله تعالى «ثم نقول للذين أشركوا» ومفاده أنه تعالى يكلمهم، لا يناقض قوله تعالى فيمن حل عليهم غضبه تعالى أنه لا يكلمهم، لأن المراد بالتكليم الذى نفى

تعالى أنه يكون منه هو تكليم التشريف وليس تكليم التوبيخ والتقريع .

ذلك أنه تعالى قد كلم إبليس اللعين على ما يبين من قوله تعالى «قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى» .

ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾

أولا : الأســـماء :

الفتنـة : فى قوله تعالى «ثم لم تكن فتنتهم»، سبق بيان معناها.

وقيل إن المراد بها فى معنى الآية هو الشرك.

وقيل إنه الاختبار بسؤال المشـركين عن شركائهم، وقد يكون المراد به هـو عاقبة الشرك فى الآخرة .

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالـى ـ فى الآية ـ فى وصف حـال المشركين حين يقعون فى محنـة أو فتنة سؤالهم عن شركائهم الذين كانوا يزعمون لهم القدرة فى الحياة الدنيا مفتونين بهم وبشركهم .

فذكر تعالى أنهم يتبرؤون منهم ومن شركهم، ويحلفون بالله أنهم ما كانوا مشركين .

وقيل إن المشركين حين يرون أنه تعالى يغفر الذنوب إلا الشرك يقررون فى أنفسهم أن يقروا بالمعصية وينكروا الشرك وأن يحلفوا على هذا .

فيكـون منه تعـالى أن يخـتم علـى أفواههـم فتنطق أيـديهم وتشهـد أرجلهم بمـا كانـوا يكسـبون .

وقد يكون الصحيح أن المراد بقوله تعالى «ثم لم تكن فتنتهم» هو أنه لم يكن منهم بعد أن رأوا عاقبـة فتنتهم ـ أى شـركهم ـ من العـذاب إلا إنكاره والتبرؤ منـه والحلف على أنهـم لم يكونوا مشركين، وأن القوم حسبوهم كذلك على خلاف حقيقتهم .

ومن حلفهـم بالله تعالـى يبين أنهم علمـوا بطلان عقيـدتهم التى كـانوا عليها فـى الحياة الدنيـا، وبحلفهم عالمين بكـذب ما يحلفون عليـه يبين نقص إيمـانهم وعدم معرفتهـم بالله تعالـى معرفة تامـة وهو الذى لا تخفـى عليه خافية ولـو كانت فـى الصدور، كما يبين تـأصل الكذب والخداع فى نفوسهم .

وقد قيل إنه يكون منهم الكذب يوم القيامة لفرط حيرتهم ودهشتهم مما يرون فلا يعقلون .

انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ خطاب ـ فى الظاهر ـ إلى رسول الله أن ينظر حال المشركين.

وهو ـ فى مضمونه ـ بيان لحالهم فى الآخرة.

نرى ــ والله أعلم ـ أنـه يؤكد مـا ذهبنا إليه من أنهـم يكذبون يـوم القيامة ويحلفـون على الكذب وهم يعلمون، وذلك علـى المستفاد من قوله تعالى «انظر كيـف كذبوا على أنفسهم» لأن الكذب على النفس يعنى العلم بما فيها من إدراك الحقيقة ثم زعم غيرها، فهو لا يكون إلا عمدا.

وقيل إن المـراد بكذبهم علـى أنفسهم هـو كذبهم فـى الحياة الدنيـا بقولهـم إن الأصنام تُقرِّبهم إلى الله زلفى.

وقيل إنه الكذب فى الآخرة من تأثير الذهول .

وقد يؤكد المعنى الذى انتهينا إليه أنه تعالى يقول «يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون».

فهو يدل على أنهـم يحلفون لله تعالى على الكذب ــ فى يوم البعث ـ كما كـانوا يحلفون للمؤمنين على الكذب فى الحياة الدنيا، وفيها كانوا يحلفون على الكذب وهم يعلمون .

وقوله تعالـى «وضل عنهم ما كانوا يفترون» وفيـه جاءت «ما» الموصولة دالة علـى ما كانوا يعبدون من دون الله .

ومعنى أن المعبوديـن ضلوا عنهم هو أنه لم يشـاهد من هؤلاء أفعال تغيـث المشركين أو تنقذهم من العذاب، وهـى الأفعال التى نسبها المشركون إلى معبوديهـم واعتقدوا أنها تكون منهم لهم افتراء وكذبا .

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾

أولا : الأســـماء :

١ ـ **الأكنـة** : جمع ، مفرده «كنان»، وهو الغطاء .

٢ ـ **الوقـــر** : فى قوله تعالى «وفى آذانهم وقرا» ، هو الصمم، وهو الثقل فى السمع.

٣ ـ **الأساطير** : جمع، مفرده أسطار وأسطاره، وأسطير وأسطيرة، وأسطور وأسطورة.

والمشهور فى مفـرده ـ بالنقل ـ أسطورة، وهو المسطور مـن أقوال السابقين والمخبـر عن أفعالهم.

وجرى اللسان اليوم على إطـلاقه على قصص الأقدمين المتعلق بأحـوالهم مما هو ملىء بالمبالغات أو الخرافات .

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ لايزال فى شأن المشركين .

فيقول تعالـى إن البعض منهم يصغى إلـى رسول الله ﷺ ـ المخاطـب بالنص ـ وهـو يتلو

القرآن العظيم .

فمعنى «يستمع» فى عبارة الآية هو «يستمع استماع إصغاء» .

ويبين تعالى أن هؤلاء النفر الذين يصغون إلى رسول الله ﷺ قد حيل بينهم وبين أن يفهموا معانيه ويتدبروها فيؤمنوا .

فقوله تعالى «وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا» يمثل لذلك بأنهم قد حجبت قلوبهم وعقولهم عما يتلى من القرآن بأغطية تحول بينها وبين القرآن المتلو فلا تفهم منه شيئا، وبأن أسماعهم قد أصابها صمم أو ثقل فى السمع فلا تسمع من القول المتلو ما تستخلص منه معنى يفهم .

والمستفاد من لفظ «وجعلنا» أنه تعالى قدر عليهم ألا يفقهوا القرآن فيؤمنوا .

والمستفاد من قوله تعالى «أن يفقهوه» وهو بمعنى كراهة أن يفقهوه ، أنه تعالى قدر عليهم هذا لما كان منهم من إصرار على الكفر الذى اختاروه وكراهتهم أن يؤمنوا فمكنهم سبحانه وتعالى مما اختاروا.

ثم يذكر تعالى المزيد من أحوالهم التى تدل على اختيارهم الكفر و إصرارهم عليه بقوله تعالى.

«و إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها».

فبعد أن ذكر تعالى أحوال عقولهم أو قلوبهم وأحوال آذانهم ـ على التشبيه ـ ذكر حال عيونهم فبين تعالى أنها لا تبصر و إن رأت.

فهم مهما رأوا من آيات الله تعالى الدالة على صحة نبوته ﷺ لا يتغير حالهم، يبقون على كفرهم لا يؤمنون بما رأوا وعلموا وما يدرك منه.

والقول بهذا المعنى يفيد إصرار هؤلاء على الكفر والشرك الذى استحقوا به أن يجعل تعالى على قلوبهم أكنة وفى آذانهم وقرا وعلى أبصارهم غشاوة .

ثم يقول تعالى ـ فى بيان المزيد من أحوالهم .

«حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين».

بمعنى أنهـم إذا ما جاءوا إليه ﷺ مناقشين أمره وأمـر الرسالـة التى بعث بها مخـاصمين مجادلين، لا يكتفون بعدم الإيمان بل يزيدون عليه ـ من فرط إصرارهم على الكفر ـ لغوهم فى القرآن العظيم وقولهم فيه إنه محض ذكر لما سطر من أقوال الأقدمين وعن أحداث حياتهم .

والمروى أن الآية نزلت لما كان استماع أبى سفيـان بن حرب، والوليد بن المغيرة، والنضر ابن الحـارث، وعتبة وشيبـة ابنى ربيعـة، وأمية وأبى ابنـى خلف إلـى رسول الله ﷺ وهـو يقرأ القرآن، فقـالوا للنضر «مـا يقول محمد؟» فقـال «ما أدرى مـا يقول إلا أنى أرى تحـرك شفتيه يتكلم بشىء، فما يقول إلا أساطير الأولين، مثلما كنت أحدثكم عن القرون الماضية» .

ذلك أن النضر كان من المحـدثين الذين يقصون قصص الأقدمين فـى المجالس فيأنس إليه القوم .

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

أولا : الأســـماء :

١ ـ هـــــم : قيل إن ضمير الغائب هو للمشركين.

وقيل إنه لأبى طالب وأتباعه كانوا ينهون عن إيذاء رسول الله ﷺ، ولا يؤمنون له.

وقيل إنهم أعمامه ﷺ .

٢ ـ المنهى عنه: فى قوله تعالى «وهم ينهون عنه وينأون عنه» الراجح أنه القرآن العظيم.

وقيل إنه رسول الله ﷺ .

ثانيا : التفســـير :

قوله تعالى ـ على ما يبين من السياق ومن ارتباط معنى الآية بسابقتها ـ فى شأن المشركين

الذين كذبوا بالقرآن العظيم الذى استمعوا له وقالوا فيه إنه أساطير الأولين.

يذكر تعالى أفعالا أخرى لهم هى نهيهم الناس عن سماعه، وذلك خوفا من أن يتأثروا به فيؤمنوا، كما أنهم يبتعدون بأنفسهم عن سماعه لتأكيد معنى نفورهم منه.

وقيل إن إيراد النهى عن الاستماع للقرآن قبل النأى عنه ـ فى النص ـ مرجعه أن اجتناب الناهى ما نهى عنه ـ وهو النأى ـ من متممات النهى.

وقد يكون الصحيح أنه كان يحدث من الناهين عن الاستماع إلى القرآن النأى عن سماعه من بعد الاستماع إليه، لتأكيد معنى أن نأيهم عنه إنما كان من بعد سماعه وعرضه على العقول وعلى أهل العلم من أهل الكتاب ومعرفة حقيقته، وذلك لتأكيد معنى عدم نزوله من عند الله تعالى .

وقوله تعالى «وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون» .

هو تقرير لحال هؤلاء المشركين الذين نهوا عن سماع القرآن العظيم واجتنبوا سماعه .

يذكر تعالى أنهم بفعلهم إنما يهلكون أنفسهم بتعريضها للعذاب الشديد، دون أن يشعروا أن فعلهم يؤدى بهم إلى التهلكة دون أن يؤثر على ما قدره تعالى من نشر دينه ويضر رسوله ﷺ .

ولا يفيد قوله تعالى «وإن يهلكون إلا أنفسهم» معنى أن غيرهم ممن استمعوا لنهيهم وأجابوهم لا يتعرضون للعذاب.

وإنما يفيد اختصاص الناهين بعذاب إهلاك النفس عن الإضلال، دون إفادة معنى عدم تعذيب المنتهين .

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

التفســـير:

قوله تعـالى ـ في الآية ـ مبدأ بيان أحوال المشركيـن يوم القيامة ووصف لحسـرتهم حين يعاينون العذاب ويعلمون أنهم مواقعوه .

والخطاب لرسول الله ﷺ وللمؤمنين وكل من يعتبر ويتعظ.

والمراد بقوله تعالى «ولو ترى» يفيد معنى أنه «لو كان لك أن ترى من الآن لرأيت ـ فالمراد هو إبراز معنى تحقق المروى بالنص وهو «وقوفهم يوم القيامة على النار».

بمعنى وقوفهـم على الصراط والنار مـن تحتهم، أو وقوفهم علـى مقربة منها قبـل إلقائهم فيها.

وقولهم «يا ليتنـا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكـون من المؤمنين» جاء فى الآيـة لبيان مدى تحسرهم على ما فرطوا فى أنفسهم فى الحياة الدنيا وندمهم على ما فعلوا .

فهم يتمنون محـالا هو أن يردوا إلى الحيـاة الدنيا فلا يكـون منهم تكذيب للقـرآن العظيم ولرسول الله ﷺ .

فيكون معنـى «آيات ربنا» هـو آيات القرآن العظيم والأدلـة التى تثبت نبـوة رسول الله ﷺ، ويكون منهم الإيمان بالله وبالقرآن كتابا منزلا منه وبمحمد ﷺ رسولا نبيا .

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾

أولا : الأســـماء :

ما كانوا يخفون من قبل : المراد به ـ فـى معنى الآية ـ هو النار، كانوا ينكـرون تعذيبهم بها فى الآخرة، ستر أمرها فى نص الآية ترتيبا على إنكار وجودها من جانب المشركين .

ثانيا : التفســـــير :

قوله تعالى - فى الآية - فى ذم المشركين وبيان إصرارهم على الكفر .

فقوله تعالى «بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل» هو بيان لسبب تمنيهم العودة إلى الحياة الدنيا ليؤمنوا بما كفروا به من قبل.

فبين تعالى أن علة تمنيهم ما تمنوا ليس هو الحب فى الإيمان وإنما هو هول الموقف الذى عاينوا فيه النار التى كانوا ينكرون وجودها فى الآخرة وأنها أعدت لعذابهم، وتيقنهم أنهم مواقعوها .

ثم يتأكد هذا المعنى بقوله تعالى «ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون» .

فمفاده أنه لو تحقق ما تمنوا وعادوا ثانية إلى الحياة الدنيا لما آمنوا بما كفروا به من قبل، فيكون المنهى عنه من قبل والذى يعودون إليه ولا ينتهون عنه هو الكفر وتكذيبهم رسول الله ﷺ وتكذيبهم بالقرآن العظيم.

ثم يقطع تعالى فى حقيقة أمرهم بقوله تعالى «وإنهم لكاذبون» بمعنى أنهم كاذبون فى مضمون أمنيتهم، فيكون القول مثبتا انطباع قلوبهم على الكذب .

وقد قيل إن قوله تعالى - فى الآية - تعلق بعلماء أهل الكتاب، وأن الذى أخفوه من قبل هو التبشير به ﷺ وذكر أوصافه فى كتبهم .

والذى يدل عليه السياق وارتباط معنى الآية بالمعانى المستفادة من الآيات السابقة هو تعلقها بالمشركين على ما سبق بيانه .

وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾

التفســـــير:

بعد أن ذكر تعالى أمنية المشركين التى يتمنونها حين يعاينون النار وفيها عودتهم إلى الحياة الدنيا .

وبيانه تعالى أنهم لو عادوا إلى الحياة الدنيا لكان مسلكهم هو ذات مسلكهم السابق وهو الكفر والإشراك به تعالى.

فإنه تعـالى ذكر قولهـم فى حياتهم الـدنيا، وهو أن الحياة حيـاة واحدة هى الحياة الـدنيا، ليس من بعدها بعث ولا نشور، ولا حساب، ولا جنة، ولا نار.

والذى يقول مثل هذا القول لا ينتظر منه أن يؤمن، لأنه لا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا.

فيكون القول مثبتاً كذبهم فى مضمون ما تمنوا لدى معاينتهم النار.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى بيان حال المشركين المكذبين بيوم الدين .

والنص خوطب به رسول الله ﷺ، والمعنى المقصود من النص هو للكافة .

والمراد بقوله تعـالى «ولو ترى إذ وقفوا على ربهـم» هو «لو كان لك أن ترى مـا يكون حين وقوفهم على ربهم، لرأيت» فيكون الوارد بعد ذلك ـ فى نص الآية ـ هو الحقيقة المؤكدة .

وقيل فى معنى قوله تعالى «إذ وقفوا علـى ربهم» أنه الاطلاع وقد يكون الصحيح أن معناه أنهم يكونون موقوفين عليه تعالى، بمعنى أنه لا يكون فى مقدورهم التصرف فى شئونهم على أى نحو، فهـم طوع أمره، فـى حكم المقبوض عليه أو المـوقوف يخضعون لـه تعالى فـى كل حركة وسكنة.

ثم يبين تعالى أنه يكون منه تعالى ـ وهم فى هذه الحال ـ أن يسألهم «أليس هذا بالحق»، بمعنى «أليـس هذا البعث الـذى كنتم تكذبـون به حقـا ـ ويتبعه العـذاب الذى توعـدوا به ـ

فيكون منهم قولهم «بلى وربنا».

أى أنهم يقرون بحقية البعث والعذاب ويحلفون على ذلك به تعالى إظهارا لتيقنهم من حقيته.

فيكون منه تعالى أنه يقول لهم «فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» ومعنى أنه تعالى يقول، أنه قد أوردهم العذاب، وجاءت «الباء» فى قوله تعالى «بما كنتم تكفرون» لبيان سبب تعذيبهم، وهو كفرهم بالله تعالى، وبرسول الله ﷺ، وبالقرآن العظيم، وبيوم البعث.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾

أولا: الأســـماء:

١ ـ **الساعة**: قيل إن المراد بها يوم القيامة.

وقيل ـ وهو ما نراه ـ وقت الموت، سمى بأحد أسماء يوم القيامة لأن من مات تكون قيامته قد قامت.

٢ ـ **البغتة**: فى قوله تعالى «حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة» مصدر من الفعل «بغت ـ يبغت» بمعنى فَجَأ، فهى بمعنى «فجأة»، والمباغتة هى المفاجأة.

٣ ـ **الأوزار**: جمع، مفرده، «وزر» وهو الإثم، والثقل، والكارة، والسلاح.

والمراد به ـ فى معنى الآية ـ هو الإثم، والذنب.

ثانيا: التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية فى الكافرين الذين أنكروا يوم البعث. وهم الذين يطلق عليهم

«معطلة العرب» كانوا ثلاث فئات :

فئة تنكر الخالق والبعث والإعادة، وهم الذين ورد فيهم قوله تعالى «وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا».

وفئة أقرت بالخالق والخلق والإبداع، وأنكرت البعث والإعادة .

وفئة تنكر الرسل وتعبد الأصنام.

وفى الفئة الثانية جاء قوله تعالى «وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم».

وفى الفئة الثالثة جاء قوله تعالى «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق».

وقوله تعالى ـ فى الآية ـ ورد فى شأن معطلة العرب أو فى شأن الفئتين الأولى والثانية منهما لأنهما اللتان أنكرتا البعث صراحة على حين أن الفئة الثالثة لم تنكره وإنما لم تعدله عدته.

يقرر تعالى أن منكرى البعث الذى يلاقون فيه حسابهم قد خسروا بعقيدتهم الباطلة إيمانهم الفطرى الذى جبلت عليه النفوس، كما خسروا أعمالهم الصالحة فلم يثابوا عليها، وخسروا كل ما يتنعم به المؤمنون .

ثم يبين تعالى أنه متى فجأهم يوم القيامة ـ فى رأى ـ أو فجأهم الموت ـ فى رأى آخر نراه الأرجح ـ وعرفوا موقعهم من النار قالوا «يا حسرتنا على ما فرطنا فيها»، بمعنى أنهم يتحسرون ـ على المستفاد من نداء الحسرة: «يا حسرتنا» ـ ويندمون على تفريطهم وتقصيرهم فى الحياة الدنيا فى حقوق أنفسهم بإصرارهم على الكفر وعدم الإيمان بيوم البعث والعمل له .

ثم إنه تعالى يصف حالهم وقت تحسرهم على تضييع عملهم فى الحياة الدنيا بقوله تعالى «وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم».

فشبه تعالى ذنوبهم التى ارتكبوها فى دنياهم بإنكارهم البعث وعدم العمل له بالإيمان والعمل الصالح بالثقل، أو بالحمل الثقيل الذى يحمل على الظهر من فرط ثقله .

فالوصف من باب الاستعارة التمثيلية أريد به بيان مدى جسامة ذنوبهم المتعلقة بإنكار

البعث والحساب والمترتبة عليه.

ثم يجيء قوله تعالى فى شأن ذنوبهم هـذه بقوله تعالى «ألا ساء ما يزرون» وهو يفيد معنى أن هذه الأوزار قد ساءت هؤلاء المكذبين .

ومعنى أنها مـذمومة بكونهـا أسوأ ما قرفـوا من الذنوب، فيكـون معنى القول هو «مـا أسوأ وزرهم الذى اقترفوه» .

وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

أولا : الأســــماء :

١ ـ اللعب : قيل إنه كل فعل يعجل جلب المسرة، وقيل هو الباطل .

٢ ـ اللهــــو : قيل هو كل ما يهتم به دون أن يستحق الاهتمام به.

وقيل هو اليمن ، والمرأة، وقيل هو الغرور .

ثانيا : التفســــير:

بعد ذكره تعالى خبر الذين كذبوا بالبعث والآخرة، وذكره ما يكون من شأنهم فى الآخرة.

أورد تعالى فى الآية ما يفيد المقارنة بين الحياتين الدنيا والآخرة، وذلك لما بدا من اعتداد معطلة العرب بالحياة الدنيا وحدها وعدم عملهم للآخرة عملها .

وجاء قوله تعالى «وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو» ويبين من ورود عبارة القول منفية ووجود الاستثناء فيها أن المعنى الذى يثبته النص هو أن الحياة الدنيا لعب ولهو .

وقيل فى قـوله تعالى هـذا إنه يفيد معنى أن أعمال الحيـاة الدنيا هى مثـل اللعب واللهو وذلك لعدم ثباتها وانقضائها وعدم دوامها .

أو إن القول جاء بمبالغة أريد بها بيان تفاهة كسب الحياة الدنيا .

وقد يكون الصحيح أن المراد بكون الحياة الدنيا لعب ولهو هو أنها كذلك لدى الكفارين بالبعث واليوم الآخر، لأنهم بعدم خشيتهم حسابا فى الآخرة لن يقفوا دون أنفسهم وما تطلب من أنواع المسرات والملاهى يسرفون فيها لظنهم أنهم لا يتمتعون بعد انقضاء حياتهم.

أو أن جميع السعى فى الحياة الدنيا فيما عدا السعى لنيل رضاء الله تعالى بالعبادة والعمل الصالح ـ ومنه كسب العيش ـ هو من قبيل اللعب واللهو ينتفع به وقتيا أو لحظيا ثم يزول ويزول معه ما خلف من بهجة ومسرة ،

ثم إنه تعالى يذكر ـ فى مقابل مباهج الحياة الدنيا ـ حال الآخرة بقوله تعالى «وللدار الآخرة خير للذين يتقون» .

وهو تقرير منه تعالى بأن الحياة الآخرة من بعد البعث فيها الخير كل الخير للذين يتقون الكفر والعصيان.

ومن مظاهر هذا الخير أنه لا ينفق فيها من الجهد والمال مثل ما ينفق لتحصيل مكاسب الحياة الدنيا، ولأن نعيمها خالد لا يزول ولا ينقضى مثل مباهج الحياة الدنيا ومسراتها.

وقوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «أفلا تعقلون» موجه إلى هؤلاء الذين لا يتقون الكفر والعصيان و إنكار الحياة الآخرة .

يفيد معنى وصفهم بأنهم بما يعتقدون ويفعلون قد غابت عقولهم، ويحثهم على إعمال عقولهم والانصراف عن عقيدتهم الباطلة، والإيمان باليوم الآخر يكون من عناصر إيمانهم إيمانا كاملا مع العمل الصالح واتقاء ناره .

قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾

التفســـير:

قوله تعالى ـ فـى الآية ـ تسرية عن رسول الله ﷺ الذى كان يحزنـه إعراض المشركين عن الإيمان وأحزنه ما نزل به قوله تعالى من إخبار عن أحوالهم .

فقولـه تعالى «قد نعلـم أنه ليحزنك الـذى يقولون» يفيد أن المحقـق هو علمه تعالـى أنه يحزن رسوله ﷺ ما يسمع من الكافرين من إنكار اليوم الآخر وعدم الإيمان .

فتكون «قد» فى قوله تعالى «قد نعلم» هى للتحقيق وليست للتكثير ـ كما قيل .

وذلـك لأن علمه تعـالى قـديم أزلـى لا يقبل التكثيـر. ثم يجـىء قولـه تعالـى «فإنهـم لا يكذبونك ولكن الظـالمين بآيات الله يجحدون» لدفع الحزن عـن نفسه ﷺ، إذ ذكر تعالى أن تكذيب المكذبين ليس تكذيبا له ﷺ .

فهو عليه الصلاة والسلام لا يملك فى سبيل إقناع الخلق إلا ما أمده به ربه تعالى شأنه من الآيات .

فتكذيب المكذبين هو فى حقيقته إنكار لآيـات الله شاملة آيات القرآن العظيم ـ وفيها ذكر الآخرة والحساب ـ وشاملة كل ما أيد به تعالى رسوله من الآيات الدالة على نبوته.

وما سبق ذكره فى القرآن من دلائل تثبت أن القـادر على الخلق من العدم قادر على البعث من القبور وعلى الجمع والنشر.

ويبدو مـن عبارة نـص الآية «ولكـن الظالميـن بآيـات الله يجحدون» وفيـه وصف تعـالى الجاحدين بأنهم ظالمون ـ على نحو يبين منـه أن علة تكذيبهم بالآيات هى كونهم ظالمين ـ ما يفيد معنى سبق إصرار المكذبين على التكذيـب بآيات الله وجحدها وهو ما استحقوا به أن يوصفوا بالظالمين .

فيكون جحدهم بآيات الله نتيجة لظلمهم .

كما يبيـن من جملة «فإنهـم لا يكذبونـك ولكن الظالميـن بآيات الله يجحدون» أنهـا قد وردت فى نـص الآية بمثـابة العلة للمستفـاد من قولـه تعالـى «قد نعلم إنـه ليحزنـك الذى

يقولون»، وهو نهيه ﷺ عن الحزن والأسف لحال الكافرين والذى يقولونه .

فيكون سبب النهى أن تكذيبهم ليس تكذيبا له ﷺ يستوجب الحزن له .

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾

أولا : الأســـماء :

كلمات الله : قيل إن المراد بها ـ فى معنى الآية ـ آيات القرآن العظيم التى ورد فيها وعده تعالى أنبياءه بالنصر، ومنها قوله تعالى «كتب الله لأغلبن أنا ورسلى».

ثانيا : التفســـير :

قوله تعالى ـ فى الآية ـ لتسلية رسول الله ﷺ ولإذهاب الهم عن نفسه لما يرى من عناد الكافرين وإصرارهم على الكفر.

وذلك ببيان أن هذا ليس شأنه ﷺ وحده من بين الرسل بل هو شأن كثيرين منهم .

فقوله تعالى «ولقد كذبت رسل من قبلك» .

هو إعلام له ﷺ أن رسلا عديدين ذوى منزلة عليا عنده تعالى ـ على ما يبين من تنوين «رسل» للتفخيم ـ جاءوا من قبله ﷺ ، ثم كان من أقوامهم معهم أنهم كذبوهم وآذوهم.

فلقد كذب نوحا عليه السلام قومه وآذوه وسخروا منه.

كما كذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام قومه وألقاه الملك فى النار.

وكذب موسى عليه السلام قومه واتهموه بأنه سبب ما لحق بهم من الأذى.

كما كذب عيسى ابن مريم عليه السلام قومه بنو إسرائيل وتآمروا عليه.

ويبين تعالى أن الرسل الذين كذبوا وأوذوا قد قابلوا أفعال قومهم بالصبر.

فيكون قولـه تعالى متضمنا أيضـا معنى حث رسول الله ﷺ علـى الصبر على تكذيبـه من جانب قومه وعلى ما يفعلون قصد إيقاع الأذى به.

ثم إنـه تعالى يبين أن صبـر الرسل هو إلـى أجل محتوم ، هو تحقـق نصرهم «حتى أتـاهم نصرنا» .

ثم يبيـن تعالـى أن نصره رسلـه قدر مقـدور لا تبديـل له ولا تغييـر بقولـه تعالـى «ولا مبدل لكلمات الله» فهو تعالى القائل «لأغلبن أنا ورسلى» .

وقوله تعالى هو الكائن الذى لا يتغير ولا يتبدل .

فيكون القول وعدا لرسول الله ﷺ بالنصر .

ثم يخاطب تعالى رسوله ﷺ بقوله «ولقد جاءك من نبإ المرسلين» .

بمعنى أنـه تعالى قـد أعلمه أخبار المـرسلين منه تعالـى أنبياء ورسلا ومـا عانوه مـن كفر أقوامهم بهم وإيذائهم ثم ما كان من عاقبة ذلك من نصر للرسل على المكذبين.

والمعنى المبطـن فى القول هـو أن يستدل رسول الله ﷺ ممـا ذكر له ربـه على أنه تعـالى ناصره وناصر دينه .

وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

أولا : الأســـماء :

١ ـ النفق : فى قوله تعـالى «أن تبتغى نفقا فى الأرض» هو السرب يكـون فى باطن الأرض أصله فى المعنى جحر اليربوع.

٢ ـ السلم : فى قوله تعالى «أو سلما فى السماء» هو الدرج يرقى به إلى المكان العالى.

ثانيا : التفســـير:

الخطاب ـ فى الآية ـ موجه إلى رسول الله ﷺ جاء فى صيغة جملـة شرطية، يبين من أداة الشرط وفعله فيهـا أنه ﷺ قد شق عليه إعراض الكـافرين عنه وعن الإيمان بـالقرآن العظيم، ونهيهم عنه ونأيهم وقولهم فيه إنه أساطير الأولين.

ويبين من جواب الشرط ـ وقد جاء أيضا فـى صيغة جملة شرطية «فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فـى السماء فتأتيهم بآية» يبيـن منه صحة ما قيل فى شـأن سبب نزول الآية وهو طلب نفر من قـومه ﷺ ـ منهم الحارث بن عامر بن نوفل بـن عبد مناف ـ أن يأتيهم بآية من الآيات المادية من نوع ما كان يأتى به أنبياء سابقون ليصدقون.

وأنه تعالـى لم يشأ أن يأتيهـم بمثل هذه الآيات، فشـق عليه ذلك ﷺ لشدة حـرصه على إيمانهم وحزنا عليهم ألا يؤمنوا.

ذلك أنه ﷺ كان يكره أن يلقاهم فيسمع منهم طلبهم أن يـأتيهم بآية أبى تعالى أن يأتيهم بها.

فجاء قولـه تعالى متضمنا فى جـواب شرط الجملة الشرطية مـا يفيد أنه تعالى لـن يأتيهم بالآية التى طلبوا.

وذلك لأن مفاد قوله تعالى أنه ليس للخلوص من سماع طلبهم سبيل لأنه ليس لذلك إلا اتخاذ نفق فى الأرض يكون فيه الاحتماء عن سماع طلبهم ـ وهو محال ـ أو اتخاذ سلم يصعد به إلى السماء تؤخذ منها الآية لتعرض عليهم ـ وهو محال أيضا.

فيكون القول قد أريد به بيان أمرين :

أولهما: مـدى حرصه عليـه الصلاة والسلام على إيمـان قومه بـالإسلام ورغبته أن يـأتيهم تعالى بالآية التى طلبوا ليؤمنوا .

وثانيهما : تقديره تعالى ألا يأتيهم بالآية التى طلبوها .

ثم إنه تعالى يبين أنه مقدر لهؤلاء الكافريـن أن يظلوا على كفرهم لا يؤمنون وأنه لم يشأ أن يجمعهم والمؤمنين على الهدى .

فقال تعالى «ولو شاء الله لجمعهم على الهدى» .

فدل تعـالى علـى أنه لـم يشأ لهم الهـدى لما علـم من الأزل أنهـم يختارون الكفـر على الإيمان .

وقوله تعـالى لرسوله ﷺ ــ فى ختام الآية ـ «فلا تكـونن من الجاهلين» هـو نهى له ﷺ أن يكون مع الجاهلين الذين طلبوا الآية فيتمنى أن يـأتيهم الله بها من بعد أن علم أنه تعالى غير آتيهم بها.

كما أنه نهى له ﷺ عن الحزن عليهم لكفرهم .

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ٣٦﴾

أولا : الأســـماء :

الموتى : المراد بهم فى معنى الآية ـ هم الكفار، وقيل هم الموتى على الحقيقة.

ثانيا : التفســـير:

قوله تعـالى ـ فى الآيـة ـ بيان لرسولـه ﷺ أنه مقدَّر للكافريـن الذين سألـوا الآية الشبيهة بآيات السابقين ألا يؤمنوا، وأن تقدير ذلك عليهم هو بفعلهم وما اختاروا .

وجاء هذا لبيان بإظهار الفرق بينهم وبين المؤمنين فى الاستعداد للإيمان .

فقوله تعالى «إنما يستجيب الذين يسمعون» مفـاده أنه تكون الإجابة على الدعوة للإيمان بالقبول ـ على المستفاد من لفظ «يستجيب» ــ من الذين يسمعون الدعوة، ويسمعون القرآن العظيم سماع فهم وتدبر .

فيكون فى بيان من لديهم استعداد للإيمان .

وقوله تعـالى «والموتى يبعثهم الله ثـم إليه يرجعون» جاء فيـه «الموتى» فى مقابـل «الذين يسمعون» فدل علـى أن المراد بهم هم الكافرون، شبههـم تعالى بالموتى، لبيـان أنه لا سبيل لسماعهم كلام الله تعالى وتدبره .

كما أنه لاسبيل لإسماع الموتى القول .

ثم بين تعالـى أن شأن الكافرين هو ذات شـأن الموتى يبعثون من القبور إلـى المحشر، ثم يرجعون إليه تعالى فيسمعوا ويلقون جزاءهم.

وقيل إن المراد ببعث الكافرين إليه تعالى هو هدايتهم للإيمان .

ويبدو لنا هذا بعيدا، لأن مبدأ الآية يفيد أنه لا يهـدى إلا الذين يسمعون ويقبلون بعد تدبر، وأن الكافرين هم غير هؤلاء .

وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

التفسـيـر:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ قول من طلبوا مـن الكافرين أن ينزل تعالى آية على رسوله ﷺ من جنس الآيات والمعجزات التـى أنزل من قبل على رسله وذلـك بقوله تعالى «وقالـوا لولا نزل عليه آية من ربه» بمعنى «هلا أنزلت عليه معجزة من ربه تدفع بذاتها إلى الإيمان» .

ثم يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهم «إن الله قادر على أن ينزل آية» .

ثم أتبع تعالى هذا القول الذى يقوله رسوله ﷺ بقـوله تعالى ـ فى شأن الكافرين ـ «ولكن أكثرهم لا يعلمون».

فيكون مضمون قـول رسول الله ﷺ للكافريـن أنه تعالى قـادر على أن ينزل ما يطلبـون من الآيات وأنهم لـو كانوا يعقلون لأدركـوا ذلك مما يشاهدون مـن بديع آياتـه، ولأدركوا أن عدم تنزيله الآيات المطلوبة إنما هو لأمر آخر استدعته حكمته.

ثم يجيء قوله تعالى «ولكن أكثرهم لا يعلمون» بيان لجهلهم الحكمة من وراء عدم تنزيله تعالى الآيات التى طلبوا تنزيلها على رسول الله ﷺ .

ذلك أنهم إن آمنوا بعـد إنزالها يكون إيمانهم مفتقـدا الإيمان بالغيب والطاعة لمـا يأمر به تعالى، مفتقدا عنصر الاختيار وهو علة الإثابة على الإيمان بعد الكفر .

ولأنهم إن إستمروا علـى كفرهم يكون منـه تعالى إهلاكهم كشـأنه تعالى مـن يكفرون بعد تنزيله الآيات المادية .

فيكون مفاد قوله تعالى إن إصرارهم على طلب الآيات هو نتاج جهل وعدم علم .

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾

أولا : الأســـماء :

الكتاب : قيل إن المـراد به ــ فى معنـى الآية ــ هو اللـوح المحفوظ ، وقيـل إنه القـرآن العظيم.

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالى ــ فى الآية ـ جاء مرتبطا بذكـر قدرته تعالى فى الآية السابقـة، فجاء نص الآية دالا على أن قـدرته تعالـى تشمل كل شـيء فهى أكبر مما سـألوا من نـزول آية شبيهة بـآيات السابقين من الرسل .

وجاء قوله تعالى «وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم» مثبتـا ـ من

مظاهر قدرته تعالى ـ عدة أمور.

منها أن دواب الأرض جميعـا، والطير أجناس وأنواع، وذلـك على ما يبين مـن ورود «أمم» فى صيغة الجمع بعد إيراده «الدابة»، «والطائر» فى صيغة المفرد.

فيكون المعنى أن كل جنس من جنس: الدواب والطيـور يتفرع إلى فصائل مختلفة ـ وهذا ما يثبته العلم اليوم.

ومنها أن كـل ما يطير يطيـر بجناحين أو بمـا يشبههما، وإننا لنلمـس ذلك فى مختـرعات الإنسان اليـوم، فالطائرة تطير بجنـاحين شأن جميع الطيـور، والصاروخ يندفع بقـوة الإطلاق، حتى إذا ما اتخذ خطا مستقيمـا فى سيره أخرج ما يشبه الجناحين ـــ مادام فى نطاق الغلاف الجوى المحتوى على الغازات.

وهذا ما يكون من بعض أنواع الحيوان التى تطير لمسافات طويلة أو قصيرة مثل الخفاش، وبعض أنـواع السناجب التـى أوجد تعالـى غشاء مـن الجلد بين قـوادمها وجسمها تفـردها فتكون شبيهة بالأجنحة.

ومنها أن جميع ما خلق من جنس الدواب والطير يماثـل أمم البشر من حيث تدبيره تعالى أمور معايشهم ورزقهم. وقيل إن فى القول حثا على عدم الإساءة إلى الدواب والطير.

وقوله تعالى «ما فرطنا فى الكتاب من شىء».

مفاده أن القرآن العظيم لم يغفل عن ذكر شىء فيه نفع للخلق من أمور الدين والدنيا.

ولعل ذلـك يبين من ذكـر الذرة والخردلـة فى آياتـه فيه إشارة إلـى الصغير والدنـىء مهما صغر، وذكره السماوات والأرض إشارة إلى ما عظم.

ويبقى أن المعرفـة بما تضمن الكتاب هـى التى يشوبها التقصيـر أو الضعف عن الإدراك، ينال العلم بالمجهول منه مع تطور الزمان، ويبقى ما استأثر بعلمه الله تعالى لا يعلمه إلاه.

وقولـه تعالـى فى ختام الآيـة «ثم إلـى ربهم يحشـرون» يفيد أن جميع مـا خلق مـن أمم الدواب والطير والإنسـان يحشرون إليه تعالى، فينال المكلفـون جزاءهم ويكون له تعـالى مع

باقى مخلوقاته ما يكون، من جعلهم ترابا أو غير ذلك ـ على ما سيجىء فى موضعه.

وقيل إن حشر الدواب والطير يكون بموتهم .

وقد يكون الصحيح غير ذلك، على ما يبين من قوله تعالى «وإذا الوحوش حشرت» .

فيكون فى الحشر إليه تعالى مماثلة بين أمم خلقه من الدواب والطير والإنسان .

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ «والذين كذَّبوا بآياتنا صمٌّ وبكم فى الظلمات».

وهـو جملة خبـرية مـن مبتدأ وخبـر يفيد معنـى معينا فحـواه أن الذيـن كذبـــوا بالقـرآن العظيــم وبسـائر الحجج والأدلة التى تثبت أنه مـن عند الله تعالى لا ينتفعون بـأسماعهم ولا ألسنتهم.

فهم كالصم البكم لا يسمعون آيات الله متدبريـن فتؤثر فى نفوسهم، ولا ينطقون فى القرآن وفى رسول الله ﷺ كلمة حق.

وبهذا يبقون فى ظلمات الكفر والعناد .

ويبين من ورود نص الآية مـن بعد حديثه تعالى عن أمم الدواب والطيـر أنه فيه إشارة إلى عدم تساوى الكافرين مع الدواب والطير التى تعرف مصالحها فتسعى إلى تحقيقها.

على حين لا يعرف الكافرون مصالحهم ـ وهى فى الإيمان ـ فينأون عنه.

وقوله تعالى «من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم» .

مفاده أنه تعالى شاء ضلال الكافر لينفذ فيه عدله بتعذيبه باختياره الذى أصر عليه.

وأنه شـاء للمهتدى أن يجعلـه على صـراط مستقيم ـ أى علـى دين الإسـلام ـ لينفـذ فيه فضله.

وقولـه تعالى هذا دليـل على أن الكفر والإيمـان بإرادة الله سبحانه وتعـالى، وأن الإرادة لا تتخلف عن المراد .

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٤٠﴾

التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ خطاب إلى رسول الله ﷺ يقول للكافرين من معطلة العرب الذين يشركـون بالله بعبـادة الأصنام لتقـربهم إلى الله زلفـى «أرأيتكم إن أتـاكم عـذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين» .

وفيه جاءت «الرؤية» فى «أرأيتكم» بمعنى العلم.

وجاء «عـذاب الله» بمعنى مصائب الـدنيا وشدائدهـا، وجاءت «السـاعة» بمعنى سـاعة البعث .

فيكون معنى قوله ﷺ لهـم «ألا ترون أنكم عندما تصيبكم شدة من شـدائد الدنيا تلجؤون إلى الله تعالى تدعونه أن يرفعها عنكم، وأنكم تبعثون إليه تعالى.

فلو أنكم كنتـم صادقين فيما تـدعون من وجود آلهـة أخرى أو أن للأصنام قـوة تنصركم أو تدفع عنكم مصائب الدنيا للجأتم إليهم .

فيكون مفاد القول هو إقامة الحجة على المشركين من أفعالهم وأقوالهم على أن دخائلهم تعلم أنه هو الله لا إلٰه إلا هو وأنهم يصرون على الكفر استكبارا وعنادا، وأنهم فيما يدعون، ومن

دونه يدعون كاذبون لا يعقلون .

بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾

التفســـــير:

بعد أن ذكر تعالى فى الآية السابقة لجوء المشركين إليه تعالى عندما تصيبهم شدائد الدنيا ومصائبها، وأنهم يدعونه تعالى حين يرون عذاب الآخرة أن يكشف عنهم ـ فيما يقوله رسول الله ﷺ لهم .

جاء قوله تعالى مخصصا عمومية القول، أو مفصلا إياه.

فقوله تعالى «بل إياه تدعون» يثبت أنهم عندما تصيبهم المصائب فى الدنيا، وأنهم حين تأتيهم الساعة يدعونه تعالى وحده ـ بما يدل على علمهم بانعدام فائدة معبوداتهم وأنها لا تضر ولا تنفع .

وقوله تعالى «فيكشف ما تدعون إليه إن شاء» يفيد أنه تعالى إذا أراد أن يرفع عنكم ما أصابكم من شدائد الدنيا ومصائبها فإنه يفعل.

والمعروف أنه لا يرفع تعالى عن المشركين غضبه وعذابه فى الآخرة؛ ولهذا تعلق رفع الضر أو «كشف ما يدعون إليه» بإرادته تعالى ومشيئته .

ثم يجيء قوله تعالى «وتنسون ما تشركون» بمعنى أنكم حين تصيبكم شدائد الدنيا وأهوالها تلجؤون إليه تعالى وحده وتتخلون تماما عما كنتم تعبدون من دونه تعالى فلا يخطرون على بالكم، وما كان ذلك إلا لأن فطرة الإنسان جبلت على اللجوء إلى من بيده الأمر كله، فيكون اللجوء إليه وحده فى الشدائد بحكم الفطرة والانصراف عن الباطل وهو كل معبود سواه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى المشركيـن عموما فى جميع العصور وبيان أنهم مع اجتماعهم فى صفة الشرك بالله فإنهم يختلفون فى بعض مظاهره من لين القلب وقسوته.

فيذكر تعالى أنـه أرسل من قبل رسلا إلى أقوامهم المشركين، جـاء التعبير عن هذه الأقوام بلفظ «أمم» جاء منونا لبيان كثرتهم.

ثم أوضح تعالى أنه عاقب هذه الأمم بما كـان منهم من كفرهم رسله جل وعلا، وأن عقابه إياهم كان بأخذهم بالبأساء والضراء وهما البؤس والضر، أو القحط والوباء.

وأنه تعالى أراد بما عاقبهم به أن يرى منهم تذللا إليه وتضرعا وتوبة إليه تعالى .

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ استئناف لحديثه تعالى فى شأن مشركى الأمم السابقة الذين كذبوا رسلهم فأصابهم الله بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون.

يثبت تعـالى أن ذلـك لم يحـدث منهم؛ فهم لـم يتضرعـوا لله يســألونه أن يرفـع البلاء عنهـم.

وذلك على ما يبين من «لولا» في قوله تعالى «فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا» فهي نافية.

ثم عبر تعالى عن عدم خضوعهم له وتضرعهم إليه بوصف قلوبهم بالقساوة، «ولكن قست قلوبهم».

ذلك أن التضرع إنما ينشأ عن لين القلوب تتأثر بما يكون فيحدث ذلك فيها أثره فتخشع إليه تعالى ويكون التضرع.

فجاء التعبير عن عدم الخشوع وعدم التضرع بذكر سببه وهو قسوة القلوب التي لا تتأثر بشيء فلا تلين وتخشع لله .

ثم يثبت تعالى أن هؤلاء الذين أبوا أن يتضرعوا إليه تعالى في البأساء والضراء قد استجابوا لتزيين الشيطان لهم كفرهم وعنادهم وتحسينه في أعينهم فكان منهم الإصرار عليه وعدم الخشوع.

وذلك بقوله تعالى «وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون» والمعنى يفيد أنهم استحسنوا في نفوسهم ما جعله الشيطان محبوبا لهم من الكفر والعصيان وعدم الخضوع له تعالى.

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

أولا : الأسـماء :

مبلسون : جمع، مفرده «مبلس» من الإبلاس وهو تغير الوجه.

والمبلس ـ في اللغة ـ هو الحزين وهو المتحسر، وهو اليائس .

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالى - فى الآيـة - استئناف لذكر ما كان منه تعالى مع مشركـى الأمم السابقة الذين لم يتضرعوا إليه تعالى حين أصابهم بالبأساء والضراء.

يقول تعالى «فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء» بمعنى أنهم عندما تركوا ما دعاهم إليه الرسل ولم يستجيبوا له واستمـروا على عصيانهم كان منه تعالى أن فتح عليهم أبواب الرزق فى الحياة الدنيا.

وليس معنى القول أن نسيانهم ما ذكروا به هـو علة فتح أبواب كل شيء عليهم، لأن سبب ذلك هو استدراجهـم ليعذبوا بأفعالهم، فكـأن فتح أبواب النعم عليهم يكون المـراد به إقامة الحجة عليهم لاستحقاقهم ما استدرجوا إليه.

وقوله تعالى «حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون» .

يفيد ذكر ما استـدرج إليه هؤلاء المشركين المكذبيـن، فيقول تعالى إنهم فرحـوا بما أنعم تعالى عليهم من النعم التى لم يعرفوا أداء حقها شكرا له تعالى.

وأنه عندما تمكـن منهم الفرح أنزل تعالى بهم عقـابه فجأة، باغتهم به غير متـوقعين نزوله بهم.

وجاء ذكر هـذا العقاب مجهلا غير محدد «أخذنـاهم بغتة» وذلك لتغير صـور العقاب بين الأمم فمنهم من أغرق ومنهم من أنزل عليه تعالى صاعقة من السماء أهلكته.

ومنهم من حل بـه الوباء فأهلكه، ووصف تعالـى حال هذه الأمم عند وقوع عـذابه تعالى بهم بأنه اليأس من النجاة لا يكون معه تفكير فيما يفعل أو فيما يقال .

فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

أولا : الأســـماء :

الدابـــر: هو «الخلف» من الدبر، وقيل هو الأصل .

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ ذكر لخاتمة أمور الأمم السابقة من المشركين الذين حل بهم عذابه فجأة من بعد الإنعام عليهم.

بين تعالى بقوله «فقطـع دابر القوم الذين ظلموا» أنه قد استأصل شـأفتهم بعذابه فلم يبق منهم أحد.

ووصفهم تعالى بالظالمين لأن الكفر ظلم وقد كانوا كافرين .

وقوله تعالى «والحمد لله رب العالمين» .

مفاده أنه تعالى مستحق أن يحمد بإهـلاكه هؤلاء المشركين وأن يحمده جميع خلقه لأن فى إهلاكه هؤلاء رحمة بهم.

ففيه حماية لهم من أن يزيِّنوا الشك لهم فيضلوهم ويهلكوا نفوسهم بتعريضها للعذاب .

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

التفســـير:

قوله تعـالى ـ فى الآيـة ـ خطاب موجه إلـى رسول الله ﷺ أن يقول للمشركيـن من معطلة العرب «أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به».

بمعنى أن يقول لهم ﷺ ـ تبكيتا لهم و إقامة للحجة عليهم ـ أعلمتم حالكم إذا ما سلبكم الله تعالى نعمة الإبصار ونعمة السمع، وأذهب عقولكم فأصبحتم لا تفهمون، أنه لا يكون غيره من يستطيع أن يرد إليكم ما سلبتموه .

وجاء التعبير عمن يكون فى قدرته إعادة المسلوب بقوله تعالى «من إلٰه» لبيان أن أحدا من الخلق لا يستطيع بعلمه أو خبـرته أن يرد على من سلب بصره أو سمعـه، أو عقله ما سلب إلا بإرادته تعالى، هى التى علمت من تعلم أو أكسبته خبرته وهى التى أرادت نجح ما فعل لرد ما سلب .

ولو كان أحد مستطيعا ذلك بنفسه لكان إلٰها، وهو ما لا يكون .

وقوله تعالى «انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون» .

هو خطاب لـرسول الله صلى الله عليه وسلم يبين لـه تعالى العجيب من أمـور المشركين، فهو تعالى يكرر لهم ـ فى الآيات القرآنية ـ ما يدل على وحدانيته .

ويدلل لهـم فى آيات الكون المتعددة المتكررة مـا يثبت وحدانيته ومنه وجـود نظام واحد يحكم مسار الكـواكب وما هو على الأرض، وارتبـاط ذلك جميعا بمصالح الخلـق، ثم يكون منهم إنكار وحدانيته تعالى والشرك به.

وهو إعراض عن مظاهر الوحدانية لا يكون إلا من مصرٍّ على الشرك مستحق أن يعذب به .

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾

أولا : الأســـماء :

١ ـ البغتـــة : فى قوله تعالى «عذاب الله بغتة» .

قيل إن المراد بها ـ فى معنى الآية ـ هو «ليلا»، وقيل إنه «خفية».

٢ ـ **الجهــرة** : فى قـوله تعالـى «بغتة أو جهرة» قيل إن المـراد بهاـ فـى معني الآية ـــ هو «نهارا» وقيل إنه «ظاهرا غير خفى» .

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالى ـــ فى الآية ـ خطاب إلى رسول الله ﷺ أن يقول للمشـركين «أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون» .

وهو تبكيت آخر لهم بـإظهاره أنه إذا أصابهم عذاب الله المقدر لهم فى الحيـاة الدنيا فإنه يكون لهم بكفرهم.

والقـول يفيد تطلـب إجـابة المشـركيـن على السـؤال الـوارد فـى نهايـة القـول بما يفيـد اختصاص العذاب المذكور بالظالمين والإقرار بأنهم الظالمون.

وفى هذا يكون النص متضمنا تبكيت الكافـرين المشركين .

فمعنى قـوله تعالى هـو : هل ترون مـا يكون إذا أنزل تعـالى بكم عذابـه فى الحياة الـدنيا الشبيه بعـذاب المشركيـن من الأمـم السابقة، وهـو يأتيكـم فجأة أو يجيئكـم من بعـد ظهور أماراته فيكون جهرة.

وجاء ذكر «بغتـة» قبل «جهرة» فى قوله تعـالى، لأن فى وقوع العذاب فجأة تـرويع للنفس، يكون من شـأن علم المشركين الذيـن يخاطبهم ﷺ به مـا يرعهم عن الاستمرار علـى شركهم خشية أن يحيق بهم مثلما حاق بمشركى الأمم السابقة .

وقوله تعالى «هل يهلك إلا القوم الظالمون» وعبـارته فى صيغة استفهام تقريرى، مفاده أنه ﷺ يقول للمشركين إنهم مختصـون بالعذاب المذكور الذى يأتى بغتـة أو جهرة، وأن يسألهم هل يهلك به غيرهم.

يكون منه ذلك لهم عندما يصيبهم عذابه تعالى فى الدنيا.

فإذا أجابوا بأنه لم يصب غيرهم كان ذلك إقرارا منهم بأنهم الظالمون .

أى أنهم هم الكافرون مستحقوا العذاب .

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

التفســـــــير:

قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ إخبــار عن مضمون رسالـة الرسل الـذين يبعثهم الله تعالـى إلى الأمم.

فيذكر تعـالى أنهم يرسلون بـرسالات يبشرون من يؤمن بمـا أرسلوا به بثوابه تعـالى وبجنته ونعيمه فى الآخرة.

وينذرون من كذب سوء العذاب ودخول ناره فى الآخرة.

والقول يشير إلى أنه تعالى قد أرسل رسوله ﷺ مبشرا ومنذرا .

ثم إنـه تعالى يبيـن حال من يـؤمن للرسـل ويعمل بـالطاعات فيقـول تعالى «فمـن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

والمعنى أن من يؤمن للـرسل وبما أرسلوا به وعمل الصالحات والتـزم أحكام الشريعة فى أعماله، فـإنه لا يكون عليه خـوف من العذاب الذى أنـذربه المكذبون، ولا يكـون منهم حزن على ثواب يفوتهم أو نعمة يحرمونها .

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

التفســـــير:

حديثه تعالى ـ فـى الآيةـ يتعلق ببيان حال الذين كذبوا برسالات رسلـه تعالى فلم يؤمنوا لهم ولا لما أيدهم به سبحانه وتعالى من الآيات.

ويقبل النص أن يكون معناه خاصا بهؤلاء الذين كـذبوا برسالته ﷺ وبآيات القرآن العظيم والمعجزات التى أيد بها سبحانه وتعالى رسوله ﷺ.

فيذكر تعالى أنه ينالهم العذاب.

ولا يفيد النص ماهية هـذا العذاب من حيث كونه عذاب الدنيـا العاجل، أو عذاب الآخرة الآجل ـ وهو محقق الوقوع .

ثم إنه تعالى يبين أن العذاب الذى ينالهم يكون لهم جزاء على كفرهم وفسقهم.

أو أن فسقهم هو سبب إنزاله بهم.

وذلك على ما يبين من «باء السببية» فى «بما كانوا يفسقون».

وفى معنى الفسق فإن المراد به ـ فى معنـى الآية ـ هو الخروج المستمر عن حظيرة الإيمان وعن الطاعة المقرون بالتكذيب بما أرسل به المرسلون .

أو بما أرسل به رسول الله ﷺ .

قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

أولا : الأســــماء :

١ ـ خزائن : جمع ، مفرده «خزينة، وخزانة» وهى ما يحفظ فيه الثمين من الأشياء.

٢ ـ الأعمى : قيل إن المراد به ـ فى معنى الآية هو الضال.

وقيل هو الجاهل .

وقيل هو مدعى الألوهية أو الملكية أو النبوة .

٣ ـ البـصـير: قيل إن المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو المهدى.

وقيل هو العالم .

ثانيا : التفســــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ خطاب منه تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين مقولتين :

أولاهمـا هى: «لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلـم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك، إن أتبع إلا ما يوحى إلى».

والمستفاد من القول هو أن ينفى ﷺ أنه يقول أن له قدرة الله تعالى ، وأنه ينفى أنه يقول إن له بعض خواص الملائكة.

وأن قوله هو أنه رسول نبى يوحى إليه من ربه فيبلغ ما يوحى به إليه.

فقوله عليه الصلاة والسلام «لا أقول لكم عندى خزائن الله، ولا أعلم الغيب» .

يبين منه أن قدرة الله تعالـى غير محدودة حتى لكأن كل خير مودع فى خـزانة حاضر، ينزل على من يشاء تعالى أن ينزل عليه دونما حاجة إلى وقت لتدبير ذلك.

ويبين منه أنه ﷺ لم يزعم أنه له من قدرة الله تعالى هذه شىء.

وهذا تبريـر منه ﷺ لطلب المشركيـن منه أن يقلب الجبل ذهبـا ليؤمنوا له أو أن ينـزل بهم

العذاب، فـذكر ﷺ أن ذلك فى مقـدور الله تعالى وحـده وأنه لم يـزعم أن له من هـذه القدرة شيئا.

فالقول نفى لأن يكون ﷺ قد قال بألوهيته أو قال بأن له قدرة الله تعالى.

وهذا قد تأيد بقوله ﷺ «ولا أعلم الغيب» وتقديره هو «ولا أقول لكم أعلم الغيب» .

لأنه لما كان لا يعلم الغيـب إلا الله فإنه ﷺ يكون قد نفى أنه ادَّعى الألـوهية. ومن الغيب علم الساعة ووقت نزول العذاب.

وقوله تعالى «ولا أقول لكم إنى ملك» .

يقوله رسول الله ﷺ للمشركين أريد به بيان عجزه ﷺ عن أن يأتى بالمعجزات التى تتعلق بصفات الملائكـة مما طلبه المشركون مثـل الرقى إلى السماء وذلـك دون أن يعنى القول أن الملائكة أفضـل من رسل الله، إذ يتعلق الأمـر بصفة اختص بها تعـالى الملائكة تعلقـت بما يكلفون به من الأعمال منه تعالى.

والقول ينفى أنه ﷺ قد ادعـى أن له قدرة الملائكة على بعض الأفعال التـى هى من قبيل المعجزات بالنسبة للبشر.

ثم يأتى إقراره ﷺ بطبيعته البشرية وبيان مضمون رسالته بقوله تعالى .

«إن أتبع إلا ما يوحى إلى» .

يقوله ﷺ للمشركين.

ومعناه أنه ﷺ بشـر يوحى إليه من ربـه شأنه في هـذا شأن جميع الرسل والأنبيـاء فيتبع ما يوحى إليه وينفذ ما أمره به ربه ويبلغ رسالته.

والمعنى المبطن من هـذا هو وجوب عدم اتخاذ عجزه ﷺ عن الإيتاء بمـا هو فى قدرة الله وحده أو بما لا يقدر عليه إلا الملائكة سببا لإنكار نبوته .

والقول الثانـى الذى يقوله ﷺ للمشركيـن - الذى تضمنته الآية - هو ما جاء بقولـه تعالى «هل يستوى الأعمى والبصير، أفلا تتفكرون» .

وعبارة القول وردت فى صيغة استفهام استنكارى يفيـد معنى انعدام المساواة بين الأعمى والبصير - فى الظاهر .

وبين مـن هداه تعالـى إلى الحـق فشاهد الآيـات المتطورة وسمع الآيـات المتلوة فـآمن لرسول الله ﷺ، وبين من ضل فكان كالأعمى لا يرى ما تدل عليه الآيات .

وجاء فيه قولـه ﷺ «أفلا تتفكرون» استفهاما تقريـريا يتضمن توبيخا للمشركيـن لأنه يفيد أنهم هـم الضالون الذين ماثلوا العميان فلم يروا الحق.

أو أنهم لم يتدبروا آياته تعالى فكانوا مثل ما لا عقل له لا يكون منه تفكير .

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾

أولا : الأســـــماء :

الذيـن يخافون أن يحشروا إلـى ربهم : هم أهل الفئـة الثالثة من «معطلة العـرب» الذين سبق ذكرهم، الذين أقروا بوجود خالـق للكون، وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى .

ثانيا : التفســـــير :

الآية خطاب من الله تعالـى إلى رسوله ﷺ ، يأمره تعالى أن يعظ بـالقرآن ويخوف به وبالله تعالى هذه الفئة من المشركين التى يؤمن أفرادها بوجوده تعالى ويخشون عذابه، والذين ضل

سعيهـم إلى هـذا بلجـوئهـم إلى الأصنـام أو معبـودات أخرى لتقـربهـم إلـى الله وبكفرهـم بالأنبيـاء .

ومعنى القول أن أفراد الطائفتين الأخريين من معطلـة العرب لا يؤمل فى إيمانهم ولا يحزن عليهم.

فيعتبر قوله تعالى ـ فى الآية ـ متضمنا معنى انصرافه ﷺ عنهم فى الدعوى، وقصرها على الذين يخافون يوم الحشر الذى يؤمنون بوقوعه.

وقوله تعالى «ليـس لهم من دونه ولى ولا شفيع» قيل فى تفسيره إنـه يعنى أنهم يخافون أن يحشروا إلى ربهم غير منصورين من جهة أنصارهم من المعبودات.

وقد يكون الصحيـح ـ والله أعلم ـ غيـر ذلك، فقد كانـوا يعبدون الأصنام لتقربهـم إلى الله زلفى، كما كانوا يعتقدون فى شفاعة أسلافهم لهم فى يوم الحشر.

والذى نراه هو أن يكون مضمـون ما ينذرهم به رسول الله ﷺ هو أنهم فـى يوم الحشر الذى يؤمنون بوقوعه لن يجدوا من دونه تعالى وليا ولا نصيرا.

فيكون القول متضمنا بيان انعـدام استفادتهم من معبوديهم الذين لـن يكون منهم ولى ولا نصير يشفع لهم.

فيكون التخلى من جانبهم عن عبادة الأصنام.

وهذه واحدة مما خالفوا فيه المؤمنين .

ثم يكون منهـم الإيمان لرسول الله ﷺ ـ وهـو الشفيع للمسلمين يوم الحسـاب ـ فيتخلون عن عدم الإيمان بالأنبياء .

وهذه هى الأخرى مما خالفوا فيه المسلمين .

ولذلك جاء قـوله تعالى ـ بعد ذلـك ـ «لعلهم يتقون» بمعنى لعلهم ينتهـون عن عقيدتهم فيؤمنوا لك فيتقوا بهذا عذاب الله .

فبين تعالى أن إيمان هؤلاء بوجود حساب فـى الآخرة يخشونه يجعلهم الأقرب إلى معرفة الطريق المستقيم الموصل إلى اتقاء ما يخشونه فى يوم الحساب.

ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يتوجه إليهم بالقرآن منذرا عالما أنهم الأقرب إلى الإيمان .

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾

أولا : الأســـماء :

١ ـ الغـــداة : أصله غدوة، ومعناه البكرة، وهو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس.

والمراد به ـ فى معنى الآية ـ الصباح .

٢ ـ العشى : هو آخر النهار .

٣ ـ الحســاب: فى قوله تعالى «ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء».

المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو الجزاء، وكفاية الرزق .

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالى «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه».

جاء مرتبطا بما أمر به الله تعالى رسوله ﷺ ـ فـى الآية السابقة ـ من أن يدعو من المشركين إلى الإيمان هؤلاء الذين يؤمنون بيوم الحساب.

وجاء قوله تعالى ـ فى الآية ـ ناهيـا الرسول ﷺ عن أن يؤدى حرصه على أن يستجيب هذا

الفريق من معطلة العرب لدعوته إلى طرده المؤمنين من حضرته ليجلس إليه هؤلاء حرصا منه على إيمانهم.

ثم إنه تعالى وصف السابقين من المؤمنين الذين نهى رسوله ﷺ عن طردهم بأنهم يدعون ربهم ـ أى يذكرونه ـ فى الغداة وفى العشى، وهما أوقات العمل.

فكان فى ذلك إشارة إلى أنهم ممن يذكرون الله كثيرا وفى كل آن .

ولأن من لا ينشغل عن ذكره تعالى فى أوقات العمل حقيق عليه ألا ينشغل عن الذكر فى غير ذلك من الأوقات .

وقد قيل فى سبب نزول الآية أن نفرا من كبار القوم فى قريش حضروا إلى رسول الله ﷺ وكان جالسا إلى بعض ضعاف المؤمنين منهم صهيب. وعمار، وبلال، وخباب ممن صح إيمانهم ويذكرون الله فى كل آن .

وأنه ساء كبار قريش أن يجلسوا إلى رسول الله ﷺ مع هؤلاء، فطلبوا منه أن يقيمهم من مجلسه ليجلسوا إليه يحادثونه ويحادثهم. ولما كان ﷺ راجيا إيمانهم آملا أن يحدث فإنه استحضر عليا كرم الله وجهه ليكتب لهم أنه يجالسهم وحدهم، لا يجلسون مع ضعاف القوم أو العبيد. فنزلت الآية.

ومعنى قوله تعالى «ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم» .

قيل فيه إنه يعنى ﷺ لا يسأل عن جزاء المؤمنين على أفعالهم كما أنهم لا يسألون عن شىء من عمله ﷺ.

وقيل ـ هو ما نميل إليه ـ أن الضمير المتصل فى «حسابهم» يعود على المشركين الذين رغب ﷺ أن يؤمنوا .

فيكون معنى القول أنه ليس عليك مسئولية عدم إيمانهم حتى يبلغ منك الحرص على

إيمانهم أنك تطرد المؤمنين من مجلسك، كما أنهم لن يكسبوك شيئا بإيمانهم إن آمنوا.

وفيكون القول ـ بهذا المعنى ـ تعليلا لنهيه ﷺ عن طرد المؤمنين عن مجلسه .

فيكون الضمير المتصل فى «فتطردهم» عائدا على الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى.

وقوله تعالى «فتكون من الظالمين» .

مفاده أنه ﷺ إذا لم يطردهم فإنه لا يعد ظالما، لكنه لا يعنى أنه إذا طردهم يكون ظالما، وذلك لكونه مترتبا على المنفى وهو الطرد فينتفى بانتفائه .

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾

التفسـيـر:

مفاد قوله تعالى «وكذلك فتنا بعضهم ببعض» أنه على هذا النحو ـ باعتبار أن الكاف فى «وكذلك» زائدة ـ اختبرنا بعض الطائفتين ببعض.

والمراد بما تم به الاختبار هو كون السابقين من المؤمنين من الفقراء والعبيد وكون القادمين عليهم ليستمعوا إلى رسول الله ﷺ من الكبراء والسادة .

فكان من القادمين أنهم حسدوا المؤمنين على حظوتهم عند رسول الله ﷺ ومجالستهم إياه .

ثم إنه تعالى بين ما كان من القادمين عندما شاهدوا رسول الله ﷺ يجالس الفقراء والعبيد، وهو قولهم «أهؤلاء من الله عليهم من بيننا».

ومعنى قولهم أنهم يحتقرون هؤلاء المؤمنين، وأنهم ينكرون المن عليهم ويعترضون عليه على ما يبين من قولهم الذى ورد به قوله تعالى «لو كان خيرا ما سبقونا إليه» .

ثم إنه تعالى يؤكد أنه مَنَّ على هؤلاء الفقـراء الضعفاء من المؤمنين بما هو خير لهم عنده تعالى، ويبيـن سبب ذلك بقولـه تعالى «أليس الله بـأعلم بالشاكـرين»، فمفاد القول أنـه من عليهم بما فيه خيرهـم فى الدنيا و الآخرة، وأنه من عليهم لأنهم الذيـن يؤدون حق النعمة من الشكر.

ثم إنه تعالى لما كـان عالما بمن يؤدى حق النعمة من الشكر فإنـه أنعم عليهم بإصابتهم الفوز استحقوا به أن يكونوا مقدمين عند رسوله ﷺ .

فالاستفهـام فى الآية تقـريرى يفيـد هذه المعانـى، ويظهر انعدام حجـة حسد المشـركين إياهم.

وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾

التفســـــــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ خطاب إلى رسوله ﷺ .

وهو أمر جاء فى جملـة شرطية أداة الشرط فيها «إذا» وفعله يتمثل فى مجـىء الذين يؤمنون بآيات الله إلى رسول الله ﷺ .

وجواب الشرط هو قوله ﷺ لهم: سلام عليكم .

ويبين من القـول أنه تعالى وصـف ضعفاء المؤمنين مـن العبيد والفقراء والذيـن ورد أمره تعالى بشأنهم بأنهم الذين يؤمنون بآياته تعالى .

وذلك مـن بعد أن وصفهم تعـالى بعمل الطـاعات بـذكره تعالـى أنهم يذكـرون الله غدوا وعشيا ومضمون أمـره لرسوله ﷺ هـو أن يقول لهم «سلام عليكـم» بمعنى أنه تكون السـلامة لهم، أو أنه دعاء لهم أن يسلموا من المكاره.

ومفاد القول أنه يكـون من رسول الله ﷺ أن يبدأ بالتحية بتحيـة الإسلام، ليكون للمسلمين قدوة فى هذا.

وقد يكون الصحيح أن مفـاد القول أن يكون من رسول الله ﷺ أن يطمئنهم إلـى أنه تعالى قدر لهم السلامة.

والمعنى أنـه لا تزيغ قلوبهـم من بعد الإيمـان فيأمنوا أن ينـالهم مكروه فى أخـراهم، وأن يأمنـوا شر عتاة الكافرين الذين كانوا يستضعفونهم فى السابق، فيسلموا من أذاهم فى الحياة الدنيا .

وقوله ﷺ لضعاف المؤمنين هؤلاء ـ بأمر ربه ـ كتب ربكم على نفسه الرحمة .

بمعنى أنه تعالى وعد بها وما دام قد وعد بها فقد قدرها فكانت حقا مقضيا .

ثم جاء بيان هذه الرحمـة أو ذكر مظهرها بقوله تعالى «أنه من عمـل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم» .

فبين تعالى أن الرحمة تعلقت بالأفعال المعتبرة من قبيل السيئات التى ترتكب من بعد أن آمن هؤلاء بالإسلام وليس بما قارفوا من السيئات قبل إيمانهم مما محاه إيمانهم.

وبين أيضا أنه يغفر من هذه السيئات ما يرتكب بجهالة.

والذى يبين مـن ظاهر النص أنه يشترط فـى السوء من العمل الذى يغفر أن يكـون قد وقع بجهالة، سواء تمثلت هذه الجهالة فى عدم معرفة حكم الشرع فى المسألة، أم فى عدم اتجاه القصد إلـى تحقيق النتيجة المـؤثمة أو عدم معرفـة أن وسيلة معينة مـن شأنها أن تـؤدى إلى نتيجة مؤثمة .

والمبطن من النص أنه جاء ذكر السوء الذى يرتكب بجهالة لإظهار استبعاد وقوعه قصدا من هؤلاء الذين عناهم النص القرآنى، فهم على ما سبق قوله فيهم يحسنون العمل ويذكرون الله غدوا وعشيا، وهم الذين آمنوا بآيات الله .

ويدعم هذا أن المعلوم أنه تعالى يغفر بالتوبة الصحيحة الذنب، فلا يتصور أن يكون ذلك منه تعالى مع العصاة ولا يكون مع من حسن إيمانهم إذا أخطأوا ثم تابوا .

أما ما يعتبر شرطا قائما لغفر ذنوب هؤلاء وغيرهم من التائبين، فهو ما جاء بقوله تعالى «ثم تاب من بعده وأصلح» وهو وقوع التوبة التى توافرت شروطها وقبولها منه تعالى، وإصلاحه ما وقع من ضرر للغير نتيجة الذنب الذى قارف أو السوء الذى ارتكب. ذكر تعالى أن رحمته تعالى تكون بغفرانه ما وقع من سوء بحكم رحمته التى كتب على نفسه.

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ جاء من بعد ذكر أحوال المؤمنين، وأحوال المشركين وطوائفهم، وبيان أى هذه الطوائف أقرب للإيمان وبيان الفاسقين منهم والمستكبرين الحاسدين.

جاء قوله تعالى مفيدا أنه على هذا النحو الذى تم إظهار أحوال المؤمنين عليه وإظهار أحوال غيرهم تجىء آيات القرآن العظيم مفصلة كل أمر، ليكون ظهور المجرمين الذين أذنبوا بكفرهم وبإصرارهم عليه.

وصفوا بالمجرمين لبيان أن هذا هو حالهم أو لبيان استمرارهم على ما هم عليه من الكفر والفجور.

وقيل إن المراد بالقول هو «ولتستبين يا محمد سبيل المجرمين» فتقرأ «سبيل» بالفتح. وهذا المعنى داخل فى مضمون المعنى المستفاد من قراءة «سبيل» بالرفع .

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾

التفســــير:

الآية الشريفة أمر إلى رسول الله ﷺ أن يتوجه إلى المشركين بالقول الذى تضمنته عبارتها.

فهى عود إلى مجموع الأوامر السابقة منه تعالى إلـى رسوله فى شأن ما يقول لهم وما يفعل معهم واستئناف له .

ومضمون ما يقوله رسول الله ﷺ للمشركين هو ـ فى جزء منه ـ: «إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله».

فيكون القول متعلقا بمعبوداتهم .

يذكر ﷺ أنـه مأمور من ربه ألا يعبد مـا يعبدون وما يلجأون إليه فى المهمـات من الأصنام بدلا من عبادة الله تعالى واللجوء إليه، أو توسلا بها إليه .

وهو ـ فى جزء آخر منه ـ «لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين» .

بمعنى أنه ﷺ لا يـؤمن بعقيدتهم الفاسدة وأنـه يعتبرها وليدة أهواء، وأن مـن يتبعها يكون ضالا غير مهتد، وهذا صحيح .

فالعقيدة هى عقيـدة هؤلاء الذين يؤمنون بـوجود الله من معطلة العرب، كانـت فيهم دعوة إسماعيل عليه السلام بحنيفية إبراهيم أبيه عليه الصلاة والسلام التى دعا إليها جرهم الثانية، إلى أن كان جلب الأصنام الثلاثة من الشام ـ على ما سبق بيانه ـ وعبادتها .

ثم اختلط الأمـر أكثر بامتزاج العقيدة الـوافدة بعقيدة تمجيد الأجداد وتقـديسهم مما أدى إلى تعدد المعبودات بتعدد القبائل ـ وهو من هوى النفس ـ كذلك فإن قوله ﷺ يشمل تقريره

بأنه لن يتبع كل ما هو من قبيل هوى النفس لدى هؤلاء المشركين .

ومنه طلبهم منه ﷺ أن يطرد ضعفاء المؤمنين من عنده .

قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾

أولا : الأســــماء :

١ ـ البينـــة : هى الدلالة الواضحة، من الفعل «بان ـ يبين» .

والمراد بها ـ فى معنى الآية ـ اليقين المبنى على الدليل .

٢ ـ **ما تستعجلون به**: المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو العذاب الذى كان المشركون يستعجلون إنزاله بهم مستهزئين .

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالى ــ فى الآية ــ أمر جديد منه تعالى إلى رسول الله ﷺ من مجموعة الأوامر المتعلقة بما يقوله ﷺ للمشركين، وهو قول يتضمن عدة أقوال.

منها قوله «إنى على بينة من ربى» وهو تقرير لواقع وبيان لعلة عدم اتباعه عقيدتهم الباطلة، فالواقع الذى يثبته القول هو أنه عرف طريق الحق.

والذى عرفه هذا هو الله، وأنه عرفه له بدليل لا يقبل الشك، وهو القرآن العظيم.

والعلة التى يبينها هى علة عدم اتباعه ﷺ عقيدة المشركين وهى كونه على حق من ربه.

والمعنى المستفاد هو أنهم على الباطل من الشيطان ، ولا يلتقى الضدان: الحق والباطل.

ومن الأقوال أيضا التى يتضمنها القول «وكذبتم به» بمعنـى أنهم كذبوا بالدليل الذى فرق بين الحق والباطل ـ وهو القرآن العظيم .

وقيل إن المكذب به من جانبهم هو الله سبحانه وتعالى .

وقد يكون ذلك بعيدا، وذلك لأنه سبق أن أمر تعالـى رسوله ﷺ أن يتوجه بدعوته إلى الفئة من معطلة العرب التى يؤمن أفرادها بوجود الله .

ثم إنهم هـم الذين طلبوا من رسـول الله ﷺ أن يجلسهم إليه ويطرد ضعفاء المـؤمنين من مجلسه.

كذلك فإنهم هم الذين ضلوا عن الحنيفية التـى دعا بها إسماعيل عليه السلام فى جرهم وما جاورها فاتخذوا الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى.

فهم لا يكذبون بالله و إنما ضلوا إليه تعالى السبيل .

ومن الأقوال أيضا التى يتضمنها القول «ما عندى ما تستعجلون به».

بمعنى أنه ﷺ ليـس لديه القدرة علـى إنزال عذاب الدنيا ــ الذى كانوا يستعجلـون نزوله عليهم ـبهم .

والقول بهذا المعنى ـ من نتائج ما قال ﷺ آنفا أنه ليس عنده خزائن الله .

بمعنى أنه لا يدعى قدرته على ما لا يقدر عليه إلا الله .

ومن الأقوال أيضا قوله ﷺ «إن الحكم إلا لله، يقص الحق، وهو خير الفاصلين».

وهو ـ مـن بعد إثبات عجزه ﷺ أن يـأتى بشىء مما هو فـى قدرة الله وحده ـ إقـرار بأن من يقضى فى طلبهم إنزال العـذاب بهم هو الله وحده، وذلك لكونه صاحـب القضاء فى كل أمر بحكمته التى لا يدرك فحواها أحد من الخلق.

ثم إنه يصف الله تعـالى فيما يكون منه من أحكـام بأن أحكامه تكون قاصـة متبعة الحق،

وأنه تعالى هو خير الفاصلين فى الأمور ـ القاضين فى المطالب.

والقـول ـ بهـذا المعنـى ـ يفيـد معنـى أنه لمـا كان الحـق عنـده تعالـى غيـر الحق عنـد المشركين، وكان قضاؤه بحكم حكمته الغائبة عنهم، فإنهم لن يفهموا ما يكون منه تعالى فى شأن إنزال العذاب الذى استعجلوا إنزاله بهم، إن أنـزله تعالى بهم وعجله لهم، أو أرجأه إلى أجل فى الدنيا ، أو جعله لهم فى الآخرة .

قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

التفســـــير:

قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ أمـر جديد إلى رسـول الله ﷺ بقول آخر يقـوله للمشركين الـذين استعجلوا إنزال العذاب بهم .

ومضمون قولـه ﷺ لهم هو «لو أن عندى مـا تستعجلون به لقضى الأمـر بينى و بينكم، والله أعلم بالظالمين» .

ومعنى القـول يتضمن تأكيد المعنـى الذى سبق أن ذكره ﷺ للمشـركين من أنه ليـس فى قدرته شىء مما هو فى قدرته تعالى وحده .

ومنه إنزال العذاب بالمشركين معجلا فى الحياة الدنيا .

ويتضمن معنى آخر هو أنه لو كان ذلك فى قدرته لكان قد أنزل بهم هذا العذاب وأهلكهم به جزاء لهم على عصيانهم ربهم غضبا لله تعالى ولدينه.

والمعنى المضمـر فى العبارة هـو أنه ليس لـه ﷺ حكمة الله تعالـى و إن كان قولـه وفعله الحكمة .

وقوله ﷺ «والله أعلم بالظالمين» .

فيه وصف للمشركين بالظلم وهو الكفر الذى يستحقون به العذاب .

وفيه إثبات لعلمه تعالى بأحوالهم وبالعذاب الذى يستحقون أن يوقع بهم، ونوعه وأوان إنزاله بهم .

وإقرار منه ﷺ بأنه يفوض أمر هذا إليه تعالى العالم بأحوال المشركين ما لا يعلم ﷺ.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

أولا : الأســــــماء :

١ ـ المفاتح : فى قوله تعالى «وعنده مفاتح الغيب» جمع، مفرده مفتح، بمعنى مفتاح ـ وهو آله الفتح.

٢ ـ البَــــرُّ: قيل إن المراد به هو الصحراء .

وقيل القفار.

والصحيح أنه الجزء من الأرض الذى لاتغطيه مياه، وهو ما يطلق عليه «اليابسة» .

٣ ـ الورقة : فى قوله تعالى «وما تسقط من ورقة» .

المراد بها ـ فى معنى الآية ـ ورقة من أوراق الشجر.

٤ ـ ظلمات الأرض: المراد بها ــ فى معنى الآية ــ باطن الأرض دعى «ظلمات» لأن ما يكون به يكون خبيئا غير مرئى للعين شأن ما لايمكن رؤيته لكونه فى ظلام دامس.

٥ ـ **الرطـب** : هو ما لان بسبب وجوب عنصر الماء فيه بدرجة تجعله لينا .

٦ ـ **اليابس** : هو ما يبس بسبب قلة نسبة الماء فيه، أو انعدامها .

٧ ـ **الكتاب** : فى قوله تعالـى «إلا فى كتاب مبين» قيل إن المراد به ـ فـى معنى الآية ـ هو علم الله تعالى.

وقيل إنه اللوح المحفوظ .

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ جاء مرتبطـا بما سبق أن ذكره رسول الله ﷺ من عدم قدرته على ما يدخل فـى قدرة الله تعالى وحـده ومنه إيقاع العذاب بالمشـركين، إذ يتعلق النص بـالمعرفة، ليكون قوله ﷺ شاملا حدود القدرة وحدود العلم .

فقوله تعالى «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو» تعلق بجميع الغيبيات .

ومنها إنزاله تعالى العذاب بالمشركين أو عدم إنزاله، ووقت إنزاله إذا شاء ذلك.

شبه النص القرآنى كـل ما هو غيب بالأشياء التى يتم حفظها داخـل خزائن فلا يعلم عنها شىء .

ثم ذكر أن مفاتيح هذه الخزائن عنده تعالى وحده.

فالقـول فيه استعارة ومعنـاه أن أحدا مـن الخلق لا يعلم شيئـا عما استأثـر تعالـى بعلمه، يدخل فيه تعذيب العصاة المشركين، فهو وحده الـذى يعلم ما إذا كان ينزله بهم فى الدنيا أم فى الآخرة، وعلـى أى نحو يكون ، وزمان إنزالـه بهم فى الدنيـا إن كان تعالى قد قـدر أن ينزله بالمشركين فى الحياة الدنيا .

ثم إنه من بعد ذكر علمه تعالى بالخفى من الأمور والأشياء .

جاء ذكر علمه بالمشهود فقال تعالى «و يعلم ما فى البر والبحر» .

فشمل القول بيان علمه بجميع ما فى الأرض وما فى الماء من أحياء وغير أحياء .

ويبين مـن توالى الكشف عمـا فى داخل الأرض وفى أعمـاق البحار من وجود أنـواع من الحياة لم تكن معروفة من قبل ومن تخاطب الكائنات البحرية على ما اكتشف من وجود لغة تتبادلهـا الحيتان، واكتشـاف المعادن فى أعمـاق الأرض والبحر، أن الكثيـر من المعلـومات لايزال خبيئـا وأنه إلـى أن تنتهى الحيـاة لن يتـم الكشف عـن جميع مـا هو مخفـى فى البـر والبحـر.

والنص يثبت أن علم ذلك جميعه عنده تعالى .

وفى تفصيل توافر علمه تعالى بما دق فى البر والبحر جاء التمثيل ذلك بعدة أشياء تضمنها قوله تعالـى «وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمـات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين».

والمعنى أن أمر الدقيق مـن الأشياء ومنه ورقة الشجرة مثلا يكون أمر سقـوطها ووقته وسببه ومآلها بعد السقوط معلوما لديه تعالى .

ومنه الحبة من الحبوب فى أى أرض تكون مخفاة فى باطن الأرض، يعلم تعالى أمرها، وما أدخلها فـى باطـن الأرض وعلى أى حال تصيـر، هل يصيبها العطـن أم تأكلهـا الحشرات أم تنبت نبتا جديدا .

ومنه أنه ما مـن شىء رطب أو يابس فى الكـون إلا علم تعالى به وهل يكـون غذاء لنوع من المخلوقات أم لا وهل ينتفع به أم يستخدم فى الضر والهلكة .

فالنص علـى هذا النحو يثبت أن لديه تعـالى العلم بما لا يستطيع الخلق العلـم به جميعا من المحسوسات المشاهـدة مهما آتاهم سبحانه وتعالى من العلم، دل علـى علمه تعالى به قولـه تعالى «إلا فى كتـاب مبين» سواء اعتبـر أن المراد من الكتـاب هو علمه تعالـى أم اللوح المحفوظ الذى سطر فيه من علمه تعالى ما سطر من جميع أحوال الخلق .

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

التفســــــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى ذكر بعض مظـاهر قدرته تعالى وفعله مع البشر دون باقى خلقه، والمراد به أو ببعضه ترهيب المشركين.

فيذكر تعالى أنه الذى ينيم الناس فى الليل .

جاء التعبيـر ـ فـى النص ـ عـن النوم بـالتوفـى لأن النوم يشبه المـوت فى انعـدام الحس بالموجودات الظاهرة وانعدام التمييز.

ومن النص يبيـن أن أفضل الأوقات للنوم هو الليل وأن نـوم النهار لا يعدله ـ وهـذا ما أثبته العلم.

ثم إن النص يثبت أنه تعالى يعلم ما يكسـب الخلق من الآثام فى النهار، ويبين من تعبيره تعالى عما يكسب الخلق بأفعالهم بقوله تعالى «ما جرحتم» .

وفيه تشبيه لأفعالهم بأفعال جوارح الطير والحيـوان ـ وهى وليدة الغريزة، بعضها يستهدف به تحقيق مصلحة وبعضها يكون اعتداء بغير مصلحة من إشباع جوع .

يبين مـن ذلك أن المعنيين بـالقول هم المشركـون الذين يـرتكبون الآثام بـدون عقل واع يحكم تصرفاتهم .

ثم يـذكر تعالـى أنه مـن بعد أن يتوفـى الناس بالنـوم ليلا يبعثهـم فى النهار بمعنـى أنهم يستيقظون، ويظلون علـى هذا المنوال إلى أن تقضى آجـالهم بالموت الذى هـو محدد عنده تعالى فى أى وقت يكون وفى أى مكان وبأى وسيلة .

وذلك على ما يبين من قوله تعالى «ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى».

وأخيرا يـذكر تعالـى أن جميع الخلق يـرجعون إليه تعـالى ـ وليس لغيره ـ فى يوم الـدين ليعلموا حقيقة ما عملوا فى الحياة الدنيا، يكون بما يلقون من العذاب أو من النعيم.

فيكون القول متضمنا تحذيرا للمشركين ووعيدا .

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾

أولا : الأســــماء :

١ ـ **الحفظــة** : فى قوله تعـالى «ويرسل عليكم حفظة»، المراد بهم ـ فى معنى الآية ـ الملائكـة الكرام الكـاتبون على مـا يبين مـن قولـه تعالى «وإن عليكـم لحافظيـن * كرامـا كاتبين».

وقيل «المعقبات» الوارد فيهـن قوله تعالى «له معقبـات من بين يديه ومن خلفـه يحفظونه من أمر الله» .

وقيل إنهما النوعان معا .

٢ ـ **الرســـل** : فى قـوله تعالى «تـوفته رسلنا»، المـراد بهم ـ فـى معنى الآية ـ المـلائكة الآخرون المكلفون بقبض الأرواح .

وقيل هم أعوان ملك الموت يقبضون الأرواح ثم يدفعونها إلى ملك الموت .

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ لايزال فى ذكر أفعاله تعالى مع البشر وما تعلق بها من صفاته.

فيقول تعالى «وهو القاهر فوق عباده» .

فيثبت أنه تعالى الغالب على أمره يقضى فـى العباد بما يقضى فلا يدفع قضاءه دافع لأنه تعالى الغالب الذى لايدفع .

وجاء لفظ «فوق» لبيـان فوقية المكانة والرتبـة له تعالى فلا يستطيع الأدنـى أن يدفع قضاء الأعلى.

وقوله تعالى «ويرسل عليكم حفظة» .

وهو إعلام بواقع لا يعلم بالحس وإنما بإخباره تعالى به.

وهو أنـه تعالى يجعـل على العباد مـلائكة حـافظين يحفظون أعمـالهم من الخيـر والشر ويثبتونها لهم أو عليهم، كما أنهم يحفظونهم من الشرور التى شاء تعالى أن يحفظهم منها .

ثم يجىء قوله تعالى «حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون» .

دالا على أنه عندمـا تأتى أمارات الموت وينتهى التكليف ينتهى دور مـلائكة الحفظ، فلا يثبتون شيئـا من أعمـال العباد ولا يحفظـونهم مـــن ملائكـة الموت، فيقبـض ملك المـوت الموكل بقبض روح العبد روحـه دون توان ولا تأخر غير متجاوز ما شرع لـه من الحدود فى أداء ذلك، فلا يزيد ولا ينقص .

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾

التفســـــــير:

القول فيمـا يكون منـه تعالى مـن بعد مـوت العباد، يـلاحظ فيه أن الحـديث تعلـق بمن قبضت أرواحهم وبيان ما يكون منهم وليس ببيان ما يكون منه تعالى معهم ـ فى مبتدأ الأمر.

كما يلاحـظ فيه أنه تكلم عـن جميع المقبوضة أرواحهم بعـد أن تكلم تعالى ــ فى الآية السابقة عن مجىء الموت الواحد من الخلق .

وذلك لأن الغالب أن يأتى الموت الناشى أفـرادا على حين أنهم يجمعون إليه جميعا يوم الدين.

ويذكر النص أن النـاس يردون إليه تعالى يوم الديـن، جاء وصفه تعالى ـ فى النـص ـ بأنه المولى لبيان أنه وحده الذى يلى أمور الخلق وليس غيره.

ووصف بأنـه الحق ، لبيان أن غيره ممـا كان يؤله الناس فـى دنياهم أو يتخذون أربـابا هم باطل، ولبيان أنه تعالى هو العدل .

ثم جاء قوله تعالى «ألا له الحكم وهو أسـرع الحاسبين» مظهرا أنه وحده الذى يقضى فى الناس يوم الـدين، ودالا على أن مصير الناس يوم الـدين يكون رهنا بقضائه تعالـى، فلا يكون الطائع العامـل الصالحات مستوجبـا ثوابه تعالـى، ولا يكون العاصى مستحقـا العذاب على الضرورة، بل يكون الأمر رهنا بقضاء الله فى شأن كل منهما .

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾

أولا : الأســـــماء :

١ ـ **الظلمـات** : فى قولـه تعالى «من ظلمات البـر والبحر» المراد بها ـ فـى معنى الآية ـ الشدائد .

وقيل إن المراد بظلمات البحر هو ظلمة الليل وظلمة السحاب، وظلمة الغرق.

وإن المراد بظلمة البر الخسف فيه .

٢ ـ **التضـــرع** : فى قوله تعالى «تضرعا وخفية» المراد به العلن .

٣ ـ **الخفية** : فى قوله تعالى «تضرعا وخفية» ، المراد بها الإسرار.

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ يأمر أن يقول رسوله ﷺ للمشركين «مـن ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية» لئن أنجانا من هذه لنكون من الشاكرين» .

ويتضمن القول استفهاما أريد به الإفادة عن واقع والتعجيب من أمر المشركين .

فقوله «مـن ينجيكم من ظلمات البـر والبحر» يتضمن تقريرا بـأنه ليس سواه تعـالى الذى ينجى الخلق من الشدائد التى يلقونها سواء أكان ذلك فى الأرض أم فى البحر.

ثم إنـه يتضمن تعجيبا من أمـر المشركين الـذين يعلمون هـذا ثم يعبدون سواه تعـالى أو يتخذون إليه وسطاء معبودين .

وقوله تعالـى «تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجـانا من هذه لنكونن من الشاكـرين» هو إعلام بما يكـون من المشركين حيـن يعانون الشـدائد فى البر أو فـى البحر، فهم ينسون معبـوداتهم ويدعونه تعالى فى العلن وفى أنفسهم لينجيهم مما هم فيه من الشدائد .

ثم يذكر قوله تعـالى مضمون دعائهم إياه أو ما يعاهدون عليه الله حـالفين على القيام به ـ على ما يبين مـن «لنكونن» ـ فهم يقولون معـاهدين أنه إذا أنجاهم الله تعالـى من الشدة التى يعانون أهوالها فإنهم يؤدون حق نعمته تعالـى عليهم بالنجاة بشكره والدوام عليه ليدخلوا فى زمرة المؤمنين الشاكرين .

قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

التفســـير:

قولـه تعالـى ـ فـى الآية ـ أمر إلى رسـوله ﷺ أن يجيـب على السـؤال الذى وجهـه إلى المشركين بقوله «الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون» .

وجاء تـولى رسول الله ﷺ الإجابـة ـ على تطلبها منهـم ـ لبيان ظهـور الإجابة والمعرفـة بها دونما حاجـة إلى أن يجيب المشركـون، وليكون فى ذلك إهـانة لهم ببيان أنهـم لا يستطيعون النطق بالحقيقة لأنها تفضحهم .

ومعنى القول أنـه تعالى هو الـذى ينجى من الشدائد وأنـه الذى ينجى المشركيـن الذين دعوه وتعهدوا لـه أن يشكروه وأن يداوموا على الشكـر من الشدة التى دعوه تعـالى أن ينجيهم منها.

كما أنه تعالى الذى ينجيهم من كل غم يأخذ بنفوسهم بإزالة سببه.

ثم إنه تعالى يثبت عليهم أنهم من بعد نجاتهم من الشدائد والكروب لا يكتفون بعدم أداء حق النعمة من الشكر، بل يزيدون على ذلك إشراكهم به تعالى ما كانوا يعبدون مما أيقنوا أنه لا ينفع ولم ينجهم مما عانوا .

وقيل إن المراد بـالشرك فى هذا المـوضع هو عدم الشكـر قولا بأن الشكر مـن العبادة، وأن عدم العبادة من قبيل الشرك.

وظاهر النـص وتسلسل المعنى يفيد أن المـراد بالشرك ـ فـى معنى الآية ـ هـو العودة إلى عبادة معبوداتهم من دون الله تعالى، وأنه الشرك بمعناه المفهوم .

قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

أولا : الأســـــماء :

١ ـ العذاب من فوق : فى قوله تعالى «عذابا من فوقكم» هو العذاب أو الهلاك الذى يأتى

من جهة العلو مثل الصيحة ، والحجارة، والريح، والطوفان .

وقيل إن المراد به العذاب الذى يأتى من قبل ولاة الأمور والحكام .

٢ ـ العـذاب من تحـت الأرجل: فى قـوله تعـالى «أو من تحـت أرجلكم» هـو العذاب أو الهلاك الذى يأتى من جهة السفل مثل الرجفة، والزلازل، والخسف، والإغراق .

وقيل إن المراد به ما يأتى من جهة السفلة والعبيد .

٣ ـ الشيع : جمع، مفـرده «شيعة»، وهـم القوم المجتمعـون على أمـر واحـــد، أو عقيدة واحـدة .

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالـى ـ فى الآية ـ أمر إلى رسـوله ﷺ أن يقوله للمشركين «هـو القادر على أن يبعث عليكم عـذابا مـن فوقكـم أو من تحت أرجلكـم أو يلبسكم شـــيعا ويـذيق بعضكـم بـأس بعض» .

ثم خطاب إليه ﷺ يتضمن أمرا بالنظر فى فعل من أفعاله تعالى ليتبين وجه الحكمة فيه .

أما القول الذى أمر رسول الله ﷺ أن يقوله للمشركيـن فيتعلق بقدرته تعالى على تعذيبهم، وقد ورد من بعـد ذكره تعالى أنـه الذى ينجيهم من الشـدائد والكروب وأنهم لا يؤدون إليـه ما وجب عليهم من الشكر وأنهم به يشكرون .

فكأن النـص قد ورد ليثبت استحقـاقهم لأن يعذبـوا، وليبقى أمـر التعذيب وأوانـه وكيفيته معقودين بأمره تعالى .

والقول يثبت أنه تعالى وحده هو القادر على أن يـرسل على المشركين العذاب يأتيهم من فوقهـم بالصيحة أو الحجـارة أو الريح أو الطوفـان أو الصواعق أو غيـرها مما يخلـق ويصنعه الإنسان مثل الصواريخ والقنابل تلقى بها الطائرات أو يأتيهم من أسفل مثل الرجفة والخسف والزلازل والإغراق، وما يخلق مما يصنع الإنسان مثل الألغام والغواصات .

كما يثبـت القول أنه تعـالى قادر على أن يجعـل من صور العـذاب تقسيمهم شيعا وفـرقا متنافرة يتباغضون ويكيد بعضهم لبعض ويتقاتلون فيعانى البعض منهم من شدة الآخرين .

وقد سبق بيان مدى تباغض طوائف أهـل الكتاب بعضهم وبعض، وتباغض طوائف أهل الملة الواحدة منهم بينهم بعضهم والبعض .

ثم يجىء قوله تعالى «انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون» .

توجيهـا منه تعالى لتـدبر تحويلـه تعالى الخطـاب فى آيات القرآن العظيـم وفيما يأمـر به رسوله ﷺ لدى مخاطبته المشركين من نحو إلى آخر ليسهل عليهم معرفة وجه الحق.

والقول بهـذا المعنى يشير إلـى أنهم لا يتـدبرون قولا وأنهـم يصرون على مـا هم عليـه من الشرك.

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦

التفســــير:

مفاد قوله تعالى ـ فى مبتدأ الآية ـ هو واقع ما يخبر به القول وهو أن قوم رسول الله ﷺ، وهم قريش أو العرب قد كذب مشركوهم بالقرآن العظيم .

ثم وصف تعالى القرآن العظيم بأنه الحـق، فهو الحق النازل من الله الحق على رسوله ﷺ بما هو حق وصدق .

ومفاد قـوله تعالـى ـ بعد ذلـك أن يعلم رسولـه ﷺ وأن يخبر المشركيـن بأنه غيـر مفوض أعمالهم يسأل عنها أو يجازى بها، بمعنى أنهم المحاسبون بأعمالهم وبأنه تعالى ليس سوى نذير لهم .



لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

أولا : الأســـماء :

١ ـ النبـــــأ : هو الخبر.

والمراد به ـ فى معنى الآية ـ جميع الأخبار التى أعلم بها القرآن العظيم، وأخصها ما ورد فى شأن عذاب المشركين .

٢ ـ المســـتقر : المراد بـه ـ فى معنى الآية ـ الـوقوع المحقـق ـ بمعنى حـدوث الأمر المخبر عنه ـ يكون بتحقق وقوعـه على نحو ما أخبر بـه استقرار الحال من بعـد قلقلة وانتظار وتوقع.

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ إخبار عن حتمية وقوع كـل ما وعد به تعالى المؤمنين ومـا توعد به المشركين فى القرآن العظيم ـ وذلك أخذا بإطلاق النص .

والمستفاد من السرد وارتباطه بما سبق ذكـره من عذاب المشركين أن وجه التخصيص فيه ظاهر.

فيكون المراد بالنص هو حتمية حصول العذاب الذى توعد به الله تعالى المشركين .

ثم إنـه تعالـى يؤكـد هذا المعنى بقـوله «وسـوف تعلمون» ، فيكـون المعنى هـو أن هؤلاء المشركين الذين توعدهم الله بالعذاب سيلقون هـذا العذاب فيعلمون بذلك أن ما توعدهم به ربهم هو الحق.

والنص لا يذكر متى يحل بهم هذا العذاب .

فيتصور أن يكون فى الدنيا .

ويتصور أن يكون فى الآخرة .

أو أن يكون فى الدنيا والآخرة .

وإن كان الظاهر أنه يكون بعد أجل طويل كما يستظهر من التعبير عن الحدوث فى المستقبل بـ «سوف»، سواء أكان هذا المستقبل البعيد فى الدنيا أم فى الآخرة أو فى الدنيا والآخرة .

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨﴾

أولا : الأســماء :

الذين يخوضون فى آياتنا : قيل إن المراد بهم - فى معنى الآية - المشركون من العرب أو من قريش.

وقيل إنهم أهل الكتاب اعتادوا أن يكذبوا بالقرآن العظيم فى مجالسهم وأن يستهزئوا به.

ثانيا : التفسـير:

الخطاب فى الآية - على الظاهر - إلى رسول الله ﷺ .

والبين من عبارة النص ومعناها أنه قد يكون موجها له ﷺ بصفته رأس الأمة الإسلامية وقد يكون له ﷺ وللمؤمنين .

وقوله تعالى «وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره» هو أمر بعدم مجالسة الذين لا يؤمنون بالقرآن العظيم حال دوران النقاش بينهم

حول القرآن العظيم أو بعض آياته ، وتفاوضهم فى شـأنه بما ينتقص من قدره سواء بالاستهزاء به أم بتكذيبه ومحاولة إظهار نواحى نقص فيه.

وهذا على المستفاد من «في» فى قوله تعالى «يخوضون فى آياتنا» من تعلقه بالطعن فيها.

ومضمون الأمر أنه إذا ما شهـد المرء مجلسا لغير المـؤمنين بالقـرآن العظيم يتبادلـون فيه الحديـث طعنا فى القـرآن العظيم ، فإنـه يكون عليه اجتنـابهم والنأى عنهـم، فإذا كانـت به حاجة إلى مجالستهم فليكن ذلك منه بعد أن ينتهوا من الحديث فى القرآن .

وهنـا لا تكـون المجـالسة إلا بعـد الانتهـاء مـن تـداولهـم القرآن العظيـم فـى مجلسهـم بالحديث.

ولم يجعـل النص المجـالسة الممتنعة وقتـذاك أى من بعد الانصـراف عن المجـالسة ـ مشروطة بكون الحديث فى القرآن متعلقا بالانتقاص منه أو الاستهزاء به.

وإنما جعلها مادام الحديث فى القرآن لايزال مستمرا فى المجلس.

والمعنى أن من انصرف عـن مجلس غير المؤمنين لتداولهم فيه القـرآن العظيم بالانتقاص أو الاستهزاء لا يعود لمجالستهم إلا إذا تبين له انتهاؤهـم من الحديث فى القرآن على أى نحو وانتقالهم إلى تبادل الحديث فى موضوع آخر.

وبعد ذلـك يجىء قوله تعـالى «وإما ينسينـك الشيطان فلا تقعـد بعد الذكرى مـع القوم الظالمين» لبيان ما يكون عليه فعل من نسى أمره تعالى فجالس الذين يخوضون فى آيات الله ـ على الابتداء ـ ولم يعرض عنهم، أو من كان يجالسهم واستمر على مجالستهم بعد أن تحول حديثهم إلى القرآن العظيم فخاضوا فيه واستمر على مجالستهم ناسيا.

ومفاد النص أنـه يجب على من فعل هذا أن يقـوم من المجلس فلا يقعد مـع الخائضين بمجرد أن يتذكر ما كان ناسيا.

وقد وصفهم تعالى بأنهم الظالمون .

والمراد بـالظلم هنا هو الظلـم الخاص المرتبـط باستهزائهـم بالقرآن العظيم والطعـن فيه يزيدهم ظلما فوق ظلمهم بكفرهم .

وقد اختلف فيما إذا كان ﷺ من المخاطبين بقوله تعالى «وإما ينسينك الشيطان».

فقيل بأنـه ﷺ ينسى مثل سائر البشـر مستدلين على ذلـك بقوله ﷺ «إنما أنـا بشر مثلكم أنسى كما تنسون» .

وقال البعض إنه ﷺ ينسى فيذكره الله تعالى.

وقال آخرون إنه ﷺ يفعل ذلك عمدا ليسن الأحكام .

والذى نراه ـ والله أعلم ـ أنه إذا كان متصورا فى شأنه ﷺ أن ينسى لسبب عضوى فإنه غير متصور أن يقع النسيان منه ﷺ بفعل الشيطان أو بإشغال الشيطان إياه .

يـدعم هـذا قـوله تعـــالى «إن عبـادى ليـس لـك عليهم سـلطان إلا مـن اتبعك مـن الغـاوين» .

وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

التفســـــير:

قولـه تعالى فـى الآية تعلـق بسبب النزول، وتضمـن حكما يسرى فـى كل آن ــ وإن قال البعض بنسخه ـ فسبب نزول الآية هو أنه لما نزلت الآية السابقة متضمنة النهى عن القعود مع الخائضين فى القرآن العظيم من غير المؤمنين به.

قال المؤمنون إنهم لن يستطيعوا الجلوس فى المسجد الحرام وفيه كان المشركون يقعدون يخوضون فى القرآن العظيم فنزلت الآية .

وحكم نص الآيـة الذى يسرى فى كل زمان ومكـان مضمونه أنه إذا لم يكـن من حضور مجالس غير المؤمنيـن الخائضين فى القرآن العظيم بد، كأن يكون المرء فى جهة عمل يضم مكانه فيه مجموعـة من غير المؤمنين يحدث بينهم تداول الحديث فـى القرآن العظيم خوضا فيه.

ففى مثل هذه الحال يكـون النص مفيدا عدم مسئولية المؤمنين عمـا ينال الخائضين من الإثم الـذى يعذبون بـه ماداموا قـد اتقوا مشـاركتهم فى الحـديث أو الإنصات إليـه إنصات مستمع قابل ما يسمع .

ثم يبين النص ما يجب على المؤمن فعله حالئذ بقوله تعالى «ولكن ذكرى» .

والمعنى أنه يكـون من بعد السلوك السلبـى من المؤمن سلـوك إيجابى هو تـذكيره هؤلاء الخائضيـن بقبح ما يفعلـون وأن يبـدوا لهم اسـتنكارهم لـه ليقلعوا عنه أو عن الاسـترسـال فيه.

ثم يبين تعالى علة تطلبه من المؤمنين فعل هذا بقوله تعالى «لعلهم يتقون» .

بمعنى أنه قد يتجنب الخائضون فى القرآن العظيـم حياء أو حرصا على ألا يسيئوا لناهيهم عن ذلك.

فيكون الضمير المتصل فى «لعلهم» عائدا إلى الخائضين .

ويكون المـــراد بتقـواهم هو اتقـاؤهم إغضاب المـؤمنين، بعدم خـوضهم فى القـــرآن العظيم.

وقيل إن الضمير يعود إلى المؤمنين، يكون اتقاؤهم هو اتقاء الإثم بترك ما وجب عليهم من نهى الخائضين عن فعلهم .

والقول الأول أظهر صحة .

■■■■■

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

أولا : الأسماء :

١ ـ الدين : فى قوله تعالى «اتخذوا دينهم» قيل هو الإسلام، فيكون الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا هم هؤلاء الذين أسلموا ولم يؤدوا الطاعات وما كلفوا وانفضوا عن ذلك.

وقيل إنه كل دين، فيكون هؤلاء هم الذين اتخذوا اللهو واللعب دينا لهم وإن انتموا إلى ملة من الملل .

وقيل إنه العيد، فيكون هؤلاء هم الذين جعلوا الأعياد مناسبات للهو واللعب بدلا من الذكر والعبادة.

٢ ـ الذين أبسلوا: المراد بهم ـ فى معنى الآية ـ الذين حرموا الثواب واستحقوا العذاب، وذلك أخذا بأحد معانى «الإبسال» وهو «المتعة» ومنه قولهم «باسل» بمعنى شجاع ممتنع على قرنه.

٣ ـ العدل : فى قوله تعالى «وإن تعدل كل عدل»، المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو الفدية .

ثانيا : التفسير :

قوله تعالى ـ فى الآية ـ خطاب إلى رسوله ﷺ يأمره تعالى بألا يشغل عقله بهؤلاء الذين

استخفوا بالديـن الذى هم عليه فانشغلوا عنه بـاللهو واللعب حتى صار لهوهـم ولعبهم كأنه الدين عندهم .

يتساوى في هذا المسلمون الذين قلدوا الكافرين فحرموا البحيرة والسائبة وجعلوا الأعياد مناسبة للهو واللعب، وغيرهم من أهل الأديـان الذين اتخذوا المسلمين سخريا واعتبروا ذلك من الدين الذى يعتنقون .

ثم إنه تعالىٰ يصف هؤلاء بأنهم غرتهم الحياة الدنيا .

بمعنى أنهـا خدعتهم بـزينتها فنســوا أن يعملوا لآخرتهـم، واستغرقتهم الـدنيا فعملـوا لها ونعموا بنعيمها حتى نسوا البعث والحساب.

وبعد ذلك يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يذكر بالقرآن، يحذر به أن يكون مصير النفوس العاصية هو تسليمها للهلكة بحرمانها ثوابه تعالى وتلقيها عذابه، يكون ذلك بما جنت على نفسها من الانصراف عن الطاعـات إلى الانغماس فى الملاهى، لا تجـد من دونه تعالى من يلـى أمرها فيحميها العذاب ولا من يشفع لها عنده تعالى فتنفعها شفاعته .

ثم إنـه تعـــالى من بعـد ذكـره تحقق امتنـاع المثـوبة عـن العاصين الـلاهين الـلاعبين بالـدين .

يذكر تعالى أنه لو كان للنفس من هذه الأنفس أن تفتدى نفسها من العذاب الذى قدره الله تعالى لها بفدية فإنه لا يقبل منها فداء بالغا ما بلغت قيمته.

والقول بهذا المعنى يفيد حتمية تعذيب هؤلاء المذكورين فى النص.

وتختتم الآية بقـوله تعالى «أولئك الذيـن أبسلوا بما كسبوا لهم شراب مـن حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون».

والقول يشير إلى هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا.

ويصفهم تعـالى بأنهم الـذين أبسلوا بمـا كسبوا بمعنى أنهـم الذين حرمـوا ثوابه تعـالى

واستحقـوا عقابـه جـزاء لهـم على سـوء أعمـالهم وزيـغ عقـائدهم وبسبـب مـا قـرفوه مـن المعـاصى.

ثم يبين تعالى بعض صور عذابهم .

فذكر تعالى أنه يكون لهم شراب من حميم أى من الماء الحار تتقطع به أمعاؤهم، وعذاب أليم، جـاء نكرة وموصوفـا بالألم لتحـار فى ماهيتـه وقدره العقول مع تحقـق العلم بأنـه أليم للترهيب والتخويف .

ثم بين تعالى أن ذلك جميعا كان بسبب كفرهم فى الحياة الدنيا.

فبين تعالـى أن ما يلقون من عـذاب هو جزاء على الكفـر وأنهم معذبون علـى المعاصى، فهم معاقبون بعقاب فوق عقاب .

﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

أولا : الأســــماء :

حيــران : هو الذى لا يهتدى لجهة يريدها، وهو المتردد .

ثانيا : التفســير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ خطاب إلى رسول الله ﷺ بصفته رأس الأمة الإسلامية.

فيكون الخطاب للمؤمنين ، أو له ﷺ يتكلم عنهم .

وهو أمـر أن يقول للمشركيـن أو أن يقول المؤمنـون للمشركيـن الذين دعـوهم إلى مفـارقة دينهم والعودة إلى حظيرة الكفر ليعبدوا ما كان يعبد آباؤهم ما تضمنته الآية .

فقولهم بأمر ربهـم «أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقـابنا بعد إذ هدانا الله» .

هو رفض لدعوة المشـركين إياهم أن يعودوا إلى عبادة ما كان يعبد آبـاؤهم وأن يرتدوا عن الإسلام .

جاء التعبير عنه فى صيغة استفهام استنكارى، تضمن وصـف ما يعبد المشركون بأنه ما لا ينفع ولا يضر .

بمعنى أن عبادتـه والتقرب إليه والتوجـه إليه بالدعاء لا يفيـد فى شىء لعجزه عـن الإجابة وعن النفع، وأن الانصراف عنه لا يضر فى شىء.

كذلـك تضمن القول مـا يفيد معرفـة المؤمنيـن بالفرق بيـن الإسلام وبين عبـادة الأصنام وتيقنهم من أن الإسلام هو الهدى وأن غيره هو الضلال .

وذلك على ما يستفاد من قولهم «ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله» .

فهم يعلمون ويذكرون للمشركين أنهم بإسلامهم يكونون على هدى من ربهم .

ويعتبرون أن العودة إلى دين الآباء ردة وتحول على ما يبين من قولهم «ونرد على أعقابنا».

ثم إنهم يظهرون كراهتهم أن يكون هذا هو حالهم .

فيكون القول رفضا لدعوة المشركين مدعما بأبداء الأسباب .

ثم يجىء قـول المؤمنين ـ بأمـر ربهم ـ للكافريـن «كالذى استهوته الشيـاطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعـونه إلى الهدى ائتنا» دليلا ثانيا على انعقاد نفـوسهم على البقاء على الإسلام .

فهم يشبهون الـذى يستجيب لدعوة المشـركين بمن استهوتـه الشياطين فأوقعتـه فيما فيه هلاك نفسه .

أو كالذى استجاب لها فهوت به إلى الدنايا .

فعل ذلـك حين كـان له رفقـة مؤمنـون يدعونـه أن يكون منهـم وبينهم عـن طريـق الحق المستقيم .

ومفـــاد القـــول أنهـم يكرهـون أن يستجيبوا لهـم فيكونـوا مثل هـــذا الـذى استهوتـه الشياطين .

ثم يجىء قوله تعالى «قل إن هدى الله هو الهدى» أمرًا إلى رسوله ﷺ أن يقوله للمشركين، وللمؤمنين أن يقولوه .

ومفـاده الإصرار علـى البقـاء على الإسـلام بما يقطـع علـى المشركيـن الأمـل فى دعـوة المؤمنين إلى العودة إلى الشرك .

فمفاد القول إن الله قـد هدى المؤمنين إلى الإسـلام، وإن ما يهدى إليه تعالـى هو الهدى وأن غيره هو الضلال .

ويجىء بعد ذلك قولهم للمشركين «وأمرنا لنسلم لرب العالمين» .

مفيدا طاعتهم لله ورفضهم لكل مطلب من غيره يكون فيه إخلال بهذه الطاعة .

ويتأكد تيقنهم بأنهـم على هدى من ربهم بنسبتهم الأمر الذى يطيعـونه إلى رب العالمين مالكهم ومربيهـم ومتولى أمورهم، مما مفـاده أنهم يطيعون مالك الأمر فـلا يتخيل أن يطيعوا رسل الشيطان.

وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾

التفســـير:

قوله تعـالى ـ فى الآيـة ـ هو أمر فى ذاتـه للمؤمنين أن يقيموا الصـلاة وأن يتقوا عذاب الله بتجنب عصيانه .

ومن النـص يبين أن الإيمان بـالله بالإسلام يستـوجب القيام بحقـه، وعماد الديـن الصلاة جاءت معبرة عن التكاليف الإيجابية .

ثم جـاء بعدها ذكـر تقواه تعالـى وهو مـا يكون بتجنب ارتكـاب المعاصى، وهـو السلوك السلبى ومنه الصبر على نوازع النفس ورغائبها .

ثم أتبع ذلك تعالى بقوله ـ فى عبارة تقريرية ـ «وهو الذى إليه تحشرون»

بمعنى أنه تعالى الذى يحشر إليه الخلق للحساب .

فيكون القول متضمنا حثا على الطاعة فى الأوامر والنواهى .

ومتضمنا تحذيرا من العصيان بالترهيب مما يترتب عليه فى الآخرة من العذاب .

والقول مرتبطا بمـا قبله يفيد ما يدعو بـه المؤمنون صاحبهم ليكون منهـم ومعهم، فهم من بعد دعوتهم إياه للإيمان ذكروا له أن الإيمـــان لا يكمل إلا بأداء الطاعات الإيجابى منهـــا ـ ودعامته الصلاة ـ والسلبى منهاودعامته تجنب المعاصى بالتزام نواهيه تعالى.

فكان منهم القول «وأن أقيموا الصلاة واتقوه، وهو الذى إليه تحشرون» .

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

أولا : الأســـــماء :

الصـــــور : هو قرن مـن نور ينفخ فيه إسرافيـل عليه السلام نفخة لإفنـاء الخلق، وأخرى للإنشاء.

ثانيا : التفســـير:

قوله تعـالى فى ذكر بعض آيـات قدرته تعالي مـن بعد بيان أنه لا يكمل إيمـان إلا باتقائه تعالى أو باتقاء غضبه.

فذكر نص الآية أنه الذى خلق السماوات والأرض ومن فيهن وما فيهن بالحق.

بمعنى أنه تعالى خلقهن بكلمة الحق ـ وهو: «كن» .

وقوله تعالى «ويوم يقول كن فيكون، قوله الحق» .

مفاده هـو «واتقوا يوم يقـول تعالى للصور كـن فيكون» بمعنى «واتقـوا يوم القيامـة» وصفه تعالى بأنه الحق .

ثم إنه تعالى يبين أنه فى هذا اليوم الذى ينفخ فيه فى الصور يكون له الملك.

والمعلوم أنه تعالى له الملك فى كل آن ومن الأبد .

إلا أن ذكر ملكيته يوم ينفخ فى الصور جاءت لإثبات عدم قدرة أحد على فعل شيء لنفسه أو لغيره فى ذلك اليوم لأن مقادير الأمور كلها تكون له تعالى .

فيكون القـول مرتبطا بما سبـق ذكره من دعـوة المشركين المـؤمنين إلى عبادة معبـوداتهم بإظهار أنها لا تضر ولا تنفع حين لا مالك ولا ملك إلاه تعالى .

ثم إنه لما كـان يوم القيامة من الغيب، وكـان ما دفع المؤمنين إلى رفـض دعوة المشركين هو عـالم المشهودات، فإنـه تعالى أعلـم المؤمنين أن مـا أعلمهم به من أمـر يوم القيامـة هو الحق.

فأثبت تعالى أنه العالم بالغيب وحده والعالم بالمشهود والمحسوس والمرئى .

وتختتم الآية بقوله تعالى «وهو الحكيم الخبير».

بمعنى أنه تعالى الـذى تصدر أفعاله عن حكمته، والخبير بما خفـى وما أعلن ليكون قيام المؤمنين بأداء التكاليف الإيجابية وامتناعهم عما نهوا عنه وليد إيمان بأنهم بالطاعة يكسبون خيرا.

وليعلم العصاة أنهم معذبون بأفعالهم وما انطوت عليه نفوسهم .

۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾

أولا : الأســـــماء والأعلام :

١ ـ إبراهيـــــم : سبق بيانه .

٢ ـ آزر : هو تارح بن نـاحوربن ساروغ بن رعو بن فـالغ بن عابربن شالـح بن أرفشخد بن سام ابن نوح.

عاش فى الأهواز قبل ألف وثمانمائة عام من ميلاد المسيح عليه السلام .

وكان يعمل فى تشكيل الأصنام المعبودة .

واسمه فى القرآن آزر..

ثانيا : التفســـير:

بعد أن بين تعالى فساد عقيدة الذين يعبدون من دون الله أصناما والذين يدعون المسلمين ليرتدوا عن دينهم إلى عبادة الأصنام .

ذكر تعالى رد المؤمنين عليهم، فإنه تعالى ـ فى الآية ـ ذكر ما كان من إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع أبيه عابد الأصنام صانعها .

فذكـر تعالـى قول إبراهيــم لأبيه «أتتخـذ أصنـاما آلهـة، إنـى أراك وقومـك فـى ضلال مبين».

والقول تضمن فى مبتدئه استفهام ما يفيد الإنكار «أتتخذ أصناما آلهة» .

فإبراهيم عليه الصلاة والسلام يعلم أن أباه يتخذ أصناما آلهة، لكنه استنكر هذا

ودل على إنكاره هذا وصفه المعبودات بأنها محض أصنام.

ثم جاء باقى قوله فى عبارة تقريرية «إنى أراك وقومك فى ضلال مبين»

فهو عليه الصلاة والسلام يثبت علمه بحقيقة ما عليه أبوه وقومه على ما يبين من قوله «إنى أراك وقومك» .

ثم إنه يثبت أن مضمون علمه هو أن ما عليه أبوه وقومه هو الضلال الواضح الظاهر .

والقول بهذا المعنى يثبت علـى عابدى الأصنام الذين يدعون انتسابهـم إلى إبراهيم عليه الصلاة والسـلام أنهم على عقيـدة أنكرها إبـراهيم عليه الصـلاة والسلام ووصفها بـالضلال المبين.

وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥

التفســــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ إيمان إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكيف أنه تعالى أراه ملكوت السماوات والأرض .

وقد قيل فى ذلك أنه تعالى أظهره على مـا فى السماوات وعلى ما هو بداخل الأرض فرأى آيات ربه فيهما والعجائب وازداد بذلك يقينا بمالكيته تعالى كل شيء.

وقد يكون المقبـول أنه تعالى أعلـم إبراهيم عليه الصـلاة والسلام بطريق النظـر والاعتبار وبطريق الإلهـام إلى الحق مالكيته السماوات والأرض، وأنـه تعالى أطلعه على مـا فيهما من أسرار تدل على أنه الواحد الخالق.

وأنه تعالى فعل ذلك معه عليه الصلاة والسلام ليزداد يقينا بما آمن به من أنه لا إله إلا إياه، وأن غيره من المعبودات هى باطل.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ۝٧٦﴾

أولا : الأســــــماء :

الكوكب : فى قولـه تعالى «رأى كوكبـا» هو جرم سماوى بـارد يكون ضمن مجموعـة من الكواكب تدور حول شمس لها .

وكل نجم فى السماء هو شمس له كواكب تدور حوله، وشمسنا لها كواكب منها الأرض.

ثانيا : التفســــير:

قولـه تعالـى ـ فـى الآية ــ يتعلق بمـا كان مـن إبراهيـم عليه الصـلاة والسلام مـع عبدة الكواكب فى عصره.

بيان ذلك أن المشركين فى زمنه ﷺ كانوا طائفتين

إحداهما تعرف بأصحاب الهياكل أى الكواكب .

والأخرى تعرف بأصحاب الأشخاص .

كان أصحاب الهياكل يعبدون الكواكب .

وكان أصحاب الأشخاص يعبدون الأصنام .

وعندما أراد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يثبت لأصحاب الهياكل فساد عقيدتهم فإنه قال عندما رأى كوكبا فى السماء بعد أفول الشمس أنه قال «هذا ربى».

فلما أفل الكواكب قال «لا أحب الآفلين».

وفهو بهذا أثبت لعبدة الكواكب أنه لما كان معبودهم يغيب بالأفول، فيكون قد ثبت انتفاء الألوهية عنه.

لأن الله لا يأفل ولا يغيب .

فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى بيان ما كان من إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع عبدة الكواكب، من بعد أفول الكوكب، ذلك أنه من بعد أفول الكوكب ظهر القمر فى السماء فقال إبراهيم مثل قولهم «هذا ربى».

فلما أفل القمر قال «لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين».

ويبين من قوله ﷺ أنه إنما قال ذلك ليثبت لعبدة الكواكب فساد عقيدتهم، وأنه تعالى كان مؤمنا بالله تعالى يقول ما يقول ليدحض عقيدة عابدى الكواكب.

وذلك بدلالة قوله «لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين»، فقوله يفيد أنه إنما يؤمن بالله وحده، وأنه موقن فى نفسه أن عبادة الكواكب باطل و إفك، وأن عابدى الكواكب

على ضلال مبين .

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾

أولا : الأســــماء :

البــــازغ : فى قوله تعـالى «رأى الشمس بازغة» هو المبتـدىء فى الظهور، اسم فاعل من «بزغ ـ يبزغ» .

والمراد به ـ فى معنى الآية ـ الطالع أو الظاهر ولو لم يكن فى مبتدأ الظهور.

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ يشير إلى فعل آخر من أفعال إبراهيم عليه الصلاة والسلام وقول له فى إقامته الحجة على عبدة الكواكب والأجرام السماوية .

ذلك أنه عليه الصلاة والسلام شاهد كما شاهـد قومه الشمس بازغة فى السماء فأسمعهم قوله إنها ربه .

وذكر علة اعتبـارها الرب بقولـه «هذا أكبر» بمعنى هـذا الضوء أكبر أو هذا الجـرم أكبر، بما يفيد أن الرب لا بد أن يكون هو الأكبر والأعظم .

ثم كان منه عند غياب الشمس أن خاطب قومه قائلا. «يا قوم إنى برىء مما تشركون».

والمعنى هو أن هناك إلها واحدا هو الأحق أن يعبد .

وأن فى عبادة الكواكب أو الهياكل أو الأجرام السماوية شرك بالله الخالق والأكبر.

ثم إنه عليه الصلاة والسلام يبرأ من هذا الشرك ويبرىء نفسه منه.

والذى تدل عليه الآيات هو أنه عليه الصلاة والسلام لم يدخل الشرك قلبه لحظة، ولم ينطق به لسانه موافقا ما فى قلبه.

ولكنه أراد فى مبتدأ أمره أن يبين براءته من الشرك الذى كان يتمثل فى عبادة الهياكل أو الكواكب والأجرام السماوية لدى فئة من قومه، ويتمثل فى عبادة الأصنام لدى فئة أخرى عرفت باسم أصحاب الأشخاص .

فقال لأبيه وهو من عمد عبدة الأصنام بحكم كونه صانعها وأعلنه أنه وقومه من عابدى الأصنام فى ضلال لاتخاذهم الأصنام آلهة .

ثم تروى الآيات ما كان منه مع عبدة الكواكب أصحاب الهياكل .

ويبين من سياق المعنى وتسلسل الأحداث أنه عليه الصلاة والسلام أراد أن يثبت لهم بالدليل العقلى فساد عقيدتهم، وأنه كان مؤمنا على يقين من ربه الذى دعم إيمانه وقواه بما أراه من ملكوت السماوات والأرض .

فكان منه معهم أن بدأ بإظهار عدم صلاحية الصغير من الكواكب ليكون إلها لينتهى إلى إظهار عدم صلاحية الكبير منها ليكون ربا معبودا .

ذلك أنه لما جن الليل ظهر كوكب «الزهرة» فى السماء فقال لعابدي الكواكب بلسانه «هذا ربى» كأنه منهم ـ مستهدفا أمرا آخر هو إثبات عدم جدارة الكوكب لأن يكون ربا .

ثم إنه لما ظهر نور النهار ـ واختفى الكوكب عن النظر قال «لا أحب الآفلين».

فأعلن أنه لا يحب من يغيب عمن يفترض أنهم المشمولون برعايته ، دون أن يراه جديرا أن يسمى ربا.

ثم إنه كان منه ﷺ أن قال لقومه بلسانه حين كان القمر ظاهرا فى السماء ـ وليس فى لحظة ظهوره ـ «هذا ربى»، قال هذا عالما أن القمر سيغيب بعد ذلك عن الأنظار.

فلما غاب القمر قال لقومه «لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين» .

فأعلمهم أنه يؤمن برب آخر هو الـذى يهدى، وأعلمهم أن الذين يعبدون القمر والكواكب ضالون، لا أمل فى أن يهدوا إلا إذا هداهم الله، وهذا قول مؤمن لا قول مشرك.

ثم إنه انتظر طلوع الشمس، لأنها أكبر ما يشاهد بالعين من الأجرام السمـاوية، وإن كان من النجوم مـا يزيد حجمه على حجمها كثيـرا، ويزيد قطر الشمس على مليـون وثلث مليون كيلو متر بما يعنى أنه أكبر من قطر الأرض مائة مرة .

فلما طلعت الشمس قال لقومه بلسانه «هذا ربى، هذا أكبر» مستهدفا بذلك أن يثبت لهم أن أكبر المشاهد من الأجرام السماوية لا يصح القول به ربا معبودا، كما أثبت لهم ـ من قبل ـ أن الأصغر ـ ثم المتوسط منها لا يصلح ربا معبودا، وانتظر غروبها حتى إذا غربت كان قد أقام عليهم الحجة فـى فساد عقيدتهم بعـد إظهار أنها شرك بـالله المستحق وحده أن يقال بـه ربا معبودا فقال لهم «يا قوم إن برىء مما تشركون».

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

التفســـــــير:

بعد أن ذكـر إبراهيم عليـه الصلاة والسلام لأصحاب الأشخـاص عبدة الأصنام أنهـم فى ضلال مبين .

وبعد أن أثبـت لأصحاب الهياكـل عبدة الكواكـب والأجرام السمـاوية بطلان عقـديتهم وأعلنهم بأنهم مشركون متبرئا منهم ومما يعبدون، فإنه أعلن قومه بمسلكه فى العبادة وبملته، فقال لهم ما ورد فى عبارة الآية .

فهو عليه الصلاة والسلام أعلنهم بأنه إنما يتوجـه بالعبادة لله تعالى، وصفه بأنه الذى فطر

السماوات والأرض، بمعنى أنه تعالى أنشأهن من العدم.

والقول يفيد أنـه الذى خلق السموات وما فيهـن من الكواكب والنجوم والتـوابع والأجرام المتخذة معبودات من قبل بعض قومه.

ويفيد أنـه الذى خلق الأرض وما فيهـا من جمادات تعبد أو يصنـع منها ما يعبد مـن دونه تعالـى. فيكون فى وصفه تعـالى بأنـه الذى فطر السمـاوات والأرض إشارة إلى منافـاة عبادة الكواكب وعبادة الأصنام لمنطق العقل السليم .

ولذلك وصـف عليه الصلاة والسلام حالـه فى توجهه إلـى الله تعالى وحده بالعبـادة بأنه الميل عن العبادات الباطلة والميل إلى الحق «حنيفا» .

ثم أتبع ذلك بتبرئة نفسه من الشرك بقوله «وما أنا من المشركين» .

فأظهـر أن عبادة غير الله الله فاطـر السماوات والأرض هى شـرك بالله، وأثبت أنه ليـس من المشركين .

ومن القول يبين أنه لم يكن قبلا من المشركين .

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾

التفســـــــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ رواية لما وقع بيـن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وبين مشركى قومه الذين أقام عليهم الحجة بتدليله على عدم جدارة ما يعبدون من الكواكب والأجرام السماوية

لأن تعبد لكونها مما يأفل وهى صفة منتفية عن الرب المستحق أن يعبد .

فيذكر تعالى أنهم جادلوه وخاصموه فى الرأى «وحاجه قومه» ..

والقول يثبت مدى إصرارهم على الكفر وحجبهم عقولهم عن التفكر والتدبر .

ثم يذكـر تعالى أنه عليـه الصلاة والسلام أنكر عليهم أن يكـون منهم ـ بعد مـا أظهر لهم ـ جداله فى الله، من يكون .

وجاء تعبيره عليه الصلاة والسلام عن إنكاره هذا فى صيغة استفهام للإنكار والتعجب .

«قال أتحـاجوني فى الله» وبعـد ذلك يثبت لهـم أن المستحق العبادة هو الله، وأنـه وحده الذى يهدى .

ثم إنه تعالى قد هداه الحق إلى معرفته وإلى عبادته «وقد هدان» .

والمعنى يفيد أنه تعالى قد هداه من مبتدأ أمره فلم يعبد آلهتهم .

ويفيد أنه لم يعبـد غيره ولم يقل بإله غيـره حين قال للكوكب ثم للقمـر ثم للشمس «هذا ربى» بـل كان يقولـه كقول أحدهـم ليتخذ من ذلك أسـاسا للانتقـال من الكفر إلـى الإيمان بطريق الاستدلال العقلى المبنى على المشاهدة، كما هو مفترض فى الإنسان الذى فضله الله تعالى على سائر الحيوان بنعمة العقل .

وبعد ذلك يقول ﷺ «أبو الأنبياء» لهم «ولا أخاف ما تشركون به» .

وهو قول بعقيدة يؤمن بها ترتيبا على انعدام صفـة الربوبية عن الكواكب المعبودة فحواها أنه لا يخشى منها أن تصيبه بضرر.

وفى وصفه إياها بأنهـا «ما يشركون به» دليل على أنه تعالى هـو الرب وحده النافع الضار، وأن معبوداتهم باطل يشرك به .

ثم قال قـول المؤمن الذى لا يـأمن مكر الله، والذى يقربـأنه لا يدرى من حكمـة ربه إلا ما

شاء الله له أن يـدرك منها «إلا أن يشاء ربى شيئا»،ويبيـن من الاستثناء بـ «إلا» أن الأصـل لديه هو أنه لا يخشى من آلهتهم المعبودة ضررا، لكنه يخشـى أن يصيبه تعالى بضرر يوافق زعمهم أنها ستصيبه بضرر نتيجة إنكاره إياها، وتكون إصابته بالضرر لحكمة لا يعلمها أرادها سبحانه وتعالى «إلا أن يشاء ربى شيئا» .

ويبين من إسناده المشيئة لله تعالى، وأن الإصابة بالضـرر لو حدثت تكون منه تعالى وليس من جهة آلهتهـم، أنه على عقيدته مـن الإيمان بالله تعالى وحـده إلها وربا ولو أصابـه بالضر، مؤمنا أن إرادته تعالى مرتبطة بحكمته التى لايدرك منتهاها .

ثم إنه عليه الصلاة والسلام يؤكد لهم معنى أن الإصابة بالضرر منه تعالى قد تكون لحكمة لايعلمها إلاه تعالى بقوله لهم «وسع ربى كل شىء علما».

فهو تعالى وحده الذى يعلم كل شىء، فقد يكون من وراء الضر خير .

وبعد ذلك فـإنه عليه الصلاة والسـلام يوبخهم على ما هـم عليه من عقيدة بـاطلة، مثبتا أنهم لا يعملون العقل بقوله لهم «أفلا تتذكرون» .

وهو سؤال إنكارى يفيد أنهم لم يفهموا شيئا مما أقام عليهم من الحجج، وما قال لهم من عدم قدرة آلهتهم على الإضرار به .

ويستفاد منـه أن الإيمان الصحيـح مستقر فى الطبيعـة البشريـة، وليس علـى المرء إلا أن يتذكر.

وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾

التفســـــــير:

قوله تعالـى ـ فى الآية ـ من قول إبـراهيم عليه الصلاة والسلام للمشركين مـن قومه عبدة الأجرام السماوية.

فقوله عليه الصلاة والسلام لهم «وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا» هو استفهام إنكارى تعجبى يفيد عدة معان:

فمن السؤال بــ «كيف» بما يعنى السؤال عن كيفيـة حدوث الخوف له من معبـوداتهم ما يفيد انعدام سبب الخوف لديه بالكلية مـن معبوداتهم الباطلة، لأن فى انعدام الكيفية انعدام المستفهم عن المستفهم عن كيف يكون .

فيكون المعنـى أنه عليـه الصلاة والسلام هـو المستحق أن يكون آمنـا لانعدام مـا يخشى منـه.

ويبين منه ـ على التقابل ـ أن المشركين هم الأحق أن يخشوا الله لإشراكهم به.

كذلك فإن القـول يثبت أنهم بإشراكهم بالله تعـالى قد عدموا الحجة من قبلـه تعالى التى يستندون إليها فيما يعتقدون .

ويثبت ـ بطريق الاستـدلال العقلى ـ أنه ـ فى شأن أمور العقيـدة ـ لايصح الاستناد إلا إلى الحجج المنزلة من الله تعالى .

وقوله عليـه الصلاة والسلام لهم «فأى الفريقيـن أحق بالأمن، إن كنتم تعلمـون»، وهو فى صيغة استفهام إنكارى تعجبى أيضا يفيد عدة معان :

فهو عليه الصـلاة والسلام من بعد ذكره ما يفيـد أنه الأولى بالأمان وأنهم الأجـدر بالخوف سألهم متعجبا ومنكرا عليهـم أن يشعروا بالأمن «فأى الفريقين أحق بـالأمن» جعل من نفسه فريقا ــ مع كونه واحدا ــ دالا على أنه بربه قادر علـى أن يقف منهم موقف الفـريق الخصم، ومثبتا أنه الجدير بالأمن .

ثم إنه يثبت أنهم الفريق الجدير أن يخاف الله يجازيهم بشركهم .

ويثبت أنهـم لا يعلمون الحق فـآمنوا حيـث كان عليهم أن يخـافوا فدل علـى مكابـرتهم وعنادهم .

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ٨٢﴾

التفســـــــير:

قوله تعـالى ـ فى الآية ـــ إجابة على سؤال إبـراهيم عليه الصلاة والسلام «فـأى الفريقين أحق بالأمن» .

ويتصور أن تكون الإجـابة من قبله تعالى، ويتصـور أن تكون من قبل إبراهيـم عليه الصلاة والسلام، سـأل السؤال منكرا عليهـم شركهم وأمنهـم على أنفسهـم ثم أجاب عليـه ليعلموا وليعلم الناس من بعدهم حكمه تعالى فيمن هو الأحق بالأمن.

ومعنى قوله تعالى أن الذين هم أحق بالأمن هم المؤمنون .

بمعنى أنهم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وكتبه ورسله، ثم لم يخلطوا إيمانهم هذا بشرك .

فيكون مفهوم الظلـم فى عبارة الآية هو الشرك ـــ وهذا مفهوم، لأن عبدة الهياكـل فى عهد إبـراهيم عليـه السلام، وعبـدة الأشخـاص (أى عبدة الكـواكـب والأجرام السمـاوية وعبـدة الأصنام) كـانوا يـؤمنون بـالله ويؤمنـون بالحسـاب ثم كـان منهم التقـرب إليه تعـالى ـ فـى اعتقادهم ـ بوسطاء ، هم الكواكب لدى فريق منهم وهم الأصنام لدى الفريق الآخر .

فجاء قوله تعالى مثبتا ـ بمفهوم المخالفة ـ أنه ليس لهؤلاء الأمن . ومثبتا بصريح العبارة أن الذين هم أحق بالأمن هم الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بشرك .

بمعنى أنهم لم يشركوا معه تعالى أو فى عبادته أحدا أو شيئا آخر.

ثم جـاء قوله تعـالى «أولئـك لهم الأمن وهـم مهتدون» مشيرا إليهـم ومثبتا اختصـاصهم بالأمن، ومقررا أنهم مهتدون إلى الحق، ومفاد القول أن غيرهم ممن خلطوا إيمانهم بشرك أو بظلم لا يعدون مهتدين .

وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

التفســــــــير:

جـاء اسم الإشـارة «تلك» فـى عبارة الآيـة «مبتدأ»، وخبـره هو «حجتنـا»، واسم الإشـارة «تلك» وهو للبعيد جاء تعبيرا عن عظم المشار إليه.

والمراد بقوله تعالى «وتلك حجتنا آتيناها إبراهيـم على قومه» معناه أن ما كان من إبراهيم عليه الصلاة والسلام من انتظـار بزوغ الكوكب ليقول هذا ربى، ومن بعـده القمر ثم الشمس، ثم اتخاذ أفـول كل منها دليلا على عدم جـدارته أن يكون ربا لأن الرب لا يأفـل، جميع ذلك كان حجة علمهـا سبحانه وتعالى إبراهيـم عليه الصلاة والسلام أو أرشده إليهـا لتكون حجة على قومه .

بمعنى أنها تكون دليلا يثبت فساد عقيدتهم ويدحضهم .

وهذا القول يؤكد ما ذهبنا إليه من قبل من أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يقول «هذا ربى» للنجم ثم للقمر ثم للشمس بلسانه وليس بقلبه، وتعبيرا عن قولهم .

فمن غير المتصور أن ينطق بالكفر مقتنعا ـ فى مبدأ أمره ـ ويكون ذلك بإرشاده تعالى .

وقوله تعالى «نرفع درجات من نشاء» يفيد عدة معان :

فهو ـ من جهـة ـ يفيد أنه تعالى رفـع إبراهيم عليه الصلاة والسلام رتبـا عظيمة من العلم، والحكمة، والاصطفاء .

كما يفيـد ـ من جهة ثـانية ـ أنه يـرفع بمشيئته غيره عليـه السلام رتبا عظيمة أيضـا، ومنها الاصطفاء .

وقد تأكد عظم هذه الرتب وعظم رتبة إبراهيـم عليه الصلاة والسلام ـ إضافة إلى ما يظهره قوله تعالى «نرفع درجات من نشاء» ـ من نون العظمة فى «حجتنا» وفى «نرفع» .

ثم جاء قوله تعـالى «إن ربك حكيم عليم» بمثابة تعليل لرفعـه من يشاء درجات، فبين أن ذلك يكـون بحكمته تعالـى التي اقتضت رفـع من يشاء درجـات تصل إلى درجـة الاصطفاء للنبوة .

ويكون ترتيبا على علمـه الواسع بمن هو الأجدر والأصلح أن يرفـع قدره أو يصطفى للنبوة، فهو تعالى أعلم أين يجعل رسالته .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾

أولا: الأســـــماء والأعلام:

١ ـ **إســـــحاق** : اسم علم أعجمى قيل إن معناه بالعربية «الضحاك» .

وهو ابن إبراهيم عليه الصلاة والسلام من سارة.

ولد له فى شيخـوخته و إبراهيم ابن مائة سنـة فقالت سارة «قد صنع الله إلـى ضحكا، كل من يسمع يضحك لى».

وذلك بمعنى أن ولادته فى شيخوخة إبراهيم وقد أسنت كان يثير الضحك .

وهذا يؤيد أن معنى اسمه هو الضحاك .

زوجه أبـوه برفقة بنـت بتوئيل ابـن ملكة امرأة نـاحور أخى إبـراهيم عليه الصـلاة والسلام وأنجب منها عيسو ويعقوب.

وعاش مـائة وثمانيـن سنة ومـات فى «قريـة أربع» التـى هى «حبـرون» ودفنه ابنـاه عيسو ويعقوب .

٢ ـ **يعقوب** : سبق ذكره .

٣ـ**نوح** : هو نبى الله نوح بن لامك بن متوشالح، وهو صاحب الفلك. وقد سبق ذكره .

٤ ـ **داود** : هو نبـى الله داود بن يـس الذى قتل جـالوت أو جليات والـذى صار إليـه ملك إسرائيل .

وهو صاحب المزامير، والذى أنزل عليه تعالى الزبور، وقد سبق ذكره.

٥ ـ **سليمان** : هو نبـى الله سليمان بـن داود، آخر أبنـاء داود عليه السـلام والذى صـار إليه الملك.

وهو الذى بنى بيت الرب أو بيت المقدس المسجد، وقد سبق ذكره .

٦ ـ **أيـوب** : سبق ذكره.

٧ـ **يوســف** : هو نبى الله يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

ولد ليعقوب عليه السلام من زوجه راحيل، أحبه أبوه فكرهه إخوته .

وهو صاحب الرؤيا التى رأى فيها الشمس والقمر له ساجدين .

أخذه إخوتـه ليقتلوه ثم اكتفوا بطرحـه فى بئر فى البرية فـوجده رجال مديانيـون رفعوه من البئر ثم باعـوه لرجال من الإسماعيليين ذهبوا به إلـى مصر ثم باعوه إلى عزيـز مصر وهو رئيس الشرطة فيها.

حاولـت زوج العزيز إغـواءه فحفظه الله فاتهمتـه زورا أنه راودها عـن نفسها فبرأتـه شهادة قريـب لها، ثم وضـع فى السجن: إلـى أن عبر للملـك رؤيا رآها بعـد أن عبر لساقـى الملك وخبازه رؤيا رآها كل منهما، فقربه فرعون وجعله الأمين على الأرض والخزائن .

تزوج «أسنـات» بنت «فـوطى فارع» كـاهن «أون» وهـي «عين شمس» فـولدت لـه منسى وأفرايم .

استحضر أباه وأمه و إخوته إلى مصر، وفى مصـر بارك يعقوب عليه السلام ابنى يوسف قبل وفاته.

عـاش مائة وعشـر سنين ورأى أولاد الجيـل الثالـث لافـرايم وأولاد مـاكير بـن منسى ابنـه الآخـر.

دفن فـى أرض مصر، وقيـل إنه أوصـى أن تؤخـذ عظامـه لتدفـن فى أرض كنعـان ـ وهـى فلسطين ـ متى دخلوها .

٨ ـ موسى، وهارون : سبق ذكرهما .

ثانيا : التفســــــير:

حديثه تعالى ـ فى الآية ـ عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يذكر تعالى أنه رزقه من سارة العجوز العاقر الولد وهو إسحاق، وهو الذى أنجب يعقوب عليهما السلام.

ذكر تعـالى أنه وهـب له إسحاق ويعقوب، لأن إنجـاب إبراهيم إسحـاق لم يكن مـوافقا الطبيعة البشرية فـى الإنجاب إذ كان إبراهيم شيخا وكـانت سارة عجوزا عاقرا، فكـان إنجابه منها الولد هبة منه تعالى ومعجزة .

وذكر تعالى أنه وهبه يعقوب وهو ابن ابنه لأنه كان على ملته وكان رسولا نبيا منتسبا إليه ﷺ فكان أيضا هبة من الله له.

وقولـه تعالى «وكـلا هدينا مـن قبل» أفاد أن كـلا من إسحاق ويعقـوب قد ولد وفـى قلبه

الهدى منه تعالى كما هو شأن الأنبياء المصطفين منه تعالى .

وقوله تعالى «ونوحا هدينا من قبل» هو بيان لواقع أن الأنبياء جميعا يكونون مهديين مهتدين منه تعالى.

وجاء ذكر نوح عليه السلام لكونه أول أنبياء الخلق الجديد الذى أعقب الطوفان ـ وإن كانت نبوته من قبله ـ.

ولذلك جاء ذكر عدد من أنبياء الله تعالى من بعده أثبت تعالى أنهم جميعا من نسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذى هو بحق أبو الأنبياء من بعد الطوفان .

ويجيء قوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «وكذلك نجزى المحسنين» إثباتا لكون إبراهيم عليه الصلاة والسلام من المحسنين الذين حسنوا العمل مع الإيمان، والذين أحسنوا لغيرهم بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وأحسنوا لأنفسهم بالإيمان والتوحيد والعمل الصالح والعمل بأوامره تعالى واجتناب نواهيه .

كما يجيء إعلاما بأنه تعالى يجازى المحسنين بإحسانهم خيرا يتنوع ويختلف بحسب ماهية الخير الذى يفيد منه المحسن فى حياته الدنيا، مع خير الثواب فى الآخرة لهم جميعا.

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾

أولا : الأســـــماء والأعلام :

١ ـ زكريـــا : هو زكريا بن برخيا بن عِدُّو نبى الله .

أوحى إليه فى السنة الثانية لحكم داريوس .

وقيل هو ابن أزن بن برخيا. وقد سبق ذكره .

٢ ـ يحيى : هو يحيى بن زكريا عليهما السلام. وهو «يوحنا المعمدان»، وقد سبق ذكره.

٣ ـ عيسى : هو عيسى ابن مريم رسول الله إلى بنى إسرائيل، وقد سبق ذكره .

٤ ـ إلياس : اسم علم أعجمى معرب.

قيل إنه من ولد إسماعيل عليه السلام .

وقيل إنه من حفدة يوشع بن نون .

وقيل هو ابن يسى بن فنحاص بن اليعازر بن هارون بن عمران .

وقيل هو ابن برد بن مهلئيل بن أنوش بن قينان بن شيت بن آدم .

وقيل إنه هو «اليسع» عليه السلام .

وقد لايكون ذلك صحيحا لأنه تعالى ذكر كل واحد منهما على حدة بما يبين منه أنهما شخصان من البشر اصطفى تعالى كلا منهما بالنبوة .

ثانيا : التفســــــير:

المذكورون فى النص القرآنى من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ويبين من ذكر عيسى ابن مريم بينهم أنه تعالى يعتبر ـ فى معنى الذرية ـ أبناء البنات .

فالمستفاد من ذكر عيسى ابن مريم عليه السلام بين المنسوبين إلى إبراهيم بالذرية هو الاعتداد بكون أمه من ذرية إبراهيم ﷺ .

وقد أثبت تعالى لهؤلاء المذكورين جميعا أن كل واحد منهم كان صالحا .

بمعنى أنه كمل صلاحه بالإيمان والعمل والإحسان. والمراد بالنص هو الثناء عليهم أجمعين .

وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾

أولا : الأســــماء والأعلام :

١ ـ **إسماعيل** : هو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ولد له من هاجر المصرية.

ولد فى فلسطين وأخذه أبوه عليه الصلاة والسلام وأمه إلى الجزيرة العربية، وهو الذى عمل مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام فى بناء الكعبة.

تزوج امرأة من جرهم الثانية، وكانت تقيم وتنتقل حول مكة، ودعا بالحنيفية ملة أبيه إبراهيم.

أنجب اثنى عشر ولدا، وعاش مائة وسبعة وثلاثين عاما ومات ودفن بمكة، وقد سبق ذكره.

٢ ـ **اليسع** : اسم علم أعجمى، قيل إنه ابن أخطوب بن العجوز.

وقد يكون هو يوشع أو هوشع بن بئيرى الذى عاش فى أيام عزيا ويوتام وآحاز وحزقيا ملوك مملكة يهوذا، وأيام يربعام بن يواش ملك مملكة إسرائيل.

تزوج جومر بنت دبلايم وولدت له ابنا قيل إن الله تعالى أمره أن يسميه «يزرعيل» قائلا له لأننى بعد قليل أعاقب بيت ياهو على دم يزرعيل وأبيد مملكة بيت إسرائيل، ويكون أنى أكسر قوس إسرائيل فى وادى يزرعيل .

ثم ولدت له بنتا، قيل إنه تعالى أمره أن يسميها «لورحامة» قائلا له «لأنى لا أعود أرحم بيت إسرائيل بل أنزعهم نزعا»، ثم ولدت له ابنا . قيل إن الله تعالى أمره أن يسميه «لوعمى» قائلا له «لستم شعبى وأنا لا أكون معكم»، وهو الذى وبخ بنى إسرائيل على خطاياهم الكثيرة وأبلغهم غضب الله عليهم بسبب رثائهم وبسبب عباداتهم الباطلة ومنها عبادة المسبوكات وكفرهم النعمة وتوعدهم بعقابه تعالى وحثهم على التوبة .

٣ ـ يونس : سبق ذكره .

٤ ـ لوط : اسم علـم أعجمى، معرَّب، هو نبـى الله لوط ابـن أخى إبـراهيم عليـه الصلاة والسلام .

وهو هاران بن آزر ـ وهو تارح .

آمن لعمه إبـراهيم عليه الصلاة والسلام وهـاجر معه ـ علـى الراجح ـ إلى مصر وعاد إلى الشام .

أوحى إليه تعالى وأرسله إلـى أهل سدوم وكانوا أهل كفر وفاحشة، فدعـاهم إلى الله تعالى ونهاهم عن الفواحش فلم يستجيبوا له ـ علي ما سيأتى تفصيله فيما بعد.

فكان منـه تعالى أن أرسـل ملائكته علـى سدوم وقراهـا الخمس : صبغة، وعمـرة، وأدما، وصبويم، وبالع فدمرها وأهلك من فيها فلـم ينج إلا لوط وابنتيه، إذ التفتت امرأته لترى ما يقع بسدوم مخالفة أمره تعالى صائحة، واقوماه فأصابها حجر قتلها .

ثانيا : التفســـــير :

ذكر تعالى ـ فى الآية ـ من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام إسماعيل واليسع ويونس .

وذكر معهم ابن أخيه لوطا عليه السلام .

وقد يكـون ذكره مع من ذكـر من ذرية إبراهيـم لأنه وسارة همـا اللذان آمنا لإبراهيـم عليه الصلاة والسلام من قومه حين دعا بدعوته قبل هجرته إلى مصر، فلما كان هو ابن أخيه أصبح منه بمرتبة الابن .

وقد يكـون المراد بذكر المـذكورين فى نـص الآية هو بيـان المفضلين على العالميـن فى عصرهم منه تعالـى دون اشتراط أن يكونوا من نسل إبراهيم عليـه الصلاة والسلام فكان منهم من هم من ذريته وكان منهم من ليس كذلك .

ونص الآية يثبت بصريح العبارة أنه فضل كلا من المذكورين على عالمى عصره.

وقد استدل بالآية على أفضلية الأنبياء على الملائكة .

وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

التفســـــــــير:

قوله تعالى «ومن آبائهم وذرياتهم و إخوانهم» .

يقبل أن يكون معطوفا على «كلا فضلنا».

و يقبل أن يكون معطوفا على «نوحا» .

والمعنى أنه تعالى هدى البعض من آباء هؤلاء الأنبياء المذكورين، والبعض من ذرياتهم، والبعض من إخوانهم، أو إنه تعالى فضلهم على عالمى عصورهم.

والمستفاد من القول ـ على ما يبين من «من» وهى للتبعيض ـ أن ليس كل آباء وذريات و إخوان الأنبياء المذكورين مفضلين على العالمين أو من المهديين المهتدين ، كذلك فإن معنى النص لايفيد أنه يلزم أن يكون لجميع الأنبياء المذكورين آباء وذريات و إخوان .

وقوله تعالى «واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم» يعود فيه الضمير المتصل إلى الأنبياء المذكورين فى الآيات السابقة .

ومفاد القول أنه تعالى اصطفاهم من بين خلقه لما أراد وهداهم إلى الصراط المستقيم وهو الإسلام بمعناه العام الذى كانت رسالاتهم أن يهدوا به و إليه أقوامهم .

والملاحظ فى نصوص الآيات من ٨٤ إلى ٨٦ التى ورد فيها ذكر أنبيائه تعالى أنه لم يتم ترتيب أسمائهم وفق أسبقية الزمان .

وقد يكون مفاد هذا إظهار أن الأولين والآخرين مجموعون لديه فى وقت واحد فيكون للمهتدين أجرهم ويكون للضالين عقابهم دونما اعتبار لأزمان وجودهم فى الدنيا .

وقد يكون علم سبب ذلك عنده تعالى الأعلم بأسرار كتابه الكريم .

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

التفسير:

جاء قوله تعالى ـ فى الآية ـ من بعد ذكره تعالى أنه الذى هدى الأنبياء والبعض من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم .

فأشار تعالى إلى هذا الهدى باسم الإشارة «ذلك» ـ وهو للبعيد ـ لإبراز سمو درجة هذا الهدى وعلو مرتبته .

ثم إنه تعالى نسبه إلى ذاته العليا لزيادة تشريفه، ثم أوضح أنهم الذين أراد لهم الهدى، دون أن يعنى النص أنه تعالى لم يرد الهدى لغيرهم، وإن كان يفيد أن الهدى يكون منه وبإرادته تعالى.

ثم إنه تعالى يوضح لعباده أن الشرك يبطل عمل الخير بقوله تعالى «ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون» .

والمعنى الظاهر للقول هو أنه لو أشرك هؤلاء المصطفون الأخيار لخسروا صالح أعمالهم فلم يفدهم شيئا .

فيكون المستفاد ضمنا هو أن من دونهم فى الدرجات عنده تعالى يكونون أجدر أن تحبط عنهم أعمالهم فيما لو أشركوا به تعالى شيئا .

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

التفســـــير:

جملة «أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة» مبتدأ «أولئك» وخبر.

والمراد بـ «أولئك» هم المذكورون من الأنبياء.

وقيل إنهم والذين هدى الله من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم .

وقد لايكون ذلك صحيحا ـ والله أعلم ـ لأنه ليس كل من هدى الله مـن آباء الأنبياء ومن ذرياتهم ومن إخوانهم قد أوتى كتابا أو حكما أو نبوة.

ومفاد قوله تعـالى أنه أتى هؤلاء الأنبياء كتبا أنـزلت عليهم من لدنه تعـالى، وحكما على الناس أو قضاء بينهم ونبوة .

ويبدو لنـا ـ والله أعلـم ـ أنـه ما مـن نبى إلا وكـان له كتـاب، يدخـل فى ذلـك الصحف، ويدخل فيـه البينات ـ وهى نـوع من الصحائف أسماه تعالـى بينات كما سمى مـا أنزل على داود عليه السلام «الزبور» .

والمعلوم أن من وصفه تعالى بأنه نبى يكـون قد أوتى النبوة، ويبقى أنه ليس جميع الأنبياء قد أوتوا حكما سواء أريد بهذا معنى سلطة الملك والحكومة أم أريد به معنى القضاء.

فقد كان داود وسليمان عليهمـا السلام ملكين، كما أن موسى عليه السـلام قضى بين بنى إسرائيل، ولكن لوطا عليه السلام لم يؤت ملكا ولا قضاء بين الناس.

ولـذلك نقـول أن معنى القـول لا يفيد معنـى أنه تعـالى قـد آتى جميـع الأنبياء الكتـاب والحكم والنبوة جميعا، إلا أن يكون معنى «الحكم» هو الحكمة .

وقوله تعـالى «فإن يكفر بها هـؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسـوا بها بكافرين» جـاء فى صيغة جملة شرطية مفادها أنه إذا كفر بالكتاب والحكم والنبوة التى أوتيتها .

والمقصود هو رسول الله ﷺ ـ هؤلاء الذين تدعوهـم للإسلام، فإننا قد وفقنـا للإيمان بها والاستمرار على هـذا الإيمان قوما غيرهـم ـ والمراد بهم كل مـن يوفقه الله تعالى لـلإيمان من ذرية آدم عليه السلام .

فيكون قولـه تعالى مثبتا أنـه آتى رسوله ﷺ الكتاب ــ وهو القرآن العظيم ــ والحكم وهو رئاسة الأمة الإسـلامية والقضاء بين الناس والحكمة، والنبـوة، وأنه إن لم يؤمن كفـار مكة وما حولها فإنه تعالى هادٍ للإيمان غيرهـم، يدخل فيهم السابقون فى الإيمان ومنهم صحابته ﷺ ويدخل فيهم كل مؤمن بأمره تعالى بالدين الحق .

أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

التفســـــير:

جملة «أولئك الذين هدى الله» جملة خبرية، جاء فيها اسم الإشارة «أولئك» مبتدأ، وخبره «الذين هدى الله» .

واسم الإشارة يشير إلى الأنبياء المذكورين فى الآيات السابقة.

والمخبر عنه بشأنهم أنهم الذين هداهم الله تعالى بذاته الحق وإلى الطريق المستقيم .

وقولـه تعالى«فبهداهـم اقتده» هو أمر منـه تعالى أن يكـون اقتداؤه ﷺ المخاطب بـالنص بهدى هؤلاء الأنبياء وليس بهدى غيرهم، وبهديهم وحده ليس معه هدى غيرهم.

والمراد بهديهم الـذى يكون اقتداؤه هو ما تعلق ــ من الدين ـ بالعقيـدة دون الشريعة، أى بالإسلام بمعناه العام وهو الإيمان بالله تعالى وتوحيده، وعدم الشرك به.

ذلك أن العقيدة واحدة منذ أن أبلغ بها آدم عليه السلام بنيه .

بها دعا إدريس عليه السلام ونوح وجميع الأنبياء والرسل .

وأما الشريعة فهى متغيرة وفيها ناسخ ومنسوخ .

فيكون معنـى قولـه تعالـى هو أمـر لرسـوله ﷺ ألا يحيـد عن إيمـان الأنبياء المـذكوريـن وإسلامهم الذى هداهم إليه سبحانه وتعالى.

والذى يبين منـه ومن ذكر هؤلاء الأنبيـاء من بعد ذكر إبـراهيم عليه الصلاة والسـلام الذى أوضح تعالى أنه آمن وحاجج بطريق العقل، أنهـم قد آمنوا وعظم إيمانهم بإعمالهم عقولهم مع ما علمهم ربهم.

فيكون اقتداؤه ﷺ بهـم هو بالاقتداء بهـم فى الاهتــــداء بطـــريق العقل ـ وهـو ما يملك أمـره .

وأن يكون فى دعوته إلى دين الله تعالى مستندا إلى العقل مع ما يعلمه الله تعالى.

وربما لهذا جاء الأمر بالاقتداء متعلقا بهدى الأنبياء وليس بهم بذواتهم.

وقولـه تعالى «قل لا أسـألكم عليه أجـرا» وفيه يعود الضميـر المتصل فى «أسألكـم» إلى القرآن العظيم الذى أنزل على رسول الله ﷺ، والذى علمه تعالى علمه.

والخطاب إلـى رسول الله ﷺ أُمر أن يقول لمـن يدعو لـلإيمان أنه لايطلب علـى تبليغهم القرآن وإنذارهم به أجرا أو جُعلا على فعله .

فإذا كان تبليغهم القرآن إحسانا إلى المبلغين، فـإنه ﷺ لا يطلب مقابلا للإحسان كما لم يطلبه من قبله الأنبياء الذين اقتدى عليه الصلاة والسلام بهديهم .

ثم إنه يكون منه ﷺ أن يقول لهؤلاء الذين يبلغهم القرآن العظيم .

«إن هو إلا ذكرى للعالمين» .

فيبين لهم بعضا من أوصاف القرآن العظيم، وهو أنـه تذكرة لما انطوت عليـه النفوس من الإيمان الفطرى وما علمته من وجوب الحساب فى الآخرة بالثواب والعقاب .

ومن النص يبين أن القرآن العظيم قد أنزل للعالمين .

فهو ـ من جهة ـ غير مقصور على قوم رسول الله ﷺ، وإنما هو لجميع الناس.

ثم إنه ـ من جهة ثانية ـ لجميع الخلق المكلفين فيكون ذكرى للإنس والجن .

فيكون القول مفيدا عموم بعثته ﷺ .

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ
أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ
قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ
ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾

أولا : الأســـــــماء :

القــــــــدر : فى قوله تعالى «وما قدروا الله حق قـدره» هو ـ فى الأصل ـ معرفة مقدار الشىء بالنظر والاختبار، بمعنى معرفته على الحقيقة .

والمراد به ـ فى معنى الآية ـ معرفة الله تعالى حق المعرفة .

ثانيا : التفســــــــير:

قوله تعالى «وما قدروا الله حق قدره» جاء فى مشركى العرب وفى فئة من اليهود .

ذلك أنه لما ذكر ﷺ أمر القرآن العظيم الذى هو ذكرى للعالمين قال المشركون «ما أنزل الله على بشر من شىء».

والقائلون بهذا من المشركين هم الذين يؤمنون بوجود الله وينكرون بعثه رسلا إلى الناس.

كذلك قال بعض اليهود - وقيل إن القائل هو «فنحاص» وقيل إنه «مالك بن الصيف» - «ما أنزل الله على بشر من شىء» قاله عندما قال له ﷺ «أما تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين» بمعنى أنه تعالى يكره الحبر الذى يأكل ما يقدم من قرابين لله .

ومعنى قول هؤلاء وهؤلاء هو إنكارهم أنه تعالى قد أنزل القرآن العظيم على محمد ﷺ وإنكارهم أنه تعالى أنزل من قبل كتبا وصحفا على الأنبياء والرسل ومنهم موسى عليه السلام.

فجاء قوله تعالى «وما قدروا الله حق قدره» .

بمعنى أنهم - بقولهم هذا - لم يعرفوا الله تعالى حق معرفته، ولو عرفوه حق المعرفة لعرفوا أنه تعالى يبعث الرسل وينزل عليهم الكتب والصحف .

ولهذا بين تعالى ما قام به الدليل على عدم معرفتهم الله حق المعرفة بقوله تعالى «إذْ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء» .

فأوضح تعالى أن قولهم هذا يظهر عدم معرفتهم الله تعالى حق المعرفة .

ثم يجىء قوله تعالى «قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس» جاء ردا على إنكارهم أنه تعالى ينزل الكتب والصحف على الأنبياء، بقوله رسول الله ﷺ لقائلى القول، وإظهارا لخطئهم .

فعبارة النص - وإن جاءت فى صيغة استفهام - فإنها تتضمن تقريرا بأنه تعالى أنزل الكتاب من قبل على موسى عليه السلام.

وهذا ما يجب أن يعلمه المشركون، وهو الذى يعلمه اليهود .

وبالترتيب عليه فإنه يكون قد ثبت أنه تعالى ينزل الكتب على الأنبياء والرسل فيستقيم فى العقل أنه تعالى أنزل القرآن العظيم على محمد ﷺ .

ثم إنه تعالى وصف الكتاب الذى أنزل على موسى عليه السلام بأنه نور وهدى للناس.

فهو نور لأنه يبين بنفسه .

وهو هدى لأنه يبين للناس طريق الحق .

ثم إنه لما كان القرآن العظيم قد جاء من بعده بأحكام العقيدة والشريعة فإنه يكون ـ من باب أولى ـ نورا وهدى للعالمين .

ثم يبين تعالى ما فعله اليهود بكتاب موسى بقوله تعالى «تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا».

والخطاب ـ فى النص ـ موجه إلى اليهود فعلوا فى كتاب موسى أمرين :

أولهما : هو تقطيعه أجزاء «تجعلونه قراطيس».

وقد استدل البعض بقوله تعالى هذا فى بيان كراهة تقطيع القرآن العظيم أجزاءً مستقلة .

وثانيهما : هو إبداؤهم بعض ما جاء فى كتاب موسى وإخفاؤهم البعض منه مثل بعض الأحكام الخاصة بالعقوبات التى كرهوا توقيعها على الجرائم التى قدرت لها، ومثل النصوص التى تبشر برسول الله ﷺ وتذكر صفاته.

فيكون مفاد قوله تعالى هو توبيخ اليهود على أفعالهم هذه .

والذى نراه ـ فى هذا الشأن ـ أن المراد بكتاب موسى فى نص الآية يشمل التوراة التى أنزلت ليبلغها عليه السلام بنى إسرائيل .

كما يشمل الصحف التى أنذربها فرعون وقومه على ما يبين من قوله تعالى: «وإذْ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين * قوم فرعون ألا يتقون» .

وقوله تعالى لموسى عليه السلام وهارون «فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين» .

وقوله تعالى «وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولاآباؤكم» موجه إلى اليهود .

ومفاده أنهم علموا من القرآن العظيم ما لم يكونوا يعلمونه من قبل، كما أنه لم يعلم به آباؤهم السابقون الذين علموا ما فى التوراة، وذلك لكون القرآن العظيم أشمل من التوراة علما فيما أخبر به وأكثر إحكاما فيما تضمن من أحكام .

وصدق الله العظيم القائل «إن هـذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون» .

ثم إنه تعالى يأمر رسوله ﷺ أن يجيب على السؤال الذى سأل «قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى» بقوله ﷺ إنه الله .

فيكون المراد بالقول: أنه تعالى أنزل الكتاب على موسى من قبل ، وأنزل القرآن العظيم عليه ﷺ.

ثم يأمر تعالى رسوله ﷺ بعد أن يقول لهم إنه الله منزل الكتاب على موسى ومنزل القرآن العظيم عليه أن يتركهم فى باطلهم على حالهم من اللعب، لا يكلف نفسه مشقة إقناعهم .

فيكون القول دالا على إصرارهم على باطلهم بما لا يؤمل معه فى انحرافهم عنه وميلهم إلى الحق.

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

أولا : الأســـــــماء :

أم القـــرى : اسم من أسماء مكة المكرمة .

والمراد به ـ فى معنى الآية ـ أهلها، لأنه يكنى بالبلد عن أهله .

ثانيا : التفســـــير:

المشارإليه فى نص الآية هو القرآن العظيم .

أخبر عنه تعالى بأنه كتاب أنزله تعالى.

فالخبر هـو أنه كتاب، وصفته أنه منـزل منه تعالى، كمـا وصف بأنه مبارك بمعنـى أنه كثير الفائدة والنفع لاشتماله على مـا به صالح الدين والدنيا، ولتزايد منافعـه بمرور الزمان بما يتم الكشف عنه مما لا ينضب من المعارف التى اشتمل عليها .

كذلك فإنـه تعالى وصف القرآن العظيم بأنـه مصدق الذى بين يديه ﷺ ممـا أنزل تعالى من الكتـب على الأنبياء ، ومنها التـوراة والإنجيل، وذلك لتصديقـه بها، ولنزوله علـى النحو الذى ورد فيها أنه ينزله تعالى على نبى من أبناء إسماعيل عليه السلام وصفته كتبه تعالى.

فيكون نزوله على هذا النحو إثباتا لصدق هذه الكتـب فيما أخبرت به وفى كونها منزلة منه تعالى .

ثم يجـىء قوله تعـالى «ولتنذر أم القـرى ومن حولهـا» بيانـا لرسالتـه ﷺ بالإنذار بـالقرآن العظيم أهل مكة وغيرها من أهل البلاد .

فيكون القول مثبتا عمومية رسالته ﷺ وأنها ليست لقومه ﷺ فقط .

ويلاحظ أن الإشـارة إلى الإنذار بالقرآن العظيـم تفيد حتمية وجود التبشير قبـل الإنذار بما يفيد معنى الدعوة للإيمان والتبليغ بالقرآن، لأن الإنذار يكون لمن لم يؤمن .

وقوله تعالـى «والذين يؤمنون بالآخرة يـؤمنون به، وهـم على صلاتهم يحـافظون» هو إعلام

منه تعالى بأن الفئة مـن «معطلة العرب» التى يؤمن أفرادها بوجود الله تعـالى وبيوم القيامة وما فيه من حساب وثواب وعقاب سيؤمنون بالقرآن العظيم .

فيكون شأنهم شأن المؤمنين الذين يؤمنـون بيوم الدين ويعملون له، يحافظون على دينهم فيحافظون على الطاعات ويحافظون على الصلاة عماد الدين .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

أولا : الأســـــماء :

١ ـ **من قـال سأنزل مثل مـا أنزل الله** : قيل إن المقصود بـالقول هو عبد الله بـن أبى سرح الذى كـان من كتبة الـوحى، فلما نـزل قوله تعـالى ــ فى سورة: «المـؤمنون» ـ «ولقـد خلقنا الإنسان من سلالة مـن طين» وأملاها عليه رسول الله ﷺ ليكتبها إلي قوله تعـالى «ثم أنشأناه خلقا آخر» .

عجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان فقال «تبارك الله أحسن الخالقين» .

فقال له رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت علىَّ» .

فدخـل الشيطان نفس عبد الله فقـال «لئن كان محمـد صادقا، فـإنه يكون قد أوحـى إلى مثلما أوحى إليه، ولئن كان كاذبا فإننى أكون قد قلت مثلما قال» .

فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين .

٢ ـ الغمرات : فى قوله تعالى «إذ الظالمون فى غمرات الموت» جمع، مفرده «غمرة» وهى الشدة .

٣ ـ الهـون : هو كل ما فيه هوان النفس وذلها .

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالى «ومن أظلم» هو مبتدأ وخبر بمعنى أنه ليس أظلم، أو «لا أحد أظلم» .

والذى افترى على الله كذبا ـ الذى هو الأكثر ظلما بين الخلق ـ هو كل من اختلق على الله تعالى شيئا أو أمرا ومنهم القائلون «ما أنزل الله على بشر من شىء» .

والذى قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء» هو كل قائل أنه تعالى أوحى إليه أو اختاره نبيا مثل رحمان اليمامة، والأسود العنسى، وسجاح زوج مسيلمة الكذاب وزوجها .

والذى قال «سأنزل مثل ما أنزل الله» هو كل من زعم أن بمقدوره أن يأتى بمثل ما جاء به القرآن العظيم الذى جاء فيهم قوله تعالى ذاكرا قولهم «لو شئنا لقلنا مثل هذا» ومنهم عبد الله ابن أبى سرح.

ويقبل القول أن يكون المراد به أن أظلم الخلق يفترى على الله الكذب تارة، وتارة يقول إنه أوحى إليه، وتارة يقول إنه سينزل مثل ما أنزل الله، أو أنه يفترى على الله الكذب ويقول إنه أوحى إليه، ويقول إنه سينزل مثل ما أنزل الله .

ويقبل أن يكون هو الذى يفترى على الله الكذب أو يقول بأحد القولين، وذلك بحسب ما إذا اعتبرت «أو» للتنويع أو بمعنى «الواو» أو للتخيير

وقوله تعالى «ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم» هو إظهار لما يعانيه الظالمون والكافرون.

وأشدهم معاناة هم المذكورون آنفا ــ من شدائد عند سكرات الموت حيث يرون ما ينتظرهم من العذاب .

ومنه بسط الملائكة أعوان ملك الموت لهم أيديهم بالعذاب قائلين لهم «أخرجوا أنفسكم» أى خلصوا أنفسكم من العذاب إن كنتم على ذلك قادرين، أو أخرجوا أرواحكم من أجسادكم .

فيكون القول مفيدا معنى تعذب الظالم لدى خروج الروح من جسده إذ تنتزع منه الروح انتزاعا على عكس حال المؤمن إذ تنشط روحه للقاء ربها .

وقوله تعالى «ولو ترى» مفاده أن من يرى حال الظالم حين تدركه الوفاة يعاين ما يستدل به على ما جاء بقوله تعالى مما يلاحظ من معاناة الظالم عند خروج روحه من جسده .

وقوله تعالى «اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون» هو قول الملائكة للظالمين حين يبسطون إليهم أيديهم بالعذاب لدى قبضهم أرواحهم، يقولون لهم إنه من اليوم أو من هذه اللحظة تعذبون عذابا يهينكم .

ومبدؤه هو معاناة شدائد الموت .

ومنه بسط الملائكة إليهم أيديهم بالعذاب .

ومنه رؤيتهم مصيرهم فى النار .

ثم يكون عذابهم يوم القيامة .

ثم إن القول يبين أن جميع صور هذا العذاب إنما هى جزاء استحقوه بافترائهم على الله تعالى غير الحق. وباستكبارهم عن آياته وإعراضهم عنها دون تأمل وتدبر .

■■■■■

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

أولا : الأســــــماء :

فـــــرادى : جمع، مفرده «فـردان»، والمراد باللفظ ـ فـى معنى الآية ـ «فـرد يجىء إثر فرد».

ثانيا : التفســــــير:

القول ـ فى الآية ـ قوله تعالى، والحديث عن هؤلاء الكافرين والمشركين والظالمين .

وقوله تعالى «ولقد جئتمونا» هو إخبار عن حشرهم إليه تعالى للحساب فى الآخرة.

جاء التعبير عنه بالفعل الماضى لبيان حتمية وقوعه.

وحالهم المذكورة فـى النص أنهم يجيئون إليه تعالى فردًا فردًا، كـل يجىء منفردا بلا أهل ولا أولاد ولا ناصر ولا مال.

ثم يبين تعالى أنهم يكونون كهيئة خلقهم تعالى منفردين، كل مستقل بذاته.

فيكون قوله تعالى «كما خلقناكم أول مرة» هو بدل من فرادى.

ويقبل القـول أن يكون المراد به أنهـم يكونون علـى ذات الشكل الذى وجدوا عليـه لدى خلقهم فى الحياة الدنيا فيكونوا حفاة، عراة، غرلا ـ بمعنى غير مختونين ـ.

ثم يذكر تعالى مـن أحوالهم التى يكونون عليها يوم الحشر ـ تفصيـلا لكونهم يكونون كما

خلقهم تعالى أول مرة ـ أنهم يجيئون وقد تركوا كل ما أعطاهم سبحانه وتعالى فى الحياة الدنيا وملكهم إياه أو مكنهم من السيطرة عليه من الأموال والعبيد والخلق خلفهم .

تركوه منذ أن غادروا الحياة الدنيا بالموت، وجاءوا بدونه إلى الله تعالى في يوم الحســـاب.

ثم يذكر تعالى حال ما زعموا أنهم يشفعون لهم عند الله تعالى أو يقربونهم منه تعالى زلفى معهم يوم الحساب.

فيبين تعالى أنهم يتخلون عنهم فلا ينظروا معهم، وذلك بقوله تعالى «وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء» .

والمراد بأنه تعالى لا يراهم هو إثبات عدم وجودهم .

والذى يظهره النص أنهم لا يوجدون مع المشركين الذين زعموا فى دنياهم أنهم شركاء الله فى الربوبية أو الفضل .

أو أنهم تكون لهم شفاعة لديه تعالى فاستحقوا بهذا العبادة

وبعد ذلك يوضح تعالى علة عدم وجود المعبودين فى الدنيا مع المشركين فى الآخرة بقوله تعالى «لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون» .

بمعنى أنه تقطع الوصل بينكم وبينهم، وذلك لتبرؤ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا .

كما جانبهم ونأى عنهم كل ما كانوا يزعمون أنهم يشفعون لهم أو أنهم شركاء لله في شيء مما اختص به تعالى .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

أولا : الأســـــــماء :

١ ـ الفـــــالق : اسم فاعل من الفعل «فلق ـ يفلق» بمعنى شق.

ويقبل أن يكون هذا المعنى هو المراد باللفظ ـ فى معنى الآية ـ .

ويقبل أن يكون المراد به هو «الموجد، والمبدع» .

٢ ـ النـــوى: هو جمع نواة التمر.

و إذا أريد به غير التمر قيد إطلاقه فيقال مثلا نوى المشمس أو نوى الخوخ .

ثانيا : التفســـــير:

قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ ذكـر لبعض مظاهر قـدرته تعالـى المحسوسة والمعلومـة للبشر وأخصهم هؤلاء المشركون .

فكأن القول يتضمن بيـانا لبعض مظاهر قدرته تعـالي في مقابل عجز مـا يعبدون من دونه تعالى عن فعل مثله .

فمن مظاهر قدرته تعالي أن يجعل انفراجة أو شقا فى الحبة وفى النواة يخرج منها ما يكون جذرا وما يكون ساقا للنبات وأوراقا .

وأنه يخرج الحـى من الميت ـ بمعنى مالـه هيئة الميت . مثل خلق فرخ الطيـر من البيضة وخلق الإنسان من النطفـة ، كما يخرج الميت من الحى، ومنه خلق البيضـة من الطائر وخلق النطفة والبويضة من الذكر ومن الأنثى من جنس الحيوان .

وفى القول يشير تعالي إلى ذاته العليا بقوله تعالى «ذلكم الله» .

أى أنه تعالى وحده هو من يفعل هذا.

وفى القول إشارة إلي أنه تعالى وحده هو المستحق أن يعبد .

ولذلك جاء قوله تعالى من بعد «فأنى تؤفكون» .

وهو استفهام إنكـارى تعجبى يفيد ـ بالسؤال عـن الكيفية ـ استهجان إشراكهم بـه تعالى غيره والانصراف عن توحيده تعالى واختصاصه وحده بالعبادة .

فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾

أولا : الأســـــماء :

١ ـ **الإصبـــاح** : هو أول النهار.

٢ ـ **الحسبان** : فى قوله تعالى «والشمس والقمر حسبانا» هو الحساب .

والمراد به ـ فى معنى الآية ـ تحسب بهما الأوقات كما أنهما محسوبان بالحساب فيعرف بالحساب ما يتعلق بظهورهما وأفولهما، ودورة كل منهما الفلكية .

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالى «فالق الإصباح» جاء صفة لاسمه تعالى «ذلكم الله» .

ومعناه أنه تعالى شاق الضياء عن الظلام وكاشفه .

وهذا صحيح من الناحية العلمية ، فالإصباح طارىء، والليل سكـن دائم تنغمر فيه الكرة الأرضية ويحيط بها من جميع الجهات.

فلقد ذكر رواد الفضاء منذ عام ١٩٦١ جميعا أنهم عنـدما اخترقوا الغلاف الجوى للأرض وجدوا أن القشرة الجوية الكـروية المنيرة من هذا الغلاف التى تواجـه الشمس أثناء النهار لا يتعدى سمكها مائتى كيلومتر فوق سطح الأرض.

وبعد هـذا الارتفاع تظلـم السماء تماما رغم وجـود الشمس التى لا يتشتـت ضوؤهـا فى الفضاء الكونى لعدم وجود ذرات وجسيمات تكفى لحدوث هذا التشتت الذى ينشر الضوء.

وقوله تعالى «وجعل الليل سكنا» مفاده أنه تعالى جعل الليل وقتا يسكن فيه الطير والدواب وكل من يكد ويتعب بالنهار من البشر .

والمراد بقوله تعالى «والشمس والقمر حسبانا» بمعنى أنه بهما يحسب حساب ما يحتاج لمواقيت كما أن دورة كل منهما محسوبة بحساب.

ومن ذلك مثلا أننا لو رصدنا لحظة ظهور القمر فى أى يوم وقت بزوغه فى الأفق لوجدنا أنها تتأخر خمسين دقيقة فى نفس المكان عن اليوم السابق، لأن القمر يدور حول الأرض بزاوية معدلها ١٣ درجة كل يوم .

وكذلك فإن منازل أو أطوار القمر تطالعنا كل يوم بشكل جديد حسب موقع القمر من الأرض والشمس أثناء دورانه حول الأرض خلال الشهر القمرى .

وبالقمر يحسب اليوم العربى من غروب الشمس وينتهى بغروبها .

ولهذا وجب أن يولد الهلال قبل الغروب وأن يغرب بعد غروب الشمس بفترة كافية ليكون ذلك أول الشهر العربى .

كذلك فإن الشمس تتخذ للحساب ترتيبا على كون الأرض تدور حولها مرة كل ١/٤ ٣٦٥ يوما ، فتكون هذه المدة سنة ثم إن الأرض تجرى فى مدارها حول الشمس بحيث يكون محورها مائلا بزاوية قدرها ١/٢ ٢٣ درجة تقريبا على العمود على مستوى فلكها حول الشمس سواء أكانت الأرض مقبلة نحو الشمس أم مدبرة عنها.

فينتج عن هذا الميل أن الشمس تشرق وتغرب فى أى مكان على الأرض فى مواقع مختلفة أثناء العام نظرا لكون محور الأرض يميل نحو الشمس فى صيف نصف الكرة الأرضية الشمالى أما فى الشتاء فيميل بعيدا عنها.

وهذا جميعه محسوب ومنه يعمل لكل أمر حساب. فتبارك الله أحسن الخالقين .

ويجىء قوله تعالى «ذلك تقدير العزيز العليم» وفيه جاء اسم الإشارة «ذلك» مشيرا إلى ما سبق ذكره من فلق الإصباح، وجعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا .

وجاء الإخبار عنه بأنه تقدير الله تعالى الغالب على أمره، العليم بما هو فى صالح العباد مما يعلمون ومما امتنع عليهم العلم به، ومما قدر لهم العلم به فى الوقت الذى يشاء لهم تعالى فيه أن يعلموا .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

التفســــير:

قوله تعالى - فى الآية - فى ذكر مظاهر أخرى لقدرته تعالى وهى خلقه تعالى النجوم.

وجعل فيها للإنسان مصالح رغم أنه منها الكثير الذى خلق قبل خلق الإنسان على الأرض بملايين السنين .

وقد ذكر تعالى أحد مظاهر الانتفاع بها من جهة البشر وهو الاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر، وهو ما يكون بمعرفة الجهات الأصلية عن طريقها.

والمراد بالنجوم - فى معنى الآية - هو النجوم التى هى شموس، وما يظهر من الكواكب ليلا فى مثل هيئتها للناظر.

ولقد تمكن القدماء من رؤية حوالى ستة آلاف نجم بالعين المجردة، وتم رصد بلايين البلايين منها اليوم.

وقد اهتدى سكان نصف الكرة الشمالى بمجموعة الدب «المغرفة والأسد والغراب فى الربيع».

وبمجموعة الدجاجة، والعقرب، والمثلث، والقوس، والجاثى فى الصيف .

وبمجموعة: مربع الفرس الأعظم ــ الذى تنتمى نجومه إلى كوكبات المرأة المسلسلة.

وذوات الكراسى والحمل فى الخريف .

وبمجموعة الجبار فى الشتاء.

كذلك اهتدى العرب على وجه الخصوص بنجم الشعرى، وبغيره مما لا مجال لحصره.

وقوله تعالى «قـد فصلنا الآيات لقوم يعلمون» مفاده أنه تعالى ذكر بعـض آياته فى خلقه، ومعجزاتـه وفصلها على النحـو الذى يدرك به ذووا العقـول أنها جميعا نعـم أنعم بها تعـالى عليهم.

وذلك لأن هؤلاء الذين ينظرون فى الآيات ويتفكرون.

فهم ينتفعون بهذه النعـم فوق تنعم الكافرين بهـا، لأنهم بتدبرهم أمر مـا يشهدون يزدادون إيمانا فيكسبون ثوابا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسۡتَقَرٌّ وَمُسۡتَوۡدَعٌۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَفۡقَهُونَ ٩٨﴾

أولا : الأســـــــماء :

١ ـ المســـــتقر : قيل إن المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو مكان الاستقرار وهـو الرحم، ثم الأرض، ثم القبر.

٢ ـ المستودع : قيل إن المراد به ـ فى معنى الآية ـ مكان حفظ الوديعة، فهو الصلب الذى استودع فيه تعالى النطفة، وقيل هو الدنيا.

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالى ـ فـى الآية ـ فى ذكر بعض فعال قدرته تعالى، فهـو تعالى خلق الناس جميعا من نفس واحـدة هى آدم عليه السلام ثم كانـت النطفة وديعة فى صلب الذكـور من بنى آدم،

لتستقر فى أرحام النساء ثم فى الأرض ثم فى القبور.

ثم أوضح تعالى أنه قد ذكر هذه الآيات على وجه مفصل ليعيها الذين يفقهون.

ويلاحظ أن قوله تعالى أشار فى الآية إلى الذين يعون هذا الخلق بأنهم الذين يفقهون.

على حين أنه أشار إلى الذين يعون خلقه تعالى النجوم بأنهم الذين يعلمون.

فدل بهذا على أن الفقه أدق من العلم.

وربما استوجب تدبر خلق الإنسان الفقه، هو تعلق الأمر بالشىء الدقيق على حين يبدو للناظر أن فى خلق النجوم ـ لكبر حجمها ولاتساع الفضاء ـ دقة أقل.

وهذا غير صحيح على ما سيبين فى موضعه.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

أولا : الأســـــماء :

١ ـ الخضـــــر : فى قوله تعالى «فأخرجنا منه خضرا» الأخضر، وهو رطب البقول.

وقيل هو القمح والشعير وسائر الحبوب.

٢ ـ المتراكب : فى قوله تعالى «نخرج منه حبا متـراكبا» هو ما ركب بعضه فوق بعض كما يكون فى السنبلة .

٣ ـ الطلع : فى قـوله تعالى «ومـن النخل من طلعهـا» المراد به ــ في معنى الآية ــ طلع النخل وهو ما يرى من عذق النخلة.

٤ ـ القنوان : فى قوله تعالى «من طلعها قنوان دانية» جمع، مفرده قنو، هو العذق.

وهو بمنزلة عنقود العنب بالنسبة للبلح.

٥ ـ اليـنـــع: فى قوله تعالى «وينعه» هو النضج.

ثانيا : التفســــــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى ذكر مظاهر أخرى لقدراته تعالى.

فقولـه تعالى «وهـو الذى أنـزل من السماء مـاء» هو ذكر لمعجـزة إنزالـه تعالى المـاء من السماء.

ففيه إشارة إلـى عملية تبخير مياه المحيطات والبحـار والأنهار ـ وعلوه إلـى طبقات الجو العليا ثـم تكثفه وحدوث الثقـل به الذى يـؤدى إلى هطـوله مطرا أو اصطـدامه بالجبـال بما يحدث ذلك.

وكل هذا من آياته تعالى.

وقوله تعالى «فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا».

يفيد أنه تعالى يخرج بالماء من الأرض جميع أنواع النباتات المختلفة أجناسا وأنواعا.

ويكون من النبات مـا يخرج منه الحب المتراكب فـى سنابل أو فيما يشبه السنابـل فكأنه تعالى قد ذكر من النبات ما تعلق بجنس الحبوب والبقول .

وقولـه تعالى «ومـن النخل من طلعهـا قنوان دانيـة وجنات من أعنـاب والزيتون والـرمان

مشتبها وغير متشابه».

هو ذكر لمعجزة خلقه تعالى التمر وبعض أنواع الفواكه.

جاء فيها ذكر ما يكون ثمار شجر وشجيرات ومنها ما يكون من دوال وكرمات.

فذكر أنه تعالى يخرج من طلع النخل القنوان التى تحمل البلح، كما يخرج من النبات كرمات العنب وشجيرات الزيتون، وأشجار الرمان.

ثم ذكر تعالى أن ثمار هذه الأشجار وشجيراتها تنتج أعنابا وزيتونا ورمانا يكون منه ما يتشابه بعضه والبعض فى الشكل والحجم والطعم.

ويكون منه ما لا يشابه بعضه بعضا.

ثم يأمر تعالى المخاطبين بالنص بالنظر إلى ثمار ما ذكر من أنواع الحبوب والتمر والفواكه والزيتون والرمان إذا ما ظهرت ثم بإعادة النظر إليها إذا نضجت.

والأمر بالنظر جاء تعبيرا عن التفكر والتدبر لإدراك مدى قدرته تعالى وتبين معجزة خلقه.

ولذلك قال تعالى «إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون».

بمعنى أن الذين يؤمنون بالله تعالى سيرون فى هذا آيات لله تعالى ومعجزات تزيدهم إيمانا فوق إيمان.

وأن آخرين غيرهم يرون هذه الآيات ويعقلونها فيعلمون أن الخالق المدبر هو الله تعالى فيؤمنوا.

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

أولا : الأســـــــماء :

الجـــــــن : هو كل ما استر فلم يمكن نظره ورؤيته.

وقيل إن المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو الملائكة .

قال عنهم البعض من مشركى العرب إنهم بنات الله وعبدوهم .

وقيل إنهم الجن أو الشياطين عبدهم البعض صراحة ـ وهذا غير معلوم عن العرب إلا أن يراد به ما كانوا يقولون به من وجود جان أو شيطان لكل شاعر يوحى إليه.

وقد يكون المراد بالإشراك به تعالى بعبادة الجن هو إطاعة الشياطين فيما توسوس به.

ثانيا : التفســــــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى هذه الطائفة من مشركى العرب التي كان منها من عبد الملائكة، أو عبد الجن فانصاع لما توسوس به الشياطين

ثم يذكر تعالى أنه الذى خلق هذه المعبودات سواء أكانت هى الملائكة أم كانت هى الجن . والتى كان منها من افتروا عليه تعالى فذكروا بإفكهم أنه تعالى اتخذ أبناء وبنات جهلا منهم بقدره تعالى وببشاعة ما يدعون .

وقد يكون فى القول إشارة إلى أهل الكتاب الذين يقولون إن عزيرا ابن الله ـ وهم اليهود ـ و إلى الذين يقولون منهم أن المسيح عليه السلام ابن الله، فيكون هذا القول وذاك منهم قولا بغير علم .

ثم جاء قوله تعالى «سبحانه وتعالى عما يصفون» .

تنزيها له تعالى عن أن يكون له شريك أو أن يكون له ولد.

وتنزيها له تعالى عن كل ما يدعونه بشأنه تعالى بجهلهم وعدم علمهم بقدره تعالى المستوجب خصه وحده تعالى بالعبادة .

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

أولا : الأســـــماء :

البـــــــديع . هو المبدع، وهو الذى ليس له نظير.

ثانيا : التفســــير:

قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ جـاء متعلقا بعلة تنزيهـه تعالى عـن إفك المشركين التـى تدرك بالنظر، وفى إثبات كذب قولهم وزعمهم.

فقوله تعـالى «بديع السمـاوات والأرض» هو ذكر لواقـع أنه تعالى الـذى خلق السماوات والأرض فأنشأهما ومن فيهما وما فيهما من العدم.

جاء ذكرهما لأنهما أكبـر ما تدركه الحواس ولأنه ما من مخلـوق إلا وهو فى السماوات أو فى الأرض.

فيكون مفهومـا أن من خلق السماوات والأرض وما فيهن فـى غير حاجة إلى الـولد يجىء بطريق الولادة ، وهو الموجد بالكلمة .

ويكمل هذا المعنى ويـرتبط به قوله تعالى «أنـى يكون له ولد ولم تكن لـه صاحبة وخلق كل شىء» .

والاستفهام هـو عن كيفية وجود ولـد له تعالى بمـا يتطلب أن تكون لـه صاحبة يأتـى منها بالولد، وهذا غير متصور فى شأنه تعالى لأنه خالق كل شىء.

فـلا يتصور أن يكـون المخلوق ولـدا لخالقـه كمـا لا يتصور أن تكـون المخلوقـة صاحبـة لخالقها.

ثم إن أمر اتخاذ الولد يكون على أحد وجهين .

فهو إما أن يكون ضرورة رآها سبحانه وتعالى فكـان من شأن ذلك أن يكون الولد أزليا مثله تعالى، فلا يكون مجيئه بطريق الولادة من أنثى فى زمن معين .

و إما ألا يكـون ضرورة فلا يكـون الولـد. فيكون القول بهـذا المعنى نافيـا الحدوث ونـافيا تصوره.

وقوله تعالـى «وهو بكل شيء عليم» مفاده أنـه تعالى عليم بكل قديـم وبكل محدث منذ الأزل، وأن علمه هذا هو الذى قضى أن يكون فردا.

فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد ليس له شريك فى الملك ولا صاحبة ولا ولد.

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾

التفســـــير:

بعد ذكره تعالى بعض صفاته جل وعلا .

أشار تعالى إلي ذاته الموصوفة بما سبق وأخبر عن ذاته تعالى رب المخاطبين .

بمعني أنه تعالى المتولى أمورهم والمالك أمورهم .

فيكون هو تعالى وحده المستحق العبادة .

ثم أخبر تعالى عن وحدانيته «لا إله إلا هو» فنفى أن يكون إله آخر غيره أو معه.

ثم أخبر تعالى عن ذاته أنه خالق كل شيء، فما من شيء إلا وهو مخلوق وهو تعالى وحده وبهذا استحق تعالى وحده العبادة .

فجاء أمره تعالى صريحا بعبادته «فاعبدوه».

ثم جاء قوله تعالى «وهو على كل شيء وكيل» بمعنى أنه تعالى وحده متولى جميع أمور الخلق الدنيوية والدينية ليس غيره من يتولاها.

كما أنه تعالى لا يوكل فيها غيره أو معه.

والقول ـ على هذا المعنى ـ تأكيد لمعنى استحقاقه تعالى وحده أن يعبد.

لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ في الآية ـ عن ذاته العليا.

فهو تعالى لا تدركه الأبصار.

بمعنى أن حاسة الإبصار لا تدركه تعالى فهي أعجز عن ذلك.

كما أن البصيرة والعقول لا تحيط بالعلم به تعالى إحاطة كاملة.

والمراد بهذا أنه لا يُرى ـ تعالى شأنه ـ في الحيـاة الدنيا، أما في الآخرة فإن المؤمنين يرونه تعالى على ما يبين من قوله تعالى «وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة».

وقد يكون هذا التقرير في شأن المخلوقات جميعا في الدنيا إلا لمن يجعل له تعالى كرامة من الأنبياء أن يراه كرسول الله ﷺ.

وذلك لأنه لـو لـم يكن ذلك ممكنـا لمن أكرمه الله تعـالى برؤيته فـي الدنيا ما كـان موسى عليه السلام قد سأل تعالى أن يراه، لأنه لا يسأل إلا بما هو جائز.

ثم ذكر تعالـى أنه يدرك الأبصار، والمراد بهذا أنـه تعالى يرى أو يعلم القدرة التـي يتم بها الإبصار، وليس المراد بهذا رؤية جسم العين أو حدقتها.

والمراد بهذا الذى يراه تعالى ويعلمه هو وقوع الضوء على الجسم وارتداد الأشعة إلى العين وحدوث الإبصار، وهو ما لا يراه أحد من الخلق.

ويجيء قوله تعالى «وهو اللطيف الخبير» ذكرا لصفتين له تعالى.

ورد ذكر اللطيف فيهما لكونه تعالى لا يُرى فوافق الوصف صفته تعالى المتمثلة فى نفى إمكانية رؤيته تعالى.

وورد ذكر الخبير لكونه تعالى المبصر العالم، فوافقت صفته تعالى المذكورة ما ذكر عنه تعالى من كونه تعالى يدرك الأبصار.

قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾

أولا : الأسماء :

البصائر : فى قوله تعالى «قد جاءكم بصائر من ربكم» جمع، مفرده، البصيرة، وهى المعرفة بالقلب، وهى الحجة الظاهرة التى يطمئن لها القلب .

ثانيا: التفسير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ هو من قول رسول الله للمشركين استئنافا لحديثه ﷺ معهم بأمر ربه .

فهناك «قل» مقدرة فى مبدأ القول.

ومعنى قوله ﷺ، هو أنه قد جاء هؤلاء المشركين حجج وأدلة منه تعالى تطمئن لها القلوب أنه تعالى وحده الإله الفرد الصمد المستحق العبادة.

من هذه الحجج والأدلة القرآن العظيم الذى أنذرﷺ به.

ومنها ما سبق ذكره من آيات خلقه تعالى.

فهذا هو المستفاد من قوله «قد جاءكم بصائر من ربكم».

وقوله ﷺ لهم «فمن أبصر فلنفسه، ومن عمى فعليها».

مفاده أن من اعتبر بهذه الحجج والأدلة فآمن، فإنه يكون قد كسب لنفسه أمانها بتخليصها من العذاب، فيكون النفع قد عاد عليه.

وأن من لم يعتبر بها فعمى قلبه ولم يهتد فإنه يكون قد خسر نفسه بتعريضها للعذاب، فيكون كفره بها وبالا عليه.

ثم يكون قوله ﷺ «وما أنا عليكم بحفيظ».

مفيدا معنى عدم مسئوليته ﷺ عنهم.

فهو ليس الرقيب عليهم، كما أنه ليس الذى يجازيهم ثوابا بإيمانهم وعذابا بكفرهم، لكن هو الله تعالى.

فيكون مفاد القول أنه ﷺ نذير لهم وأنه تعالى الذى يتولى حسابهم.

وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

التفســــــــير:

معنى قوله تعالى «وكذلك نصرف الآيات» ـ وهو قوله تعالى ـ هو أنه: على مثل هذا النحو البديع السابق ذكره جاء إيرادنا الآيات فى القرآن العظيم المتعلقة بإقامة الحجج على وحدانيته تعالى واستحقاقه تعالى وحده أن يُعبد .

وقوله تعالى «وليقولوا درست» .

مفاده أن نزول الآيات منه تعالى مفصلات قد كان لتحقيق أمرين .

أولهما: هو إقامة الحجة على المشركين .

والثانـى : هو «ليقولـوا درست» بمعنى أنهـم لكفرهـم يقولون إنـك يا محمد قـد درست الكتاب على أيدى علماء أهل الكتاب.

أو إنك دارستهم ودارسوك .

أو إنك دارستنا .

وقيل إن «درسـت» بمعنى «درسـت حججك» أى انقضـت وانتهت، بمعنـى أنه لا فـائدة ترجى منها .

وذكر قولهم ـ فى نص الآية ـ يتضمن معنى الوعيد لهم .

ذلك أن المفهوم منـه أنه «فليكن منهم ما يكـون» فهو إظهار لانعدام قيمة قـولهم، ولأنهم معاقبون به .

وقولـه تعالـى «ولنبينه لقـوم يعلمون» هـو ذكر لسبـب آخر لتصـريفه تعـالى الآيـات، وهو إيضاحهـا وإظهار وجه المصلحة فيهـا لينتفع بها الذيـن يعلمون أين تكون مصلحتهـم وهم المؤمنون .

وصفهم تعالى بأنهم الذين يعلمون لإظهار أن غيرهم هم الجاهلون .

﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦﴾

التفســـــــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ أمر منه تعالـى إلى رسوله ﷺ أن يداوم على ما هو عليه من الإيمان

والعمل على النحو الذى أوحى إليه به بالقرآن العظيم من ربه . وأن يبشر به وينـــذر .

ثم جاء قوله تعالى «لا إلـه إلا هو» معترضا الأمر لبيان أن أساس العقيدة الموحى بها فى القرآن العظيم هو توحيده تعالى وعدم الشرك به .

ثم يجىء أمره تعالى من بعد «وأعرض عن المشركين» توجيها له ﷺ - فى صيغة الأمر - ألا يعتد بأقوال المشركين فيكون فى القول إشارة لتفاهتها وانعدام أثرها فيه ﷺ .

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

التفســـــير:

مبدأ قوله تعالى فى الآية «ولو شاء الله ما أشركوا» .

يفيد أنه تعالى لم يرد ردهم عن الشرك الذى اختاروه لأنفسهم .

وقوله تعالى «وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل» .

جاء ليدفع رسول الله ﷺ الحزن عن نفسه لعدم إيمان المشركين، فهو ليس الرقيب عليهم من قبله تعالى فيحفظ عليهم أعمالهم . كما أنه ليس وكيلا عنه تعالى فى القيام على أمورهم وتدبير مصالحهم فيجلب لهم مصالحهم ويدرأ عنهم ما يضرهم .

فيكون المراد بالقول هو تأكيد معنى أمره تعالى بالإعراض عنهم وعدم الالتفات لهم .

وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ
كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ نهى للمسلمين عن سب ما يعبد المشركون من دون الله .

جاء فيـه التعبير عن معبودات المشـركين بأنهـم «الذين يـدعون من دون الله» لأنه يـدخل فيهم المسيح عيسـى ابن مريم عليـه السلام عند القائلين بـألوهيته أو ربوبيتـه من النصارى، وعزير عند القائليـن من اليهود إنه ابن الله، وذلك مع أصنام المشركيـن المعبودة لتقربهم إلى الله زلفى بقولهم .

وقد أثار هذا النهي شيئا من الجدل لأنه تعالى قال فى كتابه الكريم «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم» .

والمراد بالمعبودات فى القول غير الأنبياء .

فقيل إن تلاوة الآية تتضمن سبا لمعبودات المشركين .

والصحيح أن تلاوة الآية للتعبد لا يتضمن سبا .

وإنما المنهى عنه هو تلاوتها على المشركين بقصد السب وحده.

ثم إنه قد يكون المراد بالنهى هو النهى عـن سب آلهة المشركين عند دعوتهم إلى الإيمان أو عند محاجتهم، إذ يكون الواجب هو مقارعة الحجة بالحجة .

أما العدول عن هذا بسب الآلهة المعبودة فلا يكون من المحاجة في شيء.

ثم إنه تعـالى يبين علة نهيـه عن سب معبودات المشركيـن بقوله تعالـى «فيسبوا الله عدوا بغير علم» .

فأظهر تعالى أن سب معبوداتهم من شـأنه أن يغضبهم فيدفعهم غضبهم إلى تجاوز الحق الذى يعرفونه ـ وهـو وجود الله تعالى الذى كانوا يؤمنون بوجـوده ويتخذون آلهتهم واسطة إليه تعالى ـ إلى الباطل، فيكون منهم سبهم الله تعالى إله المؤمنين المعبود .

وفى ذكره تعالى أن هذا السب يقع منهم بغير علم، إشارة إلى أنه يقع منهم حال غضبهم لآلهتهم الذى يؤدى إلى عدم ملكهم أنفسهم فى سَوْرة الغضب فيكون منهم سب الله تعالى.

ويجىء قوله تعالى «كذلك زينا لكل أمة عملهم» .

مفيدا أن كل أصحاب عقيدة - صحيحة كانت أم باطلة - يتشيعون لها ويرونها حسنا.

وأنه تعالى يجعلها حسنة فى أعينهم .

ولا يعنى هذا أنه تعالى فرض الكفر على الكافرين والشرك على المشركين.

ولكن معناه أنه تعالى - وقد علم منذ الأزل أنهم يختارون الكفر على الإيمان والشرك على التوحيد - تركهم وما اختاروا ولم يحل بينهم وبينه .

ثم يجىء ختام الآية قوله تعالى «ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون» .

وعدا للمؤمنين ووعيدا للمشركين، فهو إخبار عن حتمية رجوع الجميع فى الآخرة إليه تعالى مالك أمورهم فيعرفهم بما يلقون من الثواب أو العقاب حقيقة ما كان عليه اعتقادهم وأعمالهم الصادرة بناء عليه من الصحة أو الفساد .

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

التفســـــــير:

قوله تعالى - فى الآية - إخبار عن فعل المشركين أقسموا أيمانا مغلظة هى أشد الأيمان، حلفوا فيها بالله الذى يؤمنون بوجوده ويتخذون أصنامهم وسيلة إليه تعالى بأنه إذا جاءهم رسول الله ﷺ بمعجزة من المعجزات - مماثلة لما جاء به موسى من فلق البحر بضربه

بالعصا، أو لما جاء بـه عيسى من إحيـاء الموتى، أو بمعجـزة من قبيل مـا طلبوا مثل إحـالة «الصفا» ذهبا، فإنهم يؤمنون به نبيا مرسلا من ربه.

ثم إنه تعالى يأمر رسوله ﷺ أن يجيبهم على هذا بقوله «إنما الآيات عند الله» .

بمعنى أنه ﷺ لايملك المعجـزات وليس فى قدرته أن يأتى بها، وأن الله تعـالى وحده هو القادر على هذا، ينزلها بحكمته أو يمنعها بحكمته .

وروى أنه ﷺ أراد أن يدعو الله بما طلبوا فقال له تعـالى: «إن شئت أصبح الصفا ذهبا فإن لم يصدقوا عند ذلك لنعذبهم، أو إن شئت فاتركهم حتى يثوب تائبهم .

فقال ﷺ: اتركهم حتى يثوب تائبهم، فنزلت الآية .

وقوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون» .

وفيه جاءت «لا» زائدة كما فى قوله تعالى «وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون» .

وقوله تعالى «ما منعك ألا تسجد» .

فيكون المعنى هو «ما يدريكم أن الآية المطلوبة منهم إذا جاءت يكون منهم الإيمان» .

وقيل إن الكلام فيه حـذف، والمعنى المستفاد منه هو «وما يشعـركم أن الآية إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون» .

وجرى الحذف لكونه معلوما بالضرورة .

والمستفاد من الآية هـو كذب المشركين فيما حلفوا عليه بالأيمـان المغلظة، وأنها أيمان فاجرة، وأن إيمانهم منعدم و إن أجيبوا إلى ما طلبوا .

فيكون فى القول إظهار للحقيقة للمؤمنيـن الذين ودوا أن يستجيب رسول الله ﷺ لما طلبه المشركون فيدعو الله تعالى أن ينزل الآية التى طلبوها .

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

التفســـــير:

قوله تعالى «ونقلب أفئدتهم وأبصارهم» جاء معطوفا على قوله تعالى - فى الآية السابقة - «لا يؤمنون» .

فيكون المراد بقوله تعالى أنه إذا جاءتهم الآية أو المعجزة التي طلبوها فإنه تعالى يقلب أفئدتهم عن إدراك الحق. وأبصارهم عن رؤيته فلا يهتدون إليه .

فلا يختلف أمرهم عما كان عليه حالهم من قبل حين لم يؤمنوا بما سبق إنزاله من الآيات بمعجزة القرآن العظيم .

وقيل إن تقليب الأفئدة والأبصار يكون على النار يوم القيامة جزاء على عدم إيمانهم فى الدنيا .

ثم يجىء قوله تعالى «ونذرهم فى طغيانهم يعمهون» .

مفيدا معنى أنه من بعد عدم إيمانهم بالمعجزة إذا جاءت ، يكون أمره تعالى معهم هو ذات أمره معهم على الحال.

فهو تعالى يتركهم على ما هم عليه من مجاوزة الحد فى العصيان مترددين حائرين لا يهتدون ليأخذهم بعد ذلك بظلمهم .

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

أولا : الأســـــــماء :

القبــــــل : فى قوله تعالى «وحشرنا عليهم كل شيء قبلا» هو المواجه والمقابل.

والمراد به ـ فى معنى الآية ـ المعاينة بالنظر.

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ تفسير لقوله تعالى «وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون» :

ومفاد قوله تعالى أنه لو جاءهم من المعجزات أنه تعالى أنزل الملائكة تحدثهم وتخبرهم بصدق نبوته ﷺ وبكون القرآن العظيم منزلا من لدنه تعالى لما آمنوا .

وكذلك يكون إصرارهم على عدم الإيمان لو أنه تعالى أقام لهم الموتى من قبورهم وجمعهم إليهم فخاطبوهم مثبتين نبوته ﷺ، وجاءهم بكل ما طلبوا من المعجزات مجموعة إليهم ينظرونها بأعينهم ويعاينونها معاينة المحسوس، لا يكون منهم أن يؤمنوا بذواتهم.

ويجيء قوله تعالى «ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله» مثبتا أنهم مهما تأتيهم الآيات لا يكون منهم بأنفسهم وحدها أن يؤمنوا .

لكنه تعالى هو صاحب المشيئة التى تكون ..

فلو شاء تعالى لآمنوا .

والظاهر من القول أن من يبقى على الكفر يكون تعالى قد تركه وما اختار فلم يشأ أن يباعد بينه وبين اختياره .

وقوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «ولكن أكثرهم يجهلون» يفيد معنى أن أكثر الذين طلبوا نزول الآيات من المشركين لا يعلمون حقيقة الأمر وهو أنه إذا جاءتهم الآيات لا يؤمنون إلا إذا شاء تعالى أن يحول بينهم وبين ما اختاروا من الشرك .

وكذلك حال الذين تمنوا ـ من المؤمنين ـ أن ينزل تعالى هذه الآيات المطلوبة، يجهلون

أنها إذا نزلت لا يؤمن بها المشركون إلا إذا أراد تعالى أمرا آخر.

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾

التفسير:

قوله تعالى ـ في الآية ـ تسرية عن رسول الله ﷺ الذي ساءه فعل المشركين من قريش معه وعداوتهم له.

فذكر له تعالى أنه ما من نبي بعثه إلا كان له أعداء من شياطين الإنس والجن.

وصف تعالى أعداء الأنبياء من الإنس بأنهم شياطين لشططهم وابتعادهم عن الحق والاشتداد في الباطل.

ولأنهم أعوان إبليس اللعين الذين اتخذهم من الإنس فشبهوا به.

ويفيد القول أن أعوان إبليس من الجن يكونون أعداء لأنبيائه تعالى.

ثم إنه تعالى ذكر أنه يكون إغواء شياطين الجن أعوانهم من شياطين الإنس بتزيين الباطل لهم بما يوسوسون به إليهم في السر على ما يبين من لفظ «يوحي».

وأظهر تعالى أن هذه الوسوسة تكون بالإغواء والخداع بقوله تعالى «غرورا».

وقيل إن المراد بشياطين الجن هم القرناء وإنه ما من بشر إلا وله قرين من الجن.

ثم يجيء قوله تعالى «ولو شاء ربك ما فعلوه» مفيدا معنى أن كل ما يكون من خير أو من شر معلق بمشيئته تعالى وبحكمته.

فلو شاء تعالى ما كانت العداوة من أقوام الأنبياء لهم .

ولو شاء تعالى ما كانت وسوسة شياطين الجن لشياطين الإنس .

ولو شاء تعالى لما استجاب الإنس المُوَسْوَس إليهم لوسوسة الجن؛ لكنه تعالى لم يمنع ذلك لحكمة لديه تعالى .

ثم إنه تعالى يأمر رسوله ﷺ ألا يولى بالا لفعل المشركين معه من الافتراء عليه بالفعل والقول «فذرهم وما يفترون» .

فيكون القول دالا على أنه ﷺ لن يضره فعلهم .

وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

التفســـــير :

قوله تعالى - فى الآية - يفيد معنيين :

أولهما : تأكيد أنه لا يضره ﷺ فعل المشركين معه وتحالفهم عليه مع شياطين الجن.

وثانيهما : هو توعد هؤلاء وهؤلاء بسوء المصير .

فمعنى قوله تعالى «ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة» هو «وليكن من شياطين الإنس ما يكون من الميل إلى وسوسة شياطين الجن لهم والاستجابة والقبول» .

وقد وصف تعالى شياطين الإنس بأنهم لا يؤمنون بالآخرة .

بمعنى أنهم لا يؤمنون بها إيمانا صحيحا لأنهم لو كانوا يؤمنون بها إيمانا صحيحا لعلموا أنهم محاسبون على كفرهم وبمعاداتهم رسول الله ﷺ، فيكون منهم عدم الاستجابة لوسوسة الشياطين وما يغرونهم به .

وقوله تعالى «وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون»

يفيد معنى «وليكن منهم قبول وسوسة الشياطين وليرضوا ويحبوا ما زينوه لهم من الباطل والكفر والعداوة لرسول الله ﷺ .

وليكن منهم ارتكاب الأفعال الموحى إليهم بارتكابها من قبل الشياطين، فإن ذلك جميعه لن يضر رسول الله ﷺ شيئا .

ثم إنهم معذبون به شر العذاب .

فالمعنى أنه لن يصيب رسول الله ﷺ منهم ضرر .

وأنهم ملاقون جزاء أفعالهم سوء العذاب .

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾

التفسير:

قوله تعالى «أفغير الله أبتغى حكما» هو قول رسول الله ﷺ للمشركين الذين طلبوا من رسول الله ﷺ أن يجعل بينه وبينهم حكما من أحبار اليهود أو قساوسة النصارى ورهبانهم .

جاء قوله ﷺ فى صيغة استفهام للإنكار .

يفيد أنه ﷺ لا يبتغي غير الله تعالى حكما .

وقوله لهم ﷺ «وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا» .

بمعنى أن الحال هو أنه تعالى الذى أنزل القرآن العظيم مفصلا .

فيكون القول مدللا على أنه غير متصور أن يكون هناك ما يستدعى وجود حكم للفصل فيه بعد أنزل تعالى القـرآن العظيم متضمنا تفصيل كل شىء من أمور الديـن والدنيا، من العقيدة والأحكام والأخبار والأنباء مما هو ـ فى حد ذاته ـ إعجاز يشهد بأنه من عند الله تعالى .

فإذا ما شهد بهذا دل على أن من أبلغ به هو رسول الله ﷺ .

ثم إنه إذا ما كان هنـاك حكم ليفصل فى أمر من الأمور بينه وبين المشركيـن فإنه لا يعدله تعالى حكما .

وقد أنزل القرآن العظيم شاهدا له ﷺ بالنبوة فلا يكون محل لشاهد بعده تعالى.

ثم يقول تعالى لرسوله ﷺ «والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق» .

ذلك أنه لمـا طلب المشركون منه ﷺ أن يقيم بينـه وبينهم حكما يفصل فى مسألـة نبوته بما هو فى التوراة والإنجيل .

فقد ناسـب ذلك أن يعلمه ربه أن الـذين أوتوا التوراة والإنجيـل ـ فى عمومهـم أو العلماء منهم ـ يعلمون أن القـرآن العظيم الذى شك فيه المشركـون هو كتاب الله تعالى أنزلـه بالحق على النبى الحق .

ويفيد المعنى أن التوراة والإنجيـل قد أثبتا نزول القرآن العظيم علـى رسول الله ﷺ وأنهما بشرا به ﷺ رسولا نبيا وذكرا أوصافه ـ على ما سبق بيانه .

وفى ختام الآية يجىء قوله تعالى «فلا تكونن من الممترين» .

نهيا لرسوله ﷺ عن الارتياب أو التردد فـى التيقن فى أن أهل الكتاب أو علماءهم يعلمون أن القرآن العظيم منـزل من ربه جل وعـلا، وذلك مما ورد فى كتبهـم سواء فى هذا مـا أخفى منها، وما لا يزال موجودا بين دفتى كتبهم .

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

أولا : الأســـــماء :

الكلمـــة : فى قوله تعالى «وتمت كلمة ربك» .

قيل إن المراد بها ـ فى معنى الآية ـ هو كلامه تعالى بمعنى القرآن العظيم.

وقيل إن المراد بها هو حجته تعالى، وقيل إنه دينه تعالى.

ثانيا : التفســـير:

بعد أن أثبت تعالى نزول القرآن العظيم منه جل شـأنه وعلم أهل الكتابين به وبكونه منزلا منه تعالى.

فإنه تعالى أثبت تمام القرآن فى كل ما جاء به فما أخبر به هو الصدق .

يشمل ذلك أحكام العقيدة كما يشمل ما تضمن من أخبار السابقين و إعلام بما يكون في قادم الزمان، وما تضمن من المعلومات والعلوم .

وهـو فيما أورد مـن أحكام فـى شأن المعـامـلات والتجريـم والعقاب، والعـلاقات بيـن المجتمعات البشرية هو العدل الكامل .

فيكون إيراد «تمام القرآن» مظهرا أن ما قبله من الكتب قد أعوزها التمام .

فيكون المحقـق أن تمام الدين الـذى به بعث جميع الأنبيـاء كان الإسلام الذى دعـا إليه رسول الله ﷺ، وأن ما سبقه من الكتـب لم تبلغ ـ فى شأن الأحكام ـ التمـام؛ ولهذا جاز عليها النسخ .

ويجىء قوله تعالى «لا مبدل لكلماته» مثبتا هذه الحقيقة .

وهى أنـه بتمام القـرآن العظيم لـم يعد متصـورا أن يحدث نسـخ لحكم مـن أحكامـه أو تعديـل .

فدل على أنه تمام الكمال الذى كمل به الدين .

ودل على أنه ﷺ هو خاتم الرسل والأنبياء .

ثم تختتم الآية بقوله تعالى «وهو السميع العليم» لإفادة معنى أنه تعالى يسمع ما يقال فى القرآن التام الكامل ويعلم بواعث القائلين فيه بظلم .

وأن قولهم لن يؤثر فيما قدر لكتابه الكريم ولدينه كمال الدين.

فيكون فى القول إشارة إلى وجوب عدم الالتفات إلى قول الظالمين .

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾

التفســـــير:

الخطاب فى الآية إلى رسول الله ﷺ ـ فى ظاهره ـ والمراد به غيره .

والقول يبين أن أكثر الناس فى الأرض هم ضالون مضلون .

وأن المؤمنين الذين صح إيمانهم قليلون .

ومعنى قوله تعالى «وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله» .

هو أن الذى يطيع أغلب النـاس الذين هم فى ضلال وكفر أو اختلط إيمانهـم بالكفر فإنه يكون من شأنه أن يضل عن طريق الله تعالى المستقيم .

ويلاحظ أن قوله تعالى هذا جاء من بعـد ذكره تعالى أن القرآن العظيم هو الكتاب الكامل الذى لايتبدل .

وأنه يسمع قول القائلين فيه غير الحق ويعلم بواعثهم .

فيبين من ارتباط قـوله تعالى ـ فى الآية ــ بما سبقه أن الضالين يكونون علـى نقص يقابل

كمال الكتاب وأنهم بنقصهم هذا يضلون غيرهم .

ثم إنه تعالى يثبت أنهم فى شركهم وضلالهم لا يتبعون يقينا بل مجرد ظنون .

ولهذا فإنهم لم يؤمنوا به تعالى ويوحدوا، فأشركوا معه فى العبادة آخرين .

لأن العلم به تعالى غير متأت لهم ولم يحرصوا عليه.

ولو تناولت الذين أشركوا بالله فعبدوا الكواكب لوجدتهم قد عبدوها لأنهم ظنوا أن لها قدرات تتحكم بها فى البشر.

ولو تناولت عبدة الأصنام لوجدتهم قد ظنوا أنها تمثل صالحين لهم عند ربهم حظوة يشفعون بها لعابديهم .

وسبق أن رأينا كيف بنى القائلون بصلب المسيح عليه السلام فكرهم على ظنون لم تؤكدها شهادة ولم يجمع عليها ما دون.

فالقول يثبت أن هؤلاء الضالين ليسوا على شىء من اليقين فيما يعتقدون وذلك فيما بينهم وبين نفوسهم .

ثم إنه تعالى يختم قوله منهم مثبتا عليهم الكذب الذى لا يجزمون فى نفوسهم بصحته «وإن هم إلا يخرصون» .

لأنه لما كان «الخرص» هو القول بالظن ، وكان قولهم ـ فى موضوعه ـ كذب، فإنهم يكونون قائلى الكذب بمجرد الظن وبغير يقين .

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

التفسير:

بعد حديثه تعالى عن الذين يعلمون، وحديثه عن المشركين وأعداء النبيين.

فإنه تعالى أورد فى الآية السابقة إخبارا عن كون المشركين والكافرين أكثر من فى الأرض، وأنهم الضالون المضلون .

ثم إنه تعالى أورد الآية فى عبارة تقريرية تفيد أنه تعالى يميز الضالين سبل الرشاد عن المهتدين .

ويلاحظ فى عبارة الآية أنها فصلت الضلال بأنه الضلال عن سبيل الله تعالى، وذلك إظهارا للاهتمام بخطورة أن يكون الضلال هو عن طريق الله المستقيم .

ولأنه ـ من جهة ثانية ـ قد لا يكون هؤلاء الضالون من الضالين فى طرق العلم.

فقد يكونون أهل علم ومخترعات .

وفى المقابل فإنه تعالى لم يذكر المؤمنين إلا بوصف المهتدين.

وذلك لبيان أن «الهدى» إذا أطلق فإن المراد به يكون هو هدى الله، والهدى إلى طريق الله، وأنه غناء الدنيا والآخرة .

لأن من يهده الله يتقه تعالى، ومن يتق الله يعلمه الله، فيكون له كسب الدنيا وثواب الآخرة .

وقوله تعالى فى الآية تحذير من اتباع الضالين عن سبيله تعالى وطاعتهم ، وتوعد للضالين بسوء المصير .

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ١١٨﴾

التفسير:

بعد أن ذكر تعالى أن إطاعة الكافرين هى ضلال عن سبيله تعالى، وأنه تعالى أعلم بهم .

فإنه تعالى أورد فى الآية أمرا بطاعته فيما أمر به من تحليل أكل ما ذبح وذكر اسم الله عليه،

وما صاده الطير والحيوان المدرب على الصيد إذا ما ذكر اسم الله عليه.

والمفهوم من الأمر هو تعلقه بضلالة من ضلالات الكافرين .

قيل إن المشـركين أنكـروا أنه تعالـى يحل مـا ذبح الإنسـان ويحرم ما أمـات تعالـى من الحيوان والطير.

وأنهم تأثروا ـ فى قولهم هذا ـ برأى المجوس فى فارس الذين كانوا على صلة بهم .

أو بقول لليهود الـذين ابتغوا إضلال المسلميـن فقالوا مثل ذلـك فكان له بعض الأثـر فى نفوس بعض المسلمين .

فكان قوله تعالى «فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين» .

مفيدا معنى أن الإيمان هو الطاعة.

وأنه إذا ما أنزل تعالى حكما بالتحريم أو بالحل وجب على المؤمن أن يسمع ويطيع دون بحث عن علة التحريم أو التحليل .

ومن هذا جاءت القاعدة الشرعية «لا اجتهاد مع النص» .

فإن عرفت علة التحريم أو التحليل فبها ونعمت، وإن لم تعرف كانت الطاعة .

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

التفســـــــير :

بعد أن ذكر تعالـى ـ فى الآية السابقة ـ صـورة من ضلالات الكافرين تتمثـل فى إنكارهم

تحريم أكل ما مات من الحيوان والطير حتف نفسه بدعوى أن الله تعالى هو الذى قتله فيكون أولى أن يباح أكله مما ذبح الإنسان.

فإنه تعالى يتحدث فى الآية عن الوجه الآخر لضلالات الكافرين وهو إنكارهم تحليل أكل بعض أنواع الأنعام التى أحل أكلها إذا ما ذكر اسم الله عليها لدى ذبحها.

فقوله تعالى: «وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه».

وفيه جاءت «ما» للاستفهام الإنكارى. يفيد معنى أنه ليس ثمة سبب يدفع لعدم أكل الحيوان والطير ـ الحلال أكله ـ إذا ما ذكر اسم الله عليه حين ذبحه.

والمراد بالذى ذكر اسم الله عليه هو ما يؤكل منه، أو ما أُحل أكله منه، فيخرج منه الروث والدم.

وقوله تعالى «وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه».

يفيد معنى أنه تعالى قد فصل ما يحرم أكله من الحيوان والطير.

وهو ما قد يكون بقوله تعالى «قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به».

وما قد يكون بقوله تعالى «حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير».

فيكون المستفاد من هذا أن «القاعدة» هى الحل.

وأن التحريم لا يكون إلا بالنص.

وأنه تعالى أورد استثناء على هذه القاعدة مفاده أن حالة الضرورة تبيح ـ بشروطها ـ أكل ما حرم تعالى أكله.

فيكون مفاد القول أنه ببيان ما حرم تعالى أكله لا يعود ثمة سبب لعدم أكل ما حرم تعالى أكله على التفصيل الذى أورده تعالى فى محكم آياته.

وبعد ذلك يورد تعالى ما يفيد معنى أن القائلين بتحريم أكل ما أحل تعالى أكله هم ضالون يتبعون الأهواء لا يستندون إلى علم فيما يحرمون وأنهم يضلون غيرهم بقولهم وفعلهم وذلك بقوله تعالى «وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم» .

وفيه أوضح تعالى أن الذين يحرمون ما أحل تعالى أكلة كثيرون .

وأنهم يضلون غيرهم بهذا متبعين فيه أهواء زائغة لا يساندها علم بالشريعة والأحكام أو علم وضعي يفيد أن في أكلها ضررا بالإنسان .

ثم يجيء قوله تعالى «إن ربك هو أعلم بالمعتدين» .

مفيدا معنى أن الذين يحرمون ما أحل الله هم معتدون تجاوزوا الحق إلى الباطل .

وأنه تعالى عليم بهم مؤاخذهم على فعلهم بالعقاب .

وَذَرُواْ ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ في الآية ـ في بيان معنى الإيمان الحقيقي فيما يتعلق بالانتهاء عما نهى عنه تعالى.

فقوله تعالى «وذروا ظاهر الإثم وباطنه» .

مفاده تجنب ما نهى تعالى عن مقارفته .

فيكون الامتناع عن مقارفته علنا وسرا، أو الامتناع عن مقارفته بالجوارح وعن تمنيه بالقلب.

وذلك لأن الإيمان هو أن يكون العمل موافقا ما كمن فى القلب .

فلا يكون الأمر مثلما كـان عليه فى الجاهلية إذ كان العرب يعتقدون أن الـزنا إذا أعلن كان إثما وإذا ستر لم يكن .

ثم جاء قوله تعالى «إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون» .

مفيدا معنـى المساواة بيـن إظهار مقـارفة المعـاصى وبيـن سترهـا فى استحقـاق العقاب عليهـا .

فيكون القول ذكـرا لنتيجة مخالفة أمـره تعالى بتجنب ارتكـاب المعاصى فى العلـن وفى السر.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾

التفســـــــير:

قوله تعالى ـ فـى الآية ـ ذكرٌ فى تفصيل ما حرم تعالى أكله، وهـو فى شأن ما أُحل أكله إذا ما حدثت فيه التذكية بشروطها ومنها ذكر اسم الله على الذبيحة .

فقوله تعالى «ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه» .

هو نهى عن أكل ما أحل أكله من الطير والحيوان إذا لم يذكر اسم الله عليه عند ذبحه .

وفى هذا الشأن قيل إنه يحرم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه عمدا أو نسيانا .

وقيل ـــ وهو الـراجح ـــ إن المحرم أكله هـو ما لـم يذكر اسـم الله تعالـى عليه عنـد ذبحه عمـــدا .

فأما النسيان فلا يعول عليه فى التحريم لأن الله تعـالى فى قلب المؤمن فيكون مذكورا فى القلب عند الذبح .

ويؤكد هذا الرأى الراجح وصفه تعالى عدم ذكر الله على الذبيحة بالفسق «وإنه لفسق».

ذلك أن ترك التسمية عمدا يكون بمثابة نفى لوجود الله فى القلب فيكون فسقا.

على حيـن لا يكون النسيان فسقـا لأنه لا مؤاخـذة عليه بقولـه ﷺ «رفع عن أمتـى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

ثم يجىء قوله تعالى «وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم» .

مبينا فعل الكافريـن مع المسلمين أوضح تعالى أنهم ولوا أمورهـم إبليس ورهطه فوسوس إليهم اللعين وقبيله أن يجادلوا المسلمين فينكروا عليهـم أكلهم ما ذبحوا وتحريمهم أكل ما أمات الله .

وينكروا عليهم أنهـم يأكلون ما حرموا علـى أنفسهم أكله من أنواع الحيـوان، كما ينكرون عليهم أنهم لا يأكلون ما لم يذكر اسم الله عليه.

ثم تكون منهم مجادلة المسلمين فى هذه الأموربغية إقناعهم بما هم عليه من الضلال .

ثم إنه تعالى أوضح أن من يؤمن للمشركين الذين أنكروا شرعه تعالى واستجاب لأهوائهم وما ذكروا من أسباب وعدل عن حكمه تعالى فى شـأن ما حل أكله وما حرم يعد ـ بطاعته فى الاعتقاد ـ مشركا .

وذلك على ما يبين من قوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «وإن أطعتموهم إنكم لمشركون» .

وفى هذا الشأن يلاحظ أن من يعد مشركا هو الذى أطاع فى الاعتقاد .

أما الذى أطاع فى الفعل وحده دون العقيدة فإنه يعد عاصيا، وليس مشركا .

ولكل عقابه الذى يستحق .

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

التفســـــير:

بعد أن أوضح تعالى حقيقة المشركين وأنهم على ضلال يتبعون أهواءهم ويجادلون المؤمنين محاولين إقناعهم بضلالاتهم .

فإنه تعالى أبرز تمثيلا ـ فى الآية ـ لحال المؤمنين مقارنا بحال المشركين ليكون فيه تنفير عن طاعة المشركين .

فقوله تعالى «أو من كان ميتا فأحييناه» .

جاء متصلا بقوله تعالى «و إن أطعتموهم» .

وفيه جاءت الهمزة مفيدة معنى الإنكار.

ويشير القول إلى أن المؤمنين كانوا من قبل من المشركين .

شبههم تعالى بالأموات لأنهم لا يعلمون ولأنهم يكونون فى ظلام القبور راقدين .

ثم أوضح تعالى أنه قد بعثهم إلى الحياة بأن هداهم إلى الإيمان .

فجعل تعالى الإيمان بعثا إلى الحياة من بعد موت الشرك فى تشبيه بديع .

ثم إنه تعالى أوضح فعل الإيمان ـ من بعد الشرك ـ مع الذين آمنوا مقارنا بحال من ظل على الشرك بقوله تعالى «وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها» .

فأوضح تعالى أن الـذى آمن كان الإيمان له بمثابة النور العظيم الذى أنـارما حوله فمشى به آمنا بين الناس عارفا طريقه .

ثم إنه تعالى ذكر حال من بقي على الشرك ـ على التشبيه ـ فهو فى ظلمات الشرك والظلم والجهل لم يقدرله أن يخرج منها، فهو لا يهتدى إلى طريق وإنما يتخبط فى الظلمات .

ويكون المستفاد من الاستفهام الإنكارى هو عدم المماثلـة بين حال من هو سائرفى النور وحال الذى يتخبط فى الظلمات مما لا يقبل معه عقـل أن يهتدى من هو فى النوربمن هو فى الظلمات .

فيكون المعنى المراد إيصاله هو عدم جواز اتباع المؤمنين عقائد المشركين وأفعالهم .

ثم يقول تعالى «كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون» .

وهو بيان لجهل الكافرين بما فيه مصلحتهم .

إذ يفيـد القول أنـه علـى مثـل ما سبـق ذكـره من أن الشيـاطيـن يوحـون إلـى الكـافريـن ليجادلوكم.

فإن الشيـاطين قد زينـوا لهم بوسـوستهم أعمـالهم السيئة فـاقتنعوا بها واعتقـدوا صحتها وحاولوا جذبكم إليها أيها المؤمنون .

فيكون ختام الآية مفيدا معنى وجوب عدم طاعة الكافرين .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾

أولا : الأســـــــماء :

الأكابـــــــر : فى قـوله تعالى «أكـابر مجرميها»، جمـع، مفرده «الأكبر» وهو الـرئيس أو

العظيم .

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ ذكر لكيفية حدوث فتن الناس عن الحق.

فيذكر تعالى أنه شاء وأوجد بإذنه تعالـى فى جميع القرى والأمصار ـ ومنها مكة ـ مجرمين وكبراء لهم .

أو أنه تعالى أوجد فى كل قرية كبراء لها يكون منهم أو من بعضهم فعل الجريمة .

والجريمة المقصودة هى «المكـر فيها» وهو اعتناق الباطل والعمل به وتـزيينه فى النفوس والمجادلة به ليدحضوا به الحق .

فيكون القول مقسـرا فعل كبراء مكة الذين كـانوا يجلسون يصدون الناس بأحـاديثهم عن الإيمـان لرسـول الله ﷺ، والذين كانوا يجادلـون المسلمين فيما حرم تعالى عليهـم وما أحله لهم .

ثم يجىء قوله تعـالى «وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون» متضمنـا وعدا لرسول الله ﷺ بعدم تـأثرهم بمكر هـؤلاء المجرمين، ووعيدا لأكـابر المجرمين بـأن عائد مكرهم هـو عليهم وحدهم، ووصفا لهم بالجهل عن الحقيقة وهى أنهم المضرورون بمكرهم .

وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

أولا : الأســــــماء :

الصَّغـــــار: فى قـوله تعـالى «سيصيـب الذيـن أجرمـوا صغار عنـد الله» ، هو الـذل، والضيم، والهوان.

ثانيا : التفســــير:

قوله تعـالى ـ فى الآية ـ عـود إلى ذكر أحوال كبراء مجـرمى مكة من الكافريـن المشركين أصروا على الكفر الـذى هم فيه ذاكرين ـ كلما أنـزل تعالى آية فى القرآن العظيـم أو أتى بآية تدل على أنـه ﷺ نبى مرسل منه تعـالى ـ أنهم لن يـؤمنوا إلا إذا ما نزلت عليهـم هم أنفسهم الآيات التى أنزل مثلها علـى أنبياء الله ورسله، فينزلُ عليهم جبريل عليه السـلام بالوحى، أو يخاطبهم، أو ينزل عليهم آيات ومعجزات مثلما أنزل الله على رسله من قبل .

ومنهم من ادعى أنه أولـى أن ينزل عليه الوحى من دونه ﷺ لكونه أكثـر منه مالا وولدا مثل الوليد بن المغيرة، ومنهم أبو جهل الذى قال «لـن نؤمن لمحمد حتى ينزل علينا الوحى مثلما ينزل عليه ».

ويجىء قوله تعالى «الله أعلم حيث يجعل رسالته .

إخبارا عن أن تشـريفه أحدا من الخلـق بشرف الاصطفاء بالنبـوة إنما يكون بعلمه تعـالى بمن شـرف بذاته فاستحـق هذا الشرف، وبمن هـو أقدر على تحمل عـبء الرسالة وأمـانتها والتبليغ بها .

والقول يفيد معنـى جهل طالبى نزول الآيات عليهـم وكبرهم الذين لا يستحقـون به نعمة الإيمان، وليس شرف الاصطفاء.

ثم يجىء قـوله تعالى : «سيصيب الـذين أجرموا صغـار عند الله وعذاب شديد بمـا كانوا يمكرون ».

مفيدا عدة معان.

فهو يفيد أن قول هؤلاء المذكور فى الآية هو جرم يوجب تعذيبهم به .

وأنه يعد مكرا آخر مكروه بأهل قريتهم فوق مكرهم السابق ذكره .

وأنه تعالى معـاقبهم بقولهم هذا بإذلالهـم و إهانتهم فى الدنيا والأخـرة. يكون لهم زيادة على العذاب الشديد بجميع مكرهم فى الآخرة.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ١٢٥﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ استئناف للمقارنة بين أهل الهدى وأهل الضلال من المشركين .

فقوله تعالى «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام».

يفيد أن الهدى يكون إلى الإسـلام كمال الدين ـ على ما سبق ذكـره ـ وأنه لايكون إلا لمن شاء تعالى له أن يهدى .

والمعنى أنه الذى علم تعالى منذ الأزل أنه يختار الإيمان فوفقه إليه .

وأن الهدى إنما يكـون بشرح الصدر، وهو بمعنـى إفساحه ـ كنـاية ـ عن تهيئتـه لأن يتقبل الإيمان يدخل فيه فيسعه، فيكون الإيمان هو إيمان القلب .

وقوله تعالى «ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء» .

يفيد أن الضال هو الذى لم يؤمن بالإسلام فهو على ضلال.

وأنه تعالى هو الذى يضل الضالين .

والمعنى ـ على ما سبق القول ـ أنه علم منذ الأزل أنهم يختارون الضلال فلم يحل بينهم وبينه.

ويفيد أيضا أنه تعالى يضيق صدر من شاء له الكفر.

بمعنى أن يضيق صدره فلا يفهم من الآيات ما يجعله بها يؤمن والذى يضيقها هو امتلاؤها بالإثم لا يكون معه مكان لاستيعاب الإيمان.

وتشبيهه تعالى ضيق صدر الضال بحال من يصعد فى السماء.

قيل إن المراد به معاناة المشقة المماثلة لمشقة من يصعد إلى السماء.

والذى نراه ـ والله أعلم ـ أنه تشبيه بحال من يصعد فى طبقات الجو العليا حيث يقل الأكسوجين فتكون المعاناة وضيق الصدر الذى يشعر معه المرء بعدم القدرة على التنفس.

ثم يجىء قوله تعالى «كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون».

بيانا لأنه على مثل النحو الذى سبق ذكره من كيفية اعتناق الكافرين الضلال و إصرارهم عليه يكون منه إنزال النتن والعفن على الذين لا يؤمنون.

أريد بالرجس أو النتن فعالهم المتسمة بالحطة والدناءة لعدم خشيتهم حساب الآخرة.

وجاءت «على» لتدل على أنه يصب عليهم من فوقهم فيغطيهم.

فدل على أن المشركين سادرون فى فعل المعاصى الدنيئة.

وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

التفســـــير:

بعد ذكره تعالى أن المهدى إلى الحق هو الذى شرح تعالى صدره للإسلام، وكان الإسلام هو ما جاء به القرآن العظيم الذى لم يؤمن به المشركون وطلبوا الآيات على صحته.

جاء قوله تعالى «وهذا صراط ربك مستقيما» .

فبين تعالى أن هذا الإسلام الذى دعا إليه رسول الله ﷺ بالقرآن الذى أنزل إليه من ربه هو الطريق المستقيم الموصل إلى رضائه تعالى وإلى جنته .

ويبين من نسبة الصراط إلى ربه ﷺ بما يتضمن لفظ «الرب» مع معنى التربية والعناية، أن الهدى للإسلام يكون منه تعالى بصفته الراعى مصالح الناس ووليهم.

ويبين من وصف الإسلام الذى جاء به رسول الله ﷺ بأنه صراطه تعالى المستقيم أن غيره مما يختار الناس من الأديان والملل لا يعد طريقا مستقيما موصلا إلى رضائه تعالى وإلى جنته .

ثم يذكر تعالى أنه قد أورد فى القرآن العظيم وأظهر فى آيات الكون ما يذكر الناس بالإيمان الذى عاهدوا الله تعالى عليه بفطرتهم التى جبلوا عليها، وأنه لن يذكر ويؤمن إلا الذين شاء لهم تعالى أن يذكروا فيؤمنوا .

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ١٢٧

أولا : الأســـماء :

دار الســـلام : المراد بها ـ فى معنى الآية ـ هو الجنة .

وصفها تعالى بأنها دار لأنه فيها يكون قرار المؤمنين ومستقرهم.

وبأنها دار السلام، لأن من يدخلها يأمن الخوف ويأمن الفناء .

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ هو فى شأن الذين تذكروا فاهتدوا إلى صراط ربهم المستقيم .

ذكر تعالى أنه تكون لهم عنده الجنة .

وجاء ذكره ذاته العليا بصفة الرب لبيان أن ذلك كان منه تعالى بصفته الرب الراعى

المقدر المصالح.

ولذلك قال تعالى إنه ربهم .

ثم أكد هذا بقوله «وهو وليهم بما كانوا يعملون» .

بمعنى أنه تعالى هو ولى هؤلاء الذين اهتدوا إلى صراط ربهم المستقيم، وأنه تولى أمورهم ومصالحهم على هذا النحو بعملهم الصالح الذى قرنوا به إيمانهم فاستحقوا عنايته تعالى بهم ورعايته.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

أولا : الأســــــماء :

المعشـــــــر: هو العشيرة، وهى - فى الأصل - من المجتمعات البشرية القديمة أصغرها، كانت تتكون من نحو عشرة أفراد، ثم أصبحت تطلق على الجماعة من القوم .

وهذا هو المراد باللفظ فى معنى الآية.

ثانيا : التفســــــير:

قوله تعالى - فى الآية - هو ذكر لما يكون منه تعالى مع شياطين الجن والإنس يوم القيامـة.

فقوله تعالى «ويوم يحشرهم جميعا» معناه هو واذكر يوم يحشرهم جميعا .

والمحشورون هم الثقلان أى الجن والإنس.

والمراد بالجن هم شرارهم الذين خاطبهم تعالى :

والمراد أنه تعالى يخاطبهم يوم القيامة ـ بقوله «يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس» .

بمعنى أنهم أكثروا من إغواء الإنس .

أو أنهم قد اتخذوا منهم أعوانا كثيرين .

فيكون قولـه تعالى توبيخا لهـم على إضلالهم الإنـس واتخاذهم أعوانا لهـم فى إضلال غيرهم.

ثم إنه تعالى يذكر قول الذين تولـوهم من الإنس «ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا» .

فهم يخاطبون الله تعالى مسترحمين إياه بقولهم «ربنا» .

ثم يقرون بأنهـم استمتعوا فى الدنيا بما زينـه لهم أولياؤهم من الجن مـن أنواع الشهوات والمتع.

كما استمتع أولياؤهم من الجن بهم باتخاذهم أعوانا يساعدونهم فى إضلالهم الخلق.

ثم يعترفون أنه كان مـن بعد ذلك بلوغهم يوم القيامة الذى وعدوا بـه يكون فى الآجل وقد حضر فحضروه .

ثم يذكر تعالى قوله معهم وهو «النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله» .

فهو تعالى يبلغ الإنس القائلين أنه جعل لهم ولشياطين الجن الذين اتخذوهم أولياء النار لهم منزلا ومقاما يبقون فيها للأبد إلا ما شاء الله ألا يدخلها أو ألا يخلد فيها .

فيقبل المعنى أنه قـد يستثنى ممن استعان بالجن وأعـانهم من علم أنه يقلع عـن هذا فى الدنيا ويؤمن فلا يدخله النار.

ويقبل أنه تعالى يستثنى من الخلود فى النار بعض عصاة الإنس الذين استجابوا للشياطين فى الدنيا فيخرجهم منها حين يشاء تعالى .

ويبين من قوله تعالى «إلا ما شاء الله» جواز استعمال «ما» للعاقل، وإن ندر ذلك.

ثم يجىء قوله تعالى «إن ربك حكيم عليم» .

مفيدا أنه تعالى يكون منه التعذيب والاستثناء منه بوافر حكمته وبعلمه بأحوال الجن والإنس .

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

التفســــير:

مفاد قوله تعالى ـ فى الآية ـ أنه على مثل هذا النحو الذى ورد ذكره فى شأن تولى شياطين الجن أعوانهم من الإنس واتخاذ الكافرين والعصاة شياطين الجن أولياء لهم.

فإنه تعالى يولى الظالمين من الإنس آخرين من جنسهم .

ثم إنه بين تعالى أن توليته الظالمين من الإنس آخرين إنما يكون بسبب ارتكابهم المعاصى، فكأنه جزاء لهم .

وقد استدل بالآية على أنه إذا كان الرعية ظالمين فإنه تعالى يولى عليهم حاكما ظالما .

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

التفســـــير:

يذكـر تعالى ـ فى الآية ـ ما يكون منـه تعالـى والجن والإنس الـذين ضلوا وأضلـوا ولم يهتـدوا .

فيذكر تعالى أنه يـوبخ هؤلاء وهؤلاء على ما فرطوا فى أنفسهم وعلـى ضلالهم فيقول لهم «يا معشر الجن والإنـس ألم يأتكم رسل منكم يقصـون عليكم آياتى وينذرونكم لقـاء يومكم هذا» .

ومن القول يبيـن أنه تعالى يرسـل إلى الجن ويرسـل إلى الإنس رسلا يتلون عليهـم آياته تعالى ويدعـونهم إلى الإيمان والعمل الصالـح وينهونهم عن المعاصى، وأن كـلا من الجن والإنس مكلفون مسئولون فى يوم الدين .

والمعلوم أن الرسل المخبر عنهم فى القرآن إنما كانوا من الإنس جميعهم .

والمراد بهذا هو الرسل الأنبياء...

فلزم أن يكون المراد بالرسل الذى بشروا الجن وأنذروهم هو أحد فرضين .

أولهما : أن يكونوا من البشر وأن تكون دعوتهم للعالمين .

بمعنى أنهم دعوا إلى الإيمان كلا من الجن والإنس .

وقد بعث ﷺ للعالمين كما كان رحمة للعالمين .

وثانيهما : أن يكون الرسل من الجن، لكنهم رسـل الرسل الأنبياء من البشر، يستمعون إلى أنبياء الله ورسله وهـم يتلون آيات الله ويستمعون إلى دعـوتهم إلى الإيمان، ثمَّ يتـوجهون إلى أقوامهم من الجن فينقلون إليهم ما سمعوا من آياته تعالى وما سمعوا من دعوته ، فيبشرون بما سمعوا وينذرون .

وأنه يكون ممـا ينذرون به لقاء حساب الله تعـالى فى يوم الحساب حيـن يكون العذاب أو

الثواب.

ثم إنه تعالىٰ يذكر رد الجن والإنس على سؤاله تعالى الوارد فى معنى التقريع والتوبيخ، وهو قولهم «شهدنا على أنفسنا».

فالشهادة منهم تتضمن إقرارا بإرساله تعالى الرسل إليهم يتلون عليهم آياته وينذرونهم لقاء حسابهم فى يوم الدين.

وتتضمن شهادة منهم بأنهم عصوا الرسل ولم يؤمنوا لهم وبما دعوا إليه على الوجه الصحيح.

وذلك على ما يبين من «على» فى قوله تعالى مخبرا عن قولهم «شهدنا على أنفسنا».

بمعنى أن الشهادة بالإدانة فهى عليهم وليست لهم.

ثم يذكر تعالى أمرهم فى جملة تقريرية تعالى شأنه هو قائلها «وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين».

فيذكر تعالى أن الحياة الدنيا قد غرتهم فاشتروها وسعوا إلى لذاتها فعملوا لها وابتعدوا عن حظيرة الإيمان فكان اغترارهم بالدنيا سببا لما استحقوا من العذاب.

ثم يذكر تعالى أنه يكون منهم فى الآخرة أن يقروا على أنفسهم بأنهم كانوا فى الدنيا كافرين.

فيكون قول وشهدوا على أنفسهم هو قوله تعالى، على حين كان قول «شهدنا على أنفسنا» هو قول عصاة الجن والإنس، فلا يكون ثمة تكرار.

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

التفســـــير:

قولـه تعالى ــ فى الآية ــ مرتبط بما سبـق بيانه مـن أنه يبعث الـرسل إلى الجـن والإنس مبشرين ومنذرين .

فالمعنى المراد من الآية هو أنه تعالى لا يعذب قـوما من الأقوام أو أهل قرية من القرى من الجن والإنس إلا من بعد إرسال الرسل إليهم و إبلاغهم دعوته تعالى.

فهو تحقيق لقوله تعالى «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا».

ومفاد النص المباشر أو معناه المستمد من عبارته أنه تعالى لا يهلك بالعذاب.

أو أنه تعالى لا يعذب قوما أو أهل قرية على ظلم قارفوه أو شرك أو معصية وهم غافلون عن معرفة حقيقة الدين .

وأنه تعالى الواحد الفرد الصمد المستحق العبادة وحده.

وأن هناك طاعات أمر تعالى بها ونواهىَ يتعين التزامها .

فإذا ما انتهت غفلتهم بمـا يبلغه إليهم الرسل ويدعونهم إليه وجـب حسابهم وكان هلاك الضالين بالعذاب فى الدنيا والآخرة، أو فى الآخرة وحدها .

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٣٢﴾

التفســـــير:

بعد أن ذكر تعالى أن الجن والإنس مكلفون وأنهم يحاسبون بأعمالهم يوم القيامة .

ذكر تعـالى أنـه يكون لكـل فرد مـن جنس الجـن ومن جنـس الإنس درجتـه ومرتبتـه بين المسيئين أو بين المصلحين، يعطاها بحسب عمله.

ولهذا جاء قوله تعالـى «وما ربك بغافل عما يعملون» ، مثبتا أنه تعالـى يعلم كل ما يصدر

من كل فرد من أفراد جنس الجن وأفراد جنس الإنس .

وأنـه تعالـى يجعل المسيئيـن منهم درجـات بعضها أسفـل بعض، ويجعـل الصالحيـن درجات بعضها فـوق بعض، أساس ذلك جميعـه هو ما عمله كـل منهم من عمل فـى حياته الدنيا .

وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾

التفســـــــير:

جاء قوله تعالى ـ فى الآية ـ من بعد ذكره أنه تعالى يبعث الرسل إلى الجن والإنس ليعرفوه تعالى ويعبدوه ويوحدوه، وأنه تعالى يهلك العصاة منهم بالعذاب.

فذكر تعالى أنه غني عن عبادة الخلق إياه، «وربك الغنى» .

وفيه جاء ذكره تعالى بأنه رب رسول الله ﷺ .

وهو أمر يبيـن منه أنه على حين أنـه يرعى العباد بوصفـه ربهم، فهو تعالى فـى غنى عنهم وعن عبادتهم إياه.

كما يبين منه أنه تعالى يشرف رسوله ﷺ بذكره تعالى أنه ربه .

ثم يكمـل المعنى بقولـه تعالـى «ذو الرحمة» ومـن هذا يبين أن تكليفـه العباد مـن الجن والإنس بعبادته وتوحيده والعمل بالطاعات وتجنب المعاصى هو من أبواب رحمته.

فهو فتح لسبيل يكون به تنعمهم فى الآخرة والزيادة فيه.

ثم يكمل بيان غنائه تعالى عن الخلق وعن عبادتهم إياه بقوله تعالى «إن يشأ يذهبكم» .

فكونـه تعالى يذهـب الخلق بمعنى أنه يهلكهـم فلا يعود لهـم وجود مفاده أنه تعـالى لا حاجة به إليهم .

ثم يذكر تعالى بعض مظاهر قدرته فيما إذا أراد إذهابهم وهو أن يأتى بغيرهم من الخلق .

وربما جاءت «مـا» فى قوله تعـالى «ما يشاء» لبيان أن مـن يستحق الإهلاك هو غيـر عاقل شبيه بالجمادات والحيوان .

ثم إنـه تعالى يبين أن استبـداله تعالـى بهم آخرين هـو أمر سهل عليـه بقوله تعالـى «كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين» .

مبينا أنهم لم يكن لهم وجود فى الدنيا فجعل تعالى لهم وجودا بعد أن جاءوا من ذرية من كان مـع نوح عليه السلام فى الفلـك من الصالحيـن الذين كـانت صفـاتهم تغايـر صفات العصاة .

فيكون المـراد إيضاحه أنه تعـالى قادر علـى أن يأتى بـآخرين بدلا منهـم يكونون مـؤمنين طائعين .

إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾

التفســـــير:

قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ لجميـع المكلفين، أظهر فيـه تعالى أن كل مـا وعد به المـؤمنين الصالحين من حسن الثـواب ومن جعلهم درجات فى الجنة بعضها فوق بعـض، وما توعد به الكافرين والعصاة من العذاب وجعلهم فى دركات بعضها أسفل بعض فى النار هو الحق آت بأمره تعالى وكائن .

ثم يبين تعالى أنه لا يعجزه منهم أحد فلا يدركه .

والمراد أنه لا يعجزه أحد من مستحقى العذاب.

فهو تعالى مدرك كل كافر وكل عاص .

فيكون القول توعدا للكافرين وترهيبا لهم .

قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

أولا : الأســــــماء :

المكـــــانة : فى قوله تعالى «اعملوا على مكانتكم» مصدر «مكن ـ يمكن» .

والمراد بها ـ فى معنى الآية ـ غاية ما فى الإمكان والاستطاعة .

ثانيا : التفســــــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ أمر منه تعالى إلى رسوله ﷺ أن يواجه المشركين وأن يقول لهم «يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون» .

ومعنى قوله «اعملوا على مكانتكم إنى عامل» هو فليكن منكم عمل أقصى ما فى إمكانكم عمله ضدى من الأعمال، و إنى سأعمل ضدكم بأقصى ما فى قدرتى واستطاعتى.

ويبين من ورود قوله ﷺ فى صيغة الأمر فى توجيهه إلى المشركين ومن معنى العبارة مدى ثقته ﷺ فى انتصاره عليهم وغلبه إياهم .

وهذا على ما تظهره صيغة التحدى التى تتضمنها عبارة القول .

ثم يجىء قوله ﷺ لهم «فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار» تأكيدا لإيمانه تعالى أنه

وصحبه ومن آمن به على الحق .

وأنهم مجازون بهذا ثوابه تعالى وجنته فى الآخرة.

وقوله ﷺ للمشركين «إنه لا يفلح الظالمون» .

هو إثبات لكونهم كفارا ظالمين، وأنه ليس لهم فلاح فى الدنيا والآخرة .

فيكون القول مثبتا ثقته ﷺ فى انتصاره عليهم فى الـدنيا وإخبارا لهم بسوء مصيرهم الذي يلقون فى الآخرة .

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

التفســـــــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى فعال مشركى مكة .

فذكر تعالى أنهم يخصصون مما ينشىء تعـالى ويبدع من ثمار الأرض جزءا يقولون إنه لله تعالى، يكون منه الإنفاق على الضيوف أو على ضيوف بيت الله .

ثم يخصصون جزءا آخر يجعلونه لأصنامهم.

كذلـك فإنهـم يخصصون مـن الأنعام جزءا بمقـولة أنـه لإطعام الضيـوف يدعـون أنه لله تعالى.

ويخصصون جزءا آخر لأصنامهم.

وقوله تعالى «فقالوا هذا لله بزعمهم» .

يفيد أنهم كانوا يزعمون ذلك على خلاف الحقيقة، فهم لم يقصدوا التقرب به إليه تعالى.

كما أنه تعالى لم يقبله منهم لأنهم لم يصرفوه في أوجه الخير التى دعا إليها تعالى.

ثم إنه تعالى يبين كذب زعمهم بقوله تعالى «فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم،» فبين تعالى أن الجزء الذى كانوا يخصصونه من ثمار الأرض ومن الأنعام له تعالى لم يكن يصرف فى أوجهه ، فضلا عن أنه كان إذا سقط منه شىء جعلوه لأصنامهم.

أما الجزء الذى كانوا يخصصونه إلى أصنامهم فلم يكن يؤخذ منه شىء ليصرف فى وجه آخر.

ثم إنه كان إذا سقط منه شىء ردوه إلى الصنم بدعوى أنه فقير.

فهذا معنى أن ما كان لشركائهم ـ والمراد بهم أصنامهم ـ لم يكن يصل إلى الله .

أما ما كان مخصصا لله فإنه كان ينال منه أصنامهم .

ثم إنه تعالى ذم فعلهم هذا «ساء ما يحكمون» .

وفيه جاءت «ساء» بمعنى بئس .

وعملهم المذموم هو إيثارهم الأصنام التى لا تنفع ولا تضر على خالق الكون القادر على كل شىء، وإنفاقهم على الجمادات وعدم إنفاقهم على ضيوف الله أو فى أوجه الخير.

فساء تقديرهم للأمور وحكمهم عليها .

وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ ذكر لفعل من فعال السوء التى كان المشركون يقارفونها.

جاء قـوله تعالـى مبينا أنها كـانت منهم كما كـان قسمة الثمار والأنعـام بينه تعالـى وبين الأصنـام و إعطاء الأصنـام من النصيـب المخصـص له تعـالـى وعدم إعطـاء الضيفان مـن النصيب المخصص للأصنام .

والفعل المذموم الذى كان يأتيه المشركون هو قتل الأبناء .

فقد كانوا يقتلون البنات لأسباب منها أن منهم من زعم أن الملائكة هم بنات الله فقالوا إنه تعالى هو الأولى بهن .

فكانوا يقتلونهن ليردوهن إليه تعالى بزعمهم .

ومنها قتلهن خشية إملاق .

ومنها حادثة وقعت حين أغار النعمان بن المنـذر على إحدى القبائل وسبى نساءها وفيهن ابنة قيس بن عاصم .

ثم إنـه تم الصلح بينه وبينهـم فأعاد إليهم السبـايا فرفضت ابنـة قيس الرجوع إلـى أهلها وفضلت البقاء مع من سباها .

فحلف قيس أن يقتل كل بنت تولد له .

ثم إن كثيرا من العرب قلدوه وفعلوا فعله .

كذلك فإنهم كانوا يقتلون البنين على ما جرت به عادة لهم وهى أن الرجل منهم كان يقول إنه إن ولد له عشرة أبناء ذكور فإنه يذبح أحدهم.

وجاء قوله تعالى مبينا أن قتل الأولاد هذا هو ما زينه لكثير من المشركين شـــــركاؤهم من شياطيـن الجن بما يوسـوسون به إليهم فيقنعـوهم به، وهـو ما زينه لهم ســـدنة الأصنـــام

وكهنتها الـذين كانوا يقنعـونهم أن هذا الفعل هـو تقدمة لله تعالـى يرضى عنه ويقبلـه ويثيب عليه.

وقد اعتبرهـم نص الآية شركاء للمشـركين الذين استجـابوا لهم فقتلوا أبناءهـم فى الفعل وفى إثمه .

ثم إنه تعالى يذكر علة تزيين الشركاء للكافرين قتل أبنائهم بقوله تعالى «ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم» .

بمعنى أنهـم يوحون إليهم بهـذا ويزينونه لهـم ليهلكوهم، لأن فـى إهلاك الذرية إهـلاكا لصاحبها، فنفس الابن هى بعض نفس الأب.

كما أنهم يوحون إليهم بهذا ويزينونه لهم ليلبسوا عليهم دينهم .

بمعنى أنهم يفعلون بهم هذا ليخلطوا عليهم الصحيح مـن ملة إبراهيم عليه السلام ـ التى دعا إليها إسماعيـل عليه السلام فى جرهم بمكة ومـا جاورها ـ بالباطـل والزائف من العقائد والأوهام .

ويجيء قـوله تعالـى «ولو شاء الله مـا فعلوه» إثباتـا لأن كل ما يحـدث إنما يحدث بـإذنه تعالى .

فلو كان تعالى قد أراد منهم غير هذا لكان ما أراد تعالى .

ثم يجيء ختام الآية قوله تعالى «فذرهم وما يفترون» .

إعلاما له صلى الله عليه وسلم بانعدام قيمة مـا يفترون من الكذب عليه تعالى وحضا على عدم الاهتمام بأمرهم، جاء في صيغة الأمر.

والمراد به بث الثقة فى نفسه صلى الله عليه وسلم أنـه لن يؤثر ما يفترون من كذب على ما قدر تعالى لدينه من النصر والانتشار. فضلا عن تضمنه معنى الوعيد للمشركين .

وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣٨

أولا : الأســـــماء :

الحجـــر : فى قوله تعالى «هذه أنعام وحرث حجر» هو الضيق والإثم، والمراد به ـ فى معنى الآية ـ هو الحرام بمعنى ـ المنع ـ أو الممنوع .

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ استئناف لذكر بعض فعال المشركين الدالة على أنهم اهتموا بأصنامهم التى زعموا أنها تقربهم إلى الله زلفى بأكثر من اهتمامهم به تعالى الذى ادعوا أنهم يؤمنون به ثم افتروا عليه الكذب.

فيذكر تعالى أنهم خصصوا من الأنعام ومن نتاج الأرض جزءا حكموا فيه ألا يأكل منه إلا خدام الأصنام الذين أرادوا أن يأكلوه «وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء» فالمراد بالذين شاءوا أن يأكلوا منها هم خدام الأصنام.

ثم إنه تعالى بين أن تخصيص جزء من المطعومات لخدام الأصنام ليس من الشرع وليس من الحق ـ وإن قالوا بهذا ـ بقوله تعالى «بزعمهم» ، فأثبت كذب قولهم .

ثم ذكر تعالى أنهم كانوا يحرمون ركوب بعض الأنعام ـ وهى السائبة ـ لكونها لأصنامهم، وقيل إن المراد بها هو الوصيلة والبحيرة والحام. وذكر تعالى أيضا أنهم كانوا إذا ذبحوا لأصنامهم أنعاما لا يذكرون اسمه تعالى عليها، وأنهم كانوا يقرنون فعلهم هذا بافتراء الكذب عليه سبحانه وتعالى بادعائهم أنه تعالى أمرهم بهذا «وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه».

ثم تختتم الآية بقوله تعالى «سيجزيهم بما كانوا يفترون» إعلاما بحتمية تعذيبهم بما افتروا

على الله الكذب فى أعمالهم المعاقب عليها بذاتها ، وجاء إبهام ماهية الجزاء للتهويل وبيان مدى خطورته ـ المستفاد من عدم التعريف به .

وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

التفســـــير:

لا يزال القول فى شأن فعـال المشركين وافترائهم الكذب عليه تعالى، فيـذكر تعالى أنهم كانوا يقررون فى شـأن الأجنة التى هى فى بطون البحائر والسوائب أن تكـون إذا ما ولدت حية طعاما للذكور منهم دون الإناث، فهى تحرم عليهن . «وقـالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحـرم على أزواجنا»، فيكون المراد بأزواجهـم ـ فى نص الآية ـ هـو جنس أزواجهم أى الإناث.

ويذكر تعالى أنهم كانوا يقررون أنه إذا مـا خرجت الأجنة من بطون البحائر والسوائب ميتة اشترك فى أكلها الذكور والإناث «و إن يكن ميتة فهم فيه شركاء».

ثم يذكـر تعالى ما يفيد أنهـم كانوا يفترون عليه تعالـى الكذب فى هذا بمعنى أنهـم كانوا يذكـرون أن هذه الفعال هـى وصف لكلامـه تعالى، ويثبـت أنه تعالـى مجازيهم بهـذا سوء العذاب «سيجزيهم وصفهم» .

ثم يجىء قـوله تعالى «إنـه حكيم عليم» بمثابـة تعليل لما توعـد به تعالى المشـركين من عذاب جزاء على وصفهم الكذب، فهو تعالى العليم بما صدر منهم يجازيهم به كما اقتضت حكمته.

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

التفســــير:

بعد أن ذكر تعالى فعال المشركين السيئة التى أوعـز بها إليهم شركاؤهم من شياطين الجن وشرار الإنس ثم نسبـوا الأمر بها إليه تعالى افتراء عليـه تعالى الكذب، فإنه تعـالى أوضح فى الآية عـاقبة أفعالهـم ذاكرا سبحانـه وتعالى منهـا فعلين بقولـه تعالى «قـد خسر الذيـن قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله»، فأثبت تعالى أنهم قد خسروا فى الدنيا أولادهم الذيـن قتلوهم بسفاهتهم وغياب عقولهم جاهليـن أين تكون مصلحتهم، غير عالمين أنه تعالى هـو الرزاق ـ إن كانوا يقتلونهم خشية إملاق ـ وأثبـت تعالى أنهم قد خسروا فى الدنيـا ما حرموا علـى أنفسهم من الأنعام مفتـرين على الله الكذب بـأنه تعالى أمـر بهذا، ويبين من ذكره تعالى هذين الفعلين مدى سفاهتهم وافترائهم الكذب وذلك لتناقض الفعلين أحدهما مع الآخر فى العمل والدافع إليه، فقد كان قتل الأبناء ـ لدى البعض خشية الفقر، ثم كان منهم تحريم أكل الأنعـام على أنفسهم مع فقرهم، وفى ذلك من التناقـض مافيه، ثم إنه كان منهم الـزعم بأن الله أمر بهذا، وهـو تعالى لا يأمـر إلا بما فيه مصلحة العباد، وفـى هذا من التناقض ما فيه .

ثم إن القول يثبت أن خسارتهـم بفقدهم أبناءهم وأنعامهم لن تعوض بمثـوبة منه تعالى، بل يكون بها عقابهم فى الآخرة؛ فتكون بهم خســارة أخرى فى الآخرة ولهذا جاء قوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «قد ضلوا وما كانوا مهتديـن» مظهرا أنهم كانوا ضالين غير مهتدين، والمعنى أنهم معاقبون على ضلالهم وعدم اهتدائهم بالحق إلى الحق فى الآخرة .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾

أولا : الأســـــــــماء :

١ ــ **المعــــروش** : فى قـوله تعالـى «معروشات وغيـر معروشات» هـو كل ما حمـل على عريش ـ وهو ما يصنع على هيئة السقف ليستقـر فوقه النبات ـ ومنه العنب أو الكرم. ونرى أنه يدخـل فيه المتسلـق من النبات مثـل اللبلاب واللوف، والنبـات المسمى «الفضـة البيضاء» وغيرها من المتسلقات التى تمتلىء بها الغابات .

٢ ـ **غير المعروش** : هو ما لا يحتاج إلى عريش يحمله من النبات، يدخل فى هذا ما يستند إلى سـوقه من أنواع الشجـر والشجيرات، وما يمتـد زاحفا على الأرض مثل البطيـخ والشمام وفصيلة القرعيات .

٣ ـ **الأُكُل** : فى قولـه تعالى «مختلفا أكله» هـو ما يؤكل، والمـراد به ـ فى معنى الآيـة ـ ما يؤكل من ثمار النبات .

ثانيا : التفســـــــير:

قوله تعالـى ـ فى الآية ـ عود إلـى إقامة الدليل على كـونه تعالى الخالق الـواحد الذى لا شريك له، المستحق وحده العبادة، وتمهيد لما سيأتى ذكره فى شأن أحوال الأنعام .

فقوله تعالى «وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابهـا وغير متشابه» هو تذكير بأنه تعالى وحده خـالق كل شىء ومن خلقه أنواع النبـاتات التى تكون منهـا الغابات والـواحات والبساتيـن، يكون منها ما يستلقـى على عريش يحمله مثل الكرم ويكون منه ما لا يحتاج إلى عريش يحمله مما يستوى على سوقه أو يزحف على الأرض .

ثم إنه تعالـى خص بعض أنواع النبات بالـذكر بعد ذكره على العموم فـذكر أنواع النخيل والزرع الذى يزرع باستخدام البذور أو الشتلات أو العقل، وأثبت تعالى أن ثماره تكون مختلفة بعضها عن البعـض فى الشكل والهيئة والطعم وكيفيـة الاستفادة بها عند أكلها. ومظـاهر هذا بادية للعيان، فإن نخيل البلح ينتج منه أنـواع يختلف بعضها عن بعض فى الطعم وفى كيفية أكله، فمنه ما يؤكل رطبا ومنه ما يؤكل يابسا، وكذلك حال ما ينبت بالبذرة مثل الأذرة يختلف طعـم بعضها عـن البعـض وتختلف صـور الاستفادة منهـا فـى الأكل، وهـذا حـال ما يـزرع

باستخدام الشتلات وما يجرى فيه «التطعيم» مثل المـوالح، حتى أنه يمكن ـ بطريق التطعيم ـ أن تنتج الشجرة الواحدةِ من الثمار «اللارنج والبرتقال واليوسفى».

كذلـك فإنه تعالـى ذكر الزيتـون والرمان وأثبت تعـالى أنه أوجـدهما ليكون من نتـاج كل منهمـا ثمار يتشـابه بعضهـا مع البعـض وثمار لا يشـابه بعضهـا البعض فـى الهيئة والطعـم، والمعلـوم أن الزيتـون يتنوع و يختلـف فى الشكـل وفى الاستعمـال كطعام، وأن الـرمان منـه الحامض ومنـه الحلو. والبين من ذكر هذا جميعـه أنه بيان لإعجاز الله تعالى فـى خلقه مما لا يقدر عليه سواه أريد به بيان أنه الواحد المستحق العبادة .

ثـم يجىء قوله تعالى «كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده» أمرًا أريد به بيان حكم هو إباحة أو حل أكل ثمار النبات سواء أكان لـم ينضج بعد أم كان قد نضج، وبيان حكم آخر هو وجوب صـدقة الثمار ـ وقيل إنها العشـر إذا كان النبات يسقى بالراحـة، ونصف العشر إذا كان يسقى بالكلفة ـ وقد قال البعض إن هذا الحكـم قد نسخ بالزكاة، وقال البعض إنه يتعلق بزكـاة الحصاد، وقال آخـرون إن هذا حق فـى الحصاد لا يختلـط بالزكـاة، وقد يكون هـذا هو الصحيح ليعم الفـرح بالحصاد صاحـب الزرع والفقراء والمساكيـن فيكون من صور مـراحم الأخوة فى الإسلام والأخوة الإنسانية .

وتختتم الآية بقوله تعالى «ولا تسرفوا إنـه لا يحب المسرفين» وهو نهى عن الإسراف وبيان لعلته، وقيل إن الإسراف المراد ـ فى معنى الآية ــ هو الإسراف فى الإعطاء، وقيل إنه الإسراف على النفـس بالإنفـاق فى المعـاصى، وعلـة ذلك أنـه تعالـى لا يحب المسـرفين فيعـذبهم بإسرافهم، وذكر العلة يظهر أن الإسراف المنهى عنه هو الإنفاق فى المعاصى .

وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢

أولا : الأســـــــماء :

١ ـ الحمولة : فى قوله تعالى «ومن الأنعام حمولـة وفرشا» هى ما يحمل عليه، والمراد بها

ـ في معنى الآية ـ الأنواع التي تحمل الأثقال من الأنعام مثل الإبل والخيل والبغال والحمير.

٢ ـ الفرش : قيل إن المراد بـه ـ في معنى الآية ـ مـا يفرش للذبح من الأنعام، وقيـل هو ما يفرش جلده أو وبره أو صوفه، أو يوضع فيفرش عليه، وقيل هو الصغير من الأنعام الذى دنا من الأرض، وقيل هو الغنم .

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالى ـ فـي الآية ـ في شأن الأنعام التي كان للمشركين فـي أمرها تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل مفترين على الله الكذب .

جاء قوله تعالى «ومـن الأنعام حمولة وفرشا» معطوفا على «جنات» فـي قوله تعالى «وهو الذى أنشأ جنـات معروشات» فيكون مفاد القول أو معنـاه «وهو الذى أنشأ حمولة وفـرشا من الأنعام» بمعنى أنه تعالى الذى خلق وأوجد من الأنعـام ما يحمل عليه، وما يتخذ منه ما يعد فرشا أو يتخذ ليفرش عليه الفراش .

ثم يأتي قوله تعالى في شأن أكل لحوم الأنعام، فيذكر تعالى ما يعتبر بمثابة القاعدة العامة وهي الحل «فكلوا مما رزقكم الله» ومعنى القول هو إباحة أكل ما رزق الله المرء من الأنعام إلا ما يحرم تعـالى أكله بالنص، ويـدعم هذا قوله تعـالى «أحلت لكم بهيمة الأنعـام إلا ما يتلى عليكم».

ويجيء قوله تعالـى «ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدو مبين» نهيـا عن الاستجابة إلى إغواء الشيطـان على مخالفة أحكـامه تعالى وشـرعه في شأن مـا حرم أكله وما حـل من الأنعام. فمعنى خطـوات الشيطان أريد به أثر آبائهـم وأسلافهم، فيكون المنهى عنـه هو اتباع آثارهم فـي تحريم ما أحـل الله وتحليل ما حرم الذى كـان من فعل الشيطان بهـم إذ هو الذى أوحى إليهم به ووسوس ، فالشيطان مصدره، ولهذا نسب الخطو إليه .

وعلة النهي ــ على ما يبين من النص ــ هي عداوة الشيطان الظاهرة لبنـي آدم، فهو القائل «لأحتنكن ذريتـه إلا قليلا» قاصـدا أبناء آدم الذى أخـرجه مـن الجنة، فيكون ممـن يعقل ألا يستجيب له.

■■■■■

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٤٣﴾

أولا : الأســـــماء :

١ ــ **الأزواج** : فى قوله تعالى «ثمانية أزواج» جمع، مفرده «زوج» وهو الواحد الذى له قرين مثله، أو الفرد الذى معه آخر من جنسه. يقال للذكر ويقال للأنثى من الحيوانات المتزاوجة .

٢ ـ **الضــأن** : يقال للذكر والأنثى من ذوات الصوف من الغنم. قيل هو جمع لا مفرد له، وقيل إن مفرده «ضائن» وضائنة، وأن جمع الجمع «ضوائن».

٣ ـ **المعــز** : اسم جنس يطلق على ذى الشعر والذنب القصير من الغنم ، واحده ماعز، والأنثى ماعزة، وهى العنز. وهذا هو المراد باللفظ فى معنى الآية. وهو عند علماء الحيوان فصيل من الغنم يضم الغزال والرشا والماعز الجبلى .

ثانيا : التفســـــير:

مفاد عبارة الآية أن الله تعالى يأمر رسوله ﷺ بمحاجة المشركين فيما ادعوه وعملوا به من تحريم أكل بعض الأنعام وتحريم ما فى بطونها على النساء. والمستفاد من الأمر أن مضمونه إجراء ما يشبه المناظرة العلمية ـ على المعروف اليوم ـ بينه ﷺ وبين المشركين .

وفى عبارة الآية جاء «ثمانية أزواج» منصوبا على البدل من حمولة وفرشا فيكون المعنى أنه تعالى خلق وأنشأ من العدم ثمانية أزواج من الأنعام ــ بمعنى ثمانية أفراد ـ ذكر منها سبحانه وتعالى فى الآية أربعة كما جاء بقوله تعالى «من الضأن اثنين ومن المعز اثنين» أى أنه تعالى خلق الكبش والنعجة، والتيس والعنز.

ثم جاء الأمر بالمحاجة أو المناظرة بقوله تعالى «قل آلذكرين حرام أم الأنثيين أما

اشتملت عليه أرحام الأنثيين». وقيل ـ في معنى قوله ﷺ هذا للمشركين بأمر ربه ـ إنه إذا كان تعالى قد حرم أكل ذكـور الأنعام فإن كل ذكر يكون حراما أكله، وإن كان تعـالى قد حرم أكل الإناث فإن كل أنثى من الأنعام يكون حراما أكلهـا، وإن كان تعالى قد حرم أكل ما فى أرحام إناث الأنعـام المذكورة فـإن كل مولـود منها يكون حرامـا أكله ذكرا كـان أم أنثى لتوافـر علة التحريم فيه. وقيل إنه بهذا يكون قد ثبت فساد قول المشركين وانعدام حجتهم .

والذى نراه ـــ والله أعلم هو ابتعاد هذا القول عـن المراد من القول، ذلك أن المشـركين لم يقولوا فـى شأن الأنعام المذكورة إلا بتحـريم السائبة والبحيـرة، وبتحريم ما فى بطـونها على النساء، ولم يقولوا بتحـريم أكلها بصفة عامة، فلا يجوز الاحتجاج عليهـم بعدم قدرتهم على تحديد مـا حرم أكله منها من الـذكور أو الإناث. والذى نـراه هو أنه يتعين قراءة النـص كاملا لفهم معنى المحـاجة، فقوله تعـالى «قل آلذكريـن حرم أم الأنثيين أما اشتملـت عليه أرحام الأنثيين، نبئونى بعلم إن كنتم صادقين» يبين أنه إذا كـان تعالى قد حرم أكل السائبة والبحيرة فإنه إما أن يكون قد حرم أكل الذكور أو أن يكون قد حرم أكل الإناث منها، أو أن يكون قد حرم أكل الذكور والإنـاث، والمطلوب من المشركين هو بيـان ما الذى حرم سبحانه وتعـالى أكله منها، وبيان ما إذا كان تعالى قد حرم أكل ما فى بطون الإناث أم لا على أن يكون بيانهم أو أن تكون إجـابتهم بدليـل من العلـم «نبئونى بعلـم» لأن القول بأنـه تعالـى حرم الذكـور أو حرم الإناث، أو حرم ما فى بطون الإناث هو قولهم المعـروف، فلا حاجة إلى طلب إقرارهم به، أما الذى تكون فى طلبـه فائدة، والذى لا يقدرون عليه فهو أن يـأتوا بدليل علمى على أنـه تعالى حرم مـا يدعون أنـه تعالى حـرمه، والمراد بـالدليل العلمـى هو نص شـرعى فى كتـاب يثبت دعواهم. لأنه لما كان المعلوم أن شيئا من جنس الأنعـام لم يكن محرما أكله فى شريعة نوح عليه السلام، وأن شيئا مما حرموا أكله لم يحرم فـى شريعة موسى عليه السلام، ولا فى شريعة الإسلام فإنه يكـون على من يدعى خلاف ذلـك أن يقيم الدليل، فيكون عجز المشـركين عن تقديم الدليل العلمـى إثباتا لفساد عقيدتهم وقولهم ودليلا علـى انعدام حجتهم، وعلى أنهم يفترون على الله الكذب .

■■■■■

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

أولا : الأســــــماء :

١ ـ الإبـــل : اسم جنس، والإبل هى البعران الكثيرة، لا واحد له، وجمعه «آبال»، والزوجان منه هما الجمل والناقة. ويدخل فى فصيله ــ لدى علماء الحيوان ــ الحيوان المعروف باسم «اللاما» .

٢ ـ البقــر : اسم جنس، والزوجان منه هما: الثور، وأنثاه وهى البقرة. ويدخل فى فصيله ـ لدى علماء الحيوان ـ الوعل والبقر الوحشى .

ثانيا : التفســــــير :

ذكر تعالى ــ فى مبتدأ الآية ـ الأربعة الأزواج الأخرى من الثمانية التى ذكر تعالى أنه أوجدها وأحل أكلها، فذكر تعالى من الإبل اثنين (الجمل والناقة)، ومن البقر اثنين (الثور والبقرة) وأمر رسوله ﷺ أن يطلب من المشركين أن يذكروا له ما حرم تعالى أكله منها وأن يقولوا قولهم فيما إذا كان تعالى قد حرم أكل ما فى بطون الإناث منها، ولا يعنى عدم ذكر «نبئونى بعلم» أنه لم يطلب منهم تأييد قولهم بالدليل العلمى، فهذا معلوم من العطف على ما سبق، ومن كونه معلوما بالضرورة.

ثم إنه يتأكد طلب الدليل العلمى على ما يقول به المشركون من باقى قوله ﷺ بأمر ربه «أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا»، لأنه يفيد أن المشركين سيعجزون عن تقديم الدليل العلمى الذى يؤيد قولهم ، فلا يعود متصورا إثبات قولهم إنه تعالى الذى حرم ما حرموا إلا بطريق واحد هو شهادتهم أنهم قد حضروا واقعة صدور أمره تعالى بتحريم أكل ما حرموا،

وشاهدوها وسمعوا أمره تعالى؛ ولذلك يكون القول إفحاما لهم لأنهم ـ وقد عجزوا عن تقديم الدليل العلمى الذى يثبت أنه تعالى حرم ما حرموا ـ ولا يستطيعون الادعاء بأنهم قد شاهدوه تعالى وسمعوه وهو يأمر بهذا، يكون قد ثبت كذبهم وافتراؤهم على الله الكذب؛ ولهذا نسب إليهم سبحانه وتعالى الافتراء عليه بالكذب ليضلوا الناس، ووصفهم بأنهم أظلم الخلق، افتروا الكذب بغير علم ليضلوا الناس عن الحق «فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم».

ثم جاء ختام الآية مثبتا استحقاقهم العقاب ووقوعه بهم وامتناع الهدى عليهم بقوله تعالى «إن الله لا يهدى القوم الظالمين» ، فأوضح تعالى أنه تعالى لا يهدى الظالمين إلى دار النعيم فى الآخرة، ولما كانوا هم أظلم الظالمين فإنهم الأولى ألا يهتدوا ليكون مصيرهم العذاب الأليم .

قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

أولا : الأســـــماء :

١ ـ المحرَّم : فى قوله تعالى «قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه» هو المحظور والممنوع الذى بلغ النهى عنه غايته، وهو الذى لم يبلغ النهى عنه والحظر غايته فيكون مكروها. فيكون الاستدلال على المعنى المقصود بالقرائن. والمراد به ـ فى معنى الآية ـ ما بلغ النهى عن غايته .

٢ ـ الطـاعم : فى قوله تعالى «محرما على طاعم يطعمه» هو الأكل، ويطلق على آكل الطعام وشارب الشراب .

ثانيا : التفســــــــير:

المستفاد من نص الآيـة أنه تعالى أعلم رسولـه ﷺ بما حرم أكله على الناس فـى شريعته التى ورد بها خاتم الأديـان الذى بعث به ﷺ، وأنه أمر رسوله أن يقول بما بلغـه من ربه بطريق الوحى فى شـأن ما حرم من الحيوان أكله، والمراد بقـوله ﷺ للمشركين الذين حـرموا أكل ما أحل الله تعالى، بأمر ربه «قل لا أجد فيما أوحى إلـى محرما على طاعم يطعمه» هو أنه قد ورد فيما أوحى إليه من ربه بيان ما حرم أكله من الحيوان فهو يعلمه ولا يجد غيره محرما».

وقوله ﷺ «إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير» وفيه جاءت «إلا» لاستثناء ما ورد بعدها من غير المـوجود، فيكون المعنى هو أن ما وجده ﷺ محرما أكلـه هو ما ورد ذكره، وهو «الميتـة» وهو كـل ما مـات بغير طـريق الـذبـح الشرعـى، والدم المسفـوح، بمعنى السـائل المصبوب فيخرج عنه الكبـد والطحال وما جمد فى العروق فى اللحم والمـخ بعد الذبح... ولحم الخنزير، وصفه تعالى بأنه رجس بمعنى أنه قذر وخبث.

ثم إنه ﷺ يضيف إلى طـائفة المحرمات ما أهل لغير الله به، واصفا إيـاه بأنه فسق، وذلك بقوله للمشـركين بأمر ربـه «أو فسقا أهل لغير الله به» عطـف على «لحم خنزيـر» والمعنى أنه تعالـى حرم أكـل ما ذبح علـى الأصنام بـذكر أسمـائها عليه، وأن ذكـر أسماء الأصنـام على المذبوح هو فسق.

ثم يجىء قوله ﷺ بأمر ربه بحكم حالة الضرورة بقوله بأمر ربه «فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم» فبين أن من ألجأته ضرورة حمـاية نفسه من الهلاك إلى أكل شىء من هذه المحرم أكلهـا، ولم يبغ على مضطر آخـر بنزع المأكول مـن بين يديه، ولم يجـاوز حد ما يبقى عليـه حياته أو يمنع عنـه الهلاك، فإنـه تعالى يغفر لـه ذنب أكله مـا حرم تعالى بـواسع رحمته.

وفى شأن ما ورد فى نـص الآية من المحرم أكله من الحيوان، فقد قيل إنـه لم يكن محرما عند نزول الآية غير هذه الأشياء ثم نزلت سـورة المائدة فزيد فى المحرمات، كما أن رسول الله ﷺ حرم من بعدها أكـل كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطيـر، كما أنه ﷺ نهى عن أكل الحمر الأهلية والبغال فأصبح جميع هذا محرما أكله، وقيل إن ما ورد من المحرمات

بعد الآيـة مضموم إليها بمعنـى ما ورد فى الآيـة التالية ومـا بعدها مـن الآيات فى شـأن غير المأكول، وقيل إنه لا يحرم إلا ما ورد فى الآية، والراجح هو القول الأول .

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

أولا : الأســـــماء :

١ ـ ذو الظفــر : الظفر هو العظم اللين الرخو الذى ينبـت بظاهر الأصابع، أو الذى هو من مادة العظـم وهى الكلسيوم، أصله مـن غذاء، ويطول ويقـص، وهو الحافر، والمـراد بـ «ذى الظفر» هـو كل مـا ليس بمنفرج الأصـابع مـن البهائم والطيـر، ولا يدخل فيـه ما هـو ذو ظلف مشقوق لاعتباره منفرج الأصابـع، ويدخل فيه كل ذى حافر من الـدواب وكل ذى مخلب من الطير ومن السباع والكلاب والقطط .

٢ ـ الشحم : هو الدهن الذى يذوب بالنار.

٣ ـ الحوايـا : هى المباعر وهى ما يجتمع فيه زبل الحيوان، وقيل هى المصارين جميعها، وقيل هى خزائن اللبن فى البهيمة .

ثانيا : التفســــــير:

بعد أن ذكر تعالـى ما حرم فى شريعة الإسلام أكلـه ـ وهى الشريعة الناسخـة ما سبقها من أحكام، والتى نـزل بها الدين الخاتـم لجميع الخلق ـ فإنه تعـالى أعقب هذا بذكـره، ما حرم على بنى إسرائيل، ثم أوضح تعالى علة تحريمه ما حرم عليهم .

ومن قوله تعـالى يبين أنه تعالى حـرم عليهم من أنواع الطير والحيوان كـل ما ليس منفرج الأصـابع ومنـه الدواب ذوات الحـافـر ومنه جنـس الحيـوان ذى الظفر مثـل سباع الحيـوان، والكلاب والقطط بفصـائلها، ومثل جوارح الطير كـالحدأة والصقر والنسر والغـراب، فهذا هو

مفاد قوله تعالى «وعلى الذين هادوا حرمنا عليهم كل ذى ظفر» .

كما يبين من قوله تعالى «ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم» أنه تعالى أحل لهم أكل البقر والغنم - فى الأصل - وهذا لكونهما من غير ذوات الظفر إذ لهما ظلف مشقوق. ثم إنه تعالى خص شحومهما بالتحريم إلا ما استثناه من هذا التحريم فإنه تعالى أحل لهم أكله، وهذا الشحم الذى أحل لهم أكله هو ما علق بظهورهما، وبالحوايا - وهى ما علق بالمصارين أو مخازن اللبن وبالعظم، والمراد به الشحم المحيط بالعصعص أو لحم الإلية - فتكون «أو» قد جاءت فى عبارة الآية بمعنى «الواو» إلا أنها أبلغ بمعنى أن أكل الأنواع المذكورة من الشحم كان حلالا، فكان لهم أن يختاروا ما يأكلون منه .

ثم إنه تعالى أظهر بقوله تعالى «ذلك جزيناهم ببغيهم» علة تحريمه ما حرم عليهم وهى أن التحريم كان عقوبة لهم على عصيانهم وظلمهم الذى منه قتلهم الأنبياء وأكلهم أموال الناس بالباطل. ومن القول يبين أن ما حرم تعالى على المسلمين أكله مما حرم أكله على اليهود إنما كان لحكمة اقتضت هذا التحريم فيها مصلحة الإنسان، وأن ما أحله تعالى للمسلمين مما حرمه على اليهود هو من الطيبات .

وفى ختام الآية يجىء قوله تعالى «وإنا لصادقون» تذكير بمعلوم وهو أنه تعالى قد صدق رسوله ﷺ والمؤمنين القول فيما أخبر به متعلقا بالتحريم وبسببه .

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

التفسـيـر:

الخطاب - فى الآية - إلى رسول الله ﷺ، والحديث عن اليهود - كما يبين من اختصاص المشركين بالحديث فى الآية التالية ، يقول له رب العزة إذا ما كذبوك فيما شأن ما حرم تعالى عليهم وسبب التحريم وأصروا على زعمهم أنه تعالى لم يحرم عليهم شيئا مما حرم وإنما

حرمـوه هم على أنفسهم، أو أنـه كان محرما علـى من قبلهم مـن الأمم ما هو محـرم عليهم، فليكن منك أن تقول لهم إنه تعالى ذو رحمة واسعة، بمعنى أن رحمته تعالى كان منها أنه جل شأنه لم يعجل لهم العذاب، فهو تعالى أمهلهم لعلهم يثوبون إلى الرشد.

ثم إنه ﷺ يعرفهـم أن رحمته تعالي ـ وإن أدت إلى إمهالهم وعـدم تعجيل العذاب لهم ـ لن تدفـع عنهم العذاب إذا لم يـرعووا، فهم إذا لم يستفيـدوا من إمهالهم بـالتوبة إليه تعـالى فإنهم يكونون مجرمين، والمجرمون معاقبون، لا يرد عذابه الشديد لهم راد ولا نصير.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ١٤٨﴾

التفســـــير:

قوله تعالـى «سيقول الذين أشركوا لو شـاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنـا من شيء» هو إخبار بحدث مستقبل وإنباء بـه قبل وقوعه، وقد حدث الحدث كما أخبـر به فكان مظهرا من مظـاهر إعجـاز القرآن العظيـم. ومفـاد قول المشـركين إن إشـراكهم ــ وآبـائهم بـالله تعالـى وتحريمهم أكل مـا حرموا أكله من البحيرة والسـائبة إنما كان بمشيئته تعالـى فيكون مشروعا ومرضيا عنه لا يحاسبـون به إثما ولا يعاقبون. فلا يعد قولهم هذا اعتـذارا عن خطأ ارتكبوه بل يعد تدليلا ـ من جانبهم ـ على حسن ما فعلوا وآباؤهم عنده تعالى.

ثم يجيء قـوله تعالى «كذلـك كذب الذين من قبلهـم حتى ذاقوا بأسنا» مثبتـا أين يكون الكذب في قولهـم، وذلك لأن قولهم «لو شاء الله مـا أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنـا من شيء» هو قول صدق في حد ذاته فما من أمر يقع إلا بمشيئته تعالى، أما الكذب في قولهم فيستدل عليه من قـوله تعالى «كـذلك كذب الذيـن من قبلهم» فهم مثـل الذين سبقوهـم الذين كذبـوا ما

دعاهم إليه الرسل من عبادته تعالى وتوحيده وعدم الشرك به وعدم تحريم ما أحل الله، فيكون الواضح أنه تعالى لا يرضى لعباده الكفر ولا الشرك، لأن الأنبياء والرسل إنما يدعون بدعوته تعالى. فيكون كذبهم متمثلا فى تكذيبهم مادعاهم إليه إسماعيل عليه السلام من الحنيفية التى انحرفوا بها إلى الشرك بالله، وفى ادعائهم أنه تعالى يرضى عن الشرك وعن تحريم ما أحل. ثم إنه تعالى يذكر مصير الذين كانوا قبلهم بقوله تعالى «حتى ذاقوا بأسنا» بمعنى أنهم ظلوا على تكذيبهم الرسل إلى أن أخذهم الله تعالى بتكذيبهم فأنزل عليهم عذابه عقابا لهم، فيكون القول متضمنا تهديدا للمشركين بمصير يماثل مصير الذين سبقوهم فى الشرك والتكذيب .

ثم يقول تعالى «قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا» وهو تحد للمشركين أن يأتوا بدليل من علم أو كتاب يدل على أنه تعالى راضٍ عن شركهم وتحريمهم ما أحل كما زعموا، وإثبات لانعدام الدليل لديهم وأنهم كاذبون .

وفى ختام الآية يجىء قوله تعالى «إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون» وهو تتمة قوله ﷺ للمشركين بأمر ربه بعد أن أثبت كذب زعمهم، فيكون القول تقريرا لواقع كونهم يتبعون الباطل مستندين إلى محض ظنون وأوهام يثيرونها فى نفوس غيرهم عالمين بكذبها فيكونون كاذبين عليه تعالى .

قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾

التفسـير:

مضمون الآية أمر منه تعالى إلى رسوله ﷺ أن يقول للمشركين أنه تعالى صاحب الحجة والبرهان على أنه الخالق الفرد الصمد الذى لا شريك له، وأنه الذى أحل وحرم، والآية الدليل موجودة فيما خلق وفيما أرسل به تعالى الرسل وما أمدهم به من معجزات، ولكن المشركين كفروا ولو كانوا قد أرادوا الإيمان لأراده الله تعالى لهم، لكنه تعالى لم يشأ هدايتهم لِما علم منذ الأزل أنهم يختارون الكفر فلم يحل بينهم وبينه .

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

أولا : الأســـــــماء :

هلـــــم : اسم فعل بمعنى «أحضر»، فالكلمة دعوة إلى شيء .

ثانيا : التفســــــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ أمر إلى رسوله ﷺ أن يحضروا شهودهم الذين زعموا لهم أنه تعالى قد حرم ما يحرمون والذين يفترض فيهم أنهم قد عاينوه تعالى يحرم ما يدعون أنه حرم عليهم، والمراد بطلب إحضار هؤلاء هو طلبهم للشهادة .

ثم إنه لما كان المحقق أنه تعالى لم يحرم ما ادعوا أنه تعالى حرمه، وأنهم لم يشهدوه تعالى يحرم ما ادعوا أنه حرمه، فإنهم إذا شهدوا بهذا يكون محققا كذبهم فيما يشهدون به فإنه تعالى طلب من رسوله ﷺ ألا يسلم بصدق شهادة هؤلاء إذا شهدوا «فإن شهدوا فلا تشهد معهم» .

ويجيء قوله تعالى «ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون» وهو نهى ـ فى ظاهره ـ لرسول الله ﷺ عن اتباع أهواء المكذبين بآياته والكافرين بالآخرة، وحاشاه ﷺ أن يتبع أهواء هؤلاء، فيكون النهى للمؤمنين أو يكون بيانا لواقع أن المكذبين بآياته تعالى والكافرين بيوم الدين هم أهل أهواء لا يتبعون الحجج والأدلة العقلية ولا الكتب والأنبياء. ويدخل فى هؤلاء الذين كذبوا بالآيات الدالة على كونه تعالى الخالق الأحد فأشركوا به غيره جعلوه عديلا له تعالى من الذين يؤمنون بوجود إله ويوم بعث ثم يعبدون معه أصناما لتقربهم إليه زلفى، ويدخل فيهم الذين لا يؤمنون بالأنبياء والرسل ويوم الحساب فعدلوا عن عبادته تعالى، فيكون النهى عن أهواء الفئتين سبيل النجاة بالنفس

بالابتعاد عن سبيل الضالين.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾

التفســــير:

بعد أن أظهر الله تعالى رسوله ﷺ على المشركين فيما ادعوه من أنه تعالى حرم من المطعومات ما يحرمون بما قاله لهم ﷺ، فإنه تعالى أمر رسوله ﷺ أن يستحضر المشركين ليتلو عليهم ما حرم تعالى على خلقه على وجه العموم «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم» ويبين من عبارة النص صدور القول من الأعلى إلى الأدنى ليكون فيه معنى الإلزام بما يستوجب المعاقبة عند المخالفة.

بدأ بيان ما حرم تعالى بذكر الشرك «ألا تشركوا به شيئا» وذلك لأن الشرك به تعالى هو أعظم الذنوب والذى لا يغفر للعبد، وفيه جاء التعبير عما يشرك به بأنه «شىء» لبيان عجزه عن النفع والضر ومماثلته الحيوان والجمادات فى هذا ولو كان من البشر أو الملائكة. ثم تلى ذلك قوله تعالى «وبالوالدين إحسانا» جاء فى صيغة أمر بالإحسان إلى الوالدين على حين أن القول فى بيان المحرمات مع ورود بعض صورها فى صيغة النهى، وربما كان ذلك لبيان هول وجسامة الإساءة إلى الوالدين بما استوجب عدم ذكرها، ولكون الإحسان إليهما من طبيعة النفس البشرية وما جبلت عليه. والمراد بالإحسان إليهما هو الإحسان فى الفعل والقول والتذلل لهما وعدم الإتيان بما يسيئهما أو يسىء إليهما. ثم إنه تعالى نهى عن قتل الأولاد بسبب الفقر الحال وليس بسبب الخشية منه أو توقعه «ولا تقتلوا أولادكم من إملاق»، ثم إنه تعالى بين علة هذا النهى بقوله تعالى «نحن نرزقكم وإياهم» بمعنى أنه تعالى يبعث إلى

هؤلاء الأولادرزقهـم ومعه رزق آبـائهم» مما مفـاده انعدام سبب قتـل الأولاد ـ والمـراد به وأد البنات على المشهور ـ . ثم إنه تعالى نهـى عن الاقتراب من الفواحش، والنهى عن الاقتراب منها أشد من النهـى عن مقارفتها «ولا تقربوا الفـواحش ما ظهرمنا وما بطـن» ويبين من عبارة النص المساواة فى النهى بين أن تكون الفواحش مرتكبة فى العلن وأن تكون مرتكبة فى السر، وذلك لبيان أن فعلهـا جرم فى حد ذاته ولـو لـم يعلم به أحد، ثم يـذكر تعالى من بيـن ما حرم على الخلق قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، جـاء التعبير عنه فى صيغة النهى وبين تعالى أن الأصل العـام هو تحريـم قتل النفس، والمراد بـالنفس هو النفـس المعصومة بـالإسلام أو بالعهد فيدخل فيها نفس الذمى. والحق الـذى يجيز قتل النفس هو وجود السبب الشرعى من قصاص، أو زنا بعد إحصان أو ردة .

ثم يجـى قولـه تعالـى ـ فـى ختام الآيـة ـ «ذلكـم وصاكـم به لعلكـم تعقلون» مظهـرا أن التكاليف الخمسة المتلوة على المشركين والتى هى على المؤمنين من باب أولى هى مطالب مؤكدة منه تعالى لكونها متعلقة بمصالح الدين والـدنيا التى يرعاها الدين، ثم إنه تعالى أمل الخلق أن يستعملوا عقولهم فيعوها ويكون عملهم بها ليكونوا من أصحاب العقول .

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ
وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ
كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

أولا : الأســــمـاء :

١ ـ الأشـــد : فى قوله تعالـى «حتى يبلغ أشده» هو بلوغ الحلم ـ فـى قول ـ وهو بلوغ

ثمانى عشرة سنة فى قول آخر، وغير ذلك على ما سبق بيانه.

٢ـ الكيـــل : المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو المكيل .

٣ـ الميزان : المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو الموزون بالميزان .

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ هو من قبيل الأحكام، ورد ذكرها بين ما ذكر تعالى من المحرم على العباد منه تعالى، وجاء بيان المحرم فى عبارات جـــاء بعضها فى صيـغة الأمـر فيفهم منـه ـ بمفهوم المخـالفة ـ أن المحرم هـو ما هو بخلاف المأمـور به وجاء بعضها فـى صيغة النهى فظهر أن المحرم هو المنهى عنه، وورد فى الآية ما يفيد أن كل ما كلف تعالى به الخلق هو فى حدود المقدور.

فقوله تعالى «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتـى هى أحسن حتى يبلغ أشده» هى نهى لكل من يقوم على مصـالح الأيتام من المساس بأمـوالهم أو العمل فيها بعمل إلا إذا كان مستهـدفا به مصلحة اليتـامى، يكون منهم هـذا حتى يبلغ اليتـامى الحلم أو السـن التى تدفع فيهـا إليهم أموالهم . فيفهـم من النص أن المحرم هـو النيل من أموال اليتـامى أو مجرد العمل فيهـا لغير صالحهم.

وقوله تعالى «وأوفوا الكيل والميزان بالقسط» هو أمـر للبائعين بأن يوفوا المشترين حقوقهم مما اشتـروا كاملة غير منقـوصة، سواء أكـان المبيع مما يكـال أم مما يوزن، وجاء التعبيـر عن المبيع بأنـه الكيل والميزان بمعنى المكيل والموزون تـدليلا على كل مبيع يتم تعيينـه بوسيلة من عد أو قيـاس أو غيره. والمراد بأن يكـون إيفاء الكيل والميزان بـالقسط هو مراعـاة العدل، بعدم إنقـاص المبيع وعدم أخذ أكثـر مما يستحق من الثمـن. فيكون المحرم هو أكـل حقوق الناس فى التجارة المشروعة أصلا .

ثم إنه تعالى بين للناس أن ما كلفوا بـه هو من قبيل المقدور الذى تستطيعه النفوس وذلك بقولـه تعالـى «لا نكلف نفسا إلا وسعهـا»، وبهذا وجـب مؤاخـذة من يخالـف المأمـور به أو المنهى عنه.

وقوله تعالى «وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى» هو أمر يتحرى قول الحق فى الحكم وفى

الشهادة دون التأثـر بشيء يستوى فى هذا القـريب والبعيد، بمعنى أنه يتعيـن أن يكون القول بالحق ولو كان المشهود له أو عليه من الأقارب. فيكون المحرم هو عدم قول الحق فى الحكم وفى الشهادة والمحاباة فى ذلك لسبب من الأسباب.

وقوله تعالى «وبعهد الله أوفوا» هو أمر منه تعالى بالوفاء بالعهد، جاء فى صيغة عامة فشمل ما يعاهد عليـه المرء ربه من أيمان ونذور، ومـا يعاهد عليه العباد. فيكون المحـرم هو الحنث بالعهد.

ثم يجيء قـوله تعالى ــ فى ختام الآية ــ «ذلكم وصاكم بـه لعلكم تذكرون» وفيـه جاءت الإشارة إلى التكاليـف الواردة فى نص الآية بـ «ذلكـم» لبيان علو مرتبتها، وأخبر عنهـا تعالى بأنها ما أمر به على وجه مؤكد، ثم إنه تعالى حث على تذكرها ليكون العمل بها .

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

التفســـــــير:

جاء قوله تعـالى من بعد بيان التكاليـف التى وردت بها الآيتان السابقتان ومـن قبلهما ما ورد فى شأن عقيدة التوحيد، بمعنى أنه جاء من بعد بيان دينه تعالى شاملا العقيدة والأحكام. فقوله تعالى «وأن هـذا صراطى مستقيما فاتبعوه» يتصور فيه أن يكـون منه تعالى ، ويتصور أن يكون قول رسول الله ﷺ، ومعناه أن ما سبق ذكره فـى شأن عقيدة التوحيد وأحكام المعاملات هو طـريق الله تعـالى ورسولـه الكريـم ﷺ الموصـل إلى رضاء الله وجنتـه، وأعقـب بيـان هذه الحقيقة أمره باتباع هذا الطريق المستقيم .

ثم جاء قوله تعـالى «ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» تـأكيدا للمعنى المستفاد من أمره تعـالى اتبـاع طريقـه المستقيم وهو دينـه تعالـى المتضمن عقيـدة التوحيـد والمتضمن الشريعـة والأحكام جـاء تأكيد المعنـى بالنهـى عن اتبـاع غيره من الملـل والنحل التـى هى محض ضـلالات يكون من شأن اتبـاعها تفرق متبعهـا شيعا تتفرق دون أن تصل منهـا واحدة

إلى سبيل الله المستقيم الموصـل إلى رضائه تعالى وإلى جنته. فالقول تحـذير من اتخاذ ملة أخرى غير الإسلام بالتدليل على أنها لا توصل إلى رضائه تعالى.

ثم يجىء قوله ـ فى ختام الآية ـ «ذلكم وصـاكم به لعلكم تتقون» وفيه أشار إلى أمره تعالى باتباع سبيله ونهيه عن اتباع سبيل غيره بـ «ذلكم» لبيان علو قيمة المشار إليه والمخبر عنه بأنه ما أمر به على وجه التأكيد، مع إيضاح أن اتباعه هو سبيل اتقاء غضب الله وعذابه».

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾

التفســـــــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ تمهيد لبيان شـأن القرآن العظيم الذى جاء بشريعة كاملة كما كان الكتاب الذى أنـزل على موسى عليـه السلام شريعة كاملـة، وهذا ظاهر مـن ورود نص الآية باعتباره صادرا منه تعالى على ما يبين من ضمير المتكلم فى «آتينا». وفى قوله تعالى «ثم آتينا موسى الكتاب» جاءت «ثم» لإفادة معنى الترتيب فـى الرتبة والمنزلة، لأن توراة موسى كانت أسبق فى الترتيب الزمنى، لكنه لما كان القرآن العظيم هو كمال الدين وتمامه، الناسخ ما قبله فإنه كان الأعلى رتبة .

وقوله تعالى «ثـم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسـن وتفصيلا لكل شىء وهدى ورحمة» مفاده أنه تعالى أنزل على موسى عليـه السلام التوراة ليكون نزولها إتماما لما أحسن موسى عليه السلام فعله من قبـل نزولها مما أمره به ربه فى شأن ما بعث به. فـالثابت من قوله تعالى «أم لـم ينبأ بما فى صحـف موسى» ومن قولـه تعالى «إن هذا لفـى الصحف الأولى* صحف إبراهيم وموسى» أنه تعالى أنزل على موسى عليه السلام صحفا، وأنها شىء آخر غير الكتاب الذى أنزل إليه وهو التوراة. والثابت من قولـه تعالى لموسى عليه السلام ـ من قبل أن ينزل عليـه تعالى التوراة ـــ «اسلك يدك فـى جيبك تخرج بيضـاء من غير سوء واضمـم إليك جناحك من الرهب، فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه،إنهم كانوا قوما فاسقين» ومن

قوله تعـالى «اذهب إلى فـرعون إنه طغى»، والثـابت أيضا من حـوار موسى عليه السـلام مع فرعون المخبر عنه فى الآيات من ٤٨ إلى ٥٦ من سورة «طه» أنه عليه السلام قد كلف بدعوة فرعون وقومه إلى الله تعالى وأنه فعل ما أمربه من ربه من قبل أن تنزل عليه التوراة، كما أنه دعا بنى جلدته إلـى ما دعا إليه فرعون من قبـل أن تنزل عليه التوراة، فيكون معنى قولـه تعالى أنه آتى موسى عليه السلام التوراة ليكون بإنزالها عليـه تمام ما أحسن فعله من الدعوة إليه تعالى قبل نزولهـا ـ هذا ما نراه والله أعلـم ـ وقد قيل فيـه إن معناه أن نزول الكتاب على مـوسى عليه السلام كان تماما لإجادته العلم والشرائع، وقيل إنه كان به تمام إحسان الله إلى أنبيائه عليهم السلام، وقيل إنه كان تمام ما أحسن به تعالى على موسى من النبوة .

وفى القول وصف تعالى التوراة بأنها كـانت تفصيلا لكل شىء وهدى ورحمة، وهذا حق، فلقد جـاءت التوراة بشـريعة كـاملة شملت العقيـدة وشملت الأحكـام، وأنه ليـس الإنجيل كذلك فإنه أحال فى شأن الأحكام إلى التوراة مع تصحيح ما خالف تطبيقه منها ما وردت به، كما أنهـا كانت هدى، لأن مـن آمن بها وقتذاك وعمـل بها كان معـدودا من المؤمنين الـذين اهتدوا إلى الحق بإذنه، وكانت رحمة لأنها بمـا جاءت به من أحكام ومنها القصاص ومنها ما تعلق بـالمعامـلات قد تضمنت الـرحمة بالمجتمـع الذى يعمـل بأحكامـه تعالـى ورحمت المعتدى عليه بالقصاص له من المعتدى ورحمت مـن يرتدع بالجزاء فلا يقدم على ارتكاب الجريمة فيتجنب العقوبة.

ثم يبيـن تعالـى أن إنزاله التـوراة على موسـى عليه السـلام قد استهدف بـه أن يؤمـن بنو إسرائيل بالبعث علـى وجه اليقين فيعملوا لآخرتهم. والقول يشيرإلى ما عليـه بنوإسرائيل من العمل للدنيا و إغفال العمل للآخرة ، ولهذا كثر عصيـانهم ، وكان قتلهم الأنبياء الذين نهوهم عن فعل ما يوافق أهواءهم .

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

التفســـــير:

بعد ذكره تعالى أنه أنزل التوراة على موسـى عليه السلام تماما على الذى أحسن وتفصيلا

لكل شىء وهدى ورحمة، مـع ذكرها بالكتاب، فإنه تعالى أشـار إلى القرآن العظيم الذى ورد فيه مـا سبق ذكـره من أوامر ونـواه فى شأن العقيـدة والأحكام وأخبـر عنه أنه منـزل منه تعـالى ووصفه بأنه مبارك بمعنى أن فيه وبه يكثر خير الدنيـا والآخرة، ثم إنه تعالى أتبع ما أخبر به فى شأن القرآن العظيم بالأمر باتباعه، وهو ما يكون به الإيمان على ما جاء به وأن يكون العمل بما أمر بـه ونهى عنه، ثـم حذر تعـالى من مخـالفة ما جـاء به وأمر بـاتقاء هـذا «فاتقوه» مـوضحا سبحانه وتعالى أن جزاء هذه التقوى هو الدخول فى رحمته «لعلكم ترحمون».

أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾

التفســــــير :

قوله تعالى ـ فى الآية ـ وقد جاء بعد ذكر إنـزاله تعالى القرآن ـ يفيد أن إنزاله تعالى القرآن كان من المراد به قطـع الحجة على مشركى العرب، فيكون معنى قوله تعـالى «أن تقولوا إنما أنزل الكتاب علـى طائفتين من قبلنـا». هو «لئلا تقولوا إنمـا أنزل الكتاب على طـائفتين من قبلنا» والضمير فى «تقولـوا» عائد إلى مشركى مكة أو مشركى العرب، وقـولهم المشار إليه فى الآية هو قولهم يوم القيـامة يريدون به نفى الحجة على عصيانهم وعـدم إيمانهم، والطائفتان اللتان أنزل عليهما الكتاب من قبلهما هما اليهود والنصارى.

وباقى قول المشركيـن يوم القيامة الذى قطعه عليهم إنزاله تعالـى القرآن هو «و إن كنا عن دراستهم لغافلين» فهم من بعد ذكرهم أن الكتاب أنـزل على طائفتين من قبلهم يذكرون أنهم لم يقـرءوه ولم يعلمـوا ما بـه سواء أكان ذلـك لغفلتهم عـن البحث والـدرس أم كان لـوجود الكتاب بلغة غير العربيـة. فيكون مفاد القول أنهم لم يبلغوا بما جـاء فى التوراة والإنجيل ولم يدرسوهما فلا تجوز مساءلتهم عن مخالفة أوامره ونواهيه تعالى شأنه فيهما.

ويلاحـظ أن الضمير المتصل فـى «دراستهم» هو للجمع، فـإن كان عائدا إلـى «الكتاب» فهو كتابـان، والجمع ـ فى اللغة ــ اثنان وما فوقهمـا، و إن كان عائدا إلى «طائفتيـن» فإن كلا

منهما تضم أفرادا عديدين، فهما جمع .

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

التفســـــــير:

جاء قوله تعالى «تقولوا لو أنا» معطوفا بـ «أو» على «تقولوا إنما أنزل الكتاب» فيكون القول هو قول مشركى العرب أو فئة منهم قطع عليهم سبحانه وتعالى الطريق إلى قوله والاحتجاج به يوم القيامة بإنزاله القرآن العظيم .

ومفاد قولهم المذكور فى الآية هو أنه لو كـان تعالى قد أنزل عليهم الكتاب لكانوا قد آمنوا به واهتدوا إلى الحـق بخير مما اهتدى به أهل الكتاب أو البعض منهـم، فيكون مقصوده، أنه لما كان كتاب مـن عنده تعالى لم ينزل إليهم فـإنه لا تجوز مساءلتهم عن عـدم اهتدائهم إلى الحق.

وجاء قوله تعالـى «فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة» قـاطعا عليهم حجتهم ومثبتا أنه أنـزل القرآن العظيم الـذى أبلغ به رسول الله ﷺ فكـان حجة عليهم بـالغة لنزولـه بلغتهم ولإبلاغهم به ممن هو ـ فى حد ذاته ﷺ ـ بينة وحجة، ثم وصفه تعالى بأنه هدى ورحمة، فهو كتاب ككتاب مـوسى، وهو هدى ورحمة كما كـان كتاب موسى هدى ورحمـة، وزاد عليه أنه المهيمن على الكتب وأن الرحمة هى وصف من بعث به ﷺ .

ثم جاء قوله تعالى «فمن أظلم ممن كـذب بآيات الله وصدف عنها» مثبتا عليهم تكذيبهم بالقرآن العظيم كتابا منزلا منه تعالى، وتكـذيبهم بما ورد فى آياته من أحكام، وبرسول الله ﷺ

الذى بعث بالكتاب، ومثبتا إعراضهم عن هـذا جميعه، وواصفا إياهم بأنهم أظلم الخلق لأن كفرهم وظلمهم أنفسهم إنما كان من بعد نزول الآيات إليهم وفهمهم معانيها وما تدل عليه.

ثم إنـه لما كان الظلـم مستوجبا العـذاب به، وكان مشـركو مكة هـم الأكثر ظلما مـن بين الظالميـن لكون إعراضهـم من بعد علمهـم بالآيات فإنـه تعالى أخبـر عن مصيرهـم وسبب استحقاقهـم إياه بقولـه تعالى «سنجـزى الذين يصـدفون عـن آياتنا سـوء العذاب بما كـانوا يصدفون» فدل تعـالى على أن ما استحقوا من جزاء علـى إعراضهم عن آياته تعـالى هو سوء العذاب.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

التفســـــــير:

قولـه تعالـى ـ فـى الآية ــ هو بيـان لانعدام الـرجاء فـى إيمان مـن أصر علـى الكفر مـن المشركين، جاء قـوله تعالى «هل ينظرون إلا أن تـأتيهم الملائكة أويأتى ربـك أو يأتى بعض آيات ربك» فى صيغة استفهام أريد به الإنكار. والمعنى المباشر للقول هو «هل ينتظرون لكى يؤمنوا أن تأتى الملائكة إليهم لتقبض أرواحهـم أو لكى تلحق بهم عذاب الإهلاك فى الدنيا، أم أنهم ينتظرون أن يأتى تعالى يوم القيامة فـى ظلل من الغمام، أو أن تأتى بعض علامات يوم القيامة ــ وقيل إن المراد بها طلـوع الشمس من مغربهـا، وقيل إن المراد بها هـو ظهور أشراط الساعـة وهى: الـدخان، والـدجال، وعيسـى ابن مريـم، ويأجـوج ومأجـوج، والدابـة وطلوع الشمس مـن المغرب وحدوث ثلاثـة خسوف أحدهمـا بالمشرق والثـانى بالمغرب والثـالث بجزيرة العرب، وخروج نار تطرد الناس إلى المحشر.

ثم يذكر تعـالى أنه بظهور بعض علامات السـاعة أو أشراطها تغلق أبواب التـوبة فلا تقبل من عبد كمـا لا ينتفع عبد بحسنة يعملها إلا إذا كان قبـل ذلك مؤمنا محسنا فإنـه يثاب عليها كما كان يثاب مـن قبل، فهذا ما جاء به قولـه تعالى «يوم يأتى بعض آيـات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا» .

وختام الآية قوله تعالى «قل انتظروا إنا منتظرون» وهو أمر منه تعالى إلى رسوله ﷺ أن يقول للمشركيـن ما مفاده «ليكـن انتظاركم مـا تنتظرون من مجـيء أمر من الأمـور المذكورة، فـإنا كذلك منتظرون الآجـل لنفوز فيه برضائه تعالى حيـن تلقون عذابه. فالقول تهـديد للمشركين ووعيد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

أولا : الأســـــــماء :

الذين فـرقوا دينهم : قيل إن المـراد بهم هم اليهـود والنصارى فهم الـذين ورد فيهم قـوله تعالى «وما تفرق الذيـن أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة» والذيـن قال فيهم سبحانه وتعالـى «ويريدون أن يفـرقوا بين الله ورسله». وقيـل إنهـم المشركـون، منهم من عبـد الأصنام ومنهم من عبـد الملائكة. وقيل هم عموم الكـافرين. وقيل إنهم أصحـاب البدع والضلالات من أمة الإسلام ـ وهذا ما نميل إليه والله أعلم ـ يدل عليـه قوله تعالى من بعد ـ مخاطبا رسوله ﷺ ـ «لسـت منهم فـى شيء» فـالقول ينفى صلـة بينه ﷺ وبينهـم هى ـ بحسب الظـاهر ـ موجـودة، وهذه الصلة هى قـول هؤلاء إنهم مسلمون ونظـرة العالم إليهم أنهـم مسلمون، ولا وجود لمثل هذه الصلة بينه ﷺ وبين أهل الكتاب أو المشركين أو عموم الكافرين .

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالـى «إن الذين فرقوا دينهم وكانـوا شيعا لست منهم فى شيء» هو ذم للـذين فرقوا دينهم، بـأن فارقـوه فى مبتـدأ الأمر بمـا أحدثـوا فيه مـن الضلالات ومـن البدع، ثـم افترقـوا

فى مذاهبهم ومعتقداتهم شيعا تعادى كل منها الأخرى، فإن كان المراد بهؤلاء الذين فرقوا دينهم هم أهل الكتاب أو المشركون أو الكافرون فإن معنى قوله تعالى يكون إعلام رسوله ﷺ أنه غير مسئول عنهم وغير موكل بالبحث عن سبب تفرقهم . وإن كان المراد بهم أهل البدع والضلالات من المنتسبين إلى الإسلام فإن المعنى يكون إعلام الله تعالى رسوله ﷺ أنه برىء منهم ومما يفعلون وقد انقسموا شيعا يجتمع أفراد الواحدة منهم فيشايع الفرد الآخر، ويتفرقون شيعا فتعادى الواحدة منهم الأخرى فيكونون على الإسلام وإن حسبوا أنفسهم به وله .

ثم يجىء قوله تعالى «إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون» بمثابة تعزية له ﷺ وتعليل لنفى مسئوليته عنهم وإعلان براءته منهم. فهو تعالى متولى أمرهم وهم إليه تعالى راجعون يوم القيامة فيكون إعلامهم وإخبارهم عن ضلالهم فى فعالهم فى الدنيا ـ بتفرقهم فى أمر الدين محدثين به ضلالات ومقسمينه شيعا متناحرة ـ بما يلقون من عذاب.

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

التفسـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى بيان جزائه تعالى المحسنين من المؤمنين على فعالهم مقارنا بجزائه تعالى المسيئين من المؤمنين ومن الكافرين .

فيثبت تعالى أنه يثيب المؤمن المحسن على الحسنة يأتى بها بعشر أمثالها. ويلاحظ أن «عشر» جاءت بغير «التاء» ـ أى عشرة ـ مع أن «أمثالها» وهى جمع «مثل» ـ مذكر، لأن المعدود مؤنث «حسنات» ، كما يلاحظ أن «عشر» جاءت للتدليل على الكثرة ـ على الراجح ـ وذلك لما ثبت من أن الوعد جاء بأكثر من هذا مع المضاعفة .

ويذكر النص أن المسىء يجازى بالسيئة التى يعملها سيئة مثلها ولا يزاد فيها عليه. ويبين النص أن أحدا لا يظلم من حسابه شىء، فلا ينقص من ثواب المحسن المؤمن شىء ولا يزاد

للمسيء في سيئاته. ونفي الظلم ـ في لفظ الآيـة ـ لا يعني جواز تصور الظلم عليه تعالى جل وعلا، فهو تعالى صاحب الحق في تعذيب المحسن و إثابة العاصي، ولكن المراد به هو عدم إنقاص المحسـن شيئا مما وعـد به من الثـواب، وعدم الزيـادة في سيئات المسـيء، فتكون السيئة بمثلها وليس بأكثر.

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾

أولا: الأســـــــماء:

القـــــيم: في قوله تعالى «دينا قيما» مصدر من الفعل «قام» والمراد به ـ في معنى الآية ـ هو القائم المستقيم.

ثانيا: التفســـــير:

قوله تعالى ـ في الآية ـ أمر إلى رسـول الله ﷺ أن يبين حاله من الدين والملة لهؤلاء الذين فرقـوا دينهم وكـانوا شيعـا، وللمشركيـن الذين زعمـوا أنهم علـى ملة إبـراهيم عليـه الصلاة والسلام، ولليهود والنصـارى الذين انتسبوا إلـى إبراهيم عليه السـلام ثم قالوا: عـزير ابن الله، والمسيح هو الرب أو هو ابن الله.

وفي الآية يـأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقـول «إنني هداني ربي إلى صـراط مستقيم» وفيه يذكر ﷺ أنـه على الصراط المستقيم المـوصل إلى الحق، ويبيـن أنه على الصراط مـن ربه تعالى، جاء ذكـره تعالى بـ «الرب» لبيان أن كـونه ﷺ على الصراط المستقيم هو مـن مظاهر عناية الله به ورعايته له، ثم إنه ﷺ يـذكر أن وجوده على الصراط المستقيم هو من الهدى، وأن هاديه هو ربه تعالى.

وقوله ﷺ بأمر ربه «دينا قيما ملة إبراهيـم حنيفا» وفيه جاءت «دينا» بدلا من «صراط» فدل على أن الصـراط المستقيم هـو الديـن المستقيم الذى عليـه ﷺ. ثم حـدده ﷺ بقولـه «ملة إبراهيم حنيفا» بمعنى «أعني ملة إبراهيم حنيفـا» على ما يبين من نصب «ملة»، والمراد بملة

إبراهيم عليـه الصلاة والسلام هو الإسـلام بمعناه العام ـ الـذى سبق بيانه ــ وجاءت « حنيفا» حالا من إبراهيم بمعنى أنه كان حاله هو الميل عن الباطل إلى الحق فى معرفة الله وفى عبادته والتوجه إليه.

ثم يقول ﷺ فى شأن إبراهيم عليه الصلاة والسـلام «وما كان من المشركين» وهو نفى لأن يكون المشركـون والذين فرقوا دينهم وأهـل الكتاب على ملته و إثبات لبعدهـم عن الحنيفية والطريق المستقيم .

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦٢﴾

التفســــــير:

عبارة الآيـة فى قول لـرسول الله ﷺ يقولـه بأمر ربه استئنـافا لقولـه السابق ذكـره مع ذات المخاطبين به، وهو تفسير لقوله السابق وبيان لفروع دينه ﷺ من بعد ذكر الأصول.

ومفاد قوله ﷺ إن صلاتـه جميعها ـ الفرض فيها والتطوع ـ وجميع عبـاداته هى لله تعالى، وأن حياته ومماته له تعـالى فحياته ﷺ فى الدعوة لدين الله وموتـه فى سبيل نشر دينه محبب إلى نفسه ﷺ، وحياته وموته ملكه تعالى فهو ملك العالمين ومالكهم.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ١٦٣﴾

التفســـــير:

بعد أن ذكر رسول الله ﷺ أن صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين، فإنه ﷺ شهد بوحدانيتـه تعالى وانعدام الشـريك له «لا شريك لـه»، وأقر بأنه مـأمور بأن يقول مـا قال وبأن يوجـه عبادتـه إليه تعالـى وأن يخلص لـه فيها، ثم أقـر بذاتـه أنه أول المنقاديـن إليه تعـالى المستسلمين لقضائه «وأنا أول المسلمين» .

■■■■

قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

أولا : الأسماء :

الوازرة : هي الآثمة، والمراد بها - في معنى الآية - النفس الوازرة أو الآثمة، بمعنى مرتكبة الإثم .

ثانيا : التفسير:

جاءت «قل» في مبتدأ الآية أمرا لرسول الله ﷺ أن يقول لذات المخاطبين ما بعدها. ومعنى قوله ﷺ« أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء» هو إنكار منه ﷺ أن يطلب ربا غير الله تعالى، ووصفه ﷺ بأنه رب كل شيء، وعبارة القول جاءت في صيغة الاستفهام وهو للإنكار، فيكون مفاد القول هو استحالة الشرك بالله عليه ﷺ .

وقوله ﷺ «ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى» هو تقريرا لمبدأ «المسئولية الشخصية» بمعنى مسئولية مرتكب الذنب أو الوزر أو الجريمة عنها وعدم مسئولية الغير عنها ما لم يسهم فيها. وقيل إن مناسبة القول هي أن المشركين كانوا يدعون المسلمين لاتباعهم ويقولون لهم إنهم سيحملون خطاياهم فجاء القول مؤكدا مسئولية مرتكب الخطيئة عنها، وهو لا ينفي عدم مسئولية المحرض عليها لأنه يكون بتحريضه قد ارتكب خطيئة فيكون مسئولا عنها. وهذا هو المستفاد من قوله تعالى «ولا تزر وازرة وزر أخرى» بمعنى أن النفس الآثمة لا تحمل عن أخرى آثمة إثم ما ارتكبت فتعفيها منه، لكنه لا يفيد عدم مسئولية النفس التي أثمت بالتحريض على الإثم المرتكب نتيجة تحريضها عليه.

وقوله ﷺ «ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون» - يتصور أن يكون قولا منه تعالى هو خطاب للجميع من مؤمنين ومشركين ومفرقين دينهم، فيه وعد ووعيد يبين من

بيان واقع رجوع الجميع إليه تعالى فيعرف كل حقيقة مـا كان عليه فى حياته الدنيا مختلفا فيه عن غيره، يعرفه بما يلقى من مصير فينعم من كان على الحق ويعذب من كان على ضلال .

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

التفســـــير:

الخطاب ــ فى مبتدأ الآيـة ـ إلى جميـع خلقه، ويصلح أن يكـون لهم فى كـل عصر لأن مفاده أنـه تعالى الذى أوجـدهم خلفا فـى الأرض لقوم سبقوهـم عليها، والمراد من ذكـر هذا الفعل من أفعال قدرته تعالى هو إثبات أنه تعـالى وحده هو الخالق المنشىء القادر على كل شىء المستحق وحده العبادة ثم يجىء ذكر مظهر آخر من مظاهر قدرته تعالى فى طى حقيقة تضمنتها عبـارة تقريـرية فى قـوله تعـالى «ورفـع بعضكم فوق بعـض درجات» ولعـل أول ما يلاحـظ فى عبارة النـص أنه جـاء التعبير عن اختـلاف الدرجات ببيـان «العلو» وليـس ببيان «الدنو» فأعلم تعـالى أنه أكرم الإنسان الذى سواه ونفخ فيه من روحـه، ثم إن النص يثبت أنه تعالى جعـل من الناس من يعلو آخريـن فيختلف عنهم فى الفضل والعلم والغنـى وغيره مما اقتضـت حكمته لتسيـر أمـور العباد وتبـاشـر مصالحهـم فـى الحياة الـدنيـا، ويثبت أن هـذا الاختلاف درجات، فيكون أحدهم فوق غيره وأدنى من آخر .

ثم إنـه تعالـى يذكـر العلة مـن جعله النـاس خلائف الأرض ورفعـه بعضهم فـوق بعض درجات بقوله تعالى «ليبلوكم فى ما آتـاكم» وفيه أظهرت لام التعليل وهى بمعنى «كى» سبب ذلك وهو اختبار الناس وامتحانهم لينظر أعمالهم ويمحص قلوبهم فيجازيهم بذلك.

ثم يجىء خطـابه تعالى إلـى رسوله ﷺ «إن ربك سـريع العقاب وإنه لغفـور رحيم» وهو مرتبط بما بينه تعالى من اختباره الخلق وامتحانهم، فهو تعالى يجازى المكلفين بفعالهم وما

انطوت عليه قلـوبهم فيكون منه العقاب للمسيئين سـريعا. ولا يعارض هذا تقريره تعـالى أنه الحليم الممهل فى العقاب، وذلـك لأنه قد يكون المراد بالعقاب هو عقـاب الدنيا، فإن كان هو عقاب الآخـرة فهو أيضا قريب سـريع لقوله تعالـى «وما أمر الساعة إلا كلمـح البصر أو هو أقرب»، كذلك فـإنه يكون منه تعالى غفـران الذنوب والرحمة لمن آمـن وأحسن العمل وأدى حقوق ربه، ولغيره ــ ما لم يشرك به تعالى ــ لأنه تعالى سبقت رحمته غضبه علـى ما جاء فى الحديث القدسى .

فى : أوجه الارتباط بين هذه السورة وبين سورة المائدة :

بين السـورة وبين سـابقتها فى تـرتيب المصحـف «سورة المائدة» أوجـه ارتباط عـديدة لاحظها السابقون نوجز منها الآتى بعد :

١ ـ اختتمت سورة المائدة بقوله تعالـى «لله ملك السماوات والأرض وما فيهن، وهو على كل شـىء قدير»، وفيهـا جاء ذكـر خلوص ملكية السمـاوات والأرض له تعالـى بما فيهـن من مخلوقات مكلفة وغير مكلفة وأجرام فى السماء.

وهو قول يفيد العموم. وافتتحت هذه السورة بقوله تعالى «الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمـات والنور» وهو قـول يتعلق بخلقه تعالـى نجوم السماء مبعـث الضياء وخلقه الشمـس والقمر والليـل والنهار ـ تفصيـلا لملكيته تعالـى السماوات والأرض وقـدرته عليهن، و إظهـارا لتسخيره مـا خلق مـن أجرام وشمس وقمـر لصالـح الإنسان. فكـأن القول تفسير وتفصيل لما ورد فى ختام سورة المائدة .

٢ ـ تضمنت السورة تفصيل مـا أجمل فى ختام سورة المائدة، بذكر تفصيـل خلقه تعالى الشمس والقمر والنجوم وفلـق الإصباح وفلق الحب والنوى و إنزال المـاء من السماء و إنشاء الجنات المعروشات وغير المعروشات.

٣ ـ جاء فى سورة المائدة قوله تعالى «يا أيهـا الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل لكـم»، وجاءت هـذه السورة بتفصيل مـا حرم المشركـون على أنفسهـم «ما جعل الله مـن بحيرة ولا سائبة» وأظهر فساد عقيـدة من يحرم ما أحل الله. فكان قوله تعالى فـى الآية تعليلا لأمره عدم تحريم الطيبات .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعراف

تقديم : في أوجه الارتباط بينها وبين سورة الأنعام :

١ـ ورد فى سورة الأنعام بيان الخلق بقوله تعالى «وهو الذي خلقكم من طين»، وورد فيها ذكر إهلاكه تعالى القرون الأولى «كم أهلكنا قبلهم من قرن»، كما جاء فيها ذكر المرسلين وذكر أسماء بعضهم، وجميع ذلك ورد فى شكل مجمل .

وفى هذه السورة ورد تفصيل ما أجمل فى سورة «الأنعام» من ذلك ذكر قصة آدم عليه السلام، وتفصيل قصص المرسلين وأممهم، وبيان كيفية إهلاك المكذبين .

٢ ـ جاء فى سورة الأنعام قوله تعالى «وهو الذى جعلكم خلائف الأرض» وفى ذكر قصة آدم فى هذه السورة بيان للمخلوف، وكذلك فى ذكر الأمم التى أهلكها تعالى بيان للأمم السابقة التى خلفها المخاطبون بالنص فى سورة الأنعام. وهو المفصل فى قصة عاد بقوله تعالى «جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح»، وفى قصة ثمود بقوله تعالى «جعلكم خلفاء من بعد عاد».

٣ ـ قال تعالى فى سورة الأنعام «فقل ربكم ذو رحمة واسعة». وفصل تعالى هذه الرحمة فى هذه السورة بقوله تعالى «ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون» .

٤ ـ جاء فى سورة الأنعام قوله «وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه»، وجاء فى هذه السورة قوله تعالى «كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه» فدل على أن القرآن العظيم هو طريق الله المستقيم .

٥ ـ ذكر تعالى فى سورة الأنعام قطعه السبيل على المشركين فى الاحتجاج بعدم إرسال

الرسل إليهم «أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين»، و «أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهـدى منهم». وفى هـذه السورة جـاء الأمر باتبـاع الكتاب الذى أنـزل إليهم فـى مبتدأ السورة «اتبعوا ما أنزل إليكـم من ربكم». ثم ورد بها مسائلة من أرسل إليهـم المرسلون بقوله تعالى «فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين» .

٦ ـ جاء فـى سورة الأنعام قوله تعـالى «من جاء بالحسنـة فله عشر أمثالها» ـ وهو متعلق بوزن الحسنة ووزن ثـوابها ـ وفى هـذه السورة فصل تعالـى أمر الوزن يوم القيـامة بقوله تعـالى «والوزن يومئذ الحـق، فمن ثقلت موازينه فأولئـك هـم المفلحون»، فتعلق القول بقولـه تعالى فى سورة «الأنعام» .



التفســـــير:

أسماء أحرف ـ على ما سبق بيانه ـ من المتشابه على الراجح، لا يعلم تأويلها إلا الله .

كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

التفســـــير:

الخطاب فى الآية إلى رسول الله ﷺ. جاء فيـه «كتاب» خبرا لمبتدأ محذوف هو «هذا، أو ذلك» وصف بـأنه أنزل إلى رسـول الله ﷺ بمعنى أن منزله إليـه هو سبحانه وتعـالى ، والمراد بالكتاب هـو القرآن العظيم، وجاء الفعل «أنزل» مبنيـا للمجهول لبيان عدم الحاجـة إلى ذكر الفاعل صراحة. فتكون الجملة خبرية تفيـد نزول القرآن العظيم المشار إليه إلى رسول الله ﷺ

من لدنه تعالى .

ثم يجىء قوله تعـالى «فلا يكن فى صدرك حرج منه» وهو نهـى عن أن يكون فى قلبه ﷺ مما كلف به فى شأن الكتاب حرج ـ بمعنى ضيـق أو شك ـ وليس المراد بالقول نهيه ﷺ عن الضيق بالقرآن العظيـم أو الشك فيه. فهذا مما لا يجول بعقل، وإنما الضيـق المنهى عنه هو الضيق من عـدم إيمان المشركين به، فهـو مثيل قوله تعـالى «فلعلك باخع نفسـك ألا يكونوا مؤمنيـن»، وهو الشك فـى أن يصدقه المشـركون، فيكـون مفاد القول هـو إعلامه ﷺ أنـه غير مكلف بإيمانهم وغيـر مسئول عنهم وأنه ليس عليه سوى البلاغ، فإن لم يـؤمنوا فلا يكون ثمة سبب للضيق من ذلك أو استشعار الحرج.

وقد تأكد هذا المعنى بقوله تعالى «لتنذر بـه وذكرى للمؤمنين» فأظهر القول أن ما كلف به رسـول الله ﷺ هو أن ينـذر به المشـركيـن، بأن يبلغهـم ما أنـزل إليهـم من ربهـم فى القـرآن ويدعوهم لـلإيمان منذرا بعذابه تعالى المـوصوف فى القرآن. وهو أيضا تذكيـر المؤمنين بما وجب عليهم من الطاعات بصفتهم المنتفعين به ومنه والمبشرين بالثواب. وربما جاء الإنذار ـ وهو للمشـركين ـ قبل التذكيـر للمؤمنين لأن الدعوة تبدأ بتـوجيهها إلى الكافريـن، فإن آمن منهم من آمـن بعد علم، يكون من بعـد تذكيره بما آمن به وإعـلامه ما لم يكن يعلـم أو ما لم يحط به علما .

ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣

التفســــير:

الخطاب ـ فى الآية ـ إلى عموم المكلفين، وهو أمر باتباع القرآن العظيم، ذكر بأنه ما أنزل إليهم من ربهـم وفى ذكر «ربكم» إشارة إلـى كونه لصالـح العباد لصدوره من متولـى أمورهم وراعيهم. والمفهوم مـن الأمر أنه أمر باعتنـاق الإسلام الذى هو مشمول القـرآن العظيم ودعوة رسوله ﷺ، وقيل إن المراد بما أنزل إلى الخلق هو القرآن والسنة، ومع الإقرار بأن سنته ﷺ هى

المصدر الثانـي لاستنباط الأحكام الشرعية وأنها منـه تعالى بواسطة رسولـه ﷺ، إلا أننا نرى - والله أعلم - أنها لا تدخـل فى معنى المراد مما أنزل من رب العباد، لأن الأمـر - على ما يبين - متعلق بالدعوة فى مبتدئها، وهى تكون للكافـرين، فتكون بالقرآن العظيم، ثم يكون - من بعد الإيمان - الإيمان لما يقوله الرسول ﷺ .

وقوله تعالـى «ولا تتبعوا من دونه أولياء» هو نهـى للمخاطبين بالنص عن تجـاوز ربهم إلى غيره يتخذونـه أو يتخذونهم أولياء، فيكون المنهى عـن اتخاذهم أولياءهم كل معبـود من دونه تعالى، وكل داع إلى شرك أو كفر من شياطين الجـن والإنس والكهنة، وكل صاحب بدعة فى الدين ضل بها وأضل عن الحق.

ثم يجىء قولـه تعالى «قليلا ما تذكـرون» مقررا واقعا فى شأن مجموع المخـاطبين بالنص وهو أن تذكرهـم ما أمرهم به ربهم وعملهم بـه يكون قليلا، والقلة متعلقة بزمـان التذكر فيكون مفاد القـول أنهم إنمـا يتذكرون أوامـر ربهم ويعملـون بها زمـانا قصيرا ويغفلـون ذلك زمـانا أطـول.

وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾

أولا : الأســـــماء :

١ - **البيات** : فى قوله تعالى «فجاءها بأسنا بيـاتا» هو الليل لأنه يبات فيـه فيكون المـراد بـ «بياتا» هو «ليلا» .

٢ - **القائل**: فى قوله تعالى «أو هم قائلون» مـن «القائلة» أو القيلولة وهى نوم نصف النهار أو الـراحة فيـه. فيكون المـراد بـ «قائلـون» في معنـى الآية هـم النـائمون وقـت القيلولـة أو المستريحون فيه.

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالـى - فى الآية - شروع فى تـذكير المكلفين بما وجب عليهم وإنـذارهم بالعقاب جزاء على إصرارهم على الكفر والعصيان بذكر ما أصاب من سبقوهم من العذاب جزاء على

الكفر والعصيان .

وفى القول جـاءت «كم» لبيان الكثرة، مبنية علـى السكون فى محل رفع لأنهـا مبتدأ، وما بعدها خبرها، «وقرية» تمييز فيكون المعنى هو «إنه كانت قرى كثيرة أهلكناها».

وقولـه تعالى «فجـاءها بأسنـا بياتا أو هـم قائلون» أثـار فيه العطف بـالفاء فى «فجـاءها» إشكالا، وذلك لأنه سبق ذكر الإهلاك، فقيل إنـه غير متصور أن يحدث الإهلاك قبل أن يجىء البأس أو العذاب، وقد رد البعض على هذا بأن «الفاء» جاءت بمعنى «الواو» فلا تفيد الترتيب الزمنى كما فى قوله تعالى «فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله»، وقيل إن المعنى هو «وكم من قرية أهلكناهـا فى حكمنا فجـاءها بأسنـا»؛ وقريب منـه أن يكون المراد بـإهلاك القريـة هو إرادة إهلاكها فيكـون مفاد القول «وكم من قـرية أردنا إهلاكهـا». ثم إنه تعالى يبيـن كيفية حصول إهلاك هذه القرى بقوله تعالى «فجاءها بأسنا بيـاتا أو هم قائلون» بمعنى أن عذابه تعالى كان يقع بهذه القرى بتدميـرها ليلا أو فى وقت القيلولة لتكون المفاجأة فيتحقـق من هولها عذاب النفوس. وفى القول يلاحظ أنه لم يقل تعالـى «بياتا أو وهم قائلون» و إنما استغنى عن الواو ـ وتسمى واو الوقت ـ وذلك لأن فى الجملة ضميرا، فقال تعالى «أو هم قائلون»

فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾

التفســـــــــير:

قوله تعـالى ـ فى الآية ـ فـى بيان ما كان من أحـوال القرى السابقة عند إهلاكهـا، أريد به ترهيب الكافرين، وفى القول يتصور أن تكـون «دعواهم» هى اسم كان وأن يكون الخبر «إلا أن قالـوا»، ويتصور أن يكون «إلا أن قـالوا» هـو اسم كان وأن تكـون «دعواهم» خبـرها فكـل من الأمرين جائز، والثانى هو الأرجح .

ومفاد قوله تعالى أنه لم يكن من أهل هذه القـرى عند حلول عذابه تعالى بها غير دعائهم إياه، واستغاثتهم به معتـرفين على أنفسهم بأنهم أذنبوا ومقرين بظلمهـم، تحسرا وندامة على ما كان منهم، وطمعا فى أن يؤدى اعترافهم بالذنب إلى العفو عنهم .

فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾

التفســـــير:

بعد أن بين تعـالى أنه عذب الكافـرين المصرين على الكفـر فى الحياة الدنيا بـإهلاكهم فإنه تعالـى أشار فى الآية إلى ما يكون عليـه الحال معهم فى الآخرة من العـذاب. فالفاء فى «فلنسألـن» هى للترتيـب الزمنى، أظهـرت أن القول يتعلق بعـذاب لاحق هو عـذاب الآخرة، واللام هى «لام القسم» جاءت لتأكيد المعنى والخبر.

ومعنى القول أنه يكـون منه تعالى سـؤال الكافريـن عن ذنوبهم سؤال تقريـر وتوبيخ، كما يكون منه تعالى سـؤال الرسل سؤال استشهاد بهم عما أجابهم به أقـوامهم، وذلك ليكون منه تعالى حسابهم.

فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ــ فى الآية ـ متعلق بما يكون منه تعـالى من بعد سؤاله الكافريـن عن فعالهم سؤال تقرير وتوبيخ، وسـؤاله الرسل عما كان من الكافرين وأقوامهـم معهم فى الحياة الدنيا، سؤال استشهاد، ومن بعد إجابة الرسل ـ على المعلوم ـ «لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب». فيذكر تعـالى أنه يكون بعد ذلـك أنه يتم ذكر جميع أعمال مـن ستلوامن الكافريـن، وقيل إنه يكون كتابا ينطق بالحـق، ولهذا جاء قوله تعالى «فلنقصن عليهم بعلم» لبيـان صدق ما يذكر ويقص، وكونه قول علم ويقين.

ثم يقول تعـالى «وما كنا غائبيـن» لبيان أنه ما مـن لحظة يمضيها أحد فى الـدنيا، فى أى مكان وجد فيه إلاكان خلالها منظورا منه تعالى معلـوما له ومعلومة أفعاله وسكناته. فسبحانه جل وعلا هو مع الخلق أينما كانوا.

﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ يفيد الإخبار بما يكون يوم القيامة مع الخلق جميعهم من بعد سؤالهم وسؤال رسلهم عنهم، ومن بعد قص ما فعلوا عليهم. فيبين من القول أن ما ورد ذكره أنه يكون مع الكافرين والعصاة يكون مع المكلفين جميعا. أما الذى يكون فى هذا اليوم فهو وزن أعمال المكلفين، وفيه قيل إن الأعمال هى التى توزن، وقيل إن ما يوزن هو صحائف وردت فيها الأعمال، واستدل القائلون بهذا بما روى عن أن ميزان بعض الخلق يكون بالحسنات خفيفا فيوضع فيه رق مكتوب فيه «لا إله إلا الله» فيثقل .

كذلك قال البعض إن الأعمال أو صحائف الأعمال توزن بميزان حقيقى له لسان وكفتان تنظره الخلائق، وقال آخرون إن المراد بالوزن والميزان هو العدل فى القضاء وإنه ليس ثمة ميزان وإنما الأمر محض تمثيل، ورد على ذلك بأن هذا ما ورد فى الأسانيد الصحاح فالأولى اتباعه .

وقوله تعالى «فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون» هو ذكر لما يكون من بعد الميزان. ويلاحظ فى النص أن الإخبار جاء متعلقا بثقل الموازين ـ وردت فى صيغة الجمع ـ فقيل إنه يكون للمرء عدة موازين يوزن بكل منها نوع من أعماله. وقيل هو ميزان واحد عبر عنه بلفظ الجمع كما فى قوله تعالى «كذبت قوم نوح المرسلين» والمراد بمن كذب هو نوح عليه السلام، وكما فى قوله تعالى «كذبت عاد المرسلين» .

والمخبر عنه هو أن الذين تثقل حسناتهم سيئاتهم يكونون هم المفلحين، بمعنى الفائزين بثوابه تعالى وجنته من بعد نجاتهم من عذابه

﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩﴾

التفســــــير:

بعد أن ذكر تعالى حال الذين تثقل حسناتهم سيئاتهـم، فإنه تعالى يذكر ـ فى الآية ـ حال الذين خفـت حسناتهم فثقلت سيئاتهـم حسناتهم أشار إليهـم سبحانه وتعالى وأخبـر بأنهم الذين خسروا أنفسهم، بمعنى أنهم ضيعوا ما جبلت عليـه نفوسهم من إيمان بالفطرة، ثم بين تعالى أن خسارتهم إيمانهم كانت بتكذيبهم بآياته تعالى وجحدها، يدخل فى الآيات آيات القرآن العظيم والحجج والبراهيـن الدالة على وحدانيته تعالى وعلـى نبوة رسوله ﷺ ووجوب طاعته. فهذا هو الظلم .

ومن الآية يبيـن أنه يكون مع الكافريـن وزن الأعمال كما يكون مع المؤمنيـن، وإن كانت أعمال الكافـرين الحسنة حابطة لا يخفـف بها عنهم العذاب كمـا يبين من قوله تعـالى «فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا» بمعنى عدم الاعتداد بما يوزن لهم من حسنات ـ لدى القائلين بهذا المعنى .

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

أولا : الأســـــــماء :

معايش : جمع، مفرده «معيشة» و«معـاش» والمراد به ـ فى معنى الآية ـ كـل ما يكون به العيش وتكون الحياة من المطاعم والمشارب والمأوى .

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ شروع فى ذكر نعمه تعالى التى أنعم بها على خلقه، تقبل أن يكون المراد من ذكـرها هو الترغيب فى قبـول دعوة رسول الله ﷺ، وتقبل أن يكون المـراد هو الإنذار بالحرمان منها .

ومعنى القول أنه تعالـى جعل للمخاطبين من الأرض مكانا وقرارا كما أنـه تعالى أعطاهم القدرة على ما فيها ليسخروه لمصالحهم بتمكينهم من زراعة الأرض وركوب البحر واستنس

الحيوان وغيره. وأنه تعالى جعل لهم فى الأرض مما خلق ما يتعيشون به ويحيون .

ثم إنه تعالى يبين للمخاطبين أنهم لم يـؤدوا حق نعمه تعالى عليهم من الشكر كما ينبغى وأنهم قليلا ما يشكرون أو أن الشاكرين منهم قليل، ولهذا قيل إن المستفاد من النص يقبل أن يكون إنذار المكذبين وجاحدى النعمة .

وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾

التفســـــــير:

قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ ذكر لنعمـة خلق الإنسان أو خلـق المخاطبين بنص الآيـة، جاء ذكرها من بعد ذكر نعمة تمكينه الناس فى الأرض وجعلـه تعالى لهم فيها معايش مع أن خلق أبيهم آدم هو الأسبـق، لأن مخاطبتهم فى شأن المحسـوس منهم تكون أجل أثـرا فى النفوس لينتقل بعدها إلى ذكر مبدأ النعم .

والمراد بقوله تعالى «ولقد خلقناكم ثم صورناكم» هو كناية عن خلقه تعالى آدم أبى البشر من الطين غير مصور، ثم حصول تصويره منه تعالى على أكمل وجه وأحسن تقويم مما انتقل إلى أبنائه. وقيـل إن المراد بالخلق هـو خلق الإنسان من النطفـة وأن التصوير كان بعـد ذلك بإنشاء السمـع والبصر والأعضاء، وقيل إن المراد بـالخلق هو الخلق فى أصـلاب الرجال وأن التصوير هو ما يكون فى أرحام النساء .

وقوله تعالى «ثـم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكـن من الساجدين» يفيد أن الأرجح قبولا فى شأن المراد من الخلق هو خلق آدم أبى البشر عليه السلام من الطين، وأن المراد من التصوير هـو تصويره من بعد خلقه فى الطين. ومفاد «ثم» فـى القول هو ترتيب الأخبار وليس ترتيب وقوع الأحداث فى الزمان، وذلـك لأن مبدأ أمره تعالى الملائكة بالسجود لآدم كان قبل خلقه على ما يبين من قوله تعالى للملائكة «فإذا سويته ونفخت فيه من روحى

فقعوا له سـاجدين» ثم كان منه تعـالى بعد خلقه آدم أنه عيـن له من أمرهم بالسجـود له كما جاء بقوله تعالى «اسجدوا لآدم» .

ثم إنه تعـالى يذكر أنه حيـن عين للملائكة شخص مـن أمرهم بالسجود لـه وهو آدم كان منهم السجـود له، ثم إنه تعـالى استثنى مـن الساجديـن إبليس، ذكر تعالـى أنه لم يكـن من الساجدين، فدل على أنـه لم يسجد مع عموم الساجدين كما أنه لـم يسجد له وحده منفردا. وفى شـأن طبيعة إبليس، فإن ظـاهر النص يفيد أنـه كان من الملائكـة، وقيل إنه ـ وهـو من الجن ـ كان فى وسـط الملائكة مغمورا بهم متصفا بالكثير من صفاتهـم، فجاء استثناؤه ـ فى النص ـ استثناء واحد منهم .

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾

التفســـــــير:

قوله تعالى ـ فـى الآية ـ ذكر لما كان منه تعالى عندما لـم يسجد إبليس لآدم، وما كان من إبليـس ردا على هـذا. والمستفاد مـن رواية الحـديث مبـدوءا بـ «قـال» هو بيـان عدم تعلـق المحكى عنه بـالمخاطبين بالنص أو المـروى لهم بطريق مبـاشر، على ما يبين مـن مقارنته ـ لدى ذكر الخلق ـ بقوله تعالى «ولقد خلقناكم».

ومعنى قوله تعالى «ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك» فى قوله تعالى لإبليس هو «ما منعك أن تسجد» أو «مـا منعك من أن تسجـد» فالمشهور أن «لا» جاءت فـى القول مزيـدة، ودل على ذلك قوله تعالى ـ فى آية أخرى ـ «مـا منعك أن تسجد». وقيل إنها غير مزيدة وأن المعنى هو «ما اضطـرك إلى أن لا تسجد». ويبيـن من النص أن عـدم سجود إبليـس كان مخالفـة لأمره تعالى بالسجود «ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك» .

ثم يبين النص ما كان من إبليس عندما سأله الله تعالى عن سبب عدم سجوده لآدم إذ أمره بذلك، وذلك بقوله تعـالى «قال أنا خير منه» ويبين من الإجابة حمـاقة إبليـس وكبره، ذلك أنه

لما كان السؤال الموجه إليه متضمنا معنى التوبيخ فإن المقبول عقلا هو أن تكون الإجابة عليه بالاعتذار بذكر سبب لنفى سبب التوبيخ، لكن ما كان منه اللعين هو ذكر سبب مستمد من الكبر ومفيدا إعمال العقل لدى تنفيذ أوامره تعالى وهى ما يقال فيه سمعنا وأطعنا .

وقول إبليس هو «أنا خير منه» فهو ـ من جهة ـ جدل يجد أساسه فى القول بالحسن والقبح بمعيار العقل وهو من جهة ثانية ـ على ما يبين من باقى قوله «خلقتنى من نار وخلقته من طين» ـ تعالى على آدم فقال إنه أشرف منه، والأشرف لاينقاد إلى الأدنى. ذلك أن مفاد قوله أنه خلق من النار، وهى عنصر علوى نيّر قوى، وأن آدم خلق من الطين وليس له صفات النار السامية فهو أدنى منها، ثم إنه رتب على ذلك نتيجة مفادها أنه أعلى مرتبة من آدم وأشرف مما لا يليق معه أن يسجد له .

قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾

التفســــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ استئناف لقص ما كان من إبليس وما كان منه تعالى معه. يذكر تعالى أنه قال لإبليس «فاهبط منها» ويبين من «الفاء» أن أمره تعالى إبليس بالهبوط جاء مترتبا على ما صدر منه، ومعنى الهبوط هو الانحدار قهرا أو الانتقال مما هو شريف إلى ما هو دونه، والضمير فى «منها» يعود إلى الجنة، وفى شأنها قيل إنها الجنة التى يسكنها المؤمنون يوم القيامة، وقيل إنها روضة فى عدن فيها خلق آدم عليه السلام وكانت على نشز من الأرض. والمعنى أنه تعالى أمر إبليس بالهبوط من الجنة. ثم إنه لما كان المعلوم أن طرد إبليس من الجنة كان من بعد وسوسته لآدم، فإنه لزم القول أن الوسوسة كانت بوقوف إبليس بباب الجنة، أو أن يكون معنى القول هو النهى عن اتخاذها مأوى له، أو أن تكون الجنة فى الأرض فكان الهبوط منها إلى جزائر البحار.

وقوله تعالى «فما يكون لك أن تتكبر فيها» هو إخبار بأنه لا يصح من اللعين أن يكون منه

تكبر فى الجنة، ولايفيد القـول أنه يجوز التكبر فى غير الجنة. وإنما لمـا كان التكبر منهيا عنه فى الأرض فإنه يكون منهيا عنه ـ من باب أولى، وعلـى وجه أوضح ـ فى الجنة. هذا مع ما هو معلوم من أن تكبر إبليس كان على الله تعالى بعدم الإذعان له وبعصيانه، وكان على آدم بقوله إنه خير منه، وعلى الملائكة بزعمه أن له صفات خاصة ميزته عليهم وأخرجته من عمومهم .

ثم يجيء قوله تعالى لإبليس «فاخرج إنك من الصاغرين» تكرارا للأمر بالهبوط من الجنة وهو يستلزم الخروج منها، وبيـانا لسببـه وهو كون اللعيـن من أهل الصغـار، وهوانـه على الله تعـالى .

قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾

التفســــــير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ قول إبليس عندمـا أمره سبحانه وتعالى بالخروج من الجنة واصفا إياه بالهـوان. وقول إبليس هو «أنظرنى إلـى يوم يبعثون»، وهو طلب ألا يمـوت لأن يوم البعث يكون بـالنفخة الثانيـة فى الصور، ولا مـوت بعد البعـث. ولم يأت بنـص الآية ما يفيـد تعيين الذين يبعثون، والظاهر من القرائن أنهم آدم وزوجه وذريتهما .

قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

التفســــــير:

مفاد قولـه تعالى ـ فى الآيـة ـ أنه أجاب إبليس إلـى طلبه فقال له «إنك مـن المنظرين» وظاهـر الآية يظهر أنه أُمهـل إلى يوم البعث، إلا أنـه ورد فى سورة «الحجر» وسـورة «ص» أنه «يوم الوقـت المعلوم»، ثم إنه لمـا كان المكلف غير مفتـرض فيه أن يعلم متى يمـوت كى لا يباشر المعاصى إلى أن يدنو أجله فيتوب. فقد قيل إنه يموت يوم الحشر، وقيل إنه يموت قبل يوم النفخة الأولى بكثير. وقيل فـى شأن موته الكثير ومنه ما نقل عن ابن مسعـود من أنه عندما تطلع الشمس من مغربها فلا يقبل من أحد توبة يخر إبليس ساجدا يتوسل إليه تعالى أن يأمره

فيسجد لمن شاء فتجتمع إليه الشياطين تسأله إلى من يفزع فيجيب بأنه سأل الله تعالى أن ينظره إلى يوم البعث فأنظره إلى يوم الوقت المعلوم، وأنه يوم طلوع الشمس من مغربها. وإذا صح ورود هذا القول عن ابن مسعود فإنه يتعين قبوله، ولكن يبقى أن إسناده إلى ابن مسعود هو محل تردد كثيرين من أهل العلم .

قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾

التفســـــــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ ذكر لما قاله إبليس اللعين، وبدأ قوله بالقسم به تعالى لما علم من قدره تعالى وقدرته عليه التى أغواه بها، فيكون معنى قوله هو «فبما أضللتنى» لأن الإغواء ـ فى معنى الآية ــ هو الإضلال. وذلك لأنه تعالى أضله بأن خلق فيه الكفر، فما فى الوجود من شيء إلا وهو مخلوق له تعالى. وقيل إن الإغواء المنسوب إليه تعالى من إبليس ــ فى معنى الآية ـ هو الإهلاك باللعنة فيكون معنى القول هو «بلعنك إياى» واستدل على هذا المعنى بقوله تعالى «فسوف يلقون غيا» بمعنى هلاكا، فيكون الإغواء أو اللعن هو سبب ما أقسم عليه.

والذى أقسم عليه إبليس هو ما جاء بقوله «لأقعدن لهم صراطك المستقيم» وهو أن يقعد لهم ـ أى لآدم وذريته ـ مترصدا ليصدهم عن طريق الله المستقيم الموصل إلى رضائه تعالى وإلى الجنة فكأن القول هو «لأقعدن لهم على صراطك المستقيم».

ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾

التفســـــير:

القول تتمة قول إبليس يذكر ما سيفعل بآدم وذريته ، فهو يذكر أنه سيهاجمهم مهاجمة

العدو عـدوه ، فيأتيه من الجهات الأربـع ، فهو سيـأتى آدم وذريتـه بوسوستـه من أمـام ومن خلف، ومن يمين ومـن شمال وقيل إن المراد بما هو بين الأيدى هـو الآخرة تكون مستقبلة ، وأن المراد بالخلف هو الدنيا يخلفها المرء وراءه ، وإن المراد باليمين هو الحسنات ، والمراد بالشمال هـو السيئات . وقيل إن عدم ذكر جهـة الفوق كان لأن الرحمة تنـزل منها ، وإن عدم ذكر جهة التحت كان لأن الإتيـان منها يشعر بالخوف والوحشة فلاتكـون منها وسوسة وإغراء وقيل إن هذا جميعه قد ورد على سبيل التمثيل وليس الحقيقة فالمراد هو أنه اللعين يوسوس للإنسان من كل جهة وكل سبيل يمكن أن تكون منها الوسوسة.

وقول اللعين «ولاتجد أكثرهم شاكرين» مفاده أنه يكون من أثر وسوسته وكيده لآدم وذريته ألايكون من بنى آدم طائعون يشكرون الله على نعمـه إلا قليلين . وهذا هو اعتقاد إبليس أو ظنه على مايبين من قوله تعالى «ولقد صدق عليهم إبليس ظنه».،

قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

أولا : الأســــــماء :

١ـ المذءوم : فى قولـه تعالى «اخرج منها مـذءوما» اسم مفعول من «ذأم ـــ يذأم» بمعنى ذم، فالمذءوم هو المذموم بعيب .

٢ ـ المدحـور: فى قـوله تعالـى «اخرج منها مـذءوما مدحـورا» اسم مفعول مـن «دحر- يدحر» بمعنى طرد، وأبعد. فالمدحور هو المطرود المبعد.

ثانيا : التفســـــــير:

الآية فـى قوله تعالـى لإبليس بعد قسمه علـى إغواء آدم وذريته، تقـول إنه تعالى قـال له «اخرج منها» أى اخرج من الجنة ـ وقيل إن الخروج هو من زمرة الملائكة وقيل إنه من السماء ـ وبين تعالى حال إبليس فى خروجه فبين أنه يخرج مذموما مطرودا .

ثم إنه تعـالى توعد إبليس ومـن تبعه وأطاعه من ذريـة آدم بقوله تعالى «لمـن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين» جاء قوله تعالى جـوابا لقسم، ومفاد القول أنه سيملأ جهنم من إبليس وممن اتبعوه وأطاعـوه على ما يبين من «منكم» وفى قوله تعـالى «لأملأن جهنم منكم أجمعين» غلب فيه المخاطب كما فى قوله تعالى «أنتم قوم تجهلون». والواجب ملاحظته أن مخاطبة الله تعالـى إبليس لم تكن مخاطبة تشريـف بل كانت مخاطبة تعنيـف وتعذيب. وقد قال البعض إنها كانت بواسطة الملائكة، وليس على هذا دليل ـ من النص ولا من الأثر.

وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾

التفســـــــير:

مفاد قـوله تعالـى أنه قال لآدم عليه السـلام ولزوجه أن يسكنـا الجنة بمعنى أن يتخـذاها مسكنا، وأنه تعالى أبـاح لهما الأكل مما فى الجنة من صنوف الطعام والثمـار، ثم أتبع تعالى هذا بنهيه عـن القرب من شجرة أو نبتـة معينة ونهاهما عـن أن يكونا ظالميـن. وسبق تفصيل تفسير قوله تعالى فى الآية ٣٥ من سورة البقرة.

فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾

التفســـــير:

يقص تعالى ـ فى الآية ماكان من إبليس مـع آدم وزوجه، ويلاحظ ـ من عبارة النص ـ أنه

تعالـى لـم يذكـر إبليس بـاسمه و إنما ذكـره بصفته الشيطانيـة وأن اللفظ جـاء معرفا بـالألف واللام، فدل علـى أنه هو الشيطان إذا أطلق اللفـظ، وعلى أنه أصل الشياطيـن ، وعلى أنه لا يكون من الشيطان مع الإنسان إلا الأذى.

أما فعل إبليـس مع آدم وزوجه فكان الـوسوسةبأن يفعـلا فعلا يغضب الله تعالـى، فيكون فعل عصيان، ثم إنه تعالى يظهر عاقبة الوسـوسة، أو عاقبة الاستجابة لها وهى إبداء عورتيهما لهما. فاللام فى «ليبدى» هـى «للعاقبة» فالراجح هو أن إبليس لم يكن يعلـم أنه تعالى يفعل هذا بهما نتيجة انصياعهمـا لوسوسته. وقيل إنها للتعليل، بمعنى أن الشيطـان أراد هذا لكونه عالما به من الاطلاع عليه فى اللوح المحفوظ أو من الاستماع إلى الملائكة يتحدثون به. وقد جاء التعبير عـن العورات بالسوءات لأن كشفها مـن غير حاجة مستهجن فـى الطبع. وقيل إن عورتيهما كانتا مستورتين بالنور فكانا لا يريانها .

والفعل الذى وسوس به الشيطان لآدم وزوجه هو قولـه لهما فى وسوسته «ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا مـن الخالدين» بمعنى أنه أدخل فى نفسيهما أن علة نهيه تعالى إياهما عن الأكل من الشجرة أو النبتـة التى نهاهما عن الأكل منها هى كراهة أن يصبحا ـ بـأكلهما منها ـ ملكيـن، أو أن يكونا خالـدين، لا يحل بهما المـوت، فكأن عبارة القول هـى «لئلا تكونا ملكيـن أو تكونا من الخـالدين»، فيكون مضمـون الوسوسة حثـا على مخالفة أمره تعالى، وهو النهى عن الأكل من الشجرة، وذلك بالأكل منها.

وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾

التفســـــــير:

يذكر تعالى ـــ فى الآية ـ أن الشيطان أقسم لآدم ولزوجه بعد أن قال لهمـا ـ فى وسوسته ـ قوله أنه إنما أراد نصحهمـا، أو أنه يريد ما فيه صالحهما. وقيـل إن استعمال صيغة المفاعلة «قاسمهما» تدل على حصول القسم من إبليس وقبوله من جانب آدم وزوجه .

■■■■■

فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

التفســــــير:

يذكر تعالى ـ فى نـص الآية ـ نتيجة وسوسة إبليس لآدم وزوجه وقسمه لهما أنه ناصح إياهما بقـوله تعالى «فـدلاهما بغرور» بمعنى أنـه أنزلهما بفعله وحـط من شأنهما فهبطا من درجة الطاعـة إلى درجة العصيان، وأن ذلـك الهبوط حدث بما غرهمـا به من الوسـوسة ومن القسم. فالباء هـى للمصاحبة أو الملابسة. ومفاد هـذا أنهما أطاعا إبليس فأكـلا من الشجرة المحرمة .

ثم إنه تعالـى يذكر واقعة أكلهما من الشجرة بطـريق التصريح ويذكر ما تـرتب على ذلك بقوله تعالى «فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة». وقوله تعالى يفيـد أنهما ارتكبا العصيان بأن أكلا من الشجرة شيئا قليلا أو أنهمـا تذوقا ثمرها «فلما ذاقـا الشجرة»، والنتيجة التـى ترتبت على هـذا هى ظهور سـوءتيهما ـ أى عـورتيهما ـ لهما، بمعنى أن كلا منهما أبصر عورته وعورة صـاحبه، وأنهما جعلا يأخذان من ورق أشجار الجنة ويلصقان بعضه ببعض ويضعانه فوق عورتيهما لإخفائهما .

ثم يذكـر تعالى ما كان منـه معهما بقوله «ونـاداهما ربهما ألم أنهكما عـن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عـدو مبين». ومفاد القول أنه تعالى ناداهمـا وأن نداءه كان بقوله تعالى «ألم أنهكما....» بمعنـى أنه كان نداء تقريع وتوبيخ أشار فيه تعـالى إلى الشجرة التى نهاهمـا عن الأكل منهـا، وعاتبهمـا على فعلهما بـذكره أنه تعـالى نهـاهما عن الأكـل منها فخالفا نهيه، فيكون الاستفهام فـى قوله تعالى «ألم أنهكما» للإنكار. ثم إنـه تعالى يبين لهما جسامة خطئهمـا بتذكيرهما أنـه تعالى حذرهمـا من الشيطان فعرفهمـا أنه لهما عدو ظـاهرة عداوته مما كان يتوجب عليهما معه الحذر منه وعدم طاعته وهو ما لم يفعلاه .

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

التفســــــير:

قوله تعالى ـ في الآية ـ ذكر لما كـان من آدم وزوجه بعد سماعهما توبيـخ ربهما إياهما، فيذكر تعالى أنهما أقرا بذنبهما وبأنه كـان سببا لظلمهما نفسيهما بالهبوط بمنزلتهما من منزلة الطائعين إلى منزلة العاصين أو بإخراجهما من الجنة «ربنا ظلمنا أنفسنا» .

أما باقي قولهما «وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكـونن من الخاسرين» فهو استعطاف له تعالى أن يغفر لهما ما اقتـرفا من الذنب الذى اعترفـا به، وفيه معنى الإحساس بجسامـة خطأ مقارفة الصغائر، وأنها معاقب عليها ما لم يغفرها الله تعالى، وذلك يبين من قولهما أنه ما لم يغفر الله لهما ما كان منهمـا بواسع رحمته فإنهما يكـونان من الخاسرين أي مـن المعاقبين بخطئهما لخسرانهما رضاءه جل وعلا، أو لمعاقبتهما بذنبهما .

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

التفســــــير:

قوله تعالى ـ في الآية ـ استئناف لقصة آدم عليه السلام وزوجه و إبليس وما كان منه تعالى معهم. فيقول تعالى إنه أمرهم بالهبوط من الجنة إلى الأرض. فيكون الأمر بالهبوط موجها إلى آدم وزوجه متضمنا ذريتهما، و إلى إبليس. وقيل إنه لهم وللحيـة، ثم إنه تعالى أظهر أنه تكون بينهم العداوة على الأرض قيـل إنها تكون بين آدم وذريته وبين إبليس، وقيل إنهـا تكون ـ إلى جانب هذا ـ بين آدم وذريته وبين الحية، وقيل إنها تشمل أن تكون العداوة ـ مع هذا جميعه ـ بين ذرية آدم بعضها والبعض .

وقولـه تعالـى «ولكم في الأرض مستقـر ومتاع إلـى حين» مفاده أنـه تعالـى جعل الأرض

للمخاطبين بالقول محل استقرار لهم يتمتعون فيها بما يقتاتون به وبما يروحون به عن نفوسهم من أنواع المتـع الحلال منها والحرام إلى أن يـأتيهم وقت الموت، أو أن يكون ذلـك للأحياء على الأرض إلى يوم القيامة .

قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

التفســــــير :

قوله تعالى ـ فى الآية ـ تتمة حديثه مع آدم وزوجه وإبليس، يذكر تعالى أنه قال لهم «فيها تحيون وفيها تموتـون ومنها تخرجون» بمعنى أن حياتهم تكـون فى الأرض، وفى الأرض يكون موتهم، ومنها يكون بعثهم يوم القيامة .

ولا ينفى هذه الحقيقة أن من الناس من يموت وهو فى الجو مثل من يموت وهو فى طائرة، أو من يموت وهـو معلق فى الفضاء مثـل القافز بمظلة مـن طائرة، وأنه يتصور أن يمـوت أحد رواد الفضاء حال وجوده على القمر أو على أحد كواكب المجموعة الشمسية .

بيان ذلك أن من يموت فى طائرة أو معلقا فى الفضـاء إنما يكون موته فى الغلاف الجوى للأرض وهو مجموعة الغازات المعروفة بالهواء، وهو من ملحقات الأرض، وأن من يموت وهو على سطح القمر أو على سطـح أحد كواكب المجموعة الشمسية يكون مـوته على أرض من أراضى الله، فالأرض ـ فى اللغـة ـ هى كل ماسفل، وهى اسم جنـس، فيكون وجود المرء على سطح القمر أو على سطح أى كوكب هو وجود علـى الأرض، فإن مات حيث هو كان موته فى الأرض.

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

أولا : الأســــــماء :

١ ـ **الريش:** فى قولـه تعالى «لباسا يـوارى سوءاتكم وريشا» هو كسـاء الطير، ويستعمل بمعنى اللباس الفاخر، وبمعنى الزينة .

٢ ـ **لباس التقوى** : قيل إن المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو العمل الصالح .

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ عدول إلى مخـاطبة بنى آدم، وموضوع الخطاب يتعلق بما كان من أبويهـم عندمـا بدت لهمـا سوءاتهما وطفقـا يخصفان عليهمـا من ورق الجنـة. فهو تعـالى يعلمهم أنـه تعالى قـد أنزل لهـم من السماء مـاء نبت به مـن النبات مـا يتخذ لباسـا يوارى السوءات والعورات مثل القطن والكتان، ومنه يشرب الحيـوان ومما ينبت به يقتات فيتخذ من صوفه أو أوباره لباسا. وقيل إن المراد بالنزول من السماء هو نزول ما كتب فى اللوح المحفوظ، كما ذكر تعالى أنه قد أنزل عليهم الريش، وهذا يدعم أن المراد بما أنزل هو الماء لأنه لا حياة للطير الذى يتخذ ريشه زينة أو لباسا بغيره، والمعلـوم أن من القبائل البدائية ما يوارى أفرادها عوراتهم باستخدام الريش فضلا عن استعماله فى التزين .

ثم إنه تعالـى يذكر أن خير لباس هو لبـاس التقوى، بمعنى أن خير ما يستر بـه المرء عيوبه ومساوئه هـو تقوى الله لأنها مفاد تقـواه تعالى ألا تكون مـن المرء السيئة التى تخـص، فيكون القول انتقالا مـن بيان ستر العورات إلى بيـان أفضلية الاحتماء من المعاصـى بتقوى الله على كل عمل .

ثم يجىء قوله تعالى «ذلك من آيـات الله ، لعلهم يتذكرون» والقول يقبل أن يكون المشار إليه هو اللباس الوارد ذكره فى الآية والريش المتخذ سترا للعورة أو للزينة، ويقبل أن يكون هو لباس التقوى، كمـا يقبل أن يكون هو مجمـوع ذلك، يكون فى التفكر فيـه وفى كونه مـن آياته تعالى فى خلقه ما تكون به الموعظة فيكون التـورع عن مقارفة القبائح فكأنه تذكير بما جبلت عليه النفوس بالفطرة من إيمان مقرون بالعمل الصالح .

■■■■■

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾

أولا : الأســــــماء :

القبيل: فى قولـه تعالى «إنه يـراكم هو وقبيله» هو الجمـاعة، إن اتحدوا فى الأصـل كانوا قبيلة، والمراد به ـ فى معنى الآية ـ جنود إبليس من الجن لأنهم من نوعه.

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالى ـ فـى الآية ـ يتضمن نهيا مع بيان علته، كما يتضمن خبـرين يعتبر ثانيهما حثا على التزام ما نهى عنه تعالى فى مبتدأ الآية.

فالنهـى المتضمن بيان علتـه هو قـوله تعالـى «يا بنى آدم لا يفتننكـم الشيطان كمـا أخرج أبويكم من الجنـة ينزع عنهما لباسهما ليريهمـا سوءاتهما». خاطب به تعـالى بنى آدم بتكرار النداء، ونهـاهم تعـالى عن الاستجـابة لوسـوسة الشيطـان فيكون منهم الـوقوع فـى الفتنة أو المحنة، وظاهر القول أن النهى للشيطان وحقيقته هى نهـى أبناء آدم اتباعه والافتتان بما يزين لهم.

وعلة النهـى هى تجنـب أن يكون حـال المنهيين عـن اتباع الشيطـان مثل حـال أبويهـم اللذيْن وقعا فى فتنة الشيطان فكان هبوط منزلتهمـا وخروجهما من الجنة، وهو ما تحقق بنزعه عنهما ـ باستجابتهما له ـ ما كان يوارى سوءاتهما مما ترتب عليه رؤيتهما سوءاتهما فاستحقا به الخروج من الجنة .

والخبر الـذى تضمنه قـوله تعالـى «إنه يـراكم هـو وقبيله من حيـث لا ترونهـم» ومفاده أن الشيطان وأعوانه من الجـن يرون بنى آدم ويتابعونهم للنيل منهم، والمـراد بعدم رؤية بنى آدم لهم هو إبراز واقع أن مهـاجمة الشيطان وجنوده بنى آدم تكون فجأة، فكأن القـول أريد به بيان

التخويف من فعل الشيطان. وفى شأن رؤية الإنسان للجن فالراجح أن عدم الرؤية متعلقة برؤيتها على الهيئة التى خلقها تعالى عليها وليس برؤيتها على الهيئة التى تتشكل بها أو عليها، والثابت من أحاديث عديدة أن رسول الله ﷺ رأى الجن، وليس ثمة ما يفيد أنه ﷺ لم يرهم على صورهم التى خلقوا عليها، فالمعلوم أنه ﷺ رأى جبريل عليه السلام على هيئته التى خلق عليها مرتين.

والخبر الثانى الذى يعتبر حثا على التزام نهيه تعالى هو ما تضمنه قوله تعالى «إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون»، بمعنى أنه تعالى جعل الشياطين قرناء للذين لا يؤمنون، أصحاب سطوة عليهم وسلطان، يأمرونهم بوسوستهم فيطيعونهم، وكون القول حثا على التزام نهيه تعالى عن الافتتان بوسوسة الشيطان مفهوم، لأن العقل السليم يأبى أن يقبل وصفه بعدم الإيمان، كما يأبى أن يوصف بأنه مطية الشيطان الخاضع له، فيكون العمل على عدم الاستجابة لوسوسته.

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

التفســـــير:

قوله تعالى - فى الآية - حديث عن المشركين المعاصرين لرسول الله ﷺ كما يبين من أمره تعالى رسوله ﷺ أن يخاطبهم بما أمر فى شأن جرى عليه عملهم.

فقوله تعالى «وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها» تعلق بفاحشة كان المشركون قد دأبوا عليها وهى أنهم كانوا يطوفون بالكعبة عرايا كاشفين عوراتهم تعبيرا منهم عن التعرى عن الذنوب والآثام، وقولا منهم إنهم لا يطوفون بثياب قد أذنبوا فيها، وكانوا يحتجون بحجتين: أولاهما أنهم وجدوا آباءهم يفعلون هذا، وثانيهما أنه تعالى أمر بهذا، والمراد بقولهم أن آباءهم الأقدمين لم يفعلوا هذا إلا لأنه تعالى أمرهم به فيكون معنى الفاحشة - فى الآية - خاصا بكشف العورة فى الطواف، أو بالطواف عريانين.

ثم إنه تعالـى يأمر رسوله ﷺ أن يقول لهـم «إن الله لا يأمر بالفحشاء» فهو تعـالى ينهى عن الفواحش جميعها كبيرها وصغيرها ـ وجميعها كبيـر ـ فلا يكون منه أن يأمر بكشف العورة وهو فاحشة.

ثم يجـىء قوله ﷺ يقولـه للمشركين بأمـر ربه «أتقولون علـى الله ما لا تعلمون» وهوـــ فى ظاهره ـ استفهام، والمـراد به إنكار قولهم إن الله أمرهم بما يفعلون، فيكـون مفاد القول توبيخ من يقول بهذا وهو غير عالم بالحق وأنه تعالى لم يأمر به، وتوبيخا ـ من باب أولى ـ لمن يقول بهذا عالما أنه تعالى لم يأمر به .

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾

أولا : الأســــــماء :

١ ـ القسط: هو العدل ــ على ما سبق بيانـه ـ والمراد به ـ فـى معنى الآية ـ فى قـول ـ هو جميع الطاعات .

٢ ـ المسجد : فى قولـه تعالى «عند كل مسجـد» اسم زمان بمعنى وقـت السجود، واسم مكان بمعنى الموضع الذى يسجد فيه.

٣ ـ الدين : قيل إن المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو العبادة .

ثانيا : التفســــــير:

الخطاب ـ فـى الآية ـ إلى رسول الله ﷺ، يأمـره تعالى أن يقول للمؤمنيـن أو لعموم الناس ممن يدعو عليه الصلاة والسلام للإيمان «أمر ربى بالقسط، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين، كما بدأكم تعودون» .

وقوله ﷺ الذى يقـوله بأمر ربه تضمن جملـة خبرية أريد بها الأمر، وأمـرين بأداء، وإخبار أريد به التحذير.

فجملة «أمر ربى بالقسط» هى جملة خبرية مفادها أنه تعالى أمر الناس بالعدل. ومضمونه أنه أمر الناس بأن يعدلوا فى قولهم وعملهم وحكمهم وشهاداتهم، ومن العدل ألا يقولوا على الله تعالى غير الحق.

وقوله تعالى «وأقيموا وجوهكم عند كل مسجـد وادعوه مخلصين له الدين» تضمن أمرين أولهما هو بالتوجه إليه تعالى فى كل صـلاة باستقبال القبلة، وثانيهما بالإخلاص له وحده فى العبادة عمومـا، فالدعاء ــ فى معنى الآية ــ هو عموم عبادتـه تعالى ، والإخلاص فيهـا يكون بعدم الإشراك به تعالى وبعدم استهداف أمر آخر غير رضائه جل وعلا.

وقوله تعالى «كما بـدأكم تعودون» هو مثل قوله تعالى «ولقد جئتمـونا فرادى كما خلقناكم أول مرة» مفاده أنه تعالى كما خلق الخلق أول مرة وفيه كان الناس بغير أنصار ولا أموال، فإنهم يعـودون إليه تعـالى علـى ذات الحال ليحـاسبوا ويكـون النعيم لمـن آمن وعمـل صالحـا، والجحيم لمن كفـر ولمن عمل السيئات، فيكون القـول متضمنا تحذيرا بالابتعـاد عن حظيرة الكفر ومن العمل بالمعـاصى. وقيل إن المراد بالقول أنه كما خلقتـم منذ الأزل منكم المؤمن ومنكم الكافـر، فإنكم تعودون إليـه على ذات الحال يوم القيـامة. وعلى هذا القـول يكون فى قوله تعالى فى الآية اللاحقة تفصيلا لقوله تعالى «كما بدأكم تعودون».

فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

التفســــــــير:

قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ يقبل أن يكـون ذكرا لأحوال العبـاد مقطوعا عما قبلـه، ويقبل أن يكون تفصيلا لقـوله تعالى «كما بـدأكم تعودون». ومعنى قوله تعـالى أنه قد هدى فـريقا من الخلق إلى الإيمان وإلى الطـريق المستقيم هداهم سبحانه وتعالـى لأنه أراد هدايتهم ، وأن فريقا آخر من الخلـق لم يشأ سبحانه وتعالى هدايتهم فحق عليهـم الضلالة. ومفاد القول أن قضاء الأمور لا يخالف ما قدر وما ثبت فى علمـه تعالى الأزلى، فلا يقال إن علم الله تعالى لا

أثرله فى ضلال الضالين .

ثم يجىء قوله تعالى «إنهم اتخـذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون» دليلا علـى أن علمه تعالـى ليس هو ما أضلهـم، ولكن الذى أضلهـم هو فعلهم الـذى فعلوه مختاريـن وهو توليهـم الشياطين مـن دونه تعالـى، فيكون القـول بمثابة تعليـل لقوله تعـالى «وفريقا حق عليهم الضلالة» .

ثم إنه لما كان الفريق الذى حق عليهم الضلالة منهم الذين تولوا الشياطين قصدا ومنهم الذيـن أهملوا وقصـروا فلم يحاولـوا معرفـة وجه الحق فـإنه تعـالى ذكر هـؤلاء الأخيريـن من الضالين بقوله تعـالى «ويحسبون أنهم مهتدون»، ومؤداه أن الذين تولـوا الشياطين عمدا أكثر منهم ضلالا كذلك فإنه يجوز فى حق الذين اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله أن يكونوا قد اعتقدوا أنهم مهتدون، بمعنى أنهم قد اهتدوا إلى مـا فيه صالحهم، وإنا لنرى أفرادا يتوسلون إلى تحقيق مصـالحهم بالرشوة وبظلـم آخرين، يقولـون بأنهم قد ألهموا هـذا أو اهتدوا إليه، فهذا هو الظن الذى لا يغنى عن الحق شيئا .

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ
إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾

أولا : الأســـــــماء :

١ ـ **الزينة**: فى قولـه تعالى «خذوا زينتكم» قيـل إنها الثياب التى تـدارى العورات، وقيل إنها لباس التجمل.

٢ ـ **المسجد** : فى قولـه تعالى «عند كـل مسجد» المراد به ــ فى معنى الآية ــ الطواف ، وعموم الصلاة .

ثانيا : التفســــــير:

الخطاب فـى الآية إلى بنى آدم، والأولـى فى سماعه وطـاعته هم المسلمون، وربمـا جاء

النداء على بنى آدم لبيان أن الإسلام بعث للناس كافة وأنه تمام الدين .

وقوله تعالـى «يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كـل مسجد» هو أمر باتخاذ الثيـاب التى تستر العورات عند الطواف بالبيت وعند كل صلاة. وعند البعض أن المراد بالزينة ـ فى عبارة الآية ـ هو ثيـاب التجمل فيكون من المرء لبس جميـل الثياب عند الصلاة وعند الطـواف بالبيت. وقيل إنها من سنته ﷺ.

وقوله تعالى «وكلـوا واشربوا ولاتسرفوا» هو إباحة للأكل والشـرب مع النهى عن الإسراف فيهما. ذلـك أنهم كانوا فـى الجاهلية لا يأكلـون فى أيام الحج إلا مـا يقتاتون به، ولا يـأكلون دسما يعتقدون أن فى ذلك زيادة فى النسك فجاء قوله تعـالى بإباحة أكل الحلال وشربه مع النهى عن الإسراف فى ذلك، ويقبل النهى عـن الإسراف أن يكون بمعنى النهى عن الإسراف فـى التنسك بتحـريم مـا أحل الله. أو بتعـدى الحـلال إلى الحـرام إذ يكون فيـه إسراف فـى التحليل. ثم إنه تعالى حث على التزام حكمه فى أمر الأكل والشرب دون إسراف بقوله تعالى «إنه لا يحب المسرفين» ليلتزم الخلق حدود حكمه .

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

أولا : الأســـــماء :

الخالص: فى قوله تعـالى «خالصة يوم القيامـة»، الخالص من الشىء هو مـا لم يختلط به غيره ولم يمتزج والمراد به ـ فى معنى الآية ـ هو «الخلوص» بمعنى خلوص الطيبات للمؤمنين دون غيرهم يوم القيامة .

ثانيا : التفســـير:

بعد أن أمر تعالى بنـى آدم ـ على ظاهر النص ـ أو المسلمين ـ كمـا يبين من معنى القول ـ

أن يأخذوا زينتهم عنـد كل صلاة، فإنه تعالـى أوضح فى الآية عدم صحة زعـم الزاعمين أن التجرد من الملابـس عند الطواف أو التعبد عامة هـو زيادة فى النسك ـ على مـا كان يقول به أهل الجاهلية ـ وكذا على زعم الزاعمين أنه لا يحسن بالمرء لبس ما يتجمل به أو التزين بغير ما حرم الله، وأن فى التقشف فى الملبس زيادة فى الـورع والخشوع. فأمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول للنـاس «من حرم زينة الله التـى أخرج لعباده والطيبـات من الرزق». والاستفهام أريـد به الإنكار، والسـؤال بـ «مـن» يفيد معنى «مـن غير الله» ، فيكـون المعنى المراد إيصـاله هـو أنه تعالى لم يحرم التجمـل بما خلق للعباد وأوجد للانتفاع به مما طـاب، بمعنى أنه طاب كسبا وطاب نوعا، فيكون ممـا اكتسب بطريق الحلال، ويكون مما لم يحرم تعـالى التجمل به، فلا يكون ـ مثلا ـ دهن الخنزير يدهن به الشعر، ولا يكون ذهبا يتجمل به الرجل.

ثم إنه تعالى يأمر رسوله ﷺ أن يجيب على السؤال الذى سأل فيقول «هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة» فيكون المعنـى أن التجمل بما هو حلال فى كسبه وفى نوعه مباح للذيـن آمنوا ومحبوب لديـه تعالى فى الحياة الـدنيا،فيكون القول ردًّا علـى من يرون أن البر هـو فى لبس الخشن مـن الثياب والمرقع، لأن البـر هو ما وقـر فى القلب وصدقـه العمل، وعلى الـذين يحرمـون نفوسهـم من أكل مـا طاب كسبا وطعمـا فشابهـوا من حرمـوا البحائر والسوائب والـوصائل والحوامى، إذ أظهـر تعالى أنـه قد جعل ذلـك لانتفاع المؤمنين بـه فى الحياة الدنيا. ثم إنه تعالى يقرر أن جميع الطيبات تكون فى الآخرة خالصة للذين آمنوا بمعنى أنه لا يكون للكـافرين والمشركين فيها شـىء، وذلك على خلاف الحال فى الحيـاة الدنيا إذْ كان الانتفاع بها مشتركا بينهم وبين المؤمنين .

ثم يجـىء قوله تعالـى «كذلك نفصـل الآيات لقوم يعلمـون» بمعنى أنه على هـذا النحو الذى ورد يكون بيـانه تعالى وتفصيلـه الأحكام لكى يتحقق العلـم بها على الوجـه الصحيح فيكون العمل موافقا ما شرع.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

أولا : الأســـــــماء :

١ ـ الإثــم: قيل إن المراد به ـ فى معنى الآية ــ هو «الخمر» ، وهو ما لا دليل عليه، وقيل هو الذنب الذى بالقول أو الفعل فى حق الغير لكنه لا يصل إلى مرتبة القذف الذى يكون فيه حد، ولا الاعتداء الذى يكون فيه قصاص .

٢ ـ البغى : هو الظلم، وقيـل إن المراد به ـ فى معنى الآيـة ـ هو التكلم فى حـق الغير بغير دافع الانتصار منه بحق .

ثانيا : التفســــــير:

قولـه تعالى ــ فى الآية ــ إظهار مجمل لمـا حرم تعـالى بعد أن حـرم المشركون مـا أحل تعالـى، ومناسبة نـزول الآية ـ فيمـا قيل ـ أن المشـركين عيروا المسلميـن لما رأوهم يطـوفون بالبيت وقد لبسوا الثياب .

ومضمون الآية أنـه تعالى أمر رسـوله ﷺ أن يظهر للناس مشركيـن ومؤمنين ما حـرم تعالى عليهم، وقوله تعالى «إنما حرم» يفيد أن جميع أنواع المحرمات تدخل فى جنس المذكور فى النص. وأول مـا ذكر من المحـرمات هـو «الفواحش» وهـى الأعمال المفرطـة فى القبـح، ثم أوضح تعالى أنها جميعا محرمة سواء أكانت ظـاهرة مثل نكاح الأمهات فى الجاهلية، والزنا فى الأماكـن المعدة لذلك التى كـانت تعلق البغايا عليهـا رايات حمراء إعلانا عـن ممارسة البغاء فيها، أم كانت خفيـة مثل اتخاذ الأخدان. ثم ذكر تعالى «الإثـم» بمعنى النيل من الغير بالسب أو ما شاكله الذي لا يصل إلى درجة القذف الذى يكون فيه الحد، ثم ذكر تعالى البغى بغير الحق، وهـو الحديث مع آخـر فى حق الغير دون أن يكـون دافع ذلك الانتصار منـه بحق، كأن يكون الغير قـد رماه بفعل هو مرتكبه أو يرتكـب مثله فيدفع المرء عن نفسـه ما نسب إليه وينسبه أو ينسب مقـارفة مثله لمن نسبه إليـه ظلما. ثم يذكر تعـالى الإشراك به ما لـم ينزل به سلطانـا بمعنى الإشراك الذى لـم يقم دليل عليه مـن شرع السابقين ــ بمعنى ما شرع تعـالى للأمم السابقة ـ ولا من عقل، ويذكر نسبة غير الحق إليه تعالى، وهو ما يكون باختلاق صفات له أو جحود بعـض صفاته تعالى ومـا يكون بزعم تحريمـه ما لم يحرم وزعم تحليلـه ما حرم، ومثل قول المشركين بغير الحق «والله أمرنا بهذا» .

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾

أولا : الأســــــماء :

١ ـ الأمــة: فى قوله تعالى «ولكل أمة أجل» قيل إن المراد بها ـ فى معنى الآية ـ الأمة من الأمم التى أهلكت، وقد يكون الصحة أنها كل أمة فى أى زمان .

٢ ـ الأجــل : قيل إن المراد به ـ فى معنى الآية ــ هو وقت الإهلاك والاستئصال فى الحياة الدنيا، وقد يكون الصحيح هو وقت الهلاك بالمـوت عموما ومنه هلاك الأمم واستئصالها لأنه يكون بالموت مع العذاب .

ثانيا : التفســـــير:

بعد ذكـره تعالى أن حـال الخلق يكون بيـن فريـق هداه الله إلى الحـق. وفريق حـق عليه الضلالة، ثـم ذكره فعل الذيـن اتخذوا الشياطين أوليـاء من دون الله، وبيانه إصـرار المشركين على معتقداتهم البـاطلة وقولهم عليه تعالى بشأنهـا غير الحق، جاء قوله تعالـى ـ فى الآية ـ ترهيبـا للمشركين مـن الاستمرار علـى ما هم عليـه بإعلامهـم بما كـان من مصير الأمـم التى أصرت على الكفر فأهلكها تعالى بعذاب فى الحياة الدنيا لم تستطع دفعه عنها ولا تأخيره، أو بتذكيرهـم أن الموت آتيهم فى الأجـل الذى حدده تعالى ليكـون حسابهم وعذابهـم بكفرهم وافترائهم عليه تعالى غير الحق .

فقوله تعالـى «لكل أمة أجل» مفاده يقبل أن يكـون أن لكل أمة من الأمم التى قـدر تعالى إهلاكها واستئصالها وقت حدده تعالى لهذا الإهلاك، فإذا جاء هذا الأجل تحقق فيه الإهلاك كما شاء تعالى دون أن تكون لهم قدرة على تأخيره أو تأخير حلوله بهم ولو تمنوا هذا أو طلبوه، وجاء التعبير عن التأخيـر ولو لفترة زمنية قصيرة بقوله تعالى «لا يستأخـرون ساعة» وليس المراد بالساعة هو السـاعة الزمنية المقدرة بنصف سدس النهار وإنمـا المراد هو نفى الاستئخار لأى فترة زمنية. وفى قوله تعالى «ولا يستقدمـون» قيل إن مفاده هو انعدام قدرة الأمم المهلكة على

شيء من تأخير عذابها أو تقديمه قولا بأنه لا يتصور طلبهم تقديم العذاب. وقد يكون الصحيح غير هذا فإن الذى ينتظر الهلاك إذا ما ظهرت له علاماته وتأكد من وقوعه به يعانى من الخوف ومن الانتظار ما يجعله يرجو حلول العذاب به ليتخلص من معاناته، فضلا عن أن القول يظهر انعدام حول الأمم المقدر هلاكها وقوتها عن فعل شيء يحول دون وقع الهلاك بها فى أجله الذى حدده تعالى.

وعلى ما سبق القول فإن المعنى يقبل أن يكون ذلك فى شأن الموت، حدد له تعالى أجله، فإذا جاء الأجل لم يكن فى مقدور من قدر عليه الموت أن يؤخره ولا أن يقدمه عن وقته.

يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾

التفســـير:

الخطاب ـ فى الآية ـ إلى جميع خلق الله تعالى من البشر ـ وقوله تعالى «إما يأتينكم رسل منكم» مفاده هو «إن يأتكم رسل منكم» جاء «النون» فى «يأتينكم» للتأكيد، ووصف تعالى الرسل بأنهم يكونون من القوم المبعوثين إليهم وذلك ليفهموا دعوتهم على ما يبين من قوله تعالى «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم». ثم إنه تعالى يذكر صفة أخرى لهؤلاء الرسل الذين يأتون بنى آدم بقوله تعالى «يقصون عليكم آياتى» فهم يتلون آيات الله عليهم ويبينونها ويظهرون أحكامها.

ثم يجىء جواب الشرط فى الجملة الشرطية قوله تعالى «فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» ومعناه أن من اتقى منكم تكذيب الرسل فآمن لهم وعمل عملا صالحا، فإنه يأمن عذاب الله الذى يثيبه بفعله دخول الجنة التى لا يكون فيها خوف ولا حزن.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

التفســــــير:

يذكر تعالى ـ فى الآيـة ـ حال الذين لم يتقوا ويصلحوا، ذكرهم تعالى بـأنهم الذين كذبوا بآياتـه تعالى التى قصها عليهـم الرسل وبينوها واستكبـروا عنها فلم يقبلوها لاعتقـادهم أنهم على حق أو لقولهـم إنهم أعلى من الرسل منزلـة فكانوا الأولى أن تكون فيهم الرسـالة. ثم إنه تعالى أشار إليهـم بـ «أولئك» وأخبر أنهم أهل النـار وأصحابها الذين يخلدون فيهـا بتكذيبهم الرسل واستكبارهم .

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

التفســــــير:

بدأت الآية بقوله تعالى «فمن أظلم ممن افتـرى على الله كذبا أو كذب بآياته» والعبارة فى صيغة استفهام إنكـارى أريد به إثبات مـا يقرره النص من أن أظلـم الخلق هم أولئك الـذين تعمدوا الكـذب عليه تعـالى فنسبوا إليـه من الأحكـام ما لـم يشرع ومن الأقـوال ما لـم يقل، ومثلهم الذين كذبوا بآياته تعالى التى أنزل على رسله، وكذبوا بآياته فى الخلق فلم يؤمنوا أنه الله الواحد الأحد .

ويجىء قـوله تعـالى «أولئك الـذين ينالهـم نصيبهم مـن الكتاب» وفيه أشـار تعالـى إلى الفريقين وأثبـت أنه يصيبهم فى دنيـاهم ما كتب فـى الكتاب أو اللوح المحفوظ لهـم متعلقا بكفرهم ورزقهم وآجالهم .

ثم يقول تعالـى «حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفـونهم قالوا أين ما كنتـم تدعون من دون الله»، وفيه معنى أنهم يبقون فـى حياتهم على الحال التى قدرت لهم فى الكتـاب إلى الوقت الذى يجيئهم فيه ملك الموت أو أعوانه ليقبضوا أرواحهم، فالمراد بالرسل ـ فى القول ـ هم ملائكة الموت، فيكون مـن ملائكة الموت أن يسـألوهم «أين مـا كنتم تدعون مـن دون الله»، والمراد بالقول بيان انعدام وجود ما كانوا يعبدون مـن دون الله لكونهم لم يساعدوهم فى هذه اللحظة ولم يمنعوا عنهم ملائكة الموت، أو لأنهم لا يستطيعون منع العذاب عنهم وهو ما يرون أماراته عند قبض أرواحهم.

ثم يذكر تعـالى إجابة الذين افتروا عليه الكـذب والذين كذبوا بآياته علـى ملائكة الموت وهى قولهـم «ضلوا عنا» بمعنى أنهم غـابوا عنهم فلا يعرفون أمـاكنهم، ثم إنه تعالـى يقرر فى شأنهم إقرارهم على أنفسهم بأنهم كانوا فى دنياهم كافرين .

قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ
كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٞ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ
لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابٗا ضِعْفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ
ضِعْفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ٣٨

التفســـــــــير:

قوله تعـالى ـ فى الآيـة ـ استئناف لذكـر حال الكافريـن ، والذين افتروا علـى الله الكذب والذين كذبوا بآياته يوم القيامة .

يذكـر تعالى أنـه يقول لهم «ادخلـوا فى أمم قـد خلت من قبلكـم من الجن والإنـس فى النار»، ومعنى أنه يقول تعالى لهم هذا هو أنهـم أدخلوا النار، وأن دخولهم كان مع أمم مضت أو سبقتهم من كفار الجن والإنس .

ثم يذكر تعالى أنـه كلما دخلت أمة من الجن أو الإنس النار لعن سابقتهـا التى كانت لهم سلفا احتـذوه أو كانت لهم متبـوعا اتبعوه، والمراد بلعنهـا إياها هو دعـاؤها عليها بالطـرد من رحمة الله .

ثم يقـول تعالى إن أمـم كفار الجن والإنـس حينما يدرك بعضهـا البعض فى النـار فيكون اجتماعهم فيها كاملا شمل جميعهم، يكون من آخر الأمم الداخلة النار ـ والمراد بها التابعون، واللاحقون ــ أنها تشير إلى أولاها ــ والمراد بها المتبوعون والسـابقون ـ وتقول عنها لـه تعالى «هؤلاء أضلـونا فـآتهم عذابا ضعفـا من النـار»، والمعنى أنهـم يلقون بتبعـة ضلالهـم على متبوعيهم وسابقيهـم الذين أطاعوهم أو ساروا علـى منوالهم فكانوا سببا فـى ضلالهم؛ ولهذا كان منهم سؤاله تعالى أن يضاعف لهم العذاب من النار التى دخلوها .

ثم يـذكر تعـالى أنـه يكون منه أن يقـول لهم «لكـل ضعف ولكـن لا تعلمون» وقـد تكون مضـاعفة العـذاب للمتبوعيـن لأنهم ضلـوا وأضلـوا، وتكون للتـابعين لأنهـم ضلوا ولأنهـم استعاذوا برجال من الجن فزادوهم رهقا. بمعنى أنهم أطاعوا الشياطين وعصوا الله، يدخل فى معنى الشيـاطين شيـاطين الجـن وشياطيـن الإنس. ويثبـت تعالـى أن كلا مـن الآخريـن أو التابعيـن، والأولين أو المتبوعيـن لا يعلم بما قـدر تعالـى من مضاعفـة عذاب الفريـق الآخر. والقول يقبل أن يكون موجها للتابعين ويقبل أن يكون لهم وللمتبوعين .

وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

التفســـــير:

يذكر تعـالى فى الآية ما يكـون من السابقين أو المتبـوعين عندما يسمعون ادعـاء التابعين عليهم أنهم سبب ضلالهـم ودعوتهم عليهم أن يضاعف لهم العذاب ويسمعـون قوله تعالى

يقول لهم إن لكـل ضعفا، فيذكر تعـالى أن الأولين يقولون لـلآخرين أو أن المتبوعيـن يقولون للتابعيـن إنه لم يكـن لهم عليهم فضـل تفضلوا به عليهـم باتباعهـم، فهم لـم يستفيـدوا من اتباعهم شيئا، وإنما هـم الذين اختاروا اتباعهم بإرادتهم، ويقبل قـولهم أن يكون استنادا إلى ما ذكره تعالى من أنه جعل لكل منهما عذابـا ضعفا من النار فأثبت المساواة بينهما فى الإثم مما لا يكون معه التابعون مفضلين عليهم فى العذاب ودرجته.

ولذلك يكون قول المتبوعين للتابعين بعد ذلك «فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون» بمعنى فذوقـوا العذاب بمـا فعلتم مختـارين. وهـو قول باعثـه التشفى منهـم بعد مـا كـــان منهـم نحوهـم.

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾

أولا : الأســــــماء :

١ ـ **أبـواب السماء:** قيل إن المراد بهـا ـ فى معنى الآيـة ـ أبواب السموات السبـع، تفتح لأرواح المؤمنين حين يعرج بها إلى السماء بعد قبضهـا، ولا تفتح لأرواح الكافرين وأهل السوء فترد إلى أن تصير فى قبورهم.

٢ـ **الجمل** : هو البعير الذى طلع نابه. وقيل هو ابن الناقة القائم على أربع قوائم.

٣ـ **سم الخياط** : هو ثقب الإبرة .

ثانيا : التفســــــير:

قوله تعالى فى ذكر مظهر من مظاهر غضبه تعالى على فئة من الكافرين، وهو مظهر يستدل منه على سوء مصيرهم من بعد.

ومفاد القول أن الذين كذبوا بآيات الله تعالى التى أنزلت على رسله متضمنة أحكام عقيدة

التوحيد ومتضمنة الشرائع والأحكام فلم يـؤمنوا بها، ثم استكبـروا عنها بالاستهزاء بهـا وعدم الالتفات إليها، هؤلاء يكون حال أرواحهم بعد قبضها بـواسطة ملائكة الموت حين يعرج بها إلى السمـاء، أن أبواب السماء تكـون مغلقة دونهـا فلا تفتح لهـا ـ وقد يكـون المراد بـأبواب السماء هو أبواب على الحقيقـة، وقد يكون على سبيل المجاز كناية عن رفضـه تعالى إياهم ـ وقيل إن المراد هو أن أبواب السماء لاتفتح لدعائهم ولا لدعاء غيرهم لهم. ومفاده أيضا أنهم امتنعت عنهم الجنة امتناعا كاملا فلا يدخلونها، جاء التعبير عن هذا الامتناع بذكره تعالى أنه يظل ممتنعا عليهم إلى غـاية معينة هى دخول الجمل ـ والمراد به ما عظـم حجمه ـ فى ثقب إبرة الخياطة. ولما كان هذا هو المستحيل بعينـه فإن المعنى يكون هو امتناع الجنة عليهم فلا يدخلونها إلى الأبد .

ثم إنه تعالى يبيـن أنهم بفعلهم هذا صاروا مجرمين، وأن حكمه تعالـى فى المجرمين هو عدم فتح أبواب السماء لأرواحهم وتحريم الجنة عليهـم، وذلك بقوله تعالى «وكذلك نجزى المجرمين»، بمعنى «وعلى مثل هذا يكون جزاؤنا المجرمين» .

لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

أولا : الأســـــــماء :

١ ـ المهـــاد: هو الممهد الذى يفترش فيستلقى عليه، فهو المهد، وهو الفراش .

٢ ـ الغواش: جمع، مفرده «غاشية» وهو الغطاء .

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالـى ـ فى الآية ـ فى ذكـر عذاب الذين كذبوا بـآياته تعالى واستكبروا عنهـا، يذكر تعـالى أنهـم يفترشـون جهنـم فتكون لهـم مهـدا، وأنهم يلتحفـون ظللا مـن النـار تغشاهـم وتغطيهم، وذلـك على ما يبيـن من قولـه تعالى «لهم مـن فوقهم ظلـل من النار ومـن تحتهم ظلل».

ثم يقول تعالى «وكـذلك نجزى الظالمين» بمعنى أنه على هذا النحـو ومثله يكون جزاؤنا

الظالمين: فالقـول يثبت لهؤلاء المكذبين صفة الظـالمين من بعد أن أثبت تعالـى لهم صفة المجرمين، وأثبت أن الجرم كان له الحرمان من الجنة، وأن الظلم كان له التعذيب .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾

التفســـــير:

الآية الشـريفة انتقال إلى ذكـر حال المؤمنيـن والمراد بهم الـذين آمنوا بآيـاته تعالـى ولم يستكبروا عنها، وقرنوا إيمانهم بالعمل الصالح. وفى معرض ذكر هؤلاء يذكر تعالى أن ما كلفوا به من إيمان ومن عمل الصالحات إنما كان ممـا هو فى مقدور كل نفس مكلفة. وذلك لبيان أن غيرهم إنما امتنع عما هو فى مقدوره .

ويخبر تعالى عن حال المؤمنين المذكـورين بأنهم أصحاب الجنة، وأنهم يخلدون فيها، ويبين مـن وصف حالهـم مع بيان أنهـم استحقوا نعيـم الجنة والخلود فيهـا بفعل ما هـو فى مقدور العباد أن القول يتضمن حثا على اتباع سبيل المؤمنين فى الإيمان والعمل .

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

أولا : الأســــماء :

الغـــل: هو الحقد المخفى والعداوة المبطنة .

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالى ـ فـى الآية ـ ذكر لحال المؤمنين يوم القيامة ـ والـراجح أنه بعد عبور الصراط ـ يذكر تعالى أنه ينزع ما فى صدورهم من كراهة بعضهم للبعض أو بغضه إياه لخطأ أخطأه معه فى الحياة الدنيا، يكـون ذلك منه تعالى على النحو الذى يراه، وقيل إنـه يكون باقتضاء حقوق البعض من البعض ـ ونقـول ـ والله أعلم ـ أنه قد كيون لغير ذلك مـن الأسباب وقد يكون بغير سبب من الأسباب. ثم يذكر تعالى أنه تجرى من تحتهم الأنهار، والمراد أنه تجرى من تحت غرفهم فى الجنة أنهارها لتكون نعمة النفوس مع نعمة الأبدان.

ثم يثبت تعالى أن المؤمنين حامدون دائما، فهم يقولون حينما يلقون نعيمه تعالى «الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هـدانا الله» فهم يحمدون الله تعالى أن هداهـم فى الدنيـا إلى الإيمـان والعمل الصـالح الـذى استحقوا بـه جنته تعـالى، وهـداهم إلـى النعيم المقيـم. ويذكرون حقا اعترافهم بفضله تعالى عليهم مقـرين أنهم ما كانوا ليصيبوا ما أصابوا من نعيـم الآخرة لولاه تعـالى، فهـو الذى فتح قلـوبهم فى الـدنيا لـلإيمان، ويسر لهـم عمل الصالحات.

ثم إنه يكـون منهم إقرار آخر، وهو إقـرارهم بصحة ما أخبـرتهم به رسلهم من أنـه يكون فى الآخرة حساب وتكـون جنة للمؤمنين الذين يعملـون الصالحات، وذلك من بعد إقـرارهم فى دنياهم بصحة بعثهم منه تعالى وتصديقهم فيما قالوا وفيما وعدوا به .

ثم يذكر تعالـى أنه ينادى على المؤمنين وقتذاك، وقيل إن المنادى هـو الملائكة، وقيل إنه الله تعالـى، يقال فى النـداء أو إن مضمون ما يقـال لهم بعـد المناداة عليهم «أن تلكـم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون» بمعنى أن هذه هى الجنة التى وعدتم بها فى حياتكم الدنيا كان إيمانكم فيها وعملكم الصالحات هو السبب الـذى استحققتم به دخولها والخلود فيها، شبه الإيمان وعمـل الصالحات بـالمورث، وشبهـوا بالورثـة مع «الباء» فـى «بما» لبيـان أن سبب دخول الجنة هو ما كان منهم فى دنياهم من العمل الصالح من بعد الإيمان .

■■■■

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

أولا : الأســـــــماء :

المؤذن : فى قوله تعالى «فأذن مؤذن» قيل إنه صاحب الصور، وقيل إنه مالك خازن النار، وقيل هو ملك من الملائكة يأمره الله بهذا .

ثانيا : التفســــــير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ أنه بعد أن يستقر أصحاب الجنة فيها يتوجه كل منهم إلى من كان يعرفه فى الدنيا من أهل النار ويسأله ـ على سبيل الشماتة والتحسير ـ من بعد التقديم لسؤاله بقوله إنه وجد ما وعد تعالى على ألسنة رسله من أنه تكون الجنة للمؤمنين الذين عملوا الصالحات حقا، وأنه نعم بها، ثم يسأل صاحب النار عما إذا كان قد وجد وعد ربه على لسان أنبيائه حقا، ويفيد ذكر «الوعد» أنه يتصور أن يكون المسئول عنه هو نعيم المؤمنين، ويتصور أن يكون هو خزى المكذبين وعذابهم .

ثم يذكر تعالى أن المسئولين من أهل النار يجيبون سائليهم من أهل الجنة بالإيجاب بمعنى أنهم عرفوا مما لاقوا وشاهدوا مصير المؤمنين أن ما وعد به تعالى على ألسنة رسله هو الحق. فيكون من المؤذن من الملائكة الذى اختصه الله بهذا أن يصيح بين الفريقين : أهل الجنة وأهل النار قائلا أن لعنة الله على الظالمين. بمعنى أنه تعالى قد طرد المكذبين بآياته من رحمته، فليس لهم إلا النار.

ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾

التفســــــير:

قوله تعالـى ـ في الآية ـ ذم للكافريـن ، أو لفئة منهم وصفهم تعالى بأنهـم الذين يصدون عن سبيـل الله، بمعنى أنهم الـذين يصدون أنفسهـم عن قبول طـريق الله المستقيم وهـو دين الإسلام فلا يؤمنـون به، كما ذكر من أوصافهـم أيضا أنهم يبغون الطريق معـوجا، بمعنى أنهم يفضلون أن يكـون طريقهم مـائلا عن الحق، ويفعلـون في سبيل ذلـك فعلهم بتأويـل القول ليكون لهم ذريعة يتذرعون بها لعدم إيمانهم. ثم أفـاد تعالى عن واقع حالهم وهو واقع يكمل صفاتهم المـذمومة وهو عـدم إيمانهم بالآخـرة، والذى قد يكون سببـا لصدهم نفوسهـم عن الإيمان، وذلك لما في الإيمان بالآخرة من نهي النفس عن هواها وهو ما لا يرضون .

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

أولا : الأســــــماء :

١ ـ الحجـــاب : فى قوله تعـالى «وبينهما حجاب» هو ما يحجـب المرء أو الشيء عن النظر، وهو الستر، والمراد به ـ فى معنى الآية ـــ هو السور الذى ورد بقوله تعالى «فضرب بينهم بسور»، وهو الحاجز بين الجنة والنار يمنع من وصول إحداهما إلى الأخرى ولا يمنع من وصول النداء .

٢ ـ الأعراف : جمع، مفرده «العـرف» وهو ما علا الشــيء أو هو أعلاه، ومنه عـرف الديك وعرف الدابة، والمراد به ـ فى معنى الآية ـــ أعالى السور المضروب بين الجنة والنار. وقيل إنه جبل «أحد» يكون يوم القيامة بين الجنة والنار.

٣ ـ رجـــال: قيل إن المراد بهم ـ فى معنى الآية ـ طائفة من المؤمنين بالله تعالى تجاوزت بهم حسناتهم أن يدخلوا النار، وتجاوزت بهم سيئـاتهم أن يدخلوا الجنة يقفون على الأعراف منتظريـن قضاء الله فى الخلق، ثـم يطلع عليهم ربهـم فيقول لهم إنـه قد غفر لهم فيـدخلون الجنة .

ثانيا : التفســـــير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ بعضا مما يكون يـوم الدين، فيخبر تعالى أنه يكون بين أهل الجنة فـى الجنة وبيـن أهل النـار فى النـار حجاب مـن سور عظيـم يمنع وصـول ما فـى إحداهمـا للأخرى، وأنه يكون فى هذا اليوم أن طائفة من المـؤمنين الذين لم تبلغ بهم حسناتهم مقرونة بسيئاتهم دخول الجنة ولا دخول النار يقفون على أعـراف هذا السور ينتظرون ما يكون من أمره تعالى فيهم بعد أن يقضى بين خلقه.

ويبين من قوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ أن هؤلاء النفر قد دخلوا الجنة بعد ذلك، وقد روى أنه تعالى يكون منه أن يقول لهم ـ بعد سـؤالهم عما ينتظرون وإجابتهم بأنهم ينتظرون حكمه تعالى فيهم ـ أنه قد غفر لهم وأدخلهم الجنة.

وفى شـأن هؤلاء الـذين وقفوا علـى الأعراف فإنـه تعالـى يقول إنهم يعـرفون أهـل الجنة ويميزونهم عن أهل النار الذين يعرفونهم أيضـا. وأن معرفتهم بهم إنما كانت بالعلامات التى علمها الله تعـالى إياهـم، أو أعلمتهم الملائكـة بها، ويـذكر تعالـى أنهم ينادون أهـل الجنة ويسلمون عليهـم بقولهم «سـلامٌ عليكم» وهـو دعاء لهم بـالسلام فى الجنـة من كـل مكروه وتحية .

ثم يخبر تعالى عن حال أصحاب الأعراف لدى دخولهـم الجنة بقوله تعالى «لم يدخلوها وهم يطمعون» بمعنى أنهم دخلـوا الجنة فى وقت لم يكونوا يطمعون فيـه أن يدخلوها، وليس المراد هـو وقت الـدخول تنفيذا لأمـره تعالى وإنمـا المراد هـو الوقت الـذى وقفوا فيـه على الأعراف منتظرين حكمه تعالى فيهم والذى كان قبيل أمره تعالى بدخولهم الجنة.

وقيل إن المعنى هو أنهم لم يدخلوا الجنة عن يقين بدخولها، بمعنى أنهم قبيل أمره تعالى بدخلوهم الجنة لم يكونوا متيقنين من ذلك .

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

لتفســـــير:

قولـه تعالـى ـ فـى الآية ـ فـى بيان حـال أصحاب الأعراف وقـت وقوفهـم بأعلـى السور المضروب بين الجنة والنار فهم وقد كانوا يوجهون أبصارهم إلى أصحاب الجنة فإنهم صرفت أنظارهم تلقاء أصحاب النار، فدل ذلك على ميلهـم إلى حال أهل الجنة وعزوفهم وكراهتهم حال أهل النار.

ويذكـر تعالى أنهـم حال صرف أبصـارهم تلقاء أهـل النار يكون منهـم التعوذ به تعـالى والدعـاء ألا يجمعهم سبحـانه وتعالـى بهم مع وصفهـم بأنهـم الظالمون فكـأنهم كـرهوا أن يحسبوا ظـالمين مع كراهتهم أن يلقوا ذات مصيرهـم .

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾

التفســــير:

القول استئناف لذكر ما يكون من أصحاب الأعـراف يوم الدين، يذكـر تعالـى أن منهـم ـ على ما يبين من تعيين المنادى عليهم بالنكرة مع بيان أنهم معروفون للمنادين ـ من ينادى ـ على بعض أهل النار الذين يعرفون أشخاصهم مما عرفوهم به فى الدنيا، أو مما أعلمهم به الله تعالى من علاماتهم أو أعلمتهم به الملائكة. وأنهم يقولون لهم «ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون»، فيكون القـول المذكور بدلا من «نادى» أو بيانا للنـداء. ومعنى القول يحتمل أن يكون واحدا من اثنين، فهو يقبل أن يكون مفيدا النفـى، فتكون عبارة القول تقريرية تفيد أنه لم ينفع أهل النار المنـادى عليهم ما جمعوا فى دنياهم من الأنصـار والأموال كما لم ينفعهم استكبارهم على الحق الذى جاءهم وتعاليهم عليه ورفضه، ويقبل أن يكون استفهاما للتقريع والتـوبيخ بمعنـى هل أغنـى عنكم مـا جمعتم مـن الأنصار ومـن الأموال شيئـا فمنع عنكـم العذاب، وهل حال استكباركم فى الدنيا دون هوانكم فى الآخرة .

تنويه الكمال لله وحده حدث خطأ غير مقصود فى العدد ١٧ ص ٥٥٩ ، ٥٦٠ إذ سقطت الآية ٤٨، ٥٠ وتكـررت الآية ٤٩ فـى العـدد القادم سيبـدأ مـن ص ٥٥٩ وسنقطـع الورقـة الخطأ فى التجليد ليكون معك مجلد صحيح تمام .

أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

التفسـير:

قوله تعالى «أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة» هو تتمة قول أصحاب الأعراف لمن عرفوهم بسيماهم من أهل النار، فهم يشيرون إلى ضعاف المؤمنين الذين استذلهم الكافرون فى الحياة الدنيا وأقسموا أنهم لا ينالون رحمة الله تعالى، يشيرون إليهم ويقولون لمن عرفوا من أهل النار قولهم ، وهو فى صيغة استفهام أريد به السخرية والتوبيخ و إظهار أن الذين استذلوهم فى الحياة الدنيا قد أكرمهم الله تعالى فى الآخرة على حين كان جزاؤهم باستكبارهم هو الذل والمهانة مع التعذيب .

وقوله تعالى «ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون» هو قوله تعالى يقوله للمستضعفين من المؤمنين، وذلك ما يستدل عليه بكون قول أهل الأعراف إنما كان قبل دخول أهل الجنة الجنة فلم يكن له قوله، وقيل إنه كان بعد دخول المستضعفين الجنة وأن معنى القول هو استمروا فى الجنة غير خائفين ولا محزونين .

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾

التفسـير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ ما يكون من أهل النار مع أهل الجنة ، إذ ينادى أهل النار أهل الجنة يسألونهم أن يفيضوا عليهم من الماء شيئا أو أن يفيضوا عليهم شيئا من غيره من المشروبات أو المطعومات، ومن القول يبين أن الجنة تعلو النار فى المكان والمكانة، لأن الإفاضة تكون من علٍ، كما يبين منه أن أهل النار يظمؤون و يجوعون وأنهم يطلبون الشراب والطعام.

ثم يذكر تعـالى ما يفيد امتناع أهل الجنة عـن إجابة أهل النارإلى طلبهـم على ما يستدل عليه بقولهم «إن الله حـرمهما على الكافرين» ثم إنهـم وصفوهم بالكافريـن لبيان أنه لا تكون منهم لهم مودة.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

التفســـــير:

القول ـ فى الآية ـ قوله تعالى والحديث فى شأن أهل النار يذكر تعالى أنهم الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبـا، والمعنى أنهم لم يعتنقـوا الدين الذى أمرهـم سبحانه وتعالـى الإيمان به، وأنهم لعبوا بأحكـامه فأباحوا الحرام وحرمـوا الحلال وانصرفوا إلى تحصيل مـا نهوا عنه من أنواع الملاهـى مبتعدين عن العبادة والطـاعة. كما يذكـر تعالى أنهم شغلوا بـزخارف الحياة الدنيا ومباهجها ونسوا حقوق الله تعالى.

ثم يذكر تعالى جزاءهم فيصفه بأنه نسيان مقابل نسيان. فكما أن النسيان هو سلب أو ترك، فإنهم يتركون فى النار يخلدون فيها. وقد كان نسيانهم نسيانا للقاء الله فى يوم الدين، والمعنى هو أن هـذا اللقاء فـى يوم الـدين لـم يخطر ببالهـم فيعملوا لـه عمله. بمعنـى إغفالهـم فعل الطاعات ومقارفتهم المعاصى، ثم يذكر تعالى سببا آخر لتركهم فى النار وهو جحودهم بكيانه تعالى سواء بإنكارها أم بإهمالها وعدم العمل بها .

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

التفســـــير:

قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ إخبار، والـذين يعود إليهم الضميـر المتصل فى «جئناهـم» وهم المخبر عنهم هم خلقه تعالى مؤمنين وكافريـن ــ كما يبين من ختام الآية ـ وقيل هم الكافرون

وحدهم .

ومعنى القول أنه تعالى قد جاء الخلق بكتاب أنزل إليهم ـ وهو القرآن العظيم ـ أورد به كل شيء مفصلا على النحو الذى يمكن الإلمام به ومعرفته من أمر العقيدة، وأمور الأحكام، والقصص المذكور للاعتبار به، وأن تفصيله جاء بمقتضى علمه تعالى، وهو علم يشمل ما فيه مصالح البشر فجاءت الأحكام لتحقق هذه المصالح، ويشمل العلم بإمكانات الخلق فجاء التفصيل على النحو الذى يمكنهم فهمه، وجاءت أوامره تعالى ونواهيه فى حدود المقدور.

ثم إنه تعالى ذكر أن تفصيله الكتاب جاء هدى ورحمة لقوم يؤمنون، ويتصور فى «هدى ورحمة» أن تكون «مفعولا لأجله» وأن تكون «حالا» من الكتاب. فيكون التفصيل أو يكون الكتاب هدى إلى الحق وإلى الطريق المستقيم وإلى الجنة، ورحمة بالخلق فى الدنيا بإعمال أحكامه وفى الآخرة بتجنيب المؤمنين به عذابه تعالى، ثم يبين تعالى أن الذين ينتفعون به فيكون لهم هدى ورحمة هم المؤمنون به.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

أولا : الأســــــماء:

التأويل : فى قوله تعالى «هل ينظرون إلا تأويله» المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو المآل أو العاقبة، بمعنى ما يؤول إليه أمر ما تضمنه القرآن من وعد ووعيد من التحقق أو عدمه.

ثانيا : التفســــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى شأن الكافرين الذين لم يؤمنوا بالقرآن العظيم، جاء قوله تعالى فى شأنهم «هل ينظرون إلا تأويله» فى صيغة استفهام أريد به إنكار انتظار الكافرين مآل وعد القرآن ووعيده، بمعنى أنهم ـ بعدم إيمانهم بالقرآن، فى حكم من ينتظر الوقت الذى يتحقق

فيه ما جاء فى القـرآن من وعيد أو لا يتحقق ليكون منه الإيمان أو عدمـه بناء على النتيجة التى يستظهرها .

ثم إنه تعالى يبين مدى خسارة هؤلاء المنتظرين بقوله تعالى «يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبـل قد جاءت رسل ربنـا بالحق فهل لنا مـن شفعاء فيشفعوا لنا أو نـرد فنعمل غير الذى كنا نعمل». واليوم الذى يأتى فيه تأويـل القرآن بهذا المعنى هو يوم القيامة، فيكون مفاد القول أنه متى أتى يوم القيـامة الذى يكون فيه التحقق من صدق ما وعد بـه القرآن وما توعد، يعرف الكافرون مما يلقون من العذاب بكفرهم بالقرآن الذى أعرضوا عنه وتركوه وراء ظهورهم أنه حق، فيقرون بهذا قـائلين «قد جاءت رسل ربنا بالحق» ويفيد المعنى أن مـن آمن بالرسل يفترض فيه أن يؤمن بالقرآن العظيم، سواء لتبشير الرسل صراحة به أم لأن من آمن بهم يفترض فيه أن يـؤمن بالقرآن العظيـم، وفى المعنى إقـرار بأنه ﷺ قـد جاء بكتاب حق مـن رب العباد الحق .

كذلـك يبين قوله تعـالى مدى تحسر الكـافرين فى ذلـك اليوم وتمنيهم المحال بقـولهم «فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الـذى كنا نعمل» فالقول يظهر أنهم يعدمون شفيعا يشفـع لهم ممـا كانوا يعبـدون فى الحياة الـدنيا، وأنهـم يدركون هـذا من عـدم وجود الشافع، فيتمنون أن يوجد من فرط فزعهم أو أن تكون لهم رجعة إلى الحياة الدنيا فيكون منهم الإيمان بالقرآن والعمل به بخلاف ما كان منهم من قبل .

ثم إنـه تعالى يخبر عنهـم بقوله تعالـى «قد خسروا أنفسهم وضـل عنهم ما كانـوا يفترون» بمعنى أنهـم قد ضيعوا أنفسهـم فحرمـوها النعيم وأوردوهـا هلاكها بعـذاب الآخرة بكفـرهم بالقرآن العظيم وبعملهم السـىء، وكذا بما كان منهم من الافتراء بعبادة غيـره تعالى ظنا أنهم يقربونهم من الله زلفى أو أنهم يشفعون لهم يوم القيامة .

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ
عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ
مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

أولا : الأســــــماء :

الأيـام : جمع، مفرده «اليوم»، وقد ورد فى القرآن العظيم بعدة معان منها «النهار» كما فى قوله تعالـى «سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيـام حسوما» وقوله تعالى ــ فى كفارة اليمين ـ «فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام» وورد بمعنى «طـور من الأطوار» بمعنى من أطوار الخلق، كما فى هذه الآية ، وبمعنى اليوم على الأرض الذى نعرفه كما فى قوله تعالى «وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون» .

ثانيا : التفســــير:

جاء قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ فى ذكر آيـات قدرته فى الخلـق من بعد ذكره تعـالى أحوال الكافريـن الذين لم يعبدوه والمشـركين الذين أشركوا بعبـادته ما لا قدرة له علـى شىء فكان قوله تعـالى فى آيات قدرتـه إظهارا لابتعاد الكافرين بكفـرهم والمشركين بشركهـم عن مبدأ الفطرة وهو الإيمان بالله وتوحيده .

وقولـه تعالى «إن ربكـم الله الذى خلق السمـاوات والأرض فى سـتـة أيام» وفيه جـاء ذكره تعالى بأنه رب العباد إشارة إلى كونـه ملكهم ومالكهم، وإلى أن خلقه السماوات والأرض قد روعيت فيه مصالحهم بـاعتبارهم الخلفاء فى الأرض. ثم إنه تعالى يذكـر من آيات خلقه أنه خلق السماوات والأرض فى ستة أيام.

والمراد ـ فى رأينا ـ بالستة الأيام فى معنـى الآية أنها ستة أطوار أو ست حقب زمنية، دليلنا على هذا أنه لـم يذكر تعالى فى نص الآيـة ـ ولا فى نصوص غيرها من الآيـات التى تخبر عن الخلق فى سـتـة أيام ـ قولـه تعالى «مما تعـدون» ومنها قوله تعـالى فى سورة هـود «وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيـام»، وقوله تعالى فى سورة السجدة فـى الآية الرابعة «الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام»، ثـم قال تعالى فى الآية الخامسة منها «فى يوم كان مقداره ألـف سنة مما تعدون» فأظهر أن اليوم المذكور فى الآيـة الرابعة غير اليوم المذكور فى الآية الخامسة الذى هو اليوم على الأرض.

ووفقا لقوله تعالى فى سورة «فصلت» تكون السماوات والأرض قد تم خلقهن فى ستة أيام مفصلات فـى الآيات مـن ٩ إلى ١٢ «قـل أئنكم لتكفـرون بالـذى خلق الأرض فـى يوميـن

وتجعلون له أنـدادا ذلك رب العالمين* وجعـل فيها رواسى من فـوقها وبارك فيها وقـدر فيها أقواتها فـى أربعة أيام سواء للسائلين، ثـم استوى إلى السماء وهى دخان فقـال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين* فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيـا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم». فيكـون تعالى قد خلق الأرض من السماء الدخانيـة الأولى فى يومين، على ما يبين من قولـه تعالى «خلق الأرض فى يومين» وقوله تعالى فى سورة «الأنبياء» «أو لـم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما». ويكون تعـالى قد خلق السماوات السبع فى يـومين على ما جاء فى قـوله تعالى «ثم استوى إلى السماء وهى دخان» إلى قوله تعـالى «فقضاهن سبع سماوات فى يومين»، ثم إنه تعالـى دبر أمر الأرض لتسخيرها لـلإنسان فى يومين على مـا يبيّن من قوله تعـالى «وجعل فيها رواسى مـن فوقها» مشيرا إلى الجبـال التى تكونت مـن النيازك الساقطة من فـوق، وقوله تعالى «وبـارك فيها وقدر فيها أقـواتها فى أربعة أيام سـواء للسائلين» بمعنى أن ذلـك تم فى الأربعة الأيام وهـو خلق الأرض وتدبيرهـا بتقدير أقوات أهلهـا بما يستلزمه مـن وجود الأنهار والبحار والنبات، بمعنى أن الأربعة الأيام منها يـومان لخلق الأرض ومنها يومان لإعداد الأرض للإنسان، فيكون مجموع الأيام ستة أيام، والمراد بها الحقب الزمنية على ما سبق بيانه.

وقوله تعالى «ثم استوى على العرش» قيـل فيه الكثير، فقيل إن العرش هو الجسم المحيط بجميع الأجسـام عداه، وإنه سمى بـالعرش تشبيها بسريـر الملك، وإن معنى استوائه تعـالى عليه هـو استقراره. وقيـل إن التعبير بالاستـواء على العرش جـاء كنايـة عن نفاذ قـدرته تعـالى وجريـان مشيئته واستقـامة الملـك. ورد البعض على هـذا وذاك بأنـه تعالـى كان قبـل خلق السماوات والأرض مالكها وكان صاحب المشيئة ، ولهذا قيل إن مفاد القول هو أنه تعالى بعد خلقه السماوات والأرض استـوى ملكه. وقد يكون الصحيـح ـ والله أعلم ـ أنـه لا يقبل القول بأن العرش يحمل الله تعالى، فيكون مفاد العرش هـو الملك يكون بوجود ما يملك، ويكون الاستواء هو استواء الملك، فيكون مفاد القول هو استواء الملك له تعالى وحده.

ثم يـذكر تعالـى فى قولـه «يغشى الليل النهار يطلبـه حثيثا» آية مـن آيات خلقه وهـى أنه يجعل الليل يتغشى النهار فيلبسه فلا يظهر النهار، كما أنـه يسعى فى أثره مسرعا طالبا إدراكه، وقد استغنى بذكر الليل والمفهوم أن النهار يفعل فعله فهو يغشى الليل يطلبه حثيثا .

ويتبع ذلك تعالى شأنه بقوله «والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره» ، ذكر مخلوقات عظيمة وأثبت أنها خاضعة لأمره يتصرف فيها كيفما شاء فلا تملك لأمرها شيئا ولا يكون منها إلا الطاعة، ومن آيات هذا التسخير تذكر أمره تعالى هذه المخلوقات العظيمة بالطواف طواف المسلمين حول الكعبة في عكس اتجاه عقارب الساعة، فكما أن الأرض تطوف حول الشمس، فإن القمر يطوف حول الأرض، والشمس تطوف حول المجرة وكذلك نجوم السماء جميعها وهي شموس تطوف حولها كواكبها وتطوف هي حول مجراتها كما تطوف حول نفسها .

ولمن عرف هذه الخاصية في عظام المخلوقات إذا ما عرف أن الذرة ـ وهي أصغر المخلوقات المعروفة يكون فيها الطواف على ذات النحو حيث تدور الالكترونيات حول نواة الذرة، أن يعرف أن صانع هذا جميعه هو الواحد الأحد سخر كل مخلوق لإرادته ومشيئته،وأن دينه هو الإسلام الذي يكون من أركان الحج فيه الطواف الذي هو أمره تعالى إلى جميع مخلوقاته .

ثم يجيء قوله تعالى «ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين» تذييلا لما سبق ذكره من آيات لا يملك من يعي إلا أن يقوله، ذلك أن مفاد ما سبق ذكره من تسخير كل شيء ـ عظم أو صغر ـ له، وخضوعه له تعالى يثبت ـ بما لا يقبل شكا ـ أن له تعالى وحده الخلق والأمر، بما يوجب تنزيهه تعالى عن كل نقص ومنه نقص خلقه وعدم كماله .

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾

التفســــير:

بعد أن ذكر تعالى آياته العظيمة في خلقه والتي يدرك منها كل ذي عقل أن بيده وحده مقادير كل شيء مما لا يطلب معه شيء من غيره، فإنه تعالى أمر خلقه أن يدعوه، ويقبل الدعاء أن يكون طلب المراد منه تعالى ـ وخير المراد رحمته تعالى ورضاؤه ـ ولا يكون الدعاء إلا ممن آمن به تعالى وبقدرته، وعرف قدر نفسه من الضعف والحاجة إليه تعالى، وأن يكون طلبه بما هو محتاج إليه ولا تكون فيه معصية. ويقبل أيضا أن يكون هو العبادة .

ثم إنه تعالى أوضح أن الدعاء يكون تضرعـا وخفية، بمعنى أن يكون مع الشعور بالذل إليه تعالى والاستكانة وأن يكون سرا، ثم أوضح تعالـى أنه لا يحب من يعتدى فى الدعاء، ومنه أن يتعدى الداعـى حدود ما يجوز أن يدعو بـه الداعى كأن يطلب رتبة أنبيـاء الله، ومنه أن يطلب الداعى عكـس ما قضى به تعالـى فى خلقه. كأن يدعـو بدخول إبليس الجنة أو بـدخول أبى لهب الجنة، ورأى البعض هذا من الكفر. ومنه أيضا الدعاء بمستحيل .

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فـى الآية ـ خطاب إلى جميع خلقه، والأولى بالطاعـة هم المؤمنون، والقول يتضمن نهيا وأمرا، وتقريرا لأمر أريد به الحث على فعل .

فالنهى جاء بقولـه تعالى «ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها» وهـو نهى عن الإفساد فى جميع صوره وأشكـاله ، منه إفساد العقائد والأفكـار، وإفساد النفوس وإفساد المـال، ويذكر تعالى مع النهى أنه تعالى قد أصلح الأرض بعد أن خلقها على النحو الذى تحقق به مصالح العباد وما خلق عليها وبها من كائنات حيـة، مما لا يصلح معه لذى عقل أن يفســد ما أصلح الله .

والأمر تضمنـه قوله تعـالى «وادعوه خـوفا وطمعا»، والخـوف المقصود يقبل أن يكـون هو الخوف من غضبه تعالـى، ويقبل أن يكون خوفا من تقصير المرء فى حـق ربه بما يجعله غير جديـر لأن يستجيب له تعـالى، لأن الذى يشعر بهـذا يشعر بمدى عظـم نعم ربه ويعـرف أنه مهما عمل فإنه لا يـؤدى حقها من الشكر. والطمع يقبل أن يكون هو الطمـع فى إجابة دعائه، ويقبل أن يكون طمعا فـى ثوابه تعالى على ما دعـا به إجابة لأمر ربه أن يدعـوه الخلق تضرعا وخفية، أو باعتبار الدعاء مخ العبادة .

والتقرير هو ما جاء بقوله تعالى «أن رحمة الله قريب من المحسنين»، وقيل فيه إن المراد هو

أن مكان رحمته تعالى قريب من المحسنين أى الذى حسن عملهم مع الإيمان، والمعنى أن رحمته تعالى تنال المحسنين سريعا، فكأنها فى مكان قريب بحيث توافيهم دون تأخير. وقيل فى تذكير قريب مع كون الرحمة مؤنثا إن «القريب» إذا كان فى معنى المؤنث يذكر ويؤنث، فإن كان فى معنى النسب فإنه يؤنث. ومن هذا قوله تعالى «وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا».

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

أولا : الأســـــــماء :

١ ـ البشــــر: فى قوله تعالى «يرسل الرياح بشرا» بسكون الشين وبضمها، جمع، مفرده، بشير. وهو ـ فى معنى الآية ـ ما هو للبشارة، فتكون الرياح باشرات، أى حاملات للبشارة .

٢ ـ السحاب : هو الغيم فى طبقات الجو العليا سمي سحابا لأنه ينسحب فى الهواء .

ثانيا : التفســــــير:

عبارة الآية جاءت فى بسط آية أخرى من آيات قدرته تعالى وردت كأنها من أبواب التعريف به جل وعلا، إظهارا لأنه وحده الخالق القادر المستحق العبادة .

وقوله تعالى «وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته» قيل فيه إن مفاده أنه تعالى يرسل الرياح أمام رحمته ـ المراد بها المطر ـ لتكون مبشرة بنزوله رحمة من الله. ونرى ـ والله أعلم ـ أن كل فعل فى الآية هو إعجاز لا يستطيع غيره جل وعلا أن يأتى به، ومن ذلك فعل «يرسل»، ذلك أن إرسال الرياح من مكان إلى مكان يكون نتيجة اختلاف الضغط الجوى بين المناطق، والذى هو نتيجة اختلاف حرارة الشمس من مكان إلى مكان، فيكون انتقال الهواء أو الرياح من مناطق الضغط العالى إلى مناطق الضغط المنخفض ، ولما كان ذلك نتيجة

لاختلاف حرارة الشمس من مكان إلى مكان وهو ما لا يملـك غيره تعالى فيه شأنا، فإنه يكون واضحا ما فى «إرسال الرياح» من إعجاز لا يقدر عليـه غيره تعالى، ثم إن كون الرياح مبشرات بالمطر هو قول عام يفسره قوله تعالى فـى سورة «فاطر» «والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا»، فالآية تبين أثـر الرياح فى تكوين السحـاب، فهى التى تظهره قبل سوقـه إلى البلد الذى أراد تعالى أن يساق إليه، ودور الرياح فى تكويـن السحاب وإظهاره يبين من معرفة أن بخار الماء فى الهواء يكون غير مرئى فى الأصل فيكون أن الـرياح تحمله إلى مناطق التكثيف الباردة فى طبقات الجـو العليا وتزوده بأنـوية التكاثـف من ذرات الغبار ومـن الأيونات التى تتكـون من مساحيق دقيقة تذوب فى الماء أو تعمل على تجميع قطراته، وجميعها من الذرات المتطايرة من سطح الأرض والبحر مع تيارات الرياح، فيكون تـوافر نوى التكاثف فتتكون قطرات المطر التى تتجمع فى السحب فتصبح مرئية ظاهـرة، فتكون بشرى بنزول المطر من بعد، والذى هو من أيادى رحمته تعالى بالعباد .

وقوله تعالـى «حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلـد ميت فأنزلنا به المـاء» يظهر ما يكون لدى وصول السحـاب المتكون بفعل الريـاح مرحلة الثقل مـن بعد مجرد الظهور، وهـو يصل إليها باستمرار عملية تكونه ويبين القول أن الرياح تكون حاملة له، والذى يعنيه الفعل «ساق» فى قولـه تعالى «سقناه» هو الإعجـاز الثانى الذى لا يقدر عليـه سواه تعالى، فهو تعـالى الذى استأثر وحـده بتوجيه السحاب المتكون الثقيـل إلى حيث يحتاج الإنسـان والنبات والحيوان فى شتى بقاع الأرض؛ ولذلك قال تعالى «سقناه» فأظهـر أن توجيه الرياح بالسحاب هو تقدير إلهى وتدبير لا تدركـه الرياح، ويكون مما يسوق تعالى الرياح بـالسحب إليه بقاع من الأرض قد جـدبت ـ وهى المعبـر عنها بالبلـد الميت ـ تسـاق من أجلها الريـاح أو السحب، دون أن يمنع هذا أن تنزل بغيرها من بقاع الأرض .

وقوله تعالى «فأنزلنا به الماء فأخـرجنا به من كل الثمرات» يقبل أن يكون الضمير المتصل فى «بـه» عائدا إلـى «البلد» أو إلـى «السحاب» معنـاه أنه ينـزل به المطـر فيكون بـه الإنبات والإثمار فيظهر النبـات الذى يوافق طبيعة البقعة مـن الأرض التى نزل بها المطر ويثمـر ثمراته التى تتنـوع بتنوعه . والذى نـراه ـ والله أعلم ـــ أن الفعل «أنزل» فـى قوله تعالـى «فأنزلنـا» هو إعجاز آخـر لا يقدر عليه سـواه تعالى، وأنـه أريد إظهـاره، ذلك أنه لا بـد لكى ينزل المـاء من

السحاب أن يحدث «التكثـف» وهو ما يكون بالبرودة الشـديدة، وهذه البرودة أوجدهـا تعالى فى طبقات الجو العليا التى يوجد بها السحاب ـ وهى ثمانية عشر كيلو مترا فوق سطح البحر ـ تكون فيها درجـة الحرارة سبعين درجة تحـت الصفر، كما أوجدهـا تعالى بطريقـة أخرى هى التمدد الفجـائى للهواء الصاعد بسبـب نقص الضغط الجـوى كلما ارتفع الهواء عـن سطح البحر والأرض، فيحدث تبـريدا ذاتيا للهواء. وذلك مـع ملاحظة أن الجبال الشـاهقات تكون سببا آخر للتكثيف، فإذا اصطدمت الرياح بقمة الجبل فإنها تبرد إلى ما فوق درجة التشبع من أثر برودة قمـم الجبال فيحدث التكثف، و إذا اصطدمـت بالجبال ـ ما دون قممهـا ـ أرغمت الرياح على الصعود أعلـى فيتكاثف سحابها، وفى الحالين يصيـر السحاب مطرا، كما يصير كلما حدث تكثـف. وهذه هى المعجزة التى ينطـوى عليها الفعل، والتى لا يقـدر عليها غيره تعالى .

كذلك فإن الفعـل «أخرج» فى قوله تعالـى «فأخرجنا به» يتضمن إظهـارا لمعجزة لا يقدر عليها سـواه تعالى، فمـن القول يبين أنـه تعالـى الذى ينبت البـذور فتخرج أجنة النبـات من الركود إلى النشاط، فينمـو النبات وتظهر أوراقه الخضراء، وبها مادة الكلورفيـل التى تقوم فى ضوء الشمس وبوجود ثانى أكسد الكربون مـن الجو ومن ماء المطر الذى تستمده من التربة ـ بعملية التمثيل الضوئى ـ بإعداد الغذاء للنبات والثمار للإنسان .

ثم يجىء قوله تعالـى ـ فى ختام الآية ـ «كذلك نخرج الموتـى لعلكم تذكرون» بمعنى أنه على مثـل ما سبق ذكره مـن المعجزات التى منهـا إحياء الأرض الميتة وخروج النبـات الحى منها من المطر الـذى كان فى تكوين سحابـه و إنزاله مطرا معجزات مبهرة، يكـون منه تعالى إخراج الموتى من القبور وبعث الأرواح فى أجسادهم، وفيـه جاء قوله تعالى «لعلكم تذكرون» مظهرا أن من يعقل معجزاته الواردة فى الآية لابد له أن يؤمن بالبعث.

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

أولا : الأســـــماء :

النكـــد: فى قوله تعالى «لا يخرج إلا نكدا» هو العسر الذى لا يعطى خيرا.

ثانيا : التفســـير:

جاء قوله تعالى فى الآية من بعد ذكره فى الآية السابقة أنه ينزل الماء من السحاب فيخرج به من كل الثمرات، ولما كانت الثمرات هى ما يثمر النبات أو ما تثمر الأشجار، وأنه يكون من هذه الثمار ما ينتفع به ومنه ما لا منفعة فيه ومنه مـا يكون فيه ـ على المنظور ـ إيذاء من يطعمه أو يلمسه، بل إن النوع الواحـد من الثمار يكون صالحا إذا ما كان نبتـه فى أرض نظيفة ويكون ضارا إذا ما كـان نبته فى أرض ملوثـة، فقد جاء قوله تعـالى مثبتا هذه الحقيقـة ومظهرا سببها «والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربـه، والذى خبث لا يخرج إلا نكدا» بمعنى أن الأرض الطيبة الصالحة للـزراعة يخرج نباتهـا بمشيئة الله تعالى حسنا صـالحا للانتفاع بـه، أما الأرض التى تلوثت وفسدت فلا يخـرج منها من النبات إلا الذى لا خير فيه. ويبين مـن المقارنة بين وصفه تعالى الأرض الصالحة بأنها «البلد الطيـب» بمعنى: الذى صفته الخير أو الطيبة، وبين وصفه الأرض غير الصالحـة بـ «الذى خبث» أن الخبـث طارىء على الأرض. وربما كـان ذلك لأن المراد «بالبلد» هو الأرض الصالحة للزراعة سواء أكانت طينية أم رملية أو تجمع بين النوعين، وهذه مخلوقة طيبة منـه تعالى، ثم يحدث من الإنسان ما يلوث بـه من هذه الأرض ما يلوث، وإنا لنشهد حاليا مـن هذا الكثير مثل صب مياه المجارى الصناعيـة بما تحمل من فضلات آدمية ومنظفـات فى الأراضى المستغلـة فى الـزراعة، ومثل استخـدام الهرمونـات فى تغـذية النبات وبعض الكيماويات فى تخصيب الأرض مما يخرج معه النبات ضارا بصحة طاعمه.

ويتصور أن يكون المراد بذكر الأرض الطيبة والأرض التـى خبثت هو التشبيه، فيكون «البلد الطيب» تشبيها للقلب الذى يفهم ويعى، ويكون «الذى خبث» هو القلب الذى تبلد فلا يعى ولا يفهم، ويكـون التعبير عن الأخير بـ «الذى خبث» بيانـا لأن القلوب بفطرتها جبلـت على الإيمان الفطرى، ثم أفسدتهـا نفوس أصحابها، فيكون من القلب الطيب قبـول الوعظ فيؤمن ويعمل صالحا صاحبه، ويكون من الذى خبث أن يعرض ويكفر ويعمل بالسوء صاحبه.

ويجىء قوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون» بيانا لما يفعله

تعالى رحمة بـالخلق من ترديد الآيات الدالـة على قدرته وتكرار ذلك ليكـون للخلق الفرصة بعد الفرصة للتفكير فيها والتدبر فيكون العلم بنعمه تعالى والشكر عليها شكر المؤمنين .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾

أولا : الأســـــــماء والأعلام :

نـــــوح: هو نبى الله تعالى نوح بن لامك. وقد سبق ذكره

ثانيا : التفســـــــير:

بعد ذكـره تعالى أن البلـد الذى خبـث لايخرج نباتـه إلانكدا، والذى مـن معانيـه أن من فسدت قلوبهم لا يكون منهم إلا الإعراض عن الإيمان، جـاء مناسبا ذكر قوم نوح عليه السلام الذين أغلقت قلوبهم من سماع دعوته عليه السلام .

وقولـه تعالى «ولقد أرسلنـا نوحا إلـى قومه» هـو جواب لقسم محذوف، بمعنـى «والله لقد أرسلنا نوحـا» ومفاد القول أن نوحا عليـه السلام كان رسولا نبيا أرسله تعـالى إلى قومه بـرسالة التوحيد على ما يبين مـن قوله تعالى «قال يا قوم اعبدوا الله ما لكـم من إله غيره» والمعنى أنه دعا إلى عبادة الله تعالى، فيكون قد دعا إلـى الله، وأعلم بالطاعات والعبادات وأبلغ التكليف بها، كما يكون قد جاء برسالة التوحيد به تعالى وعدم الشرك به.

ثم يجىء قوله عليـه السلام إلى قومه «إنى أخاف عليكم عذاب يـوم عظيم»، وفيه يلاحظ أنه عليه السلام لـم يذكر لقومه أنهم معـذبون، بل قال إنه يخاف عليهـم العذاب، وفى القول إظهار حنوه عليـه السلام عليهم وخوفه أن يصيبهم العـذاب، وهو ما قد تلين معه قلـوبهم له، وفيه أيضا ما يفيد علمه ـــ من الله تعالى ـ بشأن عذابهم ما يكون. كمـا أنه عليه السلام وصف اليوم الذى يصيبهـم فيه العذاب بأنه يـوم عظيم، وهو ـ علـى الظاهر ـ يتصور أن يكـون هو يوم عذاب الطوفان، أو أن يكون يوم عذاب الآخرة، ويرجح أن المراد به هو يوم الطوفان علمه عليه السلام به ـــ إذا انصرفت المعرفـة إلى وقته ـ و إلا كان تصـور أن يكون المراد هو أحـد اليومين معادلا تصور أن يكون هو اليوم الآخر، ويكون العلم به لديه تعالى .

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٦٠﴾

التفســـير:

قوله تعالى - فى الآية - استئناف لرواية الذين أغلقوا قلوبهم عن الإيمان - وهم قوم نوح عليه السلام - يذكر تعالى ما قالوه لنبى الله نوح بعد أن أمرهم بعبادة الله تعالى وعدم الشرك به وبعد أن أخبرهم أنه يخاف عليهم عذاب يوم عظيم. فيذكر تعالى أن جماعة من خاصة رجالات قومه قالوا له عليه السلام إنهم يرونه قد سار فى طريق الضلال الظاهر الواضح. والمعنى أنهم كفروا دعوته وزادوا على ذلك أن اتهموه بأنه فى الابتعاد عن الحق قد قطع شوطا طويلا .

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٦١﴾

التفســـير:

القول فى الآية استئناف لذكر قصة نوح عليه السلام مع قومه، يذكر تعالى أنه قال لهم حين اتهموه بأنه فى ضلال مبين «يا قوم ليس بى ضلالة، ولكنى رسول من رب العالمين» بدأ قوله عليه السلام بأن ناداهم «يا قوم» نسب نفسه إليهم بإضافتهم إليه، ليبين من القول عطفه عليهم وليستميلهم إليه، ثم إنه عليه السلام نفى عن نفسه أن يكون به شىء قليل من الضلالة، وقد جاء ذلك مقابلا اتهامهم إياه بأنه فى ضلال مبين، فكان منه نفى القليل من الضلال عن نفسه .

ثم يجىء قوله عليه السلام لهم «ولكنى رسول من رب العالمين» استدراك على ما قبله، وذلك لإزالة الظن لديهم أنه اكتفى بأن نفى الضلالة عن نفسه مما يحتمل معه أن يكون قد عدل عن دعوته إياهم إلى ما كان يدعوهم إليه، فأثبت عليه السلام لهم أنه على دعوته بتقريره أنه رسول إليهم مبعوث ليدعوهم إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، والمعنى يفيد ثباته على طريق الله المستقيم وعلى دعوته .

أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

التفســــير:

القول من قول نوح عليه السلام إلى قومه، جاء بعد أن قال لهم ـ مستدركا ـ إنه رسول رب العالمين، وفيه يتحدث عن رسالته فى عبارة تقريرية فيذكر أنه يبلغهم ما كلفه تعالى أن يبلغهم به أو أنه يبلغهم ما بعث به الأنبياء من قبله منه تعالى، والمراد بهم ـ على المعروف ـ إدريس عليه السلام، ومن قبله شيت.

ثم يذكر عليه السلام لهم أنه فيما يبلغ وفيما يدعو وفيما يذكر لهم من أوامر الله تعالى ونواهيه وهو ناصح لهم بما فيه مصلحتهم التى يبتغيها ويريدها.

ثم إنه يكون منه عليه السلام تحذير لهم من الاستمرار على ما هم عليه من العصيان فيقول لهم «وأعلم من الله ما لا تعلمون»، وفى قوله عليه السلام «وأعلم من الله» جاءت «من» للتبعيض، بمعنى أن ما علمه هو بعض مما يعلمه تعالى، أو بيانية بمعنى أنها أوضحت أن علمه هو من عند الله تعالى بمعنى أنه تعالى الذى علمه ما علم. والذى علمه عليه السلام من الله تعالى لا يعلمه قومه، والمراد بهذا هو عذاب الدنيا بالإهلاك، وذلك لأنهم أول من عذب به، فلم يبلغهم نبأ أمم عذبوا به من قبلهم؛ ولذلك كانوا لا يعلمون .

أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾

أولا : الأســـماء :

الذكر: فى قوله تعالى «أن جاءكم ذكر» المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو المعنى الخاص الذى ورد مثله فى القرآن العظيم فقيل له «ذكر»، فيكون المراد هو الدين الذى بعث به مشتملا على عقيدة التوحيد، وعلى الشريعة، فالمعلوم أن نوحا عليه السلام بعث بشريعة وإن كانت أنسيت، وقيل إن المراد به هو الموعظة.

ثانيا: التفســـــير:

القول بقية قول نوح عليه السلام لقومه جـاء فى صيغة استفهام للإنكار، فكأن معنى القول هو أنه ليس ما يثيـر العجب ولا ما يستدعى استبعاد الحدوث. والأمر الـذى لم يكن يستوجب التعجب والاستبعاد هـو أن ينزل الذكر أو تنـزل الشريعة منه تعالـى والرسالة علـى رجل منهم شأنه شـأنهم يعرفونـه ويعرفون عنه ما يعـرف القريب عن قـريبه الذى ينحدر وإيـاه من أصل واحد «منكم» ، ويكون نزول الذكر عليه، أو نزوله إليكـم عن طريقه لكى ينذركم بما أنزل إليه، ولكى تتقوا غضبـه تعالى باتقاء المعـاصى، ولكى تدخلـوا فى رحمته تعالى فيجنبكـم عذابه ويدخلكـم جنته. ويقبـل القول أن يكون الإنـذار منه عليه السـلام مؤداه أن يتقـوا غضب الله تعالى باتقاء عصيانه، فيكون دخولهم فى رحمته تعالى .

فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

أولا : الأســـــماء :

١ ـ **الذين معه** : هم الذين أمر تعالى نوحا عليـه السلام أن يأخذهم معه فى السفينة، وكان منهم أولاد نـوح الثلاثة: سام ، حـام، ويافث ونسـاؤهم، وقيل كـان معهم ستة أناسـى، وقيل ثمانون نفسا كان منهم «جرهم» من بنى شيت.

٢ ـ **الفلـــك**: هو السفينة .

٣ ـ **عمين** : بمعنى عمى القلوب .

ثانيا: التفســـــير:

قوله تعالى فى الآية ذكر لباقى قصة نوح عليه السلام، ذكر تعالى أنهم كذبوه، والمراد أنهم كذبوه فى قوله لهم إنه ليس به ضلالة وإنـه رسول رب العالمين كما كذبوه حينما دعاهم إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، فعبارة الآية تبين إستمرارهـم على التكذيب، وذكر تعالى أنه تعالى

أنجي نوحا والـذين اصطحبهم معه فى السفينة من الغـرق، وأغرق الذين كذبوا بآيـاته تعالى التى أنزلها على نوح عليه السلام واستمروا على تكذيبه .

ثم إنه تعالى يصف هـؤلاء المغرقين بأنهم كانوا قوما عمين، بمعنى أنهم عميت قلوبهم فلم تبصر الحق الذى دعاهم إليـه نبيهم ، وجاءت «عمين» ــ وهى صفة مشبهة ــ دالة على ثبوت عمى القلـوب فيها، ومن هنا ظهرت الصلة بيـن الإخبار عن قوم نوح عليـه السلام وبين من سبق ذكرهم ممن ورد فيهم قوله تعالى «هل ينظرون إلا تأويله» .

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

أولا : الأســــــماء والأعلام :

١ ـ عــــاد : هو الجـد الأعلى للقبيلة التى كـان فيها نبى الله هـود عليه السلام، وهو ـ فى الغالب ـ «لود» بن سام، أخو عيلام، وأشور، وأرفكشاد، وأرام. كان جبارا طويل القامة على ما أخبر عنه تعالى.

٢ ـ هـــــود: هو نبى الله هود عليه السلام، والمشهور أنه «عـابر» بن شالخ بن أرفكشاد بن سام بن نـوح. ولد له ابنان: فالج، ويقطـان. ويقطان أنجب الموداد، وشالـف، وحضرموت، ويارح، وهدورام، وأوزال، ودقلـة، وعوبال، وأبيمايل، وشبـا، وأوفير، وحويلة، ويـوباب، كان مسكنهم فى «ميشا» .

ثانيا التفســــــير:

قوله تعـالى فى الآية ذكر لقصة قـوم آخرين من المكذبين الذى لـم يؤمنوا بآياته تعـالى فى خلقه، ولا بما أنزل من الآيات على رسله المبعوثين إليهم ممن استحقوا عذابه تعالى .

وقوله تعالى «وإلـى عاد أخاهم هودا» مفاده «وأرسلنا إلى عاد أخاهـم هودا» على ما يبين من «أخاهم» وهـى منصوبة، وعاد هى قبيلة متسماة باسم عاد الجد الأول بعد سـام بن نوح،

ومنها كـان نبى الله هود، ولذلـك وصف بأنـه أخو أبناء القبيلـة بمعنى أنه واحد منهـم يشترك معهم فى الأصل الذى ينتسبون إليه جميعا .

ثم إنه تعالى ذكر من قول هود لقومه ما يـدل على أنه تعالى دعاهم إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده وعبادته وعدم الشرك به، وهذه هى العقيدة التى بعث بها جميع الأنبياء وهى الإسلام بالمعنى العام. كما يذكر تعالى أنه قال لهم «ألا تتقون» قالها من بعد أن دعاهم إلى توحيد الله وعبادته، جاء قولـه فى صيغة استفهام لإنكارهم ما هم عليه من عـدم تقوى الله تعالى، فيكون القول متضمنا تقريرا لواقع حالهم من عدم تقوى الله، ثم إنه يبين منه صيغة تحذير لأن ينالهم مثل ما أصاب قوم نـوح، وذلك على ما يبين من اختلاف قول نوح لقـومه «إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم» عن قول هود لقومه «أفلا تتقـون» فيجوز أن يكون الاتقاء خاصا باتقاء عذابه تعالى إياهم بالإهلاك الذى عرفوا خبره عن قوم نوح .

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾

أولا : الأســـــماء:

الســـــفاهة : هى الحمق، وخفة العقل .

ثانيا : التفســـــير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ أن جمعا من الذين كفروا من أشراف قوم هود عليه السلام قالوا له «إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين»، ومفـاد القول أنه كان من قوم هود من آمن له فآمن بالله ووحده وعبـده، وأنه كان منهم من هم من أشراف القوم، وأن غيـرهم ممن بقى على كفره أو ممـن ازدادوا كفرا بكفرهـم بهود عليه السلام وبـدعوته اتهمـوه بالطيش وخفـة العقل حين قال إنه نبى مرسـل من ربه وحين دعاهم إلى الإيمان والتوحيد. ثـم إنهم أضافوا قولهم إنهم يظنونه أحد الكاذبين الذين يدعون أنهـم أنبياء ، فيكون المراد بالظن هو الريبة، ويكون سبب كونـه مجرد شك وريبة هو سبق معـرفتهم به صادقا لا يكذب. ويقبـل المعنى أن يكون

المراد بـ «الظن» هو العلم، فيكون اتهاما منهم له بالكذب .

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧﴾

التفســـــير:

يذكر تعالى ـ في الآية ـ رد هود عليه السلام على الذين كفروا من قومه حين اتهموه بالسفاهة وظنوا فيه الكذب، فيقول تعالى أنه قال لهم إنه ليس به سفاهة ولكنه رسول من رب العالمين. وأول ما يلاحظ في قوله عليه السلام هو أنه ناداهم بقوله «يا قوم» فأظهر أنه واحد منهم، والمعنى أنه يريد صالحهم، كما أن في القول استعطافا لهم لاستمالتهم إليه، ثم إنه عليه السلام أتبع ذلك بنفيه السفاهة عنه، وبدلا من أن ينفي الكذب صراحة فإنه استدرك ـ على ما يبين من «لكني» ـ بالإخبار عن أنه رسول من رب العالمين. ومفاد قوله هو أنه صادق بقوله، وصادق بشهادة الله تعالى له لأنه تعالى لا يصطفي للنبوة إلا من هو صادق أمين. وفي القول نسب الرسالة إلى رب العالمين، لبيان أن دعوته عليه السلام هي بأمر ربه تعالى ورب قومه، فهو من أبواب رعايته تعالى لهم ورحمته بهم .

﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨﴾

التفســـــير:

القول ـ في الآية ـ من قول هود عليه السلام لقومه، فبعد أن قال لهم إنه رسول الله من رب العالمين، فإنه أوضح لهم ما كلف به بصفته هذه، وهو التبليغ، فما على الرسول إلا البلاغ. والمبلغ به هو رسالات ربه تعالى شاملة رسالاته التي بعث بها الرسل من قبل ـ وأمها توحيد الله تعالى وعبادته وعدم الشرك به ـ والشريعة التي بعث بها نوح عليه السلام ، وشاملة ما كلف إبلاغه بذاته إلى قومه.

ثم إنه عليه السلام يذكر حاله في إبلاغ رسالات ربه، فيبين أنه ناصح لقومه، ينصحهم بما فيه صالحهم مبتغيا مصلحتهم، وأنه أمين في إبلاغ ما أرسل به إليهم، لا يكذب، ولا يزيد فيه

ولا ينقص منه شيئا من عند نفسه .

أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

أولا : الأســــماء:

١ ـ البســـطة : فى قولـه تعالى «وزادكم فى الخلـق بسطة» المراد بها ـ فـى معنى الآية ـ الزيادة فى الجسم وفى القوة.

٢ ـ آلاء الله : هى نعم الله تعالى المنعم بها على العباد .

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ من قول هود عليه السلام لقومه، جاء فيه «أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم علـى رجل منكم لينذركم» استفهامـا إنكاريا بمعنى أنه يقرر أنهـم تعجبوا أن ينزل تعالى الذكر ـ والمراد به آياته سواء تضمنتها صحف أم لم تتضمنها فكانت وحيا ـ على رجل من قبيلتهـم شأنه شأنهـم، ليكون منه الإنـذار بما أنزل إليـه، وأنهم استبعدوا هذا، وأنـه ينكر عليهم أن يكون منهـم هذا التعجب لانعدام أسبابه، فهـو تعالى يصطفى من المـلائكة رسلا ومن الناس .

ثم يجىء قوله عليـه السلام لقومه «واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعـد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة» شروعا فى ذكر الأحكام المعتبرة من قبيل النصـح والأمانة ـ ترتيبا على ما يتـم التذكير به. فيـذكرهم عليه السلام أنهم خلفـوا قوم نوح عليه السلام فى ملـك الأرض ـ وهذه نعمة ـ إلا أن فى التـذكير بهـا تحذيـر يجب أن يعيـه المتذكـرون وأن يأخـــذوا منه العبـرة، مضمـونه وجوب أن يحذروا أن يصيبهم ما أصاب قوم نـوح من العذاب بكفرهم فيكون منهم الإيمان .

ثم يـذكرهم عليه السـلام بنعمة أخرى، هى تميـزهم على بـاقى خلقه من جنـس الإنسان بالزيادة فى حجـم الجسم والقوة، وفى هذا قيل الكثير فى وصف أحجـامهم مما انطوى على مبالغات لم يفصلها النص ولـم يقم عليها دليل .

وبعد تذكيرهم بهذه النعم مما أنعم به تعالى عليهم فإنه عليه السلام يأمرهم بذكر نعم الله تعالـى عليهم لكى يكون فـلاحهم ونجاحهم، فيقـول لهم «فاذكروا آلاء الله لعلكـم تفلحون». ولما كان ذكـر النعم يستوجب الشكر عليها، والشكـر لا يكون إلا من مؤمن. فإنـه عليه السلام يكون قد أمرهم بالإيمان وبشكره تعالى على النعم مثبتا أن الشكر على النعمة سبب لدوامها، وسبب للفلاح فى الدنيا ونيل الثواب فى الآخرة .

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠﴾

التفســـــير:

قولـه تعالى ــ فى الآية ــ فى بيان مـا كان من قـوم هود معه مـن بعد طلبه منهـم الإيمان والشكر، فيذكر تعالـى أنهم قالوا له «أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كـان يعبد آباؤنا» والسؤال منهم يفيد إنكارهم عليـه ما دعاهم إليه، ويبين من مضمون عبـارتهم التى تضمنت «أجئتنا» أنه إمـا أن يكون عليه السـلام قد قضى زمنـا يتعبد فيه ربـه فى مكان بعيـد عنهم ثم جـاءهم يدعوهم إلى ما أرسل به، أو أن يكونوا قد أرادوا بهـذا التهكم عليـــه والاسـتهزاء به فســـألوا ـ منكرين ـ هل جاءهم من عند الله كما تجـىء الملائكة. كذلك فإنه يفيد أن مضمون دعوته عليه السـلام لهم هى عبـادة الله وحده وتوحيـده وعدم الشـرك به، وأنهم كـانوا يشركـون بالله بمعنى أنهـم كانوا يعبـدون أصناما ألفـوا عبادتها عن آبـائهم، وأنه عليـه السلام أمرهـم بترك عبادتها .

ثم يجىء قولهم له عليه السلام «فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين» ومنه يبين أنه عليه السلام قد أنذرهم بعذاب فى الدنيا إن لـم يؤمنوا له، وقد يكون هذا العذاب هو ما انطوى عليه

قولـه لهم «يا قوم اعبـدوا الله ما لكم من إلـه غيره أفلا تتقون»، ويبيـن منه أنهم اعتقدوا كـذبه وأصروا علـى كفرهم ، كمـا يبين منـه أنهم لفرط ثقتهـم فى كذبـه ـ بمـا يدل على اتخـاذهم الشياطين أوليـاء من دون الله ـ طلبوا منـه إنزال ما توعـدهم به من العـذاب ينزله تعالـى بهم، واثقين أنهم سيثبتون عليه الكذب .

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾

أولا : الأســـــماء:

١ ـ الرجس : فى قولـه تعالى «قد وقع عليكم مـن ربكم رجس وغضب» والمراد بـه ـ فى معنى الآية ـ هو العذاب.

٢ ـ الغضب: فى قوله تعالى «رجس وغضب»، المراد بـه ـ فى معنى الآية ـ الغضب الذى يؤدى إلى الانتقام من المغضوب عليه .

ثانيا : التفســـير:

الآية فى ذكر ما قالـه هود عليه السلام لقومه حيـن أنكروا عليه أن يدعـوهم إلى تـرك ما يعبدون من دون الله تعـالى وطالبوه أن ينـزل بهم العذاب الذى توعـدهم به. فيذكـر تعالى أن هودا عليه السلام قال لهم «قد وقع عليكم مـن ربكم رجس وغضب» بمعنى أنه بقولكم هذا وما نم عنـه من استمراركم علـى الشرك، ورفضكم ترك عبـادة الأصنام وعبادته تعـالى وحده، وبتكذيبكم إياى فإنه يكون قد تحقق منكم وجود السبب الذى تستحقون به عذابه تعالى بعد أن غضب عليكم .

ثم يـذكر تعالـى أن هودا عليه السـلام قال لهم «أتجـادلوننى فـى أسماء سميتموهـا أنتم وآباؤكم مـا نزل الله بها من سلطـان» . ومفاد القول أنه تم بينـه عليه السلام وبين قـومه جدال

حول الأصنام التى كانـوا يعبدونها من دون الله، وأنهم كانوا يطلقون عليهـا أسماء قيل إنه كان منها: «الخالق، والرازق، ومنزل المطر» وغير ذلك. وأنه عليه السلام حين أنكر عليهم عبادتهم الأصنام ذكر لهم أنها ليست بشىء على الإطلاق ذى قيمة أو ذى قدرة، فهى محض مسميات ليست أكثر من ذلك، بمـا يفيد أنها ليست أهلا لأن تكون محلا لجدال. ثـم إنه عليه السلام أثبت انعدام الحجة على أنهـا تساوى شيئا أكثر من هذا، وأنه تعالى لم ينـزل فى شأن قدرتها شيئا مما تنطوى عليه صفات الأسماء التى أطلقوها عليها.

ثم يجىء قول هود عليه السلام لهم «فانتظروا إنى معكم من المنتظرين»، وهو وعيد بنزول العذاب بهم ردًّا علـى قولهم «فأتنا بما تعـدنا» فيكون المعنى هو «فانتظـروا العذاب» ويكون قوله لهم «إنى معكم من المنتظرين» تحديـا لهم، فهو معهم ينتظر حلول العذاب المتوعد به، واثقا من حلوله بهم .

فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

• **التفســـــير:**

الآية بيان منـه تعالى تعالى لما كـان منه مع هود والذين آمنـوا معه ومع باقى قومـه، يذكر تعالى أنه أنجاه ومن معه ـ بمعنى من كـان معه على الإيمان ـ والمستفاد من القول ـ بمفهوم المخالفة ـ أن غيره وغيرهـم لم تكن لهم نجاة، وأنه كان عذاب منه تعالـى أهلك الباقين. ثم إنه تعالى يبين أن نجاة هود والذين كانوا معـه على الإيمان برحمة منه تعالى، وهذا دليل على أن النجاة من العذاب لا تكون بعمـل العبد وإنما برحمته تعالى. ثم إنه تعـالى يصف ما حل بباقى قومه فيذكـر تعالى أنه قطع دابرهم، ولما كان «الدابر» هـو الآخر أو المؤخرة فيكون القول كناية عن استئصال القوم تماما. والمراد بهم الذيـن كانوا فى بلدتهم وهى «الأحقاف» ـ على الشائع ـ بيـن عمان وحضرموت ، وقيل إنها «الحجـر»، ذلك أن المروى أنهم كانـوا قد بعثوا منهم جمـاعة يستسقون لهـم كان منهم شخص يـدعى «لقمان» ـــ وهو غير لقمـان الحكيم ـ

حدث بعد أن أهلـك تعالى عادا وكان لقمان هـذا بالحرم أنه سأل الله تعالـى أن يعطيه عمر سبعة نسور، واستجاب له تعالى، فكان يأخذ الفرخ الذكر من النسور إذا خرج من البيضة حتى إذا مات أخذ غيره، وكان النسـر يعيش نحو ثمانين عاما، وكان اسم النسـر السابع «لبد»، فلما مات «لبد» مات لقمان، وقد شاع ذكر هذه الواقعة فى أسفار العرب .

وقوله تعالى ـ من بعد إثباته استئصال قوم هود الكافرين ـ «وما كانوا مؤمنين» مثبتا أمرين: أولهما إثبات الكفر عليهم عنـد إهلاكهم، وثانيهما أنهم لم يكونوا ليؤمنـوا فيما لو لم يهلكهم الله على ما يستفاد من قوله تعالى «ولقد أهلكنـا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا» .

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

أولا : الأســـــماء والأعلام :

١ ـ ثمـــــود: اسم قبيلة كـانت بالحجر بين الحجـاز والشام، والاسم علم قيـل إنه اسم الجد الأعلـى للقبيلة ثمود بـن عامر بن أرم بـن سام بن نـوح، وإذا كان هذا النسـب صحيحا فيكون عامر بن أرم أو آرام هو «جاثر»، وإن لم يكن صحيحـا فيكون هو «عابر» بن سام بن نوح أخا يافث الكبير، ويدعم هذا أن نسل ابنه يقطان قد عاشوا فى مناطق عديدة منها مكان حياة القبيلة.

٢ ـ صالح : اسم علم، وهو نبى الله صالح بن عبيد بـن آصف بن ماشح بن عبيد بن حاذر ابن ثمود أخـو طسم وجديس ـ وهـم العرب البائدة ـ وقيل هو ابـن عبيد بن جابر بـن ثمود بن جابر بن سام، بن نوح، سار بعد هلاك قومه إلى فلسطين، ثم انتقل إلى الحجاز ومات بها وهو

ابن ثمان وخمسين سنة :

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالى «و إلى ثمـود أخاهم صالحا» جاء معطوفا على قوله تعـالى «و إلى عاد أخاهم هودا» فكأن معنى القول هو «وأرسلنا إلى هود أخاهم صالحا» . ثم إنه تعالى يوجز دعوة صالح عليه السـلام قومه بقـوله لهم «يـا قوم اعبدوا الله مالكـم من إله غيـره» ومفاد القول أنـه عليه السلام دعاهم إلى الإيمان بالله وتوحيده وعدم الشـرك به، بمعنى أنه دعاهم إلى العقيدة التى جاءت بها دعـوة الرسل جميعهم ــ وهى الإسلام بالمعنى العـام ـ ويبين من القـول أنه عليه السلام قد بين لقومه وحدانيته تعالى وأنه تعـالى الإله الحق، ليس غيره إله ولا جديرا أن يقال عنه إله .

وقول صالح لقـومه «قد جاءتكم بينة من ربكـم، هذه ناقة الله لكم آية» هـو إعلام منه عليه السلام أن ربهم الذى يـرعاهم قد بعث إليهم بمعجـزة تشهد بنبوته عليه السلام، أتبعـه بذكر ماهية المعجزة وهى «ناقة الله» نسبت إليه تعالـى لخلوص ملكيتها له تعالى وحده فلا يملكها سواه تعالى، وقيل إنها نسبت إليه تعالى لأنها كانت حجته تعالى على القوم .

وقصة الناقة تخلص فى أن الكافرين من قـوم صالح عليه السلام عاهدوه على أنه إن أتى بما يقترحون عليه آمنوا له، واقترحوا عليه أن يخرج من صخـرة عينوها له ناقة، فدعا صالح ربه بما اقترحوا فخـرجت الناقة من الصخرة وولـدت فصيلا فلم يؤمنوا، ثم كـان منهم أنهم عقروا الناقة فأهلكهـم الله تعالى بعد ثلاثة أيـام بصيحة من السماء فيها صوت الصـاعقة فتقطعت قلوبهم فـأصبحوا فى دارهم جـاثمين، ثم سار صالـح إلى فلسطين ومنها إلـى الحجاز حيث مات.

وقول صالح لقـومه «فذورها تأكل فـى أرض الله، ولا تمسوها بسوء فيأخذكـم عذاب أليم» جاء فيه الأمر بتـرك الناقة ترعى فى أرض الله والنهـى عن مسها بسوء مترتبا علـى وصفها بأنها ناقة الله تعالى بما يستـوجب تركها ترعى فى أرضه تعالى وعـدم التعرض لها. وجاء النهى عن مسها بسوء لبيـان أن النهى عنه هو كـل ما يسيئها مهما قـل وضعف ولو كان بمجـرد زجرها أو إبعادها عن المرعى.

وقولـه عليه السلام «فيأخـذكم عذاب أليم» هـو تشديد فى النهـى عن الإساءة إلى النـاقة وتهديد بحلول العذاب بهم إذا ما نالوها بسوء .

وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾

التفســـــير:

قوله تعـالى ـ في الآيـة ـ هو تتمة قول صـالح عليه السلام لقومـه ـ وفيه يذكـرهم بنعم الله تعالى عليهم التى توجب عليهم شكره. فهو عليـه السلام يذكرهم، أو يطلب منهم أن يتذكروا أنه تعالى الذى جعلهم يخلفون عادا فى الأرض، وقـوله « خلفاء من بعد عاد » يفيد أنه كان لعاد سلطان فى الأرض ، وأنهم ـ أى قوم صالح ـ جاءوا من بعد عاد خلفا لهم فى سلطانهم على الأرض . ثم إنه عليه السلام يذكرلهم نعمة أخرى ليتذكروها وهى أنه تعالى أنزلهم فى الأرض منازل « وبوأكم فى الأرض» ـ والمراد بالأرض هو أرض المنطقة التى كانوا يسكنونها ـ ثم أوضح لهم كيفيـة إنزالهم بالأرض منازل بقوله « تتخذون مـن سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيـوتا» ، والمعنى أنـه تعالـى مكنهم من أن يبنـوا القصور أو المساكـن المرتفعـة فى سهول الأرض المنبسطة، وربما كان ذلك لحاجة المساكـن العالية إلى أساس يكون لها فى عمق الأرض فيكون فـى سهول الأرض، وربما كان للأغنيـاء منهم لحاجته إلـى المال، وأنه تعالى مكنهـم من نحت الجبال بيوتا، ويبـن من العبارة أن حال الجبال لم يكـن عند نحتها بيوتا، وإنما صار كذلك بنحتها؛ ولذلك جاءت « بيوتا» منصوبة على أنها حال مقدرة.

وبعـد أن ذكرهـم عليه السـلام بهـذه النعم قـال لهـم « فاذكـروا آلاء الله» ، والمعنى هـو فاشكروا الله على نعمـه ـ ما ذكر منها وما لـم يذكر ـ والقول يثبت أن جميـع النعم تكون منه تعالى ولو كـانت بحسب الظاهر نتيجة عمـل الإنسان ، لأنه تعالى الذى مكـن الإنسان من العمل وعلمه كيف يعمل. كما يفيد وجوب أداء حـق النعمة من الشكر، ثم يجيء نهيه عليه السلام قومه من السعى فى الأرض بالفساد مثبتـا عليهم أنهم لم يكتفوا بعدم أداء حق النعمة من الشكر، وإنما زادوا على ذلك الفساد والإفساد؛ ولذلك نهاهم عليه السلام عنه.

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾

التفسير:

قوله تعالى - فى الآية - استئناف لرواية قصة قوم صالح، فيذكر تعالى أن الجمع الذى استكبر من قومه - والقول يقبل أن يكون المستكبرون هم الذين تعالوا على صالح وعلى الإيمان به، إلا أنه بين من المقابلة بينهم وبين « الذين استضعفوا » أن المراد بهم هو كبار القوم وأشرافهم - أن الجمع الذى استكبر من قومه قالوا للذين آمنوا من ضعفاء القوم وأذلائهم « أتعلمون أن صالحا مرسل «من ربه».

ونفهم من القول أن كبار القوم كانوا كافرين وأن ضعفاءهم كان منهم مؤمنون وكان منهم كافرون، على ما يبين من « لمن آمن منهم » وهو يدل على أن الذين آمنوا كانوا بعض المستضعفين.

والسؤال الموجه إلى المؤمنين لم يكن المراد به هو معرفة الإجابة، وذلك لأنه كان معلوما لكبار القوم الكافرين أن الموجه إليهم السؤال مؤمنون. وإنما كان المراد به الاستهزاء بهم.

وقد وافق سؤال الكافرين أن تكون إجابة المؤمنين عليه هى « إنا بما أرسل به مؤمنون» فهم لم يجيبوا على السؤال بالإجابة المفترض أن تكون عليه وهى الإجابة بنعم، وإنما أجابوا بأنهم مؤمنون بما أرسل به من ربه، فأشاروا إلى عملهم بمقتضى ما جاء به من ربه.

فأظهروا للكافرين أنه ليس ثمة محل للسؤال عن إيمانهم لأنه مسألة مقطوع فيها بالعلم . فكانت إجابتهم استهزاء بالكافرين ، ومقابلة للشىء بمثله.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦﴾

التفسير:

يذكر تعالى - فى الآية - ما كان من الذين كفروا بعد سماع إجابة المؤمنين على سؤالهم. وفى قوله تعالى جاء التعبير عن الكافرين بأنهم الذين استكبروا فتأكد معنى أن كبار قوم صالح عليه السلام كانوا كافرين. والذي كان منهم هو قولهم للمؤمنين من ضعفاء القوم «إنا بالذى آمنتم به كافرون» .

لم يقولوا إنهم بما أرسل به كافرون وإنما قالوا إنهم بما آمن به المؤمنون كافرون ، فكأنهم أرادوا أن يقولوا لهم إن كونه مرسلا من ربه ليست مسألة مقطوعا بها كما تقولون أو ترون، وإنهم لذلك التفتوا عنها وذكروا أن كفرهم هو بما آمن به المؤمنون .

وقول الكافرين يدل على إصرارهم على ما هم عليه من الكفر والعناد فهم كافرون ولو كان صالح عليه السلام صادقا، وكان مرسلا من ربه، فكفرهم هو بما آمن به المؤمنون.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٧٧﴾

التفسير:

يذكر تعالى أن الكافرين من قوم صالح عليه السلام نحروا الناقة « فعقروا الناقة» نسب تعالى الفعل لهم جميعا مع أن القائم بالنحر هو أحدهم لأنهم جميعا اتفقوا على هذا أو دعوه لينحرها كما جاء بقوله تعالى « فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر» ، واستكبروا على أمره تعالى الذى أبلغهم به صالح عليه السلام وهو ألا يمسوها بسوء أو إنهم تولوا عنه ولم يمتثلوا له فصاروا عاتين .

ثم يذكر تعالى أنهم خاطبوا صالحا عليه السلام وطالبوه - على سبيل التعجيز - أن

يأتيهم بما توعدهم من العذاب إن كان من الصادقين، ومفاد قولهم عدم اعتبارهم بآية خروج الناقة من الصخرة كطلبهم وإصرارهم على نفى صفته نبيا مرسلا من ربه.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾

أولا : الإسـماء:

١ ـ **الرجفة**: هى الرعدة، وتطلق على الزلزلة، وهى خفقان القلب واضطرابه. وجاء التعبير عنها بالصيحة، وبالطاغية، والمعلوم أن هلاك قوم صالح كان بالصيحة، ويتصور أن يكون من أثر عظمها حدوث الرجفة الشديدة بالقلوب. تسمى لشدتها بالطاغية. لأن كل ما جاوز الحد طاغية.

٢ ـ **الجاثمون**: فى قوله تعالى « فى دارهم جاثمين» جمع، مفردة « الجاثم» وهو البارك على الركب. والمراد به ـ فى معنى الآية ـ الهامد الخامد من الموت.

ثانيا: التفسـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ ذكر خاتمة قصة قوم صالح الكافرين ونهايتها، يذكر تعالى أنهم أصابت قلوبهم الرجفة الشديدة التى هى من أثر الصيحة العظيمة التى فاقت كل حد فكان من آثار رجفة قلوبهم توقفها فتوقفت فكان موتهم الذى أصبحوا معه هامدين خامدين فى ديارهم لاحراك بهم، أو خامدين فى مدينتهم على ما يستفاد من التعبير عن الدار بصيغة المفرد.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾

التفسـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ يتعلق بما كان من صالح عليه السلام بعد أن تحداه المستكبرون

أن يأتيهم بما توعدهم به من عذاب ربهم، وقبل أن تأخذهم الرجفة، فكأن فعله كان إيذانا بانتهاء جدالهم.

والذى كان منه عليه السلام هو الابتعاد عنهم مخاطبا إياهم بقوله « ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين».

فبين لهم أنه أبلغهم ما أرسل به من ربه إليهم بصفته مرسلا ، ونصح لهم رغبة فى إنقاذهم من العذاب بصفته واحدا منهم . ثم أثبت لهم عليه السلام أن إعراضهم عنه وكفرهم به كان لكراهتهم من ينصحهم بعكس ما تميل إليه نفوسهم، وهو أحدهم. فيكون القول مثبتا عليهم إصرارهم على الكفر على ما جرت به طبيعتهم.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾

أولا : الأسماء والأعلام:

لوط: هو نبى الله لوط ـ وقد سبق ذكره ـ بعد رجوعه عليه السلام مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام سكن دائرة الأردن، ونقل خيامه إلى سدوم وكان بها أهلها الذين أقام بينهم لوط عليه السلام فصاروا بمرتبة قومه وأهله .

ثانيا: التفسير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ أنه أرسل لوطا إلى قومه، والذى نراه ـ والله أعلم ـ أن المراد بقومه ـ فى معنى الآية ـ هم أهل سدوم التى أقام بها واتخذهم قوما له، لأن قومه هم قوم إبراهيم عليه الصلاة السلام، وهو عليه السلام لم يقم بينهم بعد رجوعه من مصر مع عمه إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ويقول تعالى إن لوطا عليه السلام قال لقومه « أتأتون الفاحشة» والقول استفهام أريد به التوبيخ والتقريع.

فهو تقرير لإتيانهم الفاحشة وتوبيخ عليها. وبقية قوله عليه السلام لهم هو « ماسبقكم بها من أحد من العالمين» وهـو بيان لبشاعة فعلهم بذكره أن أحدا من العالميـن ـ والمراد بهم الجن والإنس ـ لم يسبقهم إلى ارتكاب الفاحشة التـى جاء لومهم وتوبيخهم عليها، فهم أول من فعلها. وقيـل فى سبب مقارفتهـم هذه الفاحشة أنهـم كانوا أصحـاب بساتين وكان الغـرباء يقطفون من ثمارها فاقترح بعضهم أن يمنعوا الغربـاء من ذلك بأن ينكحوا من يجدوه سارقا ثمارا ويغرموه مالا.

وقيل إن إبليس لمـا سمعهم جاءهم فى هيئة صبـى جميل دعاهم إلى نفسـه فنكحوه ثم اعتادوا هذا. وليس لهذه الأقوال مصدر يوثق فيه.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

أولا: الأسماء:

الشهوة: هى الاشتهاء. بمعنى الـرغبة الجامحة، ويغلب استخدامها فـى الرغبة الصادرة عن غريزة من الغرائز.

ثانيا : التفسير:

القول ـ فـى الآية ـ قول لوط عليـه السلام، تضمن بيانـا لماهية الفاحشة فبيـن أنها إتيان الرجال شهوة بمعنى مواقعتهم وجماعهم ، وقرأ البعض « أئنكم » ـ وعلى هذه القراءة ـ يكون القول إنكارا جديدا للفعل ومزيدا من التوبيخ .

وفى القول جاءت « شهوة » مفعولا لأجله فأظهـرت أن ارتكاب الفاحشة المذكورة إنما كان لإشباع الغريزة. ثم يجىء قول لوط عليه السلام مبينا أن فعلهم هو انحراف بالشهوة عن طبيعتها وشـذوذ فى الطبع بقولـه « من دون النساء » إذ أن الشهـوة الجنسية تكون ـ فـى الطبع السليم ـ بين الـرجل والمرأة ، فيشتهى الرجل المـرأة. وجاء قوله عليه السلام « إنكـم لتأتون الرجال شهوة من دون النسـاء» متضمنا ذكر « الرجال » وليس الغلمان ـ مـن جهة ـ ومبينا أن

ذلك من دون النسـاء ـ من جهة ثانية ـ لبيان مدى ابتعاد الفعل عن الطبـع السليم والطبع الذى به سقم والبلوغ بالشذوذ منتهاه إذ يكون محل الرغبة من الرجل رجلا مثله، وربما كان ذلك للتنفير من الفعل لفرط قبحه.

ثم إنه عليه السلام أنهى مخاطبته إياهم بقوله « بل أنتم قوم مسرفون » وفيه جاءت « بل» للانتقال من الإنكار إلى الإخبار، والقول يثبت انعدام العـذر لديهم فى مقارفة هذه الفاحشة وأنهم اعتادوا الإسراف ومجاوزة الحد ومنه جاء اقترافهم هذه الفاحشة.

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾

التفســـــير:

مفاد قولـه تعالى ـ فى الآيـة ـ على ما يبين مـن الاستثناء بـ « إلا» أن إجابة قـوم لوط عليه كانت قول بعضهم لبعـض « أخرجوهم من قريتكم إنهم أنـاس يتطهرون» والمراد بهذا هو رد فعلهم إزاء مقولتـه الأخيرة عليه السلام لهم، ذلك أن الثـابت من القرآن العظيم أنـه كان بينه وبينهم محاورات كثيرة. ومعنـى أنهم قالوا يقبل أن يكون هو قول عـامتهم لأصحاب الأمر فيهم ويقبـل أن يكون هو قول البعـض للبعض . ومعناه انعقاد الـرأى لدى القائلين وقبـوله ممن قيل لهم أو توحده بين الفئتين على طرد لـوط عليه السلام ومن معه من بلدتهم مع بيان سبب هذا وهـو أنهم أناس يتطهرون، ووصف لوط ومـن معه بأنهم أناس يتطهرون فيـه تقرير لدافع وفيه سخريـة منهم. إذ كان لوط عليه السلام ومن معه مطهرين مـن الفاحشة التى نهى عنها واستنكرها من قـومه، وفيه سخرية تبين من أن مفاد القول هـو استحسان فعل الفاحشة فى نظر القـوم القائلين ورميهم لوطـا ومن معه بالتطهر منها ممـا يجعلهم غير جديريـن ـ فى نظرهم ـ بمسـاكنتهم مساكنهم ومجاورتهم فيهـا على النحو الذى يكونون فيـه جميعا بمثابة قبيل واحد.

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾

أولا : الأسماء:

١ ـ **الأهل**: فى قوله تعالى « فأنجيناه وأهله» المراد بهم فى معنى الآية يقبل أن يكون هو من يعولهم لوط عليه السلام فيشمل الزوج والولد، والعبيد، والخدم، ويقبل أن يكون هو كل من اتبعه من المؤمنين سواء أكان من ذوى قرابته أم لا.

٢ ـ **الغابرون**: فى قوله تعالى « كانت من الغابرين » جمع، مفرده الغابر، ومعناه هو «الباقى»، وهو أيضا «الماضى الذى ذهب وولى»، ومن معانيه « الهالك».

ثانيا: التفسير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ أنه أنجى لوطا عليه السلام والذين اختصوا به من المؤمنين من ذوى قرابته ومن غيرهم الذين أصبحوا له ـ فى المجتمع الفاجر ـ بمثابة أهل، مع ابنتيه، ثم إنه لما كان الزوج هو من الأهل وكان تعالى لم ينج امرأة لوط عليه السلام، فقد جاء نص الآية مستثنيا إياها من الأهل الناجين «إلا امرأته» التى قيل إن اسمها كان والهة أو واهلة، ذكر تعالى ـ بعد استثنائها من بين الأهل الناجين ـ أنها كانت من الغابرين، بمعنى أنها كانت من الذين هلكوا، وقيل إن سبب ذلك أنها كانت تضمر الكفر وتظهر الإيمان، وقيل هو عصيانها أمر ربها بعدم الالتفات إلى القرية أثناء خروجهم منها كما نقله لوط عليه السلام لمن معه، فعوقبت بهذا بإهلاكها بحجر أصابها مما أمطرت به القرية.

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

التفسير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ ما كان منه تعالى مع أهل القرية وهى سدوم وقراها الخمس، وجاء ذكر ما فعل تعالى بهم من بعد ذكره أنه أنجى لوطا وأهله إلا امرأته، مع أن النجاة تكون من الهلاك لبيان أنه تعالى شاء وقدر نجاة لوط وأهله إلا امرأته مما قدره على أهل القرية من الهلاك.

ويظهر النص كيفية إهـلاك القرية بقولـه تعالى « وأمطـرنا عليهم مطرا » ، وقيـل إن الفعل الربـاعى « أمطر» يكـون بالعـذاب أو فى الشر، بخـلاف الفعل الثلاثـى « مطر» الـذى يكون بالخير. ومفـاد القول أنه تعالـى أنزل عليهم من السمـاء مطرا كان هو العـذاب الذى أهلك الهالكين، قيل إنه كان حجارة من كبريت ونار.

وقد وصفها القرآن العظيم بأنها حجارة من سجيل فى قوله تعالى « وأمطرنا عليهم حجارة من سجيـل» ثم يقول تعـالى « فانظـر كيف كان عـاقبة المجرميـن» وهو أمر لـرسول الله ﷺ بصفته رأس الأمـة الإسلاميـة وللمؤمنين عـامة بالنظـر إلى مـآل الكافريـن الذيـن استمرءوا ممارسة اللواط والاعتبار بها ، وصفهم سبحانه وتعالى بأنهم المجرمون .

وهو ما يبين منـه مع ملاحظة ما استحقوه مـن العذاب جزاء على جريمتهم مـدى بشاعة الفعلة واعتبارها من أعظم الفواحش.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾

أولا : الأســـــماء والأعلام:

١ ـ مدين: اسم علـم ـ فى الأصـل ـ وهـو « مديان »أحـد أبناء إبراهيـم عليه السـلام من قطورة، وأبنـاء مدين هم «عيفـة، وعفر ،وحنوك، وأبيداع، وألـوعة»، أطلق اسمه علـى القبيلة التى هـو جدها الأكبر، وعلـى البقعة، من الأرض التى أقـامت فيها، وإلى أرض هـذه القبيلة هرب موسى عليه السلام بعد قتله المصرى، وتزوج من ابنة كاهنها وهو شعيب الحفيد، حفيد شعيب النبى، واسمـه ـ فى التوراة التى بيـن أيدينا ـ يثـرون. وقيل هو الذى تزوج مـوسى عليه

السلام ابنته.

٢ـ شعيب : اسم علم . وهو نبي الله شعيب، من نسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، بعثه الله إلى أصحاب الأيكة وأهل مـدين. وذكر فى نسبه أنه ابن ميكايل بن يشجـر بن مديان بن إبراهيم عليه الصلاة والسـلام. قيل إنه بعث إلى أمتين هما مديـن، وأصحاب الأيكة ، وقيل هما أمة واحدة بدلالة أنه وعظ بوفاء الميزان والمكيال.

ثانيا : التفسـير:

مفاد قوله تعالى ـ فى الآية ـ أنه أرسل إلى مدين واحدا من أهلها هو شعيب عليه السلام، دعاهـم إلى عبادته تعـالى وتوحيده وعـدم الشرك به، أى إلـى العقيدة التى بعث بهـا جميع الأنبياء والرسـل ، وهى الإسلام بالمعنـى العام « ياقوم اعبـدوا الله ما لكم من إلـه غيره ». ثم يذكر تعالى أنه عليـه السلام قال لقومه « قد جاءتكم بينة من ربكـم » بمعنى أنه قد جاءتكم حجة مـن ربكم وعلامة أو معجـزة تثبت نبوته عليـه السلام ولم يذكـر نص الآية ماهيـة هذه البينة، مما قد تكون معـه هى أحكام الشريعة فى شأن الكيل والميـزان وإيفاء الحقوق، وقد تكون ـ على ما قيل ـ هى وقوع عصـا آدم عليه السلام عليه. والذى نراه ـ والله أعلم ـ أن البينة هى مجيؤه بالـرسالة على ما يستدل غليها بمـا جاء به من الأحكام الشرعية ، لأنـه لم يرد فى القرآن العظيم ذكر معجزة له.

والحكم الشرعى الذى ذكره شعيب عليه السلام لقومه وهو من أحكام المعاملات جاء به قـولـه « فأوفـوا الكيـل والميـزان ولا تبخسوا النـاس أشيـاءهـم ولا تفسدوا فـى الأرض بعـد إصلاحها » وهو أمر باعطاء الحقوق أصحابها فى المعاملات التجارية.

جاء التمثيل له بحالـة كون البيع مما يكال بمكيال أو مما يوزن بميزان، فـأمر بإيفاء الكيل والميزان ليكون التعادل مع الثمن فلا يظلم بائع ولا مشتـر. ثم إنه عليه السلام أكد المأمور به وأظهر عمومية الحكم وعدم اختصاصه بالبيـع أو ببيع ما يكال أو يوزن بقوله عليه السلام « ولا تبخسوا الناس أشياءهم » فوضـع قاعدة عامة مفادها عدم أكل حقوق النـاس فى تعاملاتهم، والوفاء بها.

ثم يجىء قوله عليـه السلام « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها » مبينا واقـع أنه تعالى

قد أصلح الأرض بأمرين هما تسخيرها للخلق ليفيدوا منها.

وبـالشرائع التـى أنـزلها لتحكـم مـا ينشأ مـن عـلاقـات وما يحـدث من واقعات بيـن الأشخاص، وبين الجمـاعات، وأن الفساد المنهى عنـه يكون لكل فعل يضـر بالأرض وممن عليها وبعدم تطبيق أحكامه تعالى.

ولذلك نهى عليه السلام عن هذا جميعه، فيكون النهى متضمنا معنى وجوب الالتزام بما شرع تعالى من أحكام .

ويجىء قولـه عليه السلام « ذلكم خير لكم إن كنتـم مؤمنين » مشيرا إلى مـا سبق أن ذكره عليه السلام لقومه من الوفاء بالكيل والميزان، وعدم أكل حقوق الناس، والوفاء بالالتزامات، وإعمال أحكـام الله تعالى، وعـدم الإفساد فى الأرض، ومخبـرا أنه فـى التزام المشار إليـه ما يحقق خير العباد.

وفى عبارة قـوله « إن كنتم مؤمنيـن» ما يفيد أن قومه كـانوا يعرفون عنـه الصدق، فأراد أن يقول لهـم « إن كنتم تؤمنـون بصدقى علـى الحقيقة، فلتؤمنـوا بأن فى التـزام ما أمرتكـم به خيركم » ، فيكون القول حثا لهم على التزام أمره عليه السلام الذى هو من أمر ربه.

وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾

التفســــير:

قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ ذكـر لقول شعيب عليه السـلام لأهله، فهو مـن باقى قولـه عليه السلام، وهو فى جزء منه نهى عن أفعال كانوا يقارفونها، وفى جزء منه أمر بتذكر نعمة أنعم بها تعالى عليهم ، وبالنظر والاعتبار.

فالنهى جـاء بقوله عليه السلام « ولا تقعـدوا بكل صراط توعدون وتصـدون عن سبيل الله

من آمن به وتبغـونها عوجا» والمنهى عنه فى مبتـدأ القول هو قعودهم بالطـرق يخوفون الناس بتوعدهم بالقتل. وفى تصور معناه فإنه يحتمـل عدة صور، فيتصور أنهم كانوا يقعدون بالطرق يترصدون القادمين إلى شعيب عليه السلام ليسمعـوا له ، فيتوعدونهم بالقتل أو بالعذاب إن هم آمنوا لـه. ويتصور أن يكونوا ــ كما قيل ـ قاطعـى طريق ـ على غـالبهم ـ كانـوا يتربصون بالمارين ثـم يفاجئونهم ويخوفونهـم بالموت إن لم يسلموا لهم أمـوالهم . ويتصور أن يكون المراد أمـرا معنويا فهم يتـرصدون جميع الطـرق التى تؤدى إلـى الإيمان بدعوة شعيـب عليه السلام يخوفـون الناس من الإيمان له بكل طـريق. ومنها زعمهم أنه كذاب يفتـن الناس عن دين آبائهم .

كذلك جاء فـى النهى نهيه عليه السلام إياهـم عن الصد عن سبيل الله من آمـن به ابتغاء عوج الطريق. والقول الصـادر بالنهى يقبل أن يكون متضمنا بيانا لماهيـة القعود بكل طريق، فيكون المعنى أن القعود بالطـرق يكون منه منع الذين فتح الله صدورهـم للإيمان عن إدراك سبيل الله الموصـل إلى هذا وهو الـوصول إلى شعيب عليـه السلام والسماع له والإيمـان به رسولا نبيا، مبتغين طـريقا معوجا لا يوصل إلـى رضائه تعالى، أو واصفين طريـق الإيمان بأنه طريق معوج. ويقبل النهـى أن يكون نهيا عن سلوك آخر هو صد الخلـق عن الإيمان عموما واتحاد السبيل الموصل إلى الله مبتغين الطريق المعوج طريق الضلال يكون للناس كما هو لهم .

والأمر المتعلق بتذكر النعمة جاء بقول عليـه السلام. « واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم »، إذ كـانوا نفـرا قليلا يخشـى عليهم ممـن حولهـم من الأقـوام فبارك تعـالى فـى نسلهم فكثـروا وأصبحوا قوة، كما أنهم كانوا فقراء فأفاء تعالـى عليهم الخير فى أرضهم فاغتنوا من بعد فقر. والمراد بتذكيرهم بهـذه النعم هو أداء حقها من الشكر بعدم صد النـاس عن طريق الإيمان، وعن اتباع طريقه تعالى والإيمان لرسوله.

أما الأمر المتعلق بالنظر والاعتبار فقد تضمنه قـوله عليه السلام « وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين». وهو أمر بالنظر فى مآل الأمـم التى أفسدت فى الأرض من قبلهم الذين أهلكهم سبحانه وتعالى بعذاب الدنيا.

وأن يعتبروا بما حاق بهم مـن عذاب فيكون منهم تجنب أسبابه من تكـذيب الرسل والعمل بالمعاصـى. فيكون مفاد الأمر هـو الحث على الإيمان بـالله والعمل بأوامره ونـواهيه وتجنب فعل الفساد والإفساد .

والمفهوم من الأمر بالضرورة هو علم القوم بما حاق بمن سبقهم من الأمم من العذاب

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

التفســـير:

القول ـ فى الآية ـــ قول شعيب عليه السلام . ويقبل أن يكون المخاطـب به الكفار فيكون وعيدا لهم، ويقبل أن يكون المـؤمنين فيكون حثا لهم على تحمل أذى الكافـرين ووعدا لهم بالانتقام لهم من الكافرين، ويقبل أن يكون للفريقين.

ومفاد القول أنه إذا كان البعـض من قومه عليه السلام قد آمنوا بما بعثـه تعالى به، وكان البعض الآخر لم يؤمن، فليكن من المؤمنين الصبر على أذى الكافرين.

وليكن من الكافرين الصبر على ما يؤذيهـم من إيمان المؤمنين، ثم ليكن هذا الصبر من الفريقيـن إلى أن يأتى الله تعـالى بحكمه يظهر بـه من هــو علـى الحق ومن هو فـى ضلال مبيـن .

ويبين من حتى ـ وهى للغاية ـ أن هذا الصبر يكون إلى حد معين هو مجىء حكمه تعالى الذى يستظهره الفريقان ، كما يبين منه أن حكمـه تعالى آت لا ريب فيه ؛ ولهذا يكون القول متضمنا معنـى الوعد للمـؤمنين بـالانتقام لهم مـن الكافريـن . ووعيدا للكـافرين بـالانتقام منهـم.

ووصفه عليه السلام ربه تعالى شأنه بأنه خير الحاكمين فيه بيان لوجوب رضاء الفريقين بحكمه تعالى يظهر به الحق ويميزه من الباطل بقضاء لاراد له ولا معقب عليه .

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾

التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ ذكر لأحداث وقعت بعد ما قاله شعيب عليه السلام لقومه مما ورد ذكره فى الآية السابقة. فيذكر تعالى أن الجمع من أشراف قومه عليه السلام المستكبرين أعلموه أنهم مخرجونه من بلدتهم هو والذين آمنو معه ـ درءا لفتنتهم باقى القوم ـ وفى قولهم جاءت « نون القسم» فى « لنخرجنك» لتأكيد فعل الإخراج مع المبالغة . وجاء فى القول ذكر شعيب بالاسم لإظهاء خطره . ثم إنهم من بعد ذكرهم ماهم فاعلون به وبمن آمن معه خيروهم بين هذا الخروج الاضطرارى وبين العودة إلى ملتهم وما هم عليه من الكفر. ولما كان المعلوم أن نبيا أو رسولا لا يجوز عليه الكفر، فإن مفاد العودة إلى ملة الكفر إما أن يكون مخصوصا بالذين آمنوا مع شعيب عليه السلام، أو أن يكون القوم قد أرادوا إلهام المؤمنين بأنه كان ـ من قبل ـ على ملتهم.ثم إنه تعالى يخبر عن رد شعيب عليه السلام عليهم وهو قوله لهم « أولو كنا كارهين»، وفيه جاءت الهمزة للإنكار، فيكون معنى القول هو « كيف نعود لملتكم ونحن كارهون لها» ، فيكون القول مثبتا عدم العودة إلى الكفر والإصرار على هذا.

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

التفســـير:

القول ــ فى الآية ـ تتمة قول شعيب عليه السلام لقومه بعد أن خيروه بين الخروج من بلدتهم أو العودة بمن آمن به إلى ملتهم وما هم عليه من الكفر. فيذكر تعالى أنه قال لهم «قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها» ومفاد قوله هو الإعلام ـ على وجه القطع ـ بعدم العودة إلى ملة الكفر، فهو عليه السلام يصف العودة إلى الكفر بأنه افتراء الكذب عليه تعالى. وذلك لأن المشرك بالله تعالى يفترى على الله الكذب بزعمه أن لله تعالى ندا ونظيرا يستحق العبادة ، ولأن المرتد يكون منه ـ فضلا عن هذا الكذب عليه تعالى ــ كذب آخر هو قوله أنه تبين له ـ من بعد أن أعلن إيمانه ـ بطلان ما آمن به وصدق عقيدة الكافرين . ومفاد وصف العودة إلى ملة القوم بهذا هو الإجابة على التخيير برفض ما خير فيه من العودة إلى الكفر بالمؤمنين . ثم إن القول يثبت أن الذى نجى المؤمنين من الكفر هو الله تعالى، فالقول يثبت أن الإيمان يكون بمشيئته تعالى، كما يثبت أن الكفر هلاك يكون الإيمان الصحيح هو سبيل النجاة منه.

ثم يجىء قوله عليه السلام « وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا، وسع ربنا كل شىء علما» بمثابة ذكر لواقع و إعلام بأن الإيمان والكفر، والبقاء على الإيمان أو الارتداد عن دين الحق بأمره تعالى ومشيئته، فهو عليه السلام والمؤمنون ليس لهم بعد أن نجاهم سبحانه وتعالى من الشرك أن يعودوا إليه ، مع الإقرار بأنه تعالى إن شاء غير هذا كانت مشيئته، وجاء التعبير عنه تعالى بالرب لإظهار ملكه تعالى وأن الملك والمالك لا يُسأل فيما يفعل بملكه ، ثم يجىء قوله « وسع ربنا كل شىء علما» بيانا لأنه لو وقع مثل هذا المخبر عنه وهو العودة إلى الكفر، فإن ذلك يكون لأمر فى علمه تعالى لا يحيط به الخلق. والقول ـ فى عمومه ـ يشير إلى وجوب عدم اطمئنان المؤمن لحاله فالحال كما قال تعالى أنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الكافرون.

وقوله عليه السلام بعد ذلك « على الله توكلنا» وفيه إظهار عجزه والمؤمنين والاعتماد عليه تعالى فى تدبير أمورهم، وفيه اشارة إلى اعتمادهم عليه تعالى فى عصمتهم من الارتداد عن الدين والعودة إلى الكفر فيكون المراد إظهاره للكافرين هو أنهم لن يعودوا إلى الكفر لأنهم

اعتمدوا فى هذا عليه تعالى وحده، وهو الذى لا يخيب من توكل عليه واعتمد.

وختام قوله عليه السلام « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين» هو دعاء لله تعالى وإقرارلـه تعالى بأنه خير الفاتحين ، جـاء مرتبطا بما دعا به عليه السـلام. فالدعاء إليه تعالى هو بالفتح بين المؤمنين وبين الكافرين ، بمعنى إظهار الحق وبيانه فى شأن ما اختلفوا فيه.

والدعـاء إليه تعالى بفيـد انتهاء الحديـث والجدال بينه عليـه السلام وبين الكافـرين، ويفيد الإعراض عن الاسترسال معهم فى ذلك . والإقرار لله تعالى بأنه خير الفاتحين، بمعنى خير من يفصل الأمـور ويفصل بين الحق والباطل بـأحكامه، جاء مرتبطا بسـؤاله تعالى أن يقضى بين المؤمنين وبين الكافرين بقضاء يميز الخبيث من الطيب، فأقر عليه السلام برضائه بحكمه تعالى الذى لا يجوز عليه الظلم ولا الممالاة.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾

التفســـير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ أن الذيـن كفروا من قوم شعيب أرادوا إضلال الخلق بعد أن ضلوا هم ، وقد يكـون هؤلاء الكافرون هـم المستكبرين ، وقد يكونـون غيرهم، ومحاولـة إضلالهم تمثلت فـى زعمهم للنـاس أن من يتبـع شعيبا عليـه السلام يكـون من الخـاسريـن. ويقبل الخسران أن يكون المـراد به هو خسارة دين الآباء يـرونه الهدى ـ وخسارة الوطـن بالإخراج منه .

ويقبل أن يكـون هو خسارة الكسب الحـرام الذى كانوا يجنـونه ببخس الناس حقـوقهم وبالتطفيف فى الكيل والوزن . والأول أظهر لأنه لا يكـون بعد الإخراج ـ مع الإيمان ـ بخس حقوق ولا تطفيف.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

التفســـــير:

يذكـر تعالى ما كـان منه تعالـى عن قوم شعيـب عليه السلام فيقول تعـالى « فأخـذتهم الرجفة » ، وفيها قيل إنها الزلزلة، ثم إنه لما كـان قد جاء قوله تعالى فى سورة هود « وأخذت الذين ظلموا الصيحة » والمراد بها صيحة جبريل عليه السلام .

فإنه يكون المقبول هو أن الصيحة لعظمهـا أدت إلى ارتجاف القلوب على النحو الذى أماتها فخمد القوم وماتوا.

وقال البعض إن شعيبا عليه السلام بعث إلى أمتين أهلكت إحداهما بالصيحة وأهلكت الأخرى بالرجفة.

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

التفســـــير:

بعدأن ذكر تعـالى إهلاكه قـوم شعيب عليه السلام الكـافرين، ذكر تعـالى أنه بإهـلاكهم أصبح الحال كما لو كانوا لم يعيشوا فى بلدهم وديارهم طويلا من قبل مستغنين بما أفاء الله تعالى عليهم فيها من الخيرات ، ومفاد القول أنه تم استئصالهم تماما

ومفاد هذا القـول عند من يرى أن شعيبا الذى تـزوج موسى عليه السلام ابنتـه هو شعيب الحفيد، أن مفاد القول هو أن آخرين حلُّوا بديارهم وبلدتهم حتى بدا الأمر كأن الهالكين لم يوجدوا من قبل في الديار وفى البلد ولم يغنوا مما أغناهم الله تعالى فيها.

وقوله تعـالى « الذين كـذبوا شعيبا كانـوا هم الخاسريـن» هو بيان لأن واقع الحـال أنهم الذين خسروا الدنيـا والآخرة وليس الأمر كما جاء بقولهم للمؤمنيـن « لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون» فصدق الله العظيم فيما وعد، وكذب الكافرون.

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

التفســــير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ ما كان بين شعيب عليه السلام وقومه بعد أن أعلن نهاية الجدال معهم، فيذكر تعالى أنه تولى عنهم بمعنى أنه ابتعد عنهم مفارقا وهويقول « ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين» وفى مناداتهم بـ« ياقوم» ما يدل على حنوه عليهم، كما أن فى قوله :

« لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم» ما يفيد أنه عليه السلام أراد أن يوضح لهم أنه أدى ماكلف به من ربه فأبلغهم رسالاته وعمل مافى وسعه لينجيهم من عذابه تعالى فنصحهم بالإيمان والطاعة .

ولما كان مفاد ما سبق أنه عليه السلام كان فى نفسه حزن على ما سيصيبهم من عذاب الدنيا مما أعلمه به سبحانه وتعالى فإنه قد يكون معنى قوله عليه السلام « فكيف آسى على قوم كافرين» هو أنه ينكر على نفسه حزنها عليهم ويلومها على هذا مذكرا إياها بأنهم قوم كافرون لا يستأهلون الأسى والحزن عليهم ، وتكون «كيف» قد جاءت للإنكار

وقيل غير هذا وهو أنه عليه السلام أعلن قومه أنه قد قام معهم بواجب الإبلاغ والنصح والتحذير ولكنهم بقوا على كفرهم، ولهذا فإنه لايحزن عليهم لما سيصيبهم من عذاب الله تعالى ، فيكون معنى قوله « فكيف آس على قوم كافرين » هو أنه لا يأسى عليهم لأنهم ليسوا أحقاء أن يكون عليهم أسى وحزن.

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾

التفســــير:

جاء قولـه تعالى ـ في الآية ـ من بعد ذكره ما حـاق بالأمم التي كذبت رسلهـا من صور العذاب كمـا ورد في الآيات السـابقة، فجـاء القول متعلقا بهـذه الأمم التي أصـابها عـذابه تعالى في الدنيا، فيكـون المراد بقوله تعالى « وما أرسلنا في قرية » هـو « وما أرسلنا في قرية مهلكة» ، وفـي عبارة القول جاء الفعل الماضـي « أخذنا » بعـد « إلا» بتقدير « قـد » فكأن القول هو «ومـا أرسلنا في قرية مهلكـة من نبيّ إلا وقد أخـذنا أهلكا بالبأسـاء والضراء لعلهم يضرعون» فيكون مفاد القول أنه تعالى لا يرسل في قرية من القرى المهلكة نبيا إلا حال كونه تعالى آخذا أهلها بـالبؤس والفقر، وبالضر والأذى، وذلك لكي يتوبـوا عن ذنوبهم ويخضعوا إليه ويتضرعوا إليه أن يرفع عنهم البلاء، فتكون توبتهم يدرءون بها العذاب .

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

التفسـير:

لا يزال القول في بيـان كيفية إهلاك أهل القرى الكافـرة ، فيذكر تعالى أنه يكـون منه من بعد أخذ أهل القرى بـالبأساء والضراء أنه تعالى يبدل بالسيئات حسنـات، أو أنه تعالى يعطي هذه القـرى حسنات مكان السيئات، والمـراد أنه تعالى يجـود عليهم بالغنى مكـان الفقر، وبالصحة مكان السقـم وقوله تعالى «حتى عفـوا» يفيد استمرار إحسانه تعالـى إليهم إلى أن يكثروا في أنفسهم وينموا وتكثر أموالهم. ويبين تعالى أنهم حين يصلون إلى هذه الدرجة من التنعم في خير المال الوفير والصحة الجيدة يقـولون « قد مس آباءنا الضراء والسراء» والمعنى أنه كما أصاب آباءهم من قبل الفقر والمرض ثـم نالهم الخير وتمتعوا بالصحة، فذلك الحال معهم أصابهم الفقر والمرض وأعقبه الغنى والصحة.

والمراد إظهـاره هو عدم اعتبـارهم بما أصـابهم وجهلهـم عن تبين أنـه ابتلاء منه تعـالى واختبار، فلا تكون منهم توبة، ولا يكون منهم شكر، بل يكون الاستمرار في العصيان.

ويجىء قوله تعالـى فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون مظهرا أن أهـل القرى المهلكة ـ وقد غفلوا عن الاعتبار بمـا أصابهم من خير بعد ضر يـؤخذون بالعذاب منه تعالـى بغتة فيفجأهم العذاب وهم لا يشعرون ، وعدم شعورهم بالعذاب يأتيهم ، إنما يكون بعد تصديقهم رسلهم الذين أجزوهم به ، فلما نسوا ما ذكروا به كان حلول العذاب بهم ـ على إنذارهم به ـ بغتة.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾

التفســـير:

قوله تعـالى استئناف لذكر أحوال القـرى المهلكة . يقول تعالى « ولو أن أهـل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهـم بركات من السماء والأرض »، ومفـاد القول هو أن أهل هـذه القرى لم يؤمنوا ولم يتقوا.

والمراد بالإيمان هو الإيمان برسلهم وما أمروهم به مما كلفوا به من ربهم والمراد بالتقوى هو اتقاء ما حرم تعالى عليهم على لسان رسله.

ومعنى القول أن أهل هذه القرى لو كانوا قد آمنوا بـرسلهم واتقوا عصيانه تعالى بمقارفة ما نهوا عنه، لكان منه تعـالى أن فتح عليهم بركات من السماء فنزل عليهـم المطر ينبت لهم من كل الثمرات، وفتـح عليهم بركات من الأرض فأخـرجت لهم خيراتها من الـزرع والمعادن ما يغنيهم ويجعلهم يعيشون فى رغد العيش. والمراد بالتعبير هو مجىء الخير من كل جانب.

والمستفاد من قـوله تعالى أن فتـح بركات السماء والأرض هو أمـر آخر غير تبديلـه تعالى مكان السيئـة الحسنة، ويـدعم هذا أن تبـديل مكـان السيئة الحسنة يكـون حال بقـاء أهل القـرى على كفـرهم، حيـن يكون فتـح بـركات مـن السماء والأرض معقـودا على الإيمـان والتقوى. وهو ما لم يكن من أهل القرى المهلكة .

ثم إن تعالى يثبت فى حق أهل القرى المهلكة أنهـم كذبوا الرسل « ولكن كذبوا» ومعنى تكذيبهم الـرسل هو أنهم لم يؤمنـوا ولم يتقوا؛ ولهذا فإنـه تعالى لم يفتح عليهم بـركات من

السماء والأرض، كما أنهم كسبوا السيئات بكفرهم ومقارفتهم المعاصى فاستحقوا عذابه تعالى المعبر عنه بقوله تعالى « فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون» فهذا هو مفاد قوله تعالى فيهم «فأخذناهم بما كانوا يكسبون».

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾

التفسير:

جاءت عبارة الآية فى صيغة استفهام « أفأمن» جاءت الهمزة للإنكار، والفاء للتعقيب، لقوله تعالى عقب ذلك « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون» ، وقيل إن المراد بأهل القرى هم أهل القرى المهلكة ، وقيل إن المراد بهم هم أهل مكة وما جاورها من القرى التى بعث الله تعالى رسوله ﷺ فيهم ، وقد يكون هذا هو الصحيح، فيكون القول متضمنا تحذيرا من الاستمرار على الكفر والإصرار عليه.

ومعنى القول هو أنه تعالى قادر على أن يصيب بعذابه أهل كل قرية من القرى الكافر أهلها ليلا حال بيتهم فى البيوت نائمين.

وأنه ليس ما يؤمن معه ألا يحل عذابه تعالى بأهل هذه القرى على هذا النحو وفى مثل هذا الوقت.

أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾

التفسير:

معنى القول ـ وقد ورد أيضا فى صيغة استفهام للإنكار ـ هو أن أهل القرى يعدمون ما يؤمنهم من حلول عذابه تعالى بهم نهارا خلال انشغالهم فيما لا يجدى نفعا ـ على ما يبين من « وهم يلعبون».

وقد قرأ البعض « أو » بإسكان الواو للعطف بمعنى أن أهل القرى إن أمنوا أن يصيبهم

العذاب ليلا، فلا يأمنوا أن يصيبهم نهارا.

وأصل « الضحى» هـو ضحوة النهار، وهو فـى الأصل ارتفاع الشمس، أو شـروقها وقت ارتفاعهـا، فإذا لم يظهـر اختصاص ساعـة من النهار بـه ـ فى القـول ـ استعمل فـى معنى ارتفاع الشمس، أو شروقها وقت ارتفاعها، بحسب الأصل.

أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

أولا : الأســـماء:

مكر الله : المكر ـ فى الأصـل ـ هو الخداع، ويطلق على الستر ومنه قـولهم « مكر الليل» بمعنى ستر الليل بظلمته . وإذا نسب المكر إليه تعـالى كان المقصود به هو استدراج العبد العاصى لهلاكه ، فيكون تشبيها بالخداع.

ثانيا : التفســـير:

بعد أن ذكر تعالى مغبة الاطمئنان إلى الحال والاسترسـال فى المعاصى مع قدرته تعالى على التعذيب بهـا بالإهلاك ليلا أو نهارا، جاء قـوله تعالى فى الآية منكـرا اطمئنان العصاة إلى حالهـم آمنين أن يصيبهم الله بعذاب من عنـده « أفأمنوا مكر الله » فيكون القـول تحذيرا للقرى الكافر أهلها. ثم إنه تعالى أورد ـ فى شأن هؤلاء الآمنين ـ قوله تعالى

«فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون» جاء فى عبارة تقريرية يبين منها أن الذين خسروا أنفسهم فضيعوا إيمانهم الفطرى ، والذين يستمرون على مقارفة المعاصى هم الذين يأمنون مكر الله .

فهم يحسبون أنهم لا يعاقبون فلا يؤمنون أو يطمئنون إلى عفوه تعالى عنهم فيستمرون على المعصية فيخســرون أنفسهم، والمفهـوم من القـول ـ بمفهوم المخـالفة ـــ أن الذيـن يخشون عذاب ربهم تكون منهم الطاعة ويكون لهم الفوز.

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

أولا: الأســـماء:

الذين يرثون الأرض: هم الذين يخلفون قوما سبقوهم فى بقعة من بقاع الأرض أو قرية من قراها. وقيل إن المراد بهم - فى معنى الآية - أهل مكة وما حولها، وقيل هم المشركون.

ثانيا: التفســـير:

قوله تعالى - فى الآية - إنكار لحال الذين يخلفون قوما سبقوهم قد هلكوا فى ملكية الأرض أو القرى لايتبينون أحوال الذين سبقوهم ويتدبرون ما كان منه تعالى إذ أهلكهم بذنوبهم ، فيغفلون عن هذا ولا يهتدون « أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها».

وقوله تعالى « أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم هو بيان لما كان واجبا على من ورثوا الأرض أن يتبينوه ، وهو أنه تعالى قادر على أن يصيبهم بعذاب من عنده يهلكهم كما فعل مع الذين سبقوهم فى الأرض، فيعتبرون بهذا ويكون منهم الإيمان والطاعة .

وقوله تعالى - فى الآية - «ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون » جاء جملة اعتراضية وردت تذييلا لما أنكره تعالى على الذين يرثون الأرض . مفاده أنه تعالى يطبع على قلوب الذين لم يرد لهم الإيمان فلا تعقل الآيات المتطورة، ولاتفهم الآيات المتلوة عليهم ، ولا تتعظ بأحوال السابقين، ويكون من آثار هذا الطبع أن آذانهم لاتسمع دعوة الأنبياء إلى الإيمان ، فإذا سمعتها لم تدخل قلوبهم بما طبع تعالى عليها، فلا يكون لهم الهدى.

تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾

التفســـير:

يشير تعـالى إلى القـرى التى أهلكها وهـى قرى نوح وعـاد ولوط وهود وشعيـب التى ورد ذكرها فى الآيات ويخبر عنها بأنه تعالى يقص على رسوله ﷺ والمسلمين أخبارها. ثم يذكر تعالى أن أهل هذه القرى قـد جاءتهم الرسل وكل منهم مؤيد بما أيـده به تعالى من معجزة وآية تدل على أنه رسول الله مما كان يستوجـب الإيمان إلا أنهم استمروا على ما هم عليه من عدم الإيمان . ثـم يقول تعالى فـى شأنهم « فما كـانوا ليؤمنوا بمـا كذبوا من قبـل» وهو قول يقبل عـدة معان، فهو يقبـل أن يكون المراد بـه أنهم ما كانـوا ليؤمنوا بعـد هلاكهم فيمـا لو أحياهـم سبحانه وتعـالى. ويقبل أن يكـون المراد بـه أنه تعالـى قد علم منـذ الأزل أنهم لا يؤمنون وإن أعطـوا العهد قسرا يوم أخذ الميثاق عليهـم ؛ ولذلك فإنهم لا يؤمنـون لأنهم قد كفروا فى علمه تعالى من قبل.

ويقبل القول أن يكون المراد به أنهم وقد كذبوا رسلهـم قبل أن تأيتهم بالبينات، فإنهم ما كانوا ليؤمنوا بعد أن أتوهم بها .

وقوله تعالـى « كذلك يطبع الله على قلوب الكـافرين»، معناه المباشر أنـه على مثل هذا الطبع الشديد على قلوب أهل الأمم الهالكة فإنـه تعالى يطبع على قلوب الكافرين، والمراد بالقول هو الإفادة عن حال مشركى العرب الـذين كفروا برسول الله ﷺ، وهو حال الذين طبع الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون.

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

أولا : الأســماء:

العهد: فى قوله تعالى « وما وجدنا لأكثرهم من عهد » قيل إن المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو العهد الذى ورد فيه قوله تعالى « لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » وهو ما كان من أهل القرى المهلكة حين مستهم البأساء والضراء.

وقيل هو العهد الذى أعطوه يوم أخذ الميثاق. وقيل هو ما عهد تعالى إليهم من الإيمان والتقوى بما دلل عليه بالحجج والآيات.

التفســير:

الحديث فى الآية عن أهل الأمم المهلكة، يذكر تعالى أن أكثرهم لم يوف بعهده بل كان نقض العهد. ولا يفيد المعنى أن القليل منهم أوفوا بعهدهم، وإنما يفيد أن قليلين منهم لم يعطوا عهدا على الإطلاق، والراجح أن العهد الذى أعطته الكثرة هو شكر الله تعالى إذا رفع عنهم البأساء والضراء. وهو ما نقضوه بعد رفعها عنهم باستمرارهم على المعصية.

ثم إنه تعالى يقول فى شأنهم « وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » بمعنى أنه كان من فعل أهل هذه القرى أو من فعل أكثرهم ما يدل على فسقهم، فمعنى القول هو «ما وجدنا أكثرهم إلا خارجين عن الطاعة »؛ ولذلك يكون مفهوما أن يكون من هؤلاء النكث بالعهد لكونه مما يدخل فى نطاق الخروج عن الطاعة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٠٣﴾

أولا: الأسماء والأعلام:

١ ـ موسى: هو نبى الله موسى بن عمران. وقد سبق ذكره

٢ ـ فرعون: هو لقب ملك مصر فى العصر الفرعونى، وقد سبق بيانه وذكره وفيه ذكرنا أننا نرى أنه لم يكن مصريا، وأنه أول ملوك الأسرة الهكسوسية الأولى التى حكمت مصر، وقيل إن اسمه طاليس.

ثانيا: التفسير:

يذكر تعالى أنه كان منه تعالى بعد زمان القرى المهلكة أنه بعث تعالى موسى عليه

السلام مزودا بـالمعجزات إلى فرعون وقـومه، ومعنى أنه تعالـى قد بعث بموسى إلـى فرعون وقومه هو أنـه تعالى قد بعثه إليهم بـرسالة ودعوة للإيمان، ولقـد ذكرنا ـ من قبل ــ أنه تعالى أنزل على موسى عليه السلام الصحف لينذر بها فـرعون وقومه ، ثم أنزل عليه التوراة لينذر بها بنى إسرائيـل، ويذكر تعالى أنـه قد أمد موسى عليـه السلام بالمعجزات، وأن فرعـون وقومه كفروا بهـذا الأيات «فظلموا بهـا» فهم قد كـذبوهـا، فوضعوا الكفـر محل الإيمان الـذى كان متوجبا عليهم.

ثم يجىء قوله تعالـى « فانظر كيف كـان عاقبة المفسـدين» وهو خطاب لـرسول الله ﷺ وللمؤمنين ولكل من يتبصر الأمور ويعتبر بأن ينظر فى عاقبة فرعون وقومه ليكون له فيها العبرة، وصفهـم تعالـى بأنهـم المفسدون، فـدل على أن الكفـر والشرك فسـاد فى الأرض وإفسـاد يستوجب العقاب.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾

التفســـــير:

قوله تعـالى ـ فى الآية ـ ذكـر لما كان فى بدء الحـديث بين موسى عليه السـلام وفرعون. فيذكر تعالى أن موسى عليه السلام ناداه قائلا « يافرعون »

بمعنى أنه ناداه بلقبه كحاكم بشر وليس بلقبه كإلـه أو ابن إله كما كان يناديه قومه، ثم بدأ حديثه بقوله :

« إنى رسـول من رب العـالمين » فـأعلم فـرعون أن هنـاك ربا يملـك فرعـون وجميع الخلق، وأنه رسول مرسل من قبله تعالى برسالة.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥﴾

أولا: الأســـماء:

الحقيق : فى قوله تعالى « حقيق علَى» هـو الجدير بالشىء أو الأمر. وقرىء « حقيق عليَّ » بمعنى واجب على.

ثانيا: التفســـير:

القول ـ فى الآيـة ـ من قول موسى عليه السلام لفـرعون، يذكر تعالى أنه قـال لفرعون إنه رسول من رب العالمين جـدير بأن لا يكون منه إلا قول الحق، فهو على حـق فيما قال من أنه رسول من رب العالمين، وجاء قـوله هذا لما كان من تكذيب فرعون وقـومه موسى المستدل عليه بقوله تعالى « فظلموا بها».

ثم إن مـوسى عليـه السلام قـال لفرعـون « قد جئتكم بـآية مـن ربكم فـأرسل معـى بنى إسرائيل» ومفـاد القول أنه عليه السـلام قد أمده الله تعالـى بآية معجزة تثبـت صدقه ، وأن الذى أمده بالآية هو رب فرعون وقومه رب العـالمين ، ثم أتبع هذا بطلبه من فرعون أن يخلى بينه وبين بنى إسرائيل فيتركهم يذهبون مع موسى إلى الأرض التى وعدوا أن يدخلوها.

وقد كان بنو إسرائيل بمصر منذ أن قدموا فـى زمن يوسف عليه السلام إلى وقت خروجهم مع موسى عليه السـلام، وكان حرص فرعون على استبقائهم فى مصـر لما كان عليه الحال من تسخيرهم فى الأعمال الشاقة والمهينة مقابل أجر ضئيل.

قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾

التفســـير:

قوله تعـالى ـ فى الآيـة ـ ذكر لرد فرعـون على موسى، فيقول تعـالى إن فرعون قـال له ما مفـاده أنه إذا كـان قـد جاء بمعجـزة مـن لدن مـن ادعـى أنه رب العـالميـن الذى أرسلـه، فليحضرها عنده ليثبت صدقه، وفيه جاء قوله « إن كنت من الصادقين» للحث على إحضار الآية، ومفاده أنـه عليه السلام كان معروفا عنـه الصدق ، فكأن قول فرعـون معناه « إن كنت كما اشتهر عنك صادقا، فليكن منك الإتيان بالمعجزة التى ذكرت أن ربك أمدك بها.

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾

أولا : الأســـماء:

١ ـ العصا: سبق ذكرهـا. وقيل إنها كانـت من العوسج ، وقيـل كانت من خشـب اللوز، وقيل إنها عصا آدم عليه السلام أعطاها شعيب موسى فى مدين

٢ ـ الثعبان: هو الأفعى، والحية من أنواعه، وهو من الزواحف منه السام ومنه غير السام.

ثانيا : التفســـير:

مفاد قـوله تعالـى ـ فى الآيـة ـ أنه كـان من مـوسى عليه السـلام حين تحداه فـرعون أن يحضر المعجـزة التى ذكر أن الله تعـالى أمده بهـا، أنه ألقـى عصاه على الأرض فـأصبحت العصى ثعبانا.

وفى وصـف الثعبان بـأنه « مبيـن » ما يـدل على أن تحـول العصا إلـى ثعبان كـان على الحقيقة وليس تخييلا على ما يفعل السحرة وليـس فى الآية وصف للثعبان غير هذا ، ولهذا أعرضنا عما قيل فى وصفه ليكون فى موضعه.

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾

التفســـير:

يذكر تعالى ـ فى نص الآية ـ أن موسـى عليه السلام نزع يده بمعنى أنه أخرجها من جيبه، على ما يبين من قوله تعالى « أدخل يدك فى جيبك» ، أو أنه أخرجها من تحت إبطه، على ما يبين من قوله تعالى« واضمم يدك إلى جناحك»، ثم يبين تعالى أنها ظهرت للناظرين بيضاء، وقيل إن بياضها كان غير مألوف وأنه كان بياض نور.

ووجه الإعجـاز فى أنه كان مـوسى عليه السـلام شديد الأدمـة، بمعنى أنه كان بـه سواد، فكان المثير للعجب أن تكون يده بيضاء فى أعين الناظرين مخالفة لون بشرته.

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾

التفسير:

يذكر تعالى - فى الآية - تعليق مشورة السوء من علية قوم فرعون رجال بلاطه الذين شاهدوا معجزة العصا ومعجزة اليد، فيقول تعالى إنهم قالوا عن موسى عليه السلام إنه ساحر عليم، بمعنى أنه يجيد فنون السحر وأحابيله، وأن ما أتى به هو نوع من السحر.

يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾

التفسير:

القول - فى الآية - يقبل أن يكون قول خاصة فرعون، قالوه لقومهم ولفرعون، قالوا لقومهم عن موسى عليه السلام إنه ساحر عليم يريد أن يرتفع بهامة بنى إسرائيل عليهم فيكون إخراجهم من بلدهم .

وقالوا لفرعون - على سبيل التعظيم - فماذا تأمرون طالبين صدور أمره فى شأن موسى ليقوموا بتنفيذه .

ويقبل القول أن يكون - كما قال البعض - هو قول فرعون قاله لخاصته ثم طلب منهم المشورة، فيكون معنى « فماذا تأمرون » هو « بماذا تشيرون».

قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾

التفسير:

يذكر تعالى فى الآية ما كان من خاصة فرعون عندما طلب منهم المشورة، فيقول تعالى إنهم طلبوا من فرعون أن يرجىء الفصل فى أمره وأمر أخيه هارون إلى أجل ، ومفاد القول يثبت أن موسى قد توجه وأخاه إلى فرعون تنفيذا لأمر الله تعالى لهما.

كما يذكر تعالى أنهم أبدوا مشروتهم إلى فرعون بأن يبعث فى مدن مصر وقراها من يجمع الناس.

والمراد بجمع النـاس هو جمع الأخبار عنهم لمعرفـة الذين عرف عنهم ممـارسة السحر و إجادة فنونه.

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

التفســـير:

القول هو بقية قول خاصة فرعون بعد أن أشاروا ببعث الحاشرين فى المدن والقرى ، يظهر أن المسهتـدف مـن جمع الأخبـار عـن النـاس هو إحضـار أهـل العلـم من السحـرة فيـه والماهرين فى فنونه.

وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾

التفســـير:

قوله تعالـى ـ فى الآية ـ إخبار بما كـان وهو إحضار الحاشرين أهل العلـم فى السحر إلى فرعون، فهم جاءوه بهم فكان التعبير عن هذا بمجيئهم « وجاء السحرة فرعون» .

ويثبت تعالى أنهـم اشترطوا على فرعون أن يـؤجرهـم على فعلهم إن غلبوا مـوسى عليه السلام فى السحر «إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين » وأصل القول هو « أئن لنا لأجرا» .

ومفاد القول أن السحرة كانوا عالمين بالمهمـة التى استحضروا لها، وأنهم كانوا واثقين من انتصارهم على موسى عليه السلام.

وقد قيل فى عدد هؤلاء السحرة وفى أسمائهم وأسماء المدن التى استحضروا منها الكثير

مما لا تشير إليه الآية ولذلك لم نورد له ذكرا فى هذا الموضع.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾

أولا: الأسـماء:

المقربون: فى قولـه تعالى « وإنكم لمن المقربين» جمع ، مفـرده « المقرب» وهو من تم تقريبه من شخـص أو من موضع وهو فى المكـان ـ فى الأصل ـ واستعير ليكـون فى المكانة والمنزلة.

ثانيا : التفسير:

يذكر تعالى ــ فى الآية ـ أن فرعون أجاب على سؤال السحرة ــ عما إذا كان يجعل لهم أجرا إذا ما غلبوا مـوسى عليه السلام ـ بالإيجـاب، فكأنه قال لهم «نعم إن لكـم أجرا» ، ثم يبين تعـالى أنـه أعلمهم أنه يكـون لهم فوق هـذا الأجر مـا هو أعظم منـه. وهو جعلهـم من القريبين منه أو من خاصته .

والقول يشير إلى مـا يتمتع به المقربون من فرعـون من مزايا ترجح الأجـر النقدى ، منها ما يكون معنويا مثل علو الدرجة، ومنها جنى المصالح التى تدخر المال أو تكسبه.

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

أولا : الأسـماء:

الملقون: فى قوله تعالى « أن نكون نحن الملقين» جمع، مفرده « الملقى» اسم فاعل من «ألقى ـ يلقى » ، وهو من ترك شيئا فلقيته الأرض بحكم الجاذبية، والمراد به فى معنى الآية من طرح شيئا عامدا ليسقط على الأرض.

ثانيا : التفسـير:

قوله تعـالى ـ فى الآية ـ استئنـاف لذكر قصة السحرة ، فيـذكر تعالى أنهم قالـوا لموسى

عليه السلام « يـاموسى إما أن تلقى وإما أن نكـون نحن الملقين» ، وقيل فيه إنهم تـأدبوا مع موسى عليه السلام فخيروه بين أن يكون هو البادىء بالفعل أو أن يكونوا هم البادئين، وربما دل على هذا مخاطبتهم إياه بالنداء باسمه.

ويقبل القول أن يكـون إظهارا من السحرة لثقتهـم فى أنفسهم وإبرازا للتحـدى، بإبراز عدم اهتمامهم بأن يكونوا هم البادئين بإظهار سحرهم.

قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

التفســـير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ ما كان من مـوسى عليه السلام لدى تخييره بين أن يبـدأ بإلقاء ما يلقى وبين أن يكون السحرة هم البادئين بإلقاء ما يلقون. فيقول تعالى إنه قال لهم « ألقوا» ، بمعنى أنه عليه السلام اختار أن يكون السحرة هم البادئين بإظهار سحرهم.

وقد يكون السبب هو ثقته فى الله أنه ينصره عليهم ويبطل سحرهم بعد أن يستعظم الناس ما يرونه منهم.

ثم يذكر تعالى ما يفيد أن السحرة ألقوا مـا رأوا إلقاءه. وقيل إنه كان عصيا وحبالا، ويذكر أنه تـرتب على هـذا أنهم سحروا أعيـن الناس، ومفاد هـذا أن ما أتوابـه لم يكن مـن السحر الحقيقى وإنما كان من قبيل التخييل بخلاف الحقيقة.

وأن ما ظهر للنـاس منهم أرهب الناس إرهابـا شديدا، وقيل أن العصـى والحبال ظهرت فى أعين الناس حيات وثعابين عظمة الحجم بشعة المنظر أخافت النظارة وأرهبتهم.

كما وصف تعالى ما أتى به السحرة بأنه سحر عظيم .

والبين من سبق ذكره تعالى أنهم سحروا أعين الناس، أن ذلك الذى أتوابه لم يكن سحرا حقيقيا، وإن بدا أنه كذلك وظهر كأنه سحر عظيم.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾

التفســـير:

قوله تعالى - فى الآية - ذكر لواقعة من واقعات قصة السحرة، فيذكر تعالى أنه كان منه الإيحاء إلى موسى عليه السلام .

ويتصور فى أمره أن يكون بإلقاء ذلك فى روعه، ويتصور أن يكون بواسطة ملك، وأن مضمون ما أوحى تعالى به لموسى هو أن يلقى عصاه إلى الأرض

ثم يقول تعالى « فإذا هى تلقف ما يأفكون» والقول تضمن بيان النتيجة لفعل الإلقاء وهى تلقف العصا ما أظهر السحرة من قبيل الإفك والكذب من ثعابين وحيات، وذلك دون ذكر تحول العصا إلى ثعبان كبير بلع ما ظهرت عليه عصى السحرة وحبالهم من الثعابين والأفاعى.

وليس هذا إغفالا لذكر الحدث، وإنما هو إظهار لسرعة الفعل الذى قام به موسى عليه السلام ولسرعة ما حدث بعده .

فالقول يفيد إلقاءه عليه السلام عصاه بمجرد الإيحاء إليه بهذا ويفيد سرعة تحول العصا إلى ثعبان عظيم ابتلع ماظهرت عليه عصى السحرة وحبالهم من ثعابين وأفاعى. ثم التعبير عنها بأنها ما يأفكون، بيانا لأنها كانت ثعابين كذبة، بمعنى غير حقيقية، وإنما كانت مجرد تخييلات للناظرين.

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

التفســـير:

القول - فى الآية - قوله تعالى يقرر حقيقة «وقوع الحق» بمعنى ثبوته بما بينه وأظهره.

والمراد بـالقول أنه بظهـور نتيجة التبـاري في السحر ظهـر الحق وهو صـدق موسـى عليه السلام وقوة معجزته .

فثبت أنه نبى الله تعالى، وفى المقابل ظهر بطلان فعل السحرة. وقيل ـ فى معنى « فوقع الحق» ـ أنه تحول عصا موسى عليه السلام كان لثعبان على الحقيقة.

﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ١١٩﴾

أولا: الأســـماء:

الصاغرون: فى قوله تعالـى « وانقلبوا صاغرين » جمع، مفرده « الصاغـر» وهو من استذل لغيره.

ثانيا: التفسير:

قوله تعالى ذكر لما أسفر عنه انهزام السحرة فيـذكر تعالى أن فرعون وملأه غُلبوا لما غلبت السحرة، فالضمير المتصل فى « فغلبوا» يعود إلى فرعون وملئه ».

وكان من نتيجة شعورهم بالهزيمة أن شعروا بالذلة، فغادروا الساحة أذلاء صاغرين .

﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠﴾

التفســـــير:

القول فى ذكر ما كان من السحرة من بعد انتصـار موسى عليه السلام عليهم، فيذكر تعالى أنهم ألقوا ساجدين.

وجاء التعبير عن فعلهم بالفعل المبنى للمجهول لبيـان أنهم لم يملكوا أمرهم حين خروا ساجدين، فكأن أحدا دفعهم إلى هذا .

فيكـون الظـاهر أنهـم لـم يملكـوا أمر أنفسهـم لمـا علمـوا الحق فكان منهـم أن خـروا ساجدين.وقيل إن موسى وهارون سجدا لله تعالى ففعل السحرة فعلهم.

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾

التفسير:

القول ذكر لقول السحرة بعد أن خروا ساجدين ، وهو إعلان منهم لإيمانهم بالله وإقرار بأنهم يعرفون أنه تعالى رب العالمين، وهم وفرعون من مملوكيه. فيكون قولهم قول مؤمنين واثقين فى الله غير خائفين غيره.

رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

التفسير:

القول تتمة قول السحرة حين أعلنوا بألسنتهم إيمانهم برب العالمين، وربما كان الدافع إلى قولهم إياه أن فرعون كان يزعم أنه رب العالمين، وأن موسى وهارون قالا إنهما رسولا رب العالمين ، فأرادوا أن يبينوا أن إيمانهم هو بالرب الذى دعا موسى وهارون إلى الإيمان به وعبادته وتوحيده ، وجاء ذكر موسى قبل هارون مع أن هارون هو الأكبر مراعاة لعلو مرتبة موسى وشرفه على هارون .

قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾

التفسير:

يذكر تعالى - فى الآية - رد فعل فرعون حين أعلنه السحرة بإيمانهم برب موسى وهارون، فيبين أنه قال لهم « آمنتم به قبل أن آذن لكم» والقول توبيخ لهم على إيمانهم بالله تعالى قبل أن يأذن لهم بهذا، ومفاده أنه يعتبر نفسه صاحب السلطان على فكر الخلق وعقيدتهم.

وقيل إن الضمير فى « به » يعود إلى موسى. ثـم يجىء قول فرعون « إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها» اتهاماً منه للسحرة بأنهم تواطؤوا مع موسى على الانهزام له ليظهر فى أعين النـاس أنه على حق فيرتفع فى أعيـن الناس ويرتفع معه قومـه بنو إسرائيل ويخضع لهم أهل البلاد فيكون منهم إخراجهم منها.

ثم يجىء قول فرعون للسحرة « فسوف تعلمـون » تهديدا لهم، ومعناه هو « فسوف تعلمون ما يحل عليكم من العقاب بفعلكم».

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾

التفســــير:

قوله تعالى هو سـرد لقول فرعون الذى فصل عقاب السحرة الذى هددهـم بإيقاعه بهم ، وفيه بين فرعون أنه سيقطع أيدى السحرة وأرجلهـم من خلاف بمعنى أن يكون مع قطع اليد اليمنى قطع الـرجل اليسرى، ومع قطـع اليد اليسرى قطع الـرجل اليمنى، ثم يكـون منه بعد ذلك صلبهـم جميعا بشـدهم مـن تحت الإبطيـن وتعليقهم وعـرضهم علـى الناس حتـى يموتوا.

قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾

التفســــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ ذكر لقول السحرة ردا على تهديد فرعون إياهم ، فيذكر تعالى أنهم قالـوا له إنا إلـى ربنا منقلبون ، والمعنـى أنهم راجعون بعد مـوتهم إليه تعـالى ليدخلـوا فى رحمته.

والقول يثبت ثقة المؤمنين فى الله تعالى، وعلمهم أن الحياة هى حياة الآخرة.

وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

التفســـير:

القول ــ فى الآية ـ قـول السحرة ، أظهروا لفـرعون أن الذى يكـرهه منهم وينقم عليهـم به فينتقم منهم هو أنهم آمنوا بآيات ربهم لما جاءتهـم ، ثم إنه لما كانت هذه الآيات قد ظهرت لفرعـون كما ظهـرت للسحرة وظل علـى كفره فإنـه يكون قـد ظهر سبب نقمـة فرعـون على السحرة.

ويبين من قوله تعالى أن السحرة لم يولوا بالا بعد ذلك لفرعون وأنهم التجأوا إلى الله تعالى وسألـوه ما سـألوا ملتفتين عـن فرعون فـدعوه تعـالى بقولهـم « ربنا أفرغ علينـا صبرا وتـوفنا مسلمين» فدعـوه تعالى أن يفيض عليهـم بالصبر على أذى فـرعون فيكون منهم البقـاء على الإيمان ، كما دعوه أن يثبتهم على الإيمان إلى أن يموتوا مسلمين.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾

التفســـير:

القول فى الآية استئناف لذكر أحداث قصة مـوسى عليه السلام، وفرعون وقومه، والسحرة يذكر تعالى أن خاصة فرعون قالوا لـه « أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك» قالوا هـذا لفرعون عندمـا سمعوه يتوعد السحرة فعلمـوا أنهم معاقبون، فعـز عليهم أن يترك فرعون موسى دون عقـاب، أو أنهم أرادوا تملقه فأظهروا له إيمانهم به وحـرصهم على صالحه

وعقيدته فقالوا له ـ مستنكرين أن يكون منه ترك موسى وقومه دون عقاب.

«هل تترك موسى وقومه دون عقاب يردهم عن إفساد عقائد الناس بترك عباداتهم وعبادة رب موسى، فيكون الانصراف عنك معبودا وعن آلهتك المعبودة . والمعلوم أن معبود المصريين آنذاك كان هو «رع» أما معبود الهكسوس فكان هو ذات معبود الأسيويين الذين جاءوا منهم وكان معبده فى أواريس عاصمة ملكهم.

ثم يذكر تعالى ـ فى الآية ـ أن فرعون طمأنهم إلى أنه محقق لهم رغبتهم فأعلنهم أنه سيقتل أبناءهم ويستبقى نساءهم ، بمعنى أنه سيقتل الذكور من أبنائهم ويبقى على حياة الإناث ثم ذكر لهم أنه وإياهم قاهرون موسى وقومه، أو أنه بقتله ذكورهم وعدم قدرتهم على رده عن هذا سيتيقن لهم أنهم فوقهم قاهرون.

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾

التفســـير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ ما كان من موسى عليه السلام مع قومه حين سمعوا ما تهددهم به فرعون من الأذى بأن يقتل أبناءهم ويستحيى نساءهم.

فيقول تعالى أنه قال لهم مواسيا ومسليا «استعينوا بالله واصبروا، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين».

وقول موسى عليه السلام لقومه يتضمن عدة أمور، فهو يتضمن نصحا جاء فى صيغة الأمر، ومضمون ما نصحهم به هو الاستعانة بالله ، بمعنى الاعتماد عليه معينا لهم على البلاء وعلى تحمله أو تخفيفه عنهم ، وأن يكون منهم الصبر على الأذى، ويتضمن تأميلا بخير جاء فى صيغة عبارة تقريرية.

«إن الأرض لله يورثها من يشاء » وقيل فيه إن المراد بالأرض هو أرض مصر أو إنه أى أرض

على العموم فتدخل فيها أرض مصر. والذى نـراه ـ والله أعلم ـ أنه أريد بالأرض الأرض التى وعدهـم الله تعالى أن يـدخلوها وهى أرض فلسطيـن، فهم لم يـأملوا للحظة أن تكـون لهم أرض مصر.

ومعنى قوله إنهم يحق لهم أن يأملوا فى أن يـرثوا الأرض التى وعدوا بها لأنه تعالى يورث الأرض من يشاء.

ويتضمن القـول أيضا حثـا على التقوى بتجنـب النواهـى لتكون لهم عـاقبة الأمـر نصرا ونجاة.

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾

التفســـــير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ قول بنى إسرائيل لموسى عليه السلام من بعد محادثتهم بما سبق ذكره، قالوا له إنهـم أوذوا من قبل أن يبعث فيهم عليه السلام، وهـم يقصـدون بهذا قتل فرعون ذكور أبنائهم من بعد أن ذكر له المنجمون أنه يكـون من بنى إسرائيل رجل يكون هلاكه على يديه.

وإجبارهم على العمـل الشاق والمهين سخرة أو بمقابل ضيئل، وقالـوا له إنهم أوذوا من بعد بعثه عليه السلام فيهم نبيـا، قاصدين بذلك معاداة فرعون لهم لكـونهم قوم موسى عليه السلام، وتهديده إياهم بقتل أبنائهم، وقيامه ـ من بعد ـ بهذا تحقيقا لتهديده فيما اعتقدوا أنه واقع بهم.

ثـم يذكـر تعـالـى أن موسـى عليـه السـلام قال لهـم «عسـى ربكـم أن يهلك عـدوكـم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون»، ومعنى القول هو وجوب احتفاظ القوم بأمل فى

أن يهلك الله تعالى فرعون ـ وهو عدوهم ـ فلا يصيبهم منه أذى، وأن يستخلفهم فى الأرض.

بمعنى أنه تعالى يجعلهم خلفاء أصحاب الأرض فيها.

وقيل إن الأرض المعنية هى أرض مصر. وقيل إنهم خلفـوا أهلها عليها فى عهد داود عليه السلام، وهذا غير صحيح تاريخيا، فأول وجود للأسويين فى مصر ـ ومنهم بنو إسرائيل ـ كان بدخول إبراهيم عليه الصلاة والسلام مصر قبل الميلاد بنحو ثمانية عشر قرنا.

وتبعه دخـول بنى إسـرائيل الـذين خرجـوا مع مـوسى عليـه السلام، وحكـم الهكسوس الأسيويين انتهى على يد أحمس الذى أسس الأسرة الملكية الفرعونية الثامنة عشرة.

وجميع الشعوب التى فتحـت مصر ومنهم الإغريق والفرس والرومـان والعرب لـم يخلفوا المصريين فى ملكية الأرض .

وإنما ذاب معظمهم فيهم وبقى الآخرون متميزين بذواتهـم؛ ولذلك فإننا نرى ـ والله أعلم ـ أن الأرض هى الأرض التى وعدوا بها آنذاك والتى دخلوها مع يوشع بن نون.

ويجىء قول موسى عليه السلام « فينظر كيف تعملون » إعلاما لهم بأنه بعد أن يورثهم الله تعالى الأرض يراقب أعمالهم ليجازيهم بها.

ولهذا كان منه تعالى أنهم لما أفسدوا فـى الأرض لعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم عليهما السلام وفرضت عليهم الذلة والمسكنة وقضى عليهم بالتشرد فى الأرض

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

التفســـــير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ فعله بآل فرعون قبـل إهلاك فرعون ومن تبعه بالغرق، فيذكر تعالى أنه أخذهم بالسنين، والسنين جمع سنة، والمراد بالسنين هو سنين القحط وفيها شح النهر فقل الثمر ونفق الحيوان والطير.

كما يـذكر تعالى أنـه أخذهم بنقص مـن الثمرات، وذلك بظهـور الثمار معطوبة تـالفة أو مصابة بالآفات فلا يستفاد فيها إلا بالقليل.

ويبين تعالـى أنه كان مفترضـا فى آل فرعون وقـد عاينوا ما أصـابهم أن يتذكروا خـالقهم الحق، فيذكروا الله تعالى ويلجؤا إليه متضرعيـن لثقتهم من أن فرعون وما يعبد من دون الله لم يقدروا لهم على شىء.

فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

أولا: الأســماء:

الطائر: فى قوله تعالى « إنما طائرهم عنـد الله» المراد به الشؤم، وذلك أن العرب كانوا إذا زجروا الطير راقبـوها فيتفاءلون بالسـانح منها ـ وهو المتجة يمينـا ـ ويتشاءمون بالبـارح ـ وهو المتجه يسارا ـ واستعير اللفظ للتعبير عن الشؤم.

ثانيا: التفســير:

يذكر تعالى مـا كان من قوم فرعون خلال سنين القحط وقلة الثمـار، ذلك أنه كان يحدث فى خلالها أن يصيبهم بعض الخصب والرخاء ثم يعقبه الجدب والمرض.

فكانوا إذا مـا نالهم الخير يزعمـون أنه نالهم بمجهـوداتهم وأفعالهم، فهم الـذين جاءوا بـالحسن، وإذا أصـابهم الجـدب والقحط والمـرض تشاءمـوا ببنى إسـرائيل وقـالوا إن مـا أصابهم إنما كان بشؤمهم .

ثم يذكر تعـالى حقيقة الأمر بذكره تعالـى ـ مقررا ـ أن شؤمهـم من عنـده تعالى، والمعنى أنه عقاب منه تعالى استحقـوه بأفعالهم التى عاقبهم الله تعالى بها، فـالقول يثبت جهلهم فى زعمهم.

ويثبت أنه تعالى الذى أصابهم بما أصابهم به . ثم يذكر تعالى أن أغلبهم لا يعلمون هذه الحقيقة .

ومفاد القول أن منهم من كان يعلم الحقيقة لكنه لم يعمل بعلمه .

وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

التفسير:

قوله تعالى ــ فى الآية ـ سرد لما كان من قوم فرعون مع موسى عليه السلام فيذكر تعالى أنهم قالوا له « مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك يمؤمنين »

وفى القول جاءت «مهما» ــ وهى اسم شرط ـ مبتدأ ، وخبرها يقبل أن يكون فعل الشرط ويقبل أن يكون جوابه.

ومفاد القول هو الإصرار على الكفر، فالقوم يعلمون أن ما أصابهم من قحط ونقص من الثمرات جاءهم من قبل رب موسى عليه السلام بطلبه أو دعائه.

وصفوه بالآية عن علم بهذا أو استهزاء بموسى عليه السلام بمجاراته فى وصفها بالآيات.

ثم إنهم ذكروا أن غايته منها هى تشبيه الأمر عليهم ليعتقدوا فى نبوته.

ومن التناقض الواضح بين إقرارهم بأن ما أصابهم هو من جهة موسى عليه السلام وذكرهم أنه إنما أراد تلبيس الأمر عليهم ، مع قولهم « فما نحن لك بمؤمنين » يبين مدى إصرارهم على الكفر وعلى عدم التصديق بموسى عليه السلام.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

أولا: الأســـماء:

١ ـ الطوفان: هو ما طاف وغشـى المكان من مطر أوسيل أو فيضان على مـا خص به فى الاستعمال، والأصـل أنه يكون لكـل شىء، وقيل هـو الموت ، وقيـل هو الجدرى، وقيـل هو الطاعون.

٢ ـ الجراد: جمع، مفرده « جرادة» وهى الحشرة المعروفة تتغذى على ورق النبات.

٣ ـ القمـل: هو الصغيـر من الجراد قبـل ظهور الأجنحة له، وقيـل هو حشرة القـراد، وقيل صغار النمل.

٤ ـ الضفـادع: جمـع، مفرده ضفـدع، وهو نـوع من البـرمـائيات معـروف يتغذى علـى الحشرات وتكون لحياته دورة منها ما يكون فى الماء ومنها ما يكون على الأرض .

التفسـير:

يذكر تعـالى ـ فى الآية ـ بعضـا من صور آياته التى سـاقها إلى أهل فرعون متضمنـة عذابا لعلهم يـذكرون، فيذكـر تعالى أنه أرسـل عليهم الطوفـان والجراد والقمل والضفـادع والدم فاض به النيل .

كانت تتواجد فى أراضى قوم فرعون ودورهم ولا تتواجد فى أراضى بنى إسرائيل ودورهم وقيل إنها كانت تتبع الواحدة الأخرى، كلما أصابهم الله بواحدة لجؤوا إلى موسى السلام وسألوا أن يسأل ربه يرفع البلاء عنهم فيؤمنوا به .

فيكون منه الـدعاء وتكون من الله تعالى الإجـابة ولا يكون من القوم الإيمـان بل الاستمرار على ماهم عليه من الكفر مع كون الآيات مفصلات لا يشك فيه عاقل، أنها من الله تعالى .

ويجىء قولـه تعالى «فاستكبروا وكـانوا قوما مجـرمين » مثبتا أنهم مع دلالـة الآيات على أنها منـه تعالـى بما كـان يستوجـب الإيمان بهـا، إلا أنهم استكبـروا عن الإيمـان بها فكـانوا مجرمين.

أجرموا فى حقه تعالى وحق رسوله عليه السلام ، وحق أنفسهم .

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾

أولا: الأسـماء:

الرجز: قيل إن المراد به هو جميع ما ذكر من أنواع العذاب، وقيل هو عذاب آخر غيره، قبل إنه كان ثلجا أحمر يصيبهم فيقتل منهم من يصيب، وقيل هو الطاعون.

التفسـير:

يذكر تعالى ـ في الآية ـ أنه لما وقع بقوم فرعون عذابه تعالى، سواء أكان ما سبق ذكره أم كان غيره، لجؤوا إلى موسى عليه السلام كفعلهم في كل مرة يصيبهم فيها نوع من العذاب، وأنهم سألوه أن يدعو لهم ربه بحق عهد النبوة الذي يكون معه إكرامه تعالى أنبياءه أن يكشف عنهم العذاب، ثم إنهم أقسموا لموسى عليه السلام ـ على ما يبين من «لنؤمنن»، و«لنرسلن» بأنه إذا رفع تعالى غضبه عنهم وعذابه فإنهم يؤمنون له، ويتركون له بني إسرائيل يذهب بهم حيثما يشاء.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

التفسـير:

يذكر تعالى ـ في الآية ـ أنه قد كشف عنهم الرجز بمعنى أنه تعالى رفع عنهم عذابه، ويذكر تعالى أن رفع الرجز عنهم إنما كان إلى أجل محدد لديه تعالى مقدر لهم أن يبلغوه.

والراجح فيه أنه وقت الإهلاك بالغرق، وقيل إنه الموت . ثم يبين تعالى أنهم بعد كشف الرجز عنهم كان منهم نكث العهد الذى أعطوه ، بما يعنى أنهم لم يؤمنوا لموسى عليه السلام ولم يخلوا بين بنى إسرائيل وبين اتباع موسى والخروج معه.

فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾

أولا: الأسماء:

اليم: هو البحر، يطلق على البحر المالح ماؤه وعلى النهر الكبير.

ثانيا: التفسير:

جاء قوله تعالى فى عبارة تقريرية تخبر عن فعله تعالى بفرعون وقومه، فيقول تعالى «فانتقمنا منهم» ويقبل القول أن يكون بمعنى أنه تعالى شاء أن ينتقم منهم فيكون قوله تعالى ـ من بعد ـ «فأغرقناهم » هو عين الانتقام . ويقبل أن يكون بمعنى أنه تعالى انتقم منهم، فيكون قوله تعالى « فأغرقناهم» بيانا للانتقام بإظهار فعله.

ويثبت تعالى أنه أغرق فرعون وقومه فى البحر ـ والراجح أنه البحر الأحمر ـ والذى كان يسمى « القلزم».

ثم يذكر تعالى علة انتقامه من فرعون وقومه بقوله « بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين». فالباء هى باء السببية.

وفعلهم هو التكذيب بالآيات مع دلالتها على صدق موسى وأنه نبى مرسل من ربه، والتكذيب فعل إيجابى، جاء بعده وصفهم بالغفلة « وكانوا عنها غافلين» والغفلة إهمال، ولذلك يكون المراد فيما نرى ـ والله أعلم ـ أنهم غفلوا عن إدراك نتائج تكذيبهم.

فهم أرادوا الفعل ولم يتوقعوا نتيجته. وقيل إن أمرهم صار كأمر الغافل، وقيل إنهم غفلوا عن الذكر.

وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا
ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا
صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

أولا : الأسـماء:

١ـ **القوم الذين كانوا يستضعفون:** المراد بهم ـ فى معنى الآيـة ـ بنو إسرائيل استضعفهم فرعون فاستعبدهم وذبح أبناءهم .

٢ ـ **مشارق الأرض ومغاربها:** المراد بها متسع الأرض الموعـود بها وهى أرض فلسطين من الشام.

ثانيا : التفسـير:

قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ إخبار عمـا كان منه تعالـى مع بنى إسرائيـل ومع فرعون وقـومه . فيذكر تعالى أنه أورثهم مشارق الأرض ومغاربها التى بارك فيها.

وهى أرض فلسطيـن من الشـام، وصفها تعـالى بأنهـا مباركـة منه تعـالى، جعـل أرضها خصبة، وجعل ثمارها كثيرة طيبة.

ثم يقول تعالى «وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا» والمراد بالكلمة هى وعده تعالى على لسان نبيهم أن يعطيهم أرض فلسطين وقتذاك تفيض عليهم لبنا وعسلا، ومعنى تمامها هو حدوث المـوعود به واستمراره زمنا. ثم إنه تعالى يذكـر سبب ما أفاء به على بنى إسرائيـل بقوله تعالى «بمـا صبروا» فأظهر أن هذا كان منـه تعالى جزاء لهم علـى صبرهم على ما ابتلوا به من الشدائد والمصائب .

وبعد ذلك يـذكر تعالى ما كان منـه مع ما صنع فرعـون وقومه قبل الانتقام منهم بـإغراقهم

فيقول تعالى «ودمرنا مـا كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشـون» . ومعنى القول أنه تعالى دمر أبنيتهم ويسـاتينهم ومنها ما كـان يقوم على العريـش، والقول دليل على أن فـرعون مصر الذى أهلك وقـومه هو أول ملوك الأسرة الهكسـوسية الأولى طاليس أو سنـان، وليس رمسيس الثانى أو ابنه امنفتاح، وذلك لأن جميع آثار الأسرة الهكسوسية الأولى وأبنيتهم قد دمرت تماما ولم يعثـر لها على أثر، وعـرف تاريخها مما وجـد مدونا علـى جعران، على حين لا تـزال آثار رمسيس الثانى وابنه امنفتاح باقية إلى يومنا هذا مع آثار قومهم المصريين .

وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨

التفســـــــير:

يروى تعالى ـ فى الآية ـ ما كان منه تعالى مع بنى إسرائيل وما صادفوه فى طريقهم، ثم ما كان منهم مع نبى الله تعالى موسى عليه السلام وما كان منه معهم.

فيروى تعالى أنه عبر ببنى إسرائيل البحر فهذا هـو معنى مجاوزته تعالى البحر بهم، ثـم كان منهم بعد مجـاوزة البحر والوصول إلى جهته الأخـرى المقابلة للجهة التى عبـروا منها أن مروا على قوم من إحدى القبـائل التى قطنت فى سيناء على الراجح وكانـت من القبائل الأسيوية المنتشرة بين العراق والشام تعبـد بعل زبول ـ وهو عجل ـ تقام لـه أصنام معبودات. فكان من بنى إسرائيل لما شـاهدوهم يعبدون معبودهم أن طلبوا من موسـى عليه السلام أن يجعل لهم آلهة ملموسة فى أشكال مصنوعة كما هو الحال عند القبيلة الوثنية .

ثم يذكر تعالى أن موسى عليه السلام رد عليهم بقوله «إنكم قوم تجهلون» فهو عليه السلام رماهم بالجهـل بكل شىء ومنه ما يفترض أن يكون معلـوما لديهم مثل الإيمان بآيـاته تعالى والإيمان به تعالى؛ ولذلـك رماهم بالجهل ـ فكان المعنى هو إبراز أن طلبهـم غير جدير بالرد

عليه بصريح العبارة .

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

التفســـــــير:

القول من قـول موسى عليه السـلام يذكر لقومه واقـع حال هؤلاء الذيـن يعبدون الأصنام، فذكر أن عملهم مدمر، والمعنى أن عبادتهم لاتثيبهم بـل تضرهم وتدمرهم بعذاب منه تعالى، وأن عملهم محبط باطل، فهم إن كانوا يتقربون بعبـادة معبوداتهم إلى الله تعالى فإنها لا تأثير لها ولا يرجى منهـا نفع؛ وإن كانوا يعبدونها مـن دونه تعالى فهم على البـاطل وعملهم محبط ومعاقب عليه.

قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾

التفســـــير:

القول قول موسى عليـه السلام لقومه الذين طلبوا منه أن يجعل لهـم إلها يعبدونه، والقول يصلح أن يكون ردا على طلبهم، جاء فى صيغة استفهام أريد به إنكار المطلوب.

والمعنى هو استحالـة تصور أن تكون منه عليه السلام إرادة أن يختار لهم إلهـا غيره تعالى، ثم كـان منه عليه السلام أن ذكـرهم بنعمته تعـالى عليهم التى توجب عليهم أداء حقهـا من الشكر فكـان منهم بدلا مـن هذا تمنى إيجاد إلهـا يعبدونه مـن دون الله تعالى، فيكـون القول متضمنا معنى التقريع والتوبيخ.

ومفاده قولـه لهم إنه تعالـى فضلهم على العالمين، يـراد به تفضيلهم على العـالمين فى زمان القول، ذلـك أنهم كانوا وحـدهم ـ بإيمـانهم بموسى عليـه السلام ـ هم المـؤمنون بالله تعالى وبرسله، ولذلك فضلوا على العالمين، وكان بإيمانهم تفضيلهم .

وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

التفســــير:

القول من قول مـوسى عليه السلام لقومه فى معـرض تذكيرهم بما أنعم تعـالى عليهم من النعم، فيذكرهم أنه تعالى الذى أنجاهم من أهل فرعون الذين مارسوا معهم العديد من صور العذاب الذى كان منـه قتل الأبناء مع الإبقاء على الثبات. فيكون معنـى القول هو «واذكروا إذ أنجيناكم». ويقبـل القول أن يكون هو قول الله تعالىٰ، ورد فى النص متمما قول مـوسى عليه السلام.

وفى قولـه تعالى «وفى ذلكم بـلاء من ربكم عظيم» مـا يفيد أن تعذيب بنى إسـرائيل كان محنة عظيمة وابتلاء منه تعالى لبنى إسرائيل ليختبر صبرهم كما أمرهم به موسى عليه السلام. ويقبل القول أن تكون المحنـة والاختبار فى نجاة بنى إسرائيل من العـذاب ومن الهلاك لينظر تعالى هل يكفرون أم يشكرون .

۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

التفســــير:

يذكر تعـالى ـ فى الآية ـ مـا كان منه مع موسى عليـه السلام فى سيناء من مواعـدته على إنزال الكتاب عليه وقـد جعل تعالى تقدمة ذلـك على موسى صيام ثلاثيـن ليلة، والمراد هو صيام ثلاثين يـوما وإنما عبر عن اليوم بـالليلة لأن اليوم يبدأ من الليل بغـروب الشمس. ثم إنه

لما كـان موسى قـد صام الأيـام الثلاثين صـوم وصال فإنـه وجد فـى فمه رائحة فـم الصائم فاستحى أن يلقى الله تعالى وبفمه رائحة فم الصائم أو «الخلوف» فقيل إنه تسوك، وقيل أكل شيئا من نبت الأرض، فسأله ربه عن سبب ذلك فذكر أنه استحى أن يلقاه تعالى وبفمه رائحة خلوف فم الصائم، فذكر له تعالى أن رائحة خلوف فم الصائم أزكى لديه من رائحة المسك، ثم قضى تعالى أن يصوم عشرة أيام أخرى ـ عبر عنها بعشر ليال ـ فلما كملت الأيام أو الليالى «فتم ميقات ربه أربعين ليلة» كان من موسـى عليه السلام أن طلب من أخيه هارون أن يخلفه فى بنى إسرائيل أو عليهم.

وقيل إنـه طلب منـه أن يخلفه فى قـومه وليـس عليهم لأنـه لم يجمع بيـن صفته الـدينية وصفته كـرئيس للقوم وقـائد. والذى نراه غيـر هذا فلقـد كان موسـى عليه السلام رئيسـا دينيا وقائدا ورئيسا، ولو كـان قد عهد إلى هارون بالخلافـة الدينية وحدها لكان قـد أقام من يخلفه فى قيادة القوم ورئاستهم، وهو ما لم يحدث.

دليل ذلك أن المشابهة بين موسى عليه السلام وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت فى كـون كل منهما هو الـرسول والرئيس الـدينى والقائد والرئيـس فى ذات الوقت، وقـد كان رسول الله صلى الله عليه وسلـم يعين قادة للسرايا التى تكلف بمهام لا يحضـرها عليه الصلاة والسلام. هذا فضلا عـن أن طلب موسى من أخيه هارون أن يصلح فـى القوم لا يمكن تفسيره على أنه يتعلـق بأمور الدين وحـدها، فالإصلاح يكون أكثـر ما يكون فى العلاقـات بين القوم بعضهم والبعض، ومنها العلاقات المتعلقة بـالاعتداءات والمعاملات، والإصلاح فيها يكون بالقضاء، وهو من عمل ولى الأمر مما مفاده كون الخلافة فى أمور الدين والرئاسة .

وآخر ما طلـب موسى عليه السـلام من أخيه هو عـدم اتباعه سبيل المفسـدين، يتصور أن يكونوا مشيرى السوء ويتصور أن يكونوا هم وغيرهم ممن يفسدون أمور العقيدة وممن يفسدون فى الأرض بمقارفة الجرائم والاعتداءات فيكون الطلـب داعما القول إن الخلافة شملت أمور الدين وأمور الدنيا .

وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن
تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ
رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ
تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

أولا : الأســــماء:

١ـ **الــــدك** : فى قـوله تعالـى «جعله دكا» هـو «المدكوك» وهـو المتفتت من أثـر الطرق الكثير أو انهمار جسم ثقيل.

٢ ـ**الصعق**: فى قوله تعالى «وخر موسى صعقا» هو المغشى عليه، وهو المصعوق.

ثانيا : التفســير:

يقص تعـالى مـا كان بيـن موسـى عليه السلام وبينـه تعالـى . يذكـر تعالـى أنه بـانقضاء الأربعين ليلة التى حددها سبحانه وتعالى يكون بـانقضائها موعد موسى عليه السلام مع ربه ليتلقى كتـابه، توجه مـوسى عليه السلام للميقـات المكانى بحلـول الميقات الزمانـى. وأنه حالذاك كلمه ربه تعالـى بغير واسطة، وكلامه تعالى غير كلام خلقه، ثـم كان من موسى عليه السلام أنه قال له تعـالى «رب أرنى أنظر إليك» والطلب طلب أن يتجلى لـه سبحانه وتعالى بذاته، فكأن المطلوب هو الظهور والذى هو تقدمة تسبق الرؤية .

ويذكر تعالى أنـه قال لموسى عليه السلام «لن ترانى» والمعنى أنـه عليه السلام ليس فى مقدوره بصفته البشرية فـى الحياة الدنيا أن يراه تعالى. ثم إنه تعـالى أراد أن يعلمه أن شيئا ما مما خلق لا يتحمل أن يتجلى لـه جل وعلا مهما عظم واشتد وقوى فقال لـه «ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكـانه فسوف ترانى» ذكر لـه الجبل الذى هو أشد منه وأقـوى ووعده أنه إذا تحمل الجبل أن يتجلـى له فإنه عليه السلام سيـراه بأمره تعـالى. وقيل إن الجبـل هو جبـل

طور سيناء. وقد يكون الصحيح غيره لأن الجبل المـذكور بقى بعد هذا فيتصور أن يكون جبلا كان قائما محل الهضاب الموجودة والكثبان الرملية الثابتة أو المتحركة .

ثم إنه تعالى يذكر أنه عندما تجلى للجبل تهشم الجبل وتفتت كما لو كان قد أسقط عليه ثقل أقـوى من تحملـه. والقول يفيـد أن للجمادات عباداتهـا وذكرهـا له تعـالى و إحسـاسها بقدرته، كما يذكر تعالى أن موسى عليه السـلام سقط من هول ما رأى صائحا مصعوقا مغشيا عليه.

وقيل فى مدة غيابه عن الوعى الكثير وكذا فيمـا قيل أنه حدث له خلاله من مرور الملائكة به وتحريكهم إياه وعدم إحساسه بهم .

ثم يذكر تعالى أنه بعد أن أفاق موسى عليـه السلام وعاد إليه وعيه و إدراكه. خاطبه تعالى معظما ومنزها عـن المشابهة فقال «سبحانك»، وأعلن تـوبته عن سؤال ما لم يـأذن به تعالى فقال «إنى تبت إليك»، ثم أقر بإيمانه بعظمته تعالى وجلاله وعزته عن أن يراه فى الدنيا فقال «وأنا أول المؤمنين» .

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

التفسـيـر:

قوله تعالى تسرية عن موسى عليه السلام عوضا عن إجابته عن طلبه رؤيته تعالى.

فيذكر تعالـى أنه قال لموسى عليه السـلام إنه اختاره وأعلى قدره بالاصطفـاء على الناس من أهل زمانه، وأنه تعـالى شرفه بهذا الاصطفاء كما شرفه باصطفـائه واختياره برسالاته، وقيل إنها التوراة التى أنـزلها تعالى عليه، والذى نراه ــ والله أعلم ـ أن المراد بها رسالتـه إلى فرعون وقومه بما أنزل عليـه من الصحف ، ورسالته إلى بنى إسرائيل وهى بمـا أنزل عليه من التوراة، ولهذا ورد ذكر الرسالات فى صيغة الجمع. كذلك أعلمه تعالى أنه شرفه بتكليمه إياه.

ثم إنـه تعالـى أمره أن يلتـزم بما كلـف به، وأن يأخـذ ما أفـاء عليه بـه من نعـم الاصطفاء والتشريف. وأن يشكره تعالى على هذا ولا يسأل ما ليس له به علم ولم يأذن به تعالى.

وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

أولا : الأســـــماء:

الألواح: هى الألـواح التى كتب تعالـى عليها التوراة، قيـل إنها كانـت من الزبرجـد وقيل كانت من حجر نفيس وقيل من حجر شرف بكتابتها عليه منه تعالى.

ثانيا : التفســـــير:

يذكر تعالى أنه كتـب لموسى عليه السلام التوراة فى الألواح، ذكر تعالـى أنه كتب فيها من كل شىء موعظة وتفصيلا. والمعنى أنها اشتملت على العقيدة وعلى الشريعة، فيها الموعظة وهى متعلقة بالعقيدة وفيها تفصيل الأحكام من معاملات وقواعد تجريم وعقاب.

أمر تعالى موسى عليه السلام أن يأخذها بقـوة. والمراد هو أن يدفع بها وأن يدافع عنها، ثم إنه تعالـى أمره أن يأمر قومه أن يأخذوا بأحسنها وهو تدبـرها والاتعاظ بها، فالقول يشبـه قوله تعالى «واتبعوا أحسن ما أنـزل إليكم من ربكم». ثم يذكر تعالى أنه سيطلـع بنى إسرائيل فى طريقهم إلـى أرض فلسطين على دور الأمم التـى سبقتهم وأهلكهم الله تعالـى بظلمهم ومنها منازل عاد وثمود.

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾

التفســــــير:

القول قولـه تعالى ، يصلح أن يكون فـى بنى إسرائيل الـذين أنزل تعالى لهـم التوراة على موسى مشتملة على أحكام الدين والدنيا وأمرهم أن يتمسكوا بها لا يفرطون فيها.

ويصلح أن يكون متعلقا بـالخلق فى زمان رسول الله صلى الله عليـه وسلم وأخصهم كفار مكة وما جاورها.

ويجوز فى خلقه تعالى فى كل آن بالنظر إلى تعلقه بحكمه تعالى فى خلقه .

فهو تعالى يذكر أنه سيصرف عن آياته الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق.

والمعنى أنه تعالى سيصرف قلوب المتكبرين بغير الحق، لأن الكبرياء لله وحده.

وسيصرف قلوبهم عـن الاعتبار بآياته، يكون بـالانصراف عن آياته الواردة بكتبـه تعالى أو بالانصراف عن دراستها والعمل بها.

ويكون بالانصـراف عن تدبر آيـاته تعالى فى خلقـه، كما قال تعالـى «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم» .

كذلك فإنـه تعالى يصف هؤلاء بأنهـم «إن يروا كل آية لا يؤمنوا بهـا» بمعنى أنهم يصرون على الكفر فلا يعتبرون بالآيات الدالة عليه تعالى وعلى صدق رسله.

فيكون القول دالا على أنـه تعالى صرف قلوبهم عـن آياته وعن الإيمان لما كـان منهم من الإصرار على عدم الاعتبار بالآيات فيكون أمره تعالى معهم جزاء على ما اختاروه لأنفسهم.

ثم إنه تعالى يذكـر من أوصافهم التى صرف بها قلوبهم عن آياتـه أنهم إذا ما فتح أمامهم طريق الرشاد والهدى إلى الحق ينأون عنه ولا يتخذونه سبيلا .

على حين أنهم إذا ما عثروا على سبيل للغى والضلال سلكوه واتجهوا إليه.

ومثلهم كثيرون ممـن تدعوهم إلـى المسجد أو إلى مجلس للعلـم فلا يجيبونك. فـإذا ما دعوا إلى جلسة لهو جدوا إليها وأسرعوا. ثم يجىء قوله تعالى «ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين» ذكـرا للسبب الذى صرف به تعالى قلـوبهم عن آياته. وهو تكـذيبهم بآيات الله تعالى ومنها آياته التى وردت فى كتبه .

فيكون التكذيب بهـا هو الكفر يأتونه عمدا، ويكـون إغفالهم إياها تهاونـا فى حق أنفسهم أن يقرءوا آياته التى وردت فى كتبه تعالى، والنظر فى آياته تعالى فى الخلق.

ولذلك يكون حقا أن يجـازوا على هذا بصرف قلوبهم عن الآيات مـاداموا قد أصروا على الكفر بها، وجرى بهم العمل على إغفال النظر فيها والتدبر.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٤٧﴾

التفســـــير:

قولـه تعالـى ـ فـى الآية ـ فـى الكافـرين ، كـذبوا بـآياته التـى أنزل علـى رسله، وكـذبوا بالمعجـزات التى أيد بهـا سبحانه وتعـالى رسله، وكـذبوا بآيـاته فى الخلـق فلم يؤمنـوا بالله ورسله، ولم يؤمنوا بأنهم يلقون حسابهم فى الآخـرة. يخبر تعالى عنهم بأنهم حبطت أعمالهم بمعنى أنها بطلت فلم تفدهم فى الآخرة شيئا.

فيكون المراد بـأعمالهم هو أعمـالهم الصالحة فى الحيـاة الدنيا مثل الإحسـان إلى الغير وصلة الرحم .

ثـم إنه تعـالى بعـد أن بيـن بطلان أعمـالهم الطيبـة قال فيهـم «هـل يجزون إلا مـا كانـوا يعملون»، وهـو استفهام يثبـت مجازاتهـم بما كـانوا يعملـون، والمعنى أنهـم يجزون بطـلان أعمالهم الطيبـة فى الآخرة ترتيبا على كفـرهم، ويحتمل المعنى أن يكون مفيـدا أنهم يجزون على أعمالهم الطيبة فى الحياة الدنيا دون الآخرة .

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾

أولا : الأســــــــماء :

١ ـ **الحلى** : فى قوله تعالى «من حليهم» هو كـل ما يتحلى به ويتجمل ويتزين. والمراد به فى معنى الآية المتخذ من المعادن، مثل الذهب والفضة .

٢ ـ **العجـــــل** : فى قوله تعالى «من حليهم عجلا جسدا» هو ولد البقر.

٣ ـ **الخـــوار** : فى قوله تعالى «له خوار» هو صوت البقر.

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى بنى إسرائيـل، فيه رواية ما كان منهم من بعد طلبهم من هارون أن يقيم لهـم إلٰها يعبـدونه مثل القبـائل الوثنية وتـوبيخه إيـاهم على طلبهـم وتفكيرهـم فيه وتذكيرهم بنعم الله عليهم والقول يقبل أن يكون عودا إلـى رواية قصتهم بعد حديثه تعالى فى الكافرين عامة، ويقبل أن يكون مفيدا معنى أنهم المقصودون بالكافرين والمكذبين بالآيات فيما سبق من آيات، أو أنهم المثال لهم .

والقول يـروى أنهم من بعـد ذهاب موسـى إلى الجبـل لمناجاة ربـه قاموا بسبـك حليهم المصنوعة من المعادن مثل الذهب والفضـة والنحاس وصنعوا منها تمثالا على هيئة العجل. وقد أوضح تعالى أن الحلـى هى حلى بنى إسرائيل قوم موسـى عليه السلام بحكم المآل، إذ كانت فى الأصـل هى للمصريين، طلبها بنو إسـرائيل من المصريين قبل خـروجهم من مصر على سبيل العارية ــ أى استعاروها منهم، ولم يردوها إليهم وفى التوراة التـى بين أيدينا اليوم أنه تعالى قال لمـوسى عليه السلام تكلم فى مسامع الشعب أن يطلب كـل رجل من صاحبه وكل امـرأة من صـاحبتها أمتعـة فضة وأمتعـة ذهب، وأعطـى الرب نعمـة للشعب فـى عيون المصريين» .

ويذكر تعالى أن العجل كان جسدا له خوار، بمعنـى أنه كان ـ فيما نرى ـ مجرد جسد، أى أنه يشبه جسم العجل يخلـو من الروح. وقيل خلاف ذلك وأنه لهذا كـان يخور. وأثبت تعالى أنه كان له خوار كخوار البقر، وقيل فيه إنه لما أخذ السامرى من أثر جبريل عليه السلام أو من أثر فرسـه ونفخ فى العجل دبـت به الحياة فأصبح يخـور خوار البقر. وقيل إن السـامرى صنع العجل مجـوفا وجعل فـى جوفه أنـابيب ووضعه فـى مهب الـريح. فكانـت تدخل فيـه إلى

الأنابيب فتحدث صوتا يشبه خوار البقر.

ثم إنه تعالـى ينكر على بنى إسرائيل قـوم موسى فعلهم ويقرعهم ويثبت عليهم ضلالهم بقولـه تعالى فيهـم «ألم يـروا أنه لا يكلمهم ولا يهـديهم سبيلا» جـاء قولـه تعالى فـى صيغة استفهام لـلإنكار لأنه لما كان متيقنا لهـم أن العجل لا يكلمهم فـإنه لا يتصور أن يكـون منه إرشاد إلى سبيل ينهجونه ثم أثبت تعالى ذلك بصريح العبارة .

ثم ختم تعالى قوله فيهم بقوله «اتخذوه وكانوا ظالمين» فأثبت تعالى أنهم اتخذوا العجل معبودا لهم حال كونهم كافرين، لكون الكفر ظلما، ولأنهم بما فعلوا ظلموا أنفسهم فعرضوها للعذاب ، فكأن القول تذييلا مناسبا لما روى عن فعل بنى إسرائيل .

وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

التفســــــير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ قولا لبنى إسرائيـل قالوه معبرين فيه عن إحساسهم بجرم ما فعلوا من بعـد عودة موسى عليـه السلام من الميقات، ويبيـن سبب قولهم مـا قالوا. فيقول تعـالى «ولما سقـط فى أيديهم» بمعنـى أنه عندما نـدموا. فالسقوط فـى اليد هو تعبير عـن الندم أو كنايـة عن شدته، قيـل لأن النادم يعض يـده فتصير مسقوطـا فيها. وقيل لأن الندم يسقـط فى القلب وجاء التعبير عنه باليد لأن فيها يكون وجود ما يحصل عليه. ويضيف تعالى قوله «ورأوا أنهم قد ضلوا» بمعنى أنهم تبينوا ضلالهم بصناعتهم العجل وعبادته. والعبارة جميعها «ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا» تبين الوقت الذى قالوا فيه قولهم الذى سيرد ذكره. وفى القول جاء ذكر تبين الضلال متأخرا عن الندم «السقوط فى اليد» مع كونه سابقا عليه لأن تبين الضلال لا يتم دفعة واحدة وإنما يمر بمـراحل تبدأ بالشـك، ثم التفكير، ثم لـوم النفس، ثم اليقين وأولى هذه المراحـل تبدأ قبل «السقوط فى اليد» أو الندم، والأخيرة منهـا ـ وهى الجزم

بالضلال ـ تنتهى معه أو بعده .

وقول بنى إسرائيـل الذى قالوه هو «لئن لم يـرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن مـن الخاسرين» جاء فى صيغـة جملة شرطية تفيد معنـى عودتهم إلى الإيمـان بالله، ووصفهم إياه تعالـى بأنه ربهم بمعنى أنه تعـالى الذى يرعاهم ـ تعبيـرا عن الطمع فى رحمته ـ وتفيد ثقتهـم أنه تعالى الذى يغفر الـذنوب برحمته ومنهـا ذنبهم الذى اقترفوا بعبـادة العجل، وسؤاله تعـالى المغفرة برحمته. وجاء جواب الشـرط فى الجملة «لنكونن من الخاسرين» تعبيرا عـن إيمانهم بأنه إن لم يغفـر لهم تعالى شـأنه ذنبهم فـإنهم لن يكسبـوا فى دنياهم خيـرا ويكون لهم فـى الآخرة العذاب الشديد، وهذا هو الخسران المبين .

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾

التفســــــــير:

قوله تعالـى ـ فى الآية ـ استئناف لقص أحـداث موسى عليه السلام مع بنـى إسرائيل من بعد خروجهـم من مصر أثناء وجودهـم فى سيناء. فيذكر تعـالى أنه بعد أن رجع مـوسى عليه السلام من ميقات ربـه وعلم ما كان من قومـه من صناعة العجل وعبادتـه غضب من فعلتهم غضبا شـديدا فكانت حـاله هى الغضـب، ثم تأكيده مـع بيان شدتـه بقوله تعالـى «غضبان أسفا». ثم يذكر تعالى أن أول رد فعل له فى حالة غضبه كان ذمه إياهم «قال بئسما خلفتمونى من بعدى» بمعنى «بئس العمل ما عملتم بعدى». وقـوله عليه السلام هذا يتصور فيه أن يكون موجهـا إلى قومه الـذين عبدوا العجـل، أو الذين عبـدوا العجل منهم، ويتصور فيـه أن يكون

موجهـا إلى أخيه هـارون ومن معه مـن المؤمنين الذيـن خلفوه على بنـى إسرائيل فـى القيام بواجب التوجيه على الحفاظ على عقيدة التوحيد ومباشرة العبادة والعمل بالطاعات، ويدعم التصور الأول قـول موسى عليه السـلام لذات المخاطبيـن «أعجلتم أمر ربكم» وهـو استفهام أريد به إثبات تعجلهم أمر ربهم وإنكار ذلـك عليهم. والمراد بتعجلهم أمر ربهم هو «سبقهم أمر ربهم» وهـو ما يكون بالتقـدم عليه قبل وقته، بمعنى أنهـم قد سبقوا موعـد الأربعين ليلة ـ والعجلة مذمومة وهى بخلاف السرعة وهى عمل الشىء فى أول وقته، تكون محمودة ، ولكون العجلة مذمومة فإنه عليه السلام أنكرها عليهم.

ثم يذكر تعالى رد الفعل الثانى لما انتاب موسى عليه السلام من غضب شديد لعبادة قومه العجل وألقى الألـواح وأخذ برأس أخيه يجـره إليه. ذكر فيه تعالـى فعلين أتاهما مـوسى عليه السلام. أولهما هـو إلقاؤه الألواح التى دونت عليهـا التوراة، بمعنى أنه طـرحها على الأرض. وقيل فى هـذه الواقعة ـ تنزيهـا لموسى عليه السـلام ـ أنه وضعها على الأرض، وقيـل إنه كان حمية للدين. وقيل إنه كان تعجيلا منه ليمسك برأس أخيه. ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال «يرحم الله موسـى ليس المعاين كالمخبر أخبـره ربه أن قومه فتنوا بعده فلـم يلق الألواح فلما رآهـم وعاينهم ألقى الألواح فتكسر منها ما تكسر». والذى نراه ـ والله أعلم. أن ذكر واقعة إلقائه عليه السلام الألواح من بعد بيان شدة غضبه يفيد ارتباط فعل الإلقاء باشتعال نفسه بالغضب مما مفاده أن إلقـاءه الألواح كان بإرادة وإن كانت متـأثرة بحالة الغضب ـ وكـان مشهورا عنه عليه السـلام هذا ـ وربما لهذا السبـب كان منـه تعالـى أنه لم يـأذن لموسـى عليـه السلام بدخول الأرض التى وعد بنى إسـرائيل فأماته فى برية سيناء ليدخـل بهم فلسطين فتاه يوشـع ابن نون .

والفعل الثـانى الذى أتاه مـوسى عليه السلام تـأثرا بحالة الغضـب التى انتابته هـو أخذه برأس أخيه يجره إليـه. ولما كان المعلوم أن هارون عليه السـلام كان أكبر من موسى فـإنه قيل أيضا ـ تنزيها لموسـى عليه السلام من الخطأ ـ أن هذا الفعل كان مألـوفا إكراما وتعظيما لمن أخذ برأسه وبلحيته، وقيـل إنه كان بقصد الإسرار إليه بنزول الألـــواح إليــــه. والـذى نراه ـ

والله أعلم ـ أنـه لم يكن من ذلـك فى شىء، وإنما كان فعـل شدة تأثرا بحالة الغضب، لأن النص يثبـت أنه أخذ بـرأسه أى أنه أمسك بشعـره وجعل يسحبه إليـه بقوة، ويدل علـى هذا المعنى ويؤكده استعطـاف هارون إياه والتماسه منه أن يعفو عن لحيتـه وشعره، وألا يشمت به الأعداء، ولا تكون الشماتة إلا فى فعل ضار مؤذ .

وقد ذكر تعـالى ما كان من هـارون مع موسى عليهمـا السلام بقوله تعالـى «قال ابن أم إن القوم استضعفونـى وكادوا يقتلوننى فلا تشمـت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القـوم الظالمين». بدأ حديثه معه بمناداته بالأخوة «ابن أم» وذلـك استعطافا له فى شأن أقرب الأفعال إضرارا به وهو الأخـذ برأسه وجذبـه إليه ليعفو عنه أو عمـا أخذ به. ثم إنـه أبدى عذره معتذرا عـن عدم قدرته على رد بنى إسرائيل عن عبادة العجل فذكر أن القوم وجدوه ضعيفا فى ذاته وبمن معه من المؤمنين فلم يخشـوه وقووا عليه واشتدوا حتى كادوا أن يقتلوه فلم يستطـع منعهم. ثم إنه التمس منه ألا يزيد فـى تعنيفه وإيذائه إلى الدرجة التى تجعل أعداءه من قـومه يسرون به. ثم أتبع ذلـك بطلبه منه أن يبـرئه من الخطأ ـ فى نفسـه ـ بمعنى أن يكـون عفوه عنه عـن اقتناع ببراءته. «ولا تجعلنى مع القوم الظالمين» بمعنى ألا يجعله محسوبا منهم فى رأيه واعتقاده.

ويبقى فى نهاية الأمر بيان أنه ليس على مـوسى عليه السلام فيما فعل مع أخيه هارون من أفعال الشدة. مع كون هارون هو الأكبر سنا، فقد كان التعنيف متعلقا بشأن من شئون الرسالة، وفيها كان موسى عليه السلام هو الأعلى رتبة وكان هارون وزيرا له، فكان لموسى عليه السلام بصفته هذه حق التوجيه والإشراف .

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

التفســـــــير:

يروى قولـه تعالى ـ فى الآيـة ـ ما كان من موسـى عليه السلام من بعد اعتـذار هارون إليه

بضعفه عـن رد بنى إسرائيـل عن عبـادة العجل وسؤالـه أن يعفو عن الأخـذ برأســه وطلبه ألا يشمت به الأعداء وأن يبرئه فى نفسه. فيثبت تعالـى أن موسى عليه السلام نادى ربه وسأله أن يغفر له ولأخيه هارون ما يكون قد صدر من كـل منهما مما يستوجب المؤاخذة، وقد يكون منه تعنيفه عليه السلام أخاه بغير ذنـب اقترفه، أو تماديه فى مؤاخذته، وقد يكـون منه عدم مقاتلته القوم لمنعهم عـن عبادة العجل. ويلاحـظ أن فى دعاء موسـى عليه السلام ربه بمـا دعاه ما يفيد عدم إتاحة الفرصة لأعداء هارون للشماتة فيه، لانطوائه على معنى الرضا عن هارون.

ثم إنـه كان من مـوسى عليـه السلام فى دعـائه ربه أن سألـه تعالـى أن يدخله وأخـاه فى رحمته، وهـو سؤال بمـا هو أكثر مـن مغفرة ما صـدر من كـل منهما مما يستـوجب المسـاءلة لاشتمال رحمته تعـالى عليه وعلى غيره، وقـد توسل عليه السـلام إلى ربه فى سؤالـه الرحمة بصفته تعالى أنه أرحم الـراحمين، لأنه تعالى إنما يرحم بها عباده علـى ما يفهمه العامة، مع ما فى القول من خفاء إلا على العالمين بأمره تعالى.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾

التفســـــير:

قوله تعـالى ـ فى الآية ــ يتصور أن يكون جميعه قولـه تعالى، ويتصور أن يكون منـه قوله تعالى «إن الـذين اتخذوا العجل سينـالهم غضب من ربهم وذلـة فى الحياة الدنيـا» هو قول موسى عليه السلام قالـه لقومه بأمره تعالى، وأن يكون قوله تعالـى «وكذلك نجزى المفترين» إخبار منه تعالى.

والقول ــ مقروءًا مع الآية التـالية ـ يفيد أنـه اختص بالـذين عبدوا العجل واستمـروا على عبادته فلم يتوبوا عـن ذلك، وهم السامرى وأتباعه، أخبر عنهم سبحانه وتعـالى بأنه سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا، وعذاب الحيـاة الدنيا بالنسبة لهؤلاء المستمرين على

الكفر هو غيره بـالنسبة لعذاب الدنيا الذى يصيـب المؤمنين فيكون رحمة منه تعـالى يكفر به عنهم سيئـاتهم. ولم يـأت ذكر لعـذاب الآخرة لأنه معلـوم بالضرورة فضـلا عن الإشـارة إليه بوصفهم «بالمفترين» مع ذكره تعالى أنه سينـالهم غضب من ربهم، ومن يغضب عليه تعالى يطرده من رحمته ويصليه العذاب.

ولقد كان عـذاب الدنيا للسامـرى هو نفيه من المحلة التـى بها بنو إسرائيـل وعدم اتصال أحد بـه وهو «اللامسـاس»، ولغيره كـان ما أصاب القـوم بعد شربهـم الماء الـذى ذرى عليه موسى عليـه السلام رماد العجل الذى عبدوه بعـد أن حرقه وطحنه، وكان تقلبهـم فى صحراء سيناء منبوذيـن من باقى القـوم مع تحريم الأرض الموعـود بها عليهم. ولا نعتقد أنـه كان منه قتلهم أنفسهم لأن هـذا القتل كان تكفيرا عـن جرم التائبين مـن الذين عبدوا العجـل وشرطا لقبول توبتهم، وهم غير هؤلاء الذين ورد فيهم نص الآية .

وقوله تعالى «وكذلـك نجزى المفترين» يفيد أمرين: أولهما هو وصف الـذين صدقوا قول السامـرى أن العجل إلههـم وإله موسـى بالافتراء عليـه تعالـى. وثانيهما أنـه تعالـى يجازى المفترين بغضبه عليهـم وبحصول المذلة فى الدنيـا كما أذل تعالى عابدى العجـل من بنى إسرائيـل، ولكن يبقـى سبيل الذل ووسيلتـه، ونوعه لتقـديره تعـالى يكون وفقـا لما تقضـى به مشيئته وبحكمته .

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

التفســــــير:

قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ فـى الذين صـدقوا السامرى وأطـاعوه فعبدوا العجـل، وصفهم سبحانه وتعـالى بأنهم الذيـن عملوا السيئات لأنهم صدقـوا السامرى بعد أن جاءهـم برهان ربهم، ولأنهم عبدوا العجـل، وقارفوا المعاصى، ثم كـان من باقى ما وصفهم تعـالى به أنهم

تابوا من بعد عمل السيئـات وآمنوا، بمعنى أنهم تابوا عن البقاء على ما قـرفوا به السيئات من الكفر والإشراك وعمل المعاصـى، واشتغلوا بالإيمان وعملوا بموجباته وفـى شأن توبتهم فقد كانت مشروطة بقتلهـم أنفسهم، وجاء تفصيل هذا فى التوراة التى بين أيدينـا اليوم بأن موسى عليه السلام قال لهم إن الـرب قال ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومـروا وارجعوا إلى باب فى المحلـة واقتلوا كـل واحد أخـاه وكل واحـد صاحبـه وكل واحـد قريبـه، ففعل بنـو لاوى بحسب قول موسى، ووقع من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل، وقال موسى املؤوا أيديكم اليوم للرب حتى كل واحد بابنه وبأخيه .

وقوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «إن ربك مـن بعدها لغفور رحيم» مفاده المباشر أنه بالنسبة للذين تابوا من بنى إسرائيل على النحو الذى استوفت به التوبة شروطها، وكان منهم الإيمان، اقترنت به التوبة وبقـوا عليه من بعدها، فإنه تعالى قد غفر لهم سيئـاتهم وشملهم برحمته. ثم إن القول يفيد إيراد حكم عام مضمونه أن مرتكب الذنب إذا تاب عنه عن إيمان واستمر على الإيمان فى القلب مع تصديق العمل له فإنه تعالى يغفر له ذنبه ويدخله رحمته.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ۝١٥٤﴾

أولا : الأســـــماء :

النسخة : بمعنى «المفعـول» أى الشىء المنسوخ ــ بمعنى المكتـوب ـ وتطلق علـى كل مكتوب بقطع النظر عن المادة المدونة عليها الكتابة .

ثانيا : التفســـير :

الآية الشـريفة استئنـاف لذكـر أحداث قصة بنـى إسرائيـل مع مـوسى عليـه السلام وإن جاءت فى بيان فعالـه عليه السلام، يذكر تعالى أنه بعد أن هـدأت سورة الغضب التى اعترت موسى عليـه السلام من بعد تـوبة التائبين وبقـاء غيرهم على كفـرهم فإنه عليـه السلام أخذ

الألواح التى ألقاها، وذكر تعالى أنه كان فيما هو مدون فيها ما هو هدى، بمعنى أنه يهدى إلى الحق وإلى الطريق المستقيم - وربما كان هذا لاشتمالها على أحكام العقيدة - وكان فيه أيضا الرحمة - وربما كان هذا لاشتمالها على الأحكام ومنها قواعد التجريم والعقاب وقواعد المعاملات - وخصه تعالى الذين لربهم يرهبون بالهدى والرحمة. وفيه جاءت «لام العلة» فى «لربهم» لبيان أنهم الذين يطيعون لأجل ربهم طلبا لثوابه وتجنبا لعذابه الذى يرهبون، إنما كان لأنهم المنتفعون بحق بها فى دنياهم وآخرتهم .

وفى شأن الألواح التى ألقاها موسى عليه السلام ثم عاد فأخذها، فقد قيل إنه منها ما كسر، وإن موسى عليه السلام صام أربعين يوما ثم أعاد نسخ ما بالألواح التى كسرت، وجاء بالتوراة التى بين أيدينا اليوم أنه عليه السلام صعد إلى الجبل ثانية وأنه تعالى جدد له اللوحين اللذين كسرا ونزل من الجبل بهما بعد أربعين يوما.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

التفســــــير:

قوله تعالى - فى الآية - لايزال فى سرد قصة بنى إسرائيل مع موسى عليه السلام ومعه جل وعلا. يذكر تعالى شأنه أن موسى اختار من قومه سبعين رجلا، فالأصل أن الفعل «اختار» يتعدى إلى مفعولين يكون ثانيهما مجرورا بـ «من» وقد حذفت من عبارة الآية ، فيكون أصل العبارة هو «واختار موسى سبعين رجلا من قومه»، ومن القول يبين أنه عليه السلام قد اختارهم ليتوجهوا معه إلى ميقات ربه.

وقيل إن هذا الميقات هو الميقات الأول أى الميقات الكلامى، وهذا القول يـوافق ما هو فى التوراة التى بين أيدينا اليوم إذ جاء بها «ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيـل»، ولم يأت بها ذكـر للسبعين رجلا عند ذكـر توجهه عليه السـلام لميقات ربه ليبدله باللوحين المكسورين آخرين. وقيل إنـه ميقات آخر لأنه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يأتيه فى أناس مـن بنى إسرائيل يعتذرون إليه عن عبادة العجل، ثم إنـه كان منهم لما أتوا الطور أن طلبوا رؤيته تعـالى ونسوا ما جاءوا من أجله فـأخذتهم الرجفة منه تعـالى، وفيها قيل إنها كـانت الصاعقة، وقيـل أصابتهم رجفة الجبـل فصعقوا منها وماتـوا ثم أحياهم سبحـانه وتعالى، وقيل إنه غشى عليهم ثم أفاقوا. كذلك قيل فى أسباب اختيارهم أنه لما مات هارون عليه السـلام اتهمه قومه بـأنه قتله فـاختار الرجـال ليتوجهوا إلى حيـث مات هارون ليسـألوه فيجيبهم بـأمر الله. وهـذا القول يرد عليـه قول القـائلين إن مـوسى عليه السـلام كان معـه ابنا هارون، ومعلوم أن ابنى هارون «ناداب، وأبيهو» ماتا قبل هارون فى سيناء، وأنهما كانا لايزالان علي قيد الحياة وقتذاك كمـا أنه لـم يكن قد أقام هارون المذبح وذبـح عليه عجل الخطية فى ذلك الوقت مما يدل على عدم صحة هذا القول .

ويذكر تعـالى أنه بعد أن أصابـت الرجفة الرجـال السبعين المختارين سأل مـوسى عليه السلام ربه العفو عنهـم بذكر سابق عفوه تعـالى عنهم لاستجلاب العفو المدعـو به «قال رب لوشئت أهلكتهـم من قبلُ وإياى» فـذكر عفو ربه عـن بنى إسرائيل عنـدما حال بين فـرعون وبينهم فلـم يهلكهم فـرعون ولم يهلكهـم الله تعالى بـإغراقهـم فى البحر. وذكـر موسـى عليه السلام نفسه معـه إقرارا منه بأنه تعـالى عفى عنه حيـن قتل المصرى أو الرجل الـذى من قوم فرعون فلم يمكـن فرعون وقومه منه، كما عفـى عنه حين طلب رؤيته تعالى شـأنه فلم يهلكه، وعفى عنـه أن يهلكه بذنب قـومه بعبادتهـم العجل. كما استعطفـه جل وعلا ألا يهلك قـومه مظهرا استبعاد أن يقضـى به أو أن يجرى به قضاؤه فقـال «أتهلكنا بما فعل السفهـاء منا» وفيه نسب سوء الأدب فى طلب رؤيته تعالى ومن قبله عبادة العجل إلى سفهاء القوم .

ثم جاء قول موسـى عليه السلام «إنْ هى إلا فتنتك تضل بها من تشـاء وتهدى من تشاء»،

وهو اعتـذار عما حدث من بنـى إسرائيل، ومعناه أنـه ما كانـت الفتنة إلا فتنته تعالـى، أى إنه تعالى ابتلى القوم واختبـرهم حين أسمعهم كلامه جل وعلا فطمعوا فى المـزيدفسألوا رؤيته تعالى، وأنه تعالى جعل للعجل خوارا أو أنه لم يمنع أن يكون لما أعده السامرى فيه ما يخرج الخوار فكان من القوم الاعتقاد فيه إلا من هدى الله. والقول يثبت أنه تعالى الذى يضل بالفتنة والذى يهدى بها من يشاء على الخالين .

ويجىء قول موسـى عليه السلام كما أخبر عنه تعـالى «أنت ولينا فاغفر لنـا وارحمنا وأنت خير الغافرين» متضمنا تقريرا بواقع جاء تمهيدا لسؤال المطلوب، فيقر عليه السلام بأنه تعالى القائم علـى أمور القوم فى دنيـاهم وأخراهم، ثـم يسأله تعالـى أن يغفر لهم ما وقـع منهم وأن يرحمهم بـرحمته، وجاء ذكر المغفرة قبـل الرحمة لأن رفع الإثـم له الأولوية فى التـرتيب على الثواب يكون بـالرحمة، وجاء ذكـر الرحمة أو السؤال بها لتكـون شاملة رحمة الـدنيا والآخرة، وجاء توسله عليـه السلام إلى الله تعالى بكونه تعـالى خير الغافرين مظهرا أنـه تعالى إن يغفر الذنب فـإنه يفعل غير منتظـر مصلحة ولا شكر و إنما يفعل تكـرما منه وتفضلا، وجـاء التوسل بهذا مناسبا الذنب المطلوب مغفرته، لأنه لا يغفره إلا خير الغافرين .

﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾

التفســـــــــير:

قوله تعـالى «واكتب لنا فـى هذه الدنيا حسنـة وفى الآخرة إنا هـدنا إليك» هو بـاقى دعاء موسـى عليه السلام سأل ربـه أن يقدر فى شأن بنـى إسرائيل أن تكـون لهم فى الحياة الـدنيا الحياة الطيبة وجنـى الحسنات بما يكون بالتوفيـق لصالح الأعمال، وأن يثبت لهـم فى الآخرة أنهم تابوا إليه تعالى ـ أخذا بمعنى الفعل «هـاد» أنه تاب ـ وقيل إن المعنى هو أنهم مالوا إليه

تعالى ـ أخذا بقراءة «هدنا» بكسر الهاء ـ فيكون الدعاء بطلب ثواب الدنيا والآخرة .

ويثبت تعالى أنه قـال لموسى عليه السلام «عذابى أصيب بـه من أشاء، ورحمتى وسعت كل شيء، فسأكتبها للذيـن يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يـؤمنون». ومعنى أنه تعالى قال، أنه لايزال قائلا: ولذلك فإن القول يعتبر ـ إلـى جانب إعلام موسى عليه السلام بما شاء تعالى أن يعلمه ـ بيانا لتقديره تعالى ما شاء فى خلقه .

فيذكر تعـالى أنه وحده الذى تكـون له المشيئة فى تعذيـب من يشاء تعذيبه، وأنـه تعالى وسعت رحمته كل شيء. وقيل إن هذه الآية أطمعت إبليس فى رحمته تعالى فقال «أنا شيء» فقال تعالى فسأكتبها للذين يتقون، فقالت اليهود والنصارى «نحن متقون» فقال تعالى الذين يتبعون الرسول النبى الأمـى». وعبارة القول تفيد أنه تعالى يقدر أن تكـون رحمته للذين يتقون الكفر والمعاصى ويؤتون الزكاة، لم يرد ذكـر للصلاة لدخولها فى مضمون التقوى وجاء النص على الـزكاة لكونها تكـون إنفاقا للمال وهـو ما يعزعلى بنـى إسرائيل ويشق ويصعـب. ومن النص يبيـن أن رحمة الآخرة تكون لمـن بقى على الإيمان بخـلاف رحمة الدنيا التـى يتقلب فيها المؤمـن والكافر. والقول يثبـت اشتراط الإيمان للإثابـة على العمل الصالـح فى الآخرة. ويبدو منه أن الـدعاء صدر عن مـوسى عليه السلام وكـانت الإجابة لمـن بقى من قومـه على الإيمان ولأمة محمد ﷺ .

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

أولا : الأســـماء :

١ ـ **الرسول** : سبق بيانه، ونكتفى بـالإشارة إلى ما قيل من أنه من أرسلـه الله تعالى ليبلغ، وقيل هو الذى يوحى إليه بكتاب، ورد على ذلك بـأن من الرسل من لم يكن له كتاب خاص، وقيل هو المأمور بإصلاح الخلق.

٢ ـ **النبى** : سبق بيانـه، ونكتفى بالإشارة إلى ما قيـل من أنه صاحب المعجـزة، وقيل إنه الذى ينبىء عن الله تعالى، لا يكون صاحب رسالة إلى المبعوث إليهم .

٣ ـ **الأمـى** : هو الـذى لا يقرأ ولا يكتـب. وقيل إنه «الأممـى» بمعنى الـذى ليس مـن بنى إسرائيل، إذ كانوا يسمون غيرهم من الأقوام «الأمم».

٤ ـ **الطيبات** : قيل إن المراد بها ـ فى معنى الآية ـ هـو ما يستطيبه الطبع، وقيل هو ما طاب فى حكم الشرع .

٥ ـ **الخبائث** : قيل إن المـراد بها ـ فى معنـى الآية ـ مـا تستخبثه النفس ويكرهـه الطبع، وقيل هو ما خبث فى حكم الشرع مثل لحم الخنزير، والربا .

٦ ـ **الأغـــلال** : المراد بهـا ـ فـى معنى الآية ـ «القيـــود» مثل عدم العمـل يـــوم السبت، و «الأثقال التى تصعـب الأمور» مثل التزام «القصاص» وعدم تشريـع «الدية»، وقتل النفس شرطا للتوبة .

ثانيا : التفســـير :

بعد أن ذكر تعـالى أنه سيكتب رحمتـه للذين يتقون ويـؤتون الزكاة ويـؤمنون بآياتـه ، فإنه تعالى بين ـ فى الآية ـ هؤلاء الذين سيكتب لهم رحمته. وأول ما يلاحظ فى هذا الشأن أن فى قوله تعـالى ـ فى الآيـة السابقة ـ «فسـأكتبها للذين يتقـون» جاء الفعل فى صيغـة المستقبل تدليلا على أن الموعودين بالرحمة ليسوا هم الذين سأل موسى عليه السلام ربه أن تكون لهم الرحمة وإنما هم غيرهم يأتون فى قادم الأيام، ثـم جاء قوله تعالى ـ فى الآية ـ دالا على أنهم أمة محمد ﷺ .

فأمة محمد ﷺ هم الذين يتبعون رسول الله ﷺ الـذى جاء رسولا من رب العالمين برسالة الإسلام أبلـغ أحكامه، والـذى هو نبى أنبـأ عن رب العزة، وهـو الأمى الذى لا يقـرأ ولا يكتب والذى هو من العرب وليس من بنى إسرائيل .

ثم إنه تعالى أوضـح بصريح العبارة أن كلا من اليهود والنصارى يجـد أوصافه وما يستدل به عليه موجودا فى توراته أو إنجيله ـ وقد سبق بيان ما ورد فى التوراة التى بين أيدينا اليوم وفى الإنجيل من بشارات برسول الله ﷺ، وذكر لصفاته تقطـع بأنه ﷺ هو المبشر به والذى أمر كل من موسى وعيسى عليهما السلام أتباعه أن يـؤمنوا به، كما ورد ذكر هذه البشارات والأوصاف فى كتب أنبياء بنى إسـرائيل فى كتاب العهد القديم ومن أهمها نبـوءات أشعياء الذى ذكر أنه ﷺ يدخل مدينتـه على جمل أو ناقة، وأن أتباعـه يأتون فى قادم الأيام إلـى مكة لأداء فريضة الحج، منهم من يأتى طائرا «فى طائرة» ومنهم من يـأتى بطريق البحر، ومنهم من يأتى بطريق البر، وأنهم يذبحون الأضاحى فى حجهم .

ويجىء قـوله تعـالى ــ فى شأن مـا يكون مـن هذا الرسـول النبى الأمـى مع أهـل التوراة والإنجيل ــ «يأمـرهم بـالمعروف وينهاهـم عن المنكـر ويحل لهـم الطيبات ويحـرم عليهم الخبائث ويضع عنهـم إصرهم والأغلال التـى كانت عليهم» مبينـا ـ فى مقام أول ــ عمومية دعوته فهو يتـوجه بها من بين من يتوجـه بها إليهم إلى اليهود وإلى النصارى ــ وفى مقام ثان فإنـه يكون من أحكـام شريعته الأمـر بالمعـروف والنهى عن المنكـر، يدخل فـى «المعروف» المأمـور به أداء العبـادات والطاعـات ووصل الـرحم، والتـزام مكارم الأخـلاق، ويدخـل فى «المنكر» المنهى عنـه الشرك بالله وقطع الـرحم وأكل أموال النـاس بالباطل. وفـى ذكر أحكام شريعته يضيف تعالى أنه يحل فى شريعتـه ما تستطيبه النفس مما لا يحرمه الشرع مثل شحوم الحيوان، ومثل عضلة فخذ البهيمة، ومثل لحم الإبـل والأرانب مما حرم على بنى إسرائيل أو حرمـوه على أنفسهم، ويحرم عليهـم ما تستخبثه النفس ويحـرمه الشرع مثل الـدم المسفوح ولحم الخنزير. ثم إنه تعـالى يذكر من فعال هذا الرسول النبى الأمـى أنه «يضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانـت عليهم» فهو يرفع عنهم التكـاليف الشاقة مثل قطع مكـان النجاسة من

الثوب اكتفاء بتطهيره بالماء، ومثل عدم العمل يوم السبت، ويزيل عنهم القيود التى كانت تقيد حرياتهم فى التعامل مع الغير مثل عدم مجالسة المرأة الحائض وعدم مؤاكلتها. والمراد بهذه الفعال هو ما يكون منه ﷺ فى بيان أحكام الشريعة التى بعث بها رسولا نبيا.

وبعد ذلك يجىء قوله تعالى «فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون». وهو حث على الإيمان بدعوة رسول الله ﷺ، ينصرف إلى جميع الناس ومنهم اليهود والنصارى، يذكر تعالى أن الذين يؤمنون به ويعظمونه ويوقرونه ويقفون معه ناصرين إياه ودعوته على أعدائه أعداء الدين متبعين القرآن العظيم بإيمان - وصفه تعالى بالنور الذى أنزل معه لأنه نور بذاته وبما شمل من عقيدة وقصص وعظة وأحكام، ونور يضىء للخلق طريقهم فيهدى إلى طريق الله المستقيم - يذكر تعالى أن هؤلاء الذين يؤمنون به ويعزرونه وينصرونه ويتبعون كتابه العظيم ، هم المفلحون بمعنى أنهم وحدهم الذين يرحمون أو الذين تكون لهم رحمته تعالى التى سألها موسى لقومه وخص بها تعالى المؤمنين برسول الله ﷺ بها، يكون بها فلاحهم بتوفيقهم إلى الطاعات فى الدنيا ونيل ثوابه تعالى ودخول جنته فى الآخرة.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

التفسـيـر:

بعد أن ذكر تعالى وجود رسول الله ﷺ موصوفا فى التوراة والإنجيل مما مفاده وجوب الإيمان به على أهل الكتابين - وفيه رد على قولهم إنه عليه الصلاة والسلام بعث للعرب

خـاصة ــ جاء قـوله تعـالى «قـل يا أيهـا الناس إنـى رسول الله إليكـم جميعا» دافعـا لتوهـم المشركيـن أنه عليـه الصلاة والسلام قـد بعث إلـى اليهود والنصارى وحـدهم. والقـول أمر مضمونه أنه ﷺ قد بعـث لجميع الناس، فدعوته موجهة إلـى الناس جميعا، وهذا طبعى لأن الدين واحد وتمامه كان به ﷺ.

وبعد ذكره ﷺ للناس أنه رسول الله تعالى إليهم جميعـا، فإنه يوضح لهم أن مرسله الله هو الذى له ملك السمـاوات والأرض، فالمخاطبون بالقول هم بعض مـا يملك، وعلى المملوك إطاعة مالكه، ثـم يظهر عليه الصلاة والسلام وحدانية مرسلـه مالك السماوات والأرض وعدم وجود الشريك له، مبينـا فى ذات الوقت أن عقيدة التوحيد هى الدين الـذى أتى به جميع من أرسلوا إلى الناس من قبل. وفي بيان المزيد مـن مظاهر ألوهية مرسله ﷺ ووحدانيته يظهر ﷺ انفراده جل وعلا بشـأن الحياة والموت «يحيى ويميت». ويكون ذكر هذا جميعـا توطئة لأمره ﷺ الناس بالإيمان بالله تعالى وبرسوله.

وقولـه ﷺ للناس جميعا ــ بأمر ربـه ـ «فآمنـوا بالله ورسـوله النبى الأمـى الذى يؤمـن بالله وكلماته واتبعـوه لعلكم تهتدون» هو صلـب الدعوة من بعـد البلاغ والبيان، أمر بـالإيمان بالله تعالى إلٰها واحدا كما بيـن من قبل، وبالإيمان برسوله، لـم يخبر ﷺ عـن ذاته وإنما أخبر عن غائب «برسـوله» تمهيدا لما سيلـى من ذكر أوصافـه كما وردت فى التوراة والإنجيـل، ولكون القول قول ربه جل وعلا. وجاء وصف رسول الله ﷺ فى القول بأنه النبى الأمى، وذلك ليتذكر اليهود وصف مـوسى عليه السلام إيـاه بأن الرب يضع كلامـه فى فمه فيتكلم بمـا يقول الرب بمعنى أنه ينزل عليه الوحى فيبلغ ما يوحى بـه إليه شفاهة لعدم معرفته القراءة والكتابة، وجاء وصفه بأنه الذى يـؤمن بالله وكلماته، ليتذكر النصارى قول المسيـح عليه السلام فى الإنجيل عند التبشير به ﷺ «وهو يشهد لـى» بمعنى أنه يشهد بنبوته وصدقه، لأنه جاء بـالآية أنه يؤمن بالله وكلماته. وقد جاء بالقرآن العظيم أن المسيح عليه السلام كلمته تعالى ألقاها إلى مريم، ثم إن الوصف جميعه يبين رسالته ﷺ من ذكر صفـاته، أو يبين ماهية العقيدة التى يقوم عليها الإسلام، فهى الإيمان بالله وتـوحيده وعدم الشرك به، والإيمان بكلماته تعـالى بمعنى ما أنزل

على الرسل والأنبياء من قبله، والإيمان بكتبهـم وصحفهم مفاده الإيمان بهم، فهو إيمان بالله وكتبه ورسلـه، ثم إنه لمـا كانت هـذه الكتب قـد ذكرت الملائكـة، فإن الإيمان بهـا يتضمن الإيمان بملائكتـه تعالى. ومفاد دعـوته ﷺ إلى الإيمان به رسـولا نبيا هو الدعـوة إلى الإيمان بالقرآن العظيم وإلى الإسـلام. وجاء ختام دعوته الناس للإيمان بـه قوله ﷺ «واتبعوه لعلكم تهتدون» وهو أمر بطـاعته والسير على نهجه ﷺ في جميـع أمور الدين، مع ذكر سبـب الدعوة إلى الإيمان وإلـى الاتباع وهو التماس الهدى والأمل فيـه، لا يكون لمن لم يؤمـن به ﷺ أمل فيه.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

التفســــــــير:

حديثه تعالى ـ فـي الآية ـ عن جماعة كبيرة من قوم موسى عليـه السلام، أخبر عنها تعالى بأن أفرادها يهدون الناس بالحق، بمعنى أنهم على هدى وعلى طريق الحق وأنهم يهدون إليه غيرهم، كما أنهم في أحكامهم في الناس وبينهم يقضون بالحق فيكون منهم العدل.

وفي شـأن هؤلاء القوم يتصور أنهـم بعض معاصـرى موسى عليـه السلام من قومـه، آمنوا بموسـى عليه السلام نبيـا من رب العـالمين وأطاعـوه ولم يعصوا الله مـا أمـرهم ولـم يدركـوا رسول الله ﷺ، فجاء ذكرهم لدفع التوهم بعدم دخـولهم في رحمته تعالى. ويتصور أن يكونوا الذين آمنـوا برسول الله ﷺ من اليهود معـاصريه مثل عبـد الله بن سَلَام ومن ماثلـه ممن هدوا غيرهـم إلى الإيمـان برسـول الله ﷺ ببيان ما ورد فيـه من بشـارات في التـوراة وذكر أوصـافه. ويتصور أن يكونوا هؤلاء وكل من يؤمن به ﷺ من اليهود في كل زمان ويفعل فعلهم.

وقيل في شـأن هؤلاء إنهم قوم من اليهـود ذهبوا وراء الصين وراء نهر الرمـل، وأنهم هناك يعبدون الله تعالـى بالحق والعدل بعد أن آمنـوا برسول الله ﷺ، وقيل إنهم لا يصـل إليهم أحد لأن بحرا عظيما يمنع الناس من الوصول إليهم، وأنهم يبنون بيوتهم مستوية لئلا يعلو بعضهم على بعض، ويجعلون قبورهم على أبواب بيوتهـم ليذكروا الموت فلا يذنبون، وأن من يكذب

منهم تحرقه نار تنزل من السماء. والرأى عندنا ـ والله أعلم ـ أنه ما لم يكن المراد بهذا الذى قيل بشأنهم معنى خفيا، فإنه لا يكون إلا قول من لا يعرف أنه ما من بقعة على الأرض إلا وقد تم التقاط صور لها بواسطة الأقمار الصناعية وعرف أمر من عليها وما عليها، وأنه ما من بحر يمنع من الوصول إلى جزء من اليابسة على كوكب الأرض. وقد يكون مصدر هذه التهويمات ما هو ثابت فى تاريخ الإسرائيليين من أن جماعة منهم وصلوا الصين فى القرن الأول للميلاد توجهوا إليها عن طريق فارس، ويبدو أنهم أصابوا حظوة فى عيون ملك الصين فتولى البعض منهم وظائف ملكية وعسكرية، وقد لقى نسلهم بعض مبشرى المسيحية فى القرن التاسع عشر. فيكون العلم بتوجه البعض من بنى إسرائيل إلى الصين لدى المسلمين الأوائل هو الدافع إلى اعتقاد البعض ما اعتقد وقول ما قيل.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

التفســـــــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى ذكر نعمه على بنى إسرائيل، فيذكر تعالى أنهم مع انتسابهم جميعا إلى يعقوب عليه السلام فإنه تعالى جعلهم اثنى عشر سبطا. ليكون لكل سبط رئيس يقوده ويسأل عنه أمام موسى عليه السلام فيسهل عليه قيادتهم. وفى قوله تعالى جاءت «اثنتى عشرة» مؤنثا مع كون «السبط» مذكرا، لتعلقها بالأمم ـ وهى مؤنثة ـ أو بالقبائل، وهى مؤنثة أيضا.

ثم يذكر تعالى أنه عندما طلب قوم موسى منه الماء ليشربوا أثناء وجودهم فى البرية حيث لاماء، أوحى إليه تعالى شأنه أن يضرب بعصاه الحجر، فلما فعل خرج الماء من الأرض فى اثنتى عشرة عين ماء، فعلم كل سبط من الأسباط عين الماء الخاصة به فاتجه إليها للشرب، كما يذكر تعالى أنه ظلل عليهم أثناء سيرهم فى الصحراء بغمامة حمتهم من حر الشمس، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاما أمرهم أن يأكلوه ووصفه لهم بأنه مما يلذ طعمه ويستطاب.

ويجىء قوله تعالى «وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» دليلا على أنهم لم يؤدوا حق النعمة من الشكر، بل إنهم زادوا على ذلك فكفروا، فلم يكن كفرهم إلا عليهم، ظلموا به أنفسهم بتعريضها للعذاب .

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾

التفســــــــير:

قوله تعالى «وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية» معناه هو «واذكر إذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية»، جاء الفعل مبنيا للمجهول، والقائل هو سبحانه وتعالى أمر به يوشع بن نون فجرى على لسانه، والقرية هى «أريحا»، والسكنى كانت بعد دخولها، وكان الأمر بالأكل منها من جميع أنواع الطعام والثمار من جميع نواحيها، وذلك لخضوعها لهم وسيطرتهم عليها. ويذكر تعالى أنه أمرهم أن يقولوا عند دخولها «حطة» ـ وقد سبق بيانها فى تفسير الآية ٥٨ من سورة البقرة ـ وأن يدخلوا باب المدينة ساجدين خاشعين فيكون لهم منه تعالى أن يغفر لهم ذنوبهم بطاعتهم، ثم إنه تعالى أعلمهم أنهم يكون لهم منه تعالى بعد مغفرة الذنب ما يزيد على ذلك من الثواب تفضلا منه و إكراما.

■■■■

فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

التفســـــــير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ صورة من صور عصيان بنى إسرائيل تمثل فى عدم التزامهم قول ما أمرهم الله تعالى أن يقولوه عند دخولهم باب المدينة واستبدالهم به قولاً آخر، وصف تعالى الذين فعلوا هذا بأنهم الذين ظلموا بمعنى الذين كفروا أو الذين كفروا نبيهم فيما أمرهم به، وأظهر أنهم بعض القوم. ثم يذكر تعالى أنه أنزل عليهم عذابا من عنده تعالى ـ قيل إنه وباء، وقيل هو الطاعون ـ وأظهر سبب إنزاله تعالى عذابه بهم بقوله تعالى «بما كانوا يظلمون» فأوضح أنه كان جزاء على ما جروا عليه من الظلم قبل تبديلهم القول والذى استمروا عليه فكان منه تبديل القول، بمعنى أنه لم يكن جزاء على فعلهم الأخير وحده.

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

أولا: الأســـــماء:

١ ـ **القرية**: سبق بيان معناها. وقيل إن المراد بها ـ فى معنى الآية ـ طبرية، وقيل هى مدين، وقيل هى «مقتا» بين مدين وعيون.

٢ ـ **حاضرة البحر**: هى القريبة من البحر، المتصلة بشاطئه.

٣ ـ **الحيتان**: فى قوله تعالى «إذ تأتيهم حيتانهم» جمع مفرده، «الحوت» وهو السمكة.

ثانيا : التفســــــير:

الخطاب فى الآية - إلى رسول الله ﷺ، أمره تعالى أن يسأل معاصريه من اليهود عن واقعة كانت مـن أسلافهم مفادهـا أنهم على ما جبل عليـه أسلافهم من العصيـان، فيكون السؤال متضمنا معنى التقريع، ثم إنه تعالى أخبر رسـوله ﷺ عن الواقعة المستفهم عنها ليذكرها ﷺ لليهود ليعلموا أنه ما علم بها إلا بوحى ربه .

فالأمـر لرسول الله بأن يسـأل معاصريـه من اليهود عن أهـل القرية التـى كانت قريبـة من البحر. فقولـه تعالى «واسألهم عـن القرية» معناه هو «واسـألهم عن أهل القريـة» فمعلوم أنه يكنى بالبلـد عن أهله. والإخبار هـو بما كان من أهـل هذه القرية وقـد كانوا من اليهـود الذين ألزمـوا عدم العمل يـوم السبت ومنه عـدم صيد الأسماك، وكـان منهم الاعتداء علـى حدوده تعالـى وما شرع بـالصيد فى يـوم السبت، ويذكـر تعالى فـى هذا الشأن أنهـم كانت تـأتيهم الأسماك «يوم سبتهـم» أى فى يوم السبت الـذى يحترمونه، فالقـول جاء «ظرفا» لـ «تأتيهم». شرعا، بمعنى أنها كانت تأتى ظاهرة علـى وجه الماء فكأنه تعالى ألهم الأسماك أنها لا تصاد فى هذا اليوم فكانت تظهر على سطح الماء، كما يـذكر أنه فى اليوم الذى لا يراعون فيه حرمة السبت لا تأتيهم الأسماك على نحو ما كانت تأتى عليه يوم احترامهم السبت .

ثم يقول تعالى «كذلك نبلوهم بما كانوا يكسبون» بمعنى أنه تعالى على مثل هذا المروى عنه يكون اختبـاره تعالى إياهـم ليظهر عليهم الحجة فيـؤاخذهم ، وذلك بسبـب استمرارهم على الفسق. فكأن الاختبار كان سبيلا للعقاب بعد إظهار الحجة على الفاسقين.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

التفســــــير:

يتصور فـى مناسبة الحـدث المذكور فـى الآية أن يكون متعلقـا بواقعة عـدم مراعاة حـرمة

السبت و إجراء الصيد فيه، ويتصور أن يكون فـى غيره من واقعات العصيان، ويتصور أن تكون «الأمة» فى قوله تعـالى «وإذ قالت أمة منهم» هى مجموع العصاة قالـوا لواعظيهم مستهزئين «لم تعظون قوما الله مهلكهـم أو معذبهم عذابا شديدا» فالاستفهام فـى العبارة يكون للإنكار، فيكون المعنى هو «مادمتم قد علمتم أن الله مهلكنا أو معذبنا، فلم تعظوننا». ويتصور أن تكون «الأمة» فى القـول ـ هى طائفة مـن الواعظين قالوا لآخـرين هذا القول حين يئسـوا من انتفاع العصاة بالوعظ. ومعنى أنه تعالى مهلكهم هو أنـه تعالى مستأصلهم تماما، ومعنى أنه تعالى معذبهم عذابا شديا هو أنه تعالى يعذبهم بما هو أقل من الاستئصال أو أنه يعذبهم فى الآخرة فيكون مقبولا أن يكون المعنى أنه تعالى قد يستأصلهـم فى الحياة الدنيا أو يعذبهم فى الآخرة عذابا شديدا .

ويجىء قوله تعالـى «قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون» لترجيـح قول القائلين إن الأمة القائلة هى فئة مـن الصالحين، وأنها ليست العصاة، قالت القول لآخـرين صالحين واعظين فأجـابهم هـؤلاء بقولهـم «معذرة إلـى ربكم ولعلهـم يتقون» بمعنـى أنهم ينصحـون العصاة ويعظونهم اعتذارا إليه تعـالى عن عصيان العصاة، ولأنه قد يكون هنـاك أمل أن يتقبل الوعظ بعضهم فيتقى غضبه تعالى ويكون من المتقين إذ البأس لا يكون إلا مع الهلاك .

فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾

أولا : الأســـــماء :

البئيس : هو الشديد الذى لا رحمة فيه، يكون وصفا للفعل الذى فيه نكاية وانتقام .

ثانيا : التفســـــير:

يذكر تعـالى ـ فى الآية ــ واقع ما كان من بنى إسـرائيل من بعد أن وعظ الصـالحون منهم عصاتهم، فيـذكر تعالى أن العصاة نسـوا ما ذكروا به، بمعنى أنهم تـركوه غامدين فلـم يذكروه

وأغفلوه كما يفعل الناسى، فالنسيان فى الآية مثيل ما جاء فيه قوله تعالى «نسوا الله فنسيهم»، ويقول تعالى أنهم لما تركوا ما ذكروا به كان منه تعالى أن أنجى الذين كانوا ينهونهم من قبل عن فعل السوء، أى الذين كانوا يعظونهم ويذكرونهم بواجب الطاعة، ويفهم من القول أن غيرهم لم تكن لهم النجاة فيكون المفهوم أنه أصاب القوم مكروه نجى منه المذكرون، وأخبر به الناسون التاركون .

ثم إنه تعالى يذكر بصريح العبارة تعذيبه العصاة بالعذاب الذى أنجى منه المذكرون بقوله تعالى «وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون» وصف تعالى العصاة بأنهم الذين ظلموا، فأظهر أن نسيانهم لم يكن سهوا منهم وإنما كان تركا عن عمد، وأثبت تعالى أنه أوقع بهم عذابا شديدا، وذكر سبب إيقاعه تعالى هذا العذاب بهم وهو استمرارهم على الفسق مع ظلمهم المذكور آنفا .

فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾

التفســـــــير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ ما آل إليه مصير الذين تكبروا عما نهوا عنه من العصيان ومنه عصيان أمره تعالى بعدم الصيد يوم السبت، فهم قد نهوا عن الصيد فى السبت، وتكبروا على هذا فصادوا ، فيذكر تعالى أنهم لما تكبروا على واعظيهم ولم يسمعوا لهم واستمروا على عصيان أمره تعالى قال لهم تعالى «كانوا قردة خاسئين» وأمره تعالى هنا ليس أمر تكليف وإنما مفاده أنه تعالى قال فكان قوله نافذا وهو مسخهم قردة أذلاء مبعدين .

ويتصور أن يكون هذا المسخ هو العذاب البئيس، ويتصور أن يكون غيره، فإن كان هو المسخ كان ما جاء بالآية تفصيلا للعذاب المذكور فى الآية السابقة .

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

التفســـــــــير:

قولـه تعالى ـــ فى الآية ـــ هو فى قضـائه فى بنى إسـرائيل، والمراد بهـم هؤلاء الذيـن لم يمسخوا وذرياتهم الذيـن ماثلوا أسلافهم في العصيان. فيقول تعـالى «وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلـى يوم القيامـة من يسومهم سـوء العذاب»، والمعنى اللغـوى للفعل تأذن هـو «أخذ الإذن من النفس» يكون بعد مراودتها فى الأمر باتخاذ القرار والعزم عليه. ولما كان تعالى منزها عن مثل أفعال البشر مـن التردد والتفكير والتروى ثم اتخاذ القرار، فإن المـراد من إيراد الفعل «تأذن» هـو تقريب المعنى إلـى الأذهان، وهو تقديـره تعالى أمـره النافذ فيهم، وهـو أن يبعث عليهم إلـى يوم القيامـة من يسـومهم سوء العـذاب، وقد سبق ذكـر بعض مـا نالهم مـن سوء العذاب الذى كان منـه ما حدث قبل نزول قوله تعالـى ثم كان منه ما أعقب نزول قـوله تعالى مما يعتبر معه قـوله تعالى إخبارا بأحـداث مستقبلة كان وقوعها دليلا علـى إعجاز القرآن وأنه منه تعالى. وممـن بعث تعالى عليهم كان بنـوخذ نصَّر ملك بابل الـذى خرب بيت المقدس وشرد بنى إسرائيل، وكان تيتوس الرومانى، وكان بازيل الثانى امبراطور القسطنطينية الذى أثار عليهم اضطهـادا عنيفا فـى القرن الحـادى عشر فكان التنكيـل بهم وإذلالهـم، وكان لـويس أغسطس فـى فرنسـا الذى طردهـم من فرنسـا واستولـى على أموالهـم، وكان الملـك فيليب الجميل فى فـرنسا أيضا الذى أمعـن شعبه فى بنى إسـرائيل القتل والاستيلاء علـى الأموال، وكان شعب ريتشارد قلب الأسد فى انجلترا الـذى انقلب عليهم وقتل منهم كثيرين، والملك جون، وكان منهم فـرديناند وزوجه إيزابلا فـى إسبانيا وقد أصدر أمرا سنـة ١٤٩٢ بطرد جميع اليهود من إسبانيا خلال أربعة أشهر على ألا يـأخذوا معهم ذهبا ولا فضة، وكان منهم هتلر فى ألمانيا، أذلهم وقتل منهم كثيرين .

وفى قـوله تعالى مـا يفيد أن بعثه تعالـى عليهم من يسومهـم سوء العذاب يكون إلـى يوم القيامة، أو إلى حيـن نزول المسيح عليه السلام ـ ويعتبـر نزوله من مقدمات القيـامة ـ لا يقبل منهم إلا الإسلام، أو يكون لهم القتل .

وقولـه تعالى ـ فـى ختام الآية ـ «إن ربـك لسريع العقـاب، وإنه لغفور رحيم» يفيـد أن ما

قضى بـه تعالى فى شـأن بنى إسرائيـل من تعذيبهم فـى الدنيا هـو من قبيل العقاب السريع ينالهم بأفعالهم، كما يفيد أنه تعالى يغفر لمن يتوب عن الذنب مع الإيمان بواسع رحمته.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٦٨﴾

التفســـــــــير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ بعض قضائه فـى بنى إسرائيل فيخبر تعالى أنه قطعهم فى الأرض أمما، بمعنى أنـه فرق جمعهم فجعلهم جماعـات موزعة في أقطار الأرض ، حـدث هذا بعد الشتات الأول بعد هـدم بنوخذ نصر بيت المقدس وأخـذ السبايا، وحدث بعد تخـريب بيت المقدس على يد تيتس الرومانى، ولا يزال بنو إسرائيل إلى اليوم متفرقين في أنحاء الأرض رغم تجمعهم فى فلسطين فـى شكل دولة، وفى إحصاء لهم أجرى عام ١٨٩٨ كـان عددهم نحو ١٨٢٠٠٠٠٠ ، كان منهـم فى الـدول الأوربية نحـو ٦٧٥٠٠٠٠ نسمة، وفـى دول آسيا نحـو ٥٠٠٠٠٠ ، وفى دول أفريقيا نحو ٣٥٠٠٠٠ ، وفى أمريكـا نحو ٥٠٠٠٠٠ ، وفى استراليا نحو ٢٠٠٠٠ نسمة. واليـوم لايزال الموزعـون منهم فى أقطار الأرض أضعـاف الذين تجمعـوا فى فلسطين .

ويذكر تعالى أنه كان منهم الصالحون، وكـان منهم من هم دون ذلك. والمراد بالصالحين هم الذين أصلحوا فـآمنوا بموسى عليه السلام وأطاعوا شريعته قبـل بعثة المسيح عيسى ابن مريم عليـه السلام، والذين آمنوا بالمسيـح عليه السلام وعملوا بالإنجيل قبـل بعثة رسول الله ﷺ، والذين آمنوا بمحمد ﷺ. والمراد بالذين هـم دون ذلك، هم الكفار منهم، أو الذين كان إيمانهم ناقصا لم يبلغ درجة إيمان الصالحين .

ثم إنه تعالى يذكر أنه يختبرهم فى الشتات بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون، والمعنى أنه تعالى ينعم عليهم بالخير ويصيبهم بالضـر لعلهم يعتبرون فتكون منهم التوبة والرجوع عن

المعاصى والرجوع إليه تعالى. ولما كان قوله تعالى هذا متضمنا معنى الإخبار بما يقع فى قادم الأيام مما يعتبر تحققه من مظاهر إعجاز القرآن العظيم فضلا عن تضمنه إعلاما بأحداث ماضية. فإننا نذكر من هذه وتلك أنه بعد خراب بيت المقدس على يد «تيتوس» وبمضى نحو ثلاثين سنة ازداد عدد بنى إسرائيل وأثروا فى قيروان قبرص، وبلاد ما بين النهرين (العراق)، ثم قهرهم الرومان وأمعنوا فيهم القتل، ثم أحسن إليهم أباطرة الرومان لفترة من الزمن أثروا فيها إلى أن ملك قسطنطين الكبير سنة ٣٣٠ فأصابتهم المصائب والمحن، وأصدر منشورا لقبهم فيه باسم «الشعب المكروه»، ثم نالهم الخير وارتقى كثيرون منهم إلى أعلى المراتب وأسبغ عليهم يوليانوس الملحد نعمه، ثم أعقب هذا عصر ذاقوا فيه الهوان وصدر أمر فى القرن الخامس الميلادى يحظر عليهم التجند فى جيوش الإمبراطورية، كذلك فإنهم كان لهم شأن كبير فى الجنوب الغربى من بلاد العرب ودانت لهم مملكة «حمير» إلى أن جاء الأحباش فطردوهم. كذلك فإنهم ملكوا الكثير وكان لهم نفوذ كبير فى بلاط الملك لويس المعروف بـ «الدبونير» ثم اضطهدهم الملوك والأمراء والأساقفة وأذاقوهم العذاب فى فرنسا، وظل حالهم على هذا من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر، كذلك فإنهم أقاموا فى ألمانيا زمانا طويلا فى رغد من العيش ثم بدا اضطهادهم فيها فى القرن الرابع عشر، وطردوا منها بانتهاء القرن الخامس عشر. وهذه مجرد أمثلة نكتفى بها أحداثا تعبر عن قوله تعالى «وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون»

فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩

أولا : الأســــماء :

الخلف : فى قوله تعالى «فخلف من بعـدهم خلف» اسم جمع، بمعنى الأولاد، وقيل هو من يخلف غيره صالحا أم طالحا .

ثانيا : التفســـير:

يذكر تعالى ـ فـى الآية ـ أنه خلف الذين كان الحديث عنهم مـن بنى إسرائيل خلف من اليهود ـ كما يبين مـن قوله تعالى فيهم إنهم ورثوا الكتاب أى التوراة ــ وإذا كان قد قيل إنهم من أولاد بنى إسرائيـل الذين كان قوله تعالى فيهـم، فإننا نرى ـ والله أعلم ـ أنـه فى شأن يهود العصور الـلاحقة الذيـن تنقطع صلة النسب بينهم وبين يعقـوب عليه السلام مـن الاشكناز والأحباش والأوربيين الشرقيين وغيرهم، وربما لهذا جاء وصفهم بأنهم ورثوا الكتاب، بمعنى أنهم استقرت التوراة فى أيديهـم وعرفوا ما عرفه أسلافهم من أحكامهـا، ثم يثبت تعالى أنهم وقد ورثوا الكتاب وعرفوا ما فيه مما هـو متعلق بطلب الآخرة والعمل لها بعملها لا يكون منهم إلا طلب متاع الحيـاة الدنيا وأخذه، يطلبونه بكـل سبيل مثل الرشوة والـربا و إدارة دور الفسق والرذيلـة، ثم يكون منهم ــ بعد ذلك ـ قـولهم «سيغفر لنـا» بمعنى أنهم يطلبون متـاع الحياة الدنيا ثم يقولون إنه تعالى سيتجاوز عن سيئـاتهم فى الحصول عليه ويغفر لهم ذلك. كذلك يوضـح تعالـى أن تكالبهـم على طلـب متاع الحيـاة الدنيـا يجعلهم فـى ذات الوقـت الذى يتحدثون فيـه عن غفرانه تعالـى ذنوبهم فى تحصيل متـاع الحياة الدنيا لا يتورعـون عن طلبه وأخذه إذا ما جاءهم، والمـراد بذكر هذا الفعل هو إثبات إصرارهم علـى مقارفة ذات الذنوب مادامت تكسبهم متاع الدنيا، وأنهم لا يتوبون عنها.

ثم يجـىء قولـه تعالـى «ألم يؤخـذ عليهم ميثـاق الكتاب أن لا يقـولوا علـى الله إلا الحق ودرسوا ما فيه» والاستفهـام ـ فى عبارة الآية ـ تقـريرى يفيد أنه قد أخذ عليهـم الميثاق الوارد ذكره فى التوراة، وأن مضمون الميثاق هو «أن لا يقولوا علـى الله إلا الحق» فقوله تعالى هو بيان للميثاق. وقـوله تعالى يعتبـر توبيخا لليهود لأن مفـاده أنهم لـم يعملـوا بالميثاق المذكـور فى التوراة فقالوا علـى الله غير الحق، وغير الحق هو قـولهم إنه سيغفر لهم، رغم عـدم توبتهم عن

الذنوب وعـودتهم إليها كلما سنحت لهـم الفرصة؛ ولذلك جـاء قوله تعالى «ودرسـوا ما فيه» لبيان درجـة خطئهم فـى القول علـى الله غير الحـق، لأنهم قـالوا هـذا بعد دراستهـم التوراة ومعرفتهم أن المغفرة تكـون بالتوبة، وأن هذا هو قولـه تعالى فيها، لم يعملوا به وحـرفوه مقابل المال.

وفى ختـام الآية يجىء قولـه تعالى «والدار الآخـرة خير للذيـن يتقون أفلا تعقلون» إعـلاما للذين يـأخذون عرض الحياة الـدنيا بأن ما يـأخذون زائل، وأن الخير هو ثـواب الآخرة، يكون للذين يخشون عقابه تعالى، وفى القـول جاء الاستفهام «أفلا تعقلون» إنكارا على المخاطبين عدم معرفتهم هذه الحقيقة المخبر عنها، ونصحا لهـم أن يعلموها فلا يستبدلون بنعيم الآخرة الدائم عرض الحياة الدنيا الزائل .

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

التفســــــير:

بعد حديثه تعالى عن الذين آل إليهم أمر التوراة فقالوا فيما أنزل ربهم فيها غير الحق على دراستهم إياها وتملكتهم الدنيا فحرصوا على تملك متاعهـا، فإنه تعالى يذكر ـ على المقابل ـ آخـرين من أهل التـوراة تمسكوا بها فى شئـون دينهم ودنياهم، آمنـوا بما جاء بها فـى شأن التبشير برسول الله ﷺ وفى ذكر صفاته فآمنوا برسول الله ﷺ، فكان تمسكا بها فى شأن الدين، وحرصوا على أداء الصلاة فى أوقاتها، وهي نـاهية عن الفحشاء والمنكر والبغى ـ فلم يظلموا غيرهم وأنفسهم، وعملوا لآخرتهم فلم يحرصوا علـى متاع الحياة الدنيا، فكان تمسكا بها فى شأن الدنيا مع التزامهم ما ورد بها من أحكام .

ثم إنه تعالى ذكـر أنه يوفيهم أجورهم لا تضيع عليهم، بعـد أن وصفهم بأنهم المصلحون، أصلحوا نفوسهم فلم يتـركوها نهب أهوائها، وأصلحوا غيرهم ممن يـرى فيهم قدوة له ومثلا، وأمروا بما جاء بهـا من دعوة الإيمان برسول الله ﷺ وبكتـابه الآمر المؤمنين بالأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر، فاستحقوا أن يوصفوا بأنهم المصلحون .

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

التفســــــــير:

قوله تعـالى ـ فى الآيـة ـ استئناف لرواية حـال بنى إسرائيل معـه تعالى ومع نبيهـم موسى عليه السلام، جاء بقوله تعالى «وإذ نتقنا الجبل فـوقهم كأنه ظلة» ومعناه «اذكر إذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة» وهو تذكير لرسول الله ﷺ بواقعة رفعه تعالى جبل الطور أو جبلا غيره فوق بنى إسرائيل ــ وفيه قيل إن الذى رفعـه هو جبريل عليـه السلام بأمر ربـه ـ حتى صار الجبـل مثل الغمامة فوقهم أو السقيفة، وهو ما كان منه تعـالى عندما رفضوا أحكام التوراة أو رفضوا إعطاء العهد فكـان خوفهـم من وقوع الجبـل عليهم بـاعثا لهـم على قبول التـوراة أو على إعطـــاء العهـد .

يقول تعالـى إنه عندما رفـع الجبل فوقهم بعد قلعـه من الأرض قوى فى نفـوسهم الاعتقاد بأنه لابد واقع عليهم مهلكهـم، فأمرهم تعالى أن يأخذوا التوراة التى أنـزلها على نبيهم بقوة، بمعنى أن يتمسكوا بهـا ويعملوا بأحكامها بجد وبعـزم، وألا يتركوا شيئا مما ورد بهـا فى شأن العقيدة والأحكام عمدا أو تقصير فتصير مثل المنسى، وأنه تعالى أملهم إذا فعلوا ما أمروا به أن يكونوا من المتقين عـذابه . والمعلوم أنه كان من بنى إسرائيل أنهـم سجدوا لله تعالى ينظرون إلى الجبل من خوف السقوط عليهم، وأنهم أعلنوا أخذهـم بالتوراة أو إعطاءهم العهد.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

التفســـــــير:

قوله تعالى - فى الآية فى إقامة الحجة علـى بنى إسرائيل من أشرك منهم بالله تعالى فقال «عزير ابن الله» والذين أحجموا عن إعطاء العهد، وهو حجة على جميع الناس على تبصيرهم بالحق بما يستوجب منهم الإيمان بالله وتوحيده .

ومعنى القول أنه تعالـى أخرج من أصلاب بنى آدم الذين قدر لهـم الإنجاب ذريتهم التى قـدر لها أن تخـرج إلى الحيـاة فيما بعـد، وأن هـذا جميعه كـان قبل أن يـوجدوا فـى الأرض بالولادة، وفى القـول ذكر بنو آدم ولم يذكر آدم ذاتـه لأنه معلوم أنه أبو البشر. وجـاء التعبير عن أخذ الذرية من الظهور باعتبار «الظهور» بـدل البعض من الكل، بمعنى من أجسادهم. وربما كان ذلك لكون السائل المنوى مكونا من خليط من الإفرازات التى تأتى من غدد مختلفة هى الخصيتان والحـويصلات المنـوية، والبروستـاتا، والغـدد الملحقة بالمسـالك البـولية، وأن خروجه يتم بتأثير الشعور الناجم عن الجمـاع مما يكون بتأثير الأعصاب المجتمعة فى العمود الفقرى .

وفى القول يـذكر تعالى أنه أشهد ذريـة بنى آدم على أنفسهم فشهدوا ، بمعنـى أنهم أقروا على أنفسهم، والذى أقروا به هو أنه تعالى ربهـم لا رب لهم سواه، جاء ردا على سؤاله تعالى إياهـم «ألست بربكم» فكـانت إجابتهم «بلـى شهدنا»، وليس مفـاد ذكره تعالى صـدور هذا الإقرار من النـاس قبل وجودهم علـى الأرض أن يؤاخذ الكافـرين بموجب هـذا الإقرار، لأنه معلوم أنه ما مـن أحد يذكر ما كان فى شأن هـذا الإقرار، ولكن مفاده أنه تعالى أنـه - بموجب هذا الإقرار - أودع تعالى فى النفوس الإيمان به تعالى بالفطرة، بمعنى أنه ما أن يبلغ الفرد سن البلوغ ويكون لديه التمييز إلا ويدرك أن له ربا أوجده وأوجد ما حوله، وأنه لعلة النسيان يبعث تعالى الأنبياء والرسل للتذكير بما صدر به الإقـرار فتكون المساءلة من بعد التذكير ولذلك قال تعـالى «ومـا كنا معـذبين حتـى نبعث رسـولا»، وإنـا لنعلم أن الشعـوب البدائيـة تتخذ لهـا معبودات، فهـى - بالفطرة ــ تدرك أن لها خالقـا، ولكن لعدم وجـود المبعوث نبيا فإنـه تضل السبيل إليه إلى أن يبعث الله فيها نبيا فيؤمن من اختار الهدى ويضل الكافرون .

وقوله تعـالى «أن تقولوا إنا كنـا عن هذا غافلين» موجـه إلى بنى إسرائيل أو اليهـود الذين عاصـروا رسول الله ﷺ، وإلى النـاس أجمعين من بعـدهم، يـذكر تعالـى أنه أشهدهـم على أنفسهم بأن فطرهم على الإيمان بما يسهل عليهم معه الإيمان برسول الله ﷺ لئلا يتذرعوا يوم القيامة عنـدما يحيق العذاب بالكافـرين بأنهم لم يـذكروا بما أقروا به، أو أنهم لـم ينبهوا إلى كونه تعالى رب العالمين .

أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾

التفســـــــير:

القول فى قطع كل سبيـل على الكافرين بتقديم سبب يبرر كفرهـم وينفى مسئوليتهم عنه، فبعد أن ذكـر تعالى أنه بـإشهادهم على أنفسهـم وشهادتهم لـم يعد لهم الاعتذار عـن الكفر بغفلتهم ونسيانهـم، ذكر تعالى أنه بذات الشهـادة التى صدرت منهم ـ بمعنى مـا فطروا عليه من الإيمان، وما ذكرهم به الأنبياء ـ لا يعود لهم أن يلقـوا بتبعة كفرهم على آبائهم الذين كفروا قبلهم فسنـوا الكفر ثم جاءوا هـم بعدهم لم يظهـر لهم سبيل الهـدى فاقتفوا آثارهـم، فيكون قولهـم له تعالى «أفتهلكنـا بما فعل المبطلـون» بمعنى لا يرون أن يكـون منه تعالى تعـذيبهم بفعل آبائهم المضليـن، بمعنى أنهم ينكرون مسئوليتهم عـن كفرهم، فأثبت تعالـى بقوله فى الآية انعدام حقهم فى التمسك بانعدام مسئوليتهم عن كفرهم ورجوع أمره إليهم .

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

التفســـــــير:

مفاد قوله تعالى ـ فى الآية ـ هو أنه علـى مثل هذا النحو يكون تفصيله تعالى آياته، وذلك لكى يسهل علـى بنى إسرائيل تذكر الميثـاق الذى أعطوه فيعملوا به، أو ليسهـل على الخلق

فهم ما يرغب فى الإيمان والطاعة وينفر من الكفر والعصيان فيكون منهم الرجوع عن الضلال إلى الهدى ودين الحق .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ ١٧٥

أولا : الأســـــماء :

الذى آتيناه آياتنـا فانسـلخ منها: المشهور أنـه بلعام بن بـاعر، وهوـ فى التوراة التـى بين أيدينا ـ «بلعان بن بعور» قيل إنه بعث إلى ملك مدين ليدعوه للإيمان فأعطاه عطية فتبع دينه وترك دين مـوسى عليه السلام، وقيـل إنه أوتى النبوة وكـان مجاب الدعوة سـأله الجبارون أن يدعو علـى موسى وقومـه فتحول لسانه إلى الـدعوة لهم وعلى قـومه فأشار عليهـم بالخداع، يعرضون علـى بنى إسرائيل بناتهم فيـزنون بهم فيعاقبهم الله تعـالى بالزنى فأمـات الله من بنى إسرائيل سبعين ألفا بالطـاعون، ثم دعا موسى عليه فنزع الله عنه إجابـة الدعاء وسلخه ما كان عليه .

والذى نراه ــ والله أعلم ـ أنه ليـس بلعام بن بعور، فـإن كان بلعام بن بعـورنبيا فإنه تعـالى يصطفى للنبوة المخلصين الذين لا يتصور أن يكون منهم زيغ عن الحق، فضلا عن أن ما ورد فى التوراة التـى بين أيدينا يفيد أنـه لثلاث مرات رفض أن يدعـو على موسى وقومـه استجابة لطلب بالاق بـن صفور ملك مواب وأنه قـال له إنه لا يقول إلا مـا يوحى به الله تعالـى إليه ولو أعطاه ملء بيته ذهبا وفضة، ولم يذكر القائلون أنه بلعام بن بعور سندا يفيد خلاف ذلك .

وقيل إنه كان مـن بنى إسرائيل له زوجة تـدعى «البسوس» ، وقيل هو أمية بـن أبى الصلت الشاعر كـان يقول بالتوحيد فى شعـره، فلما بعث محمد ﷺ حسده أمية وامتنـع عن الإيمان، وقيل هو أبو عامر بن صيفى. والذى نميل إليه أنه كان رجلا من بنى إسرائيل .

ثانيا التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى بيان كيف يكون زيغ القلوب بعد الإيمان لمن اختار الكفر على

الإيمان وأن المآل يكون بختام الأعمال والموت على الإيمان، ورد بذكر قصة أمر تعالى رسوله ﷺ أن يذكرها لأهل الكتاب الذين يعرفونها من التوراة أو لهم ولقومه ﷺ لتكون لهم فيها العظة .

والمروى فى شأن رجل من بنى إسرائيل ـ فيما نرى ـ قد يكون هو الرجل الذى جاء ذكره فى الإصحاح الخامس والعشرين من سفر «عدد» فى التوراة التى بين أيدينا، الذى دفع بنى إسرائيل للزنى مع بنات موات وقدم إليهم امرأة مديانية وهم بباب خيمة الاجتماع، يذكر تعالى أنه آتاه آياته، سواء أكان المراد بالآيات هو المعجزات ومنها إجابة الدعاء، أم كان المراد بها هو علم الكتاب، كما يذكر تعالى أنه انسلخ بإرادته عن هذه الآيات بمعنى أنه خرج منها بكفره بها ونبذها وراء ظهره، فكان من الشيطان الذى لم يكن يستطيع الاقتراب منه فى السابق لإيمانه، أن لحق به وأدركه، فكان عاقبة أمره أن أصبح من الضالين الراسخين فى الغواية والضلال .

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾

التفسير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى شأن هذا الذى آتاه الله آياته فانسلخ عنها، فيذكر تعالى أنه لو شاء رفعه إلى منازل الصالحين الأبرار بسبب آياته التى آتاه لكان تعالى قد فعل هذا معه. ثم إنه لما كان قد يفهم من هذا أنه تعالى يفرض على الكافر كفره ثم يعذبه به فإنه جاء قوله تعالى «ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه» فبين أن المروية قصته قد ركن إلى الدنيا ومال إليها متبعا فى هذا هوى نفسه، فأثبت أن حب الدنيا ومتاعها هو الذى أودى به إلى ما صار إليه شأنه، فظهر أن مشيئته تعالى كانت بما علم منذ الأزل بما يكون منه من اختيار متاع

الأرض، فجاء فعله علـى النحو الذى جرت بـه مشيئته. ومن نسبته تعـالى الرفعة إليـه ونسبته الضعة والخلـود إلى الأرض إلى العبـد تفسير لقولـه ﷺ «اللهم إن الخيـر بيديك والشـر ليس إليك».

ثم إنـه تعالـى يمثل للمرويـة قصته بـالكلب لبيـان مدى خسته إذ الكلـب يأكـل العذرة (البراز)، ويأكل قيأه، ويلعق بلسانه شرجه وشرج غيره من الكلاب، ثم إنه تعالى ذكر صفة من صفاته هى أنه دائما يلهث، يندلع لسانه بـالنفس الشديد، أريد بذكرها بيان أن الكلب يلهث فى حـال زجره وفـى حال تركـه، وفى حـال التعب وحـال الراحة، وفـى حال المـرض وحال الصحة، ووجه الشبه بينه وبين من كذب بآيـات الله تعالى أن الضال يظل على حاله إن وعظ وإن ترك فلم يوعظ: ولهذا جـاء قوله تعالى «ذلك مثل القوم الذين كذبـوا بآياتنا». ومن ذلك أن اليهود وقد ورد فـى التوراة التبشير برسـول الله ﷺ - بما يعتبر مـن قبيل الوعظ بـالإيمان به - كفروا به حين بعث للعالمين، فكان وعظهم وعدم وعظهم بمنزلة سواء.

ويجيء قوله تعالى «فاقصص القصـص لعلهم يتفكرون» أمرا إلى رسول الله ﷺ أن يقص على المكذبين ما أوحى بـه تعالى إليه من قصص سابقيهم لعلهم ينزجـرون عما هم عليه من الكفر بعـد أن يفكروا فيما كان مـن شأن المكذبين فتكـون لهم فيه العبرة. ويحتمـل أن يكون الأمر بالقول لإقامتـه الحجة على من شاء تعالى أن يضله، وليتفكر مـن علم تعالى منذ الأزل أنه يختار الإيمان فيؤمن.

سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

التفســـــــــير:

القول فـى بيان مدى قبـح فعـال المكذبين بآيـات الله تعالى جاء قـوله تعالى «سـاء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا» بمعنى «ساء مثلا مثل القوم» حذف المضاف «مثل» ونصب «مثلا» على التمييـز، ومدار السوء هـو صلة المثل بهـم، فدل القـول على أنه ليـس أسـوأ منهـم بين البشر.

ثم جاء قوله تعالى «وأنفسهم كانوا يظلمون» معطوفا على «كذبوا» فدل على جمعهم بين أمرين سيئين هما الكفر بالآيات وظلم أنفسهم، أو على جمعهم بين ظلمين، ظلم بالآيات ـ وهو الكفر ـ وظلم لأنفسهم بتعريضها للعذاب .

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

التفسير:

بعد أن أمر تعالى رسوله ﷺ أن يقص على الضالين قصة الضال الذي ورد ذكره في الآيات ليتفكروا ويتركوا ما هم عليه من الكفر فإنه تعالى أورد في الآية قوله ليعلموا ويعلم الخلق أن الهدى والضلال يكون منه تعالى ، وأن الوعظ والتذكير ليسا سوى وسائط ليحصل الاهتداء، ليوجه المرء اختياره إلى ما شاء تعالى أن يكون عليه. ثم ذكر تعالى أن الذين أضلهم هم الخاسرون، لأنهم خسروا ما فطروا عليه من إيمان وخسروا ما فعلوا من الصالحات فى دنياهم وخسروا آخرتهم، اكتفى بذكر عاقبة أمرهم دون ذكر مآل المهتدين لبيان أنه يكون الفوز العظيم، لم يذكر بصريح القول لبيان أن الهدى ـ فى حد ذاته ـ هو كمال الفوز، وتمام الشرف وخير العقبى.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾

التفسير:

بعد أن ذكر تعالى أنه الذى يهدى المهتدين ويضل الضالين، ذكر تعالى ـ فى الآية ـ أنه خلق لجهنم كثيرا من الجن والإنس، «واللام» فى «لجهنم» هى للعاقبة وليست للتعليل،

فيكون خلقهم عاقبتـه كونهم وقود جهنم، وهؤلاء الكثيرون هم المصـرون على الكفر، وصفهم تعالـى بأن «لهم قلـوب لا يفقهون بها ولهـم أعين لا يبصـرون بها ولهم آذان لا يسمعـون بها» فأظهر تعالى اختلاف قلوبهم عن قلوب الخلـق التى تفهم وتعلم، على حين لا تفهم قلوبهم ولا تعلم، كما أظهر تعالى اختلاف عيونهم عن عيـون الخلق التى تبصر آياته تعالى فى الخلق فتدرك أنه الخالق، على حين تنظر عيونهم ولا تدرك شيئا مما تدركه العيون، ثم أظهر تعالى أن آذانهم تختلف عن آذان الخلق التى تسمع آيات الكتـاب فتدرك أنه من رب العالمين، على حين لا تدرك آذانهم إلا جَرْس الصوت لا تعى منه شيئا .

ثم إنه تعالـى يقول فى شأن أهل جهنم «أولئـك كالأنعام بل هم أضل» بمعنـى أنهم مثل الأنعام لديهم الحواس لكنهم عدموا العقـول المفكرة التى تفيد مما تدرك الحواس، أو أنهم مثلهم لا يعنون إلا بما تعلق بالغرائز و إشباعها، ثـم يقرر فى شأنهم أنهم أضل من الأنعام، لأن الأنعام تهتـدى إلى طريقها إذا هـداها سائسها وتنـزجر إذا زجرهـا، كما أنها تعرف صـاحبها وتطيعه، أمـا أهل جهنـم فيعصون هـاديهم، ولا ينـزجرون بـوعيد، وعصـوا ربهم ولـم يطيعوه؛ ولذلـك وصفهم سبحـانه وتعالـى بالغفلة «أولئـك هم الغـافلون» أى الذيـن غفلوا عمـا فيه مصلحتهم، أو الذين غفلوا عما أعد تعالى للمهتدين من النعيم، وللضالين من عذاب مقيم.

وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

أولا : الأســـماء :

١ ـ الأسماء : قيل إن المراد بها ـ فى معنى الآية ـ الألفـاظ المصوغة الدالة على المعانى المختلفة، وقيل هى «التسميات» وقيل هى عبارات عـن كون الله تعالى على أوصاف مختلفة منها مـا يستحقه لنفسه، ومنهـا ما يستحقـه لصفة تتعلق بـه. فالعائدة إلـى نفسه هـى «هو»، والمتعلقة بصفة له هى أسماء له، ومنها صفات لذاته، ومنها صفات أفعال .

٢ ـ الحسنى : مؤنث «الأحسن» ، فهى حسنة فى الأسماع والقلوب.

ثانيا التفسير :

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى تعليم المؤمنين كيفية ذكره تعالى والتوجه إليه بالدعاء، وفى بيان كيفية تعاملهم مع الذين يدعونه تعالى بأسماء لا تليق به عز شأنه. فيقول تعالى «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها» .والقول تضمن عبارة تقريرية مفادها أنه له سبحانه وتعالى الأسماء التى هى أفضل الأسماء وأعظمها، جاءت «الأسماء» معرفة بالألف واللام ليكون الدعاء بها وهى التسعة والتسعون اسما المعروفة لأنه تعالى ـ كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ ـ له أسماء سمى بها نفسه، وأسماء أنزلها فى كتابه، وأسماء علمها من شاء من خلقه، وأسماء استأثر بها فى علم الغيب عنده، وقيل هى الأسماء التوقيفية المراعى فيها الكتاب والسنةوالإجماع، أما غيرها فلا يجوز إطلاقها و إن صح معناه. والإجماع على جواز إطلاق الأسماء والصفات عليه تعالى إذا ورد بها الإذن منه جل وعلا، وعلى امتناع إطلاق الأسماء والصفات التى منع إطلاقها منه تعالى. واختلف فيما لا إذن فيه ولا منع فمنعه الجمهور وأجاز المعتزلة إطلاق ما ينطوى على المدح. وتضمن القول أمرا للمؤمنين أن يكون تسميته تعالى أو منادا ته بهذه الأسماء.

وفى شأن تعامل المؤمنين مع الذين يسمونه تعالى أو يدعونه بأسماء أخرى جاء قوله تعالى «وذروا الذين يلحدون فى أسمائه» وهو أمر بترك الذين يميلون عن الحق إلى الباطل فى شأن أسمائه تعالى، وهو ما قد يكون بإطلاق أسماء عليه تعالى بزعمهم، وقد يكون بالتحريف فيها كما فعل المشركون إذ جلعوا «اللات» من الله، و «العزى» من العزيز، و «مناة» من المنان، وقد يكون بحذف بعض الأسماء. ويتضمن الأمر بتركهم معنى ترك فعالهم .

ثم يجىء قوله تعالى «سيجزون ما كانوا يعملون» بذكر علة أمر المؤمنين بترك الذين يلحدون فى أسمائه تعالى وهى أنه تعالى سيجازيهم بفعلهم عقابا قريبا تتشفى به نفوس المؤمنين. مع اعتبار القول متضمنا الحث على تجنب إلحاد الملحدين فى أسمائه تعالى خوفا من حلول العقاب بهم .

وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

التفســـــير:

بعد أن ذكر تعـالى أنه الذى يهدى المهتدى ويضـل الضال، تحدث عن الضاليـن بذكره تعالى أمر أهل جهنم من الجن والإنس.

ثم يذكـر تعالى ـ فـى الآية ـ المهتديـن الهادين، فيقول تعـالى أن من خلقه الـذى خلق طائفـة عظيمة الشأن كثيرة العـدد يهدون الناس بـالحق إلى الحـق، يدعونهم بكلمـة الحق ويدلـونهم علـى الطريـق المستقيم، ويحكمون بـالحق المنـزل من ربهـم فى الخصـومات والقضاء فيكون به العدل. ويبيـن من قوله تعالى فى الآية مقروءا مـع ما ورد فى شأن من ذرأ تعالى لجهنـم أن كثرة الأشرار لا تنفى وجود الهاديـن المهتدين فى كل زمان، إلـى ما ألحق بيوم القيامة من الزمان الذى لا يكون معه قيام الساعة إلا على أشرار الخلق.

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾

التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ عود إلى ذكر أحـوال المكذبين بآيات الله تعالى، جاء من بعد بيان أن من خلقـه تعالـى أمة يهدون بـالحق لبيان أن المكـذبين بـآياته تعـالى لا يهتـدون بهدى الهادين.

وفى شأن هـؤلاء المكذبين بالآيات يخبر تعـالى أنه سيستدرجهم مـن حيث لا يعلمون، بمعنى أنه تعـالى سيقربهم إلى الهلاك خطـوة خطوة مكرا بهم والأقرب إلـى المعنى المراد هو أن يكون الاستدراج بالصعود.

بمعنى أنه تعالى ينعـم عليهم بنعم الحياة الدنيا واحدة إثر أخـرى، فيحسبون أنه تعالى قد آثرهم على غيرهم لا يعلمون ما أريد بهم.

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

أولا : الإســـــماء:

١ ـ الكيد: هو المكر، وقيل إن المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو الاستدراج والإملاء معا.

٢ ـ المتين: هو القوى الشديد.

ثانيا: التفســـير:

القول تتمة لقوله تعالى فى الآية السابقة فيما يفعل جل وعلا بالمكذبين بآياته.

فيذكر تعالى أنه سيمهلهم، فلا يوقع العذاب بهم بمجرد كفرهم بالآيات، ثم إنه تعالى يبين أن هذا الإمهال مرتبط بمكره تعالى بالمكذبين بآياته فتظهر العلاقة بين الإملاء وبين الاستدراج ، ويختتم تعالى شأنه قوله بإظهار أن ما أراد تعالى بهم لا دافع له ولا راد بقوله تعالى « إن كيدى متين» فيخبر أن مكره بهم هو من الشدة بحيث لا يدفع.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾

أولا : الإســـــماء:

١ ـ الصاحب: فى قوله تعالى « ما بصاحبهم من جنة » المراد به فى معنى الآية هو رسول الله ﷺ، كان قريبا من المشركين قرب الصاحب من صاحبه، فهم يعلمون أمره.

٢ ـ الجنة: فى قوله تعالى « ما بصاحبهم من جنة » مصدر من الفعل « جن ـ يجن ـ هو الجنون.

ثانيا: التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى شأن الذين كذبوا بآيات الله التى أنزلها على رسول الله ﷺ جاء فيه « أو لم يتفكروا» استفهاما أريد به الإنكار والتوبيخ. والمعنى أنهم لم يتفكروا فى حقيقة شأنه ﷺ ، ولو فعلوا لعلموا أن ما يخبر به مما يوحى به إليه ربه مما لا يفهمون ليس من

الجنون فى شـىء، لأنه ـ ﷺ ـ صـاحبهم زمنا تيقنوا فيه أنـه ليس به شىء مـن الجنون مهما ضؤل وقـل. وسبب نفى الجنون عنـه ﷺ أنه لا يتكلم بمثل مـا يتكلم به من القـرآن العظيم قولا لا يفهمـه المكذبـون لكونه ممـا لا يتكلم البشـر بمثله لما انطـوى عليه مـن الإعجاز إلا مجنون لا يفهم قوله أو نبـى موحى إليه من ربه. وبنفى الجنون عنـه ﷺ لا يبقى إلا كونه نبيا مرسلا من ربه تعالى.

وقيل إن سبب نـزول الآية ما كان منه ﷺ حين قـام على الصفا ينادى قريشـا ويحذرهم بأس الله تعالى فقال أحدهم « إن صاحبكم هذا لمجنون».

ثم يخبر تعالى عـن رسوله ﷺ بقوله « إن هو إلا نذير مبين، فيه تكـذيب لمن زعم أنه ﷺ مجنون، وتقريـر لكونه نذيرا مظهـرا ما ينذر به على نحو فـى غاية الوضوح، ولمـا كان الإنذار متفرعا عن النبوة، فإن القول يكون بإثبات نبوته ﷺ.

أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

أولا : الإسماء:

١ ـ **الملكوت:** فى قوله تعالى « فى ملكوت السماوات والأرض» هو الملك العظيم.

٢ ـ **الأجل:** فى قولـه تعالى « قد اقترب أجلهم » قيـل إن المراد به ـ فى معنى الآيـة ـ هو أجل الموت، وقيل هو قيام الساعة.

ثانيا : التفســير:

قوله تعالـى ـ فى الآية ـ لا يزال فى شـأن المكذبين بآيات الله، جاء قولـه تعالى « أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شىء» استفهاما ينكر على المكذبين عدم نظرهم فى ملكوت السماوات والأرض وجميع ما خلق من أشياء عظمت ودنت والتدبر

فيها. ويوبخهم على هذا.

والمعنى أنهم لو نظروا فى عظم خلق السماوات والأرض ، وعظم خلق أدنى المخلوقات لعلموا أن الخالق هو الله وحده لاشريك له ـ وقد سبق بيان قانون الطواف الذى يحكم الكواكب والشموس ويحكم الذرة أدنى المخلوقات ـ.

ثم إنه تعالى يبين مدى تقصير المكذبين فى حق أنفسهم بقوله تعالى « وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم » فبين أنهم لم ينظروا فى أمر حياتهم أو أمر الحياة الدنيا ولم يتوقعوا الموت يأتيهم فجأة فيكون لهم العذاب، وهذا التقصير ليس فعل عاقل.

فالعاقل يدرك أنه ميت وأنه ملاق ربه فيوفيه حسابه فيطلب الحق قبل أن يفجأه الموت فلا تكون له من العذاب نجاة.

ثم يجىء قوله تعالى فيهم « فبأى حديث بعده يؤمنون» والمعنى المباشر للقول هو أنه لا يتصور فيمن لم يؤمن بالله تعالى وبرسوله ﷺ من بعد النظر فى آيات خلق السماوات والأرض وخلق جميع المخلوقات ، أن يؤمن بعد ذلك بالقرآن العظيم .

ويتصور أن يكون المعنى هو أنه ليس ثمة أمل في أن يؤمن بالله ورسوله من لم يؤمن بالقرآن العظيم كتابا منزلا منه تعالى.

وعلى الحالين فإن القول يقطع بانقطاع الاحتمال فى إيمان المكذبين.

مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

التفسير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ استئناف لذكر أحوال المكذبين بالآيات يقرر انقطاع الاحتمال فى إيمانهم فيبين تعالى أنهم الذين أضلهم عن الحق ليكونوا أهل جهنم .

وأنهم لا هادى لهم من أنفسهم ولا من خارجها، ثم يذكر تعالى أنه يتركهم على ما هم عليه من ضلال وتحير يتخبطون.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

أولا : الإســـــماء:

١ ـ **الساعة** : سبق بيان معناها ومنه أنها اسم لمقدار قليل من الزمان، أنها جزء من أربعة وعشرين جزءا من الليل والنهار، والمراد بها ـ فى معنى الآية ـ يوم موت الخلق، أو يوم قيام الناس، أى يوم القيامة..

٢ ـ **المرسى**: فى قوله تعالى « أيان مرساها » مصدر ميمى من الفعل « أرسى ـ يرسى» بمعنى أثبت وأقر، فهو الإثبات والتقرير.

٣ ـ **الحفىُّ**: فى قوله تعالى « كأنك حفىٌّ عنها » هو المحتفى بالشىء يستقصى أمره بالسؤال والبحث، والعالم بالشىء بعد السؤال عنه والبحث فيه.

ثانيا : التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ جاء بمناسبة سؤال المكذبين بآيات الله رسول الله ﷺ عن الساعة، وقيل فى شأن السائلين إنهم اليهود سألوا رسول الله ﷺ فقالوا « إن كنت نبيا فأخبرنا متى تقوم الساعة» ، وقيل إنهم المشركون سألوه من فرط إنكارهم أنه رسول الله.

ومعنى قوله تعالى « يسألونك عن الساعة أيان مرساها» هو بيان موضوع سؤالهم وهو عن يوم القيامة متى يقع. فـ« أيان » ظرف للزمان والسؤال عن ثبوت الساعة بوقوعها.

ثم إنه تعالى يذكر لرسوله ﷺ ما يجيب به على السؤال » قل إنما علمها عند ربى، لا يجليها لوقتها إلا هو، ثقلت فى السموات والأرض، لا تأتيكم إلا بغتة » بدأ قوله تعالى بأمر

رسوله ﷺ بقول ما جاء في نص الآية.

وتضمن القول عدة إخبارات. أولها أن علم الساعة متى تكون عند ربه تعالى، ويفهم من عبارة القول أن العلم بها هو مما اختص به تعالى لم يطلع عليه أحدا من خلقه.

وثانيها أنه لايجليها لوقتها إلا هو، والمعنى هو أن وقت الساعة يظل خفيا على جميع خلقه إلى أن يكون إظهار هذا أو إجلاؤه للنظر عن طريق الوقوع والحدوث ـ وليس الإخبار ـ منه تعالى في الوقت الذى قدره لقيامها.

وثالثها أن العلم بالساعة ثقيل على السماوات والأرض ومن فيهن ولفرط ثقل العلم بها فإنهم لايعلمونه، أو أن من فى السماوات والأرض يشفقون من الساعة ويخافون شدائدها.

ورابعها أنها لاتأتى إلا بغتة. بمعنى أنها تفجأ الناس فتأتيهم على غرة وهم فى غفلة عنها.

ثم إنه تعالى ينكر على السائلين رسول الله ﷺ سؤالهم عن وقت وقوع الساعة، أو عن كيفية وقوعها بقوله تعالى « يسألونك كأنك خفى عنها» بمعنى أنهم يسألون رسول الله ﷺ كأنه منشغل بالسؤال عنها والبحث فيها لكون ذلك من مقتضيات الرسالة، فيكون مفاد القول أن موضوع السؤال ليس من مقتضيات الرسالة، ولذلك فإنه ﷺ لم يعلم بالإجابة لأنه لم يحفل بمعرفتها.

ثم يأمره تعالى أن يعيد القول بأن علمها عنده تعالى « قل إنما علمها عند الله » تكون إلا عادة تأكيداللمعنى، أو تكون إجابة عن السؤال عن كيفية وقوع الساعة بعد السؤال عن متى يكون وقوعها.

ثم يأتى قوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ « ولكن أكثر الناس لايعلمون» للإعلام بأن أكثر الناس لا يعلمون أنه تعالى وحده الذى لديه علم الساعة، فبعضهم لا يعلم هذه الحقيقة لإنكاره أنه تكون هناك قيامة أو تكون هناك ساعة.

وبعضهم يعتقد فى قيام الساعة ويعتقد أن عند رسول الله ﷺ العلم بوقت وقوعها وكيفية الوقوع جهلا منه وظنا.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾

أولا: الإســـماء:

١ ـ **الخير**: قيل إن المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو الربح فى التجارة، وقيل إنه السعادة، وقيل هو العمل الصالح. وهو أعم من ذلك يشمل كل ما فيه خير ومصلحة. أو هو المصلحة عموما.

٢ ـ السوء: قيل إنه الخسارة فى التجارة. وقيل هو الفقر، وقيل هو العمل السيء.

ثانيا: التفســير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ أمر إلى رسول الله ﷺ أن يقول لهؤلاء الذين سألوه عن وقت قيام الساعة وكيفية وقوعها ما ورد به الأمر أن يقول..

وأوله «لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله» والمعنى أنه ﷺ ينفى أن يكون له بذاته القدرة على جلب النفع لنفسه ودفع الضر عنها بعمل يعمله، بمعنى أن إرادته أو مشيئته ﷺ عديمة الأثر فى تحقيق مراده، ثم إنه يستثنى من هذا ما يشاء الله أن يمكنه منه، فيكون المعنى أنه متى شاء الله تعالى أن يناله خير أو يدفع عنه ضرا فإنه يوفقه إلى العمل الذى يتحقق به هذا فيكون منه ﷺ العمل المثمر.

ومن القول: «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنيَ السوء» هو تأكيد لمعنى أنه ﷺ لا يملك لنفسه جلب مصلحة ولا دفع ضر، وعلة ذلك أنه لا يعلم الغيب، فلو كان يعلم الغيب لما عمل إلا العمل الذى يأتى بنتيجة تحقق له مصلحة، ولكان قد أحجم عن كل عمل لا يكون من ورائه إلا الضرر، ومن ذلك مثلا ألا يقوم بالدعوة إلى الإيمان إلا لمن علم أنه يؤمن، وألا يبدد جهده بدعوة من قدر له ألا يؤمن إلى الإيمان.

وعلاقة القول بسؤال السائلين عن يوم القيامة وقته وكيفية وقوعه. أن المستفهم عنه هو من الغيب الذى لا علاقة له بأساس الدعوة وصلبها، ولذلك فقد أخفى عنه شأن مصائر الأعمال ومآلها، فجميع ذلك مما أخفى عنه فلا يعلم عنه شيئا.

وقوله ﷺ ـ بأمر ربه ـ «إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون» هو تحديد لمهمته التى كلف بها ورسالته التى بعث بها وتحديد لما يكون له أن يعلم به مما تعلق بالتكليف والرسالة، فهو ﷺ ينذر بالقرآن، ومما ينذر به أنه تكون الساعة فيلقى الناس حسابهم، وليس من ضرورات الإنذار بها تحديد وقتها وكيفية حدوثها تفصيلا، ولذلك فإنه لا يعلم عنه شيئا. ثم إنه ﷺ يبشر الناس جميعا بأن من يؤمن منهم يكون له الثواب يوم تقوم الساعة، أو أنه يبشر الذين يؤمنون به أنه يكون لهم الثواب يوم تقوم الساعة. فيكون القول ترغيبا فى الإيمان وتحذيرا من الاستمرار على الكفر والعصيان.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾

التفسير:

لما كان خاتمة قول رسول الله ﷺ هو التعريف بحدود ما كلف به من ربه وهو الإنذار والتبشير، فقد جاء قوله تعالى فى الآية متعلقا بالهدف الأسمى للرسالة والتكليف وهو الإيمان بالله وتوحيده، فجاء قوله تعالى «هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها» مثبتا أنه تعالى وحده هو الخالق لم يشاركه فى الخلق أحد، ثم ذكر تعالى أنه بدأ خلق الإنسان بخلق نفس واحدة، والمراد بالنفس هو آدم عليه السلام، يقول تعالى إنه خلق منه زوجه، بمعنى أنه استخرج حواء من جسد آدم فكان خلقا لها بمعنى الإيجاد من العدم ـ وهو ما لا علم لنا بكيفية حدوثه ـ ثم ذكر تعالى علة خلقه حواء بقوله

تعالى «ليسكـن إليها» أى ليستأنس بهـا فلا يكون فى وحشـة، وتظل هذه هى العلـة لاجتماع الرجل والمـرأة بالزواج. ثم يذكـر تعالى ما كان مـن آدم عليه السلام مع زوجه، ومـا يكون بين الرجـل وزوجه بقـوله تعـالى «فلمـا تغشاهـا حملت حمـلا خفيفا فمـرت به»، والضميـر فى «تغشاها» يعـود إلى آدم عليه السلام، وينصـرف إلى الذكر مـن الزوجين بصفة عـامة يتغشى المرأة بمعنى أنه يجامعها ، فيكون حدوث الحمل بإذن الله كما حملت حواء، يكون فى مبتدأ حاله خفيفا عندما يكون ثمرة التغشى نطفـة أو علقة أو مضغة، لاتثقل به المرأة ولا يمنعها من العمل على نحـو ما كانت عليـه قبل حدوثه لخفته، وتستمـر المرأة على هذا النحـو مدة خفة الحمل التى تمر بها كمرحلة من مراحله.

ثم يذكر تعالى أنه يكون من بعد خفة الحمل ثقله «فلما أثقلت» وذلك عندما يكبر الجنين فى رحم المرأة ويصير ذا ثقل. فيكون من الزوجيـن ما كان من آدم وحواء «دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صـالحا لنكونن مـن الشاكريـن». يشعران أن وقت وضـع الحمل قد دنا، فيكـون منهما الالتجاء إلى الله تعالى متضـرعين بأنه ربهما ﷻ مالك أمرهما سائليـن أن يهبهما نسلا صالحا، يكون سليما معـافى، ويكون فى قادم أيـامه صالحا، متعهديـن أن يكونا من الشاكـرين نعمه تعالى إذا ما أنعم عليهما بالنسل الصالح الذى سألاه إياه.

فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

التفســــــير:

يذكر تعالى ـ فى الآية ـ ما يكون مـن نسل بنى آدم من بعد دعوة الزوجين ربهما أن يهبهما النسل الصالح، فقـوله تعالى «فلما آتاهما صـالحا» معناه أنه لما أتى تعالـى الزوجين النسل السليم المعافى الذى سألاه تعالى أن يهبهما، جعل له هذا النسل شركاء فيما يؤتيه تعالى من النسل، وجاء الفعل فى عبـارة القول «جعلا» ليفيد معنى أن الفاعل اثنان همـا الذكر والأنثى. ونرى أن المعنى يقبل أن يكون فعل إشراك غير الله فى النسل هو فعل الزوجين اللذين سألا الله أن يهبهما النسل الصالح، يجعلان لله شركاء فيه بجعل نسلهما على غير دين الحق .

وقوله تعالى «فتعالى الله عما يشركون» هو تنزيه له جل وعلا عن أن يكون له شركاء فيمن خلق تضمن معنى التعجب من هؤلاء الذين يشركون به، جاءت الفاء في «فتعالى الله» لترتيب التعجب على ما ذكر من آياته في خلق الناس من نفس واحدة جعل منها زوجها، وما تبع ذلك، مما كان يستوجب توحيده من الخلق الذين أشركوا به .

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾

التفسـير:

قوله تعالى في المشركين جاء في صيغة استفهام إنكارى لفعلهم فهم يشركون بالخالق المستحق العبادة ما لا يخلق شيئا، مما مفاده أنه ليس له حق فى أن يعبد، يتساوى فى هذا الأصنام والكواكب والبشر الذين يعتبرهم المشركون أربابا من دون الله أو معه. ويبين سبب إنكار فعلهم عليهم والتعجب منه أن جميع ما يعبد من دون الله أو معه هو من المخلوقات التى وجب عليها أداء العبادة لخالقها، فكانت الحماقة من المشركين بعبادتها .

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾

التفسـير:

القول فى كل معبود من دون الله تعالى يعبده المشركون الذين أنكر عليهم عبادة ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون، يذكر تعالى أن معبودات المشركين ليس بها قدرة على نصر المشركين ومؤازرتهم، وأكثر من هذا أنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم. فلم تستطع الأصنام المعبودة أن تدفع عن نفسها تحطيم إبراهيم عليه الصلاة والسلام إياها، وجميع الأجرام السماوية لا تستطيع أن تحمى نفسها مما يعرف بالثقوب السوداء فى السماء التى تبتلع أى جرم يقترب منها، والمسيح عيسى ابن مريم لجأ إلى ربه مصليا داعيا أن ينجيه من كيد بنى إسرائيل ومن ناصروهم عليه من الرومان، مما مفاده أن معبودا من دون الله لا يملك لنفسه شيئا إلا أن يريد الله .

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

التفســـــير :

قوله تعـالى - فى الآيـة - فى بيان انعدام قـدرة المعبودات من دون الله تعالـى على شىء. فيذكر تعالـى أن المشركين إذا دعوهم لكى يرشـدوهم إلى طريق فيه فـلاح لهم لا تكون منهم الإجابـة، وما ذلك إلا لانعـدام قدرتهم على شـىء. ثم يثبت تعـالى أن الطلب منهـم تحقيق شىء للمشركيـن وعدمه يستويان فى النتيجـة، وما ذلك إلا لانعدام القدرة والمشيئـة الخالقة لدى هذه المعبودات .

وقيل إن الضـمير فى «تدعوهـم» يعود إلى رسول الله ﷺ والمؤمنين، فيكون المعنى أنهم إذا دعوا المشركين إلى طريق الهدى لا يكون من المشـركين اتباعهم، وهذا غير صحيح، لأنه لو كان هذا هو المعنى لكـان قوله تعالى «سواء عليهم» وليس «سواء عليكم» كمـا جاء فى قوله تعالى «سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم» .

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

التفســـــير:

قوله تعـالى - فى الآية ـــ تبكيت للمشركين، جاء فى مبتـدئه تقرير بواقع مفـاده أن كل ما يعبد من دون الله هو من عباد الله تعالى يتماثل فى هذا مع عابديه.

والمعنى أنه ليس له حق فى أن يعبد، لأن المماثلة بينه وبين عابديه فى كون الجميع عباد الله تعالى تقتضى ألا يكون لأحـدهم حق فى أن يعبد على الآخرين ، وتـوجب على الجميع

عبادة الخالق.

ثم يجيء قـوله تعالى « فادعوهـم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين» تعجيـزا للمشركين عن الإيتان بدليل يثبـت أن لشركهم سندا من العقل، أو أن زعمهم يحتمل صحـة. فهو تعالى يأمر أن يدعو معبوديهم بطلب وأن ينتظروا الإجابة منهم.

وذلك لإقامـة الحجة عليهم ـ تستفاد مـن عدم إجابة الدعـاء ـ بأن قولهم إنهـم آلهة قول مكذوب.

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

التفســــــــير:

لا يزال قوله تعالـى فى تبكيت المشركين على اتخاذهم مـن دون الله معبودات، ويبدو أنه من بعد ذكره تعالى وجود المماثلة بين المعبودات وبيـن عابديها المشركين جاء قوله تعـالى ـ فى الآية ـ لإثبات دونية المعبودات عن عابديها.

والظاهر أن المعبودات المشار إليها هى الأصنام التى كـان يعبدها مشركو العرب على ما يبين من ذكر انعـدام قدرتها على ما يقدر عليـه البشر، ومن أمره تعالى رسـول الله ﷺ مشركى العرب عابدى الأصنام إلى المحاجة.

ومعنى قوله تعالى «ألهم أرجل يمشون بهـا، أم لهم أيد يبطشون بها، أم لهـم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعـون بها» هو إثبات لأمريـن، حاصل أولهما هو دونيـة الأصنام المعبودة عن عابديها المشركين، إذ جعل المشركون لأصنامهم أرجلا وأيادى وأعين وأذانا كما جعل الله للمشركين هذه الأعضاء فأما الأصنام فهى لا تمشـى بهذه الأرجل، ولا تأخذ بالأيدى شيئا ولا تدفع بها شيئا، ولا تبصـر بالأعين ولا تسمع بالآذان، وأما المشركون فهـم يمشون بأرجلهم

ويبطشون بأيديهم، ويبصرون بأعينهم ويسمعون بآذانهم، فثبت أن الأصنام هم دون المشركين منزلة وقدرا. وحاصل ثانيهما أنه تعالى الذى أودع القدرة فى الأشياء أن تتأثر وتؤثر، فليس ما يخلق تعالى مثل ما يصنع غيره، يظل هذا إلى الأبد.

وإنك لتنظر إلى ما أبدع العلماء بصنعهم الإنسان الآلى والحاسبات بأنواعها، لا تملك ذخيرة من العلم بذاتها تحصله مثل الإنسان، وإنما يكون لها ما يضعه الإنسان فيها من معلومات، يستدعيه منها بإرادته لا بإرادتها.

ثم إنه تعالى يأمر رسوله ﷺ بتحدى المشركين أن يصيبوه بضرر مستعينين عليه بمعبوداتهم فيقول تعالى: «قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون» فهو ﷺ يدعو المشركين إلى الاستعانة بأصنامهم عليه يكون منهم جميعا التدبير للإضرار به وعدم إمهاله فى هذا.

والمراد من الدعوة هو التدليل على عدم اهتمامه ﷺ بالمشركين وبمعبوداتهم لانعدام حيلتهم والمقدرة.

إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ ذكر لعلة عدم اهتمامه ﷺ باستعانة المشركين عليه بمعبوداتهم فذكر تعالى أن رسوله الكريم ﷺ يعلم المشركين أن متولى أمره وناصره هو الله تعالى، ولما كانت ولاية الله تعالى له من توابع الرسالة فإن القول يكون مشيرا إلى أنه ﷺ رسول رب العالمين.

وجاء ـ فى القول ـ ذكره تعالى بأنه «الذى نزل الكتاب» أى الذى نزل القرآن، لبيان أن القرآن العظيم هو الفارق بين الحق والباطل.

ثم جاء قوله تعالى «وهو يتولى الصالحين» إثباتا لواقع أنه تعالى ينصر الصالحين الذين آمنوا بالكتاب وعملوا به، وأولهم ﷺ، ومنهم المؤمنون.

وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾

التفسـيـر:

القول تـأكيد لانعـدام قدرة معبـودات المشركين علـى شيء وإثبـات لجهل مـن يلجأ إليهم، وبيان فوق بيان لعلة عدم اهتمام رسول الله ﷺ بـاستعانة المشركين بهم عليه . ومفاد القول أنهم إذا ما دعاهـم المشركون عابدوهم إلى طلب تكون به نصـرتهم، لا يقدمون لهم شيئا من النصـرة لانعدام القدرة لديهـم على نصرهم، فضـلا عن عدم قدرتهـم على نصرة أنفسهم ودفع المضرة عنها. على ما سبق بيانه.

وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

التفسـيـر:

الخطاب فى الآية إلى المشركين ومفاد القول أنهم إذا دعوا معبوداتهم لكى يهدوهم إلى أمر من الأمور فيه مصلحة لهم لا تكون منهم إجابة.

وجاء التعبير عـن عدم الإجابة بعـدم السماع ليكون التعبير أبلـغ فى التدليل علـى انعدام قدرة المعبـودات على شىء ، فهـى أعجز عن أن تسمـع دعاء الـداعين فيكون محققـا عدم إجابتهم شيئا من الدعاء.

وقيـل إن المخاطبيـن بالنـص هم المـؤمنون، أعلمهـم سبحانـه وتعالـى أنهم إذا دعـوا المشركين إلى الإيمان فإنهم لا يقبلون.

ثم وجه تعـالى الخطاب إلى كـل فرد من أفراد المشـركين فقال « وتراهـم ينظرون إليك

وهم لا يبصرون» وفيه تقرير بأن معبودات المشركين لا تقدر على الإبصار كما أنها لا تقدر على السماع، فهو إثبات لانعدام الحول لديهم والقدرة.

وقيل إن الآية وما سبقها نزلت لما حاول المشـركون تخويف رسول الله ﷺ، باللجوء إلى معبوداتهم للإضرار به، فنزلت الآية لإثبات أنهم يخوفون بما لا يخشى منه شيء.

وقيل إن الخطاب في القـول لرسول الله ﷺ ، وإن القول في المشركين، أخبـر تعالى أنهم ينظرون إليـه وإلى مـا أمده الله بـه من الآيات الـدالة علـى نبوتـه، لكنهم لا يبصـرون الحجة والدليل.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾

أولا: الأسمـــاء:

١ ـ **العفو**: قيل إنه ما سهـل وتيسر من أخلاق الناس، وقيل هو العفو عـن المذنبين، وقيل هو ما عفى عنه الناس من أموالهم للتصدق به، كان قبل فرض الزكاة.

٢ ـ **العرف**: هو ما تعارف عليه الناس في شئون المعاملات مما أقره الشرع.

ثانيا : التفسـير:

قوله تعالى ــ في الآية ـ في بيان مكارم الأخلاق في المعامـلات، جاء الخطاب فيه إلى رسول الله ﷺ بوصفه رأس الأمة، فيكون لأولى الأمر من بعده وللمؤمنين. فيه أمر بالعفو عمن يخطيء في حق المرء مع القدرة على الرد، وذلـك مالم يكن في خطأ المخطيء اعتداء على حق مـن حقوق الله ـ لأولـى الأمر ـ أو اعتـداء على حق الغيـر، وفيه أمر بـالأخذ بأحكـام ما تعارف عليـه الناس في معـاملاتهم ممـا أقره الشـرع وفيه أمر بـالإعراض عن السفهـاء من الناس وبالحلم بهم وعدم شغل النفس برد إساءاتهم إليهم.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾

أولا : الأســـــماء:

النزغ: في قـوله تعالـى « وإما ينـزغنك من الشيطـان نزغ » هو النسـغ، وهو النخـس، وهو إدخال الطـرف الحاد مـن قضيب صلب فـى الجلد. فمنه دخـول الإبرة أو طـرف العصا أو السكين فى الجلد. والمراد بـه ـ فى معنى الآية ـ ما ضؤل من فعـل الشيطان مع العبد أو من وسوسته.

ثانيا: التفسير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى نصح المؤمنين بما يكون منهم إذا ما سولت للمرء نفسه بفعل معصية، أعلمهم سبحـانه وتعالى أنهـا تكون من وسوسـة الشيطان ، مثلها تخويفهـم بما لا يخشى منه.

وقوله تعـالى إظهار لما يجـب على المؤمن فعله وهـو الالتجاء إليه تعالـى والاستجارة به ليدفع عنـه كيد الشيطان. ثم أثبت تعالـى أنه يسمع استجارة المستجير فيجيـره من الشيطان بما علم أنه يرجوه مما وقر فى قلبه فعلم به تعالى، سواء أنطق به المستجير أم لم ينطق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾

التفســـير:

جاء قوله تعالى ــ فى الآية ــ من بعد أمره المؤمنين بالاستعـاذة به تعالى من الشيطان إذا ما وسوس إليهم بشـىء. وفى قوله تعالى يبين فعـل المتقين الذى يتقون عذابه تعـالى باتقاء غضبه بارتكـاب المعصية، فيذكر أنهم إذا ما وسـوس لهم الشيطان بشىء تذكروا مـا أمرهم به تعالى من الاستعاذة به على الشيطان ووسوسته فتعوذوا ما نهاهم عنه ربهم من المعاصى فتجنبوه، فيكون منهم إبصـار الحق وتمييزه عن الباطل. فلا يقعون فيمـا أراد بهم الشيطان من

فعل السوء .

﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ ٢٠٢

أولا: الأســماء:

الغى: هو الغواية تكون بالشر أو بالمعصية ، وهو الإغواء.

ثانيا : التفســير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى بيان ما يكون بين غير المتقين وبين الشياطين. فإخوان الشياطين غير المتقين يساعدون الشياطين على إضلال الخلق بتزيين الباطل والمعاصى للناس ليمدوا الشياطين بالأتباع. وهم فى فعلهم هذا لا يكفون عن فعل يقدرون عليه. فكأن ما يقومون به هو واجب عليهم لا يقصرون فى أدائه. ويقبل المعنى أن يكون السادرون فى الغى هم غير المتقين ويكون إخوانهم هم الشياطين لا يقصرون فى إغوائهم لفعل المعاصى.

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ٢٠٣

التفســــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ موجه إلى رسول الله ﷺ. وهو فى شأن ما كان يقع من المشركين معه ﷺ عندما يتأخر عنه الوحى . إذ كانوا يقولون له «لولا اجتبيتها» بمعنى هلا جمعت عبارة آية فتذكرها، أو هلا طلبت من ربك أن ينزلها إليك، وقولهم هذا يتضمن إنكارا لكون الآيات منه تعالى وفيه تلميح إلى اختلاقها من قبل رسول الله ﷺ ـ بزعمهم الباطل ، ثم إنه تعالى يأمر رسوله ﷺ بأن يقول لهؤلاء المشركين « إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى » والمعنى هو أن

واجبه فيما يتعلق بإبلاغ الآيات مقصور على اتباع ما يوحى به إليه من ربه، فهو لا يتعجل ربه تعالى أن ينزل عليه الآيـات ولا يقصر فى الإبلاغ بها. ويتضمن القول إعلامـا بأن وسيلة نزول الآيات عليه هى الوحى منه تعالى.

ثم يجىء قوله تعالى « هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» والقول يتصور فيه أن يكون قوله تعالى، ويتصور أن يكون قول رسول الله ﷺ يقوله لهم بأمر ربه

وفيه أشار اسم الإشارة «هذا» إلى القرآن العظيم ، أخبـر عنه تعالى بأنه بصائر من ربكم، بمعنى أنه وسيلـة إبصار القلوب الحق وإدراكه، ثم ذكـر تعالى أنه هدى ورحمـة للمؤمنين، بمعنى أنه يكون لجميع العباد وسيلة إظهار الحق، ويكون لمن اهتدوا به هو الهدى.

وذلك لأنهـم وحدهم الذيـن يهتدون به إلـى الحق، وتكون لهـم به الرحمة فيكـون لهم رحمة مـن ربهم يخرجون بـه من عداد الكافـرين إلى زمرة الآمنيـن الذين يشملهم سبحـانه وتعالى برحمته.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٢٠٤﴾

التفســـير:

بعد أن أوضح تعالى أن القرآن العظيم هو هدى ورحمة للمؤمنين ، فإنه تعالى ـ فى الآية ـ أوضـح للمؤمنين كيـف يكون الاهتداء بـالقرآن العظيـم بتوقيره لأن التـوقير هو الـذى يكفل الفهم والتدبر. فأمر تعالى بأن يكون لـدى تلاوة القرآن على المؤمنين أن يكون منهم الاستماع بالقلوب والإنصات بالسكـون والسكوت ليكون الفهم ويكون التدبر، فتكون الطـاعة بالعمل بأحكامه فتكون رحمته تعالى للسامعين.

والقول يفيد أن القرآن إذا قـرىء فى الصلاة جهرا وجب الاستماع إليـه فى خشوع، وإذا قرىء فى غيـرها وجب الاستماع إليه والسكوت، فيكـون مفيدا جواز القراءة به جهـرا فى غير الصلاة ، مع ما هو معروف من إجازة قراءة القرآن سرا فى غير الصلاة.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾

أولا: الأســـــماء:

١ ـ **الغدو:** جمع، مفرده « غدوة» وهـو « الغدوات» جمع « غدوة» أيضا وهو مـا بين صلاة الغداة وطلوع الشمس .

٢ ـ **الأصال:** جمع الجمـع ، فهى جمـع «أُصل» وهى جمـع « أصيل» وهـو الوقـت بين العصر وغروب الشمس.

التفســـــير:

قوله تعـالى ـ فى الآيـة ـ أمر إلى رسول الله ﷺ بصفتـه قدوة المؤمنين، فيكـون الأمر لهم جميعا، والأمـر يكون بـذكر الله تعالـى فى القلب، يكـون تضرعـا إليه تعالـى، طلبا لمغفـرته ورحمته تعالى ويكون خوفا من غضبه تعالى وعذابه.

فيكون القول فـى بيان حال الذاكر وفـى بيان الدافع على الذكـر لديه. ثم إنه تعـالى يبين كيفية الذكـر بقوله تعالـى «ودون الجهر من القول» والمراد بهـذا هو الذكر الـذى يجرى على اللسان . يكـون بدرجة هى دون الجهـر بالذكر أو أدنـى منه، وقيل هـو بإسماع الذاكـر نفسه. فيكاد القول أن يكون نهيا عن الجهر بالذكر، وذلك لما هو متفق عليه من جواز أن يكون الذكر فى القلب يتردد فيه وأن يخافت فيه.

ثم إنـه تعالى خـص وقتين بالنـص يكون فيهمـا الذكر، همـا : الغدو والآصال ، لأنـه فى الغدوة ينقلـب الإنسان من حال النـوم إلى حال اليقظـة، وفى الأصيل يكون الاستعـداد إلى السكون، وفـى الوقتين يكـون الانشغال بشئون الحيـاة قليل فيكون مكـان الذكر فـى القلوب واسعا.

ولا يعنى خص الوقتين أن الذكر لا يكون فى غيـرهما، و إنما المراد به الحث على الذكر

فيهما لأنهما الأنسب لتحقيق ما يراد به ومنه.

وجاء قـوله تعالـى ـ فـى نهاية الآيـة ـ « ولا تكن مـن الغافليـن» نهيا عن إغفـال ذكر الله تعالـى، فهو نهى من النسيـان، ولما كان النسيان هـو مما لا يملك المـرء بشأنه شيئا، فـإنه يكون المراد من النهى هو بذل الحرص لأداء ما أمر به تعالى من ذكره فى كل وقت.

إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

أولا: الأســــــــماء:

الذين عند ربك : المراد بهم ملائكة الملأ الأعلى. فهم القريبون منه تعالى، والقرب قرب رضاء وليس قرب مكان .

ثانيا : التفســــــير:

يذكر تعالـى لرسوله ﷺ والمؤمنين أن المـلائكة المقربين من رضائه مـن الملأ الأعلى لا يستكبرون عن عبادتـه تعالى، و إنما يؤدون عبادتـه على أكمل وجه كما أُمروا، وأنهـم ينزهونه جل وعلا عما يليق بذاته العليا، وأنهم يخضعون له و يتذللون وله يسجدون.

وفى ذكر السجود ـ فـى الآية ـ وهو غاية الخضوع ودليل العبوديـة، دليل على أنه لا إيمان لمن لا يسجد له تعالى . ثم إنه لما كان السجود ركنا فى الصلاة.

فقد ظهر أن الصلاة عماد الـدين. ثم إنه كان ختام الآية موضـع سجدة، ليكون من قارىء القول وسامعه الطاعة والسجود امتثالا للأمر.

■■■■■

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنفـــال

فى العلاقة بينها وبين سورة الأعراف :

الراجح أن وضع السورة فـى المصحف الشريف ليس توقيفا عنه ﷺ وأنـه فعل عثمان بن عفان رضـى الله تعالـى عنه، وكان دافعـه على وضعهـا قبل سورة «بـراءة» أو «التوبـة» مع أن «براءة» من السبع الطول هو خشية التوهم أن وضعها كان توقيفا عن رسول الله ﷺ الذى قبض إلى ربه تعالى قبل أن يبين موضع كل من السورتين فى المصحف. ومع ذلك فإنه يبين وجود أوجه تربط بين السورة وبين سابقتها، استخلصه السابقون، ونوجزه فيما يأتى.

١ ـ جـاء فى سورة الأعراف أمـره تعالى رسولـه ﷺ والمؤمنين بـالأخذ بالعرف الـذى يقره الشرع «وأمـر بالعرف» ، وفـى السورة جاء ذكر بعـض صور العرف الـذى أقره الشرع مثل عدم خيانة الأمانة «لا تخونوا الله والرسول وتخونـوا أماناتكم» و «إن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق».

٢ ـ جـاء فى سورة الأعـراف بيان مـا كان بين الأنبيـاء وأقوامهم مـن قبل بعثتـه ﷺ، وفى السورة جاء ذكر ما كان بينه ﷺ وبين قومه.

٣ ـ جاء فى سورة الأعـراف تفصيل قصة آل فرعون مع نبيه موسى عليـه السلام ومن ماثل آل فرعـون فى الكفـر وعدم الإيمان مـن الأقوام. وفـى هذه السورة جـاء إجمال حـال هؤلاء جميعـا بقولـه تعالـى «كدأب آل فـرعون والـذيـن من قبلهـم كفروا بـآيات الله فـأخذهـم الله بذنوبهم».

٤ ـ أشار تعالـى ـ فى سورة الأعراف ـ إلـى سوء اعتقاد المشركين فى القـرآن العظيم بقوله «وإذا لـم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها». وفى السورة جاء التصريح بما كانوا يقولون فى القرآن

العظيم تعبيرا عن اعتقادهم بقوله تعالى «وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين» .

٥ ـ ذكر تعالى ـ فى سورة الأعراف ـ فى شأن القرآن العظيم أنه هدى ورحمة، ثم أتبع ذلك بأمره المؤمنين أن يستمعوا إليه وينصتوا ، وفى هذه السورة ذكر تعالى حال المؤمنين عند سماعهم القرآن العظيم وتلاوته عليهم بقوله تعالى «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون» .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ①

أولا: الأسماء:

الأنفال: جمع ، مفرده «النافلة» وهى عطية التطوع، وهى ولد الولد، وهى الغنيمة. وهذا هو المراد بها فى معنى الآية .

ثانيا : التفسير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ «يسألونك عن الأنفال» هو تقرير لواقع توجه المؤمنين إلى رسول الله ﷺ بسؤال فى شأن الأنفال ـ وهى الغنائم التى غنموها فى موقعة بدر ـ وموضوع السؤال كان فى شأن قسمتها بين المسلمين، وقيل فى هذا إن المسلمين سألوا رسول الله ﷺ كيف تقسم، ولمن يكون الحكم فيها من بين المهاجرين والأنصار، أو الفريقين. وقيل إن أسباب نزول الآية أنه ﷺ كان قد وعد من يقتل قتيلا بشىء من الغنائم فوق سهمه، ومن أسر أسيرًا بشىء منها فوق سهمه، فجاء من المسلمين من سأل نصيبه الموعود به ممن قتلوا المشركين ومن أسروهم ورأى غيرهم أنهم قد شغلوا عن القتل والأسر بحراسة رسول الله ﷺ وبحماية ظهر المقاتلين، وحدث الخلاف والشجار بين الطائفتين، فنزلت الآية .

وجاء قوله تعالـى «قل الأنفال لله والرسول» إجابة على سؤال المـؤمنين، ومفاد الإجابة أن صاحب الأمر فى الأنفـال وصاحب الحكم فى توزيعها بين المسلميـن هو مما يختص به الله تعالى ورسوله ﷺ، فما يقوله رسول الله فى شـأنها يكون هو حكم الله تعالى يسمع ويطاع دون أن يكون لأحد فيه رأى يُرى ولا قول يُسمع. وقيـل إن معنى القول هو أن الأنفال جميعها تكون لله ولرسوله ﷺ،والقول الأول هو الأرجح، ويؤيده ـ كما قيل ـ أنه ﷺ لم يستجب لطلب سعد ابن أبى وقاص لما ثـأر من قاتل أخيه عمير وأخذ منه سيفه وطلبـه هبة من رسول الله، وأنه ﷺ طلب منه أن يضعه مع سـائر الغنائم، فلما نزلت الآية قال له رسـول الله ﷺ «خذ السيف فإنه صار لى». ونـرى أن هذه الواقعة كمـا تصح دليلا على أن أمـر توزيع الغنائم هـو لله والرسول، فإنها تصح دليـلا على أن ملكية الغنائم تكون لله وللرسول، فيكـون إعطاؤه ﷺ السيف لسعد رضى الله عنه هو من قبيل التصرف فى الملك بالهبة. والراجح هو المعنى الأول .

وقوله تعالى «فـاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم» هو أمر للمؤمنين باتقاء غضبـه تعالى بوقوع الخلاف بينهم بسبـب الغنائم وبإطاعتـه ﷺ فيما يقضى به فـى شأن الغنائم وقبولـه باعتباره مظهرا حكم الله تعالى فيهـا، وأمر بأن يصلحوا ما وقع بينهم من شقـاق بسبب قسمة الغنائم، وهو مـا يكون برد كل منهـم ما فى يده مـن الغنائم إلى رسـول الله ﷺ فتصفوا بذلك قلـوبهم ليكون أمره ﷺ فيها .

ثم يجىء قوله تعالى «وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين» وهو أمر بالطاعة فى كل ما يأمر به تعالى ورسوله ﷺ ومنه الطاعة فيما يكـون منه ﷺ فى شأن الغنائم التى كان السؤال عنها، يكون بقبول الأمر والرضا به.

والمستفاد منه أنه أمـر بطاعته تعالى فى شـأن الأوامر الثلاثة الواردة فى الآيـة وهى: تقوى الله، و إصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله .

وقوله تعالى «إن كنتم مؤمنين»، يفيد معنيين:

أولهما: أن من يلتزم الطاعة فى شأن الأوامر الثلاثـة هو من كمل إيمانه وصدق برسول الله ﷺ، وثانيهمـا هو الحث علـى التزام هذه الطـاعة، لأنـه ما من مـؤمن إلا ويجب أن يـوصف بالإيمان .

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾

التفســـــــير:

قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ فى المـؤمنين الذيـن كمل إيمانهم وصـح، يذكر تعالـى بعض أحـوالهم إذا مـا استقر الإيمـان فـى قلوبهـم فهـم إذا ذكر الله تعـالى فـى حضـرتهم أو علـى مسامعهم وجلت قلوبهم فـامتلأت بالفزع استعظاما لشأنه تعالى وتهيبـا من عدم نيل رضائه، ولا ينافى هـذا أنه تعالى قـال «ألا بذكر الله تطمئن القلـوب» ففزع القلوب من ذكـر الله هو فزع خشوع وشعور بـالضعف والهوان أمام ملك الموت ومـا أجمله خشوعا يشعر بـالقرب ممن لا يخشى إلاه، ولا ينال مـن هو فى حماه أذى، يـدركه المؤمنون فتطمئـن به قلوبهم، وأعظـم ما تطمئن به هو خوفهم ألا يكونوا من عباده، فالخوف وليد إيمان، والإيمان سكن القلوب .

كذلـك يذكر الله من أحـوال المؤمنين الذيـن كمل إيمانهـم أنهم إذا تليت عليهم آيـاته، والمراد هو آيات القرآن العظيم زادتهم إيمانا. وقيل فى هذا إن الإيمان يقبل الزيادة فيه، وقيل إنه لا يقبل و إنما تكون الزيادة فى الطاعات وتجنب المعاصى. ولعل الصحيح هو أن المؤمن الذى كمل إيمـانه يؤمن بمـا أمر تعالى أن يكون الإيمـان به ولكن التفاوت فـى درجة الإيمان يكون بالإحساس الذى فـى القلوب بما هو فى آيات القرآن العظيم يكـون لدى تلاوتها ولدى سماعهـا، تختلف درجـة الإحساس بهـا حتى لتكـاد تبلغ حـد الرؤيـة، حتى إن المـرء ليجد إحساسا جـديدا كلما تلى ذات الآية أو سمعها يـدنيه أكثر من رب العزة، فيكون كلمـا دنا قد ازداد إيمانا، لأنه يكون تقريبه إذن ربه .

وقوله تعـالى فى المؤمنيـن إنهم على ربهم يتـوكلون هو ذكر لـواقع حالهم مـن تفويضهم أمورهم إليه تعالى ولـو كانت ـ على الظاهر ـ فى أيدى العباد، فـالمؤمن لا يعتمد إلا على ربه لإيمانه أنه وحده كالئوه ومالك أمره فى الدنيا والآخرة .

■■■■

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ٣

التفســـــير:

قوله تعالى جاء صفة أخرى للذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، فهى متعلقة بفعالهم بعد أن ذكر تعالى دخائل قلوبهم، فيقبل القول وسابقه أن يكونا مدحا للمؤمنين .

وفى فعال المؤمنين خص تعالى عبادتين بالـذكر فى الآية، الأولى هى إقامة الصلاة، وهى عبادة إيجابية جسديـة بمعنى أنها تتطلب فعلا يقوم به الجسد مـع استحضار القلب، والثانية هى الإنفاق مما رزقه تعـالى، وهى عبادة إيجابية مالية، فالمقصـود هو الإنفاق فى سبيل الله، والإنفاق على من ذكر تعـالى وجوب التصدق عليهم. وشرط قبول العبادتيـن هو الإيمان ، ثم إنه لما كانت الصـلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فإن ذكر إقامـة الصلاة يكون متضمنا معنى الانتهاء عما أمر تعالى بالانتهاء عنه، وتجنب المعاصى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ ٤

التفســـــير:

بعد أن ذكر تعالى أوصاف المؤمنين التى هى مدح لهم أشار تعالى إليهم فى الآية وأخبر أنهم ـ باجتماع الإيمـان فى قلوبهـم مع العمـل الصالح بجـوارحهم وأدائهم الطـاعات ـ المؤمنون حقا، بمعنى الذين كمل إيمانهم على الحقيقة، ثم إنه تعالى أخبر عنهم خبرا ثانيا، وهو أن لهم عنده تعالى درجات يعلو بعضها فـوق بعض ـ وكلها درجات سامية ـ ويتصور أن تكون هـذه الدرجات متعلقة بسمـو معنوى فى المكانـة ، كما يتصور أن تكون متعلقـة بسمو مادى فى النعيم. ولاشك أن هذه الدرجات موجـودة فى الآخـرة أو فى الجنة، وأنها موجــودة ـ كدرجات معنوية ـ فى الحياة الدنيا.

كما أثبت تعالى أنه تكون لهم المغفرة لما يكون قد وقع منهم من أخطاء هى من طبيعة البشر، وأنه يكون لهم من لدنه تعالى رزق كريم، هو رزق الجنة يجمع كل محمود من الرزق، كثير لا ينقطع لأن مانحه أكرم الأكرمين.

ويستفاد من وصفه تعالى الذين آمنوا وعملوا بالطاعات بأنهم المؤمنون حقا، أنه ليس لأحد أن يصف نفسه بأنه مؤمن حقا، فهو وحده الذى يملك الحكم فى شأن اعتبار المرء مؤمنا حقا، ليس لغيره أن يقضىَ به.

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾

التفســـــير:

بعد أن وعد تعالى المؤمنين حقا بالدرجات عنده تعالى والمغفرة والرزق الكريم، جاء قوله تعالى «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق» جاءت «كما» لبيان المماثلة بين الموعود به، وبين الموعود به عند إخراجه تعالى رسوله ﷺ، وهو وعد يفترض أن يكون قد تحقق وعلم المؤمنون ذلك ليكون تيقنهم من تحقق الوعد بالدرجات والمغفرة والرزق الكريم، والوعد الذى تحقق هو الوعد بالنصر والغنيمة كان بعد أن أخرجه ﷺ ربه من بيته فى المدينة لملاقاة المشركين فى بدر متلبسا بالحق ومدافعا عنه، كان المسلمون يعتقدون أنهم ملاقون عيرا عليها تجارة فلا يلقون قتالا مع جنود مسلحين، فلما علموا أنه قد أتى القوم مدد من مكة كره فريق من المؤمنين ذلك - من بعد خروجهم - لخوفهم من القتال بحكم الطبيعة البشرية وليس عن كراهة الدفاع عن دين الله تعالى، وهو ما أشار إليه تعالى بقوله «وإن فريقا من المؤمنين لكارهون»، ثم كان للمؤمنين النصر على أعدائهم وغنم الغنائم.

وهو ما أدرك المؤمنون تحققه، فيكون التمثيل بهذا الذى تحقق لوعده بالدرجات والمغفرة والرزق الكريم مفيدا معنى تحقق الموعود به. وقيل إن الخروج المذكور فى الآية هو خروجه ﷺ من مكة، أعقبه نصره ﷺ وظهور الإسلام فى المدينة.

﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ ﴾

التفســـــير:

قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ فى فـريق المؤمنيـن الذى كره القتال فـى بدروكان يريـد العير وحدها بغير عليها، فلما علم أفراده أنه يكون قتـال بينهم وبين المشركين قالوا لرسول الله ﷺ لقد خرجنا للعير، فكان هذا جدالا منهم لرسول الله فـى الحق، وهو أمر ربه تعالى بالقتال، مع علمهم أنه ﷺ لا يقول إلا بأمر ربه.

ويصف تعالى حالهم بـأنهم شابهوا الذين يساقون إلى الموت عـالمين أنهم ملاقونه، والمراد بـالتشبيه إظهار مـا كانوا عليـه من الخوف والـذعر لدى علمهـم أنهم ملاقـون عدوا مستعدا للقتال.

﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ ﴾

أولا: الأســـــماء:

الشوكة : هى السلاح .. والشوك هو النبت الذى له حد.

ثانيا: التفســـير:

قوله تعالى ـ فـى الآية ـ فى وصف ما كان منه تعالى مع المـؤمنين فى بدر، وإظهار إرادته التى تحققـت فقولـه تعالـى « إذ يعدكـم الله إحدى الطـائفتين أنهـا لكم» مفـاده أن وعده للمؤمنين كان بالسيطـرة الشبيهة بسيطرة المالك على ملكه، تكون لهـم على العير أو النفير،

بمعنى أن تكون على قافلة التجارة التى ليس فيها مقاتلون، أو على المقاتلين الذين أتوا مددا للحماية. ثم يذكر تعالى أن رغبة المؤمنين كـانت ملاقاة العير، وصفها تعالى بأنها غير ذات الشوكة « وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم» وجاء وصفـه تعالى إياها بهذا لأنها كانت عارية مـن المسلحين، ومعنى أن المؤمنين أرادوا ملاقـاة العير دون النفير، هو أنهم مـالوا إلى السهل اللين من الفعل.

ثم إنـه تعالى يظهـر أن إرادته كانت بخـلاف هذا، وهو مـا تحقق، إذ أراد تعالـى أن يحق الحق بكلماته، بمعنى أنه أراد أن يظهر أن دينه هو الدين الحق، يكون ذلك بأمره تعالى بنصر المـؤمنين ، فكـان النصر منـه تعالـى بالكلمـة وحدهـا، أو بها وجههـا إلى المـلائكة فـآزروا المؤمنين فانتصروا . كما أراد أن يهلك الكافرين بالقتال.

لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

التفسـيــر:

قوله تعالـى ـ فى الآية ـ إظهار لعلـة إرادته تعالى أن تكون للمؤمنيـن الفئة ذات الشوكة وليست الفئة غير المقاتلة من المشركين، وهى أنـه تعالى أراد أن يظهر الحق وهو دينه تعالى ينصره ويعلـى شأنه ، وأن يقضى علـى الكفر والشرك به تعـالى، وهو البـاطل، يبطله بإعـدامه والقضاء عليه.

ثم إنـه تعالى يبيـن أنه فـاعل هذا رغـم أنف المشركيـن الذيـن يكرهون انتصـار دين الله والقضاء على الشرك. وصفهم تعالى بالمجرميـن، لبيان أن الشرك إجرام فى حقه تعالى، وفى حق المشرك.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾

أولا: الأســـــماء:

المردفون: فـى قولـه تعالـى « أنى ممـدكم بـألف مـن الملائكـة مردفيـن» جمع، مفـرده «المردف» من «الردف» «والردفين» مؤخرة المرء. بمعنـى أن كلامهم قد جاء خلف آخر وتبعه فكان ردفا له، أو كان الآخر قد أردفه أي جعله من خلفه.

ثانيا: التفســـــير:

قوله تعالى - فـى الآية - ذكر لما وقع فى معركة بدر حيـن شعر المؤمنون بضعفهم لقلتهم عن ملاقـاة عدوهم إذ كان عدد المسلمين ثـلاثمائة وسبعة عشر رجلا، على حيـن كان عدد المشركيـن نحو ألف رجـل، فكان من المؤمنيـن أن استغاثوا ربهـم بمعنى أنهم طلبـوا منه الغوث والنصر. والذى استغـاث ربه هو رسول الله ﷺ، استقبل القبلة ومد يـديه وجعل يهتف بربه « اللهم أنجز ما وعدتنى.

اللهم إن تهلـك هذه العصابـة من أهل الإسـلام لا تعبد فـى الأرض» ناب عن المـؤمنين جميعهم فى الاستغاثة بالله ربه فنسب الفعل للمؤمنين «إذا تستغيثون ربكم» .

ثم إنه تعالى يذكـر أنه استجاب لهذه الاستغاثة فكان منه تعالى أنـه أمد المؤمنين بألف من الملائكة مردفين. يأتى بعضهم خلـف بعض ، وقيل إنهم جاءوا خلف المسلمين فكانوا ردفا لهم.

ومعنى أنه تعـالى قال « إنى ممدكـم» أنه تعالى قد أمـدهم بالفعل، لأنه تعـالى إذا قال لشيء « كن » فإنه يكون، جاءوا بأمره تعالى لنصرة المسلمين فنصروهم.

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

التفســـــير:

يقول تعالى - فى الآية - إن إمداده المسلمين بالملائكة المردفين لم يكن غير سبب لبث

الطمأنينة فى قلوب المـؤمنين وتبشيرهم بنصره تعالى، وليس لعلـة أن يكون النصر بهم، وقد استنتج البعض من هذا القول أن الملائكة لم يقاتلوا بالفعل مع المؤمنين.

وقال آخرون إنه لم يكـن هناك ملائكة على الإطلاق وإنما كان ذلـك قولا لهم من رسول الله ﷺ بأمر ربه ليبعث الطمأنينة فى قلوبهم والثقة فـى نصره تعالى ؛ ولذلك جاء قوله تعالى فى الآيـة السابقة « فاستجـاب لكم أنى ممدكـم» بمعنى أن الاستجابـة كانت بالقـول فقط يعلم قائله جل وعلا ما تكون عاقبته من بث الطمأنينة فى القلوب .

ولكن ما ورد فى الأخبار يدل على أن الإمداد بالملائكة كان واقعا فى الحقيقة.

ثم إنه تعالى يثبت أن وجود الملائكة أو وجود العدد والعدة ليس سببا للنصر، وأنه تعالى وحده هو الناصر بقـوله « وما النصر إلا من عند الله» ، وهو نفى لأن يكـون شىء ما سببا للنصر غير أمره تعـالى. فهو وحده العـزيز الذى لا يغالـب وهو الذى يحكم الأمـور بحكمته فتكون إرادته «إن الله عزيز حكيم».

أعز دينه والمسلمين بحكمته التى عظمت فجاءت بحكمه بنصرهم

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾

التفسـيـر:

قولـه تعالى ـ فـى الآية ـ ذكـر لما وقع مـن واقعات وأحداث كانـت بمثابة الظـروف التى أحاطت بموقعة بدر، يذكر تعالى أنه جعـل النعاس ـ وهو ثقل الرأس بالنوم قبل أن ينام القلب وتهدأ الجوارح ـ يغشى المـؤمنين، جاء التشبيه ليجعله مثل الغطاء يلف المـرء، وصفه تعالى بأنه «أمنـة منه» بمعنى أنه تعـالى آمنهم فأصـابهم النعاس لشعورهـم بالأمن، أو أنه أصـابهم النعاس كمـا يصيب الآمنيـن، أو أنه تعـالى أمنهـم به شـر أعدائهـم وهو مـا قد يكـون نتيجة

سكونهم أثناء شعورهم به مما بعث الطمأنينة فى نفوس الكافرين من جهتهم فلم يفزعوا لقتالهم وقتذاك .

ثم إنه تعالى يذكر أنه أنزل عليهم المطر من السماء ليطهرهم به ويذهب عنهم رجز الشيطان. فهم قد تطهروا به من الحدثين الأكبر والأصغر، ودفعوا به وسوسة الشيطان حين استولى الكافرون على مصدر المياه فى المنطقة فوسوس الشيطان للمؤمنين أنهم يظمأون ويحدثون فلا يجدون ماء يشربونه ويتطهرون به، فكانت رحمته تعالى بالمؤمنين إذ أنزل عليهم المطر جمعوا منه ما أمنهم الظمأ والتطهر. والمعلوم أن نزول المطر قد سبق النعاس، فيكون ذكر النعاس قبل نزول المطر لإظهار أهميته فى بعث الطمأنينة فى النفس .

ثم يذكر تعالى سببين آخرين لإنزاله تعالى المطر على المؤمنين أو مظهرين للانتفاع به، أولهما هو تقوية قلوب المؤمنين وبث الثقة فيها بالنصر، يكون باستشعارهم أنه تعالى لا يتخلى عنهم عندما يلمسون نزول المطر، وثانيهما هو تثبيت الأقدام، وقيل فيه إنه يكون بامتصاص الرمال الماء فلا تسوخ فيها الأقدام، وقيل إن المراد بتثبيت الأقدام هو الثبوت فى المواقع يكون عند عدم الخوف فلا تتزلل بالمؤمنين الأقدام .

إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

التفســـــير:

يقول تعالى ـ فى الآية ـ لا يزال فى ذكر أحداث واقعة بدر، يقول تعالى «إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا» والخطاب إلى رسول الله ﷺ، ومعنى القول «إذ يوحى ربك» هو «واذكر إذ يوحى ربك» ومفاد القول أنه أوحى إلى الملائكة أنه تعالى معهم يعينهم على أداء ما أمرهم به من تثبيت المؤمنين، فليس معنى القول أنه تعالى أراد إزالة الخوف من

نفوس الملائكة، فهم لا يخشون الكافرين. وإنما المراد هو طمأنتهم إلى أنهم قائمون بما كلفوا به بمعونته تعالى.

ثم جاء قوله تعالى «فثبتوا الذين آمنوا» ذكرا لمضمون أمره تعالى إلى الملائكة، وهو العمل على تثبيت المؤمنين، بمعنى تثبيتهم فى مواضع القتال وتثبيت قلوبهم بالجرأة، قيل بشأنه إن الملائكة كانوا يظهرون للمؤمنين فى صورة بشرية يبشرونهم بنصر الله تعالى.

وقوله تعالى «سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب» جاء تفصيلا لكيفية كونه مع الملائكة فى تنفيذهم أمره تعالى بتثبيت المؤمنين، فذكر تعالى أنه سيجعل الخوف والرعب فى داخل قلوب الكافرين حتى لكأنها تتقطع به.

وبعد ذلك يجىء تفصيل دقيق لما أمر به تعالى الملائكة لتثبيت قلوب المؤمنين بقوله تعالى «فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان» الأمر أمر بالضرب، يكون فعلا من الملائكة أنفسهم أو يكون فعلا من المؤمنين بتوجيه الملائكة، ويكون الضرب فوق الأعناق، بمعنى أنه يكون فوق الرؤوس أو فى أعلى الأعناق عند مواضع الذبح، ويكون بضرب أطراف الأصابع فلا تقوى على استخدام السلاح أو يكون بضرب الجوارح، أو عموم الجسد، ناب عنه فى الذكر «البنان» لأهميته فى الحرب التى تعلو أهمية غيره.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾

التفسـير:

الخطاب فى الآية موجه إلى رسول الله ﷺ أو له وللمؤمنين، ويتصور أن يكون له ﷺ والمؤمنين والملائكة. تضمن بيان سبب الأمر الذى أمر به الملائكة أن يضربوا فوق أعناق الكافرين وضرب كل بنان منهم، كما تضمن ذكر حكمته التى كان بموجبها قضاؤه فى الكافرين بما قضى.

فيذكـر تعالى أن سبب أمـره الملائكة بضرب الكـافرين هـو معاداتهم الله ورسولـه «ذلك بأنهم شاقـوا الله ورسوله» جاءت فيه الباء فـى «بأنهم» للسببية، فبين القول أن مشـاقتهم ـ أى عداوتهم ـ لله والرسول هى التى استوجبت ضربهم .

ثم يذكر تعالى حكمته فى التنكيل بالمشـركين ونتيجتها فى جملة شرطية «ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديـد العقاب» ومنها يبين أن حكمته تعالى اقتضت أن يكـون كل من يعادى الله ورسوله مستحقا عقاب الله تعـالى الشديد. كما يبين من عبارة القـول أنه ـ تطبيقا لحكمته تعالى ـ استحق المشركون أن يحل بهم عقابه تعالى الشديد. ألحقته بهم الملائكة .

ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

التفســـــير:

يقول تعالى ـ فى الآيـة ـ توبيخ للمشركين، جاءت الإشارة ـ فى عبـارة الآية ـ إلى ما حل بهم من عقاب بـ «ذلك» وجاء الأمر بذواقه أو بتـذوقه متضمنة إشارة إلى أنه أول ما يحيق بهم من العذاب، ثم إنه تعـالى بين لهم أن ما ذاقوه هو من عذاب الدنيـا، وأن لهم غيره فى الآخرة هو عذاب النار. فيكون القول متضمنا تهديدا للمشركين، من يستمر منهم على الكفر والإشراك به تعالى فلا يؤمن .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾

أولا : الأســـــماء :

الزحف : فى قوله تعالى «إذا لقيتم الذين كفروا زحفا» هو الدنو من الشىء ببطء مرحلة بعد مرحلـة، وأصله التحـرك على الإلية، أو التحـرك على الأرض بغير قـوائم، واستعير للتعبيـر عن السير إلى الحرب .

ثانيا : التفســـــير:

الخطاب ـ فى الآية ـ إلى المؤمنين بصريح النص، وهو أمر يتعين التمسك به وتنفيذه كلما قامت ظروف تنفيذه، ومضمونه أنه إذا ما خرجوا للقاء عدو فلقوه، أو إذا خرج عدو للقائهم فلقيهم، فليكن منهم الثبات أو التقدم وعدم التراجع والتقهقر والانهزام. جاء التعبير عن العدو بأنهم الذين كفروا لأن قتال المؤمنين المشروع هو قتال لنصرة دين الله يكون مع أعداء دينه وهم الكافرون، أو يكون دفاعا عن الدين أو عن نفس المؤمنين، ومن اعتدى على دين الله أو على المؤمنين لا يكون إلا كافرا. وفهم أن المأمور به هو التقدم أو الثبات من النهى عن التراجع والتقهقر عند اللقاء، فلم يبق إلا التقدم أو الثبات. وجاء التعبير عن التقهقر والتراجع بتولية الأدبار، لأنه يعنى الاستدارة والعودة من حيث كان الإتيان أو المجيء .

وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

أولا : الأســــماء :

١ ـ **المتحرف** : فى قوله تعالى «إلا متحرفا لقتال» اسم فاعل من «تحرف ـ يتحرف» هو من مال عن الاستواء إلى الحرف.

٢ ـ **المتحيز**: فى قوله تعالى «أو متحيزا إلى فئة» هو من انحاز إلى آخر وانضم إليه.

ثانيا: التفســـــير:

قوله تعالى ــ فى الآية ـ تفسير لأمره تعالى بعدم تولية الأدبار عند لقاء الكافرين فى الحرب، أو هو تطبيق عملى له، فيذكر تعالى أنه يكون منهيا عن تولية الأدبار ــ عند اللقاء ـ كقاعدة عامة ـ وأنه لا يكون الخروج على هذه القاعدة مشروعا إلا إذا وقع تولية الأدبار من مقاتل ترك موقعه إلى موقع آخر أفضل للقتال من سابقه، أو كان فى كر وفر مما تقتضيه فنون القتال وخدع الحرب، أو إذا وقع من مقاتل أثناء انتقاله إلى فرد أو جماعة من المؤمنين

ليقاتل معه أو معهم، معينا إياهم أو مستعينا بهم محتميا بقوتهم .

ثم إنه لما كانت الخالتان اللتان ذكرهما نص الآية تشملان كل تقهقر لا يفيد معنى التقهقر والتراجع. فإنه تعالى ذكر ما يكون منه تعالى لمن يتقهقر ويتراجع بغير سبب مشروع بقوله تعالى «ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير». فبين تعالى أن هذا المتقهقر يعود بغضب الله تعالى يحل عليه، فيكون له منه نصيب فى حياته الدنيا، ثم إنه تكون له جهنم هى المأوى يوم القيامة مكان ما أوى إليه بتقهقره وفراره من الحرب. يصفها تعالى بأنها بئس المصير.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

التفســـــــير:

جاء خطابه تعالى فى مبتدأ الآية «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم» موجها إلى المؤمنين، قيل إنهم تفاخروا بعد الموقعة فجعل كل منهم يذكر ما قتل من أعداء المشركين وما أسر، فنزل قوله تعالى أنهم لم يقتلوا المشركين بأنفسهم وإنما كان ذلك بنصره إياهم فهو الذى سلط المؤمنين عليهم وهو الذى ألقى فى قلوب المشركين الرعب، فكان النصر منه تعالى بأيدى المؤمنين .

ثم جاء خطابه من بعد إلى رسول الله ﷺ «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» متعلقا بإلقائه ﷺ الحصباء على المشركين شاهت وجوههم وشغلت كل واحد منهم بأمر نفسه، أوضح تعالى أن إصابة الحصباء وهى ملء حفنة يد وجوه الكافرين جميعهم كانت فعله تعالى كان لرسوله ﷺ الذى باشر ماديات الفعل مستعينا بالله واثقا فيه على نحو ما يرضيه تعالى - ويتصور أن يكون رميه ﷺ هو رمى المؤمنين فعلوه بأمره ﷺ فنسب إليه، أو يكون رميه ﷺ أحد الكافرين برمحه .

ثم يقول تعالـى «وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنـا» بمعنى أنه كان القتال ليبتلى بـه تعالى المؤمنين بالحرب التى لم يكونوا يريـدونها، لكنه ابتلاء جميل حسن بحكم المآل، إذ انتصر المؤمنون وغنموا الغنائم، فكأن الابتلاء كان ابتلاء بالحسن والجميل وليس بالمحنة .

ويجىء قولـه تعالى ـ فـى ختام الآية ـ «إن الله سميع عليـم» مفيدا أنه تعالـى استمع إلى دعاء المؤمنين إياه أن ينصرهم واستغاثتهم به، وأنه تعـالى علم إخلاصهم فى الدعاء وحالهم من الإيمان ، فكانت منه تعالى إجابة الدعاء .

ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾

أولا : الأســــــماء :

الموهن : فى قوله تعالى «وأن الله موهن كيد الكافرين» اسم فاعل من «أوهن ـ يوهن» وهو من يوهن غيره فيضعفه فيكون به وهن. وهو «الموهن» اسم فاعل من «وهن ـ يوهن» .

ثانيا: التفســــير

يشير تعالى إلـى البلاء الحسن الذى كان للمؤمنين، ثـم يذكر ـ فى المقابل ـ أنه كان منه تعالـى مع المشركين مـا أراده وهو توهين كيـدهم و إبطال كيـدهم. فيتأكد أن نتـائج الأفعال كانت بإرادته تعالى، وأن الأفعال لم تكن غير أسباب على الظاهر تتحقق بها النتائج .

إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

التفســــــير:

الخطاب فـى الآية إلـى المشركين استفتحـوا قبل مـلاقاتهم المسلميـن فقال أبـو جهل

«اللهم ربنا ديننا القـديم ودين محمد الجديد، فـأى الدينين كان أحب إليك وأرضـى فانصر أهله اليـوم» فيكون معنـى الاستفتاح هـو طلب الفتح علـى الغير، أو هـو الاستنصار بـالله طلبه الكافـرون منه تعـالى لمـن هو علـى الحق. فيكون معنـى القول مـع غايتـه هو التهكـم على المشركين، يقـول لهم تعالى شأنـه «إنكم قد طلبتم النصـر لمن هو على الحق، وقـد جاءكم النصر الذى طلبتموه لمن طلبتم أن يكون له» .

ثم إنه تعـالى يقول لهم «وإن تنتهـوا فهو خير لكم» تحذيـر منه تعالى لمعـاودة المشركين قتال رسول الله ﷺ . إذ يقول لهم سبحـانه وتعالى إن الخير يكون لهم إذا ما كفـوا عن معاداته ﷺ ومحاربته .

ثم يتبع سبحـانه وتعالى تحذيـره المشركين بإنـذارهم فيقول تعالى «وإن تعـودوا نعد ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت» جاء الإنذار بإعلامهم أنهم إذا عادوا لمعاداة رسول الله ﷺ وقتاله فإنه يكون منه تعالى العودة إلى موازرته ﷺ ونصره عليهم. ثم إنه تعالى أيأسهم من أن يكون لهـم نصر عليه ﷺ بـإعلامه إيـاهم أنهم مهما جمعـوا له جموعهـم ومهما كانـت كثرة جمعهم فإنها لن تدفع عنهم شيئا من القتل والأسـر والهزيمة. ويذكر تعالى علة هذا وهى أنه مع المؤمنين، ومن كان الله معه فلا غالب له .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ۝٢٠

التفســـــــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ موجه إلى المـؤمنين وهو أمر جازم بإطاعة الله ورسوله، ومنه يبين أن طاعة رسول الله ﷺ من طاعته تعالى لاتنفك عنها. وجاء بالقول نهى عن التولى عن رسول الله ﷺ ، والتولـى كما يكون عـن ذاته ﷺ يكون عن أمـره وهذا هو المـراد، وأخص منه أنـه الأمر بالجهاد تكـون له الطاعة وعـدم التولى والإعراض، لأنـه لا يكون التولى ممـن يسمع أمره ﷺ ويسمع القرآن الذى هو كـلام الله ، أمر بطاعته ﷺ، فلا يتصور أن يكون من سـامع القرآن تولٍّ

عن أمر رسول الله ﷺ .

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٢١﴾

التفسير:

لايزال قوله تعالى للمؤمنين، بعد أن أمرهم تعالى بطاعته وطاعة رسول الله ﷺ وعدم التولى عما يأمر به، فإنه تعالى نهاهم فى الآية عن أن تشابه أفعالهم أفعال المنافقين والكافرين يقولون «سمعنا» لما يأمر به ﷺ دون أن يصل ما تسمع آذانهم قلوبهم فلا يكون منهم سماع ينتفع به.

وفعل هؤلاء المنافقين شبيه بفعل بنى إسرائيل مع موسى عليه السلام الذى أعلنوه كثيرا بسماعهم ما أمرهم ثم كان منهم الكفر؛ فيتصور أن يكون نهيه تعالى المؤمنين متضمنا نهيه عن مشابهة فعالهم فعال بنى إسرائيل .

﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢﴾

التفسير:

بعد أن نهى سبحانه وتعالى المؤمنين عن أن يكون منهم فعال المنافقين، جاء قوله تعالى فى الآية فى التمثيل لهؤلاء المنافقين بمثال ينفر من حالهم بما يجعل المرء حريصا على ألا تكون به صفة من صفاتهم. ذلك أنه تعالى جعل مثال الذين يقولون سمعنا وهم لايسمعون، هو الدابة التى تدب على الأرض من جميع ما يدب على الأرض، أصابها الصمم، وأصابها البكم، وأصابها ذهاب العقل.

فإن كانت الدابة هى الإنسان فهو الذى لايسمع الحق فيتبعه، ولا ينطق لسانه بالحق، ثم إنه الذى لاعقل له، الذى لايفيد شيئا فيما لو كان له سمع ولسان. حق فيه أن يوصف بما وصفه به تعالى أنه شر الدواب .

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

التفســــــير:

قوله تعالى هو فى شر الدواب ـ والمراد بهم المصرون على الكفر ـ يقول تعالى إنه لو كان بحكم علمه الأزلى معلوما لديه أنهم يؤمنون لكان منه تعالى صرف آذانهم إلى سماع الحق اواتباع الهدى بعد تدبر ما يسمعون، ثم إنه تعالى أثبت أنهم من اختاروا الكفر فلا يتصور فيهم الإيمان وهو ما جرت به مشيئته تعالى وفقا لعلمه بقوله تعالى «ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون» بمعنى أنه لو أسمعهم آياته بتدبر وتفهم مع علمه أنهم لا خير فيهم لتولوا عما سمعوا ولو كانوا قد صدقوا به، إذ يكون منهم الارتداد والإعراض، جاء قوله تعالى «وهم معرضون» لبيان أن حالهم عند التولى هو الإعراض، لكونه من لوازم طبيعتهم وهى الإصرار على الكفر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

التفســــــير:

الخطاب فى الآية موجه إلى المؤمنين، وهو أمر بإجابة الله والرسول عليه الصلاة والسلام إذا كانت منه تعالى أو من رسوله الكريم دعوة ونداء. والدعوة أو النداء تكون من رسول الله ﷺ على الحالين، لأنه تعالى يدعو الناس عن طريق رسوله ﷺ وعن طريق القرآن العظيم يبلغ به رسوله ودعاؤه ﷺ هو دائما وأبدا بما فيه الحياة الحقة وهى حياة النعيم الأبدية، فهو ﷺ يدعو للإيمان بالقرآن العظيم، ويدعو لصالح الأعمال، ولمن آمن بالقرآن العظيم وعمل صالحا حياة الخلود فى النعيم، وهو ﷺ يدعو للجهاد، ولمن مات شهيدا علو المرتبة بين الخالدين فى الجنة، ولمن لم تدركه الشهادة ثواب المجاهدين حياة الخلود فى الآخرة فى

الجنة.

وقوله تعالى «واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون» هو حث على إجابة دعوة الله والرسول عن إخلاص فى الإيمان يصل بالمؤمن إلى الدرجة التى يكون فيها تعالى كأنه يفصل بين المرء وقلبه فيكون قريبا من المرء، قريبا من قلبه، على حين يكون ما بين المرء وقلبه أبعد مما هو بينه وبين الله تعالى، كما أن فيه إعلاما بأنه تعالى يفصل ما بين المؤمن وبين نفسه الأمارة بالسوء، جاء التعبير عنها بالقلب لأن الأهواء تكون من المشاعر والأحاسيس المنسوبة إلى القلب، فيكون تعالى هو المانع المؤمن من اتباع أهواء النفس. وأنه تعالى الذى يحول بين الكافر وبين الإيمان يكون فى القلب، لما علم منذ الأزل أنه يصر على الكفر من بعد اختياره.

ويبين الحث على إجابة دعوة الله ورسوله ﷺ من إعلامه تعالى المؤمنين ــ على سبيل التذكير ـ أنهم إليه تعالى يحشرون فيجازون بأفعالهم، يكونون فى النعيم درجات ومراتب، تعلو مرتبة المسارع إلى الطاعة ودرجته بقدر ما يكون منه الإخلاص فى الإجابة والسرعة فى تلبية المطلوب أو المأمور به.

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

أولا : الأسماء :

الفتنة : فى قوله تعالى «واتقوا فتنة» المراد بها ـ فى معنى الآية ـ هو المنكر، وهو الذنب، وقيل هو المداهنة والرياء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ثانيا : التفسير:

الخطاب فى الآية موجه إلى المؤمنين باتقاء المنكر ـ وهو الذنب، والفعل الذى لا يقره الشرع، ويخبر تعالى عن أن أثر مقارفة المنكر فى مجتمع المسلمين مما يقدره تعالى من

عذاب فى الدنيا أو فى الدنيا والآخرة لا يختص بالـذين قارفوا المنكر وحدهم ـ وصفهم تعالى بأنهم الذين ظلموا ـ وإنما يعم أفراد المجتمع جميعهم. ثم أنه لما كان تعالى قد أرسى بقوله تعالى «ولا تـزر وازرة وزر أخرى» مبدأ المسئولية الشخصيـة عن الذنوب والآثـام، وكان القرآن العظيـم يفسر بعضـه بعضا، فـإنـه يكون متـوجبا القـول إن الفتنـة التى يصيـب العذاب بهـا المجتمع جميعـه رغم وقوعهـا من بعض أفـراده، هى الفتنـة التى يتخذ غيـر مقارفيها مـوقف السلب فلا يكـون منهم النهى عنها ومـن أولياء الأمر المعاقبـة عليها، ذلك أن من المصـالح التى يرعـاها الشرع عدم شيـوع الفاحشة فى مجتمـع المسلمين، ومن شأن القعـود عن النهى عن المنكر وعدم المؤاخذة عليه بالعقاب أن تشيـع الفاحشة فى المجتمع، ويكون القاعدون عـن أداء واجب النهـى عن المنكـر مساهميـن فيهـا بسلوكهـم السلبى فيكـونون مستحقيـن العذاب .

ويجىء قوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «واعلموا أن الله شديد العقاب» للترهيب من مقارفة المعاصـى والمنكرات ومـن التغاضـى عنها إذا مـا اقترفـت، ومن عـدم النهى عنهـا، يجىء الترهيب من بيان أنه يكون جزاء مخالفة أمره تعالى وقوع عقابه الشديد، الذى أظهر نص الآية أنه لا يختص بمقارفى المنكر وحدهم بل يعم الجميع .

وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

التفســـــير:

الخطاب فى الآية موجه إلى المؤمنين الذين كانت قوتهم بعد ضعف بنصره تعالى إياهم، وهم المـأمورون بطاعـة الله والرسول وبـاتقاء الفتنـة تكون فى مجتمعهـم، يذكرهـم سـبحانه وتعالـى بحالهم فـى الماضى ليعلمـوا أنهم ما قـووا إلا به تعالـى ليكون منهم الحـرص على الطاعة .

فيقول تعالى «واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض» والقول تذكير لهم بوقت أن كانوا قليلى العدد، وكانوا مستضعفين فى مكة فى قدرة كفار قريش وتحت أيديهم، ويقبل القول أن يكون التذكير بزمن أن كان بعض عرب الجزيرة العربية تحت إمرة عمال لملوك الفرس. ثم يورد تعالى خبرا آخر عنهم وقتذاك بقوله تعالى «تخافون أن يتخطفكم الناس» بمعنى أنهم كانوا من فرط ضعفهم يخافون من الكافرين فى مكة أن يسلبوهم أشخاصهم وأبناءهم ليعذبوهم أو يسلبوهم أموالهم لا يستطيعون أن يدفعوهم عنها، ويتصور فى القول أن يكون متعلقا بزمن سيطرة فارس على بعض أجزاء جزيرة العرب وفيه كان العرب لا يستطيعون دفع اعتداء عمال فارس على أموالهم.

ثم إنه تعالى يذكر المؤمنين بفضله عليهم بقوله تعالى «فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون» ذكرهم تعالى بأنه جعل المدينة المنورة لهم مأوى وحصنا لهم من أعدائهم، وأنه تعالى أيدهم بنصره، بدأ بدعمهم بمناصرة الأنصار ثم نصرهم على المشركين فى بدر، وأنه تعالى رزقهم ما طاب لهم من الطعام ورزقهم الغنائم غنموها من أعداء الله .

وقوله تعالى ــ فى ختام الآية ـ «لعلكم تشكرون» هو حث للمؤمنين على أداء حق النعمة من الشكر، وأول ما يكون من الشكر هو تجنب غضب المنعم والعمل على إرضائه، فيكون القول حثا على التزام ما أمر به تعالى المؤمنين من طاعته تعالى وطاعة رسوله ﷺ ، وإجابة دعوته تعالى ودعوة رسوله، واتقاء الفتنة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

التفسير:

الخطاب فى الآية ـ إلى المؤمنين ـ من جملة الأوامر الموجهة إليهم فى شئون الدين أو العقيدة وشئون المعاملات .

ومضمون القول هـو النهى عن الخيانة، ذكر تعـالى منها خيانة الله، وخيـانة رسول الله ﷺ، وخيانة الأمانة ذاتهـا أو خيانة بعضهم البعض. وفى القول جاءت الـواو بغير معنى الجمع بين الخيانات، و إنما لبيان النهى عن كل منها على حدة ـ وقيل خلاف ذلك ـ ولما كانت الخيانة هى إنقـاص ما اؤتمن الخـائن عليه. فإنه يمكـن القول إن خيانـة الله تكون فيما ائتمـن عليه المرء بينه وبيـن نفسه، فيكون ـ فـى العبادات ـ بعدم أدائهـا ـ أو بأدائها بقصـد المراءاة، وفى المعاملات بالعمل بغيـر الشرع بينه وبين نفسه و إن تظاهر بالعمل بـه أمام الناس. و إن خيانة رسول الله ﷺ تكون بترك سنته وعدم طاعته. و إن خيانـة الناس بعضهم بعضا تكون فى كل ما ائتمن شخص عليه شخصا آخـر سواء أكان ذلك فى وديعة مادية مـن مال أو شىء ذى قيمة، أو فـى شىء معنـوى مثل «الشـرف» يـأتمن المـرء زوجه عليـه. وقولـه تعـالى فيـه «وتخونـوا أماناتكم» أصله هو «وتخونوا أصحاب أمانـاتكم» وأجيز أن تكون الأمانة ذاتها مخونة، فيكون المراد ـ على الحالين ـ هو خيانة الناس بعضهم بعضا.

ويبين من النص أن الخيانـة التى تعتبر إثما يعاقب عليه هى الخيانـة مع العلم ، كما يبين من قوله تعالى «وأنتم تعلمون» بمعنى أن يتوافر العلم لدى الأمين أو المودع لديه شىء بوجود الشىء عنده علـى سبيل الأمانة وبقدره، فـإن لم يكن يعلم لا إثم عليـه. فإن ورث وارث مالا كان فيه شىء للغير مودع لـدى مورثه لم يعلم به الوارث بأى طريق فلم يـرده إلى صاحبه فإنه لا يأثم بهذا .

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ٢٨﴾

التفســــــير:

بعد أن نهى سبحانه وتعالـى عن الخيانة فى الآية السابقة فإنه تعـالى يحذر المؤمنين من الدوافع عليهـا ويخبرهم أن فى هـذه الدوافع فتنة واختبـارا، فذكر تعالـى المال والأولاد أودع تعالى حبهما فى النفوس، فحذر تعالى من أن يكون حب المال دافعا إلى عدم رد الأمانة إلى صاحبها أو الانتقاص منها، ومن أن يكون حب الأولاد سببا لذلك ليجد المرء ما ينفق به على أولاده مما اؤتمن عليه، أو ليترك لهم مالا يرثونه بعد وفاته .

ثم إنه تعالى أخبر أن عنده تعالى الأجر العظيم لمن لم يخن أمانته، ليكون ذلك دافعا إلى عدم الخيانة فى الأمانات .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

التفسير:

بعد أن نهى تعالى عن خيانة الأمانة جاء قوله تعالى فى الآية بالحث على اتقاء غضبه تعالى يكون عند عصيانه ومنه عصيانه بخيانة الأمانة، وجاء هذا الحث بإثبات ما يكون لمن يتقى غضبه تعالى، فأثبت أنه يساعد المتقين على عدم المعصية بأن يظهر لهم ما يفرقون به بين الحق والباطل فلا يقارفون الباطل «يجعل لكم فرقانا» بمعنى أنه يجعل فى قلوبهم نورا من الهدى يميزون به بين الحق والباطل فيكون فارقا بينهما، كما أثبت تعالى أنه يجازى المتقين بالتكفير عن سيئاتهم فى الدنيا بسترها عليهم وعدم افتضاحهم بها، كما أنه تعالى يتجاوز عنها فى الآخرة فيغفرها لهم ولا يعاقبهم بها، ثم يجيء قوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «والله ذو الفضل العظيم» تنبيها للمؤمنين إلى أنه تعالى إذ يتفضل عليهم بالتكفير عنهم سيئاتهم وبغفران ذنوبهم فإنه وهو ذو الفضل العظيم يتفضل عليهم بما يشاء مما هو أكثر من ذلك وأعظم .

﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾

التفسير:

الخطاب فى الآية ـ إلى رسول الله ﷺ، يذكره ربه بما كان من المشركين معه وما كان منه

تعالى مع المشركين فى مكة. وقوله تعالـى «وإذ يمكربك الذين كفروا» يفيد أن الكافرين قد استعملوا المكر ليضروا برسـول الله ﷺ، وهو ما كان بتآمرهم عليه فـى دار الندوة ليبحثوا كيف يتخلصون منه ﷺ حين رأوا أتباعه يتزايدون.

وقوله تعالى «ليثبتـوك أو يقتلوك أو يخرجوك» هو بيان لما جرى التداول فيـه حين التآمر من المشركين عليه ﷺ حين اقترح بعضهم تثبيـت رسول الله ﷺ فى مكان بالحبس. لأن التثبيت يكون بكـل فعل لا يملـك معه المرء حريـة التحرك والانتقـال، فيكون بـالحبس، كمـا يكون بالجرح الذى يقعـد عن الحركة، وقد كان الاقتـراح بحبسه، ثم رفض خشية إخراجـه بواسطة من آمنوا له. ثـم يثبت تعالى أن منهم من اقتـرح قتله ﷺ ـ وكان صاحب الاقتـراح أبو جهل ـ وقد أيد إبليس الملعون هـذا الاقتراح حين حضر الاجتماع فى هيئة شيخ جليـل ادعى أنه من نجد ـ وفيه جرى الاقتـراح على أن يكون القتل بأيدى فتيان القبائل جميعهـا ليتفرق دمه فيها فيعجز أتباعـه ﷺ عن الثأر له. كذلـك فإنه تعالى يثبت ـ فى القول ـ الاقتراح الثـالث الذى قدمه بعض المتآمرين وهو الاكتفاء بطرده من مكة .

ثم إنه تعالى يوجز ما كان من المشركين ومـا كان منه تعالى معهم فى عبارة آية فى البلاغة بقوله «ويمكرون ويمكـر الله» بمعنى أنهم استعملوا مكرهـم ضد رسـول الله ﷺ فمكر بهم ربه فأحبـط مكرهم وأفسـد مرادهم. وأعقـب ذلك بقوله تعـالى «والله خير المـاكرين» كـان مكره تعالى مبطلا مكرهم. وكان مكره تعالى فى الخيـر وكان مكرهم فى الشر. وبمكره تعالى خرج رسوله ﷺ من مكـة آمنا، وبمكره تعالى خدعهـم فى بدر إذ قلل المؤمنين فـى أعينهم لينصر المؤمنين. وكان فضله تعالى على المؤمنين عظيما .

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾

التفســـــير:

قوله تعـالى ـ فى الآيـة ـ فى كفار مكـة الذين كانـوا يستمعون إلى القرآن العظيـم بقلوب

عليها غشاوة فكانوا بعنادهم وإصرارهم على الكفر ينكرون أنه من عند الله. وكان يساعدهم على هذا هؤلاء الذين يترددون على أرض فارس والحيرة حيث كانت تذكر الأساطير الفارسية التى تم من بعد جمعها فى «الشاهنامة» وفيها ما يتعلق بالخلق ووجود إله للخير وآخر للشر، وهؤلاء لذين يمرون بأحبار اليهود وبكهنة النصارى فيسمعون منهم ما ورد فى التوراة والإنجيل، ومن هؤلاء النضر بن الحارث.

كانوا وكان يستمعون إلى هذه الأقاويل ويرددونها بين الكفار، ويذكر تعالى أن الكافرين كانوا يقولون عند سماعهم القرآن أنهم قد سمعوا مثله، يريدون ما سمعوه من هؤلاء الذين سمعوا أساطير الفرس وقصص التوراة، ثم يصفونه بأنه ليس غير ما سطر السابقون من القصص والحكم فى مدوناتهم .

وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾

التفسير:

يذكر تعالى - فى الآية - مظهرا من مظاهر إمعان الكافرين فى كفرهم وإصرارهم على أن القرآن أساطير الأقدمين. فيقول تعالى «وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك»، والمشار إليه فى عبارة النص هو القرآن العظيم، والذى قال لهم إنه الحق من عند الله هو رسول الله ﷺ، قيل إنه قال القول للنضر بن الحارث، فكان قوله «إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم»، وقيل إن قائله هو أبو جهل، ومفاد القول هو الإصرار على أن القرآن العظيم ليس من عند الله تعالى، والتحدى بطلب الدليل يكون بالعقاب بإنزال حجارة من سجيل على القوم الذين ناب عنهم فى القول، أو إنزال عذاب غيره بهم يكون أليما .

■■■■

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

التفســـــير:

قوله تعالى - فى الآية - يفيد أنه لم تكن منه إرادة التعذيب - فى الدنيا - بالاستئصال لكافرى مكة، ويجىء التعبير بنفى إرادة التعذيب ليكون أبلغ فى التدليل على عدم إيقاعه. ويبين من واقع ما كان أن التعذيب المقصود بالنص هو التعذيب بالإهلاك والاستئصال، إذ الثابت أنه وقع التعذيب بالقحط .

وسبب عدم إرادته تعالى تعذيب الكافرين بالاستئصال هو وجود رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم، ولم تجر عادته تعالى باستئصال قوم ورسولهم فيهم، إذ يتم إخراجه من بينهم - كما كان مع لوط عليه السلام - أو إبعاده عنهم - كما كان مع نوح عليه السلام. وسبب ذلك أيضا هو وجود مؤمنين مستضعفين بين الكافرين يستغفرون الله تعالى، يكون إكرامهم بالاستجابة إليهم فيمنع العذاب بالاستئصال يصيبهم مع الكافرين. وقيل إن الكافرين قد ندموا بعد أن قال قائلهم ما قال فاستغفروا الله وطلبوا الصفح. وقد استدل البعض بقوله تعالى على أنه إذا كان دعاء الكافرين بالمغفرة ومنع عذاب الدنيا جاز قبوله منه تعالى فيكون الدعاء مانعا من عذاب الدنيا .

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

التفســـــير:

قوله تعالى فى الآية رد على ما كان يردده الكافرون من أنه تعالى لا يعذب قوما وفيهم من يستغفر الله تعالى، وأنه لا يعذب قوما ونبيهم بين ظهرانيهم، فيكون المقصود بالعذاب هو

عذاب الاستئصال فى الحياة الدنيا، فجاء قوله تعالى مثبتا أنهم ليس لهم حق فى زعم أنهم لا يعذبون، وأن الأمر له تعالى فى هذا بإرادته، إن يشأ يعذبهم وإن يشأ يمهلهم. وقيل إن العذاب المقصود فى نص الآية هو عذاب الآخرة ، فيكون المعنى هو إثبات إيقاعه بهم .

ثم إنه تعالى يثبت استحقاقهم العذاب يوقع بهم، ويذكر فعلا من أفعالهم التى تستوجب عقابهم هو صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام كما فعلوا عام الحديبية، وكما فعلوا حين أجبروا المؤمنين على الهجرة. وكانوا يدعون أنهم أصحاب الحق فى هذا لكونهم أولياء البيت والمسئولين عنه .

ويبين تعالى بصريح العبارة أنهم ليسوا أولياء المسجد الحرام وأنهم يدعون ما ليس لهم من ولاية البيت. ثم يذكر تعالى أن أصحاب الحق فى ولاية البيت هم المؤمنون الذين يتقون الله. فيكون القول مثبتا أن التقوى شرط لولاية البيت، ومثبتا انعدام التقوى لدى المشركين وإثباتها للمؤمنين .

ثم إنه تعالى يذكر أن أغلب المشركين لا يعلمون حقيقة أنهم لا ولاية لهم على البيت، «ولكن أكثرهم لا يعلمون». وقد يكون المراد بالأكثر هو جميع المشركين، وقد يكون المراد إثبات أن بعض الكافرين يعلم هذه الحقيقة لكنه يجحدها عنادا من النفس وإصرارا على كسب ما لا حق لهم فيه.

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

أولا : الأسماء :

١ ـ المكاء : فى قوله تعالى «إلا مكاء وتصدية» هو الصفير، يخرج من الفم، أو باستخدام الأصابع فيه، أو بالنفخ فى آلة، لا يتضمن أحرفا تشكل كلاما ذا معنى.

٢ ـ التصدية : فى قوله تعالى «إلا مكاء وتصدية» هى التصفيق، يكون بضرب اليد باليد، يخرج صوتا لا يشكل كلاما ذا معنى .

ثانيا : التفســـــير:

بعد أن ذكر تعالى أن الكافرين كاذبون فى زعمهم أن لهم ولاية البيت ـ والمراد به المسجد الحرام ـ أشير إليه بلفظ موجز «البيت» للتدليل على أنه بيت الله تعالى، فإنه تعالى يأتى بدليل على عدم جدارتهم أن يكونوا أولياء البيت الذى يعبد فيه صاحبه رب العالمين، فيذكر تعالى أنهم لا يـؤدون فيه عبادة، فهم إذا مـا صلوا لله بزعمهم أو دعـوه فإنهم لا يفعلون غيـر التصفير والتصفيق، وفيـه قيل إن المشركين كـانوا يطوفـون حول البيت والـرجال منهم عرايـا يصفرون ويصفقون.

فيكون المـراد بالتصفيـر والتصفيق هـو المعنى الحقيقـى لكل منهمـا. ويتصور أن يكـون تصفير الكافرين وتصفيقهم للتشويش على رسول الله ﷺ والمؤمنين عبادتهم.

وقد يكون المراد بالتصفير والتصفيق معنى معنويا بمعنى الأفعال التى لا معنى لها، فيكون المراد هو أن عبادة المشركيـن أو صلاتهم غير مقبولة عنده تعالى فهى لا تعـدو كونها حركات تؤدى وأصوات تسمع لا يؤجرون عليها ولا يثابون .

وقوله تعالى «فـذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» وجه فيه الخطاب إلى الكـافرين، الذين كفروا القرآن العظيم وكفـروا رسول الله ﷺ، يعلمهم ربهم أنهم ذائقوا العـذاب بسبب كفرهم، والمقصود أن العذاب المتوعد بـه هو عذاب الحياة الدنيا. ثم إن القول يقبـل أن يكون كفرهم الذى يعذبـون به هو تصفيرهم وتصفيقهـم عند المسجد الحرام، فيكون الأقـرب إلى المعنى أنهم إنما يفعلـون هذا التشويش علـى المؤمنين بقصد صـرف قلوبهم عن عبـادتهم، اعتبره تعالى مزيدا من الكفر من الكافرين، استحقوا به عذابه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾

أولا : الأســـــماء :

الذين كفروا : هم الذين أنفقوا أموالهم للصد عن سبيل الله من الكافرين ـ كما جاء فى نص الآية ـ وقيل إن المراد بهم هو أبو جهل وصحبه، كانوا اثنى عشر رجلا تكفلوا بإطعام جيش قريش فى بدر، كان كل منهم يذبح فى اليوم عشرة من الإبل. وقيل هم الذين رجعوا إلى مكة ـ بعد بدر ـ من المشركين فكلموا أصحاب العير وطلبوا منهم المال للاستعداد للثأر من رسول الله ﷺ فأجابهم هؤلاء إلى طلبهم، وقيل إن المقصود هو أبو سفيان الذى استأجر ألفى رجل من الأحباش ليقاتل بهم رسول الله ﷺ مع آخرين من العرب كان ينفق عليهم لمحاربة دين الله .

ثانيا : التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى هذه الفئة من كفار مكة الذين جمعوا الأموال لقتال رسول الله ﷺ سواء أكانوا هم الذين أطعموا فى بدر أم الذين أنفقوا للثأر فيما بعد ـ أى فى أُحد ـ يذكر تعالى أنه يكون منهم الإنفاق ثم يكون من ورائه الحسرة «فيسنفقونها ثم تكون عليهم حسرة» جاء الفاء فى الخبر «فيسينفقونها» لإفادة معنى «الشرط» صلة بين المبتدأ وبين خبره ليكون المعنى هو أن جزاء الإنفاق هو الحسرة، فإن كان المنفقون هم المطعمين يوم بدر فإن الحسرة أصابتهم بهزيمة جيش الكافرين، وإن كانوا هم المنفقين ليوم أُحد فإن الحسرة أصابتهم لعدم تحقق بغيتهم أو هدفهم النهائى من المعركة، فكان الندم والحسرة لعدم تحقق ما أرادوا وضياع ما أنفقوا.

وقد يكون قوله تعالى «فيسنفقونها ثم تكون عليهم حسرة» مفيدا معنى كون المنفقين هم أصحاب أُحد لتعلق الإخبار بأحداث مستقبلة. وقوله تعالى «ثم يغلبون» هو إخبار آخر عن مصير الكافرين والمنفقين على جنودهم، وهو أنهم سيُغلبون فيما بعد فى مواضع أخرى.

وقوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «والذين كفروا إلى جهنم يحشرون» يتعلق بهؤلاء الذين يظلون على كفرهم من المنفقين ومن عموم الكافرين يخبر تعالى أنهم فى الآخرة يساقون إلى جهنم وفيها يُجمعون .

■■■■

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ٣٧﴾

التفســـــير:

بعد أن ذكر تعالى أن الكافرين الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله سيحشرون إلى جهنم، فإنه تعالى أثبت فى الآية أنه يكون بحشرهم فى جهنم التمييز بينهم وبين المؤمنين، فيكون معنى «الخبيث» فى قوله تعالى هو الكافر الذى يصد عن سبيل الله بماله، ويكون «الطيب» هو المؤمن، ويفهم من القول أن المؤمن يكون حاله غير حال الكافر فيكون التمييز بينهما. وقيل إن المراد بالخبيث هو المال المنفَق للصد عن سبيل الله، وأن الطيب هو المال المنفق فى سبيل الله .

وقوله تعالى «ويجعل الخبيث بعضه على بعضه فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم» معناه أنه تعالى يجمع الكافرين بعضهم إلى بعض فيجعلهم حشدا واحدا يلقى به إلى جهنم. وقيل إنه تعالى يجمع أموال الكافرين التى أنفقوها للصد عن سبيل الله لتكوى بها جباه الكافرين وجنوبهم .

ثم إنه تعالى يشير إلى الكافرين ويذكر أنهم الخاسرون بقوله تعالى «أولئك هم الخاسرون» فكأنهم ـ من دون خلقه هم الخاسرون، والمراد بالقول بيان فداحة خسارتهم، إذ فقدوا أموالهم فى حياتهم الدنيا، وفقدوا نفوسهم بتعريضها إلى أشد العذاب. وقوله تعالى هذا يرجح قول القائلين إن المراد بالخبيث هو الكافر، والمراد بالطيب هو المؤمن فى معنى الآية ، والمصير المذكور فى الآية هو لمن بقى على الكفر ولم يؤمن .

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ٣٨﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ خطاب إلى رسول الله ﷺ وهو أمر، مضمونه أن يتوجه رسول الله ﷺ إلى الكافرين بقول يقوله لهم بذاته أو بعبارة من إنشائه ﷺ تفيد ذات المعنى، كما يبين من قوله تعالى عن المطلوب إبلاغه «إن ينتهوا» فلم يقل تعالى «إن تنتهوا» ــ والأخيرة تفيد وجوب صدور القول بها، بخلاف الأولى ـ وذلك فى قوله تعالى «قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف». والمعنى أنهم إذا انتهوا عن كفرهم وآمنوا برسول الله ﷺ وأسلموا، فإن جميع ما قرفوا من ذنوب قبل إسلامهم يغفر لهم برحمته تعالى. فالقول بهذا يكون متضمنا أمرين: أولهما هو الحث على الدخول فى دين الله والتشجيع على ذلك، وثانيهما هو ذكر قاعدة شرعية مفادها أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله.

ومن قوله ﷺ للكافرين ـ بأمر ربه ـ أن يقول لهم إنهم إذا عادوا إلى مناوأة رسول الله ﷺ ومحاربته ودينه، وجمعوا لذلك الأموال ـ وهو ما لا يكون إلا باستمرارهم على كفرهم ـ فإنه تجرى فى شأنهم سنته تعالى مع من سبقوهم من الأقوام التى عادت رسلهم، فمعنى «مضت» هو نفدت «وسنته» تعالى هى فعاله السابقة، أنزلها بالذين كذبوا رسلهم وعادوهم وحاربوهم، وهى الانتقام منهم بعذاب الدنيا، تختلف صوره ومظاهره.

وقد يكون منه ما أنزل تعالى بالكافرين من هزيمة فى بدر وضياع للأموال . والقول بهذا المعنى يكون متضمنا تهديدا للكافرين يدعم نهيه تعالى إياهم عن مواصلة محاربتهم رسوله ﷺ ودينه الحق .

وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾

أولا : الأســـــماء :

فتنـــــة : فى قوله تعالى «حتى لا تكون فتنة» المراد بها ـ فى معنى الآية ـ هو الشرك، ويقبل المعنى أن يكون المراد هو فتنة المؤمنين عن دينهم .

ثانيا: التفســـير:

جاء قوله تعالى ـ فـى الآية ـ «وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة» معطوفا على قـوله تعالى ـ فى الآية السابقـة ـ «قل للذين كفـروا» وقد كان القول ـ فى الآيـة السابقة ـ موجهـا إلى رسول الله ﷺ، على حين جاء قوله تعالى ـ فى الآيةـ موجها إلى المؤمنين، وذلك لبيان أهمية مضمون الأمر الذى ورد به نص الآية وتـرغيب المؤمنين فى تنفيذه لما يرون من مخاطبتـه تعالى إياهم من بعد مخاطبته رسوله الكريم .

ومضمون الأمر هو مقاتلة الكافرين، يكون نافذا إلى غاية معينة هى انقطاع الفتنة وصيرورة الديـن كله لله، أو أنه أمر بقتـال الكافرين مـع ذكر سببه «وقاتلـوهم حتى لاتكون فتنـة ويكون الدين كلـه لله». والمعنى هو فرض واجـب القتال على المؤمنيـن، يقاتلون الكافـرين للقضاء على الكفر الذى قد يغرى بعض المؤمنين ـ مـع وجوده ـ أن يفعلوا بعض فعال الكافرين التى فيها استمتاع بمباهج الحياة الدنيا وملذاتها، فيكون فى ذلك فتنة لهم عن دينهم. ويكون إلى حين القضاء على العقائد الباطلة التى يدعوها القـوم أديانا، يكون ذلك بدخول أصحابها فى الإسلام، أو بإهـلاكهم بأيدى المسلمين. والذى نـراه ـ والله أعلم ـ أن هذا الأمر بصفتـه ملزما بالقتـال قد تعلـق بمشركـى مكة، وذلـك لأن أحكام معـاملة أهـل الذمـة تفيد عـدم الإلزام بقتالهم، فيكون الأمر كاشفا عن حال تكون فى المستقبل، قيل إنها تكون عند ظهور المهدى، ونرى أنها تكون عند نزول المسيح عيسى ابن مريـم فى آخر الأيام يدعو لدين الله ويقتل من لا يؤمن به.

وقـوله تعـالى ـ فى ختـام الآية ـ «والله بما يعملـون بصير» هـو بيان للجـزاء الذى يكـون للكافريـن فهو تعالى بصيـر بما يعملون، يعرف إيمانهـم إذا آمنوا فيغفر لهم ذنـوبهم، ويعرف إصرارهم على الكفر إذا استمروا عليه فيعذبهم به.

وقيل إن القول تعلق بالمؤمنين، يعلمهم ربهم أنه عليم بما يكون منهم من جهاد فى سبيله بقتال الكافرين فيثيبهم به .

وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

التفســـــــير:

بعد أن أمر تعالى المؤمنين بقتال الكافرين لنصرة دينه، وأخبر عن مجازاته من يؤمن من الكافرين، فإنه تعالى خاطب المؤمنين ـ في الآية ـ أو إنه تعالى أكمل ما خاطبهم به في الآية السابقة، فذكر ما قد يكون من الكافرين أو من بعضهم، وهو التولى عن دين الله والإعراض عما يدعون إليه من الإيمان، والاستمرار على معاداة المؤمنين ومحاربتهم، فأخبر تعالى المؤمنين أنه وليهم «وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم» والمعنى أن كيد الكافرين وعداوتهم لن تصيبهم بأذى، فيكون مفاد القول طمأنة المؤمنين إلى حماية الله تعالى لهم من أذى الكافرين.

ثم إنه تعالى يؤكد للمؤمنين هذا المعنى ويزيد عليه بإعلامهم أنه ناصرهم بالإفادة عن ذاته العليا بأنه «نعم المولى ونعم النصير» لا يضيع من تولاه، ولا يهزم من نصره. فيكون القول وعدا بالنصر.

۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

أولا: الأســـــــماء:

١ ـ **ما غنمتم**: هو الغُنْم، وهو الغنيمة. وهو ما يؤخذ من الكفار قهرا بقتال، فيكون معناه أخص من الفيء. وهو ما يؤخذ من الكفار بقتال وبغير قتال، وقيل إنه لا يكون أخذ الخمس لله إلا إذا كان القتال بأمر ولى الأمر، لأنه يلتزم بحماية الغانم.

واختلف فى أمر ما يسلب من القتيل الكافر فقال البعض إنه غنيمة ويأخذ حكمها، وقال

آخرون ليس غنيمة فهو للسالب قتيله.

٢ ـ يوم الفرقان : هو يوم بدر، فرق بين الحق والباطل بانتصار الحق، واندحار الباطل.

ثانيا: التفســـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ ذكر لحكمه تعالى فى الغنائم، نسب تعالى الحصول عليها للمؤمنين المقاتلين بقوله تعالى «واعلموا أنما غنمتم من شىء» جاء فى القول «شىء» لبيان أن الحكم يسرى فى شأن كل ما يُغنم من الكافرين بقتال مهما كان المأخوذ قليلا فى قيمته أو صغيرا. وجاء حكم توزيع الغنائم بقوله تعالى «فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل». ويلاحظ فى القول أن اللام جاءت فى قوله تعالى لذى ذكر «الله» ، و«الرسول» ، و«ذى القربى» وأنها لم تأت لذى ذكر «اليتامى» والمساكين، وابن السبيل. فكانت لبيان أن الخمس لله تعالى بمثابة الحق، وعطف عليه الرسول وذو القربى، وما هو لله يأخذه رسوله ﷺ، وما يأخذه الرسول يكون منه لذى قرابته، وقد كان ذلك يتم ـ فى عهده ﷺ ـ بأخذ رسوله ﷺ خمس الغنائم، ثم يقسمها خمسة أسهم، فيأخذ ﷺ سهما، ويجعل لبنى هاشم وبنى عبد المطلب سهما، ثم يوزع الثلاثة الأسهم الباقية من خمس الغنائم على المذكورين فى النص وهم اليتامى والمساكين وأبناء السبيل، ثم يجعل الأربعة الأخماس من الغنائم قسمة بين المقاتلين. وبعد وفاته ﷺ سقط سهمه فى الخمس، كما سقط سهم ذوى قرابته، فلم يعد يأخذ منهم أحد شيئا إلا فقيرهم يأخذه مما هو للمساكين.

وبعد أن ذكر تعالى حكمه فى توزيع الغنائم قال تعالى «إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان». والمعنى هو إلزام المؤمنين المقاتلين بالرضاء بحكمه تعالى فى توزيع الغنائم على ما جاء بحكمه تعالى والرضاء بالأربعة الأخماس منه تكون لهم، بذكره تعالى أن هذا يكون حال من يؤمن بالله تعالى، وبما أنزل على رسوله ﷺ من آيات وملائكة ونصر فى يوم بدر الذى فرق بين الحق والباطل فسمى «يوم الفرقان» الذى التقى فيه جمع المؤمنين وجمع الكافرين فى القتال وكان النصر للمؤمنين. فيكون قوله تعالى حثا للمؤمنين على قبول حكم توزيع الغنائم بنفس راضية كما يجب أن يكون عليه حال المؤمنين دائما فى كل حكم منه تعالى.

ثم يجىء قوله تعالى - فى ختام الآية - «والله على كل شىء قدير» متعلقا بما أنزل تعالى على عبده يوم الفرقان مما أنزل بقدرته تعالى وما عاينه المؤمنون وعاينوا نتائجه. فيكون القول لإعلام المؤمنين أنه ما يكون منه تعالى من شأن فى حكم من الأحكام إلا لتكون به مصلحة دينه والمؤمنين.

إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

أولا : الأسماء :

١ - **العدوة** : هى جانب الوادى، أو شطه. من «العدو» وهو التجاوز.

٢ - **الدنيا** : مؤنث «الأدنى» جاء صفة للعدوة بمعنى جانب الوادى الأقرب إلى المدينة.

٣ - **القصوى** : مؤنث «الأقصى» جاء صفة للعدوة بمعنى جانب الوادى الأبعد من المدينة.

٤ - **الركب** : اسم جمع «راكب» وليس جمعا له. وقيل هى الإبل التى كانت تحمل تجارة المشركين، وقيل إنه يطلق على الجماعة من راكبى الإبل.

ثانيا : التفسير :

قوله تعالى - فى الآية - تذكير للمؤمنين بنعمة من نعمه تعالى عليهم يوم بدر، فكأن القول هو «واذكروا إذ أنتم بالعدوة الدنيا». والقول يبدأ بوصف موضع المؤمنين عند لقاء عدوهم وموضع عدوهم. فيذكر تعالى أن المؤمنين كانوا فى جانب الوادى القريب من المدينة بينما كان الكافرون فى جانب الوادى البعيد عن المدينة، كما يذكر تعالى أن ركب الكافرين كان

فى موضع أسفل من موقع المؤمنين ـ قيل إنـه ساحل البحر ـ وقد قيل فى هذا إنه بيان لمدى قوة العدو وضعـف المسلمين لأن موضع الكـافرين يجعل انتصـارهم هو الأقرب تحققـا مما يكون معه انتصـار المؤمنين دليلا علـى أنه من صنع الله تعـالى. والذى نراه ــ والله أعلم ـ أن موضع المسلمين كان هو الموضع الأفضل فـى القتال وفقا لفنون القتال، لأن من يحتل موقعا أعلى يسيطر علـى عدوه الذى هو فـى موضع أسفل، ويـزيد من أفضلية مـوقع المسلمين أن الكـافريـن كـانوا فـى أرض منبسطـة أو مفتوحـة ـ كمـا يقـال ـ ممـا يجعلهـم تحت سيطـرة المسلمين معـرضين لرمـى نبالهم ورمـاحهم ثـم الانقضاض عليهم، لا يـؤثر على هـذا كون الموقـع الذى اتخذه المسلمـون أرضا سبخة أو ليـس بها ماء، لأن احتـلال هذا الموقـع كان احتلالا مؤقتا لتنفيـذ مهمة معينة فيكون فضله تعالـى هو فى توفيق المسلمين فـى اتخاذ هذا الموضع.

وقوله تعالى «ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعـاد» قيل فيه إنه يعنى أنه لو تواعد المسلمون والكافرون على الالتقاء فى قتال وعلم المسلمون حال أعـدائهم من القوة مع ما عرفوا عن قلة عددهم لتخلف المسلمون عـن اللقاء هيبة من الكافرين ويأسـا من الانتصار عليهم. والذى نراه ـ والله أعلم ـ أن المراد من قوله تعالى هو إظهار أن حدوث التقاء الجيشين وكل منهما فى موضعه المذكور، وفى اللحظة التى وقع فيها هو من تدبيره تعالى، لم يكن ليقع بغيره ولو تواعد الجيشان علـى هذا لأن الأمر يتعلق بـالنسبة لجيش الكـافرين بمـواضع الراحات فـى السير، والزمن الـذى يبقون فيه فى الراحة، وبمـا يصادفهم فى الطريـق مما قد يؤخر موعـد قدومهم، وفيما يتعلق بـالمؤمنين فإنهم لصعـوبة البقاء فى موقعهـم لفترة طويلة كانـوا سيضطرون إلى مغادرته للبحث عن ماء أو للـراحة فى غيره فيما لو تأخر ظهور عدوهـم، فكان وصول عدوهم فى اللحظة التى حـددها سبحانه وتعالى، وفـى المكان الذى كانوا به، ووجـود المؤمنين فى موقعهم حالذاك هو فعله جل وعلا، لولاه ما كان .

ثم إنه تعالى يظهر علة وقوع ما وقع بـإذنه بقوله «ولكن ليقضىَ الله أمرا كان مفعولا، ليهلك من هلك عن بينة ويحيىٰ من حى عن بينة». فيبين تعالى أن التقاء الجيش على غير موعد فى الوقت الذى تم خلاله اللقاء، وكل منهما فـى المكان الذى كان به. كان مقدرا له أن يقع لأنه تعالى أراد هذا وما أراده تعالى واقع مفعول. ثم يجـىء تفصيل هذا الواقع المفعول حتما بأنه

هلاك الهالكين من الكفار بعد معاينتهم الحجة على نصره تعالى المؤمنين، وحياة من يبقى منهم على الحياة بعد معاينته نصره تعالى المؤمنين حجة على الكافرين ببطلان عقيدتهم وللمؤمنين على أنهم على الحق، وليعاين ذلك المؤمنون الأحياء المنتصرون ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم.

وقوله تعالى ـ في ختام الآية ـ «وإن الله لسميع عليم» يفيد أنه تعالى يسمع ما يدعو به المشركون أصنامهم عند اللقاء ويعلم ما تكنه صدورهم من الكفر، وأنه تعالى يسمع شهادة المؤمنين بتوحيده تعالى وبأن محمدا رسول الله، كما يسمع استغاثتهم به، ويعلم ما تكنه صدورهم من الإيمان، فيكون منه إجراء الأحكام بما سمع وعلم.

إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾

التفسير:

قوله تعالى ـ في الآية ـ لايزال تذكيرا لرسول الله ﷺ وللمسلمين بما كان منه تعالى في بدر فكأن القول هو «واذكر إذ يريكهم الله في منامك قليلا». والقول يفيد أنه تعالى أظهر لرسوله ﷺ رؤيا في المنام رأى فيها جنود المشركين قليلي العدد، فأخبر بهذا أصحابه فاطمأنت قلوبهم ولم يخشوا عدوهم. وقيل إنها لم تكن رؤيا منام، وإنما كانت رؤية عين جاء فيها ذكر المنام «في منامك» كناية عن العين لأنها مكان النوم ـ وهو قول ضعيف ـ ثم يذكر تعالى حكمته التي اقتضت أن يرى رسوله ﷺ المشركين قليلين بقوله تعالى «ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر» ، فيبين تعالى أنه لو كان تعالى قد أطلع رسوله ﷺ في الرؤيا على ما عليه الكافرون من الكثرة لكان الفشل في تحقيق النصر نتيجة خوف المؤمنين من قوة المشركين وما يحدثه الخوف في النفوس من تردد عن القتال ولكان قد حدث في صفوف المسلمين شقاق في الرأي حول القتال، يؤيده البعض ويعترض عليه آخرون، مما تتذبذب معه القلوب وتتشتت الجهود .

ثـم يذكـر تعالـى أنه أمـن المسلمين مـن حدوث هـذا الفشل والتنـازع وأكسبهم الأمـن والسلامة بقوله تعالى «ولكن الله سلم».

ويجيء قوله تعـالى ـ فى ختام الآية ـ «إنه عليم بذات الصدور» بيانـا للعلة التى تحدث الفشل والتنازع فـى الأمر، وهى انطواء صدور البعـض على الخوف من قتال الأقـوياء فيكون منهم الجبـن عند مـلاقاة العـدو وإبداء الـرأى فى عـدم القتال، وإعـلاما بـأن علمه تعـالى بدخائل القلوب كان سببا لإخفائه حقيقة قوة المشـركين ليكون للمؤمنين النصر على عدوهم لعدم دخول الجبن نفوسهم وعدم وقوع الشقاق فى الرأى بين المسلمين .

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

التفســـــير:

قولـه تعالـى ـ فى الآيـة ـ استئناف لـرواية مـا كان منه تعـالى فى بـدر مما أدى إلـى نصر المؤمنين ، والخطاب فى الآية إلى المؤمنين يذكرهم تعالى بأنه جعلهم يرون الكافرين قليلى العدد والعدة، وأنه جعل الكافرين يرونهم قليلى العدد،وقد كان ذلك ـ بالنسبة للكافرين ـ فى مبتدأ الأمـر من الموقعة، وقـد كان ذلك بفعلـه تعالى، اختلفـت فى ذكر كيفيته الأقـوال فقال البعض إنه تعالى ستربعض المقاتلين بسواتر.

وقال آخرون إنـه تعالى أصاب العيـون بآفة. وليس بـذى أهمية البحث عن كيفيـة حدوث ذلك فهو تعالى قادر على أن يجعله بسبب وبغير سبب.

وقد كانـت حكمته تعالى أن يجعل الكافـرين فى أعين المسلمين قليلين كيـلا يكون فى قلوب المؤمنين وجل أو خـوف من كثرة عدد المشركين فيكون منهم القتـال بجرأة عن ثقة فى إحراز النصر، وأن يجعـل المؤمنين فى أعين الكافـرين قليلين حتى قال عنهم أبـو جهل «إنما أصحاب محمد أكلة جزور» كـى يغتر الكافرون بقوتهم فلا يمنعون فـى الاحتياط من المؤمنين والاستعداد لهم بما يلزم من وضع الخطط، ليسهل ـ بتقـديره تعالى ـ على المؤمنين مباغتتهم

والانتصار عليهم.

ثم إنه تعالى يبين علـة تقليله عدد الكافرين فى عيون المؤمنين وتقليـل عدد المؤمنين فى عيون الكـافرين بـذكر الغـاية البعيدة مـن الفعل، وذلك بقـوله تعـالى «ليقضى الله أمـرا كان مفعولا» كرر فيه تعـالى أن الغاية كانت نفاذ أمـره فى شأن الكافرين وشـأن المؤمنين، اقتضى التكرار اختـلاف الفعل، إذ كان فـى الأول هو التقاء الجيشيـن على غير مـوعد، وهو فـى الآية تقليل عدد كل جيش فى أعين أفراد الجيش الآخر.

وقوله تعالـى ـ فى ختام الآية ـ «وإلى الله تـرجع الأمور» هو بيان لواقـع، وهو أن مآل الأمور جميعا إلى حكمـه تعالى فيها فليست الأسباب قيـدا عليه تعالى، فلا تعنى قـوة العدو والعدة نصراً بالضرورة، ولا يعنى الضعف اندحارا بالضرورة وهزيمة، فهو تعالى وحده مصرف الأمور. ويقبل القـول أن يكون مشيرا إلـى أن مرجـع الجميع بأفعـالهم المحاسـب عليها يكـون إليه تعالى فى الآخرة .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾

أولا : الأسـمـاء :

فئـة : قيل إن المراد بهـا ـ فى معنى الآية ـ هـو الكافرون، وقيل إن المراد هـو الكافرون، والبغاة ـ بمعنى الذين خرجوا على طاعة الإمـام أو ولى الأمر ـ فهؤلاء هم الذين شرع للمؤمنين قتالهم.

ثانيا: التفسـيـر:

الخطاب فى الآية إلـى المؤمنين، وأول من يتوجه إليـه هم جنود المؤمنين، يأمـرهـم تعالى بما هـو دعامة النصـر وهو الثبات عند اللقـاء، واللقاء هو لقـاء الحرب أو القتال، والثبـات هو الصمود وعدم التراجع والانهزام بالفعل ولا بالنفس. جاء بعده الأمر بذكر الله كثيرا، يكون أثناء القتال، يكـون بالدعـاء أو بالتكبير بـاللسان، ويكون بـالذكر فـى القلب، ألا بذكـر الله تطمئن

القلوب. وربما جاء الأمر بذكر الله من بعد الأمر بالثبات لبيان وجوب الأخذ بأسباب النصر تبدأ بنفس المقاتل ثم تكون الثقة فى نصر الله ينصر من أطاع أمره بالثبات.

ثم يذكر تعالى بقوله «لعلكم تفلحون» أن الفلاح فى الحرب بالانتصار يكون بطاعته فيما أمر به، كما يكون به الفلاح فى الآخرة بالثواب. والمستفاد من القول أن شيئا ما لا يصح أن يلهى المؤمن عن ذكر الله، فليس أشد من الحرب منهاة عن شواغل النفس، وقد أمر تعالى ألا تكون سببا للانشغال عن ذكره تعالى.

وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

أولا: الأســـــماء:

الريـــح: فى قوله تعالى «فتفشلوا وتذهب ريحكم». المراد بها - فى معنى الآية - هو القوة والمنعة، وقيل هو الدولة بمعنى دولة المسلمين.

ثانيا: التفســـير:

قوله تعالى - فى الآية - استئناف لقوله تعالى فى الآية السابقة فى ذكر أوامره تعالى للمؤمنين المتعلقة بما يكون منهم فى حروبهم مع الكافرين، فيأمرهم تعالى بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، والأمر بالطاعة عام يشمل كل ما يأمر به تعالى وكل ما يأمر به رسوله ﷺ، يدخل فيه أوامره تعالى بما يكون من المؤمنين عند قتال العدو مما ورد بالآيات وكل ما يأمرهم به رسول الله ﷺ فى شأن من شئون القتال.

ثم إنه تعالى ينهى المؤمنين عن التنازع، وليس المراد بالتنازع هو اختلاف الرأى عند المشورة، ولكنه اختلاف الرأى من بعد اتخاذ القرار من ولى الأمر بعد المشورة فيما تكون فيه مشورة، وقد بين تعالى علة هذا النهى ببيان نتيجة التنازع وهى وقوع الفشل وذهاب القوة. وذلك لأن من يرى أنه لم يؤخذ برأيه لا يسهم فى تنفيذ القرار المتخذ بإرادة وقوة فيخسر الباقون جهده فيكون الضعف سببا للهزيمة تذهب به الرهبة فى نفوس الأعداء.

ثم يجيء قوله تعالى «واصبروا إن الله مع الصابرين» أمرا آخر بالصبر على شدائد الحرب وأهوالها ووعدا بنصر الصابرين يمدهم تعالى بالعون الموافق لمقتضى الحال.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

أولا : الأسماء :

البطر: فى قوله تعالى «خرجوا من ديارهم بطرا» هو فى الأصل التقوية بالله تعالى، والمراد به ـ فى معنى الآية ـ الافتخار الكاذب بالقوة من الله تعالى، كان من المشركين عند خروجهم من مكة لملاقاة رسول الله ﷺ.

ثانيا: التفسير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ نهى للمؤمنين المقاتلين عن تقليد الكافرين أبى جهل وأصحابه من مكة متلبسين بالبطر والافتخار بتأييد الله لهم بزعمهم حتى أنهم قالوا «والله لا نرجع حتى نرد بدرا ونشرب الخمور وتعزف علينا القين الحسان، ومرائين الناس ليشهدوا لهم بالشجاعة والقوة، وذلك فى الوقت الذى كان فيه خروجهم للصد عن سبيل الله تعالى.

فيكون النهى متضمنا أمرا للمؤمنين أن يكون خروجهم بقصد نصرة دين الله تعالى لا لغرض آخر غيره، وألا يبتغوا به مجدا شخصيا فى أعين القوم، ومتضمنا ذكرا لأفعال الكافرين المنبوذة التى يجب تجنبها.

ثم يجيء قوله تعالى «والله بما يعملون محيط» إخبارا منه تعالى بإحاطة علمه جميع فعال الكافرين ومجازاتهم به، تشديدا على المؤمنين فى تجنب فعل فعالهم تحقيقا لما نهوا عنه.

■■■■

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

التفســـــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ جاء معطوفا علـى قوله تعالى فى الآية السابقة «ولا تكونوا» فيكون الخطاب للمؤمنيـن، ويتصور أن يكون المخاطـب به هو رسول الله ﷺ، حـول الخطاب إليه. وفى القول تعريف بما كان من إبليس مع الكـافرين، وسوس إليهم بمعاداة المؤمنين وقتالهم، وأوهمهم أنهم بخـروجهم إليهم مقاتلون يعظمـون فى عيون أقوامهم «وإذ زيـن لهم الشيطان أعمالهم»، كما أنه أوهمهم أن أحدا من الناس لايغلبهـم لكثرتهم وقوة عدتهم وعتادهم، وأن مايقدمونه من قربات لأصنامهم هو تقدمة لله تعالى ينصرهم بها حتى اعتقد المشركون أن الله ناصـرهم فقالـوا «اللهم انصر أهـدى الفئتين وأفضل الـدينين» قالـوه لما اعتقدوا أنهـم على الحق، كذلك فإنه أوهمهـم بوعده أنه مجيرإياهم «وقال لاغالب لكـم اليوم من الناس وإنى جارلكم» وقيل فى وعد الشيطان إياهم أنه يجيرهـم أنه تراءى لهم فى هيئة شيخ من «كنانة» يدعى سراقة بن مالـك وعدهم أنه وقومه يجيرونهم من كل شريأتيهـم من قِبل المؤمنين، وأنه لما شـاهد اللعين ملائكـة السماء خشى أن يكـون اليوم هو يـوم الوعد المعلوم فنكـص على عقبيه، فلما عتـب عليه الكافرون أنه يتركهـم على حالهم، قال: «إنى أرى مـا لاترون» وسواء صح ما قيل عن هذه الواقعة أم لم يصح، فإن وعد اللعين المشركين أن يجيرهم من المؤمنين يتصورأن يكـون بما بثه فى نفـوسهم أن قبائل أخرى تجيـرهم من المـؤمنين خوفا مـن انتشار الدين الجديد .

ويذكـر تعالى أنـه عندمـا التقى الجيشان تـراجع الشيطان وتقهقـر «فلما تـراءت الفئتان

نكص على عقبيه» ويتصور أن يكون التراجع والتقهقر قد حدث بالفعل من الشيطان فى الهيئة البشرية التى ظهر بها للمشركين، ويتصور أن يكون المراد من القول أنه أقلع عن وسوسته لأنه مع ظهور بوادر هزيمة المشركين لم تعد فى نفوسهم ثقة أنه لا غالب لهم من الناس، فلم تعد هناك وسوسة مجدية؛ ولذلك تبرأ اللعين من المشركين «وقال إنى برىء منكم» تركهم لشأنهم وتخلى عن وسوسته إليهم لعلمه أنها لم تعد تقنع بخلاف المحسوس من الهزيمة والقتل ثم إنه قال «إنى أخاف الله» ويقبل القول أن يكون خوفه الله هو على المشركين أعوانه وليس على نفسه، ويقبل أن يكون الخوف على نفسه. يدعم التصور الأول أنه من المنظرين فلا يحق له أن يتصور أنه يعذب قبل يوم الوعد الموعود، ويدعم التصور الآخر ما قيل من أنه اعتقد أنه هذا اليوم الذى أُنظر إليه.

وقوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ يتصور أن يكون قول إبليس اللعين، قاله للكافرين حين ذكر خوفه من الله تعالى، فيكون مبينا خوفه من عذابه تعالى وصفه بالشدة، ويتصور أن يكون قوله تعالى لبيان أن عذابه الكافرين المصرين على الكفر هو العذاب الشديد .

إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

أولا : الأسـماء :

الذين فى قلوبهم مرض: قيل إن المراد بهم ـ فى معنى الآية ـ الذين أسلموا من المشركين وبقى فى قلوبهم شىء من الشرك. وقيل إنهم فتية من قريش أسلموا بمكة وحبسهم آباؤهم حتى خرجوا معهم إلى بدر، منهم قيس بن الوليد بن المغيرة، والعاص بن منبه بن الحجاج. لم يكمل إيمانهم لأن آباءهم الكافرين حبسوهم بمجرد إسلامهم فلم يستقر الإسلام فى قلوبهم. وقيل إنهم المنافقون، جاء وصفهم بأنه فى قلوبهم مرض تفسيرا لنفاقهم .

ثانيا: التفسـير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ تذكير للمؤمنين بأحداث بدر، ويتصور أن يكون ذكرا لظرف من

الظروف التى صاحبت تزيين الشيطان للكافريـن أفعالهم. يذكر تعالى أن المنافقين وضعاف الإيمان حين شـاهدوا قلة عدد المسلميـن وكثرة المشركين قـالوا بألسنتهم أو فـى قلوبهم إن المؤمنين برسول الله ﷺ قد اعتقدوا أن إيمانهم بـالدين الذى دعا إليه رسول الله ﷺ هيأ إليهم ـ على خـلاف الواقع ـ أنهم على قلتهم يهزمون جمـع الكافرين الكثير العـدد القوى العدة، فكان منهـم التعرض لمـن لا قبل لهـم بملاقـاتهم. فهـذا معنى قـولهم «غـر هؤلاء دينهـم». والمتصور أن هـؤلاء القائليـن قالوا قـولهم عند رؤيـة جيش الكفـار خارجا مـن مكة لمـلاقاة المسلمين، لأنه يصعب تصور أن يكونوا من بين جيش المؤمنين الذى كان جميعه ممن كمل إيمانهم.

وقوله تعالى «ومـن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم» هو رد على قـول المنافقين والذين فى قلوبهم مرض، فهو تعالى العزيز يعز من توكل عليه فلا يكون له غـالب، وهو تعالى الحكيم يكون من مظاهر حكمته تحقق ما لا يتصور أن يكـون ومنه أن تهزم الفئة القليلة فئة كثيرة بأمره تعالى. وقد توكل المؤمنون عليه تعالى فأعزهم بنصره .

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾

أولا : الأســـــماء :

الذين كفروا: المشهور أن المراد بهم ـــ فى معنى الآية ـ هم قتلى بدر مـن المشركين. وهذا القول هو المعتمد عند القائلين بأن ضرب الملائكة الـواقع بالكافرين عند الموت قد ترك أثرا منظورا فى أجساد قتلى بـدر. والقول يقبل أن يكون مقيدا واقعا له صفة العمـوم بمعنى أنه يتم ضرب الكافرين عند الموت، وهو ضرب لا يترك أثرا منظورا يراه الأحياء .

ثانيا: التفســـير:

الخطاب ـ فى الآية ـ إلى رسول الله ﷺ جاء فيه قوله تعالى «ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكـة» بمعنى «لو رأيـت حال الكافـرين عندما تـوفاهم المـلائكة» ذلك أن «لـو» وهى

للامتناع تجعل المضارع ماضيا، و «إذ» ـ في العبارة ـ ظرف للرؤية. والمروى عنه أو الذى امتنعت رؤيته مع حدوثه عندما يباشر ملائكة الموت قبض أرواح الكافرين هو ضربهم وجوه الكافرين وأدبارهم بمعنى أنهم يضربون ما أقبل منهم، ويضربون ظهورهم، وقيل إنهم يضربون وجوههم وأستاهم على الحقيقة، ثم إنهم يحزنونهم بإبلاغهم أنهم فى جهنم يحرقون «وذوقوا عذاب الحريق» يقولون لهم ذوقوا ليعلموهم أن عذاب الحريق هو مبتدأ العذاب، كما يكون التذوق أول مرحلة للشرب أو للأكل. كما أن فى القول سخرية بالكافرين واستهزاء لأن التذوق يكون أغلب ما يكون فيما يستلذ من الطعام والشراب.

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

التفسير:

القول تتمة قول ملائكة الموت يقولونه للكافرين لدى ضربهم وجوههم وأدبارهم «ذلك بما قدمت أيديكم» يعلمونهم أن ضربهم والعذاب الذى توعدوهم به كان بسبب ما قارفوا من الأعمال، فالباء فى «بما» هى للسببية، والتعبير عن أعمال الكافرين بأنها ما قدمت أيديهم، لأن الأعمال تباشر ـ فى العادة ـ باليدين، فيكون «تقديم الأيدى» مجازا عن الفعل.

ومفاد قوله تعالى «وأن الله ليس بظلام للعبيد» من قول الملائكة للكافرين، أنه تعالى إنما عذب الكافرين بما قارفوا من الذنوب، فهو تعالى لم يظلمهم ـ وهو المنزه عن الظلم ـ والذى إن عذبهم بغير ذنب لم يكن عذابه ظلما. فيكون المراد بالقول هو دفع الاعتقاد بأن عذاب الكافرين كان بغير ذنوبهم.

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

أولا: الأسماء:

الدأب: فى قوله تعالى «كدأب آل فرعون» هو العادة المستمرة.

ثانيا: التفســـــير:

بعد أن ذكـر تعالى ما كـان من الملائكة مـع الكافرين قتلـى بدر عند قبض أرواحهـم ذكر تعالـى ـ فى الآية ـــ أن حال هؤلاء ممـاثل حال آل فرعـون الذين كـذبوا موسى عليـه السلام وعادوه، وحال من سبقهم من أقوام كذبوا رسلهم وعادوهم، والحال المذكورة هى ما جرت به سنته تعـالى فيهم مـن تعذيبهم عنـد قبض أرواحهم، وتعـذيبهم فى قبـورهم، وتعذيبهـم فى الآخرة فـى جهنم عذاب الحريـق، فهذا هو معنى قـوله تعالى «كـدأب آل فرعون والذيـن من قبلهم».

ثم يذكر تعالى ما كان من قتلى بدر الكافرين وما كان ممن سبقوهم إلى العذاب من الأمم وكيف كان ذلك سببا لحلول عذابه تعالى بهم «كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم» فيكون الكفر بـآيات الله هـو فعل السابقيـن المعذبيـن الذى دأبـوا عليه وفعل قتلـى بدر، وهـو الذى استوجب سريان سنتـه تعالى فيهم. فجميعهم كفروا بآيات الله التى أنـزل على رسله فعاقبهم الله على كفرهم بآياته وعلى ذنوبهم الأخرى المتفرعة منه.

ويجىء قوله تعـالى ـ فى ختام الآية ـــ «إن الله قوى شديد العقاب» تدليـلا على أن عذابه تعالى بالكافريـن لايدفع ولايدافع فهو القوى على كل شىء، يعاقـب الكافرين أشد العقاب لايجدون من يخفف عنهم غلواء شدته، فالكل أضعف من أن يعترض مشيئته .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾

التفســـــير:

بعد أن ذكـر تعالى أنـه عذب آل فرعـون ومن سبقهم من الأمـم التى كفرت بـآياته تعـالى وعادت رسلها وحاربتهم، وأنه بهذا جرت سنته فى خلقـه الذين دأبوا على التكذيب بالآيات ومعاداة الرسـل، فإنه تعالى ـــ فى الآية ـ يثبت حكمـا له جرت به المشيئة واستـدعته حكمته تعالى هو أنه تعالى لا يرفع عن قوم نعمة أنعم بها عليهم إلا بسبب مستحدث منهم .

فقوله تعالى فى الآية أشار إلى صور العذاب التى أوقعها بقوم فرعون والذين من قبلهم، ومنها ضرب الملائكة إياهم عند قبض أرواحهم باسم الإشارة ذلك. ثم جاءت الباء فى «بأن الله» لبيان سبب العذاب، ثم جاء حكمه تعالى بقوله «لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» فأظهر تعالى أنه إذا كان قد أنعم على قوم بنعمة من النعم الدنيوية سواء أكانوا صالحين أم كانوا طالحين، فإنه لا يرفعها عنهم ويبدلهم بها عذابه الدنيوى إلا إذا غيروا أحوالهم بمقارفة إثم كبير جديد هو ـ كما يبين من التمثيل بآل فرعون ومن سبقهم ـ معاداة الرسل ومحاربتهم. فقد كان قوم فرعون متمتعين بجنات مصر فلما عادوا موسى عليه السلام وحاربوه أغرقهم الله تعالى، وقبلهم كان قوم نوح يرفلون فى نعم الله عليهم فلما أمعنوا فى الاستهزاء بنوح عليه السلام و إيذائه أرسل عليهم الله الطوفان. كذلك كان كفار مكة ينعمون بما أنعم الله عليهم من الخير يكسبونه فى تجارتهم، فلما بعث رسول الله ﷺ وعادوه وحاربوه حرمهم الله تعالى من نعمة إمهالهم وأوقع بهم عذابه فى بدر.

وقوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «وأن الله سميع عليم» هو إعلام بأن ما يكون من الأقوام من أقوال وأفعال هو مما يحيط به علمه تعالى فتكون مؤاخذتهم بما يصدر عنهم من أقوال وأفعال ، فيكون عذابهم فى الدنيا بما كسبت أيديهم، ونطقت ألسنتهم .

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

التفسير:

بعد أن ذكر تعالى حكمه العام فى شأن تبديله العذاب بالنعم، و إظهاره أن إيقاعه عذاب الدنيا بقوم من الأقوام لا يكون إلا بتغييرهم حالهم إلى ما هو أسوأ من سابقه، وهو ما يمكن أن نطلق عليه المبدأ العام فى التعذيب فى الحياة الدنيا، فإنه تعالى يذكر فى الآية ما يعتبر بمثابة تطبيقات لهذا الحكم العام أو المبدأ العام. فيذكر تعالى قوم فرعون والذين من قبلهم من الأمم التى أهلكها الله بعذاب الدنيا، مبينا أنه كان منهم التكذيب بآيات ربهم، وهو إثم

جديد قارفوه، تمثل فـى تكذيبهم بالآيات التى أنزل الله تعالى على الـرسل المبعوثين إليهم. وهو تكذيـب صاحبه ومعاداة الرسـل ومحاربتهم، ثم يثبت تعـالى أنه كان منه بعـد تكذيبهم رسله إهلاكهم بسبب ذنوبهم، والإهلاك شمل قـوم فرعون والأقوام التى سبقتهم من الهالكين مكذبـى الرسل، ثم يبيـن تعالى وسيلة إهـلاك آل فرعون على وجـه خاص وهى إغراقهـم فى البحر.

وفى ختام القول يذكـر تعالى أن آل فرعون والذين من قبلهم ممن أهلك سبحانه وتعالى كانـوا ظالمين، بمعنى أنهـم كانوا كافـرين، ظلموا أنفسهم بـالكفر والمعاصى فحـق عليهم العذاب فى الدنيا والآخرة.

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾

التفســـــير :

عبارة الآية تقريرية، تثبت واقعا فى حكمه تعـالى وهو أن الكافرين المصرين على الكفر هم شرما يـدب على الأرض من الكائنات، جاء وصفهـم بأنهم شر الدواب وليس بـأنهم شر الناس لبيـان دونيتهم عن الناس الـذين ميزهم سبحـانه وتعالـى عن الدواب بالعقـل، فيكون المصر على الكفر لا يفكر فى آيات الله ناكرا نعمة العقل فلا يوصف با لآدمية .

ثم يجىء قـوله تعالى ـ فى المصـرين على الكفر ـ «فهـم لا يؤمنون» بيانا لواقـع إصرارهم على الكفر، استحقوا به، أن يوصفوا بأنهم شر الـدواب، ولا يؤمل معه فى إيمانهم يوما. فيكون القول توجيهـا لرسول الله ﷺ ألا يحزن لعـدم إيمانهم وتنبيها لـه على الكف عن بـذل الجهد معهم فى الدعوة إلى الإيمان .

ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾

أولا: الأســــــماء:

الذين عاهدت منهم: قيل إن المراد بهـم ـ فى معنى الآية ـ هم يهود بنى قريظـة عاهدوا رسول الله ﷺ ألا يمالئوا عليه، ثم أعـانوا المشركين بالسلاح وقالوا نسينا عهدنـا، ثم عاهدهم ﷺ فنكثوا بالعهد وصانعوا الكفار يوم الخندق. وقيل هم يهود بنى قريظة والنضير.

ثانيا: التفســــير:

بعد أن ذكر تعالى أن شر الـدواب هم المصرين على الكفر فإنه تعالى ـ فى الآية ـ أوضح أنهم الذين عـاهدهم رسوله ﷺ ثم نقضـوا عهودهم معه. فالخطاب فـى الآية إلى رسول الله ﷺ، وقولـه تعالـى يتضمن بيـان شر الـدواب فيقول له ربـه إنهم «الـذين عـاهدت منهـم ثم ينقضون عهـدهم فـى كل مرة وهـم لا يتقون» وفـى القول يتصور أن تكـون «من» فـى «منهم» للعهد، فيكـون المعنى هو «الـذين أخذت منهم العهـد»، ويتصور أن تكون للتبعيـض فيكون المعنى أنه ﷺ قد عاهد البعـض منهم. ثم يثبت قوله تعالى أن رسوله ﷺ قـد عاهدهم أكثر من مرة وأنهـم نقضوا عهدهم فى كـل مرة عاهدوه فيهـا. وفى خاتمة القول وصفهـم سبحانه وتعالى بـأنهم لا يتقون، بمعنى أنهم لا يتقـون نقض العهود والغدر والخيانـة، ولا يتقون غضبه جل وعلا.

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

التفســـــير:

بعد أن أعلم الله تعالى رسوله ﷺ بأن شر الدواب فى حكمه تعالى هم الذين عاهدهم ﷺ ونقضوا عهده عدة مرات فإنه تعالى ـ فى هذه الآيـة ـ يعلم رسوله ﷺ بأحكامه فيهم ومنها ما ينفذه ﷺ فيكون قـوله تعالى بشأنهـا أمرا بفعل، ومن ذلك أنه تعـالى يقول لرسولـه ﷺ «فإما تثقفنهم فـى الحرب فشـرد بهم مـن خلفهم» بمعنى «إنـك إذا ما صـادفتهم خـلال الحرب وظفرت بهم فليكن منـك تفريق أتباعهم والذيـن من خلفهم من الكفار، يكون ذلـك بردعهم وترهيبهـم أن يحيق بهم مثل مـا حاق بناقضى عهـودك. فالفاء فى «فـإما» جاءت لترتيـب ما بعدهـا وهو الالتقاء فى خـلال الحرب والظفر بهـم، ثم بيان مـا يكون منه ﷺ من تنكيـل بهم وانتقام علـى النحو الذى يـرهبه الذيـن هم خلفهم فيتحدثـون به فيرتـدعون عن خيـانته ﷺ ويردعون غيرهم.

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾

التفســــير:

بعد أن أمر الله رسوله ﷺ فيما يكـون منه مع الذين نقضوا عهودهم معه، فإنـه تعالى ـ فى الآية ـ يأمره بما يكـون منه مع هؤلاء الذين استدل ﷺ من فعال لهم أنهـم يزمعون نقض عهد عاهدوه عليه. فيكون معنى خوفه ﷺ الخيانة، هـو علمه أو استدلاله من الأحداث أن قوما من معاهـديه يزمعـون خيانة عهـد أعطوه إيـاه ونقضه. والذى يكـون منه ﷺ هو أن يبعـث إليهم يخبرهـم أنه قد فسـخ العهد من جهتـه، يكون ذلك بطـريق واضح مستـو «فانبذ إليهـم على سواء». والمستفاد من الأمر حكمان:

أولهما أن ذلـك يكون مـع الذيـن لم ينقضوا عهـدهم، إذ يكـون لهؤلاء القتـال لا الإبلاغ بنقض العهـد أو فسخه، كمـا فعل ﷺ حين غـزا أهل مكـة من غير نبـذ بعد أن نقضـوا عهده وحالفوا «كنانة» على قتل «خزاعة» حلفائه ﷺ.

وثانيهما هو أن يكون النبذ أو الإخبار بنقض العهد واجبا عند استشعار دنو خيانة العهد من المعاهدين فلا يكون منه ﷺ قتال لهم حالئذ.

وقوله تعـالى «إن الله لا يحب الخائنين» هـو تعليل لحكمه تعالى أن يكـون النبذ ولا يكون القتال عند العلم أو عند توقع خيانة المعاهدين إذ يكون قتالهم مع بقاء العهد ساريا من قبيل الخيانة، لا يحبها الله، فيكون القول ناهيا عنها رسوله ﷺ والمؤمنين.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

التفســــير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ فى بطلان عقيدة الكافرين الذين عاهدوا رسول الله ﷺ، من نقض منهم عهـده ومن أزمع أن ينقضـه. والخطاب فى الآية إلـى رسول الله ﷺ تضمن الإعـلام بما

يحسبه الكافرون المعاهدون أو يعتقدونه وبيان بطلانه :

فقوله تعالى «ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا» معناه أنه يجب ألا يعتقد الكافرون أنهم قد أفلتوا من أن يظفر بهم جاء التعبير عن نجاتهم بـ «السبق» تشبيها بحال الملاحَق والمطارَد إن سبق من يلاحقه أو يطارده يكون قد نجا، والمراد بالذين كفروا، هو المعاهدون منهم. يعتقد الذين نقضوا عهودهم أنه ﷺ لا يظفر بهم ولا يشرد بهم من خلفهم، فجاء قوله تعالى مثبتا بطلان اعتقادهم هذا، ويعتقد الذين انتووا أن ينقضوا عهودهم أن فى النبذ إليهم فسحة من الوقت تتيح لهم النجاة من انتقام المؤمنين لدى نقضهم العهد فلا يدركون. فجاء قوله تعالى مخبرا عن بطلان اعتقادهم هذا. ويتصور أن يكون قوله تعالى ـ مع ما فيه من إخبار ـ نهيا للكافرين عن الاعتقاد الباطل الذى هم عليه.

ثم يجيء قوله تعالى «إنهم لا يعجزون» إخبارا عن واقع فحواه أنهم لا يعجزون المؤمنين عن إدراكهم والانتقام منهم، فيكون القول إظهارا لوجوب تحقق ما أمر به رسوله ﷺ أن يكون منه فيهم.

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

أولا : الأسماء :

الرباط : فى قوله تعالى «ومن رباط الخيل» قيل هو اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله، وقيل هو الخمس من الخيل فما فوقها، والأصل أن الرباط هو المربوط مطلقا ثم استعمل فى معنى الخيل، وخص بها.

ثانيا: التفسير:

الخطاب ـ فى الآية ـ إلى جميع المؤمنين يأمرهم تعالى بالأخذ بأسباب القوة لملاقاة

عدوهم، والأمر هو مضمون قوله تعالى فى مبتدأ الآية، تبعه بيان ما يجنيه المؤمنون من طاعته، ثم حث تعالى على البذل فى سبيل تنفيذه .

فقوله تعالى «وأعدوا لهم ما استطعتم من قـوة ومن رباط الخيل» هو أمر بالاستعداد الدائم للقتال إذا ما كان هناك عدو يتوقع لقاؤه. ولقد كان العـدو الذى نزل فيه قوله تعالى هو من نبذ إليهم عهدهم. أو هـم جميع الكافرين. وهم ـ فـى كل زمان ـ أعداء دين الله الذيـن يحاربونه ويعادون المسلمين والأمر جاء بإعداد ما تستطيعه القـدرة من مظاهر القوة. جاءت ـ فى عبارة النص ـ نكرة فدلـت على أنها غير محددة، وأنها تختلف باختـلاف الأزمنة والمعارف وتطور الأسلحة، ثم أضاف تعالى رباط الخيل إلى القوة فيما يتم إعداده، ولقد قيل فى الخيل الكثير فقيل «الخيل فى نواصيها الخير»، وقيل إن رسول الله ﷺ قد ميز بعضها على بعض.

ولا شك فى أن الأمر بإعداد الخيل لا يمنع من الاستعـانة بما يجد من أنواع المعدات التى تقوم بالكثير مما كـانت تقوم به الخيل فى المعارك،إذ سبق الأمر بإعـداد القوة ـ وهى متغيرة ـ الأمر بإعداد الخيل، ويبقى دائما أن الخيل تستطيع أن تقوم ببعض ما لا تستطيعه الآلات. فلا تستطيع الدبابة مثلا ولا السيارة المصفحة القفز مـن فوق بعض الموانع واجتيازها، على حين تستطيع الخيل ذلـك، كما أنها تكون الأصلـح فى القيام بالمهـام الصغيرة مثل نقل الـرسائل والمؤن .

ثم إنه تعالى بين ما يعود به الاستعداد بالقوة وبـالخيل على المؤمنين بقوله تعالى «ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخـرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم» تقع الـرهبة فى قلوب أعداء الله وأعداء المؤمنيـن حين يعلمون مدى قوة استعـداد المؤمنين لهم، فيحجمـون عن الاعتداء عليهم إن كانوا يزمعون هـذا، فإذا كان منهم قتال كانوا فى رهبة من المـؤمنين وقوتهم تضعف معها معنوياتهم فلا تكون منهم القوة والبأس والشجاعة عند القتال.

وكما تقع الرهبة فـى نفوس أعداء الله وأعداء المؤمنين فإنها تقع كذلـك فى نفوس آخرين خفى علـى المؤمنين أمـر كراهتهم إيـاهم وتربصهـم بهم فرصـة ينفذون منها إليهـم فيعتدون عليهم.

قيل إنهـم ـ وقـت نزول الآية ـ كانوا يهود قـريظة، وقيل إنهـم المنافقون، وقيل هـم أهل

فارس. ويبدو لنا أن غير هؤلاء كثيرون، والدليل على هذا أن من الدول من وثق المسلمون فى دعمه إياهم ومناصرته، ثم أظهرت الأيام أنه كان يضمر أشد العداء للمسلمين، فنكل بهم أشد التنكيل وألحق بهم أقسى صور الدمار. ولو كان بالمسلمين قوة يخشاها لما كان منه ما كان. فالنص يثبت أنه تعالى يعلم أمر هؤلاء الذين خفى على المؤمنين أمرهم.

والحث على طاعته تعالى فيما أمر به، وعلى البذل فى سبيله، جاء بقوله تعالى «وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون» فهو تعالى يعلم المؤمنين أن إنفاقهم فى الاستعداد لملاقاة أعداء الله وأعدائهم - قل أم كثر - يعود ثوابه إليهم خيرا فى الدنيا ونعيما فى الآخرة، لا ينقصون من أجورهم شيئا.

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾

التفسير :

الخطاب - فى الآية - إلى رسول الله ﷺ، يأمره ربه إذا ما مالوا للاستسلام والصلح أن يكون منه الميل إليها - بمعنى قبولها - مع التوكل عليه تعالى يفوض إليه أمره ليحميه من خداعهم إن كانوا يريدون بعرض الصلح خداعه.

وقيل إن هذا الحكم منسوخ فى شأن مشركى العرب ليس لهم إلا الإسلام أو القتل، وقيل إنه ليس محتما أن يقاتلوا أبدا.

وقوله تعالى «إنه هو السميع العليم» هو بث للطمأنينة فى نفس رسول الله ﷺ، فهو تعالى يسمع ما يدور بينهم فى خلواتهم إذا ما كانوا يمكرون به ﷺ، ويعلم نواياهم من عرضهم الصلح فإن كانوا يضمرون به شرا فهو تعالى كافيه شرورهم حاميه من كيدهم.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾

التفسير:

بعد أن جاء قوله تعالى - في الآية السابقة - «إنه هو السميع العليم» متضمنا تلميحا إلى أنه تعالى يحمي رسوله ﷺ مما يدبر عارضو الصلح بليل من المكائد، فإنه تعالى يصرح في الآية بهذا، فقوله تعالى «وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله» مفاده أنه إذا كان الذين قد أظهروا الميل إلى الصلح والاستسلام قد أرادوا خداعه ﷺ، فإنه تعالى حسبه، هو كافيه وناصره عليهم، فيكون القول دافعا إلى قبول الصلح تنفيذا لأمر ربه مع الاطمئنان إلى حمايته تعالى له من أي مكر يمكرونه.

ثم إنه تعالى يدلل لرسوله ﷺ بأنه كان دائما كافيه لأنه المتوكل عليه، فيذكر له مما سبق من الأحداث أنه نصره حين لم يكن من المؤمنين استعداد بالقوة لعدوهم، كما أعانه على الكافرين بالمؤمنين من المهاجرين والأنصار.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

التفسير:

قوله تعالى - في الآية - تتمة لقوله في الآية السابقة، فبعد أن ذكر تعالى أنه أيد رسوله ﷺ بالمؤمنين، بين تعالى أنه كان متعذرا أن يكون المؤمنون الذين تم بهم تأييد رسول الله ﷺ يدا واحدة، إذ كانوا متعادين، بينهم وبين بعضهم البعض ثارات وحروب، كانت آثارها في النفوس لاتزال مشتعلة، ومن ذلك مثلا ما كان بين الأوس والخزرج - وهم الأنصار - من حروب قتل فيها سادات الفريقين وبقيت آثارها في النفوس انتقامات وثارات. أظهر تعالى أنه كان من المحال - بغيره تعالى - أن تأتلف قلوبهم فيصبحون كيانا واحدا يدفع فيه كل عن الآخر الأذى بقوله تعالى «لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم» بمعنى أن ما يبذل من جهد وما ينفق من مال من أجل ائتلاف قلوبهم لم يكن ليثمر شيئا أو يحقق نتيجة.

ثم إنه تعالى يذكر أنه الذى ألف بين هذه القلوب من بعد التناحر «ولكن الله ألف بينهم». فهو تعالى العزيز بعزته وبقوته لا يستعصى على إرادته أحد ولا شيء، وبحكمته كان تصريف القلوب، فأحبت ما أراد وكرهت ما كانت عليه مما لم يرد .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾

التفسـير:

بعد أن ذكر تعالى لرسوله ﷺ أنه الذى أيده بنصره وبالمؤمنين، فإنه تعالى يقول له «يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين» ناداه تعالى بصفته كنبى، مع التنبيه بـ «أى» لبيان أهمية ما سيخبر به وعلاقته بنبوته ﷺ، والمخبر عنه أنه تعالى كاف رسوله فى كل شيء، فيدخل فيما هو كافيه فيه ما بينه وبين الكافرين من حروب وعداء بسبب النبوة. وقوله تعالى «ومن اتبعك من المؤمنين» يقبل أن يكون المراد به أنه تعالى حسب من اتبع رسول الله ﷺ من المؤمنين وكافيهم، ويقبل أن يكون معناه أنه تعالى والمؤمنين هم حسب رسول الله ﷺ وكافوه. وقيل إن المؤمنين المذكورين فى نص الآية هم الأنصار، وقيل هم المهاجرون والأنصار.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

التفسـير:

بعد أن أعلم الله تعالى رسوله ﷺ أنه كافيه والمؤمنين شر أعداء الله، فإنه تعالى ـ فى الآية ـ يبين لرسوله ﷺ بعض مبادىء الحرب، فقوله تعالى «يا أيها النبى حرض المؤمنين على

القتال» يفيد معنى مباشرا وآخر غير مباشر، فـالمعنى المباشر هو إلزامه ﷺ أن يحث المؤمنين على قتـال الكافريـن وأن يبالغ فـى هذا. والمعنى غير المبـاشر هو التعـريف بما يجـب على القائد قبـل المعركـة من رفـع الروح المعنويـة لدى جنـوده، يكون بعقـد المؤتمـرات معهم، يتحدث فيهـا فيثبت لهم عـدالة قضيتهم التى يـدافعون عنها ويشـرح لهم الخطة فـى حدود واجباتهم ليعلم كل منهم دوره فيها ويلزمهم عدم التخلى عن الواجب.

يؤيـد هذا المعنى قولـه تعالى «إن يكـن منكم عشرون صـابرون يغلبوا مائتيـن، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون»، فالقول هو ـ من جهة ـ إخبار بوعد مشروط بشرط، فالوعد هـو بأن يكون النصر للمؤمنين على الكافرين ولـو كانت نسبة المؤمنين إلى الكافـرين هى العشر، بمعنى أن يكـون المؤمن ـ فـى جيش المسلمين ـ غالبـا عشرة من جيش الكـافرين، فيغلـب العشرون من المـؤمنين مائتيـن من الكافـرين، وتغلب المـائة من المؤمنيـن ألفا من المشركيـن، وشرط تحقق الـوعد هو الصبـر على شدائد الحرب وأهـوالها، والقول هو ـ مـن جهة أخرى ـ أمر للمؤمنين بـالصبر على القتال والاستمرار فيه لـو كانت نسبة عددهـم إلى أعداد الكافـرين هى العشـر. فيكون المؤمـن ملزما بالصبـر على القتال لـو كان مقاتلـوه من الأعداء عشرة، وتكـون الجماعة من المـؤمنين المشكلة مـن عشرين فردا ملـزمة بالصبر على قتال مائتين من الكافرين، ووحـدة القتال المشكلة من مائة مقاتل ملزمة بالصبر على قتال ألف جندى من جنود الكافرين .

ثم إنه تعالى يبين سبـب غلبة المؤمن عشرة من الكافرين ـ فى علم النـاس ـ بقوله تعالى «بأنهم قوم لا يفقهون»، فهـم لا يعلمون سببا صحيحا يستحث النفوس على القتال وفى سبيله يضحى بالأرواح شـأن المؤمنين الذين يقـاتلون امتثالا لأمر الله تعالـى واثقين أن وراء الشهادة فى القتـال حياة أبدية فـى النعيم، وهو ما يفتقـده الكافرون الذيـن تكون الحياة الدنيـا محط آمالهـم فيكرهون مفارقتهـا، فيكون من المؤمنيـن الشجاعة فى القتـال ـ وهى دعامـة النصر ـ ويكون من الكافرين الحرص على الحياة، وهو سبب الهزيمة. هذا من أمر السبب الظاهر، أما السبب الباطن فمنه أن المـؤمنين يفقهون أمور الدين الذى قدر له تعالـى أن يظهر على الدين كله فحق عليه تعالى أن ينصر المؤمنين ليتفقهوا فى الدين ويفقهوا غيرهم .

ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

التفسير :

قوله تعالى ـ في مبتدأ الآية ـ «الآن» يتعلق بوقت نزول قوله تعالى بالآية، وقد كان بعد فترة غير قصيرة من نزول قوله تعالى بالآية السابقة كثرت فيه أعداد المؤمنين على ما كانت عليه من قبل.

وقوله تعالى «خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا» يفيد أنه بما شرع فى الآية قد خفف عليهم ما كان فرضه عليهم من قبل، والمراد به ما ألزم به تعالى المؤمنين من الصمود أمام أعدائهم في القتال إذا كان عدد الكافرين الأعداء عشرة أمثالهم، بمعنى إلزام المؤمن بالصمود لعشرة من الكافرين، وإلزام العشرين بالصمود لمائتين، وإلزام المائة بالصمود لألف. ثم إنه تعالى يبين علة التخفيف وهى ما أصاب المؤمنين بضعف بعد كثرتهم، وقد يكون مرجع هذا الضعف هو ما أصاب عمد الصحابة المقاتلين من وهن الشيخوخة، وقد يكون مرجعه دخول قوم حديثى العهد بالإسلام فى صفوف المقاتلين ليس لهم ما للسابقين عليهم فيه من قوة الإيمان، وقد يكون هو الاعتماد على الكثرة فى تحقيق النصر، يضعف معها الاعتماد على الله، كما حدث فى غزوة حنين إذ أعجبت المؤمنين كثرتهم.

وبعد ذلك يجىء حكمه تعالى بالتخفيف بقوله تعالى «فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله» فيكون بإلزام المؤمنين بالصمود لأعدائهم الكافرين إذا ما كانوا مثليهم فى العدد، فيكون تعديلا بالتخفيف للإلزام بالصمود لعشرة أمثال عددهم، وتمثيلا لذلك ذكر تعالى صمود المائة من المؤمنين لمائتين من الكافرين، وصمود الألف لألفين. وأظهر تعالى أن غلبة المؤمنين تكون بإذنه تعالى، أو أن التخفيف على المؤمنين هو بإذنه .

وجاء قوله تعالى - فى ختام الآية - «والله مع الصابرين» مثبتا أمرين: أولهما هو نصره تعالى المؤمنين الصابرين، فهو بمثابة إعلام لهم أنه تعالى مؤيدهم، ومن كان الله معه لم يضره أحد ولم يغلبه، وثانيهما هو أهمية الصبر فى القتال، وأهمية مطلوبيته باعتباره شرطا لنصر الله.

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾

التفســـــــير:

قيل إن الخطاب - فى الآية - موجه إلى رسول الله ﷺ تضمن عتابا له لرؤيته فى الأسرى من الكفار أخذ الفدية، إلا أنه تخفيفا من العتاب ذكر لدى إبراز الفعل محل العتاب - «نبى» بدلا من ذكره ﷺ، أو الإشارة إليه. وقيل إن الخطاب موجه إلى المؤمنين الذى اقترحوا أخذ الفدية من الأسرى - وهو الفعل المستوجب العتاب - واستدل على هذا بقوله تعالى «تريدون عرض الدنيا» والمخاطب به هم المؤمنون أصحاب هذا الرأى.

ومعنى القول أنه لم يستقم لنبى من الأنبياء، ولم تجر سنتهم على أن يكون منهم - عند وقوع أسرى الكافرين فى أيديهم - إلا الإثخان فى الأرض، بمعنى ملء الأرض بدمائهم تثخن بخروجها منهم فتتجمد على الأرض. فيكون مفاد الحكم المستخلص من القول هو وجوب قتل أسرى المشركين. والمعلوم أن هذا الحكم كان فى مبتدأ أمر الإسلام حين كان المسلمون ضعفاء لم يقووا بعد على المشركين، فكان سبب الحكم هو ردع المشركين و إقلال أعدادهم وكسر شوكتهم؛ ولهذا كان منه تعالى - بعد أن قويت شوكة المسلمين. أن خير المؤمنين فى أسراهم بين المن - بإطلاق السبيل - وبين أخذ الفدية بقوله تعالى «فإما منا بعد وإما فداء».

ثم يجىء قوله تعالى «تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة» موجها إلى أصحاب الاقتراح على رسول الله ﷺ بأخذ الفدية من الأسرى، تضمن ذكرا لسبب اقتراحهم ما اقترحوا، كما تضمن لوما لهم عليه وعلى دافعهم إليه، فبين تعالى أنهم كانوا مدفوعين بالرغبة فى الحصول على المال من الفدية، وهو عرض زائل، وأنه تعالى يريد لهم ثواب الآخرة أو أنه ما يرضاه

لهم.

وقوله تعالى ـ فى ختام الآية ـ «والله عزيز حكيم» يفيد أنه تعالى الذى أعزهم بالنصر وأوقع أسرى الكافرين فى أيديهم، وأنه بحكمته أمر بالإثخان أو بقتلهم فى هذه المرحلة من مراحل انتشار الدين، وعلى ما سبق بيانه فإن حكمته تعالى قد قضت من بعد قوة الإسلام التخيير فى الأسرى بين المن وبين الفداء .

لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾

أولا : الأسـمـاء :

الكتـاب: فى قوله تعالى «كتاب من الله سبق» قيل إن المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو ما سبق إثباته فى اللوح المحفوظ من أنه تعالى لا يعذب أحدا بفعل إلا من بعد إظهار حكمه تعالى فيه بالنهى عنه. وقيل إنه إثباته تعالى أنه لا يعذب قوما ورسولهم فيهم، وقيل أنه إثباته تعالى عدم تعذيبه أهل بدر. وهذا محل رأى، لأنه لم يرفع عن هؤلاء التكليف، وإنما يكون منه تعالى توفيقهم إلى طاعته وعدم عصيانه فلا يعذبون .

ثانيا: التفسـير:

مفاد قوله تعالى ـ فى الآية ـ هو أنه تعالى لم يرض عن أخذ الفدية من الأسرى، وأن عدم رضائه عن الفعل كان مستوجبا معاقبة الذين أخذوا الفدية من الأسرى عذاب عظيم، وأن ما حال دون إيقاعه تعالى هذا العذاب بهم هو ما سبق أن سطر فى اللوح المحفوظ من أنه تعالى لا يعذب قوما بفعل أو ترك، إلا إذا نهاهم عن الفعل، ففعلوا ما نهوا عنه، أو أمرهم بفعل فتركوا ما أمروا به. وأنه لما كان تعالى لم ينههم من قبل عن أخذ الفدية، فإنه لم يوقع بهم عذابه العظيم بأخذهم إياها.

فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

التفســــير:

بعد أن بين تعالى للمؤمنين أنه لم يرض عن أخذهم الفدية من الأسرى، فقد كان طبعيا أن يكف المؤمنون ـ الذين يسعون إلى رضائه تعـالى ويتجنبون ما يغضبه ـ عن الإفادة مما أخذوا من الفـداء، فجاء قـوله تعالـى بالتخفيف عليهـم بواسـع رحمته فأبـاح لهم الاستفـادة منها، فمعنى قـوله تعالى «فكلـوا مما غنمتم حلالا طيبـا» هو أنه تعـالى أحل لهم الغنـائم جميعها يأكلونها ويفيدون منها، ثم إنه لما كان قد سبـق منه تعالى تحليل غنائم الحرب لهم، فإنه لم يبق إلا الفدية، فيكون قوله تعالى مفيدا تحليـل أكلها. وقيل إن مفاد القول أنه تعالى أحل لهم غنائم الحـرب الأخرى، فيكـون القول داعما نهيـه تعالـى عن أكـل الفدية، وهـو ما لا يـؤيده السياق.

وقوله تعالى «واتقوا الله» هـو أمر بتقواه فى كل ما أمر به ونهى عنه، أعقبــه قوله تعالى «إن الله غفور رحيم» مفيـدا معنى إباحة أكل ما أخـذ المؤمنون من فداء، ومظهرا أنـه كان عملا لا يرضاه تعـالى للمؤمنين، وقـد غفره تعالى لهـم رحمة بهم من فضلـه عليهم وإحسانه بـواسع رحمته.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠

التفســــير:

الخـطاب فى الآية موجه إلى رسول الله ﷺ بصفته رأس المؤمنين الذين حازوا الأسرى فى بدر وقـائدهم. يأمره ربـه أن يقول لهؤلاء الأسرى ــ والمراد بهم الذيـن دفعوا الفدية أو الـذين كانوا فـى سبيلهم إلى دفعها ـ أنـه إذا كان فى قلوبكم نـور يهديكم إلى الإيمان بـالله ورسوله الذى هـو خير لكم ممـا يعلمه الله العالـم بالسرائر، فإنـه تعالى ينعـم عليكم من نعـم الحياة الدنيا ما يزيد على ما أخذ منكم من الفداء ـ والمفهوم أن هذا يكون بعد إيمانهم وانضمامهم

إلى صفوف المؤمنين وقيل إن الآية نزلت فى العباس دفـع فدية أكثر من غيره فلما آمن عوضه الله تعالى مالا كثيرا، والقول له من العمومية ما يجعله منصرفا إلى غيره من الأسرى فيما لو كان قد أنزل فيه قوله تعالى فى الآية.

وبعد ذكر رسول الله ﷺ للأسرى أنه تعالى يؤتيهـم أفضل مما دفعوا من الفدية إن هم آمنوا بالله ورسوله ـ بأمـر ربه ـ فإنه ﷺ يعلمهم أنه تعالى يغفر لهم ما سبق من الذنب، يكون ذلك منه تعـالى بـواسع مغفرتـه، وبفيض رحمتـه. فيكون القـول حثا على الإيمـان والدخـول فى الإسلام ببيان ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

التفسـير:

الخطاب فى الآية إلى رسول الله ﷺ، يطمئنه ربه مـن جهة الأسرى الذين أعطوا الفدية أو وعدوا بإعطائها، فيعلمه تعالى أنهم لن يكسبوا من مكر يمكرونه به خيرا.

فقوله تعـالى «وإن يريدوا خيـانتك فقد خانوا الله مـن قبل» مفاده أنه إذا كـان الأسرى قد أضمروا فى نفوسهـم خيانتك، تكون بعد إعطاء الفـدية التى وعدوا إعطاءها، أو بـالعودة إلى محاربتك أو منـاصرة أعدائك عليك مـن بعد إعطائهم العهـد على عدم رفع السـلاح عليك والمؤمنين وعدم تأييدهم عليك عدوك، أو بالارتداد عن الدين والعودة إلى الكفر ممن أعلنك بإسلامه. فإن ذلك ليس بجديد على الكافريـن، فقد سبق منهم خيانة الله تعالى فكفروا به من بعد أخذه تعالى الميثاق عليهم ومن بعد رؤيتهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم.

ويجىء ذكر ما يبعث الطمأنينة فى نفس رسـول الله ﷺ بقوله تعالى «فأمكن منهم» بمعنى أنه كان جزاؤهم علـى خيانتهم الله تعالى هو أن أقدرك الله عليهم فى بدر، فيكـون قوله تعالى مفيدا معنى أنهم إذا خانوه ﷺ فإنه تعالى يـؤيد رسوله عليهم ويمكنه منهم ينتقم منهم كيف يشاء.

وقوله تعالى - فى ختام الآية - «والله عليم حكيم» هو لبث المزيد من الطمأنينة فى نفسه ﷺ، إذ يعلمه ربه بما يعلم من أنه تعالى يعلم ما انطوت عليه صدور الأسرى، وأنه بحكمته تعالى كاف رسوله ﷺ مكرهم إن أرادوا به مكرا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

التفســـــير:

الآية من آيات الأحكام، وحكمها من الأحكام التى تعلقت بأسباب النزول أو بالظروف التى أحاطت به، فيمكن القول بأنها بانتهاء هذه الظروف لايكون مجال لتطبيقها، سواء أكانت قد نسخت أم لا..

وقوله تعالى «إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض» قد تعلق بفريقين هم المهاجرون والأنصار، وصف تعالى المهاجرين بأنهم الذين آمنوا، فهم أوائل المؤمنين بالإسلام وبرسول الله ﷺ، وبأنهم الذين هاجروا فتركوا بيوتهم ومدينتهم مكة، وبأنهم الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، إذ أنفقوا المال لتوفير مطالب الهجرة ولتدبير لوازم القتال وعدته ثم قدموا نفوسهم بالحرب فى صفوف المؤمنين أو كانوا هم جيش المؤمنين، وكان بذلهم المال والنفس من أجله تعالى وفى سبيل رفعة دينه. ووصف تعالى الأنصار بأنهم الذين آووا ونصروا، فهم قد آووا المهاجرين فى مدينتهم وفى بيوتهم إلى أن اتخذوا لهم فى المدينة بيوتا، وهم الذين نصروا

رسول الله ﷺ ونصروا المهاجرين على أعدائهم.

وفى شأن الفريقين يأتى حكمه تعالى «أولئك بعضهم أولياء بعض» والمراد بالولاية ـ فى نص الآية ـ هو الولاية فى الميراث، كانت عندما آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فأصبح المهاجر بالمدينة يرثه أخوه الأنصارى إن لم يكن للمهاجر ولى وارث من المهاجرين معه فى المدينة، بمعنى أنه لم يكن يرث المهاجر قريبه الذى لم يهاجر وإنما يرثه أخوه بالتآخى من الأنصار. وهذا ما أثبته قوله تعالى «والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا» بمعنى أن أقرباء المهاجر من المؤمنين الذين لم يهاجروا ليس لهم من قرابتهم ما يرثون به قريبهم المهاجر الذى توفى عن مال يورث، فإن هاجروا ثبت لهم هذا الحق.

ثم إنه تعالى يأتى ـ فى الآية ـ بحكم آخر تضمنه قوله «وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق» والقول متعلق بأقرباء المهاجرين من المؤمنين الذين لم يهاجروا، فيقول تعالى أنهم إذا طلبوا من المؤمنين مناصرتهم على أعدائهم المشركين أعداء الدين، فليكن من المؤمنين مناصرتهم، ثم إنه تعالى يستثنى من واجب المناصرة الحال التى يكون فيها المستنصر بالمهاجرين عليهم قوما قد عاهدهم المؤمنون على عدم مقاتلتهم أو التحالف مع آخرين عليهم، والعلة من هذا الاستثناء واضحة تتمثل فى وجوب احترام العهود والمواثيق.

ويجىء قوله تعالى «والله بما تعملون بصير» مثبتا علمه تعالى بما يفعل المؤمنون فى شأن أوامره تعالى، ومنها أحكامه التى ورد بها نص الآية، ومثبتا مجازاته تعالى بها، فيكون القول حثا على التزام أحكامه تعالى والتقيد بها .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾

التفسير:

قوله تعالى ـ فى الآية ـ تتمة لحكمه تعالى فى شأن التوارث، وقيل إنه فى شأن التوارث

والمؤازرة، فمعنى قوله تعالى «والذين كفروا بعضهم أولياء بعض» يفيد ـ بمفهوم الموافقة ـ أن الكافرين يرث بعضهم بعضا، ويؤازر بعضهم بعضا، ويفيد ـ بمفهوم المخالفة ـ أنه لا توارث بين المؤمن وبين الكافر ولا مؤازرة. فالقول ـ وإن جاء فى معنى الإخبار ـ إلا أنه يتضمن حكما مفاده النهى عن التوارث والمؤازرة بين المؤمنين والكافرين .

ثم إنه تعالى حض على التزام هذا الحكم ببيان أثر مخالفته فى الحياة الدنيا بقوله تعالى «إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» فيقول تعالى للمؤمنين إنهم إذا لم يفعلوا ما جاء به حكمه تعالى فى الآية وفى الآية التى سبقتها فإنه يترتب على هذا فتنة فى الأرض، يكون منها اختلاف الكلمة وتقوية الكفر، ووقوع النزاعات تسقط فيها الأرواح وتسفك الدماء .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾

التفسـيـر:

بعد أن ذكر تعالى أن الكافرين بعضهم أولياء بعض، فإنه تعالى أثنى فى الآية على فريقى المؤمنين الذين ذكرهم وهم المهاجرون والأنصار، فأثبت تعالى أنهم المؤمنون حقا، بمعنى أنهم الذين كمل إيمانهم، ثم إنه تعالى أثبت أن لهم منه المغفرة، يغفر لهم ذنوبهم، ويرزقهم رزقا كريما فى الدنيا، يكون حلالا فى مصدره، مستلذا فى مطعمه، ورزق الآخرة أعظم وأظهر.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾

أولا : الأســــــماء :

١ ـ **الذين آمنوا من بعد** : قيل إن المراد بهم ـ في معنى الآية ـ هم المهاجرون من بعد صلح الحديبية ـ وهى الهجرة الثانية ـ وقيل هم المهاجرون من بعد نزول الآية، وقيل هم المهاجرون من بعد غزوة بدر. والراجح أنهم المهاجرون بعد صلح الحديبية .

٢ ـ **كتاب الله** : قيل إن المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو اللوح المحفوظ، وقيل إنه حكمه تعالى فى آيات المواريث.

٣ ـ **أولوا الأرحــام** : جمع، مفرده «ذو الرحم» والمراد بهم ـ فى معنى الآية ـ هو العصبات.

ثانيا التفســــــير :

بعد أن ذكر تعالى المهاجرين والأنصار وأثنى عليهم وأثبت ما أعد لهم من الرزق الكريم مع الوعد بالمغفرة، فإنه تعالى ذكر فى الآية هؤلاء الذين آمنوا من بعد الهجرة الأولى، وهاجروا فى الهجرة الثانية التى كانت بعد صلح الحديبية، فخاطب تعالى المؤمنين المهاجرين الأول وأعلمهم أن المهاجرين فى الهجرة الثانية صاروا بإيمانهم وبهجرتهم منهم. وقد يفيد معنى إلحاقهم بالمؤمنين المهاجرين الأوائل معنى أنهم دون الأوائل فى المرتبة عنده تعالى وإن تساووا معهم فى شأن أحكام الميراث. بمعنى أن هؤلاء المؤمنين المهاجرين فى الهجرة الثانية يرثون أقرباءهم المهاجرين ولو كانوا من أصحاب الهجرة الأولى وتحق لهم المؤازرة عليهم .

ثم إنه تعالى يؤكد معنى توريثهم أقرباءهم المهاجرين الأوائل بقوله «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض» بمعنى أن ذوى القرابة من المهاجرين هم الأحق من غير الأقرباء فى إرثهم، وذكر تعالى أن هذا هو حكمه المسطور فى اللوح المحفوظ، بمعنى أن الإرث يكون بالقرابة أو النسب؛ ولهذا قيل إنه بنزول الآية ترك المسلمون التوريث بالتآخى وتوارثوا بالنسب، ولهذا أيضا قال البعض إن الآية قد نسخت التوارث بالتآخى .

■■■■■

ســورة التوبة

تقديم : فى العلاقة بين السورة وبين سورة الأنفــال :

تبين العلاقة بين السـورة وبين سابقتها فى ترتيب المصحف الشريـف من ملاحظة أوجه الصلة التى قال بها أصحاب النظر، والتى نذكر منها :

١ ـ جـاء فى سـورة الأنفال حكمه تعـالى فـى الغنائم وكيفية تقسيمهـا بتقسيمها أقسـاما خمسة. وتعييـن أصحاب كـل قسم منهـا. وفى السـورة جاء حكمـه تعالـى فى شـأن تقسيم الصدقات، وتعيين أصحابها،فجعلها ثمانية أقسام بعدد الذين ينالونها أو تكون لهم .

٢ ـ أورد تعالـى فى سورة الأنفال ذكـر العهود وأوضح وجوب الـوفاء بها، وفى السـورة أمر تعالى بنبذ عهود الكافرين عند وقوع ما يستوجب ذلك.

٣ ـ أمر تعالى فـى سورة الأنفال بالإعداد للقتال بقوله تعالى «وأعـدوا لهم ما استطعتم من قوة». وفـى السورة نعـى تعالى علـى المنافقيـن عدم الإعـداد لقتال الكافـرين ونسـب إليهم تقاعسهم بقوله تعالى «ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة».

٤ ـ أمـر تعالى المؤمنيـن فى سورة الأنفال أن يكـون بعضهم أولياء بعض، وأن يقطعـوا ما بينهم وبين الكافـرين، وفى السورة صرح تعالى بمـا أمر فى سورة الأنفال بقولـه تعالى «براءة من الله ورسوله» .

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ①

أولا : الأســــماء :

١ ـ البراءة : فى قوله تعالى «براءة من الله ورسوله» هو قطع الصلة، وهى إزالة الشىء أو أثره عن النفس، فيكون معنى القول هو إن الله برئ من المشركين ورسوله.

٢ ـ الذين عاهدتم من المشركين : المراد بهم ـ في معنى الآية ـ مشركو مكة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ بتوليه العقود معهم برضاء أصحابه، فنسب إليهم العهد.

ثانيا : التفسير:

قوله تعالى «براءة» يقبل أن يكون معناه هو «هذه براءة» فتكون «براءة» خبرا لمبتدأ مضمر، ويقبل أن يكون معناه هو «التزموا براءة» فتكون «براءة» منصوبة، ويقبل أن تكون «براءة» مبتدأ. وأن يكون خبره في قوله تعالى «إلى الذين عاهدتم» .

ومعنى القول أنه تعالى برىء من المشركين الذين عاهدهم رسوله ﷺ بموافقة المؤمنين، وأن رسوله برئ أيضا منهم، فيكون القول متضمنا إلزام المؤمنين بالتبرؤ منهم، وقد كان ذلك بعد أن نكث هؤلاء المشركون بالعهد إلا بني ضمرة وبني كنانة، ومعنى البراءة منهم هو التبرؤ من العهد المقطوع لهم. فهو نبذ للعهد أو فسخ له، والعهد هو عهد الله أبرمه رسوله صلى الله عليه وسلم برضاء المؤمنين فنسب إلى مجموع المؤمنين .

فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾

التفسير:

قوله تعالى ـ في الآية ـ «فسيحوا في الأرض أربعة أشهر» هو خطاب تضمن ما يقوله رسول الله ﷺ للمشركين الذين نبذ عهدهم، وهو بتأمينهم السير في الأرض إقبالا وإدبارا آمنين على أنفسهم أن يقتلهم المؤمنون أو يؤذوهم وذلك خلال فترة أربعة أشهر من تاريخ نبذ عهدهم. وقيل إن المعاهدين كانوا صنفين :

أحدهما كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر، أو أنه كان الباقي من مدة عهدهم أقل من أربعة أشهر، فأمهلوا إلى تمام الأربعة الأشهر، والآخر كانت مدة عهد غير محددة بأجل فأمهلوا أربعة أشهر.

ويبين من إمهال المشركين أربعة أشهر لا يقاتلهم خلالها المؤمنون ولا يتعرضون لهم بأذى أن المؤمنيـن أظهروا قوتهم بـأمره تعالى إلـى الدرجة التى لـم يعودوا يخشون معها أن يتـركوا للمشركين فـرصة يستعدون خلالهـا لملاقاتهم، وأن المـؤمنين ـ بأمـر ربهم ـ قد قطعـوا على المشركين سبيل الادعاء عليهم بالخيانة تكون بقتلهم بمجرد نقض العهد .

وقيل إن الأربعة الأشهر هى شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وقيل إنها كانت من يوم النحـر إلى انقضاء العـاشر من ربيـع الأول. كذلـك قيل فى سبـب نزول الآية إنـه بعد أن صالح رسول الله ﷺ قريشـا عام الحديبية، دخلت خزاعة فى عهـد رسول الله، ودخل بنو بكر فى عهد قريـش، ثم عدت بنو بكر على خزاعـة ونقضت عهدهم، ثم حدث أن قـوما من بنى بكر هاجموا خزاعة وقاتلوهم فأعانت قريـش بنى بكر فانهزمت خزاعة، فخرج عمرو بن سالم الخزاعـى وقدم إلى رسـول الله ﷺ مستغيثا به، فقال رسـول الله ﷺ «نصرت إن لم أنصـر بنى كعب» ثم تجهز وفتح مكة سنة ثمان للهجرة.

وفى السنة التـاسعة للهجرة بعد عـودة رسول الله من غزوة تبـوك أرسل أبا بكر أميـرا للحج وبعث معه أربعين آية من سورة التوبة، ثم بعث خلفه عليا كرم الله وجهه بأربع هن: ألا يطوف بالبيت عريان، ومن كـان بينه وبين النبى ﷺ عهد فهو إلى مدته، ومن لـم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر، ولا يدخـل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المسلمون والمشـركون فى المسجد الحرام بعد عامهم هذا .

وقوله تعالى «واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين» هو من قول رسول الله ﷺ للمشركين الـذين نبذ إليهم عهدهـم، يعلمهم أنهم بسياحتهم فـى الأرض خلال الأربعة الأشهر التى أمنهم خلالهـا على أنفسهم لن يستطيعوا الهروب مما أراده بهم سبحـانه وتعالى جزاء على نقضهـم العهد كما لن يستطيعوا التحصـن منه بحصن من الناس أو مـن المواقع، وأنه تعالى مخزيهم فى الدنيا بالهزيمة يقتـل منهم فيها من يقتل، ويؤسر من يؤسر، ومخزيهم فى الآخرة بالعذاب المهين.

■■■■■

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾

أولا : الأسماء:

١ ـ أذان : هو الإعلام يكون بطريق ينقل النبأ ـ قولا ـ إلى الناس فيعرفون مضمونه عن طريق آذانهم.

٢ ـ يوم الحج الأكبر : قيل إن المراد به ـ في معنى الآية ـ هو يوم العيد لقوله ﷺ في يوم النحر هذا هو يوم الحج الأكبر. وقيل هو يوم عرفة لقوله ﷺ «الحج عرفة».

ثانيا : التفسير:

قوله تعالى ـ في الآية ـ هو إفادة عن السورة، فهي ـ بالنسبة للمشركين المعاهدين ـ براءة من عهودهم، وهي ـ بالنسبة لكافة الناس ـ إعلام، وهي في الحالين من الله تعالى منزلها، ومن رسوله ﷺ مبلغها، والمراد بقوله تعالى «وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر» هو أمر بإعلام الناس جميعا لدى اجتماعهم يوم الحج عن طريق النداء عليهم والنطق بالفم لتسمع آذانهم، ووصف تعالى يوم العيد أو يوم عرفة بأنه يوم الحج الأكبر لأنه يطلق على العمرة الحج الأصغر، ومضمون ما يعلم به الناس هو «أن الله برئ من المشركين ورسوله» والمراد بالقول أنه تعالى قد قطع ما بينه وبين المشركين من عهد أبرمه معه رسوله ﷺ بأمره تعالى، أو أنه تعالى ورسوله ﷺ بريئين من العهود المقطوعة مع المشركين.

وقوله تعالى «فإن تبتم فهو خير لكم» هو من جملة ما يتضمنه إعلام الناس من بعد إعلان المشركين به، فيكون المخاطب بالقول هم المشركين، والمعنى أنهم إن يتوبوا إلى الله بترك الكفر، والدخول في الدين والكف عن نقض العهود، فإن ذلك يكون فيه خيرهم في الدنيا والآخرة، فيكون القول ـ بهذا المعنى حثا للمشركين على التوبة، وعلى الدخول في دين الله .

وقوله تعالى «وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم» هو تهديد للمشركيـن بعذاب الدنيا والآخرة إذا هم أصـروا على الكفر ولم يتوبوا عنـه، عبر النص عن التفاتهم عن دعوتهم للإيمان بالتولى يكون بالابتعاد والنأى عما يدعون إليه، أخبر تعالى عن نتيجته أنها تكون بـاللحاق بهم لنيل عذاب الدنيا، جاء التعبير عن هـذا بأنهم لا يعجزونه تعالى، بمعنى أنهم لا يستطيعون الإفلات من عذابـه الدنيوى يوقع بهم، فهم لا يستطيعون منه فرارا. ثم إنه يكون لهم من بعد العذاب الأليم فى الآخـرة، وذلك على ما يبين من قوله تعالى «وبشـر الذيـن كفـروا بعـذاب أليم» جـاء فيـه التعبيـر بالبشـارة أو التبشيـر مـن قبيل التهكـم بالكافرين، ومضمون البشارة هو العذاب الأليم جزاء على التولى والاستمرار على الكفر.

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

التفســــــير:

الخطاب ــ فى الآيـة ـ مـوجه إلـى المؤمنيـن الذيـن أمرهـم الله تعالـى أن ينقضوا عهـود المشركين وأن يمهلوهم أربعـة أشهر لا يتعرضون لهم خلالها بأذى. جاء قولـه تعالى باستثناء فئة من الكـافرين من الإمهـال مدة أربعة أشهر لا تزيـد، هذه الفئة المستثناة مـن الحكم هى التى ورد فيها قوله تعالـى «إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصـوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحـدا» فهم من ضمن المشـركين الذيـن عاهدهـم رسول الله ﷺ إلا أنه كان منهـم ما استوجب استثناءهم مـن حكمه تعالى فى شأن عهود المشركين عامـة. وهذا الذى كان منهم هو أنهم لم ينقصوا مـن عهودهم شيئا، بمعنى أنهم لم يخلوا بشرط من شـروطه وإنما التزموا بها جميعها، كما أنهم لم يناصروا عدوا لرسول الله ﷺ على المؤمنين.

وحكمه تعـالى فـى هؤلاء ، والذى جـاء ـ فـى عبارة النـص ـ كأنـه جواب لفعـل الشرط المتمثل فـى عدم إنقـاص شيء مـن العهد وعـدم المظاهـرة على المـؤمنين، هـو عدم نبـذ عهودهم، واستمرار سريانها إلى الأجل المحدد لسريـانها «فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم»

وقيل إن هذا كـان مع بنى ضمرة وبنى مـدلج من كنانة، كان بـاقيا من عهودهم سـريان تسعة أشهر، فأتمها ﷺ لهم .

وقوله تعالى ــ فى ختام الآية ـ «إن الله يحب المتقين» هو تحبيب للمـؤمنين فى تنفيذ أمره تعالى باستثناء هؤلاء الذين لم ينقصوا شيئا مـن عهودهم ولم يظاهروا على المؤمنين عدوا من حكمه تعالى بنبـذ عهود المشركين، فبين تعالى أن الـوفاء بالعهد لمن لم ينقـض عهده ـ ولو كان مشركـا ـ هو من الواجـب الذى يستوجب المـؤاخذة خلفه، وأنه على المـؤمنين أن يتقوا إغضابه تعالى بعدم الوفاء بالعهود والتماس رضائه بالوفاء بها .

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

أولا : الأسـمـاء :

١ ـ **الأشهـر الحرم** : قيـل إن المراد بهـا ـ فـى معنى الآيـة ـ هـو الأربعة الأشهـر التى أمـن المؤمنون خلالها المشركين الذين نقضوا عهودهـم، وقيل إنها هى بالنسبة لناقضى العهد من المشركين، وبقية مدة عهود الذين لم ينقضوا عهـودهم ولم يظاهروا على المؤمنين أعداءهم. وقيـل إنها الأربعـة الأشهر الحـرم، رجب، وذو القعـدة، وذو الحجـة، والمحرم مـن كل عـام. والراجح أنها الأشهر الأربعة التى أمن المؤمنون خـلالها المشركين ناقضى عهودهم، والأشهر المتبقية من عهود المشركين الذين لم ينقضوا عهودهم .

٢ ـ **المرصـد** : فى قـوله تعالـى «واقعدوا لهم كل مـرصد» هو المكـان الذى يرصـد فيه العـدو .

ثانيا : التفسـير:

قوله تعـالى ـ فى الآيـة ـ أمر إلى المـؤمنين بما يكون منهـم بعد انقضاء الأشهر التـى أمنوا

خلالها المشركيـن المعاهدين، فهى الأربعة الأشهـر بالنسبة لناقضى العهد منهـم وهى نهاية مدة عهود غيرهم الذين لم ينقضوا عهودهم ولم يظاهروا عدوا للمؤمنين عليهم .

والذى أمـر تعالى بـه المؤمنين يكـون بانقضـاء الأشهر الحرم. جـاء التعبير عن انقضـائها بالانسلاخ فكـان تشبيها لها بالجلد الذى يحمـى ما تحته، لأن هذه الأشهر كانـت دافعة عن المشركيـن تعرض المـؤمنين لهـم . يكون بعـدها مـن المؤمنيـن معهم قتلهـم فى أى مكـان يجدونهم فيه سـواء أكان حلا أم حرما، ويكون أخـذهم أسرى، جاء التعبير عن الأسـر بالأخذ لأنه ليس فيه استرقاق لأن مشركى العرب لا يسترقون. وقيل إنه فى هذا الأسر يتم تخييرهـم بين القتل والإسلام، ويكـون بمحاصرتهم فـى المواقع التى اتخـذوها حصونا لهـم وذلك تمهيدا لقتلهم أو أسرهـم، ويكون بترصدهم حيثما ثبتـوا أو انتقلوا ليكونوا تحت النظـر فيمكن النيل منهم بالقتل أو الأسر.

فيكون قوله تعالى «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصـد» هو أمر بالقتل، وبـاتخاذ كل سبيل يوصـل إليه أو إلى تخيير المشركيـن بينه وبين الإسلام .

وقوله تعالى «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، إن الله غفور رحيم». يفيد معنى تخيير المشـركين العرب بين القتل وبين الـدخول فى الإسلام. والحديث فـى الآية هو عما يكون من المؤمنيـن مع المشركين الأسرى إذا ما آمنوا بالإسلام، جـاء التعبير عن دخولهم الإسلام بـالتوبـة والمراد بهـا التوبـة عن الكفـر والشرك، وهـو ما يكـون بإعـلان الدخـول فى الإسلام، ثم جاء ذكـر إقامتهم الصلاة وإيتائهم الـزكاة تعبيرا عن قيامهم بـالعبادات المفروضة بنوعيها البـدنية منها والماليـة. والذى أمر به تعـالى المؤمنين إذا مـا تاب المشركون وأقـاموا الصلاة وآتوا الزكاة هـو أن يخلوا سبيلهم من الأسر أو الحبس الذى كانـوا فيه، والمراد بإخلاء السبيل هـو تركهم وعدم التعـرض لهم بالأذى علـى أى وجه، ومن مظـاهر هذا ترك مـن يتجه منهم إلى المسجد الحرام وعدم التعرض له، لأنه ليس للبشر إلا ما هو منظور ومسموع، أما أمر القلب فهو لله تعالى .

وقولـه تعالى «إن الله غفـور رحيم» هو تعليـل لأمره تعـالى المؤمنيـن بتخلية سبيل الـذين

أعلنوا إيمانهم وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فهو تعالـى يغفر لمن آمن من الكافرين ما قرف من الذنب فـى زمن كفره، ويثيبه على فعـل الطاعات، وهذا وذاك فضـل منه تعالى يؤتيـه بواسع رحمته .

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۞﴾ ٦

أولا : الأســــماء :

١ ـ كلام الله : قيل إن المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو القرآن العظيم فى مجموعه، وقيل إن المراد به هو سورة براءة أو التوبة .

٢ ـ المأمن : فى قـوله تعالـى «ثم أبلغه مأمنـه» هو المكان الـذى يجد الإنسان فيـه أمنه، والمراد به ـ فى معنى الآية ـ هو ديار قوم المرء .

ثانيا : التفســـير :

الخطاب ــ في الآية ــ موجـه إلى رسول الله ﷺ يتضمـن أمرا بما يكـون منه ﷺ مـع من يستأمنه من المشركين ويطلب مجاورته بعد انقضاء أجل الأمان المضروب.

جـاءت عبارة الآيـة فـى صيغة جملـة شـرطية فعـل الشـرط فيها هـو استجـارة أحد مـن المشركين برسـول الله ﷺ بعد انقضاء أجل الأمان المضروب، وجواب الشرط هـو أمره تعالى رسولـه بتأمين المستجير به، يكـون إلى أجل هـو أن يسمع كلام الله، فيكـون إسماعـه القرآن العظيم يفهمه بحكم كونه عربيا وقد أنزل القـرآن بلغته، ويتدبره بما عليه العرب من فصاحة، ثم يكون منه ﷺ بعد هذا أن يبلغه مأمنه، فيصل به إلى ديار قومه التى يأمن فيها على نفسه، أو يمكنه من هذا .

وبعد أن يذكر تعالى مضمون أمره لرسوله ﷺ فإنـه يبلغه علته بقوله تعالى «ذلك بأنهم قوم لا يعلمون» بمعنـى أن تأمين المستجيريـن، والأمر بتبليغهم مأمنهـم إنما كان لجهلهم مـاهية الإسلام وحقيقة ما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ فوجب إتاحة الفرصة لهم لمعرفة ذلك فلا يعود

لمن لم يؤمـن حجة يعتذربها عن عدم إيمـانه يبديها حين يتعرض للقتـل جزاء على الإصرار على الكفر.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾

أولا : الأســــــماء :

المشركون : فى قـوله تعالـى «كيف يكون للمشـركين عهد». المـراد بهم هم المشـركون الناكثون عهودهم، الذين برئ منهم الله تعالى ورسوله .

ثانيا : التفســــير:

قوله تعالى «كيـف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسولـه» هو استفهام إنكارى، أريد به إثبات أنه ليس للمشـركين عهد مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ يـراعونه ولا ينقضون ، فهم لا عهود لهـم ولا أمان. ثـم إنه تعـالى يستثنى مـن المشركيـن المعاهديـن من سبق له تعـالى استثناءهم وهم الذين لم ينقصوا شيئا من عهودهم ولم يظاهروا على المؤمنين أعداءهم، ذكر تعالى بشأنهـم ما جعلهم يتمسكون بعهودهم بقولـه تعالى «إلا الذين عاهـدتم عند المسجد الحرام» فأثبت أن مكان العهد الذى لم ينقضوه كان عند المسجد الحرام .

ثم يذكر تعالى حكمـه بشأنهم بأمر منه للمؤمنين «فما استقامـوا لكم فاستقيموا لهم» وهو أمر بالـوفاء بالعهد إلـى مدته، وإن كان مشـروطا بشرط استمرار المشـركين المعاهديـن على الوفاء بالعهد وعدم مظاهرة أعداء المؤمنين عليهم .

وقوله تعالى ــ فى ختام الآية ـ «إن الله يحب المتقين» هو حث للمـؤمنين على التزام أمره بالوفاء بعهود هؤلاء المذكورين إلى مدتها ما لم ينقضوها أو يظاهروا على المؤمنين أعداءهم، وذلك بإعلام المؤمنين أن الوفاء بالعهد هو من قبيل التقوى التى تقرب إلى رضائه تعالى .

﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨﴾

أولا : الأســــــماء :

١ ـ **الإل** : فى قوله تعالى «لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة» قيل إن المراد به ـ فى معنى الآية ـ هو الرحم أو القرابة، وقيل هو الجوار، وقيل هو بمعنى الله تعالى، وأنه لفظ عبرى .

٢ ـ **الذمة** : هى الحق الذى يعاقب على مغفله، وقيل هو العهد .

ثانيا : التفســـير :

جاء قوله تعالى «كيف وإن يظهروا عليكم لا يـرقبوا فيكم إلا ولا ذمة» استفهاما مفيدا معنى الإنكار، مثبتا فى حق المشركين المعاهدين أنهم لا يراعون عهد قطعوه مع أحد، فيثبت تعالى أنهم ـ مع وجود عهودهم مع المؤمنين ـ إذا حدث أن ظفروا بهم أو وقعوا فى أيديهم فإنهم لا يراعـون سببا للرأفـة بهم أو الـرحمةولو كـان المؤمن مـن ذوى قرابتهـم أو من له عليهـم حق بموجب عهد أو حلف، إذ يكون منهم التقتيل والتنكيل.

وقولـه تعالى «يرضـونكم بأفـواههم وتأبى قلـوبهم وأكثرهـم فاسقون» هو إثبـات لحقيقة المعاهـدين المشركين الـذين ينقضون العهد فـى حالتى القـوة والضعف، وقد سبق بيـان ما يكون منهم لو كانت لهم الغلبة على المؤمنيـن والظفر بهم. وفى القول إثبات لما هو منهم فى حال الضعف إذ يداهنون المؤمنين ويبدون لهم الوفاء بالعهود بأفواههم ويصافونهم بألسنتهم ويعدونهم بالإيمـان ويقسمون على هذا بالأيمان الفـاجرة، على حين تكون قلوبهـم منطوية على الخداع عازمة على نقض العهد، منتظرة الفرصة التى يجاهرون فيها بالعداوة.

ثم إنه تعالـى يثبت فى حقهم أن أكثرهم فـاسقون «وأكثرهم فاسقون» متمـردون ليس لهم عقيدة ثابتة تردهم عن نقض العهد ولا مروءة.

■■■■■

تم بعون الله المجلد الثانى

من التفسير النفيس ويليه إن شاء الله المجلد الثالث

وأوله ـ تابع تفسير سورة التوبة الآية ٩

أعان الله على إتمـــامه

بسم الله الرحمن الرحيم

تنبيـــــه

حرصًا من دار الـغـد العربى على مصلحة قرائها التـى استوجبت حصر أعداد هذا التفسير للقرآن العظيم «النفيس فى معانى الأسماء وبيان الأعلام بتفسير القرآن» فى أقل عدد ممكن من الأعداد دون إخلال بالمادة العلمية. فقد ارتـأت أن يكون إيراد آيـات سور القرآن العظيم ـ بالنسبة لكـل سورة مجمَّعًا، أو جامعا مجموعـة من آياتها يتم من بعد شرح معـانى ما ورد بكل منها من أسماء، وبيـان ما يتعلق بالأعلام مع تفسيرها، مـع الإشارة إلى كل آية برقمها فى السورة .

وتأمـل الدار أن تكون بهـذا قد أوفت بـوعدهـا قارئيها أن تحـرص على مصالحهـم ومنها مصلحتهـم المادية ألاَّ ينفقـوا فى سبيـل العلم مـا يمكن توفيره.

والله هو الموفق ، يهدى إلى خير السبيل ..

بسم الله الرحمن الرحيم

فهـرسـة المجلد الثانى من النفيس فى معانى الأسماء وبيان الأعلام بتفسير القرآن

العنوان	الصحيفة	العنوان	الصحيفة
الآية ١٤ـ ﴿قل أغير الله أتخذ وليا﴾	٣١٨	الآية ٣٢ـ ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعب﴾	٣٤٠
الآية١٥ ـ ﴿ قل إنى أخاف إن عصيت ربى﴾	٣١٩	الآية ٣٣ـ ﴿ قد نعلم أنه ليحزنك﴾	٣٤١
الآية ١٦ـ ﴿ من يصرف عنه يومئذ﴾	٣٢٠	الآية ٣٤ ـ ولقد كذبت رسل من قبلك﴾	٣٤٣
الآية ١٧ـ ﴿وإن يمسسك الله بضر﴾	٣٢١	الآية ٣٥ ـ وإن كان كبر عليك إعراضهم﴾	٣٤٤
الآية ١٨ـ ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾	٣٢١	الآية ٣٦ ـ إنما يستجيب الذين يسمعون﴾	٣٤٦
الآية ١٩ـ ﴿قل أى شيء أكبر شهادة﴾	٣٢٣	الآية ٣٧ ـ ﴿ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه﴾	٣٤٧
الآية ٢٠ـ ﴿ الذين آتيناهم الكتاب﴾	٣٢٤	الآية ٣٨ـ ﴿ وما من دابة فى الأرض﴾	٣٤٨
الآية ٢١ـ ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾	٣٢٦	الآية ٣٩ ـ ﴿ والذين كذبوا بآياتنا﴾	٣٥٠
الآية٢٢ـ ﴿ويوم نحشرهم جميعا﴾	٣٢٧	الآية ٤٠ ـ ﴿ قل أرأيتكم﴾	٣٥١
الآية ٢٣ـ ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾	٣٢٩	الآية ٤١ ـ ﴿ بل إياه تدعون﴾	٣٥٢
الآية ٢٤ـ ﴿انظر كيف كذبوا﴾	٣٣٠	الآية ٤٢ـ ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم﴾	٣٥٣
الآية ٢٥ـ ﴿ ومنهم من يستمع إليك﴾	٣٣١	الآية ٤٣ ـ ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا﴾	٣٥٣
الآية ٢٦ ـ ﴿وهم ينهون عنه﴾	٣٣٣	الآية ٤٤ـ ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾	٣٥٤
الآية ٢٧ ـ ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾	٣٣٤	الآية ٤٥ـ ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾	٣٥٥
الآية ٢٨ـ ﴿ بل بدا لهم﴾	٣٣٥	الآية ٤٦ـ ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم﴾	٣٥٦
الآية ٢٩ـ ﴿وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا	٣٣٦		
الآية ٣٠ ـ ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم﴾	٣٣٧		
الآية ٣١ـ ﴿ قد خسر الذين كذبوا ﴾	٣٣٨		

تم الفهرس